

صَلَاةُ الْفَرِيدِ  
فِي تَقْرِيرِ الْقُلُوبِ

الْمَدِينَةُ

السَّيِّدُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ







**ضياء الفرقان**  
**فی**  
**تفسير القرآن**  
**جلد ۶**

لِمُؤَلَّفِهِ سید محمد تقی النّقوی



سرشناسه	: نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸ .
عنوان و نام پدیدآور	: ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن / لمؤلفه محمدتقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر	: تهران: قائن، ۱۳۹۵.
مشخصات ظاهری	: ۱۸ج.
شابک	: دوره 7-24-978-964-8981-50-6 ؛ ج. ۶: 978-964-8981-50-6
وضعیت فهرست نویسی	: فیپا.
یادداشت	: عربی.
موضوع	: تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
موضوع	: Qur'an - - Shiite hermeneutics - - 20th century :
رده‌بندی کنگره	: ۱۳۹۵ض ۹۸/۷۷ BP
رده‌بندی دیوبندی	: ۲۹۷/۱۷۹ :
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۴۰۴۹۵۲

## ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد السادس

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمية: ۱۰۰۰

الطبعة: الأول

تاریخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. - ۱۴۳۸ ق.

تنسيق الصفحات: محسن نقوی

لیتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزیع: تهران - شارع انقلاب - بازارچه کتاب - رقم ۱۰ - دارالکتب الاسلامیه



شابک: ۶ - ۵۰ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

شابک دوره: ۷ - ۲۴ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

٧	..... الجزء السادس
٩	..... سورة النَّسَاء
٨٥	..... سورة المائدة
٣٦٩	..... الجزء السابع
٤٦١	..... سورة الانعام
٧٦٥	..... الفهرست





**الجزء**

**السادس**





لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا (١٤٩) إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢)

## ◀ اللّٰغَة

بِالسُّوءِ: السُّوء بضم السين كل ما يَغَم الإنسان من الأمور الدُّنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجية من فوات مالٍ وجاءٍ و فقد حميم، قاله الرَّاغب في المفردات.  
مُهِينًا بضم الميم من أَهَانَ يَهِينُ، والهَوْن، الذَّلَّة والحقارة.

## ◀ الإعراب

بِالسُّوءِ، الباء تتعلّق بالمصدر وفي موضعها وجهان:  
أحدهما: نصب وتقديره لا يحب أن تجهروا بالسُّوء.



الثاني: رفع وتقديره، أن يجهروا بالسُّوء.

مِنَ الْقَوْلِ حال من السُّوءِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ إستثناء منقطع في موضع، نصب هو متصل والمعنى لا يحب أن تجهروا بالسُّوء إِلَّا مَنْ يظلم فيجهر أي يدعو الله بكشف السُّوء الذي أصابه فعلى هذا يجوز أن يكون في موضع نصب وأن يكون في موضع رفع بدلاً من المحذوف اذ التقدير أن يجهر أحد وقرأ، ظلم، بفتح الظاء على تسمية الفاعل وهو منقطع، والتقدير لكن الظالم فإنه مفسوح لمن ظلمه أن ينتصف منه وهي قراءة ضعيفة حقاً مصدر أي حق ذلك حقاً و يجوز أن يكون حالاً أي أولئك هم الكافرون من غير شك مُهيناً حال والباقي واضح لا يحتاج إلى البيان.

### ◀ التفسير

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا اختلفوا في معنى الكلام من جهة النظم فقال بعضهم أن قوله: لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ قد تم الكلام به ثم قوله عز وجل: إِلَّا مَنْ ظَلِمَ إستثناء ليس من الأول في موضع نصب أي لكن مَنْ ظلم فله أن يقول ظلمي فلان و عليه فيكون (مَنْ) إستثناء من الفعل وان لم يكن قبل الإستثناء شيء ظاهر يستثنى منه كما قال تعالى: لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ، إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ<sup>(١)</sup> و كقولهم اتى لا أكره الخصومة والمراء اللهم إلا رجلاً يريد الله بذلك ولم يذكر فيه شيء من الأشياء نقله الشيخ في التبيان عن الفراء ثم قال، وقال آخرون معناه لا يحب الله الجهر بالسُّوء من القول إِلَّا مَنْ ظلم فيخبر بما نيل منه ذهب إليه مجاهد.

وقال آخرون إِلَّا مَنْ ظلم فأنتصر من ظلمه فأذن له فيه و ذهب إليه السدي وهو المروزي عن أبي جعفر عليه السلام و (مَنْ) على هذا يكون في

موضع نصب على إنقطاعه من الأول و من شأن العرب أن تنصب ما بعد الإستثناء في المنقطع أي ما بعد (إلا) و عليه فالمعنى لا يحب الله الجهر بالسوء من القول.

لكن من ظلم فلا حرج عليه أن يخبر بما نبيل منه ينتصر ممّن ظلمه، هذا كله على قراءة الضم و أمّا من فتح الظاء قال تأويله لا يحب الله الجهر بالسوء من القول، إلا من ظلم، فلا بأس أن يجهر له بالسوء من القول ذهب إليه ابن زيد قال يجهر له بالسوء حتّى يفزع (مّن) على هذا القول في موضع نصب والمعنى لا يحب الله الجهر أن يجهر أحد لأحد من المنافقين بالسوء من القول إلا من ظلم منهم فأقام على نفاقه فأنه لا بأس بالجهر بالسوء من القوم و قال الزجاج وفيه وجه آخر لم يذكره النحويون و هو أن يكون إلا من ظلم، لكن الظالم أجهر و اله بالسوء من القول و هو إستثناء ليس من الأول، و قال البلخي يجوز أن يكون، إلا، بمعنى الواو كأنه قال: لا يحب الله الجهر بالسوء و لا من ظلم فأنه لا يحب الجهر بالسوء منه والأقوال منهم في المقام كثيرة.

نقل القرطبي في تفسيره لهذه الآية القول بالفتح في الظاء واللام و قال هي قراءة زيد بن أسلم و كان من العلماء بالقرآن بالمدينة بعد محمد بن كعب القرطبي و قراءة ابن أبي إسحاق و الضحاك و ابن عباس و ابن جبير و عطاء بن السائب.

فالمعنى إلا من ظلم في فعل أو قول، فأجهر و اله بالسوء من القول في معنى النهي عن فعله و التوبيخ له و الرد عليه، المعنى لا يحب الله أن يقال لمن تاب من النفاق.

أست نافقت، إلا من ظلم، أي إلا من أقام على النفاق و دلّ على هذا قوله تعالى: **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا** قال ابن زيد و ذلك أنه سبحانه لما أخبر عن المنافقين أنهم في الدرك الأسفل من النار كان ذلك جهراً بسوء من القول ثم قال لهم بعد ذلك، ما يفعل الله بعذابكم، على معنى التأنيس و الإستدعاء الى الشكر

والإيمان، ثم قال للمؤمنين، لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، في إقامته على التفاف فأنه يقال له، ألسنت المنافق الكافر الذي لك في الآخرة الدرك الأسفل من النار ونحو هذا من القول انتهى كلام القرطبي.

**أقول الحق أن الإستثناء في قوله: إِلَّا مَنْ ظَلِمَ لا يخلو من وجهين:**  
**أحدهما:** أنه متصل وعليه فهو إما من باب حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه والتقدير إلا جهر من ظلم، فحذف الجهر أو من باب إقامة المصدر مقام الفاعل أي لا يحب الله المجاهر بالسوء إلا من ظلم.  
**ثانيها:** أن الإستثناء منفصل أو منقطع، والمعنى لا يحب الله الجهر بالسوء من القول لكن المظلوم له أن يجهر بظلامته، والذي يقوي في النفس في المقام هو الثاني أي أن الإستثناء منقطع وذلك.  
 أما أولاً: فلاستقامة المعنى.

ثانياً: لأن الحذف والتقدير خلاف الأصل وهو على الأول يحتاج إلى الحذف أي حذف المضاف وإذا كان المراد بالإستثناء هو الثاني أعني به الإنقطاع فالآية دالة على جواز الجهر بالسوء من القول للمظلوم فأنه حق للمظلوم الذي لا يقدر على دفع الظلم عن نفسه بل قد يجب عليه الجهر به لأنه يوجب تعريف الظالم في الناس ليكونوا على حذر منه ولا يعتمدون عليه والسريه هو أن الظالم بظلمه يصير متجاهراً متظاهراً بفسقه وقد ثبت أن المتجاهر بالفسق لا غيبة له في فسقه بمعنى أنها لا تحرم وبذلك قد ظهر لك أن المراد بالسوء من القول ليس مطلق السوء منه فيقول في حقه ما شاء بل المراد منه ذكره بعنوان الظالم الذي تعدى على الغير وهذا القدر مما لا محذور فيه شرعاً وعليه فالآية بصدد تأسيس أصل من الأصول ولا إختصاص لها بالمنافقين فقط وأن كانت شاملة لهم بعمومها فالآية قد دلت بمنطوقها على جواز الجهر بالسوء من القول كما عرفت وبمفهومها على عدم جوازه في غير المظلوم وقوله: **وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا** معناه سميعاً لما يجهرون من سوء

القول، عليمًا، بما تخفن من سوء قولكم وكلامكم واللّه تعالى يجازي المُسيئ بِإِسَاءَتِهِ والمحسن بِإِحْسَانِهِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِّمَّا فِي قُلُوبِكُمْ وَضَمَائِرِكُمْ:

إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوا أَوْ تَغْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا  
قال المفسرون هذا خطاب لجميع المكلفين والمعنى أن تظهروا خيرًا، أي حسنًا جميلًا من القول لمن أحسن اليكم شكرًا على إنعامه عليكم، أو تخفوه أي تتركوا إظهاره فلا تبدوه، أو تغفوا عن سوء، أي تصفحوا عمن أساء اليكم عن إسأته فلا تجهروا له بالسوء من القول الذي أذنت لكم أن تظهروا وتجهروا به فإن الله كان عفوًا، أي أنه لم يزل كان صفوحًا عن خلقه يصفح لهم عن معاصيهم.

قديرًا، على الإنتقام منهم ومن المعلوم أن الصّفح عن الإنتقام مع القدرة عليه يكون أعظم للمدح وأليق به.

قال بعض المفسرين أن معاهد الخيرات على كثرتها محصورة في أمرين: صدق مع الحق، وخلق مع الخلق.

والذي يتعلّق بالخلق محصور في قسمين:

إيصال نفع اليهم، ودفع ضرر عنهم، فقوله: إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوا إشارة إلى إيصال النفع اليهم وقوله: أَوْ تَغْفُوا إشارة إلى دفع الضرر عنهم فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر انتهى كلامه.

أقول والذي يظهر من الآية الشريفة هو علمه تعالى بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها وعفوه تعالى عمن يعفو عن المسي في موضعه وذلك لأن الله مُتَّصِفٌ بِالْعَفْوِ عَنِ الْمُذْنِبِ فَلَا مُحَالَةَ يَحِبُّ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ:

قال الله تعالى: وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ<sup>(٢)</sup>.

وقال رسول الله ﷺ: أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌ وَيُحِبُّ الْعَفْوَ والآيات والأخبار في مدح العفو أكثر من أن تُحصى وفيما ذكرناه كفاية: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ قِيلَ الْمَرَاد بِهِمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ بَعْدَ ظُهُورِ الْبَيِّنَاتِ وَكَانُوا يَرِيدُونَ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ اللَّهِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ إِلَى خَلْقِهِ وَأَوْحَى إِلَيْهِمْ وَزَعَمَهُمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ عَلَى اللَّهِ وَهَذَا هُوَ الْمَرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ.

ولذلك قال: وَ يَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ أَي أَنَّهُمْ يَقُولُونَ نُصَدِّقُ بِهَذَا وَ نَكْذِبُ بِهَذَا، كَمَا فَعَلَتِ الْيَهُودُ صَدَّقُوا مُوسَى وَ مِنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَ كَذَّبُوا عِيسَى وَ مُحَمَّدًا، وَ كَمَا فَعَلَتِ النَّصَارَى صَدَّقُوا عِيسَى وَ مِنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَ كَذَّبُوا مُحَمَّدًا.

وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا يَعْنِي يَرِيدُ الْمَفْرُقُونَ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ قَوْلِهِمْ: نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ سَبِيلًا، أَي طَرِيقًا إِلَى الضَّلَالَةِ الَّتِي أَحْدَثُوهَا وَ الْبَدْعَةَ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا وَ يَدْعُونَ جَهَالَ النَّاسِ إِلَيْهِ

وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى طَرِيقًا وَسَطًا بَيْنَ الْكُفْرِ وَ الْإِيمَانِ مَعَ أَنَّهُ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمَا وَاقِعًا لَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ أَكْذَبُ قَوْلُهُ: هُمُ لَثَلَايَتُهُمْ أَنَّ ذَلِكَ الْإِيمَانُ يَنْفَعُهُمْ وَ أَكْذَبُ قَوْلُهُ: حَقًّا وَهُوَ تَأْكِيدُ لِمُضْمَنِ الْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ كَمَا تَقُولُ هَذَا عَبْدُ اللَّهِ حَقًّا، أَي حَقٌّ ذَلِكَ حَقًّا أَوْ هُوَ نَعْتٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ أَي كُفْرًا حَقًّا أَي ثَابِتًا يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ أَوْ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ عَلَى مَذْهَبِ سَيِّبُوهِ، قَالَ الْوَاحِدِيُّ الْكُفْرُ لَا يَكُونُ حَقًّا بَوَاحٍ مِنَ الْوُجُوهِ وَ قَدْ أَجَابُوا عَنْهُ بِأَنَّ الْمَرَادَ بِهَذَا الْحَقِّ الْكَامِلِ لَا الْحَقَّ الْمَقَابِلَ لِلْبَاطِلِ وَ عَلَيْهِ فَالْمَعْنَى أَوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ كُفْرًا كَامِلًا ثَابِتًا حَقًّا يَقِينًا.

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا أَيِ إِعْتَدْنَا لِلْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ

في الآية، أو إعتدنا لجميع الكفار من أي صنف كان عذاباً مهيناً، في الآخرة أي عذاباً يهينهم ويذلهم مخلدون في ذلك.

قال بعض المفسرين وأما قال: **أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا** وأن كان غيرهم أيضاً كافراً حقاً على وجه التأكيد لئلا يظن أنهم ليسوا كافراً، لقولهم: **تُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ**.

وقال الآخرون أنه تعالى قال ذلك إستعظاماً لكفرهم، كما قال في وصف المؤمنين: **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** الى قوله **أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا**<sup>(١)</sup> وقد يكون مؤمناً من لم يلحق هذه الخصال بلا خلاف ذكره في التبيان انتهى.

لما ذكر الله تعالى حكم من فرّق بين الله ورسله والإيمان ببعض والكفر ببعض وأنهم الكافرون حقاً، وأوعدهم العذاب المهين، أخبر بعد ذلك عمّن آمن بالله ورسله وصدقهم وأقرّ بنبوّتهم ولم يفرّق بين أحد منهم بل آمن بجميعهم فقال:

**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ** أي لم يفرّقوا بين الأنبياء والرسل في الإيمان بهم ثم أشار الله تعالى الى ما وعدهم على إيمانهم بهم فقال: **أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** أي متفضلاً عليهم بالهداية الى سبيل الحق موقفاً لهم لما فيه خلاص رقابهم من عقاب النار وقيل المعنى أنه وعدهم بالثواب ثم أخبر بعد ذلك بالتجاوز عن سيئاتهم والعفو عنها والغفران لها فأمر الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً وهو واضح.



يَسْتَلْكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنْ  
السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا  
أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ  
اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ  
فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا  
(١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ  
ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي  
السَّبْتِ وَآخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فِيمَا  
نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَكَتَلَهُمْ  
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ  
اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥)  
وَكَفَّرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا  
(١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ  
مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ  
شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ  
مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ  
يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا  
حَكِيمًا (١٥٨)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

اللغة

جَهْرَةً، الجهر يقال لظهور الشيء بإفراط الحاسة ومنه جهر البئر واجتهرها  
إذا ظهر ماؤها، وقيل ما في القوم أحد يجهر عني.

الْصَّاعِقَةُ، الصَّاعِقَةُ وَالصَّاعِقَةُ يَتَقَارِبَانِ وَهُمَا الْهَذَّةُ الْكَبِيرَةُ إِلَّا أَنَّ الصَّقْعَ  
يَقَالُ فِي الْأَجْسَامِ الْعُلَوِيَّةِ.  
أَلْعَجَلُ، بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَسُكُونِ الْجِيمِ وَاللَّامُ وَلَدُ الْبَقْرَةِ لِتَصَوُّرِ عَجَلَتِهَا الَّتِي  
تَعْدَمُ مِنْهُ إِذَا ثَارَ ثَوْرًا.  
أَلْطُورُ، بَضَمُ الطَّاءِ إِسْمٌ لَجَبَلٍ مُخْصُوصٍ وَقِيلَ إِسْمٌ لِكُلِّ جَبَلٍ وَقِيلَ هُوَ  
جَبَلٌ مُحِيطٌ بِالْأَرْضِ.  
عَلِظًا، الْغِلْظَةُ ضِدُّ الرِّقَّةِ وَأَصْلُهُ أَنْ يَسْتَعْمَلَ فِي الْأَجْسَامِ لَكِنْ قَدْ يَسْتَعَارُ  
لِلْمَعَانِي كَالْكَبِيرِ وَالْكَثِيرِ.  
عُلْفٌ، الْعُلْفُ بَضَمُ الْغَيْنِ وَسُكُونِ اللَّامِ وَالْفَاءُ جَمْعُ غُلَافٍ وَالْأَصْلُ فِيهِ  
تَحْرِيكُ اللَّامِ فَخَفَّفَ بِالتَّسْكِينِ كَمَا قِيلَ كُتِبَ وَرُسِلَ، بِتَسْكِينِ التَّاءِ وَالسَّيْنِ، وَ  
قِيلَ أَنَّهُ جَمْعُ أَغْلَفٍ وَهُوَ الْمَتَغَطِّيُّ بِالْغُلَافِ أَيْ بِالْغَطَاءِ.  
بُهْتَانًا، الْبُهْتَانُ بَضَمُ الْبَاءِ الْكَذِبُ الَّذِي يَبْهَتُ سَامِعَهُ لَفْظَاتِهِ.

### ◀ الإعراب

جَهْرَةً مُصَدَّرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَيْ مُجَاهِرِينَ وَقِيلَ التَّقْدِيرُ قَوْلًا جَهْرَةً وَ  
قِيلَ رُؤْيَا جَهْرَةً وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ، فَوْقَهُمْ، ظَرْفًا، لِرَفْعِنَا وَأَنْ يَكُونَ  
حَالًا مِنَ الطُّورِ بِمِثَاقِهِمْ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ مَتَّعِلٍ، بِرَفْعِنَا، تَقْدِيرُهُ بِنَقْضِ  
مِثَاقِهِمْ شُجْدًا حَالٌ فِيمَا نَقَضْنَاهُمْ قِيلَ، مَا زَائِدَةٌ، وَقِيلَ هِيَ نَكْرَةٌ تَامَةٌ وَنَقَضْنَاهُمْ  
بَدَلًا مِنْهَا، وَفِي تَعَلُّقِ الْبَاءِ. وَجِهَانُ:

أحدهما: هُوَ مَظْهَرٌ وَهُوَ قَوْلُهُ بَعْدَ ثَلَاثِ آيَاتٍ، حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ، وَقَوْلُهُ،  
فَبِظُلْمٍ، بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ، فَبِمَا نَقَضْنَاهُمْ وَأَفَادَ الْفَاءُ فِي الْبَدَلِ لِمَا حَالَ الْفَصْلُ.  
ثانيهما: أَنَّ الْمُتَّعِلَّ مَحْذُوفٌ وَالتَّقْدِيرُ، فَبِمَا نَقَضْنَاهُمْ مِثَاقَهُمْ، لَا يُؤْمِنُونَ وَ  
الْفَاءُ زَائِدَةٌ بُهْتَانًا مُصَدَّرٌ يَعْمَلُ فِيهِ الْقَوْلُ لِأَنَّهُ ضَرْبٌ مِنْهُ فَهُوَ كَقَوْلِهِمْ قَعْدُ  
الْقَرْفِصَاءِ فَهُوَ عَلَى هَذَا بِمِثَابَةِ الْقَوْلِ فِي الْإِنْتِصَابِ وَقَالَ قَوْمٌ تَقْدِيرُهُ، قَوْلًا



بهتاناً، وقيل هو مصدر في موضع الحال أي مباحثين يَقيناً صفة مصدر محذوف أي قتلاً يقيناً أو علماً يقيناً ويجوز أن يكون مصدراً من غير لفظ الفعل بل من معناه لأنَّ معنى، ما قتلوه، ما عملوا والباقي واضح.

### ◀ التفسير

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ لَا خِلافَ فِي أَنْ الْخِطَابَ لِلنَّبِيِّ ﷺ والمراد بأهل الكتاب اليهود وإختلفوا في معنى الكتاب الذي سأل اليهود محمداً ﷺ أن ينزل عليهم من السماء على أقوال: أحدها: أنهم سألوا أن ينزل عليهم كتاباً من السماء مكتوباً كما جاء موسى بنى إسرائيل بالتوراة مكتوبة من عند الله في الألواح ذهب اليه السدي ومحمد بن كعب القرطبي.

ثانيها: ما ذهب اليه قتادة وهو أن ينزل عليهم كتاباً خاصاً لهم.

ثالثها: ما إختاره الطبري وابن جريح وهو أنهم سألوا محمداً ﷺ أن ينزل على رجالٍ منهم بأعيانهم كتاباً أو كتباً بالأمر بتصديقه وإتباعه.

رابعها: أن السؤال كان على وجه التّعنت وإلّا فكان فيما أنزله الله من القرآن دلالة واضحة على نبوته فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً أَيَّ أَنْ يَهُود سَأَلُوا مُوسَى شَيْئاً أَكْبَرَ وَأَعْظَمَ مِمَّا سَأَلُوا مِنْكَ وَهُوَ أَنَّهُمْ سَأَلُوا مُوسَى الرَّؤْيَةَ جَهْرَةً فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً، أَي بِحَاسَةِ الْبَصَرِ كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً<sup>(١)</sup>.

وقد مرّ الكلام في الرؤيّة وكيفيتها في سورة البقرة وأقمنا البراهين على استحالتها بما لا مزيد عليه وسيأتي الكلام فيها أيضاً في المستقبل إن شاء الله ونقلوا عن ابن عباس أنه قال في الكلام تقديم وتأخير وتقديره أنما قالوا، جَهْرَةً أَرِنَا اللَّهَ، وهو الذي إختاره أبو عبيدة وقال غيره أراد رؤيّة بالبصر ظاهرة

نبأ القرآن في تفسير

جزء ٦

الجزء السادس

منكشفة لأن من علم الله فقد رآه وهو إختيار الزجاج لقوله تعالى: لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً.

أقول البراهين العقلية أنما دلت على استحالة الرؤية إذا كانت بحاسة البصر وهو المراد بقوله: جَهْرَةً.

وأما إذا كانت بالقلب من طريق دلالة الآثار على المؤثر فلا استحالة فيها لقول أمير المؤمنين عليه السلام: لَمْ أَعْبُدْ رَبًّا لَمْ أَرَهُ، ولأجل ذلك قَيَّدَ الكلام بقوله: جَهْرَةً معلوم لا كلام فيه.

فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ يُظْلِمُهُمُ الْغَاءُ للجزاء أي أَنَّ الصَّاعِقَةَ كانت جزاء سؤالهم ولذلك أخذتهم.

وأعلم أَنَّ الصَّاعِقَةَ وَالصَّاعِقَةَ يتقاربان وهما الهذّة الكبيرة إلا أَنَّ الصَّعْصَعِ يقال في الأجسام العلوية قال بعضهم الصَّاعِقَةُ على ثلاث أوجه:

الأول: الموت كقوله تعالى: فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ <sup>(١)</sup> وقوله تعالى: فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ يُظْلِمُهُمُ.

الثاني: العذاب، كقوله تعالى: فَقُلْ أُنذَرْتُكُمْ ضَاعِقَةً مِثْلَ ضَاعِقَةِ غَادٍ وَتَمُودَ <sup>(٢)</sup>.

الثالث: النار كقوله تعالى: وَ يُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ <sup>(٣)</sup>.

قال الزاغب في المفردات بعد نقله ما نقلناه من الوجوه، ما ذكرناه فهو أشياء حاصلة من الصَّاعِقَةِ فَأَنَّهَا هي الصَّوْتُ الشَّدِيدُ من الجَوْثِ ثُمَّ يكون منه نار فقط أو عذاب أو موت وهي في ذاتها شيء واحد وهذه الأشياء تأثيرات منها.

أقول ما ذكره الزاغب حق لا مرية فيه فأنَّ الصَّاعِقَةَ لها مراتب شدة وضعف وبذلك تتفاوت مراتبها وكيف كانت فالمراد بها في المقام الموت الحاصل بسببها وذلك لأنهم ماتوا فأحياهم الله من صقعتهم وفي قوله: يُظْلِمُهُمُ إشارة

الى أَنَّهُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِسُؤَالِهِمْ مُوسَى أَنْ يَرِيَهُمُ اللَّهُ عَيَانًا وَجَهْرَةً فَأَنْ طَلَبَ  
الرُّؤْيَا عَيَانًا ظَلَمُوا لِأَنَّهُ مُسْتَحِيلٌ عَلَيْهِ تَعَالَى.

قال الزمخشري في قوله: **بِظُلْمِهِمْ**، أي بسبب سُؤَالِهِمُ الرُّؤْيَا ولو طلبوا أمراً  
جائزاً لما سَمَوْا ظالمين ولما أخذتهم الصَّاعقة كما سأل إبراهيم عليه السلام أَنْ يَرِيَهُ  
إِحْيَاءَ الْمَوْتَى فلم يَسْمَهُ ظالماً ولا رماه بالصَّاعقة فتَبَّتْ لِلْمَشَبَّهَةِ وَرَمِيَا  
بِالصَّوْأَقِ انْتَهَى كَلَامُهُ.

ونحن نقول آمين خلافاً للأشاعرة من أهل السَّنة القائلين بجواز الرُّؤْيَا في  
الأخرة وذلك لأنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا مُحَالاً عَقْلاً لَكِنَّهُ مَمْتَنِعٌ مِنْ جِهَةِ  
الشَّرْعِ إِذْ قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِ أَنَّهُ لَا يَرَى فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَأَمَّا الرُّؤْيَا فِي الْآخِرَةِ ثَابِتَةٌ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالتَّوَاتُرِ وَهِيَ جَائِزَةٌ عَقْلاً.  
وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ لَوْ لَمْ تَكُنِ الرُّؤْيَا مُحَالاً عَقْلاً فَكَيْفَ تَكُونُ مَمْتَنَعَةً شَرْعاً  
هَذَا أَوَّلًا.

وَأَمَّا ثَانِيًا، فَأَيْنَ إِخْبَارُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِ بَعْدَ جَوَازِهَا فِي الدُّنْيَا وَ  
جَوَازِهَا فِي الْآخِرَةِ وَأَعْجَبَ مِنْهُ أَنَّهُمْ أَدْعَوُا التَّوَاتُرَ مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَقَامِ خَبَرٌ  
وَاحِدٌ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فَضْلاً عَنِ التَّوَاتُرِ، أَلَا يَكْفِيهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: **لَا تُذَكِّرُكَ الْأُبْصَارُ وَهُوَ يُذَكِّرُكَ الْأُبْصَارُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** <sup>(١)</sup> مضافاً إلى الأدلة القاطعة والبراهين  
السَّاطِعة الجَلِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى الْإِسْتِحَالَةِ وَقَدْ مَرَّ شَطْرُهَا مِنْهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَ  
لِلْبَحْثِ فِيهَا مَقَامٌ آخَرٌ ثُمَّ **أَتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ** أَي  
بَعْدَ مَا أَحْيَاهُمُ اللَّهُ وَبَعَثَهُمْ مِنْ صَقْعَتِهِمْ **إِتَّخَذُوا الْعِجْلَ** الَّذِي كَانَ السَّامِرِيُّ  
أَصْلَهُمْ بِهِ وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ فِي كَيْفِيَةِ الْقَضِيَّةِ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ مَفْصَلاً عِنْدَ قَوْلِهِ  
تَعَالَى: **وَإِعْذَابُ مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً** <sup>(٢)</sup> والمراد بالبَيِّنَاتِ الدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَاتِ  
عَلَى صَحَّةِ نَبْوَةِ مُوسَى كَالْعَصَا وَالْيَدِ وَجَوَازِ الْبَحْرِ وَغَرَقِ فِرْعَوْنَ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ  
مِنَ الْآيَاتِ وَقِيلَ الْمُرَادُ بِالْبَيِّنَاتِ الدَّلَائِلَ الْوَاضِحَةَ عَلَى إِسْتِحَالَةِ الرُّؤْيَا، وَ

إصعاق الله لهم ثم احياءهم بعد مماتهم وقيل غير ذلك.  
أقول كل ذلك ممّا لا بأس به والأحسن أن يقال أنّ البيّنات عبارة عمّا يثبت  
نبوة موسى.

سواء كانت من المعجزات الكونية الخارجيّة أم كانت من الدلائل العقلية و  
في قوله: مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيِّنَاتُ إشارة الى أنّ إتخاذهم العجل كان بعد  
إتمام الحجّة عليهم من الله تعالى وهي البيّنات الدالات على صحّة نبوة  
موسى وكونه على بينة من ربه وبذلك صاروا مستحقين للتّعير والتّقييح وأما  
قبل تماميّة الحجّة فليس الأمر كذلك ولذلك يقال أنّ العاصي بعد الحجّة  
يكون معانداً، ذلك كلّه فقد عفى الله عنهم لتكون الحجّة عليهم أتم وأكمل و  
الى هذا المعنى أشار بقوله: فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ أَي عفونا عن ذلك الفعل القبيح  
الذي صدر عنهم إتخاذهم العجل إلهاً ومعبوداً لأنفسهم وَآتَيْنَا مُوسَى  
سُلْطَانًا مُبِينًا قيل معناه، أعطينا موسى حجة ظاهرة تبين عن صدقه وحقيقة  
نبوته وتلك الحجّة هي التي أتاه الله أيّاه.

وقال بعضهم في معناه يعني أنّ قوم موسى وأن كانوا قد بالغوا في أظهر  
اللجاج والعناد معه لكنّا نصرناه وقوّيناه فعظم أمره وضعف خصمه وفيه  
بشارة للرّسول على سبيل الرّمز والتّنبية بأنّ هؤلاء الكفّار وأن كانوا يعاندونه  
فأنّه بالأخيرة استولي عليهم واقهرهم.

وهنا قول ثالث، وهو أنّ المعنى آتينا موسى حجةً وتسليطاً واستيلاءً ظاهراً  
عليهم حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم حتّى يتاب عليهم فأطاعوه، والكلّ  
محتمل.

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ قِيلَ أَنَّ الطُّورَ إسم لكلّ جبل وقيل هو جبل  
مخصوص وفي الشّام جبل عرف به ولزمه بعد الإسم وهو طور سيناء وكيف  
كان فقد اختلفوا في رفع الطُّور فوقهم على أقوال:

**أَحَدَهَا:** أَنَّهُ تَعَالَى رَفَعَ فَوْقَهُم الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ أَعْطَوْا المِيثَاقَ عَلَى أَنْ لَا يَرْجِعُوا عَنِ الدِّينِ ثُمَّ رَجَعُوا عَنْهُ أَوْ هَمُّوا بِالرَّجُوعِ فَرَفَعَ اللَّهُ فَوْقَهُم الطُّورَ حَتَّى يَخَافُوا فَلَا يَنْقُضُوا المِيثَاقَ.

**الثَّانِي:** أَنَّهُمْ إِمْتَنَعُوا عَنْ قَبُولِ شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ فَرَفَعَ اللَّهُ الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ حَتَّى قَبِلُوا وَصَارَ الْمَعْنَى، وَرَفَعْنَا فَوْقَهُم الطُّورَ لِأَجْلِ أَنْ يَعْطُوا المِيثَاقَ بِقَبُولِ الدِّينِ.

**الثَّالِث:** أَنَّهُمْ أَعْطَوْا المِيثَاقَ عَلَى أَنَّهُمْ إِنْ هَمُّوا بِالرَّجُوعِ عَنِ الدِّينِ فَاللَّهُ يَعْذِّبُهُمْ بِأَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ، فَلَمَّا هَمُّوا بِتَرْكِ الدِّينِ أَظَّلَ اللَّهُ الطُّورَ عَلَيْهِمُ الْمَرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ.**

**الرَّابِع:** أَنَّهُمْ لَمَّا إِمْتَنَعُوا مِنَ الْعَمَلِ بِمَا فِي التَّوْرَةِ وَقَبُولِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مُوسَى بِمِيثَاقِهِمْ يَعْنِي بِمَا أَعْطَا اللَّهُ مِنَ المِيثَاقِ وَالْعَهْدِ لِيَعْمَلْنَ بِمَا فِي التَّوْرَةِ.

رَفَعَ اللَّهُ فَوْقَهُمُ الْجَبَلَ وَ قُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَ أَحَدْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِظًا الْمَرَادُ بِالْبَابِ الَّذِي أَمَرُوا بِالْدُخُولِ فِيهِ هُوَ بَابُ حِطَّةٍ حِينَ أَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَدْخُلُوا فِيهِ سَجُودًا فَدَخَلُوا عَلَى أَسْتَاهِهِمْ يَزْحَفُونَ وَقَدْ مَرَّ بَيَانُهُ فِي الْبَقَرَةِ مَفْصَلًا وَأَمَّا قَوْلُهُ: **لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ** أَيِ لَا تَتَجَاوَزُوا فِي يَوْمِ السَّبْتِ مَا أُبِيحَ لَكُمْ إِلَى مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ قِيلَ أَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ لَا يَأْكُلُوا الْحَيْثَانِ يَوْمَ السَّبْتِ وَلَا يَعْزِضُوا لَهَا وَأَحَلَّ لَهُمْ مَا عَدَاهُ، وَقِيلَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَاهُمْ عَنِ الْعَمَلِ وَالْكَسْبِ يَوْمَ السَّبْتِ وَ **أَحَدْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِظًا** قِيلَ هُوَ المِيثَاقُ الْأَوَّلُ فِي قَوْلِهِ: **بِمِيثَاقِهِمْ** وَ وَصَفَ بِالْغَلْظِ لِلتَّأْكِيدِ وَ هُوَ الْمَأْخُذُ عَلَى لِسَانِ مُوسَى وَ هَارُونَ أَنْ يَأْخُذُوا.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

التَّوْرَةَ بِقُوَّةٍ وَيَعْمَلُوا بِجَمِيعِ مَا فِيهَا وَيُوصِلُوهُ إِلَى أَبْنَائِهِمْ، وَقِيلَ هَذَا المِيثَاقُ غَيْرُ الْأَوَّلِ وَ هُوَ المِيثَاقُ الثَّانِي الَّذِي أَخَذَ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ بِالتَّصَدِيقِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْإِيمَانُ بِهِ الْمَشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ**

لَمَّا أَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ<sup>(١)</sup> وَفِي الْمَقَامِ قَوْلٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ الْمِيثَاقَ غَيْرُ الْأَوَّلِ إِلَّا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ فِي الْمَقَامِ هُوَ الْعَهْدُ الْمُؤَكَّدُ بِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَيَنْتَهُونَ عَمَّا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَفَعَ اللَّهُ فَوْقَهُمُ الْجِبَلَ فَقِيلَ لَهُمْ أَمَّا أَنْ تَأْخُذُوا التَّوْرَةَ أَوْ يُلْقَى عَلَيْكُمْ الْجِبَلَ، وَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ رَفَعَ اللَّهُ الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ ظِلَالاً لَهُمْ مِنَ الشَّمْسِ بِمِثَاقِهِمْ أَيْ بِعَهْدِهِمْ جِزَاءً لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

أَقُولُ فَعَلَى قَوْلِ أَبِي مُسْلِمٍ لَيْسَتْ الْآيَةُ فِي مَقَامِ التَّوْبِيخِ وَالذَّمِّ كَمَا عَلَيْهِ قَاطِبَةُ الْمَفْسِّرِينَ بَلْ نَزَلَتْ فِي مَقَامِ الْمَدْحِ وَالرَّحْمَةِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ الْعَفْوِ عَمَّا فَعَلُوهُ مِنَ الذَّنْبِ فَكَأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى عَفَوْنَا عَنْهُمْ ثُمَّ رَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الْجِبَلَ ظِلَالاً لَهُمْ مِنَ الشَّمْسِ بِسَبَبِ مِثَاقِهِمْ وَعَهْدِهِمْ وَإِنَّمَا فَعَلْنَا ذَلِكَ جِزَاءً عَلَى مِثَاقِهِمْ وَعَمَلِهِمْ بِهِ ثُمَّ أَمَرْنَاَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا بَابَ حِطَّةٍ سَجْدًا وَأَنْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ عَلَيْهِ مِثَاقًا غَلِيظًا أَيْ مُؤَكَّدًا، هَذَا مُحْصَلُ كَلَامِ أَبِي مُسْلِمٍ وَلَكِنْ جَمُوهُورُ الْمَفْسِّرِينَ إِخْتَارُوا الْقَوْلَ الْأَوَّلَ فَأَقْضَى مَا أَنْتَ قَاضٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ.

فِيمَا نَقَضِهِمْ مِثَاقَهُمْ وَكُفِّرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ قَالَ الْفَرَاءُ وَالزَّجَاجُ وَغَيْرُهُمَا أَنَّ، مَا، زَائِدَةً وَالتَّقْدِيرُ، فَبِنَقْضِهِمْ، وَقَالَ الْآخَرُونَ أَنَّهَا بِمَعْنَى شَيْءٍ وَتَقْدِيرُهُ، فَبِشَيْءٍ، قَوْلُهُ وَنَقَضِهِمْ بَدَلَ مِنْهُ وَمَجْرُورٌ بِهِ وَمِثْلُهُ بَعَيْنُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: فَثَلَاثًا بِعَوَضَةٍ فَأَنَّ فِيهِ الْقَوْلَانِ أَيْضًا، فَالتَّقْدِيرُ فَبِنَقْضِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَمِثَاقِهِمْ، عَهْدُهُمُ الَّتِي عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهَا وَهِيَ أَنْ يَعْمَلُوا بِمَا فِي التَّوْرَةِ وَلَا يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ نَقَضُوا مِثَاقَهُمْ وَكَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى صَرَّحَ اللَّهُ بِهِ بَلْ لَمْ يَقْنَعُوا بِمَا فَعَلُوا مِنْ نَقْضِ الْمِثَاقِ وَالْكَفْرِ بِآيَاتِهِ وَكَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ كَمَا حَكَّى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا

أعلم أن موارد نقض الميثاق منهم أمور أشار الله تعالى إليها:  
أولها: كفرهم بآيات الله وإنكارهم لها وقد مر الكلام فيه.

ثانيها: قتلهم الأنبياء بغير حق أي بغير إستحقاق منهم بعد قيام الحجّة عليهم بصدقهم فقوله: بِغَيْرِ حَقٍّ تأكيد لقوله: وَ قَتَلَهُمُ الْآلِنِيَاءَ إِذْ لَا يَكُون قَتْلُهُمْ إِلَّا بِغَيْرِ حَقٍّ لأنهم لم يرتكبوا خطيئة استوجبوا بها القتل وإنما دعوهم الى الحق وقد مر الكلام في هذا المعنى في سورة البقرة.

ثالثها: قولهم: قُلُوبُنَا غُلْفٌ أي أوقية للعلم فلا حاجة بنا الى علم سوى ما عندنا فكذبوا الأنبياء بهذا القول هذا أن قلنا أن غلفاً جمع غلاف و الأصل غلف بتحريك اللام فحفف بالتسكين كما قيل في كتب و رسل بتسكين التاء و السين و أما على قول من ذهب الى أنه جمع أغلف وهو المتغطي بالغلاف أي بالغطاء فالمعنى قلوبنا في أغطية فهي لا تفقه ما تقولون نظيره ما حكى الله تعالى في قوله: وَ قَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ فِيْ أَذَانِنَا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ جَبَابٌ<sup>(١)</sup>.

ثم كذبهم الله في قوله: بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ أي أنهم كذبوا في قولهم: قُلُوبُنَا غُلْفٌ فأنها ليست بغلف و لا عليها أغطية بل طبع الله عليها أي على القلوب بكفرهم أي بسبب كفر هؤلاء والمراد بالطبع الوسم أي وسم الله عليها فأن الطبع معناه السمة و العلامة أي جعل الله تعالى على قلوب بعض الكفار علامة الكفر و ذلك لأنه تعالى قد علم من حالهم أنهم لا يؤمنون فيما بعد فجعل ذلك عقوبة على كفرهم الذي إرتكبوه في الحال و ليس هذا من الجبر كما زعمته الأشاعرة لأن العلم الأزلي ليس علّة الكفر و لا لشئ آخر وإنما هو عبارة عن إنكشاف الواقع وسيأتي البحث فيه مفصلاً في موضعه إنشاء الله فلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا أي أن الكفر لم يطبع على قلوب جميع الكفار بل طبع

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

الجلد السادس

على قلوب بعضهم ولذلك قال إلاً قليلاً أي أن أكثرهم لبا يؤمنون و قليلهم يؤمنون لقوله تعالى: وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ<sup>(١)</sup>.

رابعها: قوله: وَ يَكْفُرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا وَ الْبُهْتَانُ العظيم هو رميهم لها بالزنا بغير بيّنة ولا برهان و ستتكلّم فيه في قصّة مريم و عيسى عليهما السلام في موضعه قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية أنّهم لما نسبوا مريم الى الزنا لإنكارهم قدرة الله على خلق الولد من دون الأب و منكر قدرة الله على ذلك كافر لأنّه يلزمه أن يقول كلّ ولد فهو مسبوّق بوالد لا الى أوّل و ذلك يوجب القول بعدم العالم و الدّهر و الصّدع في وجود الصّانع المختار فالقوم أولاً أنكروا قدرة الله على خلق الولد من دون الأب.

ثانياً: نسبوا مريم الى الزنا فالمراد بقوله: وَ يَكْفُرِهِمْ هو إنكارهم قدرة الله و بقوله: وَ قَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا نسبتهم إياها الى الزنا و لما حصل التّغير لا جرم حسن العطف إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

و لقائل أن يقول إنكار القدرة في هذا المقام على قول الرّازي هو بعينه بهتانهم على مريم فأين حصل التّغير بين المعطوف و المعطوف عليه نعم لو تعلّق الإنكار بالقدرة الكلّية فقد حصل التّغير و أتى له بإثبات ذلك هذا مضافاً الى أنّهم لم ينكروا و إنّما أنكروا كون الولد من مريم و هو لا يدلّ على إنكار القدرة في حقّه تعالى و بعبارة أخرى للخصم أن يقول في جواب الرّازي نحن لا ننكر قدرة الله و أنّه قادر على كلّ شيء سواء كان من قبيل خلق الولد من دون الأب أم غير ذلك حتّى أنّه قادر على خلق الإنسان من دون الأبوين كما في قصّة آدم و حواء و إذا كان الله تعالى قادراً على خلق المخلوق من دونهما فهو قادر على خلق الولد من دون الأب بطريق أولى، و إنّما ننكر تعلّق القدرة بهذا الفرد و هو عيسى عليهما السلام و من المعلوم أن إنكار القدرة غير إنكار تعلّقها بشيء و ما



نحن فيه من قبيل الثاني دون الأول فالقول بأن البهتان يرجع الى إنكار القدرة تحكم محض وعلى المدعي الإثبات والعجب من الرأزي حيث لم يفرق بين إنكار الحكم وإنكار مصداقه الأول هو الكفر على القول به دون الثاني، والذي حصل لنا في المقام هو أن المراد بالكفر في قوله: وَبِكُفْرِهِمْ كفرهم بآيات الله، والبهتان في قوله: بُهْتَانًا عَظِيمًا نسبتهم مريم الى الزنا وأحدهما غير الآخر فحصل التغير، ويمكن أن يكون المراد بكفرهم، كفرهم بما رأوه في ولادة عيسى عليه السلام من المعجزات مثل تكلمه في المهد وهو خلاف العادة و قوله: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا<sup>(١)</sup> وغير ذلك مما دل على كون مريم بريئة مما نسبوه اليها و عليه فالمراد بالكفر هو معناه اللغوي أعني به التستر أي أنهم لما رأوا من المعجزات والبيّنات ظهر الحق عليهم و علموا أنّ عيسى صادق في قوله وأن أمه بريئة عما إنتحلوا اليها أنهم لم يقرّوا به بل أخفوه وأنكروه بالسنتهم وهذا هو الكفر اللغوي المعبر عنه بستر الحقائق و هو أحد أقسام الكفر كما مر في أوائل البقرة فتأمل.

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا.

قالوا أنّ هذه الآية عطف على ما قبلها وتقديره فيما نقضهم ميثاقهم و كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حقّ و قولهم قلوبنا غلقت وقولهم: إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ أنزلنا من العذاب وأوجبنا لهم من العقاب لأنّ أخبارهم أنهم قتلوا المسيح يقيناً و ما قتلوه كفر من حيث هو جرأة على الله في قتل أنبيائه و من دلت المعجرات على صدقه.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

الجلد السادس

أَقُولُ الْحَقَّ أَنَّ الْآيَةَ عطف على قوله: وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا  
 أَي أَنَّهُمْ قَالُوا فِي مَرْيَمَ كَذَا وَفِي عِيسَى كَذَا فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّا  
 قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَقَالَ: وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ  
 لَهُمْ أَيْ اِشْتَبَهَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ وَكِفَيَّةُ الْقَضِيَّةِ عَلَى مَا رَوَاهُ فِي الْكَافِي بِأَسَانَدِهِ عَنْ  
 أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ أَنَّ عِيسَى عليه السلام وَعَدَ أَصْحَابَهُ لَيْلَةَ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ فَأَجْتَمَعُوا  
 إِلَيْهِ عِنْدَ الْمَسَاءِ وَهُمْ إِثْنِي عَشَرَ رَجُلًا فَأَدْخَلَهُمْ بَيْتًا ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَيْنٍ  
 فِي زَاوِيَةِ الْبَيْتِ وَهُوَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ الْمَاءِ فَقَالَ عليه السلام أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ  
 رَافِعِي إِلَيْهِ السَّاعَةَ وَمُطَهِّرِي مِنَ الْيَهُودِ فَأَيْكُم يَلْقَى عَلَيْهِ شُبْحِي فَيَقْتُلُ وَ  
 يَصْلُبُ وَيَكُونُ مَعِي فِي دَرَجَتِي فَقَالَ شَابٌّ مِنْهُ أَنَا يَا رُوحَ اللَّهِ فَقَالَ عليه السلام فَأَنْتَ  
 هُوَذَا فَقَالَ لَهُمْ عِيسَى عليه السلام أَمَا أَنْ مِنْكُمْ لَمَنْ يَكْفُرُ بِي قَبْلَ أَنْ يَصْبِحَ إِثْنَتِي  
 عَشْرَةَ كُفْرَةٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنَا هُوَ يَا رُوحَ اللَّهِ (يَا نَبِيَّ اللَّهِ) فَقَالَ عِيسَى  
 أَنْتَ بَذَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ (فِي نَفْسِكَ) فَلَتَكُنْ هُوَ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ عِيسَى عليه السلام أَمَا  
 أَنْتُمْ تَتَفَرَّقُونَ بَعْدِي عَلَى ثَلَاثِ فُرُقٍ، فَرَقَتَيْنِ مَفْتَرِيَتَيْنِ عَلَى اللَّهِ فِي النَّارِ وَفَرَقَةٌ  
 تَتَّبِعُ شَمْعُونَ صَادِقَةً عَلَى اللَّهِ فِي الْجَنَّةِ ثُمَّ رَفَعَ اللَّهُ عِيسَى مِنْ زَاوِيَةِ الْبَيْتِ وَ  
 هُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام أَنَّ الْيَهُودَ جَاءَتْ فِي طَلَبِ عِيسَى مِنْ  
 لَيْلَتِهِمْ فَأَخَذُوا الرَّجُلَ الَّذِي قَالَ لَهُ عِيسَى عليه السلام أَنْ مِنْكُمْ لَمَنْ يَكْفُرُ بِي قَبْلَ أَنْ  
 يَصْبِحَ إِثْنَتِي عَشْرَةَ كُفْرَةٍ وَأَخَذُوا الشَّابَّ الَّذِي أَلْقَى عَلَيْهِ شُبْحَ عِيسَى فَقَتَلَ وَ  
 صَلَبَ وَكَفَرَ الَّذِي قَالَ لَهُ عِيسَى عليه السلام تَكْفُرُ قَبْلَ أَنْ تَصْبِحَ إِثْنَتِي عَشْرَةَ كُفْرَةٍ  
 إِنَّتَهَى<sup>(١)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جزء ٦

المجلد السادس

وَقَالَ وَهَبُ بْنُ مِنْبِهِ، أَتَى عِيسَى وَمَعَهُ سَبْعَةُ عَشَرَ مِنَ الْحَوَارِيِّينَ فِي بَيْتٍ  
 فَأَحَاطُوا بِهِمْ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِمْ صَيَّرَهُمُ اللَّهُ كُلَّهُمْ عَلَى صُورَةِ عِيسَى فَقَالُوا لَهُمْ  
 سَحَرْتُمُونَا، لِيَبْرَزَ لَنَا عِيسَى أَوْ لِنَقْتُلَنَّكُمْ جَمِيعًا فَقَالَ عِيسَى لِأَصْحَابِهِ مِنْ  
 يَشْرِي نَفْسَهُ مِنْكَ الْيَوْمَ بِالْجَنَّةِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنَا فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ أَنَا عِيسَى

وقد صيَّره الله على صورة عيسى عليه السلام فأخذوه وقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ورفع الله عيسى من يومه ذلك وبه قال قتادة والسدي وابن إسحاق ومجاهد وابن جريح وأن اختلفوا في عدد الحواريين ولم يذكر أحد غير وهب أن شبهه ألقى على جميعهم بل قالوا ألقى شبهه على واحد ورفع عيسى من بينهم وقال ابن إسحاق وكان إسم الذي ألقى عليه شبهه، سرجس وكان أحد الحواريين ويقال أن الذي دلَّهم عليه هذا عيسى أحد الحواريين أخذ على ذلك ثلاثين درهماً وكان منافقاً ثم أنه ندم على ذلك فإختنق حتى قتل نفسه وكان إسمه، بودس زكريا بوطا وهو ملعون في النصارى.

قال الطبري الأقوى قول ابن المنبه وهو أن سبعة عشر ألقى على جماعتهم شبه عيسى، وقال الجبائي وجه التشبيه أن رؤساء اليهود أخذوا إنساناً فقتلوه وصلبوه على موضع عالٍ ولم يمتكنوا أحداً من الدنو منه فتغيرت حليته وتكرت صورته وقالوا قتلنا عيسى عليه السلام ليؤهموا بذلك على عوامهم لأنهم كانوا أحاطوا بالبيت الذي فيه عيسى عليه السلام فلما دخلوه كان رفع عيسى من بينهم فخافوا أن يكون ذلك سبب إيمان اليهود به ففعلوا ذلك، وقد قيل أن أصحاب عيسى عليه السلام تفرَّقوا عنه حتى لم يبق غير عيسى وغير الذي ألقى شبهه عليه فلذلك إشتبه على النصارى ذكر هذه الوجوه في التبيان وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا أتباع الظن يعني به الذين أحاطوا بعيسى وأصحابه حيث أرادوا قتله لأنهم كانوا قد عرفوا عدة من في البيت فلما دخلوا عليهم فقدوا واحداً منهم فالتبس عليهم أمر عيسى بفقدهم واحداً من العدة وقتلوا على شك منهم في أمر عيسى هذا على قول من قال لم يتفرق أصحابه حتى دخل عليهم اليهود.

وأما من قال تفرَّقوا عنه فإنه يقول إختلافهم كان بأن عيسى هل كان فيمن بقى في البيت أو كان في الذين خرجوا منه فإشتبه عليهم وقيل وجه إختلاف

النَّصَارَى أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ ادَّعَى أَنَّهُ لَا يَقْتُلُ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ قَتَلَ فَكَذَّبَ اللَّهُ الْجَمِيعَ. وقوله: **إِلَّا أَتْبَاعَ الظَّنِّ** فقليل أَنَّهُ إِسْتِثْنَاءٌ مَنْقُطَعٌ وَتَقْدِيرُهُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِمَنْ قَتَلُوهُ عِلْمٌ لَكُنْهُمْ اتَّبَعُوهُ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُ عِيسَى وَلَمْ يَكُنْ بِهِ هَذَا كُلُّهُ بِنَاءً عَلَى أَنَّ يَكُونُ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: **إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ** هُوَ الْيَهُودُ الْمَقَامُ قَوْلٍ آخَرَ.

وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُخْتَلِفِينَ فِي الْآيَةِ النَّصَارَى وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ اِتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ قَتَلُوهُ قَالَ الرَّازِي فِي الْمَقَامِ أَنَّ كِبَارَ فِرْقِ النَّصَارَى ثَلَاثَةٌ، النَّسْطُورِيَّةُ، وَ الْمَلْكَانِيَّةُ، وَ الْيَعْقُوبِيَّةُ.

**أَمَّا النَّسْطُورِيَّةُ** فَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْمَسِيحَ صَلَبَ مِنْ جِهَةٍ نَاسُوتِهِ لَا مِنْ جِهَةٍ لَاهُوتِهِ قَالُوا لِأَنَّهُ ثَبَتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ هَذَا الْهَيْكَلُ بَلْ هُوَ أَمَّا جِسْمٌ شَرِيفٌ مُنَاسِبٌ فِي هَذَا الْبَدَنِ.

وَأَمَّا جَوْهَرٌ وَرُوحَانِيٌ مُجَرَّدٌ فِي ذَاتِهِ وَهُوَ مُدَبَّرٌ فِي هَذَا الْبَدَنِ فَالْقَتْلُ أَتَمَّا وَرَدَ عَلَى هَذَا الْهَيْكَلِ وَأَمَّا النَّفْسُ الَّتِي هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَالْقَتْلُ مَا وَرَدَ عَلَيْهِ.

لَا يَقَالُ فَكُلَّ إِنْسَانٍ كَذَلِكَ فَمَا الْوَجْهَ لِهَذَا التَّخْصِيسِ.

لَأَنَّا نَقُولُ أَنَّ نَفْسَهُ كَانَتْ قَدْسِيَّةً سَمَاوِيَّةً عَلَوِيَّةً شَدِيدَةً الْإِشْرَاقَ بِالْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ عَظِيمَةِ الْقَرَبِ مِنْ أَرْوَاحِ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّفْسِ مَتَى كَانَتْ كَذَلِكَ لَمْ يَعْظُمَ قَاتِلُهَا بِسَبَبِ الْقَتْلِ وَتَخْرِيبِ الْبَدَنِ الِى أَنَّ قَالَ وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ غَيْرُ حَاصِلَةٍ لِكُلِّ النَّاسِ بَلْ هِيَ غَيْرُ حَاصِلَةٍ مِنْ مَبْدَأِ خَلْقِهِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى قِيَامِ الْقِيَامَةِ إِلَّا لِأَشْخَاصٍ قَلِيلِينَ فَهَذَا هُوَ الْفَائِدَةُ فِي تَخْصِيسِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْحَالَةِ.

وَأَمَّا الْمَلْكَانِيَّةُ فَقَالُوا الْقَتْلُ وَالصَّلْبُ وَصَلَا إِلَى اللَّاهُوتِ بِالْإِحْسَاسِ وَالشُّعُورِ لَا بِالْمُبَاشَرَةِ.

وَقَالَتِ الْيَعْقُوبِيَّةُ الْقَتْلُ وَالصَّلْبُ وَقَعَا بِالْمَسِيحِ الَّذِي هُوَ جَوْهَرٌ مُتَوَلَّدٌ مِنْ جَوْهَرِينَ فَهَذَا هُوَ شَرْحُ مَذَاهِبِ النَّصَارَى فِي هَذَا الْبَابِ وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: **وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ** أَنْتَهَى كَلَامَهُ.

أقول الحق أن المراد بالمختلفين في الآية جميع الفرق من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ممن اختلف فيه وذلك لأن الله تعالى قال: إِنَّ الَّذِينَ اختلفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ وهو عام يشمل الجميع وتخصيص الكلام باليهود أو النصارى لا دليل عليه فالمعنى أن الذين اختلفوا في شأن عيسى كائناً من كان فهم في شك أي في حيرة وتردد من حقيقة أمره ما لهم به من علم ثابت قطعي يصح الاعتماد عليه لكنهم يتبعون الظن أي القرائن التي ترجح أحياناً بعض الآراء الخلافية على بعض وعليه، فالشك الذي هو التردد بين أمرين شامل لمجموعهم لا لكل فرد من أفرادهم هذا إذا قلنا أن الشك لا يستعمل إلا فيما تساوي طرفاه من غير ترجيح لأحد الجانبين على الآخر، وأما الذين يتبعون الظن في أمر عيسى فهم أفراد رجحوا بعض ما وقع الاختلاف فيه على بعض آخر بالقرائن أو بالهوى والميل.

قال بعض أهل التحقيق أن هذا معنى إصطلاحي للشك وأما معناه في أصل اللغة فهو نحو من معنى الجهل قال في لسان العرب أن الشك ضد اليقين فهو إذا يشمل الظن في إصطلاح أهل المنطق وهو ما ترجح أحد طرفيه فالشك في صلب المسيح هو التردد فيه أكان هو المطلوب أم غيره فبعضهم يقول أنه هو وبعضهم يقول أنه غيره وليس لأحد منهم علم يقيني بذلك وأما يتبعون الظن وقد نقل عن بعض الأناجيل المعتمدة عند النصارى أن المسيح قال لتلاميذه، كلكم تشكون في هذه الليلة أي التي يطلب فيها للقتل فاذا كانت أناجيلهم ناطقة بذلك في ذلك الوقت وخبره عليه السلام صادق قطعاً فهل يستغرب إشتباه غيرهم من الناس ممن تأخر عن ذلك الزمان، إلا أن المسلم المقطوع به أن عيسى لم يقتل وأما قتل من كان شبيهاً به وإلى هذا المعنى أشار بقوله: وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا أي وما قتلوا عيسى ابن مريم قتلاً يقيناً أو متيقنين أنه هو بعينه لأنهم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة فمن بعض الأناجيل المعتمدة عند النصارى أن الذي

أسلمه إلى الجند هو يهوذا الأسخريوطي وأنه جعل لهم علامة أن من قبله يكون هو يسوع المسيح فلما قبله قبضوا عليه وأما إنجيل برنابا فيصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا الأسخريوطي نفسه ظناً أنه هو المسيح لأنه ألقى عليه شبهه فالذي لا خلاف فيه هو أن الجنود ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية وهو يكفيننا في المقام في تفسير كلام الله وأما قوله: بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَا بَل رَفَعَ اللَّهُ عِيسَى إِلَى مَقَامِ قَرْبِهِ، وإختلفوا في معنى الرِّفْعِ فعن ابن عباس أنه فسر التَّوْفِي بِالْإِمَاتَةِ وعن ابن جريج تفسيره بأصل معناه وهو الأخذ والقبض فالمراد من الرِّفْعِ إنقاذه من الذين كفروا بعناية من الله الذي اصطفاه وقربه إليه.

وقال ابن جرير رفعه إِيَّاهُ تَوْفِيهِ وتطهيره من الذين كفروا أي ليس المراد الرِّفْعُ إِلَى السَّمَاءِ لَا رُوحاً وَلَا جَسَداً وَلَا بهما معاً والمشهور بين المفسرين أن الله تعالى رفعه بروحه وجسده إلى السماء ويظهر من بعض الآثار المروية عن أهل البيت أن الله رفعه إليه بعد أن تَوَفَّاهُ وَالْحَقُّ أَنَّ كَيْفِيَةَ الْقَضِيَةِ مَجْهُولَةٌ لَنَا لَا نَعْلَمُ كَيْفَ وَقَعَتْ وَالَّذِي نَعْلَمُ مِنْهَا هُوَ مَا عَلَّمَنَا الْقُرْآنُ وَهُوَ أَنَّ تَعَالَى رَفَعَهُ إِلَيْهِ بِأَيِّ مَعْنَى كَانَ بَعْدَ الْقَطْعِ بِأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ رَفْعِهِ إِلَى مَكَانٍ هُوَ تَعَالَى فِيهِ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ وَهُوَ تَعَالَى مَنَزَّهُ عَنْهَا بَلِ الْمُرَادُ رَفْعُهُ إِلَى مَقَامِ الْقُرْبِ أَوْ رَفْعُهُ إِلَى السَّمَاءِ مَثَلاً وَهُوَ ظَاهِرٌ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا أَيَّ أَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَأَنَّ الْعِزَّةَ كَمَالُ الْقُدْرَةِ.

ومن الحكمة كمال العلم ففيه إشارة إلى أن هذه الأمور وأن كان متعذراً على البشر لكنه لا تعذر فيها بالنسبة إلى قدرة الله تعالى فإنه على كل شيء قدير، ذلك قد أحاط بكل شيء علماً.



وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ  
وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) فَبِظُلْمٍ  
مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ  
لَهُمْ وَبَصَدَّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَ  
أَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ  
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا  
أَلِيمًا (١٦١) لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ  
الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ  
قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ  
الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ  
أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢)

### ◀ اللغة

بِصَدِّهِمْ، الصَّد بفتح الصاد المنع وهو مصدر من صَدَّ يَصُدُّ صَدًّا و  
صُدُودًا.

الرَّبَا بِكسر الراء مصدر قولك رَبَا يَرَبُوا رَبَاءً، المال زاد وأما يقال أَرَبَى  
إِرْبَاءً إذا أخذ أكثر ممَّا أعطى، الرِّبَاءُ الفضل، الفائدة أو الرِّبْح الذي يتناوله  
المرابي من مدينه والنسبة اليه، رَبَوِي، قاله في المنجد.

الرَّاسِخُونَ، جمع راسِخ وهو فاعل من رَسَخَ والرُّسُوخ الثُّبَات قال  
الراغب في المفردات، رُسُوخ الشيء ثباته ثباتاً متمكناً ورسخ الغدير نصب  
ماؤه ورسخ تحت الارض والراسخ في العلم المتحقق به الذي لا يعرضه  
شبهة والباقي واضح.

## ﴿الإعراب﴾

وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِنْ، بمعنى، ما، والجار والمجرور في موضع رفع بأنه خبر المبتدأ والمبتدأ محذوف تقديره، وما من أهل الكتاب أحدٌ وقيل المحذوف، من، وليس بجيد لأنَّ الإستثناء يكون بعد تمام الاسم، ومن، الموصولة والموصوفة غير تامة لِيُؤْمِنَنَّ جواب قسم محذوف وقيل أكد بها في غير القسم كما جاء في النفي والإستفهام والهاء في موته تعود على أحد المقدّر وقيل تعود على عيسى وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ظرف ليشهد ويجوز أن يكون الفاعل فيه، يكون، فَيُظْلَمَ الباء تتعلق، بحرّمنا، كَثِيرًا أي صَدًّا كَثِيرًا أَوْ زَمَانًا كَثِيرًا وَأَخَذِهِمْ وَأَكْلِهِمْ معطوف على صَدَّهُمْ والجميع متعلق بحرّمنا، والمصادر مضافة إلى الفاعل وَقَدْ نَهَوْا عَنْهُ حَالٌ لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ الرَّاْسِخُونَ مبتدأ وفي أَعْلَمَ متعلق به وَمِنْهُمْ في موضع الحال من الضمير في الرَّاْسِخُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ معطوف على الرَّاْسِخُونَ وفي خبر الرَّاْسِخُونَ وجهان: أحدهما: يُؤْمِنُونَ وهو الصحيح.

الثاني: هو قوله أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ وَالْمُقِيمِينَ منصوب على المدح أي وأعني المقيمين وهو مذهب البصريين.

وقيل أنه معطوف على، ما، أي يؤمنون بما أنزل إليك وبالمقيمين، والمراد بهم الملائكة وقيل التقدير وبدين المقيمين فيكون المراد بهم المسلمين.

وقيل أنه معطوف على، قبل، تقديره ومن قبل المقيمين محذوف، قبل، و أقيم المضاف إليه مقامه.

وقيل أنه معطوف على الكاف في، قبلك، أو، في، إليك.

وقيل أنه معطوف على الهاء والميم في، منهم، وهذه الأوجه الثلاثة الأخيرة لا يعتمد عليها لأنَّ منها عطف الظاهر على المضمّر من غير إعادة الجار أُولَئِكَ مبتدأ وسَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا الخبر.



## ◀ التفسير

وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ أَي لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَوْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَحَدٌ إِلَّا وَاتَّهَ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ أَي بَعِثْنِي قَبْلَ مَوْتِهِ أَي قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى قَالُوا الْمَعْنَى، لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَّا وَهُوَ يُؤْمِنُ بِعِيسَى قَبْلَ مَوْتِهِ بِأَنْ يَنْزِلَهُ اللَّهُ إِلَى الْأَرْضِ إِذَا أَخْرَجَ الْمَهْدِيَّ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَنْزَلَهُ اللَّهُ لِقَتْلِ الدَّجَالِ فَتَصِيرُ الْمَلَلُ كُلُّهَا مِلَّةً وَاحِدَةً وَهِيَ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ الْحَقِيقَةِ دِينَ إِبْرَاهِيمَ، ذَهَبَ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو مَالِكٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ وَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ الْإِيمَانُ.

وَإِخْتَارَهُ الطَّبْرِيُّ قَالَ وَالْآيَةُ خَاصَّةٌ لِمَنْ يَكُونُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي تَفْسِيرِهِ أَصْحَابُنَا فَقَدْ رَوَى عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ قَالَ لِي الْحَجَّاجُ بَأَنَّ آيَةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ قَدْ أُعِينَنِي فَقُلْتُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ، آيَةُ آيَةٍ هِيَ فَقَالَ:

قَوْلُهُ: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَاللَّهُ أَنِّي لَأَمُرُ بِالْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ فَيَضْرِبُ عُنُقَهُ ثُمَّ أَرْمِقُهُ بَعِينِي فَمَا أَرَاهُ يَحْرُكُ شَفْتَيْهِ حَتَّى يَخْمَدَ فَقُلْتُ أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ لَيْسَ عَلِيٌّ مَا تَأَوَّلْتَ قَالَ كَيْفَ هُوَ.

قُلْتُ أَنَّ عِيسَى يَنْزِلُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَى الدُّنْيَا فَلَا يَبْقَى أَهْلُ مِلَّةِ يَهُودٍ نَصْرَانِيٍّ إِلَّا أَمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَصْلِيْ خَلْفَ الْمَهْدِيِّ قَالَ وَيَحْكُ أَتَى لَكَ هَذَا وَمِنْ أَيْنَ جِئْتَ بِهِ فَقُلْتُ حَدَّثَنِي بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَقَالَ جِئْتُ بِهَا وَاللَّهِ مِنْ عَيْنٍ صَافِيَةٍ أَنْتَهَى.

إِلْعَلَّ أَنَّ الرَّازِيَّ ذَكَرَ هَذِهِ الرَّوَايَةَ عَلَى وَجْهِ آخَرَ وَنَحْنُ نَنْقُلُ كَلَامَهُ بِتَمَامِهِ قَالَ:

وَإِلْعَلَّ أَنَّ كَلِمَةً، إِنْ، بِمَعْنَى، مَا، النَّافِيَةَ كَقَوْلِهِ وَأَنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارْدُهَا، فَصَارَ التَّقْدِيرُ وَمَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ ثُمَّ أَنَا نَرَى أَكْثَرَ الْيَهُودِ يَمُوتُونَ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

**الأول:** ما روي عن شهر بن حوشب قال قال الحجاج أتني ما قرأتها إلا وفي نفسي منها شيء يعني هذه الآية فأنتي أضرب عنق اليهودي ولا أسمع منه ذلك فقلت أن اليهودي اذا حضره الموت ضربت الملائكة وجهه ودبره وقالوا يا عدو الله أذاك عيسى نبياً فكذبت به فيقول أمنت أنه عبد الله وتقول للتصاني أذاك عيسى نبيناً فرعمت أنه هو الله وابن الله فيقول أمنت أنه عبد الله فأهل الكتاب يؤمنون به ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان فاستوى الحجاج جالساً وقال: عمن نقلت هذا فقلت حدثني محمد بن علي الحنفية فأخذ ينكت في الأرض بقصيب ثم قال لقد أخذتها من عين صافية.

وعن ابن عباس أنه فسره كذلك فقال له عكرمة، فأن خر من سقف بيت أو احترق أو أكله سبع قال يتكلم بها في الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به ويدل عليه قراءة، أبي إلا ليؤمنن به قبل موته، بضم النون على معنى، وإن منهم إلا سيؤمنون به قبل موتهم لأن أحداً يصلح للجمع.

ثم نقل عن صاحب الكشف أنه قال والفائدة في إخبار الله تعالى بإيمانهم بعيسى قبل موتهم أنهم متى علموا أنه لا بد من الإيمان به لا محالة فلا يؤمنوا به حال ما ينفعهم ذلك الإيمان أولى من أن يؤمنوا به حال ما لا ينفعهم ذلك الإيمان.

ثم قال الرّازي، والوجه الثاني في الجواب عن أصل السؤال أن قوله: قَبْلَ مَوْتِهِ أي قبل موت عيسى والمراد أن أهل الكتاب الذين يكونون موجودين في زمان نزوله لا بدّ يؤمنوا به قال بعض المتكلمين أنه لا يمنع نزوله من السماء إلى الدنيا إلا أنه أنما ينزل عند إرتفاع التكاليف أو بحيث لا يعرف اذ لو نزل مع بقاء التكاليف على وجه يعرف أنه عيسى عليه السلام لكان أمّا أن يكون نبياً ولا نبي بعد محمد ﷺ أو غير نبي وذلك غير جائز على الأنبياء قال وذا الإشكال عندي ضعيف لأن إنتهاء الأنبياء إلى مبعث محمد ﷺ فعند مبعثه إنتهت تلك المدة فلا يبعد أن يصير بعد نزوله تبعاً لمحمد انتهى كلام الرّازي بألفاظه و عباراته.

أقول ما ذكره الرّازي في الوجه الأوّل عن شهر بن حوشب عن محمّد بن الحنفية مختصّ به وبكتابه فأنا لا نعلم من أين أخذ هذا الحديث و ذلك لأنّ المشهور عند المفسّرين هو أنّ شهر بن حوشب حدّث عن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب وليس هو إلّا الباقر عليه السلام و أمّا محمّد بن الحنفية فلم نر منه في كتب الأخبار والتّفسير عين ولا أثر وأنت ترى أنّ الحديث الذي رواه عن الباقر عليه السلام غير الحديث الذي أثبتّه الرّازي عنه لفظاً ومعنى فإن ما رواه عن الباقر صريح في أنّ عيسى ينزل قبل يوم القيامة ويصلي خلف المهدي عليه السلام ومعنى هذا أنّ عيسى من أعوان المهدي وأنصاره.

و أمّا ما رواه عن ابن الحنفية فهو أي ابن الحنفية أجلّ شأنًا وأعظم قدراً من أن يتكلّم بهذه الكلمات التي نقلها الرّازي في كتابه وهو أنّ اليهودي قبل موته يقول الملك الموت مثلاً أمنت أنّه عبد الله وهكذا النّصراني ثمّ يقول أي فائدة في هذا الإيمان الذي يحصل لليهودي أو النّصراني بعد معاناة الموت فإنّ فرعون أيضاً قال بهذه المقالة قبل موته كما حكى الله تعالى عنه قال تعالى: **حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتُ قَبْلُ وَكُنْتُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** <sup>(١)</sup> وإذا كان كذلك فهل يجوز لعاقل فضلاً عن مسلم أن يحمل الآية الشريفة عليه وأعجب من ذلك كلّ قوله فأهل الكتاب يؤمنون به ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان.

و أمّا قوله، نقلاً عن عكرمة، فإنّ خر عن سقف بيت أو إحترق أو أكله سبع قال يتكلّم بها في الهواء الخ.

فهو ممّا يضحك به التّكلى نعوذ بالله هذه الأقاويل والأراجيف في تفسير كلام الله وحمل الكلام عليها وإذا كان الرّازي وهو أعلمهم وأفضلهم يتقوه بهذه الكلمات التي لا أصل لها في كتابه فما ظنك بغيره ممّن تبعه أمثال القرطبي والألوسي وأبي حيّان وغيرهم.

وأما ما ذكره في الوجه الثاني فهو أيضاً من الموهوبات وما نسبته الى بعض المتكلمين من أن عيسى ينزل عند إرتفاع التكليف إذ لو نزل مع بقاء التكليف على وجه يعرف أنه عيسى أما أن يكون نبياً أو غير نبى لا سبيل الى الأول إذ لا نبى بعد محمد ولا الى الثاني لأنه غير جائز على الأنبياء.

فيقال له أنه ينزل مع بقاء التكليف على وجه يعرف أنه عيسى ومع ذلك ليس نبياً بل هو من أعوان المهدي وأنصاره فأَنَّ النبوة قد ختمت بنبي الإسلام قال الله تعالى: **وَإِذْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ** <sup>(١)</sup> وهو أي الرّازي بعد نقله ما نقلناه عن المتكلمين إعترف بما ذكرناه في الجواب حيث قال هذا الإشكال عندي ضعيف لأن إنتهاء الأنبياء الى مبعث محمد ﷺ فعند مبعثه إنتهت تلك المدة.

وهذا ممّا لا كلام فيه وأما قوله فلا يبعد أن يصير بعد نزوله تبعاً لمحمد ﷺ، فيه أن عيسى بعد نزوله يكون تبعاً لوصي محمد ﷺ وهو المهدي الموعود الذي يملأ الله الأرض به قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً. إن قلت لازم ذلك هو ان يكون المهدي أفضل من عيسى كما هو شأن المتبوع.

قلنا نعم لا شك عندنا في أفضلية المهدي على عيسى وعلى جميع الأنبياء والمرسلين إلا جدّه الأجد محمد بن عبد الله فإنه أفضل الخلق و محصل الكلام هو أن عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان عند ظهور المهدي و يصلي خلفه و يتبعه في جميع أوامره ونواهيه وهذا هو السر في إيمان أهل الكتاب في ذلك الزمان و عليه فمعنى الآية واضح لا خفاء فيه أنه ما من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى فالضمير في قوله، بعد في قوله: **مَوْتِهِ** يرجع الى عيسى و يوم القيامة يكون، أي يكون عيسى عليهم، أي على أهل الكتاب شهيداً.

وأن شئت قلت نزول عيسى في آخر الزمان عند ظهور المهدي ومتابعته له والصلاة خلفه بغير سبباً وباعثاً على إيمان اليهود والنصارى بوجود المهدي وأنه هو الموعود الذي بشر رسول الله ﷺ بظهوره لإقامة العدل وإذا كان كذلك تكون الأديان كلها ديناً واحداً ولعل السر الحقيقي في نزول عيسى في ذلك الزمان هو ما ذكرنا عن وحدة الأديان تحت راية المهدي المنتظر سلام الله عليه فإن بعد نزول عيسى ومتابعته للمهدي لا يبقى محال لليهود والنصارى في حقانية المهدي وأنه هو الموعود بالآية الشريفة في الحقيقة مبشرة بإقامة العدل وبسط الإيمان وزوال الكفر والتفارق وظهور الدين كله ولو كره المشركون.

فَظَلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا.

الباء في قوله: فَظَلَمَ للسبب أي حرّمنا عليهم ما حرّمنا بسبب ظلمهم. قال الزجاج قوله: فَظَلَمَ بدل من قوله، فيما نقضهم ميثاقهم والعامل في الباء قوله: حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ لما طال الكلام حمل تعالى ما ذكرناه هاهنا في قوله: فَظَلَمَ وأخبر أنه حرّم على اليهود الذين نقضوا ميثاقهم الذين اتقوا الله عليه وكفروا بأياته وقتلوا أنبياءه وقالوا البهتان على مريم وفعلوا ما فعلوا ممّا وصفه الله في كتابه، طيبات من المأكّل وغيرها التي كانت لهم حلالاً عقوبة لهم بظلمهم الذي أخبر الله عنه وأتمّا حرّمها عليهم لأنّ المصلحة أثبتت ذلك وهو قول مجاهد وأكثر المفسرين.

نقل الطبري في تفسيره لهذه الآية بأسناده عن قتادة، أنّه قال خطب القوم بظلم ظلموه وبغي بغوه حرّم عليهم أشياء ببغيهم وبظلمهم وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا قال يعني وبصدهم عباد الله عن دينه وسبله التي شرحها لعباده صدداً كثيراً وكان صدّهم عن سبيل الله بقولهم على الله الباطل و

إِدْعَانَهُمْ أَنْ ذَلِكَ عَنِ اللَّهِ وَتَبْدِيلَهُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَتَحْرِيفَ مَعَانِيهِ عَنْ وَجْهِهِ وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ ذَلِكَ جُحُودُهُمْ نَبُوءَةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَرْكُهُمْ بَيَانَ مَا عَلَّمُوا مِنْ أَمْرِهِ لِمَنْ جَهِلَ أَمْرَهُ مِنَ النَّاسِ.

ثُمَّ نَقَلَ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ بِصَدِّهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَغَيْرَهُمْ عَنِ الْحَقِّ. قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ أَنْوَاعَ الظُّلْمِ مُحْصَوْرَةٌ فِي نَوْعَيْنِ الظُّلْمِ لِلْخَلْقِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الدِّينِ الْحَقِّ.

أَمَّا ظُلْمُ الْخَلْقِ فَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: وَابْصُرْهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أَنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي غَايَةِ الْحِرْصِ فِي طَلَبِ الْمَالِ فَتَارَةً يَحْصُلُونَهُ بِالرِّبَاءِ مَعَ أَنَّهُمْ نَهَوْا عَنْهُ وَتَارَةً بِطَرِيقِ الرِّشْوَةِ الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ سَمَاعُونَ الْكَذِبِ أَكَالُونَ لِلْسَّحْتِ فَهَذِهِ الْأَرْبَعَةُ هِيَ الذُّنُوبُ الْمَوْجِبَةُ لِلتَّشْدِيدِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.

أَمَّا التَّشْدِيدُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ الَّذِي تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ مِنْ تَحْرِيمِ الطَّيِّبَاتِ عَلَيْهِمْ. وَأَمَّا التَّشْدِيدُ فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا أَنْتَهَى كَلَامُهُ وَالَّذِي يَسْتَفَادُ مِنْ أَخْبَارِنَا الْمَرْوِيَةِ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ هُوَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ تَحْرِيمِ الطَّيِّبَاتِ عَلَيْهِمْ تَحْرِيمَ لَحُومِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرَةِ وَالْغَنَمِ ...

رَوَى فِي الْكَافِي بِأَسْنَادِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَعْفُورٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ مَنْ زَرَعَ حِنْطَةً فِي أَرْضٍ وَلَمْ يَزَكِ زَرْعَهُ وَخَرَجَ زَرْعُهُ كَثِيرَ الشَّعِيرِ فَبِظُلْمٍ عَمَلَهُ فِي مَلِكٍ رَقَبَةُ الْأَرْضِ أَوْ بِظُلْمٍ لِمَزَارِعِيهِ وَأَكْرَهَتْهُ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَرْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أَحَلَّتْ لَهُمْ يَعْنِي لَحُومَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ انْتَهَى.

وَفِي تَفْسِيرِ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بِأَسْنَادِهِ عَنْهُ أَيْضًا قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ مَنْ زَرَعَ حِنْطَةً فِي أَرْضٍ فَلَمْ يَزَكِ فِي أَرْضِهِ وَخَرَجَ زَرْعُهُ كَثِيرَ الشَّعِيرِ فَبِظُلْمٍ عَمَلَهُ فِي مَلِكٍ رَقَبَةُ الْأَرْضِ أَوْ بِظُلْمٍ

لمزارعه وأكرته لأنَّ الله يقول: فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا يَعْنِي لحوم الإبل والبقر والغنم هكذا أنزلها الله فأقرأوها هكذا. ما كان الله لِيَحِلَّ شيئاً في كتابه يُحَرِّمه من بعد ما أحلَّه ولا يَحَرِّم شيئاً ثُمَّ يحلّه بعد ما حرّمه، قلت وكذلك أيضاً، و من البقر والغنم حرّمنا عليهم شحُومهما قال <sup>الإبل</sup> نعم.

قلتُ فقوله، إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه، قال أنَّ إسرائيل كان اذا أكلَ من لحم الإبل يهيج عليه وجع الخاصرة فَحَرَّمَ على نفسه لحم الإبل وذلك من قبل أن تنزل التّوارة فلما نزلت لم يُحرّمه ولم يأكله انتهى.

لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ إِسْتَشْنَى اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ وَصَفَ صِفَتَهُمْ فِيمَا مَضَى فَقَالَ تَعَالَى لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، وَهُمْ الَّذِينَ رَسَخُوا وَثَبَتُوا فِيهِ، وَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْقُرْآنَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ وَ بِالْكَتَبِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ.

وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا اِخْتَلَفُوا فِي الْمَرَادِ بِالْمُقِيمِينَ هَلْ هُم الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ أَوْ غَيْرِهِمْ.

فعلى الأول: حقّ العبارة أن يقال والمقيمون بالرفع قضاء لحكم العطف.

على الثاني: فالمراد بهم و ما وَجِهَ النَّصْبُ فِيهِ، فَقَالَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ هُمْ وَأَمَّا مُخَالَفَتُهُ لِإِعْرَابِ الرَّاسِخِينَ أَمَّا هُوَ غَلَطٌ مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَصْلُ الصَّحِيحُ وَ الْمُقِيمُونَ الصَّلَاةَ نَقَلُوا ذَلِكَ عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنِ الزُّبَيْرِ قَالَ قُلْتُ لِأَبَانَ بْنِ عَثْمَانَ مَا شَأْنُهَا كَتَبْتَ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ.

قال أَنَّ الْكَاتِبَ لَمَّا كَتَبَ لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ إِلَى قَوْلِهِ مِنْ قَبْلِكَ قِيلَ لَهُ أَكْتُبْ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ.

وروي عروة بن الزبير قال سألت عائشة عن قوله: وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وعن قوله: وَالصَّابِقُونَ، وعن قوله، إِنَّ هَذَانِ، فقالت يابن أخي هذا عمل الكتاب أخطأوا في الكتابة.

وفي مصحف ابن مسعود، والمقيمون الصَّلَاةَ، وقال الفراء وغيره هو من صفة الرَّاْسِخِينَ لَكِنَّ لَمَّا طَالَ الْكَلَامُ وَأَعْتَرَضَ بَيْنَهُمَا كَلَامُ نَصَبِ الْمُقِيمِينَ عَلَى الْمَدْحِ وَذَلِكَ سَائِغٌ فِي اللَّغَةِ كَمَا قَالَ فِي الْآيَاتِ الَّتِي تَلَوْنَاهَا، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: الْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ<sup>(١)</sup> وَقَالَ آخَرُونَ هُوَ مِنْ صِفَةِ الرَّاْسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هَاهُنَا وَأَنْ كَانَ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنَ الْمُقِيمِينَ قَالُوا وَمَوْضِعُ الْمُقِيمِينَ خَفَضَ عَطْفًا عَلَى مَا فِي قَوْلِهِ: يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيُؤْمِنُونَ بِالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمَعْنَى يُؤْمِنُونَ بِإِقَامِ الصَّلَاةِ.

وقال آخَرُونَ الْمُقِيمُونَ الصَّلَاةَ هُمُ الْمَلَائِكَةُ وَإِقَامَتُهُمْ لِلصَّلَاةِ تَسْبِيحُهُمْ رَبِّهِمْ وَإِسْتِغْفَارُهُمْ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ فَالْمَعْنَى وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْمَلَائِكَةِ وَإِخْتَارِهِ الطَّبْرِيِّ وَقَالَ لِأَنَّهُ فِي قِرَاءَةِ، أَبِي كَذَلِكَ.

وقال قوم، المعنى، الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ يُؤْمِنُونَ بِالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَ هُمُ الْأَتَمَّةُ الْمُعْصُومِينَ وَ هَؤُلَاءِ أَنْكَرُوا النَّصْبَ عَلَى الْمَدْحِ لِأَنَّهُ أَيْ النَّصْبُ عَلَى الْمَدْحِ لَا يَجُوزُ إِلَّا بَعْدَ تَمَامِ الْخَبَرِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ خَبَرَ الرَّاْسِخِينَ هُوَ قَوْلُهُ، أَوْلَئِكَ سَنُوتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا، فَلَا يَجُوزُ نَصْبُ الْمُقِيمِينَ عَلَى الْمَدْحِ فِي وَسْطِ الْكَلَامِ قَبْلَ تَمَامِ الْخَبَرِ وَإِخْتَارَ هَذَا الْقَوْلِ الرَّجَاجُ وَقَالَ يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ مَرَرْتُ بِزَيْدٍ كَرِيمٍ، وَبِالْجَرِّ وَ النَّصْبِ وَ الرَّفْعِ.



فالنَّصَب على المدح، و الجزَّ على الصَّفة، والرَّفع على تقدير هو الكريم و  
أنشد في النَّصَب على المدح بيت خرنق:

لا يبعدن قومي الذين هم سم الغداة وأختر الجزر  
التَّازلين بكلِّ معترك والطَّيبون معاقد الأزر  
على معنى إذكر التَّازلين وهم الطَّيبون ولو نصيب لكان جائزاً.

وقال قوم المعنى، لكن الرَّاسخون في العلم منهم و من المقيمين الصَّلَاة  
قالوا فموضعه خفض.

وقال الآخرون، التَّقْدِير والى المقيمين الصَّلَاة فهو معطوف على الكاف في  
قوله: بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ.

وقال الزَّمَخْشَرِي في الكشَّاف، نصب على المدح لبيان فضل الصَّلَاة وهو  
باب واسع ولا يلتفت الى ما زعموا من وقوعه لحناً في خطِّ المصحف وربَّما  
إلتفت اليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في  
النَّصَب على الإختصاص إفتنان هذا ما وجدناه من الأقوال في المقام.

وأما قوله: أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا فأولئك إشارة الى الذين وصفهم  
الله في الآية فأخبر أنه سيعطيهم أجراً أي ثواباً عظيماً في الآخرة جزاءً على ما  
كان منهم من طاعة الله وإتباع أمره وقيل من جملة الرَّاسخين عبد الله بن  
سلام وابن يامين وابن صوريا وأسد وثلعة وسلام وغيرهم ممَّن آمن بالنَّبِي  
من علماء اليهود.

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالتَّيِّبِينَ  
 مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَ  
 إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ  
 وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا  
 (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ  
 رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى  
 تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا  
 يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ  
 اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا  
 أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ  
 كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦)

### ◀ اللغة

أَوْحَيْنَا، الوحي في الأصل الإشارة السريعة ولتضمن السرعة قيل أمرٌ  
 وحي و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض وقد يكون بصوتٍ  
 مجرد عن التركيب وبإشارة لبعض الجوارح وبالكتابة.  
 زُبُورًا يقال زَبَرْتُ الكتاب أي كتبته كتابةً عظيمة وكل كتابٍ غليظ الكتابة  
 يقال له زبوراً لكنه خصَّ بالكتاب المنزل على داود.  
 قَصَصْنَاهُمْ، القصة الحكاية وأصل القصُّ تَبَعَ الأثر يقال قصصت أثره أي تَبَعْتَهُ.

### ◀ الإعراب

كَمَا أَوْحَيْنَا الكاف نعت لمصدر محذوف وما مصدرية ويجوز أن يكون  
 بمعنى، الذي فيكون مفعولاً به، تقديره أوحينا اليك مثل الذي أوحينا الى نوح

من التوحيد وغيره ومن بعده في موضع نصب متعلق بأوحينا ولا يجوز أن يكون حالاً من النبيين لأن ظرف الزمان لا تكون أحوالاً للجنت وفي يونس، لغات أفصحها ضمّ التّون من غير همز ويجوز فتحها وكسرهما مع الهمز وتركه وكل هذه الأسماء أعجمية إلا الأسباط وهو جمع سبط ورُسلًا منصوب بفعل محذوف تقديره وقصصنا رسلاً ويجوز أن يكون منصوباً بالفعل دل عليه أوحينا أي وأمرنا رسلاً تكليماً مصدر مؤكد رافع للمجاز ورُسلًا يجوز أن يكون بدلاً عن الأول وأن يكون مفعولاً أي أرسلنا رسلاً وأن يكون حالاً موطئة لما بعدها كما تقول مررت بزيد رجلاً صالحاً وأن يكون على المدح أي أعني رسلاً واللام في ثلثاً يتعلّق بما دل عليه الرّسل أي أرسلناهم لذلك ويجوز أن يتعلّق بمنذرين أو مبشرين أو بما يدلّان عليه حُجّة اسم كان وخبرها للناس وعلى الله حال من حجة والتقدير للناس حجة كائنة على الله وبعده ظرف لحجة ويجوز أن يكون صفة لها ويعلمه حال من الهاء أي أنزله معلوماً ويجوز أن يكون حالاً من الفاعل أي أنزله عالماً به وأَمَلَاتِكُمْ يَشْهَدُونَ يجوز أن يكون حالاً أي أنزله والملائكة شاهدون بصدقه.

### ◀ التفسير

لا شك في أن الآية خطاب للنبي ﷺ وقد قيل في نزولها أنه لما فضح الله اليهود والنصارى بالآيات التي أنزلها على رسوله من قوله يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء وما بعده وتلى ذلك عليهم رسول الله قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء بعد موسى فأنزل الله هذه الآية تكذيباً لهم وأخبر نبيه والمؤمنين بها أنه قد أنزل على من بعد موسى من الذين سمّاهم في الآية وعلى من لم يسمّهم وهو قول ابن عباس.

وقال آخرون، بل قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ولا على عيسى فأنزل الله هذه الآية تكذيباً لهم قاله محمد بن كعب القرطبي ذكر هذين الوجهين في التبيان.

و قال الرّمحشري في الكشف أنّ هذه الآية جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله أن ينزل عليهم كتاباً من السماء وإحتجاج عليهم بأن شأنه في الوحي اليه كشأن سائر الأنبياء الذين سلفوا انتهى.

وكيف كان فالآية بصدد إثبات الوحي على رسول الله ﷺ كغيره من الأنبياء وأنّ حكمه حكمهم قيل وقدم نوحاً وجرده منهم في الذكر لأنه الأب الثاني وأول الرّسل ودعوته عامّة لجميع من كان اذ ذاك في الأرض كما أنّ دعوة محمد ﷺ أيضاً كذلك فقال تعالى: **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ** أعلم أنّ الوحي أستعمل في القرآن على وجوه:

**الأول:** التكلّم بالسّر ومنه قوله تعالى:

**فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** <sup>(١)</sup>.

يعني كلّم عبده بالسّر ما كلّم.

**الثاني:** الإنزال، منه قوله تعالى في سورة الأنعام:

**وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرْكُمْ بِهِ** <sup>(٢)</sup>.

أي أنزل عليّ هذا القرآن.

**الثالث:** الكتاب، منه قوله تعالى:

**قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ** <sup>(٣)</sup>.

يعني أنذركم بالكتاب.

**الرابع:** الرّسالة، منه قوله تعالى:

**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ** <sup>(٤)</sup>.

يعني أوصينا اليه برسالة جبرئيل.

وقوله تعالى:

**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأَ لِقَوْمِكُنَا بِمِصْرَ بُيُوتًا** <sup>(٥)</sup>.

١- النّجم = ١٠

٢- الأنعام = ١٩

٣- الأنبياء = ٤٥

٤- يونس = ٨٧

يعني أوصينا اليهما برسالة جبرئيل عليهم السّلام.

الخامس: بمعنى الإشارة، منه قوله تعالى:

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ<sup>(١)</sup>.

أي أشار اليهم وقيل كَتَبَ اليهم.

السادس: الأعلام، منه قوله تعالى:

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا<sup>(٢)</sup>.

يعني إعلاماً في النّوم.

السابع: الإلهام، منه قوله تعالى:

وَإِذْ أُوحِيتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي<sup>(٣)</sup>.

يعني الهمهم.

ومنه قوله تعالى:

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ<sup>(٤)</sup>.

يعني ألهمناها.

الثامن: التّسخير، منه قوله تعالى:

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا<sup>(٥)</sup>.

أي سَخَّرَهَا لِاتِّخَاذِ الْعَسَلِ.

التاسع: الأمر، منه قوله تعالى:

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا<sup>(٦)</sup>.

يعني أمرها.

العاشر: الوسوسة، منه قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ

إِلَىٰ بَعْضٍ<sup>(٧)</sup>.

في القرآن تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

١- مريم = ١١

٢- الشورى = ٥١

٣- القصص = ٧

٤- الزلزال = ٤/٥

١- مريم = ١١

٢- المائدة = ١١١

٣- النحل = ٦٨

٤- الأنعام = ١١٢

يعني يوسوس بعضهم بعض.

قوله تعالى: وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ<sup>(١)</sup>.

أي ليووسون في صدورهم، هذه هي أقسام الوحي بحسب الاستعمال في الآيات إذا عرفت هذا فنقول المراد بالوحي في قوله: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هُوَ المعنى الرابع يعني الوحي برسالة جبرائيل.

أو السادس، وهو الأعلام أو الأول وهو التكلم بالسّر كما قال الله تعالى: فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ<sup>(٢)</sup> وهكذا في نوح النبي الذي هو من المرسلين و مع ذلك هو شيخ الأنبياء لأنه كان أطول عمراً وهو أول نبي بعد جدّه إدريس. وكان إسم نوح، عبد الغفار سمّي نوحاً لكثرة نواحه وبكائه مدة خمس مائة سنة خوفاً من الله تعالى ثم تحرّره على ضلال أمته وهو أول الأنبياء الخمسة أولي العزم المبعوثين الى الجن والإنس كافة والأربعة بعده من أولي العزم إبراهيم، وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وهو سيدهم وأفضلهم، وكان نبي الله نوح جسيماً عظيم القدر والمشهور أنّه عاش ألفين وخمسمائة سنّ (٢٥٠٠ سنة) ولما بعث الى قومه كان عمره ثمان مائة وخمسين سنة وأقام فيهم يدعوهم الى الله تسع مائة وخمسون سنة (٩٥٠ سنة) كما قال عز وجل: فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا<sup>(٣)</sup> وأقام مشغلاً بعمل له مائتين سنة (٢٠٠ سنة) وعاش بعد هلاك قومه بالطوفان خمس مائة سنة (٥٠٠ سنة) ولم يظهر منه شيب ولم يسقط منه سنّ وهو أول من أحدث المدن الكبيرة و أسكن فيها ولده بعد نزوله من السفينة ولذا قيل له أبو البشر الثاني وسيأتي الكلام فيه في موضعه وأمّا قوله: وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ أي أوحينا الى النبيين من بعد نوح أيضاً كما أوحينا اليك و اليه إلا أنّ الوحي اليهم كان بطريق الإلهام

والإعلام في التَّوَمِ وأمثال ذلك لأنَّ الوحي في جميع الأنبياء لم يكن برسالة جبرائيل وأوَّل من بعث بعد نُوحٍ عليه السلام هو هود النَّبِيُّ وذلك لأنَّه لما توفى نوح بقي قومه وذريَّته المؤمنون دهرًا طويلاً يترقبون هودَ ويَنتظرون ظهوره حتَّى طال عليهم الأمد وقست قلوب كثيرة منهم وإرتدَّوا عن الدِّين وأقبلوا على عبادة الأصنام وكان يقال لهم قوم عاد لأنَّهم كانوا ينتسبون الى عاد بن عوض بن أرم بن سام بن نُوح وكانت بلادهم بين عَمَّانَ وحَضْرَمَوْتِ ولما طغوا على الله وتَجَبَّرُوا ولد فيهم هُودٌ وهو ابن عبد الله بن رباح بن جلوث بن عباد بن عوض بن أرم بن سام بن نُوح.

بعث وهو ابن أربعون سنة ولم يزل وعظَّمهم وذكرهم حتَّى مكث على ذلك سبع مائة وستين سنة وهم لا يزدادون إلَّا طغياناً وكفراً وسيأتي الكلام فيه ثمَّ بعد هود النَّبِيُّ بعث الله صالح النَّبِيُّ وهو ابن ستَّة عشر سنة يدعو قومه الى التَّوْحِيدِ ورفض الأصنام وكان بنو ثمود بوادي القرى بين المدينة والشَّام كالذَّرِّ والحصى في العدد وهم قوم صالح على ما سيأتي الكلام فيه وفيهم أيضاً.

وقد بعث الله تعالى غير هُودٍ وصالح أيضاً على حسب مراتبهم ومقاماتهم الى أنَّ وصلت النَّوْبَةُ الى إبراهيم الخليل عليه السلام كما قال: **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهُارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدِينَ دَاوُدَ زُيُورًا** إبراهيم الخليل هو جدُّ محمَّدٍ ولقد اتَّفقت كلمة جميع أهل الأديان المختلفة من اليهود والنَّصارى والمسلمين وغيرهم على نُبُوَّتِهِ وتعظيمه وجعل النُّبُوَّةِ في صلبه وذريَّته وجعل نبيِّنا من ولده ونسله، وإسماعيل كان أكبر من إسحاق وأمَّ إسماعيل هاجر وأمَّ إسحاق سارة وأنبياء بني إسرائيل كانوا من أولاد إسحاق، ونبيِّنا محمَّد كان من أولاد إسماعيل فقوله ويعقوب الى آخر الآية إشارة الى أولاد إسحاق وأمَّا

الأسباط في ولد إسحاق فهم كالبائل في أولاد إسماعيل وقد بعث منهم عدة رُسل وهم الذين ذكرهم الله بعد الأسباط ومنهم إخوة يوسف ولم يكونوا أنبياء وأما يوسف فهو كان نبياً وعليه فالمراد بالوحي الى الأنبياء منهم كما تقول أرسلت الى بني تميم وأن أرسلت الى وجوهمهم وسيأتي الكلام في كل واحد منهم في موضعه، والزبور الكتاب الذي أنزل على داود النبي بضم الزاي على قراءة حمزة وخلف وفتحها على قراءة الباقيين فهو على الأول يكون جمع زبر فأوقع على المزبور الزبر كما قيل ضرب الأمير ونسج اليمن و كما يسمّى المكتوب الكتاب ثم جمع الزبر على زبور لوقوعه موقع الأسماء التي ليست مصادر كما يجمع الكتاب كتب فلما إستعمل إستعمال الأسماء قالوا زبور والوجه الآخر أن يكون جمع زبور بحذف الزيادة على زبور كما قالوا ظريف وظروف وورشان وورشان ونحو ذلك مما يجمع بحذف الزيادة ويدل على قوة هذا أن التفسير مثل التصغير وقد أطرّد هذا الحذف في ترخيم التصغير نحو أزهر وزهير وحارث وحريث وثابت وثبيت والجمع مثله في القياس وأن كان أقل منه في الإستعمال، وأما من فتح الزاي فقد أراد به الكتاب المنزل على داود كما سمي المنزل على موسى التوراة والمنزل على عيسى الإنجيل والمنزل على محمد الفرقان وقال بعضهم أن المراد به الكتاب وكل كتاب يسمّى زبوراً وغلب على الكتاب الذي أوحاه الله الى داود وهو فعول بمعنى مفعول كالحلوب والزكوب ولا يطرّد وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام وأما هي حكم ومواعظ.

قال صاحب بحر المحيط بعد ما نقلناه عنه، وقد قرأت جملة منها ببلاد الأندلس ورُسلًا قد قصصناهم عليك من قبل إختلفوا في نصب، ورسلاً.

فقال القراء تقدير الكلام إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والى رسل قد قصصناهم عليك من قبل ورُسلًا لم نقصصهم عليك ورسّل لم نقصصهم عليك فلما حذف، الى نصب رسلاً في الموضعين وقال الزجاج



تقديره أَنَّهُ لَمَّا قَالَ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، كَانَ مَعْنَاهُ أَرْسَلْنَاكَ رَسُولًا عَظِفَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ وَرَسُولًا وَتَقْدِيرُهُ وَأَرْسَلْنَا رَسُولًا فَعَظِفَ الرَّسُلَ عَلَى مَعْنَى الْأَسْمَاءِ قَبْلَهَا فِي الْإِعْرَابِ وَقِيلَ أَنَّهُ نَصَبَ بِفَعْلٍ يَفْسَرُهُ مَا بَعْدَهُ وَيَتْلُوهُ وَقَصَصْنَا عَلَيْكَ رَسُولًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ كَمَا قَالَ، وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ، وَالتَّقْدِيرُ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، وَقَرَأَ أَبِي بَالُرْفَعٍ لَمَّا كَانَ فِي الْفِعْلِ عَائِدَ الْيَهُمِ وَهُوَ قَوْلُهُ: قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ فِيهِ إِشَارَةٌ بَلْ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانُوا كَثِيرِينَ وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ تَعَالَى جَمِيعَهُمْ فِي الْقُرْآنِ وَهُوَ كَذَلِكَ فَقَدْ رَوَى مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ أَنَّهُ سَأَلَ عَنِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ وَأَيْضًا فِي حَدِيثِهِ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَمْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ فَقَالَ مِائَةٌ أَلْفَ نَبِيٍّ وَأَرْبَعَةٌ وَعَشْرُونَ أَلْفَ نَبِيٍّ وَرَوَتْ الْعَامَّةُ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ عَلَى أَثَرِ ثَمَانِيَةِ أَلْفٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ أَلْفٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَنَقَلُوا عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ أَنَّهُ قَالَ الْأَنْبِيَاءُ أَلْفٌ أَلْفٌ وَأَرْبَعٌ مِائَةٌ أَلْفٌ وَأَرْبَعَةٌ وَعَشْرُونَ أَلْفًا.

أَقُولُ فَأَعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ.

روي في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام في حديث طويل يقول فيه عليه السلام وكان ما بين آدم ونوح من الأنبياء مستخفين ومستعلنين وكذلك خفي ذكرهم في القرآن فلم يسموا كما يسمي من إستعلن منهم وهو قوله عز وجل: وَرَسُولًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ يَعْنِي مَنْ لَمْ نَسْمَهُمْ مِنَ الْمُسْتَخْفِينَ كَمَا سَمَّيَ الْمُسْتَعْلَنِينَ مِنْهُمْ انْتَهَى.

أَقُولُ وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الْحَقِيقُ بِالِاتِّبَاعِ فِي هَذَا الْمَقَامِ لِأَنَّ الْآيَةَ تَذَلُّ عَلَى وَجُودِ مَنْ لَمْ يَقْصُصْ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَأَمَّا كَمْ كَانَ عَدَدُهُمْ فَالْآيَةُ سَاكِتَةٌ عَنْهُ فَالْأَحْسَنُ إِكْثَالُ عِلْمِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَأَنْ كَانَ

المشهور، مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي، إلا أنه لم يوجد فيه أثر يعتمد عليه والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا نصب تكليماً على المصدر قيل وفائدته، وكَلَّمَ الله موسى بلا واسطة خصوصاً من بين الأنبياء كلّمهم الله بواسطة الوحي وقيل أنما قال ذلك ليعلم أن كلام الله من جنس هذا المعقول الذي يشقّ من التكلّم على خلاف ما يقول المُبطلون.

وقيل أنما أتى بالمصدر تأكيداً، وقيل أنما أراد بذلك تعظيم كلامه كأنه قال: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا شريفاً:

أقول ما ذكروه لا بأس به إلا أن الذي يختلج بالبال هو أن المصدر في المقام يفيد النوعية أي كلّم الله تعالى موسى نوعاً خاصاً من الكلام لا يشبه كلام البشر الذي هو مركّب من الحروف والأصوات.

فقد روي عن عليّ عليه السلام في كلام طويل وفيه كلّم الله موسى تكليماً، بلا جوارح وأدوات ولا شفه هوات سبحانه وتعالى عن الصفات.

وعن صفوان بن أبي يحيى قال سألتني أبو قرّة المحدث صاحب شبرقه أن أدخله على أبي الحسن الرضا عليه السلام فاستذنته فأذن له

فدخل فقال له أخبرني جعلني الله فداك عن كلام الله لموسى فقال عليه السلام الله أعلم ورسوله بأيّ لسان كلّمه بالسريانية أم

بالعبرانية فأخذ أبو قرّة بلسانه فقال أنما أسألك عن هذا اللسان فقال أبو الحسن سبحان الله ممّا تقول ومعاذ الله أن يشبه خلقه أو

يتكلّم بمثل ما هم متكلمون ولكنه تبارك وتعالى ليس كمثله شيء ولا كمثله قائل فاعل قال كيف ذلك قال كلام الخالق للمخلوق ليس

مثل كلام المخلوق لمخلوق ولا يلفظ بشق فم ولسان ولكن يقول له كن فكان بمشيئته ما خاطب به موسى من الأمر والنهي من غير

تردّد في نفس انتهى<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ عَلِيًّا وَلَا يَفَاسُ بِالنَّاسِ الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ  
عَظِيمًا بِلَا جَوَارِحَ وَلَا أَدَوَاتٍ وَلَا نُطْقٍ وَلَا لَهَوَاتٍ الْخ... (١).

و محصل الكلام في المقام هو أنه لا شك في أن الله تعالى كلم موسى  
بنص القرآن و أما كيفية تكلمه معه فلا نعلمها ولذلك قلنا أن قوله: تَكْلِيمًا يدل  
على نوع خاص من التكلم الذي خفي على البشر حقيقته رُسلًا مُبَشِّرِينَ وَ  
مُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا  
حَكِيمًا قيل نصب، رسلًا، على القطع من أسماء الأنبياء الذين ذكر أسماءهم،  
و مبشرين، نصب على الحال والتقدير أرسلت هؤلاء الأنبياء رسلًا إلى خلقي  
وعبادي حال كونهم، مبشرين، بثوابي من أطاعني و صدق رسلي، و منذرين،  
يعني مخوفين من عقابي من عصائي و خالف أمري و كذب رسلي و كان  
نبينا ﷺ أيضاً هكذا.

قال الله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٢).

قال الله تعالى: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ (٣).

قال الله تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا  
فِيهَا نَذِيرٌ (٤).

و أمثال ذلك من الآيات و أنما قال تعالى مبشرين و منذرين لأن المطلوب  
هو كون العبد بين الخوف و الرجاء و هو لا يحصل إلا بالبشارة و الإنذار معاً  
فالخوف وحده لا يكون مطلوباً كما أن الرجاء أيضاً كذلك و خير الأمور  
أوسطها حذراً عن الإفراط و التفريط المذمومين عقلاً و شرعاً.

لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ إشارة إلى أن العقاب بلا بيان  
قبيح عقلاً و لذلك بعث الله الأنبياء و الرسل ليبينوا أحكام الله للناس و

يرشدوهم الى ما فيه صلاحهم وسدادهم ونيلهم الى سعاد الدارين و حياة  
النشأتين وبذلك تمت الحجة الظاهرة بعد الحجة الباطنة على الناس وذلك  
لأن الله على الناس حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة.

أما الحجة الظاهرة فهي الأنبياء والرسل والأئمة.

أما الحجة الباطنة فهي العقل فلا تنفع إحدى الحجتين بدون الأخرى وهو  
ظاهر لا خفاء فيه والى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله:

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ<sup>(١)</sup>.

والحجة البالغة عبارة عن النبي والرؤصي بعد العقلي ولأجل هذا لا يكون  
المجنون مكلفاً إذا عرفت هذا فنقول قوله: لَيْتَ لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ  
حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً قَبْلَ إِرْسَالِ الرَّسُولِ وَأَمَّا  
بعده فلا وهو كذلك:

قال الله تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا

أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى<sup>(٣)</sup>.

فإن هذه الآيات قد دلت على قبح العقاب بلا بيان والمراد بالبيان بيان  
الأحكام الشرعية التكليفية والمبين هو الرسول وأما قبل البعثة فيكون للناس  
على الله حجة في ترك الطاعات والعبادات فلا يجوز عقاب العبد على تركها  
عقلاً إلا على مذهب الأشاعرة فأنهم أنكروا الحسن والقبح العقليين وقالوا له  
أن يفعل ما يشاء كما يشاء.

فكلما يفعله فهو حسن ولو كان قبيحاً في العقل وكلما لم يفعله قبيح ولو  
كان حسناً في العقل فالملاك في الحكم بالحسن والقبح في مذهبهم هو فعل  
الله وتركه لا حكم العقل ولم يعلموا أن الله تعالى لا يفعل إلا ما حكم به العقل

ينهى أو لا يترك إلا ما لم يحكم به العقل فأنَّ العقل من مواهب الله موهبة أفضل وأشرف منه قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية احتج أصحابنا بهذه الآية على أن وجوب معرفة الله تعالى لا يثبت إلا بالسمع قالوا لأن قوله: **لِتَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** يدل على أن قبل البعثة يكون للناس حجة في ترك الطاعات والعبادات ونظيره:

قال الله تعالى: **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبُّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى**<sup>(٢)</sup> انتهى كلامه.

**أقول** أن الأيتين اللتين استدل بهما على إثبات مدّعه تدلان على أن العقاب قبل البيان بواسطة الرسول ومن يقوم مقامه من الوصي قبيح عقلاً و لذلك قال تعالى: **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا** وهو صريح فيما قلناه و قد أوضح الله تعالى هذا الحكم بقوله: **وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ** أي من قبل البعثة أو من قبل البيان لقالوا أي لقالوا من عذبناه لولا أرسلت إلينا رسولاً الآية، وهذه هي الحجة للناس على الله تعالى فجعل العذاب بعد البعثة لئلا يكون للناس على الله حجة فالآيات تدل على ما ذهبنا إليه من قبح العقاب بلا بيان عقلاً تدل على أن وجوب معرفة الله لا يثبت إلا بالسمع كما إدّعه الرّازي فأنَّ وجوب معرفة الله عقلي قطعاً.

نعم كيفية المعرفة قد تحصل بالسمع وبعبارة أخرى فرق واضح بين وجوب المعرفة وطريقها فالوجوب عقلي.

وأما طريق المعرفة فقد يحصل بالعقل وقد يحصل بالسمع وقد يحصل بهما المعلوم أن معرفة الله غير معرفة دينه وأحكامه، ومحصل الكلام هو أن في المقام أمور ثلاثة:

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

أحدها: أصل الوجوب أي وجوب المعرفة.

الثاني: كيفية معرفة الله في باب التوحيد.

الثالث: معرفة دينه وأحكامه.

فالأول: عقلي بلا كلام.

الثاني: أيضاً عقلي محض أو بضميمة السمع.

أما الثالث: فهو سمعي محض فقول الرازي أن الآية تدل على أن وجوب معرفة الله لا يثبت إلا بالسمع كلام لا طائل تحته والحق أن يقال أن الآية تدل على أن معرفة أحكام دين الله لا يثبت إلا بالسمع أي من طريق الأنبياء ولأجل ذلك بعث الله الأنبياء لئلا يكون للناس على الله حجة.

و أما قوله: وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا معناه أن تعالى قادر على الانتقام ممن يعصيه ويكفر به لا يمنعه مانع لعزته، ومع ذلك هو حكيم في أفعاله لا يخرج عن قانون الحكمة فيضع كل شيء في موضعه ولا يظلم على أحد فإن ربك ليس بظلام للعبيد لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً قالوا في معنى الآية أن هؤلاء اليهود الذين يسألونك أن ينزل عليهم كتاباً من السماء وقالوا لك ما أنزل الله على بشر من شيء، قد كذبوا ليس الأمر كما قالوا لكن الله يشهد بتنزيل ما أنزله إليك من كتابه ووحيه أنزله إليك وهو عالم بأنك خيرته من خلقه وصفوته من عباده يشهد لك بذلك ملائكته فلا يحزنك تكذيب من كذّبك وخلاف من خالفك و كفاك بالله شهيداً أي حسبك بالله شاهداً على صدقك دون ما سواه قال في التبيان، قال ابن عباس نزلت هذه الآية في جماعة من اليهود كان النبي دعاهم إلى إتباعه وأخبرهم أنهم يعلمون حقيقة نبوته فحجدوا نبوته وأنكروا معرفته فأنزل الله فيهم هذه الآية تسلياً للنبي ﷺ و تعزية له عن تكذيب من كذّبه انتهى.

قال صاحب الكشف ومعنى شهادة الله بما أنزل اليه إثباته لصحته بإظهار المعجزات كما تثبت الدعاوي بالبينات وشهادة الملائكة شهادتهم بأنه حق وصدق لأن شهادتهم تتبع لشهادته تعالى ثم قال.

فأن قلت ما معنى قوله: **أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ** وما موقعه من الجملة التي قبله.

قلت معناه أنزله متلبساً بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره وهو تأليفه على نظم وأسلوب يعجز عنه كل بليغ وصاحب بيان وموقعه مما قبله موقع الجملة المفسرة لأنه بيان للشهادة وأن شهادته بصحته أنه أنزله بالنظم المعجز الفائت للقدرة وقيل أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله اليك وأنتك مبلغه وقيل أنزله بما علم من مصالح العباد مشتملاً عليه ويحتمل أنه أنزله وهو عالم به رقيب عليه حافظ له من الشياطين برصد من الملائكة والملائكة يشهدون بذلك. وقال في قوله: **وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا** وأن لم يشهد غيره لأن التصديق بالمعجزة هو الشهادة حقاً، قل أي شيء أكبر شهادة قل الله انتهى كلام صاحب الكشف.

أقول معنى الآية ظاهر لا خفاء فيه فلا يحتاج الى إطالة الكلام وذلك لأن الله تعالى يشهد بأن ما أنزله على رسوله حق لا مرية فيه والملائكة أيضاً يشهدون به وإنكار اليهود وغيرهم من أهل الكتاب وغير أهل الكتاب كائناً من كان لا يضّر بالمدعى.

**أما أولاً:** لأن إنكار المنكرين لا يخلو من أمرين:

أحدهما: الجهل.

ثانيهما: النفاق حفظاً لمنافعهم الدنيوية وعلى التقديرين إنكارهم لا يغير الواقع عما هو عليه وذلك لأن شهادة الله تكفي في المقام ومن أصدق من الله قیلاً، وفي قوله: **أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ** إشارة الى نكته وهي أنه يعلم ماذا ينزل، ويحتمل أن يكون المراد أن الله أنزله وكان عالماً بإنكارهم وكيف كان فالمعنى واضح.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ  
 ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ  
 ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ  
 طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا  
 وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا  
 النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ  
 فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا  
 (١٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا  
 تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى  
 ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ  
 رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ  
 أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ  
 يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَكَدْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي  
 الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ  
 الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ  
 الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ  
 يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)

### ◀ اللغة

صَدُّوا، الصَّدُّ بفتح الصاد مصدر بمعنى المنع.  
 لَا تَغْلُوا، الغُلُوُّ تجاوز الحدَّ، يقال ذلك اذا كان في القدر والمنزلة أما اذا كان



في السَّعَرِ يقال، غَلَاءَ، وفي السَّهْمِ، غَلَوُ، وأفعالها جميعاً على يَغْلُو.  
 رُوحٌ مِنْهُ، الرُّوحُ بفتح الراء وضمها في الأصل واحد وجعل الرُّوح بالضم  
 إسمًا للنفس وذلك لكون النفس بعض الرُّوح كتسميته النوع بإسم الجنس نحو  
 تسميته الإنسان بالحيوان والرُّوح، بالفتح التَّنَفَسُ وقد أراح الإنسان اذا تَنَفَّسَ  
 قاله الزَّاعِبُ في المفردات.

### ◁ الإعراب

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ إِستثناء من جنس الأول لأنَّ الأول في معنى العموم اذا  
 كان في سياق النفي وخالد بن حال مقدرة قد جَاءَ كُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ بِالْحَقِّ  
 في موضع الحال أي ومع الحق أو متكلماً بالحق وَمِنْ رَبِّكُمْ حال من الحال  
 فَأَمِنُوا خَيْرًا أي إيماناً خيراً فهو نعت لمصدر محذوف وقيل هو خبر كان  
 المحذوفة أي يكن الإيمان خيراً وهو لا يجوز عند البصريين لأنَّ كان لا تحذف مع  
 إسمها ويبقى خبرها إلا للضرورة وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ مفعول  
 تقولوا أي ولا تقولوا إلا القول الحقَّ الْمَسِيحُ مبتدأ وعيسى بدل أو عطف بيان  
 وَرَسُولُ اللَّهِ خبره كَلِمَتُهُ عطف على رسول وألفها في موضع الحال وقد،  
 معه مقدرة والعامل في الحال، معنى، كلمته فكأنه قال ومنشأه ومبتدعه.

وقيل، ألقاها، حال من فاعل كان وهو مثل قولهم ضَرَبَ بِي زَيْدًا قائماً وقيل،  
 حال، من الهاء المجرورة والعامل فيها معنى الإضافة تقديره وكلمة الله ملقياً  
 إياها رُوحٌ مِنْهُ معطوف على الخبر وثَلَاثَةٌ خبر مبتدأ محذوف أي الهنا ثلاثة  
 إِنَّمَا اللَّهُ مبتدأ وإله خبره ووَاحِدٌ توكيدٌ والباقي واضح.

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

### ◁ التفسير

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا  
 جمهور المفسرين على أنَّ المراد بالآية من جحد وأنكر نبوة النبي بعد

العلم بها من أهل الكتاب الذين ذكر قصتهم، والمراد بصدّهم عن سبيل الله صدّهم الناس عن الذين الذي بعث به نبي الإسلام الإسلام وهذا ممّا لا إشكال فيه لأنّ ما ذكره في المقام من أظهر مصاديق الآية إلا أنّ الأولى حملها على العموم من غير إختصاص بقوم دون قوم أو بزمانٍ دون زمانٍ وذلك لأنّه لا دليل على التخصيص بأهل الكتاب في صدر الإسلام فإنّ الذين كفروا في زماننا هذا مثلاً وصدّوا أي منعوا الناس عن قبول الدين والعمل بأحكامه أيضاً من مصاديق الآية بلا كلام.

نعم شأن نزول الآية لا يبعد أن يكون خاصاً وكيف كان فالمراد بالكفر في الآية هو إنكار النبوة أو مطلق الكفر الشامل لإنكار الله وإنكار رسوله وإنكار جميع ما جاء به من عند الله والمراد بصدّهم عن سبيل الله هو إنكارهم أوصاف النبي مع أنّها كانت موجودة في التوراة والإنجيل وهم كانوا يعلمون به. وأما إذا سألهم عوام الناس عنها قالوا لا نعلم بها أو ليس منها في الكتاب أثر. أو أنّ الآثار والأوصاف الموجودة لا ينطبق على هذا الشخص وأمثال ذلك من الأعداء وهذا هو الصدّ عن سبيل الله ومن كان كذلك فقد ضلّ ضلالاً بعيد لأنّ الصدّ عن سبيل الله في الحقيقة كفرٌ على كفرٍ وضلالة بعد ضلالةٍ ولذلك قال تعالى: **ضَلَالًا بَعِيدًا** أي ضلالاً بعيداً عن الحقّ لأنّه لم يؤمن ومنع غيره أيضاً عن الإيمان وهو كمال الشقاوة والخسران ثم قال تعالى:

**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا**

قالوا في معنى الآية هذا خبر من الله تعالى بأنّ الذين جحدوا رسالة محمد ﷺ كفروا بالله وجحدوه بجحدوهم رسالة نبيه وظلموا نبيه بتكذيبهم إيّاه ومقامهم على الكفر على علم منهم بظلمهم عباد الله وحسداً للعرب و بغياً على رسوله، لم يكن الله ليغفر لهم، أي لم يكن الله ليعفو عن ذنوبهم بترك عقابهم عليها قاله الشيخ في التبيان.

وقال بعض المفسرين أنّ الآية في مقام التأكيد للآية السابقة و على هذا يكون المراد بالظلم هو الصّد عن سبيل الله كما هو ظاهر انتهى.

و المشهور بين المفسرين في معنى الآية هو أنّ المراد بالظلم في قوله: وَ ظَلَمُوا، إنكار نبوة النبي ﷺ.

قال البيضاوي أنّ الذين كفروا و ظلموا بإنكار نبوته أو الناس بصدّهم عمّا فيه صلاحهم و خلاصهم أو بأعمّ من ذلك و عليه، الآية تدلّ على أنّ الكفّار مخاطبون بالفروع اذ المراد بهم الجامعون بين الكفر والظلم، لم يكن الله ليغفر لهم و لا يهديهم طريقاً، قال، لجري حكمه السابق و وعده المحتوم على أنّ من مات على كفره فهو خالد في النار انتهى كلامه.

وقال بعض المفسرين أنّ المراد بالظلم في المقام هو ظلمهم على أنفسهم بسبب كفرهم بالله و برسوله و الحاصل أن كلماتهم حول الآية تدور على ما ذكرناه من أنّ المراد بالظلم هو إنكار النبوة أو إرتكاب الكبائر غير الكفر مثل القتل والزّناء و غيرهما من الكبائر.

وقال الرّازي و أعلم أنا إن حملنا قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا على المعهود السابق لم يحتج الى إضمار شرط في هذا الوعيد لأنّنا نحمل الوعيد في الآية على أقوام علم الله منهم أنّهم يموتون على الكفر و أن حملناه على الاستغراق أضمرنا فيه شرط عدم التّوبة.

ثمّ قال و لا يهديهم طريقاً إلّا طريق جهنّم انتهى كلامه.  
اذا عرفت هذا فنقول لا يمكن حمل الآية على التأكيد للآية السابقة و ذلك لأنّ مفاد الآية الأولى إثبات الضلالة البعيدة لهم.

و مفاد الآية الثانية هو عدم المغفرة لهم أولاً و عدم هدايتهم الى طريق الحقّ ثانياً و بين المعنيين بوّ بعيد فكيف تكون الثانية تأكيداً للأولى.  
و أيضاً لو كان المراد بالظلم في قوله: وَ ظَلَمُوا ظلمهم على أنفسهم بالكفر

وإنكار النبوة أو إرتكاب الكبائر وأمثال ذلك فما معنى قوله: لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، أَلَا يُغْفِرُ لِلْكَافِرِ بَعْدَ إِيمَانِهِ، أَلَا يَهْدِيهِ اللَّهُ إِلَى الْحَقِّ بِسَبَبِ النَّبِيِّ.

فان قلت أن المراد بعدم المغفرة لهم عدمها في حال كفرهم وأما بعد خروجهم عن الكفر ودخولهم في الإيمان فيغفر لهم البتة.

قلت أما أولاً: فَأَنَّ الْآيَةَ مُطْلَقَةٌ لَا مُقَيَّدَةٌ بِالتَّوْبَةِ وَعَدَمُهَا لِلَّهِ إِلَّا يَقْتَدِ إِطْلَاقُهَا بِغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ كَقَوْلِهِ: أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمَغْفِرَةِ بَعْدَ التَّوْبَةِ وَسِيَاقُ الْآيَةِ يَأْبَى عَنِ التَّقْيِيدِ خُصُوصًا بَعْدَ قَوْلِهِ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ هَذَا أَوَّلًا.

ثانياً: أَنَّ حَمْلَ الظُّلْمِ عَلَى الظُّلْمِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِمَّا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَهَكَذَا حَمَلَهُ عَلَى إِنْكَارِ النَّبُوَّةِ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ.

ثالثاً: لو كان المراد بالظلم ما ذكره فهو يغفر بالتوبة فكان حق الكلام أن يقال، إلا من تاب مثلاً بدل إلا طريق جهنم ولم يقل ذلك ومما ذكرناه يعلم أن المراد بالظلم في الآية هو ظلم خاص، الذي لا يغفر أبداً وهو الظلم على الله تعالى بسبب الشرك به فَأَنَّ هَذَا النَّوعَ مِنَ الظُّلْمِ لَا يَغْفَرُ أَبَدًا وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ لِقْمَانَ: يَا بُنَيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ<sup>(١)</sup> وَ ذَلِكَ لِأَنَّ أَقْسَامَ الظُّلْمِ ثَلَاثَةٌ:

ظلم على النفس، وظلم على الغير، وظلم على الله.

فالأول يغفر بالتوبة، والثاني يغفر بالتوبة بعد رضی المظلوم، والثالث لا يغفر أبداً وعلى هذا الإحتمال فمعنى الآية أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَيْ جَحَدُوا وَ أَنْكَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَظَلَمُوا عَلَى اللَّهِ بِالشَّرْكِ بِهِ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ الْآيَةَ هَذَا مَا فَهَمْنَاهُ مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ:

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا.

فأتضح معناه ممّا ذكرناه لأنّ من لا يغفر ولا يهدى إلى طريقٍ إلا طريق جهنّم فلا محالة يكون خالداً فيها وكان ذلك على الله يسيراً لأنّه تعالى قادر على كلّ شيء يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فلا مردّ لحكمه ولا دافع لقضائه ولا يمنعه مانعٌ عمّا أراد ولا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

الخطاب عام لجميع أصناف الكفّار الذين لم يؤمنوا بالنبي ﷺ من مشركي العرب واليهود والنصارى وغيرهم إلى يوم القيامة ولا دليل على تخصيص الآية بالكفّار في حياة النبي كما قيل.

و المراد بالرسول في المقام هو رسول الإسلام لا غيره والذي يفهم من الآية أمران: أحدهما: أنّ الإيمان بالله ورسوله خير للناس في الدنيا والآخرة وإلى هذا المعنى أشار بقوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِلَى قَوْلِهِ: خَيْرًا لَكُمْ وهذا لا يحتاج إلى مزيد بيان إذ لا شيء في عالم الوجود للإنسان أفضل من الإيمان الذي به تحصل سعادة الدارين وحياة النشأتين وهو واضح.

ثانيهما: أنّ الله تعالى غني عن العالمين غير محتاج إلى إيمان المؤمن و أنّما يرجع نفع الإيمان إلى صاحبه فلا ينفعه الإيمان كما لا يضره الكفر.

و إلى هذا المعنى أشار بقوله وأن تكفروا فإنّ لله ما في السموات والأرض ومع ذلك في هذا الكلام إشارة إلى أنّه مالك السموات والأرض وما فيهما من أنواع المخلوق وأصناف الملائكة الذين لا يعصون ربهم طرفة عين قوله: وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا إشارة إلى علمه تعالى وحكمته وأنّ كلّ ما يصدر عنه من الأفعال والأحكام يصدر عن علمه بالمصلحة على أساس الحكمة فلا يفعل لغواً ولا عبثاً نعوذ بالله منه وهذا من الواضحات.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ

المراد بأهل الكتاب في هذه الآية هو النصارى وبالكتاب الإنجيل باتفاق المفسرين وذلك لأن الآية نزلت في ذم الغالين في المسيح بقولهم أن المسيح ابن الله فذمهم الله في هذه الآية وقال لا تغلوا في دينكم، والغلو هو الإفراط والتجاوز عن الحد في كل شيء إذا عرفت هذا فنقول.

أعلم أنه تعالى قد ذم اليهود في الآيات السابقة بتفريطهم في حق المسيح و ذم النصارى في هذه الآية وبعدها بإفراط النصارى في حقه وكلا طرفي قصدهم ذميم وذلك لأن التفریط يوجب تضييع الحق والإفراط يوجب التجاوز عنه فالمفرط والمفرط كلاهما بمعزل عن تأدية الحق ولذلك صاروا مذمومين وحيث أن الغلو معناه التجاوز عن الحد وكلما تجاوز عن الحد فهو باطل.

قال الله تعالى بعد النهي عن الغلو ولا تقولوا على الله إلا الحق أي أن الذي تقولون أيها النصارى في حق المسيح وهو أنه ابن الله باطل لأن المسيح عيسى ابن مريم لا عيسى ابن الله، وأما سمي عيسى بالمسيح لأن أصل المسيح الممسوح نقل من مفعول إلى فعليل سماه الله بذلك لتطهيره آياه من الذنوب وقيل مسح من الذنوب والأدناس التي تكون في الأدميين كما يمسح الشيء من الأذى الذي يكون فيه وقيل هذه الكلمة عبرانية أو سريانية، مشيحاً، فعربت فقيل المسيح كما عرب سائر الأنبياء في القرآن نحو إسماعيل و إسحاق وموسى وعيسى وقيل غير ذلك من الأقوال ولا يهمنا البحث فيها.

إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ

عرّف الله المسيح بأنه عيسى بن مريم نسب إلى أمه لأنه لم يكن له، أب، من جنس البشر حتى ينسب إليه فلا محالة نسب إلى أمه وهذا يكفي في بطلان نسبته إلى الله فيقال عيسى، ابن الله.

ثُمَّ عَرَفَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ أَي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى خَلْقِهِ لِإِنْقَاذِ عِبَادِهِ عَنِ الضَّلَالَةِ وَ  
مَنْ يَكُونُ مَرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ لَا يَكُونُ ابْنًا لَهُ وَلَا يَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ رَسُولٍ  
أَوْ نَبِيٍّ ابْنًا لَهُ وَهُوَ كَمَا تَرَى.

**ثالثاً:** أَنَّهُ كَلِمَتُهُ أَي أَنَّ الْمَسِيحَ كَلِمَةُ اللَّهِ قَالَ الْمَفْسَّرُونَ يَعْنِي بِالْكَلِمَةِ  
الرَّسَالَةَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ مَلَائِكَتَهُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا بِشَارَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهَا الَّتِي ذُكِرَتْ فِي  
قَوْلِهِ: **إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ** <sup>(١)</sup> يَعْنِي بِرِسَالَةٍ مِنْهُ وَ  
بِشَارَةٍ مِنْ عِنْدِهِ وَقَالَ قَتَادَةُ وَالْحَسَنُ هُوَ قَوْلُهُ، كُنْ فَكَانَ، وَإِخْتَارَ الطَّبْرِيُّ الْأَوَّلَ.  
وَقَالَ الْجَبَائِي، ذَلِكَ مُجَازٌ وَأَنْمَا أَرَادَ بِالْكَلِمَةِ أَنَّهُمْ يَهْتَدُونَ بِعَيْسَى كَمَا  
يَهْتَدُونَ بِكَلَامِهِ وَكَذَلِكَ يَحْيَوْنَ بِهِ فِي دِينِهِمْ كَمَا يَحْيِي الْحَيُّ بِالرُّوحِ فَلِذَلِكَ  
سَمَّاهُ رُوحاً وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ: **أَلْقَهَا إِلَى مَرْيَمَ** مَعْنَاهُ أَعْلَمَهَا بِهَا وَأَخْبَرَهَا كَمَا  
يَقَالُ أَقْلَيْتُ إِلَيْكَ كَلِمَةً حَسَنَةً بِمَعْنَى أَخْبَرْتُكَ بِهَا وَكَلِمَتُكَ بِهَا.  
وَقِيلَ مَعْنَاهُ، خَلَقَهُ فِي رَحِمِهَا، وَفِي قَوْلِهِ: **وَرُوحٌ مِنْهُ**، أَقُولُ.

فَقَالَ قَوْمٌ سَمَّيَ بِهِ لِأَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ نَفْخِهِ جِبْرَائِيلُ فِي دَرَجٍ مَرْيَمَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَ  
نَسَبَ إِلَى اللَّهِ لِأَنَّهُ كَانَ بِأَمْرِهِ وَأَنْمَا سَمَّيَ النَّفْخَ رُوحاً لِأَنَّهُارِيجُ تَخْرُجُ مِنَ الرُّوحِ  
وَقَالَ بَعْضُهُمْ مَعْنَاهُ أَنَّهُ كَانَ إِنْسَاناً بِإِحْيَاءِ اللَّهِ آيَاهُ بِتَكْوِينِهِ بِلَا وَاسِطَةٍ مِنْ  
جَمَاعٍ وَنُطْفَةٍ عَلَى مَجْرَى الْعَادَةِ.

وَالثَّالِثُ الْأَقْوَالُ، أَنَّ مَعْنَاهُ، وَرَحْمَةً مِنْهُ فَجَعَلَ اللَّهُ عَيْسَى رَحْمَةً عَلَى مَنْ  
إِتَّبَعَهُ وَآمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ لِأَنَّهُ هَدَاهُمْ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ.

**الرَّابِعُ:** مَعْنَى ذَلِكَ وَرُوحٌ مِنَ اللَّهِ خَلَقَهَا فَصَوَّرَهَا ثُمَّ أَرْسَلَهَا إِلَى مَرْيَمَ  
فَدَخَلَتْ فِي فِيهَا فَصَيَّرَهَا اللَّهُ تَعَالَى رُوحَ عَيْسَى.

**الخامس:** أَنَّ مَعْنَى الرُّوحِ هَا هُنَا الْقُوَّةُ الَّتِي كَانَ بِهَا يَحْيِي الْمَوْتَى.

**السادس:** أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ فِي الْمَقَامِ جِبْرَائِيلَ وَالْمَعْنَى أَنَّ إِلْقَاءَ الْكَلِمَةِ إِلَى

مريم كان من الله تعالى ثم من جبرائيل فهذه هي أصول الأقوال في معنى الكلمة والروح.

ونقل الرازي في معنى الروح قولاً آخر وهو أنه جرت عادة الناس أنهم إذا وصفوا شيئاً بغاية الطهارة والنظافة قالوا أنه روح فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب وإنما تكون من نفخة جبرائيل عليه السلام لا جرم وصف بأنه روح فالمراد من قوله التّشريف والتّفضيل أنه انتهى كلامه.

وقال بعض المتأخرين من المفسرين كلّ شيء كلمة له تعالى غير أن سائر الأشياء مختلطة بالأسباب العادية والذي اختص لأجله عيسى بوقوع إسم الكلمة هو فقدانه بعض الأسباب العادية في تولده ثم قال وروح منه والروح من الأمر قال تعالى: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي <sup>(١)</sup> ولما كان عيسى عليه السلام كلمة، كن، التكوينية وهي أمر فهو روح انتهى.

أقول قال بعض المحققين أن شرف الروح على الأشياء بأنه أيضاً كعيسى تكون بأمر، كن، بلا واسطة شيء آخر فلما تكون الروح بأمر، كن، وتكون، عيسى أيضاً بأمر، كن، سمى روحاً منه لأن الأمر منه تعالى كما قال: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي فكما أن إحياء الأجسام الميتة من شأن الروح إذ ينفخ فيها فكذلك كان عيسى عليه السلام من شأنه إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله و كذلك ينفخ في الطين فيكون طيراً بإذن الله تعالى.

وأعلم أن هذا الاستعداد الروحاني الذي هو من كلمة الله مركز في جبلة الإنسان وخلق منه أي من الأمر وأما أظهره الله تعالى في عيسى من غير تكلف منه في السعي لاستخراج هذا الجوهر من معدنه لأن روحه لم يركز في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات كأرواحنا فكان جوهره ظاهراً في معدن جسمه غير مخفي ببشرية أب، وجوهرنا مخفي في معدن جسمنا ببشرية آباءنا إلى



آدم فمن ظهور أنوار جوهر روحه كان الله تعالى يظهر عليه أنواع المعجزات في بدء طفوليته ونحن نحتاج في إستخراج الجوهر الروحاني من المعدن الجسماني الى نقل صفات البشرية المتولدة من بشرية الآباء والأمهات عن معادننا بأوامر أستاذ هذه الصنعة ونواهيته وهو النبي ﷺ وكما قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا تَنبَأُكَ الْجَنَّةُ وَالْجَهَنَّمُ وَمَا نُهَيْكُمُ عَنْهُ فَأَنْتُمْ عَاذِلُونَ<sup>(١)</sup> فمن تخلص جوهر روحانيته من معدن بشريته وإنسانيته يكون عيسى وقته فيحيي الله بأنفاسه القلوب الميتة ويفتح به آذاناً صمّاً و عيوناً عمياً فيكون في قومه كالنبي في أمته انتهى كلامه تعالى.

وأعلم أنه لما كان النافع جبرائيل وقد ثبت أن الولد سرّ أبيه كان الواجب أن يظهر عيسى على صورة الروحانيين.

والجواب، أنه أنما كان على صورة البشر ولم يظهر على مريم على صورة الروحانيين لأن الماء المحقق عند التمثيل كان في أمه وهي بشر ولأجل تمثّل جبرائيل أيضاً عند النفخ بالصورة البشرية التي هي أكمل الصور. ومن المعلوم أن الصورة التي تشهدها الأم وتخيلها عند المواقعة لها تأثير عظيم في صورة الولد ولذلك تمثّل جبرائيل لها بصورة البشر كما قال الله تعالى: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا<sup>(٢)</sup>.

فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ.

ثم أمرهم بالإيمان بالله وبرسوله ونهاهم عن أن يقولوا الأرباب ثلاثة و تقديره، تقولوهم ثلاثة فقلوه ثلاثة مرفوع بمحذوف دلّ عليه ظاهر الكلام. وأنما جاز ذلك لأن القول حكاية ومثل ذلك قوله: سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَذِبُهُمْ<sup>(٣)</sup> وكذلك كلما ورد من مرفوع بعد القول لا رافع معه ففيه إضمار إسم

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٤

المجلد السادس

رافع لذلك الإسم ثم قال متوعداً لهم على عظيم قولهم الذي قالوه في الله، إنتهوا، أي إنتهوا أيها القائلون الله ثالث ثلاثة فأَنَّ الإنتهاء خير لكم من قولكم لما فيه عند الله من العقاب الآجل أن أقمتم عليه ولم ترجعوا إلى الحق.

قال الزمخشري والذي يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح و مريم ثلاثة ألهة وأن المسيح ولد له من مريم ألا ترى إلى قوله: **عَأْنْتُ قُلْتُ لِلنَّاسِ اخْذُونِي وَأَقْبَى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ** <sup>(١)</sup> وقالت النصارى المسيح ابن الله والمشهور عنهم أنهم يقولون في المسيح لاهوتية وناسوتية من جهة الأب والأم ويدل عليه قوله تعالى: **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَائِبٌ أَنَّهُ وَلَدَ لِمَرْيَمَ** إتصل بها إتصال الأولاد بأمهاتهم وأن إتصاله بالله من حيث الرسالة لا من حيث الولادة وأنه موجود بأمره وإبتداعه جسداً حياً من غير أب فنفي أن يتصل به إتصال الأبناء بالأباء وقوله سبحانه أن يكون له ولد وحكاية الله أوثق من حكاية غيره.

فقال أيضاً فإن صحت الحكاية أنهم يقولون هو جوهر واحد ثلاثة أقانيم، أقنوم الأب وأقنوم الابن، وأقنوم روح القدس وأنهم يريدون بأقنوم الأب الذات وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس الحياة فتقدير الكلام، الله ثلاثة، وإلا فتقديره الألهة ثلاثة انتهى كلامه.

وأما قوله: **خَيْرًا لَكُمْ** معناه أقصدوا أو أتوا أمراً خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث، وهو الإيمان والتوحيد وهو تقدير سبويه في الآية.

وقال الكسائي يكن خيراً لكم، وقال الفراء إيماناً خيراً لكم، أو إنتهاء خيراً لكم بجعل، خيراً، نعتاً لمصدر محذوف ويدل عليه الفعل الذي قبله **إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا** كلمة، أنما، تفيد الحصر أي أن الألوهية منحصرة

لله تعالى فلا يتَّصف بها غيره وهو منزَّه عن أن يكون له ولد لأنَّ الولادة من شئون الجسم والله تعالى ليس بجسم حتى يكون له ولد هذا على قراءة المشهور في أن، وهى فتح الهمزة وقرأ الحسن بكسر الهمزة في إن، وضمَّ النون في، يكون، بناء على أن تكون (إن) نافية أي ما يكون له ولد و عليه فيكون التنزيه عن التثليث والأخبار بانتفاء الولد فالكلام جملتان.

وأما على المشهور فالكلام جملة واحدة وقوله: **لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** إخبار لملكه بجميع من فيهنَّ فيستغرق ملكه عيسى وغيره و من كان ملكاً لا يكون جزءً من المالك هكذا قيل في معنى الكلام والذي نفهم منه هو أنه اذا كان جميع من في السموات ومن في الأرض لله تعالى فعيسى عليه السلام أيضاً داخل فيه فلو كان عيسى ابناً له تعالى متولداً منه للزم أن يكون كل ما في السموات والأرض كذلك ولازم ذلك أن يكون جميع الموجودات أبناء له تعالى وهو كما ترى وأتينا قلنا ذلك لأنَّ حكم الأمثال واحد يكون عيسى ولداً له تعالى دون غيره تحكّم محض وفي قوله: **وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا** إشارة الى أنه تعالى لا يحتاج في كونه خالقاً ومدبراً ورازقاً الى غيره. وقيل معنى كفى بالله، إكتفوا بالله وحده سبحانه وتعالى عما يشركون، ثم أن قول النصاري، في المسيح أنه ابن الله، كلام قالوه من عند أنفسهم كما قال الله تعالى: **لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ** أي لم يمتنع ولن ينقبض فمعنى الآية لن يستكبر المسيح أن يكون عبداً، كما حكى الله تعالى عنه وهو المهد: **قَالَ ابْنِي عَبْدُ اللَّهِ أَتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا** <sup>(١)</sup>.

**الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** أي أن الملائكة أيضاً لا يستكبرون من الإقرار بالعبودية لله تعالى كيف (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعاً) أي من يأنف عن عبادة الله ويتعظم عن التذلل والخضوع له

فسيحشرهو، أي فسيبعثهم يوم القيامة جميعاً يجمعهم لموعدهم عنده و معنى، اليه، الى الموضع الذي لا يملك التصرف فيه سواء كما يقال صار أمر فلان الى القاضي أي لا يملكه غير القاضي.

قال الزمخشري في تفسير قوله: **وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ولا من هو أعلى منه قدراً وأعظم خطراً وهم الملائكة الكروبيون الذين حول العرش كجبرئيل وميكائيل وإسرافيل ومن في طبقتهم.

**فَأَنْ قُلْتَ** من أين دلّ قوله: **وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** على أن المعنى ولا من فوقه.

**قُلْتُ** من حيث أن علم المعاني لا يقتضي غير ذلك و ذلك أن الكلام أنما سبق لردّ مذهب النصارى و غلّوهم في رفع المسيح عن منزلة العبودية فوجب أن يقال لهم لن يترفع عن العبودية و لا من هو أرفع منه درجة كأنه قيل لن يستنكف الملائكة المقربون فكيف بالمسيح و يدلّ عليه دلالة ظاهرة بيّنة تخصيص المقربين لكونهم أرفع الملائكة درجةً و أعلامهم منزلةً و مثاله قول القائل:

وما مثله مِمَّنْ يجاود حاتم ولا البحر ذو الأمواج يَلْتَجِ زاخره  
لا شبهة في أنه قصد بالبحر ذي الأمواج ما هو فوق حاتم في الجود و ما كان له ذوق فليذق مع هذه الآية قوله: **وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى** (١)  
حتّى يعترف بالفرق البين انتهى كلامه بألفاظه و عباراته و أنما نقلنا كلامه لتعلم أنه إستفاد من الآية كون الملائكة المقربين أفضل و أشرف و أرفع درجةً من عيسى بحكم العطف و أن علم المعاني لا يقتضي غير ذلك.

**أقول** ما ذكره الزمخشري لا يرجع الى محصل.

**أما أولاً:** فلاّنه عطف الملائكة على المسيح بالواو و قد ثبت عندهم أن الواو لا تقتضي ترتيباً و أنما هي للجمع تقول ما عابني على هذا الأمر زيد و لا عمرو.

ثانياً: أنه منقوض بقولك لا تؤذوا مسلماً ولا ذمياً فإن هذا الترتيب وجه الكلام.

الثاني: وهو الذمي أدنى وأخفض درجة فلو عكست وقلت لا تؤذ ذمياً ولا مسلماً لتجعل الأعلى ثانياً لخرجت عن حدّ الكلام وقانون البلاغة والحاصل أن المعطوف بالواو قد يكون أعلى وأرفع من المعطوف عليه وقد لا يكون كذلك بل يكون أدنى وأخفض فقانون البلاغة لا يقتضي أحدهما بعينه كما ذهب اليه الزمخشري فلا يستفاد من قوله: **وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** أنهم أرفع درجة من عيسى في مقام العبودية.

أن قلت لم يكونوا أرفع درجة من عيسى فلا وجه لتخصيصهم بالذكر بعد المسيح لأنه إذا ثبت كون المسيح عبداً لله تعالى والمفروض أنه أرفع درجة من الملائكة فيكون الملائكة عبيداً له بطريق أولى.

قلت ذكرهم بعد المسيح لنكتته أخرى خفيت على أكثر المفسرين ومنهم صاحب الكشف وهي تفضيل الملائكة في القوة وشدة البطش وسعة التمكن والإقدار بحسب الظاهر النوع من الفضيلة هو المناسب لسياق الآية لأن المقصود الرد على النصاري في إعتقادهم ألوهية عيسى عليه السلام مستندين إلى كونه أحيى الموتى وأبرء الأكمه والأبرص وصدرت على يديه آثار عظيمة خارقة للعادة فناسب ذلك أن يقال هذا الذي صدرت على يديه هذه الخوارق لا يستنكف عن عبادة الله وعن أن يكون عبداً ضعيفاً محتاجاً إليه بل من هو أكثر خوارق وأظهر أثاراً كالملائكة المقربين الذين من جملتهم جبرائيل عليه السلام وقد بلغ من قوته وإقدار الله له أن إقتلع المدائن وإحتملها على ريشه من خيامه فقلب عاليها سافلها فيكون تفضيل الملائكة بهذا الاعتبار لا خلاف فيه إذ لاشك أن الملك اقوى من البشر وأما الخلاف في التفضيل بإعتبار التقرب إلى الله ومريد الثواب والكرامات ورفع الدرجات في دار الجزاء وليس في الآية عليه دليل ويمكن أن يكون الوجه في تخصيصهم بالذكر بعد المسيح

أمراً آخر وهو أن أكثر ما ليس على النَّصَارَى في ألوهية عيسى هو كونه مخلوقاً من غير أب أي لم يخلق من نطفه البشر وهذا هو الذي دعاهم إلى القول بأن عيسى ابن الله فأنبأنا الله تعالى أن هذا الموجود من غير أب لا يستنكف عن عبادته وأن يكون عبداً له، بل والملائكة المخلوقون من غير أب ولا أم أيضاً لا يستنكفون عن عبادته، وبعبارة أخرى لو كان الملاك في كون الموجود ابن الله أو هو الله مثلاً هو كونه موجوداً من غير أب كما زعمتم فهذا الملاك في الملائكة أكمل وأعظم لأنهم وجدوا من غير أب وأم ومن كان كذلك فهو أقرب من أن يكون إبناً له تعالى ممن وجد من غير أب فقط فاذا كانت الملائكة مقرّين بالعبودية مع أنه لا أب لهم ولا أم فعيسى بطريق أولى فيستفاد من الآية أن الملاك الذي أخذه في كون عيسى ابن الله عاطلٌ باطلٌ وعليه فيكون تأخير ذكر الملائكة في الآية لأجل أن خلقهم أغرب من خلق عيسى ويشهد بذلك أن الله تعالى نظر عيسى بأدم عليهما السلام فنظر الغريب بالأغرب و شبه العجيب من قدرته بالأعجب اذ عيسى مخلوق من أم وأن آدم من غير أب ولا أم ولذلك قال خلقه من ترابٍ ثم قال له كن فيكون والله أعلم.

وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ففيه دلالة على أن الإستنكاف والإمتناع عن عبادته مذمومٌ اذا كان عن إستكبارٍ ومع ذلك يوجب العقاب والتكال يوم القيامة.

وأما اذا لم يكن عن إستكبارٍ فذنبه أسهل كما اذا كان منشأ الإستنكاف جهله بالدين أو قلة مبالاته في الطاعة وأمثال ذلك من الأمور وهو واضح.



فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ  
 أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ  
 اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا  
 يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)  
 يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ  
 أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا  
 بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ  
 وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا (١٧٥)  
 يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ  
 آمَرُوا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ  
 مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ  
 كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا  
 إِخْوَةً رَجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ  
 يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ  
 عَلِيمٌ (١٧٦)

### △ اللغة

فَيُوَفِّيهِمْ، وَفَى يُوفَى تَوْفِيَةً تَوْفِيَةُ الشَّيْءِ بذله وافيًا.  
 بُرْهَانٌ: البرهان ما يبرهن به ويستدل به على إثبات المدعى.  
 يَسْتَفْتُونَكَ، الاستفتاء طلب الفتوى.

الْكَلَالَةُ مصدر يجمع الوارث والموروث جميعاً وتسميته بذلك لأنَّ  
 النسب كلَّ عن الحقوق به.  
 حَظٌّ: النصيب.

## ﴿الإعراب﴾

صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا هو مفعول ثانٍ ليهدي وقيل هو مفعول على المعنى لأنَّ المعنى يعرفهم في الْكَلَالَةِ في، يتعلّق بيفتيكم وقال الكوفيون بيستفتونك لَيْسَ لَهُ وَلَكِنَّ الْجُمْلَةَ في موضع الحال من الضمير في، هلك، وَلَكِنَّ أُخْتُ جُمْلَةٌ حَالِيَةٌ أَيْضًا وجواب الشرط فَلَهَا وهو يرثها، مستأنف لا موضع له وقد سَدَّتْ هذه الجملة مُسَدَّ جواب الشرط الَّذِي هو قوله، إن لم يكن لها ولد، مَا تَرَكَ في موضع الحال من الثَّلاثِ أَنْ تَصْلُوا فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: هو مفعول يبيّن، أي يبيّن لكم ضلالكم لتعرفوا الهدى.

الثاني: هو مفعول له تقديره مخافة أن تَصْلُوا.

الثالث: تقديره لثلاث تَصْلُوا وهو قول الكوفيين ومفعول يبيّن على الوجهين محذوف أي يبيّن لكم الحق.

## ﴿التفسير﴾

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أخبر الله تعالى في هذه الآية عَمَّا وعد المؤمنين الَّذِينَ يَقْرُونَ بتوحيده ويعترفون برؤوبيته ويخضعون لعبادته و يعملون الأعمال الصالحات التي أمر الله بها وبعث بها رسله فقال: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لم يكنف بقوله: آمَنُوا فقال: وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لثلاث يتوهم متوهم أنَّ الإعتقاد القلبي يكفي في المقام وهو دليل على أنَّ الإيمان مشروط بالعمل بل ليس الإيمان إلا العمل وقد تَكَمَّلْنَا في معنى الإيمان و شرائطه فيما مضى من الكلام مفضلًا فَيُؤَقِّبُهُمْ أَجْوَرَهُمْ معناه يؤتيتهم جزاء أعمالهم الصالحة وافيًا تامًا.

وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ أي ويزيدهم الله من فضله وكرمه أكثر ممّا كان وعدهم به من الجزاء على أعمالهم والثواب عليها من الفضل والزيادة وهي التي لم يعرفهم مبلغها لأنَّه وعد الحسنه عشر أمثالها من الثواب وأمّا الزيادة





العمل الصّالح بعد ذلك لأنّ الإيمان لا يتحقّق بدون العمل وبهذه الأمور تحصل القابليّة في العبد.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إختلفوا في سبب نزول الآية فعن سعيد بن المسيّب سأل عمر النّبي عن الكلالة، فقال ﷺ أليس قد بيّن الله ذلك قال فنزلت وعن جابر بن عبد الله أنّه قال إشتكيت وعندي تسع أخوات لي أو سبع فدخل عليّ النّبي فنفخ في وجهي فأفقت فقلت يا رسول الله ألا أوصي لأخواتي بالثلثين قال أحسن، قلت الشّطر قال، أحسن ثمّ خرج وتركني ورجع إليّ فقال يا جابر أتّي لا أراك ميتاً من وجعك هذا وأَنْ الله عزّ وجلّ قد أنزل في الذي لأخواتك فجعل لهنّ الثلثين قال وكان جابر يقول نزلت هذه الآية، في.

وقال قتادة أنّ أصحاب رسول الله ﷺ همّم شأن الكلالة فأنزل الله فيها هذه الآية، اذا عرفت السّبب في نزولها فاعلم أنّهم إختلفوا في معنى الكلالة. قال الرّاعب في المفردات الكلالة إسم لما عدا الولد والوالد من الورثة. وقال ابن عباس هو إسم لمن عدا الولد.

وروي عن النّبي ﷺ أنّه قال من مات وليس له ولد ولا والد فجعله إسماً للميت وكلا القولين صحيح فإنّ الكلالة مصدر يجمع الوارث والموروث جيمعاً وتسميتها بذلك أمّا لأنّ النّسب كلّ عن اللّحوق به أو لأنّه قد لحق به بالعرض من أحد طرفيه وذلك لأنّ الإنساب ضربان:

أحدهما: بالعمق كنسبة الأب والإبن.

الثّاني: بالعرض كنسبة الأخ والعمّ قال قطرب الكلالة إسم لما عدا الأبوين والأخ، وليس بشيء وقال بعضهم هو إسم لكلّ وارث كقول الشّاعر:  
والمرء يَبْخُلُ بِالْحُقُوقِ      وللكلالة ما يُسَمِّمُ  
من أسام الإبل اذا أخرجها للمرعى، وأنما خصّ الكلالة ليزهد الإنسان في

جمع المال لأن ترك المال لهم أشد من تركه للأولاد، وتنبيهاً أن من خلّفت له المال فجارٍ مجرى الكلالة و ذلك كقولك، ما تجمععه فهو للعدو.  
وتقول العرب لم يرث فلان كذا كلالَةً، لمن تَخَصَّص بشيءٍ قد كان لأبيه قال الشاعر:

وَرِثْتُمْ قَنَاةَ الْمَلِكِ غَيْرَ كَلَالَةٍ عَنْ ابْنِي مَنْافٍ عَبْدَ شَمْسٍ وَهَاشِمٍ  
وَالْإِكْلِيلِ سَمِيَّ بِذَلِكَ لِإِطَافَتِهِ بِالرَّأْسِ يُقَالُ كُلُّ الرَّجُلِ فِي مَشِيَّتِهِ كَلَالًا، وَ  
السَّيْفِ عَنْ ضَرْبَتِهِ كَلُولًا وَكَلَّةً وَاللِّسَانِ عَنِ الْكَلَامِ كَذَلِكَ كَمَا يُقَالُ قُلٌّ بَيَانِي وَ  
كُلٌّ لِسَانِي.

قال الطبري في تفسيره لهذه الآية وإختلف عن عمر في الكلالة فروي عنه أنه قال فيها عند وفاته هو من لا ولد له ولا والد وروي عنه أيضاً أنه قال قبل وفاته هو ما خلّى الأب، وروي عنه أنه قال لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر أبو بكر يقول هو ما خلا الولد والوالد وعن سعيد بن المسيّب أنّ عمر كتب في الجدّ والكلالة كتاباً فمكث يستخير الله فيه يقول اللهم أن علمت فيه خيراً فأمضه حتّى إذا أظعن دعا بالكتاب فمحي فلم يدر أحد ما كتب فيه فقال أني كنت كتبت في الجدّ والكلالة كتاباً وكنت أستخير الله فيه فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليه انتهي.

**أقول** وروي الطبري في كتابه كثيراً من الأحاديث بهذا المضمون وأنّ معنى الكلالة قد خفي على أبي بكر وعمر حتّى أنّه روي عن ابن عمر قال سمعت عمر بن الخطاب يخطب على منبر المدينة فقال أيّها النّاس ثلاث وددت أنّ رسول الله ﷺ لم يفارقنا حتّى يعهد الينا فيهنّ عهداً ينتهي اليه، الجدّ والكلالة، وأبواب الرّياء.

وروي بأسناده عن مسروق عن أبيه قال سألت عمر وهو يخطب النّاس عن ذي قرابة لي ورث كلاله، فقال عمر الكلالة، الكلالة الكلالة وأخذ بلحيته

ثم قال والله لأن أعلمها أحب إلي من أن يكون لي ما على الأرض من شيء سألت عنها رسول الله ﷺ فقال ألم تسمع الآية التي أنزلت في الصَّيف فأعادها ثلاث مرّات انتهى.

وبأسناده عن أبي الخير أنّ رجلاً سأل عقبة عن الكلالة فقال ألا تعجبون من هذا يسألني عن الكلالة وما أعضل بأصحاب رسول الله ﷺ شيء ما أعضلت بهم الكلالة انتهى.

أقول من هذه الأخبار التي نقلنا شطراً منها يعلم أنّ معنى الكلالة كان مجهولاً عندهم في صدر الإسلام ولم يعلمه أبو بكر ولا عمر فضلاً عمّن تبعهما من الأصحاب ومن لم يعلم معنى الكلالة فكيف تصدّى لأمر الخلافة هذا أمرٌ أولاً.

ثانياً: نقول في جواب عمر حيث قال وددت أنّ رسول الله لم يفارقنا حتّى يعهد إلينا فيهنّ عهداً ينتهي إليه، الجدّ، والكلالة، وأبواب الرّياء، هلاً سألت عن هذه الثلاثة عن باب مدينة علم النّبي ﷺ الذي كان يقول على رؤوس الأشهاد سلوني قبل أن تفقدوني كما سألته عن كثير من المعضلات فاعتبروا يا أولي الأبصار.

ثالثاً: لو كان عمر صادقاً في قوله سألت رسول الله عن معنى الكلالة فقال لي ألم تسمع الآية التي أنزلت في الصَّيف فأعادها ثلاث مرّات، ولم يبيّن له معناها للزم أن يكون الرّسول مقصراً في تبليغ أحكام الله وهو كما ترى بيان الملازمة هو أنّ الكلالة قد ذكرها الله في كتابه وأثبت لها الإرث وهو أي الإرث من الأحكام ولكن لم يبيّن معناها والمقصود منها معلوم ثم أنّ النّبي ﷺ كان مأموراً من قبل الله أن يبيّن معنى الكلالة للأمة والمفروض أنّه لم يبيّن وأحال عمر على الآية فكان مقصراً وهو ظاهر ثم أنّ هذا التّقصير لا يخلو حاله من وجهين:

**أحدهما:** أنه ﷺ كان جاهلاً بمعناها كغيره من أفراد الأمة.

**ثانيهما:** أنه كان عالماً بمعناها ومع ذلك لم يبينه، لا سبيل إلى الأول لأن الجاهل بما أنزل عليه لا يكون نبياً، إذ لا فرق بينه وبين غيره.

**الثاني:** أيضاً غير معقول لأنه كان عالماً على الفرض مأموراً بتبليغ الأحكام من قبل الله تعالى أمساكه عن الجواب اللهم إلا أن يكون الموضوع أو الحكم مملاً لا ينبغي أن يذكر بمعنى أن المصلحة في السكوت عنه وما نحن فيه ليس من هذا القبيل لكونه من موارد إبتلاء الناس به في الإرث وإذا كان كذلك فكان النبي مقصراً وهو كما ترى.

**وأبعاً:** على فرض التسليم وأنه ﷺ لم يبين معناها كما يقولون، فقد قال في الحديث المتفق عليه بين الفريقين إنني تارك أو مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فقد قرن ﷺ الكتاب بالعترة والعترة بالكتاب وأنهما لن يفترقا.

معناه أن الكتاب لا يعلم تفسيره بعد النبي إلا العترة وإذا كان كذلك فما بال عمر وقبله أبو بكر لم يسألا أمير المؤمنين علياً عن معنى الكلالة ألم يعلم أصحاب النبي ﷺ أنه لا علم لهم بالكتاب، ألم يعلموا أن علياً باب مدينة علم الرسول وحلال المشكلات بعده وأنه في رأس العترة المشار إليها في الحديث فلم لم يسألوا عنه فهم مقصرون في بقاءهم على جهلهم إلى يوم القيامة وبهذا وأمثاله يعلم سر الإمامة والوصاية وأن النبي لم يترك الأمة سدى وأن الوصي، لابد من أن يكون أعلم الناس بعد النبي وهكذا سائر الشروط المعتمدة في الخليفة والإمام على ما هو مذكور في موضعه.

فنقول إعلم أن الكلالة ما خلا الوالد والولد سمو كلاله لإستدارتهم بنسب الميت الأقرب فالأقرب من تكلة الشيء إذا إستدار فكلّ وارث ليس بوالد للميت ولا ولد له فهو كلاله مورثته وعن القاموس الكلالة الإعياء ومن لا ولد له ولا والد.

وَأَمَّا الْأَخْبَارُ فَمِنْهَا:

ما رواه في معاني الأخبار في الصحيح بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام الكلالة ما لم يكن والد ولا وَلَدَ.

ما رواه الشيخ عنه عليه السلام ما لم يكن وَلَدَ ولا والد.

ما رواه بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال إذا ترك الرجل أباه وأمه وأبنة وأبنته أو ترك واحداً من هؤلاء الأربعة فليس هُم الَّذِينَ عَنِ اللَّهِ بقوله: قُلِ اللَّهُ يُفْتِكُمْ فِي الْكَلَالَةِ.

ما رواه في الكافي بأسناده عن زرارة قال إذا ترك الرجل أمه وأباه وأبنة وأبنته أو ترك واحداً من الأربعة فليس بالذي عَنِ اللَّهِ في كتابه بقوله: قُلِ اللَّهُ يُفْتِكُمْ فِي الْكَلَالَةِ انتهى.

فالكلالة تطلق على الوارث والموروث من جهة إنتساب كل فيهما إلى الآخر وهي مصدر يتناول الذكر والأنثى فإرث الأخوة والأخوات مشروط بفقد الوالد والولد جميعاً إذا عرفت هذا.

فلنرجع إلى تفسير الآية فنقول: يَسْتَفْتُونَكَ أي يطلبون منك الفتوى في هذه المسألة قُلِ اللَّهُ يُفْتِكُمْ فِي الْكَلَالَةِ أي قل للمستفتين، أِنَّ اللَّهَ تعالى يفتيكم فيها فيقول إِنْ أَمْرُؤَا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ إِنْ بكسر الهمزة شرط مختص بالفعل.

وقوله: أَمْرُؤَا فاعل لفعلٍ محذوف يفسره، هلك، وجملة، ليس له ولد، حال من المستكن في هلك أو صفة إمرؤٍ والمعنى من هلك أي مات والحال أَنَّهُ ليس له ولد من ذكرٍ وأنثى وأتينا قلنا ذلك لأنَّ الولد يشملهما في الأصل مضافاً إلى إجماع الإمامية ودلالة الأخبار وبه قال السدي فقال معناه ليس له ولد ذكر وأنثى.

أقول ويؤيد هذا التعميم أَنَّ الكلالة على ما مرَّ الكلام فيها ما خلا الوالد والولد.

فإرث الأخوة والأخوات مشروط بفقدتهما جميعاً وعليه فذكر الولد في الآية أنما هو لأجل التأكيد فالتقدير إن إمراً هلك وليس له والد ولا ولد كما هو معنى الكلالة فلا معنى لقول صاحب المجمع حيث قال في تفسير الكلام. وأما أضمرنا فيه الوالد للإجماع مع أنه صرح بعد هذا الكلام بأن لفظ الكلالة يُنبئ عنه فأنها إسم للنسب المحيط بالميت دون اللصيق والوالد لصيق الولد كما أن الولد لصيق الوالد وعليه فلا نحتاج في دخول الوالد في المقام إلى الإجماع بعد دلالة لفظ الكلالة على المدعى وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ قد عرفت أن الكلالة ما خلا الولد والوالد، فالأخت من الكلالة يعني مات وليس له ولد ولا والد، وله أخت لأبيه وأمه أو لأبيه فقط، فلها أي فالأخت من الأبوين أو من الأب نصف ما ترك الميت.

أما الأخت من الأبوين فواضح لا خلاف فيه وأما الأخت للأب فقط فهي تقوم مقامها وأما النصف الباقي فهو أيضاً للأخت بالرد سواء كان هناك عصبه أو لم يكن وقال الفقهاء من العامة أن الباقي أي النصف الآخر للعصبه والمراد بها العم وبني العم وأولاد الأخ، فمن قال بالرد على ذوي الأرحام رد على الأخت الباقي وهو إختيار الجبائي وأكثر أهل العلم.

وقال زيد بن ثابت والشافعي وجماعة أن الباقي لبيت المال يرثه جميع المسلمين وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ يعني إن كانت الأخت هي الميتة ولها أخ من أب وأم أو من أب فالمال كله له بلا خلاف إذا لم يكن هناك ولد سواء كان ولدها ذكراً أو أنثى فأن كان ولدها ذكراً فالمال له بلا خلاف ويسقط الأخ وأن كانت بنتاً كان لها النصف بالتسمية بلا خلاف والباقي يرد عليها لأنها أقرب دون الأخ ويدل عليه قوله: وَهُوَ يَرِثُهَا أي أن الأخ يرث الأخت في صورة عدم الولد لها أي يرث المال جميعاً.

وأما عمماً الولد في الآية لأن البنت ولد حقيقة فمن خالف في تسمية البنت ولداً فقد أخطأ نقل الشيخ في التبيان عن البلخي أنه أنكر كون البنت ولداً.

فقال لو مات وخلف بنتٌ وابوين أنَّ للأبوين الثلث، مع أنَّه تعالى قال و لأبويه لكلٍّ واحدٍ منهما السُّدُسُ أنَّ كان له ولد، قال أراد الولد الذكر وهو خطأ منه لأنَّه خلاف أهل اللِّغة إذ لا خلاف عندهم في تسميته البنت بأنَّها ولد و لأنَّه قال تعالى: **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ** <sup>(١)</sup> ثُمَّ فَسَّرَ الأولاد فقال: **فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ** فلو كان الولد لا يقع على الأنثى لكان المال بينهم بالسوية و مالك خلاف في القرآن ففي المقام للأبوين السُّدُسان، و للبنت النصف و الباقي ردَّ عليهم على قدر سهامهم فنجعل الفريضة من خمسة و من ردَّ الباقي على الأب فإنما يرده بالتعصيب لا لأنَّ البنت لا تسمى ولدًا فإنَّ **كُنَّا أَثْنَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِثًا تَرَكَ** أي فإن كانت الأختان إثنين فلهما الثلثان و هذا لا خلاف فيه و الباقي على ما بيَّناه من الخلاف في الأخت الواحدة عندنا ردَّ عليها دون عصبتها و دون ذوي الأرحام و إذا كان هناك عصبه ردَّ الفقهاء الباقي عليهم و أن لم يكن ردَّ على ذوي الأرحام من قال بذلك فردَّ على الأختين لأنَّهما أقرب و من لم يقل بذلك ردَّ على بيت المال هذا إذا كانا لأب و أمَّ فإن كانت إحدى الأختين لأب و أمَّ و الأخرى لأبٍ فلاأخت للأب و الأمَّ النصف بلا خلاف و الباقي ردَّ عليهما عندنا لأنَّها تجمع النسبين و لا شيء للأخت للأب لأنَّها انفردت بسبب واحد و عند العامة لها السُّدُسُ تكملة الثلثين و الباقي على ما بيَّناه من الخلاف و **إِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَ نِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ** بلا خلاف فإن كان الذكور منهم للأب و الأمَّ والإناث للأب الفرد الذكور بجميع المال إتِّفاقاً و أن كان الإناث للأب و الذكور للأب كان للإناث الثلثان ما سَمِيَ بلا خلاف و الباقي عندنا ردَّ عليهنَّ لما بيَّناه من اجتماع السببين لهنَّ و عندهم أنَّ الباقي للأخوة من الأب فأنَّهم عصبه يُمَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا قيل معناه لئلا تَضِلُّوا و قال البصريون لا يجوز إضمار، لا، والمعنى يبيِّن الله لكم كراهة أن تَضِلُّوا و حذف كراهة، لدلالة الكلام عليه و



اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ أَي لا يخفي عليه شيء من مصالح عباده في قسمة موارثتهم وغيرها من جميع الأشياء وهو ظاهر لا خفاء فيه وقد ذكر بعض المحققين في المقام فوائد لا بأس بالإشارة إليها.

**الأولى:** قد دلت الآية على أن إرث الأخوة عطا مشروط بانتفاء الوالدين والأولاد مطلوب فإن الوالدين والولد أهل المرتبة الأولى والأخوة في المرتبة الثانية ومن المعلوم أن الأولى تمنع الثانية عن الإرث والأجداد في مرتبة الأخوة وأن أولاد الأخوة وأن نزلوا يقومون مقام آبائهم في مقاسمة الجد كما أن الأجداد وأن علو يقاسمون الأخ كما هو مفصل في الفروع وعلم من ذلك أن الأعمام والأخوال يشترط في توريثهم إنتفاء الأخوة وأولادهم والأجداد، وهم أهل المرتبة الثالثة وأبنائهم يقومون مقامهم على التفصيل المذكور في الفروع.

**الثانية:** دلت الآية على تفصيل توريث كلاله الأب على الإطلاق كما أن الآية السابقة قوله: **وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ**<sup>(١)</sup> وقد مرّ البحث فيها.

قد دلت على حكم كلاله الأم وعلم من ذلك أن الكلالتين قد يجتمعان وقد يفترقان وكذا حالهما مع الأزواج لعدم المنافاة فنقول أن إنفراد واحد من كلاله الأم كان له السدس وأن كانوا أكثر فهم شركاء فيه يرثون الثلث بالتسمية والباقي يرد عليهم لبطلان القول بالتعصيب عندنا وكذا إذا كان المنفرد أخت أو اثنتين فصاعداً من كلاله الأب فيرث النصف والثلثين تسميةً والباقي بالرد عليهما، وأما أن إجتماع الكلالتان فإن كان الذين من طرف الأب ذكوراً وإناثاً كان لمن تقرب بالأم السدس أن كان واحداً أو الثلثان أن كانوا أكثر وكان الباقي لمن تقرب بالأبوين واحداً كان أو أكثر ويقوم مقامهم المتقرب بالأب عند عدمهم، وأن كان المتقرب بالأبوين أو الأب أخت أو أختين فصاعداً كان لمن

تَقَرَّبَ بِالْأُمِّ فَرِيضَةً وَكَانَ لِلْأَخَوَاتِ مِنْ طَرَفِ الْأَبَوَيْنِ أَوْ الْأَبِ النِّصْفُ أَوْ الثَّلَاثَانِ بِالْفَرِيضَةِ وَالْبَاقِي عِنْدَ الْعَامَةِ لِلْعَصْبَةِ وَأَجْمَعَ أَصْحَابُنَا عَلَى بَطْلَانِ ذَلِكَ لِأَيَّةِ الْأَرْحَامِ فَقَالَ ابْنُ عَقِيلٍ يَزِدُّ عَلَى الْجَمِيعِ عَلَى نِسْبَةِ سَهَامِهِمْ وَبِهِ قَالَ الشَّيْخُ فِي الْمَبْسُوطِ وَابْنُ الْجَنِيدِ وَابْنُ إِدْرِيسَ وَالْمَحَقِّقُ، لَكِنَّ إِذَا كَانَ الْمَشَارِكُ أَخَوَاتِ الْأَبِ خَاصَّةً وَالْمَشْهُورُ إِخْتِصَاصَ الْمُتَقَرَّبِ بِالْأَبَوَيْنِ أَوْ الْأَبِ بِذَلِكَ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَاهُ الشَّيْخُ عَنْ مُحَمَّدَ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ ابْنِ أُخْتِ الْأَبِ وَابْنِ أُخْتِ لِلْأُمِّ السَّدَسِ وَابْنِ الْأُخْتِ مِنَ الْأَبِ الْبَاقِي، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ عليه السلام فِي ابْنِ أَخٍ لِأَبٍ وَابْنِ أَخٍ لِأَبٍ وَابْنِ أَخٍ لِلْأُمِّ قَالَ عليه السلام: لِابْنِ الْأَخِ مِنَ الْأُمِّ السَّدَسُ وَمَا بَقِيَ فَلِابْنِ الْأَخِ مِنَ الْأَبِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْوَلَدَ يَقُومُ مَقَامَ أَبِيهِ فَيَعْلَمُ مِنْهُ أَنَّ الْأَبَاءَ كَذَلِكَ وَيُرْشِدُ إِلَيْهِ أَيْضاً قَوْلُهُ عليه السلام فِي صَحِيحَةٍ بِكَبِيرٍ، صَحِيحَةُ مُحَمَّدَ بْنِ مُسْلِمٍ، فَهَمُّ الَّذِينَ يَزِيدَادُونَ وَيَنْقُصُونَ لِأَنَّ ضَمِيرَهُمْ، رَاجِعٌ إِلَى الْمُتَقَرَّبِ بِالْأَبِ مُطْلَقاً فَلَا مَعْنَى لَزِيادَتِهِمْ إِلَّا الزَّدَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ إِجْتِمَاعِ الْكَلَالَاتِ كَمَا أَنَّهُ لَا نَعْنِي لِلنَّقْصِ إِلَّا الْأَخْذَ دُونَ الْفَرِيضَةِ كَمَا فِي حَالِ الْإِجْتِمَاعِ مَعَ الزَّوْجِ فَإِنَّهُ فِي صُورَةِ الْإِجْتِمَاعِ مَعَ الزَّوْجَةِ أَوْ الزَّوْجَةِ يَأْخُذَانِ نَصِيبَهُمَا الْأَعْلَى وَيَأْخُذُ الْوَاحِدُ مِنَ كَلَالَةِ الْأُمِّ السَّدَسِ وَالْأَكْثَرُ الثَّلَاثُ وَالْبَاقِي لِكَلَالَةِ الْأَبِ وَيَكُونُ النَّقْصُ دَاخِلاً عَلَيْهِمْ وَالْأَخْبَارُ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ الْقِسْمَةَ مَعَ الْأَزْوَاجِ هَكَذَا كَثِيرَةٌ.

وَأَمَّا الْعَامَةُ فَيَعُولُونَ الْفَرِيضَةَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ وَيَدْخُلُونَ النَّقْصَ عَلَى الْجَمِيعِ وَأَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لَمَّا ائْتَفَتْ عِنْدَهُ الْفَرَائِضُ وَدَفَعَ بَعْضُهَا بَعْضاً قَالَ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَيُّكُمْ قَدَّمَ اللَّهُ وَأَيُّكُمْ أَخَّرَ اللَّهُ وَمَا أَجْدُ شَيْئاً هُوَ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ أَقْسِمَ عَلَيْكُمْ هَذَا الْمَالُ بِالْحَصَصِ فَأَدْخَلَ عَلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ مَا دَخَلَ عَلَيْهِ مِنْ عَدْلِ الْفَرِيضَةِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَيْمَنُ اللَّهِ لَوْ قَدَّمَ مِنْ قَدَّمَ اللَّهُ وَأَخَّرَ مِنْ أَخَّرَ اللَّهُ مَا عَالَتْ فَرِيضَةٌ ثُمَّ قَالَ كُلُّ فَرِيضَةٍ لَمْ يَهْبِطْهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ فَرِيضَةٍ إِلَّا إِلَى فَرِيضَةٍ فَهَذَا مَا قَدَّمَ اللَّهُ كَالزَّوْجِ إِلَى الرَّبْعِ وَالزَّوْجَةِ إِلَى الثَّمَنِ لَا

يزيلهما عنه شيء وكذا الأم إلى السدس وأما ما أخر فكل فريضة إذا زالت عن فرضها لم يكن لها إلا ما بقى فتلك ما أخر كفريضة البنات والأخوات التي هي النصف والثلاثان فإذا أزالتهن الفرائض لم يكن لهن إلا ما بقى.

روى الفضل بن شاذان بسنده عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال الفرائض من ستة أسهم، الثلاثان أربعة أسهم النصف ثلاثة أسهم والثلاث سهمان والرّبع سهم ونصف الثمن ثلاثة أرباع سهم ولا يرث مع الولد إلا الأبوان والزّوج والمرأة يحجب الأم عن الثلث إلا الولد والأخوة ولا يزداد الزّوج عن النصف ولا ينقص من الرّبع ولا تزداد المرأة عن الرّبع ولا تنقص من الثمن وأن كنّ أربعاً ودون ذلك فهنّ فيه سواء ولا تزداد الأخوة من الأم على الثلث ولا ينقصون من السدس وهم فيه سواء الذّكر والأنثى ولا يحجبهم عن الثلث إلا الولد والوالد.

الثالثة: لو اجتمع مع الأخوة للأم جدّاً أو جدّة أو هما معاً من قبلها كان الجدّ كالأخ والجدّة كالأخت وكذا إذا اجتمع مع الأخت للأبوين أو للأب جدّاً أو جدّة كان الجدّ كالأخ للأب ولو اجتمع الجدّ للأب مع الجدّ للأم كان الجدّ الأم الثلث والباقي لجدّ الأب.

الرابعة: روى الشيخ بأسناده عن سعد بن أبي خلف قال:

سألت أبا الحسن موسى عليه السلام عن بنات بنت وجدّ قال عليه السلام للجدّ السدس والباقي لبنات البنت ولعلّ هذا مستند الصدوق حيث ذهب إلى أنه يرث الجدّ مع ولد الولد ويرث الجدّ للأب مع الأب والجدّ من قبل الأم مع الأم وقال أيضاً لو خلّفت زوجها وابن ابنها وجدّها فللزّوج الرّبع وللجدّ السدس والباقي لابن الأب وتفصيل الكلام في الموارد يطلب من كتب الفقه وفيما ذكرناه كفاية في تفسير الآية.

## سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ  
 بِهِمَّةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي  
 الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَخُكِّمُ مَا يُرِيدُ (١) يَا  
 أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا  
 الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا  
 أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَ  
 رِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ  
 شَنَاةُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ  
 تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا  
 تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ  
 اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَ  
 أَلْدَمُّ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَ  
 الْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيجَةُ وَ

مَا أَكَلَ السَّيِّعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى  
النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَُمْ فِسْقٌ  
الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا  
تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ  
أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ  
دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ  
فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)

### ◁ اللغة

بِالْعُقُودِ، العقود جمع عقد وأصله عقد الشئ بغيره وهو وصله به كما  
يعقد الحبل إذا وصل به شيئاً.

بِهَيْمَةٍ الْأَنْعَامِ: البهيمة بفتح الباء وكسر الهاء ما لا نطق له لكن خص في  
التعارف بما عدا السباع والطير يقال ليل بهيم إذا أبهم أمره للظلمة فهو فعيل  
بمعنى مفعول، والأنعام بفتح الألف جمع نَعَم، وهي تقال للإبل والبقر والغنم  
ولا يقال لها أنعام حتى يكون في جملتها الأبل وذلك لأن النعم مختص بالإبل  
وتسميته به لكونه عندهم أعظم نعمة.

شَعَائِرَ اللَّهِ، الشعائر بفتح الشين جمع شَعِيرَة وشعائر الحج مناسكه.  
أَلْهَدَى بفتح الهاء جمع واحده هدية وأصله، هدية، وهو ما هداه  
الإنسان من بعير أو بقرة أو شاة أو غير ذلك إلى بيت الله تقريباً به إلى الله تعالى  
أَلْقَلَائِدَ بفتح القاف جمع، قلادة وهي المفتولة التي تجعل في العنق من  
خيوط وفضة وغيرهما.

أَمِينٌ بكسر الميم المشددة من أَمَّ يَوْمٌ إذا قصد أي القاصدون.  
يَسْعُونَ من يبتغي يبتغى إبتغاءً وإبتغاء الطلب.

شَتَّانُ بَفَتْحِ النَّوْنِ وَإِسْكَانِهَا، الْبُغْضِ.  
 أَلْمُنْخِيفَةُ هِيَ الَّتِي تَمُوتُ خَنْقًا وَهُوَ حَبَسَ النَّفْسَ سِوَاءَ فَعَلٍ بِهَا ذَلِكَ  
 أَدَمَّى أَوْ إِتَّقَى لَهَا ذَلِكَ.  
 أَلْمَوْقُودَةُ هِيَ الَّتِي تَرْمَى أَوْ تَضْرِبُ بِحَجَرٍ أَوْ عَصَا حَتَّى تَمُوتَ مِنْ غَيْرِ  
 تَرْكِيزٍ.

أَلْمُتَرَدِّدَةُ بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِ التَّاءِ هِيَ الَّتِي تَتَرَدَّدُ مِنَ الْعُلُوِّ إِلَى السُّفْلِ  
 فَتَمُوتُ.

وَأَلنَّطِيحَةُ فَصِيلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٌ وَهِيَ الشَّاةُ تَنْطَحُهَا أُخْرَى أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ  
 فَتَمُوتُ قَبْلَ أَنْ تَرْكَبَ.

أَلنُّصْبُ بِضَمِّ النَّوْنِ وَالصَّادِ جَمْعٌ، نَصَابٌ كَحَمَرٍ وَحِمَارٍ وَقِيلَ إِسْمٌ مَفْرُودٌ وَ  
 الْجَمْعُ أَنْصَابٌ وَقَالَ ابْنُ فَارَسٍ، النَّصْبُ، حَجَرٌ كَانَ يَنْصَبُ فَيَعْبُدُ وَتَنْصَبُ عَلَيْهِ  
 دُمَاءُ الذَّبَائِحِ.

تَسْتَنْفِسُوا بِالْأَزْلَامِ، الْأَزْلَامُ قِدَاحُ الْمَيْسَرِ وَاحِدُهَا، زَلَمَ وَزَلَمَ  
 مُتَجَانِفٌ، التَّجَانِفُ التَّمَايِلُ فَأَنَّ الْجَنْفَ الْمِيلَ.

## الإعراب

إِلَّا مَا يَثْلَى عَلَيْكُمْ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ مِنْ بَهْمَةِ الْأَنْعَامِ وَ  
 الْإِسْتِثْنَاءِ مُتَّصِلٌ غَيْرُ حَالٍ مِنَ الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ فِي، عَلَيْكُمْ أَوْ لَكُمْ وَقِيلَ مِنْ  
 ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي، أَوْفُوا، مُحْلِي إِسْمٍ فَاعِلٍ مُضَافٍ إِلَى الْمَفْعُولِ وَحَذَفَتِ النَّوْنُ  
 لِلْإِضَافَةِ أَلَصِيدٍ مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ وَلَا أَفْلَاحًا أَيَّ وَلَا ذَوَاتِ الْقَلَانِدِ  
 لِأَنَّهَا جَمْعٌ، قِلَادَةٌ وَالْمُرَادُ تَحْرِيمُ الْمَقْلَدَةِ لَا الْقِلَادَةَ يَبْعَثُونَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ  
 مِنَ الضَّمِيرِ فِي، آمِينَ، أَنْ صَدُّوكُمْ يَقْرَأُ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَهِيَ مُصَدَّرِيَّةٌ وَالتَّقْدِيرُ  
 لِأَنَّ صَدُّوكُمْ، وَمَوْضِعُهُ نَصَبٌ أَوْ جَرٌّ عَلَى الْإِخْتِلَافِ فِي نَظَائِرِهِ وَيَقْرَأُ بِكَسْرِهَا  
 عَلَى أَنَّهَا شَرْطٌ وَالْمَعْنَى أَنْ يَصَدُّوكُمْ مِثْلَ ذَلِكَ الصَّدِّ الَّذِي وَقَعَ مِنْهُمْ مَا أَكَلَّ

السَّبْعُ ما، بمعنى الَّذِي و موضعه، رفع عطفاً على المِيتَةِ إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ فِي موضع نصب، إستثناء من الموجب قبله و الإستثناء راجع الى المتردية و النطيحة و أكيلة السَّبْع، و الباقي واضح.

### ◀ التفسير

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْخَطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُعْتَرِفِينَ بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُقَرِّينَ لَهُ بِالْعُبُودِيَةِ الْمُصَدِّقِينَ لِرَسُولِهِ فِي رِسَالَتِهِ وَ نُبُوَّتِهِ وَ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مِنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ فَأَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ وَ الْإِعْتِقَادِ بِالْجَمِيعِ ثُمَّ الْعَمَلُ بِمَا أَقْرَبَهُ وَ إِعْتَقَدَهُ وَأَمَّا خَاطِبُ الْمُؤْمِنِينَ دُونَ النَّاسِ لِأَنَّ مَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ لَا يَلْتَزِمُ بِهِ إِلَّا مُؤْمِنٌ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أَمْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِيْفَاءِ الْعُقُودِ وَ هِيَ الْعُهُودُ الَّتِي عَاهَدُوهَا وَ إلتزموا بِهَا بَعْدَ قَبُولِهِمُ الْإِسْلَامَ يُقَالُ أَوْفَى بِالْعَهْدِ وَ وَفَى بِهِ، إِلَّا أَنْ، أَوْفَى بِهِ لُغَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ وَ هِيَ لُغَةُ الْقُرْآنِ وَ لِذَلِكَ قَالَ، أَوْفُوا، ثُمَّ أَنَّهُمْ اِخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الْمُرَادِ بِالْعُقُودِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْوَفَاءِ بِهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ إِتِفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعُقُودِ الْعُهُودُ فَقَالَ قَوْمٌ، هِيَ الْعُقُودُ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ عَاقِدَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً عَلَى النُّصْرَةِ وَ الْمَوَازَرَةِ وَ الْمَظَاهِرَةِ عَلَى مَنْ حَاوَلَ ظَلْمَهُمْ وَ ذَلِكَ هُوَ مَعْنَى الْحَلْفِ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ مُجَاهِدٌ وَ قَتَادَةُ وَ السُّدِّيُّ وَ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ.

وَ قَالَ آخَرُونَ هِيَ الْعُهُودُ الَّتِي أَخَذَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ فِيمَا أَحَلَّ لَهُمْ أَوْ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ.

وَ قَالَ قَوْمٌ الْمُرَادُ بِهَا الْعُقُودُ الَّتِي يَتَعَاقَدُ النَّاسُ بَيْنَهُمْ وَ يَعْقُدهَا الْمَرْءُ عَلَى نَفْسِهِ كَعَقْدِ الْإِيمَانِ وَ عَقْدِ النِّكَاحِ وَ عَقْدِ الْبَيْعِ وَ أَمْثَالِ ذَلِكَ.

وَ قَالَتْ طَائِفَةٌ، ذَلِكَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ الْكِتَابِ بِالْوَفَاءِ بِمَا أَخَذَ بِهِ مِيثَاقَهُمْ مِنَ الْعَمَلِ بِمَا فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ فِي تَصَدِيقِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وقال الجبائي أراد به الوفاء بالإيمان فيما يجوز الوفاء به نقل هذه الوجوه صاحب التبيان ونقل بعض العامة عن الحسن أن المراد بها عقود الدين وهي ما عقده المرء على نفسه من بيع وشراء وإجارة وكراء ومناكحة وطلاق ذلك من الأمور التي داخلة في الشريعة ويدخل فيها ما عقده على نفسه لله من الطاعات كالحج والصيام والإعتكاف والقيام والنذر وما أشبه ذلك من الطاعات.

أقول الأولى حمل اللفظ على العموم لعدم الدليل على التخصيص وعليه فالمعنى أيها المؤمنون من المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب لأن بينهم وبين الله عقداً في إداء الأمانة فيما في كتابهم من أمر محمد ﷺ، أوفوا بالعقود، التي عاقدتم وعاهدتم عليها أي عقد كان فإن الوفاء بالعهد حسن عقلاً وشرعاً كما قيل.

قوم إذا عَقَدُوا عقداً لجارهم شَدُّوا العِناجَ وشَدُّوا فوقه الكُربا قال الراغب في المفردات، العقد في الأصل الجمع بين أطراف الشئ ويستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعقد الحبل وعقد البناء ثم يستعار ذلك للمعاني نحو عقد البيع والعهد وغيرهما انتهى.

وقال في العهد، العهد حفظ الشئ ومراعاته حالاً بعد حال وسمى الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً انتهى.

أقول يستفاد من كلامه أن الفرق بين العقد والعهد أنما هو بالإعتبار ولذلك يطلق كل واحد منهما على الآخر فيقال تعاهد القوم أي تعاهدوا وكيف كان يجب الوفاء بهما عقلاً وشرعاً:

أما عقلاً فواضح، وأما شرعاً، فلدلالة الآيات والآثار:

قال الله تعالى: **أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**.

قال الله تعالى: **الْمُؤَفَّقُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا**<sup>(١)</sup>.



قال الله تعالى: **أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ** <sup>(١)</sup> وغيرها من الآيات. **أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ** قيل هذا تفصيل بعد إجمالٍ وقيل إستئناف تشريع بيّن فيه ما بيّن من الأحكام وقوله: **بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ** من إضافة الشئ إلى جنسه لأن البهيمة أعم فأضيفت إلى أخصّ فبهيمة الأنعام هي كلّها. وقال ابن قنبة هي الإبل والبقر والغنم والوحوش كلّها. وقال قوم، بهيمة الأنعام وحشيتها كالظباء وبقر الوحش وحمره وكأنهم أرادوا ما يماثل الأنعام ويدانيها. وقيل أن المراد بالبهيمة هي الأجنّة التي تخرج عند ذبح أمّها فتؤكل دون زكاة.

وقيل بهيمة الأنعام هي التي ترعى من ذوات الأربع **إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ** هذا إستثناء من بهيمة الأنعام والمعنى إلا ما يتلى عليكم تحريمه من نحو قوله: **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ**.

وقال القرطبي معنى يتلى عليكم، يقرأ في القرآن والسنة ومنه كلّ ذي نابٍ من السباع حرام وقال الرّازي، ظاهر هذا الإستثناء فحملها إستثناء الكلام المحمل من الكلام المفصل يجعل ما بقي بعد الإستثناء مجعلاً إلا أن المفسرين أجمعوا أن المراد من هذا الإستثناء هو المذكور بعد هذه الآية وهو قوله: **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ** إلى قوله **وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ** ووجه هذا أن قوله: **أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ** يقتضي إحلالها لهم على جميع الوجوه فبيّن الله تعالى أنها كانت ميتة أو مذبوحة على غير إسم الله أو منخقة أو موقودة أو متردية أو نطيحة أو إفترسها السبع فهي محرمة انتهى.

أقول الأولى حمل قوله إلا ما يتلى عليكم، على عمومه في جميع ما حرم الله في كتابه والذي حرّمه هو ما ذكره في قوله: **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ** إلى آخر الآية.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

و الخنزير و أن كان محرماً فليس من بهيمة الأنعام فمتى حملناه عليه كان الإستثناء منقطعاً و متى خصصنا بالميتة و الدّم كان الإستثناء متصلاً و أن حملناه على الكلّ فيكون الإستثناء أيضاً حقيقة و متصلاً و إختار الطّبري تخصيصه بالميتة و الدّم و ما أهل لغير الله به و قال المغربي، إلا ما يتلى، معناه من البحيرة و السّائبة و الوصيلة فلا تكون المحرّم.

و إستثنى ها هنا ما حرّمه الله تعالى فلا يليق بذلك انتهى كلام الشيخ في التبيان و هو الحقّ الحقيق بالإتباع. و كيف كان فموضع، ما، نصب على الإستثناء و يجوز الرفع على الصّفة لبهيمة.

و نقل عن بعض الكوّفين الرفع على البدل و أن تكون إلا، عاطفة، و ليس بشئ لأنّ الذي قبله موجب فكما لا يجوز قام القوم إلا زيداً، على البدل كذلك لا يجوز البدل في إلا ما يتلى عليكم، و البدل من الموجب لا يجيزه أحد و للبحث فيه مقام آخر غير محلّي الصّيد و أنتم حرّم إن الله يحكم ما يريد قيل في معناه أوفوا بالعقود غير محلّين الصّيد و أنتم حرّم أحلت لكم بهيمة الأنعام و عليه فيكون في الكلام تقدماً وتأخيراً، فغير يكون منصوباً على هذا الحال ممّا في قوله: **أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** من ذكر الذين آمنوا و تقدّر الكلام أوفوا أيّها الذين آمنوا بعقود الله التي عقدها عليكم في كتابه لا محلّين الصّيد و أنتم حرّم.

و قال آخرون معنى ذلك، أحلت لكم بهيمة الأنعام الوحشيّة من الطّباء و البقر و الحمير، غير محلّي الصّيد أي غير مستحلّين إصطيادهم و أنتم حرّم و إلا ما يتلى عليكم، فغير على هذا منصوب على الحال من الكاف و الميم في، لكم، و التّقدير **أَحَلَّتْ لَكُمْ** يا أيّها الذين آمنوا بهيمة الأنعام لا مستحلي إصطيادها في حال إحرامكم.

و قال آخرون معناه أحلت لكم بهيمة الأنعام كلها، إلا ما يتلى عليكم، بمعنى إلا ما كان وحشياً فأنه صيد و لا يحلّ لكم و أنتم حرّم، و التّقدير على

هذا أحلت لكم بهيمة الأنعام كلها إلا ما بين لكم من وحشها غير مستحلي  
إصطيادها في حال إحرامكم و عليه فتكون، غير، منصوبة على الحال في  
الكاف والميم في قوله: **إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ** فهذه الوجوه ذكرها المفسرون في  
معنى الآية و أما الحُرْم بضم الراء والحاء فهو جمع، حرام قال الشاعر:  
فقلت لها حثي اليك فأنني حراماً وأنني بعد ذاك لبيبٌ  
أي وإنني ملبٌ.

وقوله: **إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ** معناه يقضي في خلقه ما يشاء من تحليل  
ما يريد تحليله و تحريم ما يريد تحريمه و غير ذلك من أحكامه و قضاياه  
فأفعلوا ما أمركم به و إنتهوا عما نهاكم عنه.

**أقول** معنى الآية لا يحتاج الى هذه التكاليف التي هي من قبيل الأكل على  
القفا و ذلك لأن الله تعالى يقول أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم من  
المحرمات أمثال الميتة والموقوذة والمنخقة والمتردة و غيرها.

ثم قال غير محلي الصيد أي ما كان صيداً فهو حلال في الإحلال دون  
الإحرام و ما لم يكن صيداً فهو حلال في الحالين والحاصل أحلت لكم بهيمة  
الأنعام إلا ما كان صيداً في حال الإحرام فإنه لا يحل لكم هذا اذا كان الإحلال  
راجعاً الى الله تعالى و أما اذا كان راجعاً الى الناس فالمعنى لا تحلوا الصيد في  
حال الإحرام و عليه فالتقدير، غير محلين الصيد فحذفت التثنية تخفيفاً و  
الاحرام أعم من الاحرام بالحج أو العمرة و تفصيل الكلام موكل الى الفقه و  
الله أعلم بكلامه **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ** خطاب للمؤمنين  
حقاً أي لا تتعدوا حدود الله و لا تحلوا حرمات الله و حملوا الشعائر على  
المعالم و أرادوا بذلك معالم حدود الله و أمره ونهيه وفرائضه.

وقيل معناه لا تحلوا مناسك الحج فتضيعوها وعن القراء أنه قال كانت  
عامّة العرب لا ترى الصفا والمروة من الشعائر ولا يطوفون بهما فنهاهم الله  
عن ذلك.

و قال قوم، معناه لا تحلُّوا ما حرَّم عليكم في إحرامكم، و قال الجبائي  
الشَّعائرُ العلامات المنصوبة للفرق بين الحلِّ والحرم نهاهم الله عن أن  
يتجاوزوها الى مكَّة بغير إحرام.

قال الشَّيخ بعد نقل الأقوال المذكورة أنَّ أقوى الأقوال هو قول عطاء من أنَّ  
معناه لا تحلُّوا حرّمات الله و لا تضيّعوا فرائضه لأنَّ الشَّعائر جمع شعيرة و هي  
على وزن فعيلة و اشتقاقها من قولهم شعر فلان بهذا الأمر و إذا علم به فالشَّعائر  
المعالم و إذا كان كذلك وجب حمل الآية على عمومها فيدخل فيه مناسك  
الحجّ و تحريم ما حرَّم في الإحرام و تضييع ما نهى عن تضييعه و إستحلال  
حرّمات الله و غير ذلك من حدوده و فرائضه و حلاله و حرامه.

و قال صاحب الكشاف الشَّعائر جمع شعيرة و هي إسم ما أشعر، أي جعل  
شعاراً و علماً للنَّسك من مواقف الحجّ و مرامي الجمار و المطاف و المسعى و  
الأفعال التي هي علامات الحاجّ يعرف بها من الإحرام و الطّواف و السَّعي و  
الحلق و النَّحر الى أن قال و إحلال هذه الأشياء أن يتَّهّاون بحرمة الشَّعائر و أن  
يحال بينها و بين المتَّسكين بها و أن يحدثوا في أشهر الحجّ ما يصدّون به  
النَّاس عن الحجّ الى آخر ما قال.

وَلَا أَلْشَّهْرَ الْحَرَامِ وَلَا أَلْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَمِينَ أَلْبَيْتِ الْحَرَامِ.

الواو للعطف أي و لا تحلُّوا الشَّهر الحرام بقتالكم فيه أعداءكم من  
المشركين، إختلفوا في الشَّهر الحرام فقال الزَّمخشري هو شهر الحجّ و قال  
عكرمة هو ذو القعدة من حيث كان أوّل الأشهر الحرم.

و قال الطَّبْري و غيره رجب و هو شهر كانت مضر تحرّم القتال فيه و قال قوم  
هو أشهر الحرم كلّها و هي ذو القعدة و ذو الحجة و المحرّم و رجب و هو أليق  
بعموم اللَّفظ و عليه فاللّام فيه للجنس و أمّا على غير هذا القول فاللّام فيه  
للعهد أي الشَّهر المعهود و قوله: وَلَا أَلْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ فالهدي جمع  
هدية و أصله هدية و هو ما هذاه الإنسان من بعير أو بقرة أو شاة أو غير ذلك

إلى بيت الله تقرباً إلى الله و طلباً لثوابه فأمر الله تعالى أن لا يستحل ولا يغار عليه وفيه أيضاً خلاف بينهم.

فمنهم من قال أنه إسم لما يهدي إلى بيت الله من ناقية أو بقرة أو شاة أو صدقة وغيرها من الذبائح والصدقات.

وقيل هو ما قصد به وجه الله ومنه في الحديث ثم كالمهدي دجاجة ثم كالمهدي بيضة فسمي هذه هدياً.

وقيل الشعائر البدن من الأنعام والهدي البقر والغنم والثياب وكل ما أهدى.

وقيل الشعائر ما كان مشعراً بإسالة الدم من سنامه أو بغيره من العلام و الهدي ما لم يشعر إكتفى فيه بالتقليد، وقال من فسّر الشعائر بالمناسك ذكر الهدي تنبيهاً على تفصيلها.

وقيل معنى الكلام، لا تستحلوا ذلك فتغصبوه أهله عليه ولا تحولوا بينهم وبين ما أهدوا من ذلك إلى بيت الله أن يبلغوه محلّه من الحرم ولكن خلّوهم حتّى يبلغوا به المحلّ الذي جعله الله له وهو كعبته.

وأما القلائد فقبل هي الهدي وأنما كرّر لأنه أراد المنع من حلّ الهدي الذي لم يقلد و الهدي الذي قلّد وهو قول ابن عباس.

وقال آخرون، يعني بذلك القلائد التي كان المشركون يتقلّدونها إذا أرادوا الحجّ مقبلين إلى مكة من لحاء السمر وإذا خرجوا منها إلى منازلهم منصرفين منها إلى المشعر ذهب اليه قتادة قال وكان في الجاهلية إذا خرج الرجل من أهله يريد الحجّ تقلّد من السمر فلا يعرض له أحد وإذا رجع تقلّد شعر فلا يعرض له أحد.

وقال القراء كان أهل الحرم يتقلّدون بلحاء الشجر وأهل غير الحرم يتقلّدون بالصّوف والشعر وغيرهما فنزلت ولا تحلّوا شعائر الله الآية وأمثال ذلك من الأقوال كثيرة نقلها الشيخ في التبيان ثم قال والأقوى أن يكون المراد بذلك

النَّهْيُ عَنْ حَلِّ الْقُلَائِدِ فَيَدْخُلُ الْإِنْسَانُ وَالْبَهِيمَةُ إِذَا هُوَ نَهْيٌ عَنْ إِسْتِحْلَالِ حَرَمَةِ الْمَقْلَدِ هَدِيًّا كَانَ ذَلِكَ أَوْ إِنْسَانًا أَنْتَهَى كَلَامُهُ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ، الْقُلَائِدُ كُلُّ مَا عَلِقَ عَلَى سَنَمَةِ الْهَدَايَا وَأَعْنَاقِهَا عَلَامَةٌ أَنَّهُ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ مِنْ بَقْلِ أَوْ غَيْرِهِ وَهِيَ سَنَةُ إِبْرَاهِيمِيَّةٌ بَقِيَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَقْرَبُهَا الْإِسْلَامُ وَهِيَ سَنَةُ الْبَقْرِ وَالْغَنَمِ وَأَطَالَ الْكَلَامَ فِيهِ بِمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ وَلَا آمِينَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامِ أَيِ وَلَا تَحْلُوا أَيْضًا قَاصِدِينَ الْبَيْتِ يُقَالُ أَقَمْتُ كَذَا إِذَا قَصَدْتَهُ وَعَمَدْتَهُ.

قَالَ صَاحِبُ الْكُشَافِ إِحْلَالُ هَذِهِ الْأُمُورِ التَّهَاقُوتِ بِحَرَمَةِ الشَّعَائِرِ وَأَنْ يُحَالَ بِبَيْنِهَا وَبَيْنَ الْمُتَسَكِّينَ وَأَنْ يَحْدُثُوا فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ مَا يَصْدُونَ بِهِ النَّاسَ عَنِ الْحَجِّ وَأَنْ يَتَعَرَّضَ لِلْهَدْيِ بِالْغَضَبِ أَوْ بِالْمَنْعِ مِنْ بُلُوغِ مَحَلِّهِ (يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ رِثْمِهِمْ وَرِثْمًا) أَيِ يَلْتَمِسُوا أَرْبَاحًا فِي تِجَارَتِهِمْ مِنَ اللَّهِ وَرِثْمًا، يَعْنِي وَأَنْ تَرْضَى عَنْهُمْ مَنْسُكُهُمْ فَقَدْ نَهَى اللَّهُ أَنْ يُحَلَ وَيَمْنَعُ مِنْ هَذِهِ صُورَتِهِ وَأَمَّا مَنْ قَصَدَ الْبَيْتَ ظِلْمًا لِأَهْلِهِ وَجَبَ مَنَعُهُ وَدَفَعَهُ عَنْهُمْ.

وَقِيلَ الْمُرَادُ بِالْفَضْلِ هُوَ الثَّوَابُ أَيِ يَلْتَمِسُونَ ثَوَابًا مِنْ رَبِّهِمْ وَالْأَمْرُ سَهْلٌ بَعْدَ وَضُوحِ الْمَعْنَى وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا أَيِ إِذَا حَلَلْتُمْ مِنْ أَحْرَامِكُمْ فَاصْطَادُوا الصَّيْدَ الَّذِي نَهَيْتُكُمْ أَنْ تَحْلُوهُ وَانْتُمْ حَرَمَ بِصُورَةِ الْأَمْرِ وَمَعْنَاهُ الْإِبَاحَةُ وَتَقْدِيرُهُ لَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ فَاصْطَادُوا وَأَنْ شِئْتُمْ حِينَئِذٍ لِأَنَّ السَّبَبَ الْمَحْرَمَ وَهُوَ الْإِحْرَامُ قَدْ زَالَ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ، وَقَالَ الْفَرَاءُ مَعْنَاهُ لَا يَكْسِبَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ، أَيِ لَا تَكْتَسِبُوا الْبُغْضَ قَوْمٍ عُدُوَانًا وَلَا تَفْتَنُوهُ وَالْمَعْنَى إِنْ صَدُّوكُمْ قَوْمٍ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَلَا تَكْسِبُوا عُدُوَانًا وَأَمَّا مَنْ فَتَحَ الْهَمْزَةَ فَلَا تَهْ مَفْعُولٌ لَهُ وَالتَّقْدِيرُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ لِأَنَّ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا، فَأَنَّ الثَّانِيَةَ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ بِأَنَّهُ الْمَفْعُولُ الثَّانِي وَالْأُولَى مَنْصُوبَةٌ لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ، وَقَوْلُهُ: أَنْ تَعْتَدُوا مَعْنَاهُ أَنْ تَجَاوَزُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ إِلَى مَا نَهَاكَم

عنه و عليه فأنها نزلت في النهي عن الطلب بدخول الجاهلية فالآية غير منسوخة لأن المعنى لا تتعدوا الحق فيما أمرتكم به.

و أما من قال أنها منسوخة قال نسخها:

قال الله تعالى: **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ** <sup>(٣)</sup>.

**أقول** أصل الاختلاف في النسخ و عدمه أنما نشأ من تعميم اللفظ للمسلم و المشرك في قوله و لا أمين البيت الحرام، فمن عمم اللفظ قال بعدم النسخ و خصص المشركين بقوله: **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ** و أما من ذهب الى أن الآية خاصة بأهل الشرك كما هو قول أكثر المفسرين فقال بأنها منسوخة بقوله و أقتلوا المشركين و غيرها من الآيات التي ذكرناها و بالإجماع و في المقام قول ثالث و هو أن قوله: **وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَمِينَ النَّبِيِّاتِ الْحَرَامَ** منسوخ لإجماع الأمة على حلية قتال أهل الشرك في أشهر الحرم و غيرها من شهور السنة و أجمعوا أيضاً على أن المشرك لو قُتل لحا جميع أشجار الحرم عنقه أو ذراعه لم يكن ذلك أمناً له من القتل اذالم يتقدم له أمان.

و أما بقية الآية غير منسوخة و **تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** لما نهى عن الإعتداء أمر بالمساعدة و التظافر على الخير اذ لا يلزم من النهي عن الإعتداء التعاون على الخير لأن بينهما واسطة و هو الخلو عنهما جميعاً و فسر الزمخشري البر و التقوى بالعفو والإغضاء و قال قوم هما بمعنى واحد و كرر

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

لإختلاف اللفظ تأكيداً، وقال الآخر هذا تسامح والعرف في دلالة هذين اللفظين يتناول الواجب والمندوب اليه والتقوى رعاية الواجب وقال ابن عباس البر ما إتمرت به والتقوى ما نهيت عنه.

وقال بعضهم ندب الله إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له لأن في التقوى رضا الله تعالى وفي البر رضا الناس ومن جمع بينهم فقد تمت سعادته وعمت نعمته ثم بعد ذلك نهاهم عن المعصية والظلم فقال ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، ثم أمر بالتقوى ثانياً وتوعد توعداً مجملاً فقال: **وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** أي أن لم تتقوا الله فأنت الله شديد العقاب.

## تنبيه

روي عن أبي جعفر عليه السلام أن هذه الآية نزلت في رجل من بني ربيعة يقال له الحطم، قال السدي أقبل الحطم بن هند البكري حتى أتى النبي صلى الله عليه وآله وحده وخلف خيله خارجة من المدينة فدعاه، فقال ألام تدعو فأخبره وقد كان النبي صلى الله عليه وآله قال لأصحابه يدخل عليكم اليوم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان فلما أخبره النبي صلى الله عليه وآله قال أنظروا العلي أسلم ولي من أشاوره فخرج من عنده فقال رسول الله لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقب غادر فمر بسرج من سرج المدينة فساقه وانطلق به وهو يرتجز ويقول:

قد لُقِّها الليل بسواقٍ حطم      ليس براعي إبلٍ ولا غنم  
ولا بجزارٍ على ظهرٍ وضَمَّ      باتوا نياماً وابن هندٍ لم ينم  
بات يقاسيها غلامٌ كالزَّم      حذَّج الساقين ممسوح القدم

ثم أقبل من عام قابل حاجاً قد قلَّد هدياً فأراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يبعث اليه فنزلت هذه الآية، ولا أمين البيت الحرام، وقال ابن زيد نزلت يوم الفتح في ناس يأمنون البيت من المشركين يهلون بعمرة فقال المسلمون يا رسول الله أنما هؤلاء مشركون مثل هؤلاء دعنا نغير عليهم فأنزل الله تعالى الآية قال ابن عباس ذلك في كل من توجه حاجاً قاله الشيخ في التبيان.



أقول ومما ينبغي أن يعلم هو أن قوله: وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ يحتمل أن يكون تيمّة لقوله: وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ كَمَا عَلَيْهِ الْمَفْسَرُونَ قاطبةً ويحتمل أن يكون الأمر بالتعاون مطلقاً من غير أن يكون تيمّة لما قبله و عليه فالواو في قوله: وَتَعَاوَنُوا الخ للإستئناف ويكون الكلام مستقلاً وذلك لأنّ التعاون على البرّ و التقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان، أمر مرغّب فيه في الشريعة المقدّسة في جميع الموارد والنسبة إلى جميع الناس سواء أكان في الحجّ أم في غيره و سواء أكان في حقّ الكافر أم في حقّ المسلم وذلك لأنّ أساس الإسلام بني على العفو ومتابعة الأمر بالإحسان ومخالفة الهوى وإجتنب المعاصي وإمثال الأوامر دون التّشفي والإنتقام وإعمال الحقد والغضب وهو معلوم بالضرورة من الدين، و من المعلوم أيضاً أنّ المراد بالإعانة على المعاصي هو الإعانة مع القصد أو على الوجه الذي يقال عرفاً أنّه كذلك مثل أن يطلب الظّالم العصا من شخص لضرب المظلوم فيعطيه أيّاه أو يطلب منه القلم لكتابة ظلم فيعطيه إيّاه ونحو ذلك ممّا يعدّ عرفاً بالمعاونة على الإثم فلا يصدق على التّاجر الذي يتّجر لتحصيل غرضه أنّه معاون للظّالم العاشر في أخذ العشور ولا على الحاجّ الذي يؤخذ منه بعض المال في طريقه ظلماً ذلك ممّا لا يحصى ومحصّل الكلام هو أنّ التعاون على الإثم لا يصدق إلاّ على من تعاون عليه قصداً أي كان قصده كذلك فإنّ الأعمال بالنيّات فالآية قد دلّت على أنّ المعاون على الشّيء كالفاعل في الخير والشرّ كما هو المشهور في الخبر، أنّ الدّال على الخير كفاعله أن خيراً خيراً وإن شرّاً فشرّاً أعاذنا الله من ارتكاب المعاصي والإعانة عليها والرّضا بفعلها بالنّبي وأله.

ثمّ أنّه تعالى بيّن لنا ما إستثناءه في قوله: أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَّةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَ  
الْمُتَخَنِّفَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالتَّطْيِخَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا  
ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ

أما الميتة وأصله الميتة مشدداً غير أنه خفف ولو قرئ على الأصل كان  
جائزاً إلا أنه لم يقرأ به أحد هاهنا إلا أبا جعفر المدني وبعضهم فرق بين  
الميت والميت فقال الميت بالتخفيف يقال لما لم يموت والميت مشدداً لما  
مات وقال بعضهم بالعكس والحق ما ذكرناه من عدم الفرق قال الله تعالى: إِنَّكَ  
مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ<sup>(١)</sup> فأطلق الميت على من سيموت وقال الشاعر في الجمع  
بين اللغتين:

ليس من مات فاستراح بميتٍ أنما الميت ميت الأحياء  
فجعل الميت مخففاً من الميت وقال بعضهم الميتة كلما له نفس سائلة من  
دواب البر وطيره مما أباح الله أكلها أهلها وحشيتها فارقها روحها بغير تذكية.  
وقد روي عن النبي ﷺ أنه سمي الجراد والسَّمَك ميتاً فقال ميتتان  
مباحان الجراد والسَّمَك فظهر مما ذكرناه أن الميتة يطلق على كل شيء فارق  
روحه بدنه بغير تذكية سواء مات حتف أنفه أم ذبح على غير طريق الشرع وما  
كان كذلك فحرام أكله إجماعاً إلا في مورد الضرورة لأن الضرورات تبيح  
المحظورات فقله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ ناظر إلى حال الاختيار وهكذا في  
الباقي.

**الثاني:** الدَّم أي حرم عليكم الدَّم أيضاً والمراد به المسفوح منه أي  
المصبوب وأما الدَّم المتلطح باللحم فهو كاللحم وما كان منه كاللحم مثل  
الكبد فهو أيضاً مباح وأما الطحال فهو محرّم عندنا وقيل بكرهته وأما عند  
العامّة فهو مباح إنما قيدنا الدَّم بكونه مسفوحاً مصبوحاً لقله تعالى: أَوْ دَمًا  
مُسْفُوحًا.

**ثالثها:** لحم الخنزير أي وحرم عليكم لحم الخنزير أكله وتربيته أي سواء كان أهلياً أم كان برياً وهو يقع على الذكر والأنثى وكما أن لحم الخنزير حرام كذلك كل ما كان عنه فهو حرام كلحمه من الشحم والجلد وغير ذلك ولا خلاف فيه بين العامة والخاصة.

**وابعها:** وما أهل لغير الله أي حرم عليكم ما أهل لغير الله وعليه فموضع، ما، رفع والمراد بما أهل لغير الله هو ما ذبح للأصنام والأوثان أي ذكر اسم غير الله عليه وذلك لأن رفع الصوت بالشئ ومنه إستهلال الصبي وهو صياحه إذا سقط من بطن أمه ومنه إهلال المحرم بالحج أو العمرة إذا لبى به قال ابن أحمز:

يَهْلُ بالفرد ركبانا كما يَهْلُ الزاكب المعبر  
فما يقرب به من الذبح لغير الله أو ذكر عليه اسمه حرام وكل ما حرم أكله مما عدّدناه يحرم بيعه وملكه والتصرف فيه قاله الشيخ في التبيان إنتهى.  
ثم قال تَعْلِيلُهُ وفي الآية دلالة على أن ذبائح من خالف الإسلام لا يجوز أكله لأنهم يذكرون عليه غير اسم الله لأنهم يقيمون بذلك من أبد شرع موسى أو إتخذ عيسى ابناً وكذب محمد بن عبد الله ﷺ وذلك غير الله فيجب أن لا يجوز أكل ذبيحته فأما من أظهر الإسلام ودان بالتحسيم والصورة والتشبيه أو خالف الحق فعندنا لا يجوز أكل ذبيحته فأما الصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين وموارثته فأنه يجري عليه لأن هذه الأحكام تابعة في الشرع لإظهار الشهادتين وأما مناكحته فلا تجوز عندنا.

وقال البلخي حاكياً عن قوم أنه لا يجوز إجراء شيء من ذلك عليهم وحكى عن آخرين أنه يجري جميع ذلك عليهم لأنها تجري على من أظهر الشهادتين دون المؤمنين على الحقيقة وكذلك أجريت على المجانين والأطفال، فأما التسمية على الذبيحة فعندنا واجبة من تركها متعمداً لا يجوز أكل ذبيحته وأن تركها ناسياً لم يكن به بأس وكذلك أن ترك إستقبال القبلة متعمداً لم يحل أكل

ذبحيته وأن تركها ناسياً لم يُحَرِّمْ وفي ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف إنتهى كلامه.

**أقول** أما ما ذكره رحمته من دلالة الآية على أن ذبائح من خالف الإسلام لا يجوز أكله لأنهم يذكرون عليه إسم غير الله فلا يصح على إطلاقه نعم هو يصح إذا علم أنهم لا يذكرون إسم الله عليه وأما إذا علم أنهم يذكرون إسم الله عليه فلا بأس به. قال العلامة في المختلف المشهور عند علماءنا تحريم ذبائح الكفار مطلقاً سواء كانوا أهل ملة كاليهود والنصارى والمجوس أو لا كعباد الأوثان والنييران وغيرهما.

وقال الصدوق رحمته في المقنع ولا تأكل ذبيحة من ليس على دينك في الإسلام ولا تأكل ذبيحة اليهود والنصارى والمجوس إلا أن تسمعهم يذكرون إسم الله عز وجل عليها فإذا ذكروا إسم الله عليها فلا بأس بأكلها فإن الله عز وجل يقول ولا تأكلوا مما لم يذكر إسم الله عليه أن كنتم بأياته مؤمنين ولا بأس بذبيحة نساءهم إذا ذكروا إسم الله عليها وقد سأل أبو عبد الله عليه السلام عن ذبائح النصارى فقال عليه السلام: لا بأس بها فقليل أنهم يذكرون عليها المسيح فقال عليه السلام: إنما أرادوا بالمسيح الله عز وجل إنتهى.

وقال ابن أبي عقيل لا بأس بصيد اليهود والنصارى وذبائحهم ولا يؤكل صيد المجوس وذبائحهم إنتهى والأقوال في المسألة كثيرة كغيرها من المسائل الفقهية فمن شاء الإطلاع على أكثر مما ذكرناه فعليه بالمطولات من الكتب الفقهية هذا كله بالنسبة إلى أهل الكتاب وغيرهم من الكفار وسيأتي الكلام في هذه المسألة عند قوله تعالى:

**فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ <sup>(١)</sup>**

قال الله تعالى: **وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ <sup>(٢)</sup>** بوجه أبسط.

و أما قوله فيمن أظهر الإسلام و دان بالتَّجسيم والصُّورة أو قال بالجبر و التشبيه أو خالف الحقَّ فعندنا لا يجوز أكل ذبيحته، فهو أيضاً على إطلاقه لا يَصَحُّ و ذلك لأنَّ أتباع المذاهب الأربعة، كلَّهم على خلاف الحقِّ وهكذا سائر الفرق من المسلمين و منهم من يقول بالتَّجسيم والصُّورة كالحنابلة و أكثر الحنفيَّة و منهم من يقول بالجبر كالأشاعرة و منهم من يقول بالتَّشبيه في كلِّ المذاهب فلو قلنا بعدم جواز أكل ذبيحتهم لزم العسر و الحرج مضافاً الى عدم مساعدة الدليل.

نعم إتفقوا على أنَّ النَّاصب لا يجوز أكل ذبيحته و أمَّا غيره من فرق المسلمين فلا دليل على عدم جواز أكل ذبيحته كائناً من كان إلا في صورة العلم بعدم التَّذكية التي لا فرق فيها بين أهل الحقِّ و غيره.

قال العلامة رحمته الله في المختلف بعد نقله الأقوال في المسألة ما لفظه: نعم النَّاصب لا يجوز أكل ذبيحته لأنَّه إرتكب ما هو معلوم البطلان من دين النَّبي صلَّى الله عليه وآله و ما رواه أبو بصير قال سمعت أبا عبد الله يقول ذبيحة النَّاصب لا تحلَّ انتهى كلامه.

**خامسها:** والمنخقة، قيل هي التي تختنق و تموت و قيل هي التي تموت في خناقها، هي التي تدخل رأسها بين شعبتين من شجرة فتختنق و تموت و حكى عن قتادة أن أهل الجاهليَّة كانوا يخنقونها ثم يأكلونها و أمثال ذلك من الأقوال في تفسيرها كثيرة والأولى حمل اللَّفظ على عمومه و على هذا فهي التي تختنق حتَّى تموت بأيِّ نحوٍ إتفق فأكلها حرام.

**سادسها:** الموقوذة يعني التي تضرب حتَّى تموت سواء كان الضَّرب بالخشب أو بالحديد أو بالحجر أو بغيرها والملاك هو الموت بسبب الضَّرب.

**سابعها:** والمتردِّية، وهي التي تقع من جبلٍ أو تقع في بئرٍ أو من مكان عال

فتموت.

**ثامنهما:** والنَّطِيحَةُ، بمعنى المنطوحة فنُقِلَ من مفعول الى فاعل وقال بعض البصريين أثبت فيها الهاء أعني في النَّطِيحَةِ لأنها جعلت كالإسم مثل الطويلة والطَّرِيفَةِ فوجد هذا تأويل النَّطِيحَةِ الى معنى الناطحة ويكون المعنى حرمت عليكم الناطحة التي تموت من نطاحها وكيف كان فالنَّطِيحَةُ الشاة تنطحها أخرى فيموتان أو الشاة تنطحها البقر والغنم قوم كل ما مات ضغطاً فهو نطيح.

**تاسعها:** وما أكل السَّبْعَ و موضع ما، رفع، أي حرّم عليكم ما أكل السَّبْعَ بمعنى ما قتله السَّبْعُ وهو فريسة السَّبْعِ قال الزّمخشري أي وما أكل السَّبْعَ بعضه **إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ** أي إلا ما أدركتم ذكاته فذكّيتموه من هذه الأشياء التي وصفناها و عليه فموضع ما، نصب بالإستثناء ثم أنّ الإستثناء يرجع الى جميع ما تقدّم ذكره من قوله: **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ** الى قوله: **وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ** أي حرّم عليكم جميع ما ذكرناه إلا ما أدركتم ذكاته غير الدّم والخنزير فأنهما ممّا لا يقبل الزكاة بوجه والمراد بالإدراك قبل الزكاة هو أن تدرك الحيوان وهو تتحرك أذنه أو ذنبه أو تطرف عينه وهو المرّوي عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام.

وقال الآخرون هو إستثناء من التحريم لا من المحرّمات لأن الميتة لا ذكوة لها ولا الخنزير قالوا والمعنى حرّمت عليكم الميتة والدّم وسائر ما ذكر إلا ما ذكّيتم ممّا أحله الله لكم بالتذكية فأنه حلال لكم ذهب اليه مالك و جماعة من أهل المدينة ثم أنّ التذكية عبارة عن فري الأوداج والحلقوم اذا كانت فيه حياة ولا يكون بحكم الميت.

**عاشرها:** وما ذبح على النُّصب، قيل النُّصب الحجارة التي كانوا يعبدونها و هي الأوثان واحدها، نصب و يجوز أن يكون واحد وجمعه أنصاب و، ما، موضعه الرّفْع عطفاً على ما تقدّم والتقدير وحرّم عليكم ما ذبح على النُّصب. وقال قتادة و مجاهد وغيرهما هي حجارة كان أهل الجاهلية يذبحون عليها.

وقال ابن عباس ويحلّون عليها، وقال ابن جريح وليست بأصنام فأَنَّ الصُّنم مَصُور وكانت العرب تذبح بمكّة وينفحون بالدمّ ما أقبل من البيت ويشرّحون اللحم ويضعونه على الحجارة فلمّا جاء الإسلام قال المسلمون نحن أحقّ أن يعظم هذا البيت بهذه الأفعال فكره ذلك الرّسول ﷺ فنزلت وما ذبح على النّصب ونزل لن ينال لحومها ولا دماءها انتهى.

**حادي عشرها:** وأن تستقسموا بالأزلام، هذا أيضاً معطوف على ما قبله أي وحرّم عليكم الإستقسام بالأزلام وهو طلب معرفة القسم وهو النّصيب أو القسم وهو المصدر قيل معناه أن تطلبوا على ما قسم لكم بالأزلام أو ما لم يقسم لكم.

وقال مجاهد هي كعاب فارس والرّوم التي كانوا يتقامرون بها وروي عنه أيضاً أنّها سهام العرب وكعاب فارس. وقال سعيد بن جبّير الأزلام حصيّ كانوا يضربون بها وهي التي أشار إليها الشّاعر بقوله:

لعمرك ما تدري الصّوارب بالحصي ولا زاجرات الطّير ما الله صانع  
وقيل هي سهام كانت للجاهليّة مكتوب على بعضها، أمرني ربّي وعلى بعضها نهاني ربّي، فإذا أرادوا سفراً أو أمراً يهتّم به ضربوا تلك القداح فأَن خَرَج السّهم الذي عليه أمرني ربّي مضى لحاجته وأن خرج الذي عليه نهاني ربّي، لم يَمْضِ وأن خَرَج ما ليس عليه شيء أعادوها فبيّن الله تعالى أنّ العمل بذلك حرام والأقوال فيها كثيرة جدّاً.

**ذِكْرُكُمْ فَمَسَقُ الْيَوْمِ يَسَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ**  
**أَخْشَوْنِ**

ذلكم، إشارة إلى الأشياء المذكورة من الميّتة والدمّ الخ، أي أن هذه المحرّمات فسق أي ارتكابها فسقٌ وخروجٌ عن طاعة الله أو معصيته، وأصله من فسقت الرّطبة إذا خرجت من قشرها.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **الْيَوْمَ** فَهُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ وَالْعَامِلُ فِيهِ، يَتَسَّ ذَوُوا الْفَسَقِ الْيَوْمَ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ يَوْمًا بَعِينَهُ بَلْ مَعْنَاهُ، الْآنَ يَتَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ الْيَوْمَ كَبُرَتْ، وَهَذَا لَا يَصْلُحُ إِلَى الْيَوْمِ يَرِيدُ الْآنَ قِيلَ الْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَوَّلَ الْخَوْفَ الَّذِي كَانَ يَلْحَقُكُمْ مِنْكُمْ الْيَهُمَ وَيَتَسَّوْا مِنْ بَطْلَانِ الْإِسْلَامِ وَجَاءَكُمْ مَا كُنْتُمْ تَوَعِّدُونَ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ: **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَلَّهِ** <sup>(١)</sup> وَالَّذِينَ إِسْمَ لَجَمِيعٍ مَا تَعَبَدَ اللَّهُ بِهِ خَلْقَهُ وَأَمَرَهُمْ بِالْقِيَامِ بِهِ وَمَعْنَى يَتَسَّ إِنْ قَطَعَ طَمَعُهُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَتْرَكُوهُ وَتَرْجِعُوا مِنْهُ إِلَى الشَّرْكَ قَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْيَوْمَ ذَكَرَ هُوَ يَوْمَ عَرَفَةَ مِنْ حَجَّةِ الْوُدَاعِ بَعْدَ دُخُولِ كُلِّهَا فِي الْإِسْلَامِ قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَابْنُ جَرِيرٍ وَقِيلَ الْمُرَادُ بِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لَمَّا نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَرِ إِلَّا مُسْلِمًا مُوَحَّدًا وَلَمْ يَرِ مُشْرَكًا.

وَقَوْلُهُ: **فَلَا تَخْشَوْهُمْ** خَطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ نَهَاهُمْ اللَّهَ أَنْ يَخْشَوْا وَيَخَافُوا مِنَ الْكُفَّارِ أَنْ يَظْهَرُوا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ وَيَقْهَرُوا الْمُسْلِمِينَ وَيَرْدُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ إِلَى كُفْرِهِمْ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ وَلَكِنْ، أَخْشَوْنِي، وَخَافُونِي، أَنْ خَالَفْتُمْ أَمْرِي وَارْتَكَبْتُمْ مَعْصِيَتِي أَنْ أَحْلَ بِكُمْ عِقَابِي وَأَنْزَلَ عَلَيْكُمْ عَذَابِي.

وَقَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ مَعْنَاهُ يَتَسَّوْا أَنْ يَطْلُبُوهُ وَأَنْ يَرْجِعُوا مُحَلِّينَ لَهُذِهِ الْخَبَائِثَ بَعْدَ مَا حَزَمَتْ عَلَيْكُمْ.

**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**

قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ فِي مَعْنَاهُ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ فَرَائِضِي وَحُدُودِي وَأَمْرِي وَنَهْيِي وَحَالِي وَحَرَامِي بِتَنْزِيلِ مَا أَنْزَلْتُ عَلَيْكُمْ فَلَا زِيَادَةَ فِي ذَلِكَ وَلَا نَقْصَانَ مِنْهُ بِالنَّسْخِ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ وَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ عَامَ حَجَّةِ الْوُدَاعِ وَلَمْ يَنْزَلْ بَعْدَ هَذَا شَيْءٌ مِنَ الْفَرَائِضِ وَالْأَحْكَامِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَضَى بَعْدَ ذَلِكَ بِأَحَدِي وَثَمَانِينَ لَيْلَةً إِيْخْتِيَارَ الْجَبَائِثِ وَالْبَلْخِي وَقَالَ الْحَكَمُ وَسَعِيدُ



بن جُبَيْر و قُتَادَة معناه أكملت لكم حجَّكم و أفردتكم بالبلد الحرام تحجَّون دون المشركين و لا يخالطكم مشرك و هو الَّذي إختاره الطَّبري قال لأنَّ الله قد أنزل بعد ذلك قوله: **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ**.

و قال القراء هي أخر آية نزلت وفيه خلاف، و قال الزَّجاج معني أكملت لكم الدِّين، كفتيكم خوف عدوكم و أظهرتكم عليهم كما تقول الآن كمل لنا الملك، و كمل لنا ما نريد، أي كفيينا ما كنَّا نخافه، و أتممت عليكم نعمتي، خاطب الله جميع المؤمنين بأنَّه أتمَّ نعمته عليهم بإظهارهم على عدوهم المشركين و نفىهم إياهم عن بلادهم و قطعه طمعهم من رجوع المؤمنين و عودهم الى ملة الكفر و إنفراد المؤمنين بالحجَّ و البلد الحرام قاله ابن عباس و قتادة و الشَّعبي.

و قال الزَّمخشري معناه **وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ** نعمتي بفتح مكَّة و دخولها أمنين ظاهرين و هدم منار الجاهليَّة و مناسكهم و أن لم يحجَّ معكم مشرك ولم يطف بالبيت عريان و أتممت نعمتي عليكم بإكمال الدِّين و الشَّرائع لأنَّه لا نعمة أتمَّ من نعمة الإسلام **وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** أي رضيت لكم الإسلام لأمرى و الإنقياد لطاعتي على ما شرعت لكم من حدوده و فرائضه. و قيل معناه إختارته لكم من بين الأديان و أذنتكم بأنَّه هو الدِّين المرَّضي وحده، و من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه و هو في الآخرة من الخاسرين.

**وَأَعْلَمَ أَنَّ الْمَفْسَّرِينَ ذَكَرُوا فِي الْمَقَامِ سُؤلاً أَوْ إِشْكَالاً وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ: أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** يقتضي أنَّ الدِّين كان ناقصاً قبل ذلك و ذلك يوجب أن يكون الدِّين الَّذي كان مواظباً عليه أكثر عمره كان ناقصاً وأنَّه أتمَّ وجد الدِّين الكامل في آخر عمره مدَّة قلية.

و أجابوا عنه بوجوه:

في القرآن تفسير

جزء ٦

المجلد السادس

**أحدها:** أن المراد من قوله: **أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** هو إزالة الخوف عنهم و إظهار القدرة لهم على أعداءهم وهذا كما يقول الملك عند ما يستولي على عدّوه و يقهره قهراً كلياً، اليوم كمل ملكنا.

قال الرّازي بعد نقله ما نقلناه هذا الجواب ضعيف لأنّ ملك ذلك الملك كان قبل قهر العدوّ ناقصاً فالإشكال بحاله.

**ثانيها:** ما نقله أيضاً في تفسيره وهو أنّ المراد أنّي أكملت لكم ما تحتاجون اليه في تكاليفكم من تعلّم الحلال والحرام قال وهذا أيضاً ضعيف لأنّه لو لم يكمل لهم قبل هذا اليوم ما كانوا محتاجين اليه من الشرائع كان ذلك تأخير البيان عن وقت الحاجة وأنّه لا يجوز.

**ثالثها:** ما ذكره أيضاً وارتضاه وهو أنّ الدّين ما كان ناقصاً البتّة بل كان أبداً كاملاً يعني كانت الشرائع النازلة، من عند الله في كلّ وقتٍ كافية في ذلك الوقت إلاّ أنّه تعالى كان عالماً في أوّل وقت المبعث بأنّ ما هو كامل في هذا اليوم ليس بكامل في الغد ولا صلاح فيه فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت وكان يزيد بعد العدم و أمّا في آخر زمان المبعث فأنزل الله شريعةً كاملة وحكم ببقاءها الى يوم القيامة فالشرع أبداً كان كاملاً إلاّ أنّ الأوّل كمال الى زمانٍ مخصوص و الثّاني كمال الى يوم القيامة فلأجل هذا المعنى قال: **أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** نقل الرّازي هذا القول عن القفال وقال وهو المختار انتهى كلامه أقول ما نقله عن القفال وارتضاه ليس في محلّه لوجوه:

**الأوّل:** أنّ ما ذكره في معنى الكمال والإكمال يتمّ اذا قلنا أنّ هذه الآية آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ و سدّ باب التشريع بعد ذلك الى يوم القيامة حتّى يكون الكمال غير مقيّد بزمانٍ مخصوص و بعبارة أخرى لو كان نزول الآية في آخر زمان المبعث فقد تمّ ما ذكره والأفلا ومن أين ثبت له ذلك و اذا لم يكن نزولها في آخر زمان المبعث فحكمها حكم غيرها من الآيات.

**الثّاني:** أكثر المفسّرين على أنّ قوله تعالى: **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ** آخر

أية نزلت من القرآن وإذا كان كذلك فكيف يقال، قوله: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** المراد بالكمال كمالاً الى يوم القيامة وكيف يكون الدين كاملاً الى يوم القيامة ولم تنزل الآية الكلاله بعد.

**الثالث:** المشهور بين المفسرين أن المائدة آخر سورة نزلت على النبي و هذه الآية في سورة المائدة ولو كان كذلك فما شأن الأحكام النازلة ما بين نزول المائدة ورحلة النبي ﷺ بل ما شأن سائر الأحكام النازلة بعد هذه الآية في هذه السورة فلو كان كمال الدين لهذه الآية وأن يكون كاملاً الى يوم القيامة كما ذهب اليه الرّازي لزم أن تكون الآيات النازلة بعدها في السورة خارجة عن حدّ الكمال و ذلك لأنّ الله تعالى أعلم كمال الدين بهذه الآية الى يوم القيامة فما نزل بعدها من الآيات و الأحكام في المائدة و غيرها يكون خارجاً عن الدين غير مرتبط بالتشريع ولا يقول به عاقل فضلاً عن فاضل فتحصل ممّا ذكرناه أنّ ما ذكره الرّازي في الجواب لا يرجع الى محصل.

وقال القرطبي في الجواب بما حاصله أنّ الدين كان ناقصاً قبل نزول الآية و بعد ذلك صار كاملاً إلاّ أنّه ليس كلّ نقص عيب قال ما هذا لفظه:

**الرابعة:** والعشرون لعلّ قائلًا يقول قوله تعالى: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** يدلّ على أنّ الدين كان غير كامل في وقت من الأوقات و ذلك يوجب أن يكون جميع من مات من المهاجرين والأنصار والذين شهدوا بدرًا و الحديبية و بايعوا رسول الله البيعتين و بذلوا أنفسهم لله مع عظيم ما حلّ بهم من أنواع المحن ماتوا على دين ناقص و أنّ رسول الله ﷺ كان يدعو الناس الى دين ناقص و معلوم أنّ النقص عيب و دين الله قيم، كما قال تعالى، ديناً قيماً، فالجواب أن يقال له لم قلت أنّ كلّ نقص فهو عيب و ما دليلك عليه ثمّ يقال له أرايت نقصان الشهر يكون عيباً و نقصان صلاة المسافر أهو عيب لها، و نقصان العمر الذي أراد الله، و مامن معمر و لا ينقص من عمره، أهو عيب له و ساق الكلام الى أن قال فما أنكرت أنّ نقصان أجزاء الدين في الشرع قبل أن يلحق به

الأجزاء الباقية في علم الله تعالى ليست بشين ولا عيب وما أنكرت أن معنى قول الله: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** على وجهين:

**أحدهما:** أن يكون المراد بلغته أقصى الحد الذي كان له عندي فيما قضيته وقدرته لا يوجب أن يكون ما قبل ذلك ناقصاً نقصان عيب لكنه يوصف بنقصان مقيّد، فيقال له أن كان ناقصاً عما كان عند الله تعالى أنه ملحقه به وضمّاه اليه كالرجل يبلغه الله مائة سنة فيقال أكمل الله عمره ولا يجب عن ذلك أن يكون عمره حين كان ابن ستين ناقصاً نقص قصور وخلل ولكنه يجوز أن يوصف بنقصان مقيّد فيقال كان ناقصاً عما كان عند الله تعالى أنه مبلغه إياه ومعمّره اليه وساق الكلام بذكر الأمثلة انتهى كلامه وقد ظهر من كلامه أنه فرّق بين العيب والنقص وأن كل نقص لا يكون عيباً وأما كل عيب فهو نقص أولاً فقد سكت عنه ثم ذكر أمثلة كثيرة وقد ذكرنا شطراً منها في الأحكام الشرعية وغيرها، أنها ناقصة ولا عيب فيها بل هي كاملة في حدّ أنفسها وأن كانت ناقصة ظاهراً بالنسبة الى ما فوقها إلا أن نقصها ليس نقص قصور وخلل.

**أقول** ما ذكره وسمّاه بالتحقيق بزعمه خارج عن موضوع البحث فضلاً عن أن يكون جواباً عن أصل الإشكال وذلك لأنه ليس السؤال أو الإشكال في أن النقص عيب أو لا حتّى نبحث في إثباته أو نفيه بل الإشكال في أن قوله تعالى: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** وَ أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا يَدُلُّ على أن الله تعالى قد أعطى في ذلك اليوم لنبيه تابعه من المؤمنين شيئاً جديداً لم يُعطه قبل ذلك اليوم وبه صار الدين كاملاً والنعمة تامة وعليه فمدار البحث في تعيين ذلك الشئ المكمل للدين والمتمم للنعمة وأنه ما هو ولا شك أن الآية بمفهومها تدلُّ على أن الدين كان ناقصاً قبل ذلك اليوم إذ لو كان كاملاً فلا معنى لقوله: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ضرورة أنه لا واسطة بين الكمال والنقص فما لم يكن قبل ذلك اليوم كاملاً كما هو مفاد الآية كان ناقصاً لا محالة لعدم الواسطة سواء قلنا بأن النقص عيب أم لم نقل ثبت

النقص قبل ذلك اليوم بمفهوم الآية فالإشكال باق على حاله هذا أولاً وثانياً، نقول ما ذكره القرطبي من إنكاره الملازمة بين النقص والعيب بقوله لم قلت أن كل نقص فهو عيب دليلك عليه، يقال له دليلنا العقل السليم فأنه يحكم بأن كل نقص فهو عيب و منكروه مكابر عقله، أليس الجاهل ناقصاً بالنسبة إلى العالم فأن قال لا، يلزم تساويهما في الكمال وأن قال نعم.

نقول له هل الجاهل عيب أو لا، فأن كان عيباً ثبت المطلوب وأن لم يكن عيباً فلا فرق بين العالم والجاهل إذ المفروض أنه لا عيب فيهما.

وهكذا نقول في المؤمن وغير المؤمن فأن عدم الإيمان نقص ومع ذلك فهو عيب بل هو رأس العيوب، وهكذا الأمثلة التي ذكرها في كتابه مثل نقصان العمر ونقصان صلاة المسافر ونقصان أيام الحيض وغيرها وحكم بأن النقص فيها ليس بعيب، إذ يقال له إذا ثبت النقص ثبت العيب لأن النقص عيب والعيب نقص وأن شئت قلت لا يعني بالنقص إلا العيب ولا بالعيب إلا النقص فهما مترادفان متساويان صدقاً وكذباً والفرق بينهما باللفظ فقط إلا أن النقص والكمال كثيراً ما يطلقان أو يستعملان في الكميات وأما العيب والتمام يستعملان في الكيفيات فالفرق إعتباري محض ولما لم يفهم القرطبي هذه الدقيقة خلط واشتبه عليه الأمر فقال هذا وقد تحصل مما ذكرناه أنهم عجزوا عن الجواب ولم يقدرُوا على حل الإشكال وذلك لأن مفسري العامة لم يأخذوا تفسير القرآن ولا غيره من الأحكام عن العترة الطاهرة ولقد قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه بين الفريقين أني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي الحديث فمن تمسك بهما نجي ومن تخلف هلك سواء تخلف عنهما جميعاً أم تخلف عن أحدهما فأن الإفتراق بين الكتاب والعترة في التمسك يوجب الضلالة وأما الشيعة الإمامية فلما أخذوا بحجزتهم وتمسكوا بولايتهم وتعلموا دينهم فقد فازوا وسعدوا في الدنيا والآخرة إن شاء الله فلا يخفى عليهم تفسير كلام الله ولا شيء من أحكام الله لأنهم إتبعوا أهل

البيت و أخذوا علومهم في التفسير والأحكام الدينية عنهم و اجتنبوا متابعة الهوى والتفسير بالرأى والقياس و أمثال ذلك مما يوجب الخروج عن الدين واقعاً من حيث لا يشعر إذا عرفت هذا.

فنقول، قد أجمع المفسرون من الشيعة الذين أخذوا تفسير كلام الله من العترة الطاهرة في تفاسيرهم على أن قوله: **الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا.**

أنما أنزل بعد أن نصب النبي ﷺ علياً علماً للإمام بأمر من الملك العلام يوم غدیر خم منصرفاً عن حجة الوداع.

فقد روي في المجمع بأسناده عن الإمامين أبي جعفر و أبي عبد الله عليه السلام أنها قالوا هو آخر فريضة أنزلها الله تعالى ثم لم ينزل بعدها فريضة قال عليه السلام وقد حدثنا السيد العالم أبو الحمد مهدي بن نزار الحسيني قال حدثنا أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله وساق الإسناد عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ لما نزلت الآية قال الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الرب برسالتني وولاية علي بن أبي طالب من بعدي وقال عليه السلام من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه وأنصر من نصره وأخذل من خذله.

قال علي بن إبراهيم في تفسيره حدثني أبي عن صفوان عن العلاء و محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام كان نزولها بكراع الغميم فأقامها رسول الله ﷺ بالجحفة و قال الربيع بن أنس نزل في المسير من حجة الوداع و أتممت عليكم نعمتي خاطب سبحانه المؤمنين بأنه أتم النعمة عليهم بإظهارهم على المشركين ونفيهم عن بلادهم عن ابن عباس و قتادة انتهى موضع الحاجة من كلامه.

وقال الفيض رحمته في الصافي بعد نقله ما نقلناه عن المجمع ما هذا لفظه:  
 وفي الكافي عن الباقر عليه السلام الفريضة تنزل بعد الفريضة الأخرى و  
 كانت الولاية آخر الفرائض فأنزل الله: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**  
 قال عليه السلام لا أنزل بعد هذه الفريضة قد أكملت لكم الفرائض  
 والعياشي والقمي ما يقرب منه ثم قال عليه السلام وأنما أكملت الفرائض  
 بالولاية لأن النبي صلى الله عليه وآله أنهى جميع ما إستودعه الله من العلم إلى  
 علي ثم إلى ذريته الأوصياء واحداً بعد واحد فلما أقامهم مقامه و  
 تمكّن الناس من الرجوع إليهم في حلالهم وحرامهم وإستمرّ ذلك  
 بقيام واحد بعد واحد أكمل الدين وتمت النعمة والحمد لله وقد ورد  
 هذا المعنى بعينه عنهم ويأتي ما يقرب منه في خطبة الغدير إن شاء  
 الله.

روي البحراني رحمته في تفسير البرهان، عند قوله: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** قال  
 علي بن إبراهيم قال حدثني أبي عن صفوان بن يحيى عن العلا عن  
 محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام آخر فريضة أنزلها الله  
 ثم لم ينزل بعدها فريضة ثم أنزل، اليوم أكملت لكم دينكم بكراع  
 الغميم فأقامها رسول الله بالحجة فلم تنزل بعدها فريضة.

روى ابن بابويه بأسناده عن عبد العزيز بن مسلم قال كُنَّا مع  
 الرضا عليه السلام بمرور فاجتمعنا في الجامع يوم الجمعة في بدء مقدمنا  
 فأرادوا أمر الإمامة وذكروا كثرة إختلاف الناس فيها فدخلت على  
 سيدي فأعلمته خوضان الناس في ذلك فتبسّم عليه السلام ثم قال يا عبد  
 العزيز جهل القوم وخدعوا عن أديانهم أن الله عزّ وجلّ لم يقبض  
 نبيه حتّى أكمل لهم الدين وأنزل عليهم القرآن فيه تفصيل كلّ شيء  
 وبيّن فيه الحلال والحرام والأحكام وجميع ما يحتاج الناس إليه

كَمَلًا فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ، وَأَنْزَلَ فِي حُجَّةِ الْوِدَاعِ وَهِيَ آخِرُ عُمْرِهِ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَأَمَرَ الْإِمَامَةَ مِنْ تَمَامِ الدِّينِ وَلَمْ يَمْضِ حَتَّى بَيَّنَ لَأَمَّتِهِ مَعَالِمَ دِينِهِ وَأَوْضَحَ لَهُمْ سَبِيلَهُمْ وَتَرَكَهُمْ عَلَى قَصْدِ الْحَقِّ وَأَقَامَ لَهُمْ عَلِيًّا وَإِمَامًا وَمَا تَرَكَ شَيْئًا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ إِلَّا بَيَّنَّهَ فَمَنْ رَعِمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَكْمَلْ دِينَهُ فَقَدْ رَدَّ كِتَابَ اللَّهِ وَمَنْ رَدَّ كِتَابَ اللَّهِ فَهُوَ كَافِرٌ انْتَهَى.

وَرَوَى الشَّيْخُ فِي أُمَالِيهِ بِأَسْنَادِهِ عَنِ الْمُفَضَّلِ بْنِ عُمَرَ عَنِ الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أُعْطِيَ سَبْعًا لَمْ يَعْطِهَا أَحَدٌ قَبْلِي سِوَى النَّبِيِّ ﷺ، لَقَدْ فَتَحْتُ لِي السُّبُلَ، وَعَلِمْتُ الْمَنَایَا وَالْبَلَایَا وَالْأَنْسَابَ وَفَصَلَ الْخُطَابَ وَلَقَدْ نَظَرْتُ إِلَى الْمَلَكُوتِ بِأَذْنِ رَبِّي فَمَا غَابَ عَنِّي مَا كَانَ قَبْلِي وَلَا مَا يَأْتِي بَعْدِي فَإِنْ بَوَلَايَتِي أَكْمَلَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ دِينَهُمْ وَأَتَمَّ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ وَرَضِيَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ إِذْ يَقُولُ يَوْمَ الْوَلَايَةِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْهُمْ أَنِّي أَكْمَلْتُ لَهُمُ الْيَوْمَ دِينَهُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْهِمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَهُمُ إِسْلَامَهُمْ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ اللَّهِ عَلَيَّ فَلَهُ الْحَمْدُ انْتَهَى.

وَأَيْضًا بِأَسْنَادِهِ عَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ بِنَاءُ الْإِسْلَامِ عَلَى خَمْسٍ خَصَالٍ عَلَى الشَّهَادَتَيْنِ وَالْقَرْنَتَيْنِ قِيلَ لَهُ أَمَّا الشَّهَادَتَانِ فَقَدْ عَرَفْنَا فَمَا الْقَرْنَتَانِ قَالَ الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِالْأُخْرَى، وَالصَّيَامُ وَحُجَّ بَيْتِ اللَّهِ مِنْ اسْتِطَاعِ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَخَتَمَ ذَلِكَ بِالْوَلَايَةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا انْتَهَى.

أَقُولُ وَقَدْ نَقَلَ صَاحِبُ الْبُرْهَانِ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ فِي هَذَا الْبَابِ لَمْ نَتَعَرَّضْ



لها مراعاة للإختصار وهكذا غيره في غير فلا خلاف عندنا أن قوله: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** نزل بغدير خم بعد بيعة الناس لأمر المؤمنين بالولاية و سياأتي الكلام فيه عند قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ** <sup>(١)</sup> بوجه أبسط وحيث إنجر الكلام الى نقل الأخبار الدالة على إثبات المدعى من طريق الخاصة فلا بأس بالإشارة الى بعض ما ورد من طريق العامة أيضاً لئلا يظن ظان أن ما ذهبنا اليه في تفسير الكلام و شأن نزوله مختص بالشيعه الإمامية وليس في أخبار العامة منه عين ولا أثر فنقول:

ذكر الحاكم الحسكاني وهو من أعيان العامة في كتابه شواهد التنزيل في قوله تعالى: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ما هذا لفظه:

أخبرنا أبو عبد الله الشيرازي (أخبرنا) أبو بكر الجرجرائي (أخبرنا) أبو أحمد البصري (عن) أحمد بن عمار بن خالد (عن) يحيى بن عبد الحميد الحماني (عن) قيس بن الربيع عن أبي هارون عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية قال الله أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الرب برسالتي و ولاية علي بن أبي طالب من بعدي ثم قال ﷺ من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأنصر من نصره وأخذل من خذله انتهى.

وأسناده أيضاً عن أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ دعا الناس الى علي فأخذ بضبعيه فرفعهما ثم لم يتفرقا حتى نزلت هذه الآية: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** فقال رسول الله ﷺ الله أكبر على إكمال الدين وإتمام

النَّعْمَةُ وَرَضَا الرَّبِّ بِرِسَالَتِي وَالْوَلَايَةَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ قَالَ لِلْقَوْمِ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِّي مَوْلَاهُ انْتَهَى.

وَبَأْسَنَادِهِ عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ مِنْ صَامٍ يَوْمَ ثَمَانِيَةِ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ كُتِبَ لَهُ صِيَامٌ سِتِّينَ شَهْرًا وَهُوَ يَوْمٌ غَدِيرِ خَمٍّ لَمَّا النَّبِيُّ بَيِّدَ عَلِيٌّ فَقَالَ أَلَسْتُ وَلِيَّ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِّي مَوْلَاهُ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بَخٍ بَخٍ لَكَ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ أَصْبَحْتَ مَوْلَايَ وَمَوْلَا كُلِّ مُؤْمِنٍ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** انْتَهَى.

وَبَأْسَنَادِهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الطَّوَافِ إِذْ قَالَ أَفِيكُمْ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ قُلْنَا نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَرَّبَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَرَبَ عَلَى مَنْكِبِهِ وَقَالَ طُوبَاكَ يَا عَلِيٌّ أَنْزَلْتُ عَلِيٍّ فِي وَقْتِي هَذَا آيَةً ذَكَرِي وَإِيَّاكَ فِيهَا سَوَاءٌ، **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعَمَتِي بَعَلِّي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا**، بِالْعَرَبِ انْتَهَى <sup>(١)</sup>.

أَقُولُ وَالْأَحَادِيثُ فِي كِتَابِ الْعَامَّةِ بِطَرَقٍ مُخْتَلِفَةٍ كَثِيرَةٍ جَدًّا قَدْ ذَكَرَ شَطْرًا مِنْهَا صَاحِبُ غَايَةِ الْمَرَامِ فَمَنْ أَرَادَ الْإِطْلَاعَ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ فَعَلِيهِ بِالْمَطَوَّلَاتِ مِنْ كِتَابِ الْأَخْبَارِ وَأَمَّا نَحْنُ نَكْتَفِي بِذِكْرِ هَذَا الْقَلِيلِ مِنَ الْكَثِيرِ فَإِنَّ فِيهِ كَفَايَةً لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ إِذَا عَرَفَتْ هَذَا فَاَعْلَمْ أَنَّ مَا ذَكَرُوهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْيَوْمِ هُوَ يَوْمُ عَرَفَةَ مِنْ عَامِ حِجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ الْآيَةُ وَفِيهَا بَشَارَةٌ بِظُهُورِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمَشْرِكِينَ ظَهْرًا تَامًّا لَا مَطْمَعَ لَهُمْ فِي زَوَالِهِ وَأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يُخْبِرُهُمْ فِيهَا بِأَنَّ الْكُفَّارَ أَنْفُسَهُمْ قَدْ يَسُوءُوا مِنْ زَوَالِ دِينِهِمْ وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لَهُمْ وَقَدْ بَدَّلَهُمْ بَضْعَهُمْ قُوَّةً وَبَخُوفَهُمْ أَمْنًا وَ

بفقرهم غنى فحق لهم أن لا يخشوا غيره تعالى و ينتهوا عن تفاصيل ما نهى الله عنه في الآية ففيها كمال دينهم و أمثال ذلك ممّا ذكروه في المقام كما عرفت من الرّازي والقرطبي وغيرهما كلّها عاطل باطل لا يقبله العقل السليم لا يؤيده النقل أيضاً و ذلك لأنّ المراد باليأس في قوله: **الْيَوْمَ يَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا** أن كان هو اليأس المستند الى ظهور الإسلام و قوّته ففیه:

أنّ هذا اليأس قد حصل للكفار قبل يوم عرفة من السّنة العاشرة، و هو يوم فتح مكّة، أو بعد نزول آيات البراءة و هو معلوم لا خفاء فيه فقوله تعالى: **الْيَوْمَ** أعني به يوم عرفة من السّنة العاشرة، **يَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا** لا معنى له بل هو من تحصيل الحاصل نعم لو قال قد يئسوا أو أنهم يائسون مثلاً بدون، اليوم، كان له وجه و لم يقل كذلك هذا أولاً.

ثانياً: أن أريد من هذا التدرج الذي ذكر في الآية في الطّعام تحريم بعض المصاديق بعد بعض فالآية لا تشتمل على أزيد ممّا تشتمل عليه الآيات السّابقة أعني آيات البقرة و الأنعام و النحل و أنّ المنخفة و الموقوذة الخ من أفراد ما ذكر فيها فكيف يقول: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** الخ مضافاً الى أنّ ما ذكر سابقاً من الميتة و الدّم و لحم الخنزير أغلب مصداقاً و وقع في قلوب النّاس من أمثال المنخفة و الموقوذة وغيرها ممّا هو نادر الوجود غالباً.

ثالثاً: تشريع الأحكام و إبلاغها لا يسمّى ديناً و لا كمالاً له نعم هو إكمال لبعض الدّين و إتمام لبعض النعمة و قد قال الله: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** من غير تقييد.

وابعاً: أنّ الله تعالى قد بيّن في كتابه أحكاماً كثيرة في سائر الأيام و لم يقل اليوم أكملت لكم دينكم، فكيف قال بعد ذكر هذه الأحكام **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** مع أنّ الأحكام المذكورة سابقاً و لاحقاً من قبيل الصّلاة و الصّوم و الحجّ و النّكاح و الطّلاق و أمثالها أعظم شأناً و أكثر ابتلاءً و تقرباً الى الله تعالى

من أكل الدَّم والميتة ولحم الخنزير وأمثالها ومحصل الكلام هو أنه تعالى لم يذكر في هذه الآية إلا بعض الأحكام التي مرَّ ذكر أكثرها في البقرة وغيرها فما وجه تخصيص اليوم بالمزِيَّة والشَّرَف على سائر الأيام وإذا كان الأمر على هذا المنوال فلا محالة تكون الآية ناظرة إلى شيء آخر غير هذه المذكورات، وهو الذي لا يكمل الدين الآية بحيث يكون الدين بدوره ناقصاً لا فائدة فيه مرضياً عند الله وأن شئت قلت الدين أعني به مجموع الأحكام بمنزلة الجسد وهو الرُّوح وليس هو إلا الولاية وهذه هي التي أشارت الآية إليها وعليه فشان نزول الآية هو يوم الغدير لا يوم عرفة كما أن موضع قوله اليوم ينسب إلى الذين كفروا إلى قوله: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** هو بعد قوله: **يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ** <sup>(١)</sup> وسيأتي الكلام فيها، فهو في هذه الآية كأنه جملة معترضة بين قوله ذالكم فسق اليوم، وقوله فمن اضطّر في مخمصة الخ وذلك لوجهين:

**أحدهما:** أنه لا ربط بين قوله **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ** إلى قوله: **ذَلِكُمْ فَسَقٌ** وبين قوله: **الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ** إلى قوله: **وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**.

**ثانيهما:** أنه تعالى قال بعد ذلك فمن اضطّر في مخمصة وحقّه الإتيان بقوله: **ذَلِكُمْ فَسَقٌ** لأنه في الحقيقة إستثناء عن المذكورات في أول الآية أعني بها الدَّم والميتة الخ أي حُرِّمَتْ عليكم ما ذكرناه إلا في صورة الإضطراب أو أنها تحرم على المكلف إلا في حق المضطر وكيف كان فذيل الآية مربوط بصدرها والفصل بين الصدر والذيل بقوله: **الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا** إلى قوله: **دِينًا** أمرٌ غير معقول ولا مأبوس بالذهن مضافاً إلى بعده عن قانون الفصاحة وهو ظاهر على المتأمل المنصف وليس هذا قدحاً في القرآن نعوذ بالله منه بل هو

قدح في ترتيب الآيات و تنظيمها و قد ثبت في محلّه أن ترتيب النزول غير ترتيب الجمع فأَنَّ القرآن الموجود عندنا ليس ترتيب الآيات فيها من رسول الله ﷺ ولا بأمره و تأييده بل هذا الترتيب ممّا صنعه عثمان في خلافته و هو مسلم لا شك فيه و عليه إتفاق المفسرين من العامة و الخاصة فلا يبعد تغيير محلّ بعض الآيات جهلاً أو عمداً فإنّهم لمّا رأوا دلالة الآية على الولاية و أنّها أن جعلت في محلّها أعني بعد قوله: **يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ** تثبت ولاية عليّ بها بلا كلام جعلوها في غير محلّها و هذا منهم ليس ببعيد و يؤيد هذا الإحتمال قراءة بعضهم، اليوم ينس الذين كفروا الى قوله: **وَأَخْشَوْنِ** أية مستقلة.

وقوله: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** الى قوله: **وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** أيضاً أية، فهاتان الأيتان وقعتا بين أكل الميتة والدّم في حالتي الإختيار و الإضطراب فأقضى ما أنت قاض والله أعلم بحقائق الأمور فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ معناه من دَعَتِ الضَّرُورَةُ الى أكل الميتة و غيرها من المحرّمات في الآية كما عند المجاعة الشديدة فلا بأس بتناولها بمقدار الضَّرُورة منها أي بقدر ما يُمسك ريقه لازيادة عليه بشرط أن لا يكون باغياً و محارباً و الى ذلك أشار بقوله: **غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ** و المتجانف المتمايل للإثم المنحرف اليه و المراد به في المقام المعتمد له القاصد اليه من جنف القوم اذا مالوا و كلّ أعوج فهو يجنف و المقصود أن لا يكون قصده من الأكل الإثم، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أي أن الله تعالى يغفر لمن أكل ما حرّم عليه بهذه الآية أكلاً في مخمصة غير متجانف لإثم، فإنّه رحيم بعباده غافر لذنوبهم و من يغفر الذنوب إلّا هو.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ  
وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنْ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ  
مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ  
اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ  
سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَ  
طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ  
حِلٌّ لَهُمْ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ  
الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ  
قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ  
مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ  
بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ  
الْخَاسِرِينَ (٥)

### ◀ اللغة

الطَّيِّبَاتُ، الطَّيِّبُ في الأصل ما تستلذه الحَوَاس و ما تستلذه النَّفْس و  
الطَّعَامُ الطَّيِّبُ في الشَّرْع ما كان متناولاً من حيث ما يجوز ويقدر ما يجوز و من  
المكان الذي يجوز.

الْجَوَارِح، بفتح الجيم جمع جارحة و هي الصَّائِدة من الكلاب والفهود  
والطيور إمّا لأنّها تجرح و أمّا لأنّها تكسب.

مُكَلِّبِينَ، جمع مُكَلِّب و هو صاحب الكَلْب أو مُؤَدِّب.

مُسَافِحِينَ، السَّفْح الزَّنا.

أَخْدَانٍ، يقال خادنها و خادنته إتخذها لنفسه صديقة يفجر بها.

## ◀ الإعراب

وَمَا عَلَّمْتُمْ مَا بِمَعْنَى الَّذِي وَالتَّقْدِيرِ صَيْدٍ مَا عَلَّمْتُمْ أَوْ تَعْلِيمٍ مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ  
الْجَوَارِحِ حال من الهاء المحذوفة أو من، ما، مُكَلِّبِينَ يقرأ بالتشديد و  
التخفيف حال من الضمير في، عَلَّمْتُمْ، وقوله تَعْلِمُونَهُنَّ مستأنف لا موضع له و  
قليل هو حال من الضمير في مَكَلِّبِينَ وَطَعَامُ الَّذِينَ مَبْتَدَأُ وَأَحِلَّ لَكُمْ خبره و  
يجوز أن يكون معطوفاً على الطيبات، و حَلَّ لَكُمْ، خبر مبتدأ محذوف وَ  
طَعَامُكُمْ حَلَّ لَهُمْ مبتدأ وخبر وَالْمُحَصَّنَاتُ معطوف على الطيبات ويجوز  
أن يكون مبتدأ والخبر محذوف أي والمحصنات من المؤمنات حَلَّ لَكُمْ  
أيضاً، و حَلَّ مصدر بمعنى الحلال فلا يُشْنَى ولا يجمع وَالْمُؤْمِنَاتِ حال من  
الضمير في المحصنات إِذَا تَعْلِمُونَهُنَّ ظرف لاحتل أو لاحتل المحذوفة  
مُحَصِّنِينَ حال من الضمير المرفوع في أتيتموهنَّ عَيْرُ صفة لمحصنين وَلَا  
مُتَّخِذِي معطوف على غير فيكون منصوباً بِالْإِيمَانِ أي بالمؤمن بموجب  
الإيمان وهو الله.

## ◀ التفسير

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ أَيَّ أَنْ أَصْحَابِكَ يَا مُحَمَّدُ يسألونك ماذا أحلَّ  
لهم، أي ما الذي أحلَّ لهم أكله من المطاعم فقل لهم أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ منها  
أي أحلَّ لكم ما تستلذذ النفس به، أو ما أذن لكم ربكم في أكله من الذبائح وما  
عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ أَيَّ وَأَحِلَّ لَكُمْ أيضاً صيد ما عَلَّمْتُمْ من  
الجوارح وهي الكواكب من سباع الطير والبهائم تَعْلِمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ  
أي بشرط أن تعلمونهنَّ طلب الصيد لكم بما عَلَّمَكُمُ اللَّهُ من التأديب الذي  
أَدَّبَكُم بِهِ.

وقيل معناه، كما عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ أَي كُلُوا مِمَّا لَمْ

يَأْكُلُ الْكَلْبُ مِنْهُ فَأَنَّ مَا أَكَلَ مِنْهُ الْكَلْبُ لَا يَجُوزُ أَكْلُهُ لِأَنَّهُ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ وَ  
**أَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ** وذلك لأن من يشترط إستباحة ما يقتله الكلب التسمية  
 عند إرساله فإن لم يسم لم يجز له أكله إلا إذا أدرك زكاته وحده أن يجده  
 يتحرك عينه أو أذنه أو ذنبه فيذكيه بفري الحلقوم والأوداج.

وإختلفوا في، من، من قوله: **مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ** هل هي تبعيضية أو لا  
 فقال قوم بالأول و عليه فالمعنى من بعض ما أمسكن وقال قوم بالثاني و  
 المعنى فكلوا من جميع ما أمسكن عليكم لأن كلمة، من، على هذا زائدة و  
 التقدير كلوا ما أمسكن عليكم و الحق أنها ليست يزائدة بل هي تبعيضية و  
 ذلك لأن ما يمسه الكلب من الصيد لا يجوز أكل جميعه لأن بعضه حرام  
 كالدم والفرث والغدد وغير ذلك مما لا يجوز أكله فإذا قال فكلوا مما أمسكن  
 عليكم، أفاد اللفظ بعض ما أمسكن وهو الذي أباح الله أكله من اللحم قاله  
 الشيخ في التبيان وإختاره.

و أنا أقول و يؤيده الأصل فإن الأصل عدم الزيادة ولا سيما في القرآن.

ثانياً: لو كانت زائدة لقال الله فكلوا ما أمسكن عليكم وهو ظاهر.

**وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** معناه اجتنبوا ما نهاكم الله عنه فلا  
 تقربوه وأحذروا من أكل صيد الكلب اذا لم يكن معلماً أو مملاً لم يمسه  
 عليكم أو تأكلوا مما لم يسم الله عليه من الصيد بل كل الذبائح مما صاده أهل  
 الأوثان والأصنام وذلك لأن الله تعالى نهى عن كل ما لم يذكر إسم الله عليه  
 فمن خالفه يعاقب عليه فإنه سريع الحساب لا يشغله حساب بعض عن بعض.  
**إِعلم أن في الآية مسائل لا بأس بالإشارة إليها ولو إجمالاً:**

**الأولى:** أن الطيب هاهنا ما قابل الخبيث فالآية تدل بالمفهوم على تحريم  
 الخبائث و بالمنطوق على إباحة الطيبات و هي كلما لم تنفر عنه الطباع  
 المستقيمة أو كل ما أباح الشارح أكله.



**الثانية:** أَنَّ صيد الكلب المعْلَم داخل في الطّيّبات فيجوز أكله ويدل عليه قوله: **وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ** فَأَنَّ الجوارح جمع جارحة وهي الكاسبة تطلق على الكلب ولا طير وغيرهما من البهائم وأن شئت قلت الجوارح الكواسب مطلقاً سميت بذلك لأن أربابها يكسبون الطعام بصيدها و قيل سميت بذلك لأنها تجرح بأنيابها أو أطفارها وحيث أنها قيّدت بالمكَلِّبِينَ، تدل على أَنَّ الجوارح اذا كانت من جنس الكلاب فلا بأس بأكل صيدها.

وأما غير الكلاب من الطيور والبهائم فلا يجوز أكل صيدها وبعبارة أخرى إطلاق الجوارح قيّد بالمكَلِّبِينَ وهذا التقييد يخصّه بالكلاب لأنه المتبادر من اللفظ ويدل عليه جهة الاشتقاق واتفاق أهل اللغة على أَنَّ المكَلَّب هو صاحب الكلب، مضافاً الى أَنَّ قوله: **مِنَ الْجَوَارِحِ**، حيث أتى بكلمة، من، التي تفيد التبعية يدل على أَنَّ بعض الجوارح يجوز أكل صيدها وهو الكلاب المذكور في الآية لا صيد كل الجوارح اذ لو كان كذلك لقال وما علّمتم الجوارح، بغير كلمة، من، وقوله: **مُكَلِّبِينَ** ومع ذلك يدل على ثبوت الحكم الإجماع والأخبار الواردة في الباب.

**الثالثة:** إطلاق قوله ما علّمتم ثم تقييده بقوله تعلمونهنّ الخ يقتضي أَنَّ التعليم له كفيّة خاصّة متّلقاة من الشرع مأخوذة في اباحة ما يقتله الكلب وقد ذكره علماءنا شرائط.

**أحدها:** أن يسترسل اذا أرسله.

**ثانيها:** الإنزجار اذا زجره وهذان الشرطان ممّا إتّفقت العامّة والخاصّة عليهما.

**ثالثها:** إمساكه الصّيد وعدم أكله منه وهذا الشرط اختلفت فيه الخاصّة لإختلاف الروايات المزوّية عن أهل البيت صلوات الله عليهم وإختلفت

العامّة فيه أيضاً لإختلاف الحديث النبوي والى الإشتراط ذهب الشّيخ وأكثر الخاصّة والعامّة.

ففي صحيحة رفاعه بن موسى قال:

سألت أبا عبد الله عن الكلب يقتل فقال **عَلَيْهِ** كُل فقلتُ أَكَل منه.

فقال **عَلَيْهِ**: إذا أَكَل منه ما لم يُمسك عليك أنما أَمْسَكَ عَلَى نفسه انتهى.

وفي رواية سماعة فاذا أَكَل منه قبل أن تذكّيه فلا تأكل منه، وأمّا الأخبار الدّالة على عدم الإشتراط فهي كثيرة ففي بعضها وأَكَل ثلثيه وفي بعضها ولو بقي نصفه وبذلك قال الصّدوق وابن أبي عقيل وفي بعضها تصريح بأنّ الأكل إذا كان بعد القتل فلا بأس كما لا يقدر أكل السُّبع من الذبيحة بعد ذكاتها. وبذلك قال ابن الجنيد وهو وجه جمع بين الأخبار وتفصيل الكلام في الفقه.

**الزّابعة:** نقل عن ابن أبي عقيل القول يجوز صيد كلّ ما أشبه الكلب من الفهد والنّمر ونحوهما لعموم الجوارح ودلالة بعض الأخبار والمشهور عدم الجواز لأنّ عموم الجوارح قيّد بالكلب لقوله: **مُكَلِّبِينَ** والكلب لا يطلق على الفهد والنّمر ونحوهما وهو واضح.

وأما دلالة بعض الأخبار على الجواز فنقول نحمل الأخبار على التّقية لموافقتها لمذاهب أكثر العامّة نعم ظاهر إطلاق الآية يشمل أنواع الكلاب السّلوقي وغيره والأسود وغيره المشهور بين الأصحاب فما ذهب إليه ابن الجنيد من إستثناء الكلب الأسود في غير محلّه فإنّ إطلاق الكلب و عموم الأخبار يدفعه.

**الخامسة:** يستفاد من كون الخطاب في الآية للمسلمين أنّه لا يجوز الإصطياد بالكلب الذي علّمه الكافر ويدلّ عليه بعض الأخبار والى ذلك

ذهب الشيخ في المبسوط والمشهور بين الأصحاب أن العبرة بالمرسل لا بالمعلم وعموم الخطاب في قوله: **تُعَلِّمُونَهُنَّ**.

وقوله قبل ذلك: **وَمَا عَلَّمْتُمْ يَدُلْ عَلَى مَا** ذهبنا إليه وتوضيحه أن خطابات القرآن عامة وأن كانت الموارد خاصة ومن ثم كلّفوا بالفروع وأما تخصيص المسلمين بالذكر في بعض الآيات لأنهم المتفعون ومن الجائز كونها جرت على الغالب لا على جهة الإشتراط وأن الغرض الإرشاد إلى أخذ الصيد وأنه مما ألهمكم التدبير في أخذه ومن ثم ذهب الأكثر إلى عدم إشتراط الإسلام في المعلم وأن المعتبر إشتراط في المرسل ومن حكمه بل إدعى عليه الإجماع في الخلاف ويؤيده إطلاقات الروايات وكونه بمنزلة الألة فالأخبار الدالة على الإشتراط تحمل على الكراهة فعلم من ذلك أنه لو كان المرسل كافراً فلا يحل صيده ولو كان المعلم مسلماً إلا إذا أدرك ذكاته المسلم فذكاه لأن العبرة في الحل والحرمة من الصيد الذي إصطاده الكلب المعلم، بالمرسل لا بالمعلم.

**السادسة:** يشترط كون الإرسال لصيد فلو إسترسل من نفسه لم يحل أكل ما يقتله نعم لو زجره فوقف ثم أغراه حلّ قطعاً وكذلك لو أرسله المرسل لا للصيد بل بداع آخر فعرض له صيد فقتله لم يحل.

وأيضاً يشترط أن لا يغيب الصيد عنه وحياته مستقرة لقوله **عَلَيْهِ** كل من صيد الكلب ما لم يغيب عنه.

**السابعة:** أستفيد من الآية إعتبار التسمية من المرسل والظاهر أنه لا يشترط كونها أي التسمية عند الإرسال بل يكفي ولو حصلت بعده إلى حين عضه الكلب وهو الطاهر من أكثر الأخبار.

**الثامنة:** يستفاد من قوله كلوا مما أمسكن أنه يشترط في الإباحة أن يجده قد مات لأنه الذي يباح أكله دون الحي فلو وجده ذا حياة مستقرة لم يحل

حَتَّى يَذْكِبَهُ نَعْمَ لَوْ لَمْ يَكُن مَعَهُ سَكِينٌ حَتَّى يَذْكِبَهُ يَدْعُهُ حَتَّى يَقْتُلَهُ وَيَأْكُلَ مِنْهُ لِقَوْلِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صَحِيحَةِ ابْنِ دَرَّاجٍ.

قَالَ سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ رَجُلٍ يَرْسِلُ الْكَلْبَ عَلَى الصَّيْدِ فَيَأْخُذُهُ يَكُونُ مَعَهُ سَكِينٌ يَذْكِبُهُ فِيهَا أَيْدِعُهُ حَتَّى يَقْتُلَهُ وَيَأْكُلَ مِنْهُ قَالَ لَا بَأْسَ قَالَ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ.

فَأَنَّ مَفْهُومَ الْخَبَرِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مَعَهُ السَّكِينُ لَمْ يَحِلَّ إِلَّا بِالتَّذْكِيَةِ وَبِذَلِكَ أَفْتَى الْأَصْحَابُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الْيَوْمَ أَحْلَلْ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ

قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ كِسَابِقَتَهَا أَنَّهُ أَحْلَلَ لِلْمُؤْمِنِينَ الطَّيِّبَاتِ وَهِيَ الْحَلَالُ أَوْ مَا تَسْتَلْذُهُ النَّفْسُ عَلَى مَا بَيَّنَّا الْقَوْلَ فِيهَا فِي الْآيَةِ الْأُولَى وَظَاهَرِ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى حَلَالِيَةِ كُلِّ مُسْتَطَابٍ إِلَّا مَا قَامَ دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِهِ وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَعْبَرُ عَنْهُ بِإِصَالَةِ الْحَلِّ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ قَالَ الشَّيْخُ فِي التَّبْيَانِ، وَذَلِكَ يَخْتَصُّ عِنْدَ أَكْثَرِ أَصْحَابِنَا بِالْحُبُوبِ لِأَنَّهَا الْمُبَاحَةُ مِنْ أَطْعَمَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَأَمَّا ذَبَائِحُهُمْ وَكُلُّ مَا نَعْيَ يَبَاشِرُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ فَأَنَّهُ نَجَسٌ وَلَا يَحِلُّ إِسْتِعْمَالُهُ، وَتَرْكِيَّتُهُ لَا تَصَحُّ لِأَنَّ مِنْ شَرْطِ صَحَّتِهَا التَّسْمِيَةُ لِقَوْلِهِ: وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ <sup>(١)</sup> وَهَؤُلَاءِ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ وَإِذَا ذَكَرُوا قَصَدُوا بِذَلِكَ اسْمَ مَنْ أَبَدَّ شَرَعَ مُوسَى أَوْ عِيسَى أَوْ إِبْنُ أَخَذَ عِيسَى ابْنًا وَكَذَّبَ مُحَمَّدًا ﷺ وَذَلِكَ غَيْرُ اللَّهِ وَقد حَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: وَمَا أَهْلٌ لِيُغَيِّرَ اللَّهُ عَلَى مَا مَضَى الْقَوْلُ بِهِ أَنْتَهَى كَلَامُهُ.

وقال الطبري من العامة في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه يعني جلّ شأنه بقوله: **الْيَوْمَ أَحْلَلْ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ** أحلّ لكم أيّها المؤمنون من الذبائح و المطاعم دون الخبائث منها وقوله: **وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ** و ذبائح أهل الكتاب من اليهود والنصارى وهم الذين أوتوا التّورة والإنجيل وأنزل عليهم فدانا بهما أو بأحدهما حلّ لكم يقول حلال لكم أكله دون ذبائح سائر أهل الشّرك الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب وعبداء الأوثان و الأصنام فإنّ من لم يكن منهم ممّن أقرّ بتوحيد الله عزّ ذكره ودان دين أهل الكتاب فحرام عليكم ذبائحهم.

ثمّ اختلف فيمن عني الله بقوله: **وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** من أهل الكتاب فقال بعضهم عني الله بذلك ذبيحة كلّ كتابي ممّن أنزل عليه التّورة والإنجيل أو ممّن دخل في ملتهم فدان دينهم و حرّم ما حرّموا وحلّ ما حلّوا و من غيرهم من سائر أجناس الأمم انتهى كلام الطبري ثمّ و من الأخبار ما يدلّ على ذلك.

وقال الرّازي في تفسيره وفي المراد بالطعام ها هنا وجوه ثلاثة:

**الأوّل:** أنّه الذبائح يعني أنّه يحلّ لنا أكل ذبائحهم ونكاح نساءهم وعن عليّ عليه السلام أنّه استثنى نصارى بني تغلب وقال ليسوا على النصرانية ولم يأخذوا منها إلّا شرب الخمر وبه أخذ الشافعي وعن ابن عباس أنّه سأل عن ذبائح نصارى العرب فقال لا بأس به وبه أخذ أبو حنيفة.

**الوجه الثّاني:** أنّ المراد به هو الخبز والفاكهة وما لا يحتاج فيه الى الذّكوة و هو منقول عن بعض أئمة الزّيدية.

**الثّالث:** أنّ المراد به جميع المطعومات و الأكثرون على القول الأوّل و رجّحوا ذلك من وجوه:

**أحدها:** أنّ الذبائح هي التي تصير طعاماً بفعل الذّابح فحمل قوله وطعام الذين أوتوا الكتاب على الذبائح أولى.

**ثانيها:** أنَّ ما سوى الذَّبائِح فهي محلّلة قبل أن كانت لأهل الكتاب ويعد أن صارت لهم فلا يبقى لتخصيصها بأهل الكتاب فائدة.

**ثالثها:** ما قبل هذه الآية في بيان الصيد والذَّبائِح فحمل هذه الآية على الذَّبائِح أولى انتهى كلامه.

وقال الألوسي، في تفسير روح المعاني، والمراد بالموصول وهو (الذين) اليهود والنصارى حتى نصارى العرب عندنا إلى أن قال والمراد بطعامهم ما يتناول ذبائحهم وغيرها من الأطعمة.

كما روي عن ابن عباس وأبي الدرداء وإبراهيم وقتادة والسدي والضحاك ومجاهد وساق الكلام إلى أن قال وحكم الصابئين حكم أهل الكتاب عند الإمام الأعظم إلى آخر ما قال.

أقول وبذلك قال غير هؤلاء من مفسريهم ومنه يعلم أن الحكم مسلم عندهم وهو حلية ذبائح أهل الكتاب إلا الشافعي فأنه قال بالتفصيل نقل صاحب المنار في تفسيره<sup>(١)</sup> عن الشافعي ما هذا نصّه، قال الشافعي في كتاب الصيد والذبائح من الأمّ ما نصه، أحلّ الله طعام أهل الكتاب وكان طعامهم عند بعض من حفظت عنه من أهل التفسير، ذبائحهم وكانت الآ ثار تدلّ على إحلل ذبائحهم يسمونها لله تعالى فهي حلال وأن كان لهم ذبح آخر يسمون عليه غير إسم الله مثل إسم المسيح أو يذبحونه بإسم دُون الله تعالى لم يحلّ هذا من ذبائحهم ولا أثبت أن ذبائحهم هكذا.

فأن قال قائل كيف زعمت أن ذبائحهم صنفان وقد أبيحت مطلقة، قيل قد يباح الشيء مطلقاً وأنما يراد بعضه دون بعض فإذا زعم زاعم أن المسلم إذا نسي إسم الله أكلت ذبيحته وأن تركه إستخفافاً لم توكل ذبيحته وهو لا يدعه للشرك، وكان من يدعه على الشرك أولى أن تترك ذبيحته وقد أحلّ الله عزّ و

جَلَّ لحوم البدن (الإبل) مُطلقة فقال فإذا وجبت (أي سقطت) جنوبها فكلوا منها ووجدنا بعض المسلمين يذهب إلى أنه لا يؤكل من البدنة التي هي نذر ولا جزء صيد ولا فدية، فلماً احتملت هذه الآية ذهبنا إليه وتركنا الجملة لأنها خلاف القرآن ولكنها محتملة ومعقول إذ من وجب عليه شيء في ماله لم يكن له أن يأخذ منه شيئاً لأننا إذا جعلنا له أن يأخذ منه شيئاً فلم نجعل عليه الكل أنما جعلنا عليه البعض الذي أعطى فهكذا ذبائح أهل الكتاب بالدلالة على شبيه ما قلناه انتهى<sup>(١)</sup>.

قال صاحب المنار بعد نقله ما نقلناه عنه أقول أنه رحمه الله حرم ما ذكروا إسم غير الله عليه باقية على مسائل خلافية نظيراً للمسألة وقيد بها إطلاق القرآن ومخالفوه في ذلك كمالك وغيره لا يجيزون تخصيص الآية بمثل هذه الأقية التي غاية ما تدل عليه أن تخصيص القرآن جائز بالدليل ولهم أن يقولوا لا نسلم أن المسلم الذي يترك التسمية تهاوناً وإستخفافاً لا تحل ذبيحته إذا سلمناه جدلاً بمنع قياس الكتابي عليه فيما ذكر ولا محل هنا لبيان المنع بالتفصيل في هذا القياس وفيما بعده وهو أبعد منه والظاهر ما تقدم من فرقة المالكية من أن ما ذبحوه لغير الله أن كانوا لا يأكلونه فهو غير حل للمسلم وأن كانوا يأكلونه فهو من طعامهم الذي أطلق الله تعالى حله وهو يعلم ما يقولون وما يفعلون وهذا القول يظهر لنا نكتته التعبير بالطعام دون المذبح أو المذكي لأن من المذكي ما هو عبادة محضة لا يذكونه لأجل أكله انتهى كلام صاحب المنار.

وقد ظهر مما نقلناه عنهم أن الشافعي خالفهم في جواز أكل ذبائح أهل الكتاب بقول مطلق وشرط في الحلية التسمية من أهل الكتاب فلو سموا عليه غير إسم الله لم يحل إذا عرفت هذا دريت أن أعظم المصائب في باب

الأحكام هو القياس الذي أخذوا به و أما نحن ففي فسحة من هذه الأوهام بعون الله تعالى بل نتبع أهل البيت عليهم السلام في جميع الأحكام ولا سيما في تفسير كلام الله.

فنقول قال العلامة عليه السلام في المختلف المشهور عند علماءنا تحريم ذبائح الكفار مطلقاً سواء كانوا أهل ملة كاليهود والنصارى والمجوس أو لا كعباد الأوثان والنيران وإستدل على ذلك بقوله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وقد مر الكلام فيه وأنه لفسق والكافر لا يعرف الله فلا يذكره على ذبيحته ولا يرى التسمية على الذبيحة فرضاً ولا سنة.

وما رواه سماعة في الموثق عن الكاظم عليه السلام قال سألته عن ذبيحة اليهودي والنصراني قال عليه السلام لا تقربها انتهى.

وعن الصادق عليه السلام حيث سأل عن ذبائح اليهود والنصارى قال عليه السلام الذبيحة إسم ولا يؤمن على الإسم إلا المسلم. وفي الموثق عنه عليه السلام قال لا تأكلوا ذبائحهم ولا تأكلوا في آنتهم يعني أهل الكتاب.

وعن قتيبة قال سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام وأنا عنده فقال الغنم نرسل ففيها اليهودي والنصراني فيعرض فيها العارضة، فيذبح أياكل ذبيحه فقال أبو عبد الله عليه السلام لا تمسها ولا تدخل ثمنها مالك ولا تأكلها فأنما هو الإسم ولا يؤمن عليها إلا مسلم فقال له الرجل: أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم فقال عليه السلام كان أبي عليه السلام يقول أنما هي الحبوب وأشباهها.

وفي الصحيح عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال سمعته يقول لا يذبح أضحيك يهودي ولا نصراني ولا المجوسي وأن كانت امرأة فلتذبح لنفسها.



وفي الصحيح عن الباقر عليه السلام قال سألته عن النصارى أيؤكل ذبائحهم فقال عليه السلام كان علي عليه السلام ينهى عن ذبائحهم وعن صيدهم وعن مناكرتهم

وفي الموثق عن زيد الشحام قال سأل أبو عبد الله عن ذبيحة الذمي فقال لا تأكله سمى وأن لم يُسم انتهى.

والأخبار الواردة في الباب كثيرة قال العلامة بعد نقله هذه الأخبار في المختلف ولأن الإخلاد إلى الكفار في الذبح ركوز إلى الظالم فيندرج تحت قوله: **وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمُ النَّارُ** <sup>(١)</sup> ولأنه نوع إستئمان والكافر ليس محلاً للأمانة ولأن لها شرائط فلا يستند حصولها إلى قوله انتهى كلامه.

أقول هذا هو المشهور عندنا وذهب بعض فقهاءنا إلى عدم التحريم بقول مطلق فقالوا بالتحريم عند العلم بعدم التسمية وبالحل عند العلم بها، ودليلهم من الكتاب قوله تعالى: **وَوَطْءُ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ** خرج عن الحل ما إذا علم عدم التسمية بالإجماع ويقول: **وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** <sup>(٢)</sup> وبقي الباقي تحت عموم الآية وهو العلم بالتسمية أو عدم العلم بعدمها ففي صورة الشك نتمسك بإطلاق الآية ونحكم بالجواز ومن الأخبار:

ما رواه حمران في الصحيح قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في ذبيحة الناصب واليهودي والنصراني لا تأكل ذبيحته حتى تسمعه يذكر اسم الله عليه قلت المجوسي قال نعم إذا سمعته يذكر الله أما سمعت قول الله تعالى: **وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** انتهى. وفي الصحيح عن جميل ومحمد بن حمران أنهما سألا أبا عبد الله عليه السلام عن ذبائح اليهود والنصارى والمجوس فقال عليه السلام كل فقال

بعضهم أتهم لا يسمون فقال عليه السلام فأن حضرتموهم فلم يسموا فلا تأكلوا قال عليه السلام إذا غاب فكل انتهى.  
و في الصحيح عن الصادق عليه السلام لما سأل عن ذبيحة أهل الكتاب و نساءهم فقال لا بأس به.

و عن عبد الملك بن عمرو قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام ما تقول في ذبائح النصارى فقال لا بأس بها قلت فأتهم يذكرون عليها المسيح فقال عليه السلام أما أرادوا بالمسيح الله انتهى قالوا ولأن الأصل الإباحة. أقول هذا ملخص كلامهم و قد أجاب المشهور عنهم أما أولاً فبحمل الطعام في الآية على الحبوب لأنه المتعارف و لدلالة الحديث عليه.  
ثانياً: سلمنا لكن طعام الذين أوتوا الكتاب ليس للعموم و نحن نقول بموجبه فيصدق في فرد من أفرادهم.

ثالثاً: لأنه يصدق عليه مع ذبح المسلم أنه طعام الذين أوتوا الكتاب كما يصدق عليه كذلك قبل الذبح.

رابعاً: أن الحكم معلق على الطعام وليس الذبح جزء من مسماه.  
و أما الأحاديث فأنها معارضة بأمثالها، أو محمولة على الضرورة دون الاختيار أو على التقية لأن مذهب العامة إباحة ذلك و أما الأصل فهو معارض بالإحتياط انتهى.

و أما أطلنا الكلام في هذا المقام لأنه مما تعم به البلوى و لا سيما في هذا الزمان و قد علم مما ذكرناه أن القول بالإباحة لا يخلو عن قوة إلا أنه خلاف المشهور و الإحتياط حسن في كل حال و خصوصاً في اللحوم و الذبائح فإن الأصل فيها عدم التذكية حتى يعلم بها فعلى هذا قول المشهور أوفق بالإحتياط و لا شك أنه طريق النجاة هذا كله مضافاً إلى أن الآية ساكتة عن مسألة الذبائح إلا أن يحمل الطعام فيها على الأعم من الحبوب حتى تشمل اللحوم.

وَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ بَأَنَّ الْمَرَادَ بِالطَّعَامِ الْحُبُوبَ لَا مَطْلُقَ الطَّعَامِ فَخُرُوجَ اللَّحْمِ  
عَنِ الْآيَةِ مُسَلَّمٌ مَقْطُوعٌ خُرُوجاً تَخْصِصِيّاً لَا تَخْصِصَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ  
مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا  
مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ

الواو في قوله: وَالْمُحْصَنَاتُ للعطف أي وأحلّ لكم المحصنات من  
المؤمنات ومن الذين أوتوا الكتاب من قبلكم من اليهود والنصارى ومعنى  
أحلّ، أحلّ النكاح بالعقد دائماً كان أو منقطعاً.

اختلفوا في المحصنات التي في الآية في كلا الموردين فقال بعض  
المفسرين المراد بها الحرائر خاصة فاجرة كانت أو عفيفة وحرّموا إماء أهل  
الكتاب بكلّ حال ذهب إليه مجاهد وطارق بن شهاب والشعبي و قتادة.  
وقال آخرون أراد بذلك العفائف من الفريقين حرائر كنّ أو إماء وأجازوا  
العقد على الأمة الكتابية ثم اختلفوا في المحصنات من الذين أوتوا الكتاب.  
فقال قوم هو عام في العفائف منهنّ حرّة كانت أو أمة حرّية كانت أو ذمّية و  
هو قول من قال المراد بالمحصنات العفائف.

وقال آخرون أراد الحرائر منهنّ حرّيات كنّ أو ذمّيات وعلى قول الشافعي  
المراد بذلك من كان من نساء بني إسرائيل دون من دخل فيهنّ من سائر الملل  
وقال قوم أراد بذلك الذمّيات منهنّ قاله ابن عباس وإختار الطبري أن يكون  
المراد بذلك الحرائر من المسلمات والكتابيات نقل هذه الأقوال في التبيان ثم  
قال وعندنا لا يجوز العقد على الكتابية نكاح الدّوام:

قال الله تعالى: وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ<sup>(١)</sup>.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

قال الله تعالى: **وَلَا تَتَّبِعُوا بَعْضَ الْكَوَاثِرِ** <sup>(١)</sup>.  
فإذا ثبت ذلك قلنا في قوله: **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**  
تأويلان:

**أحدهما:** أن يكون المراد اللاتي أسلمن منهن، والمراد بقوله: **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ** من كن في الأصل مؤمنات ولدن على الإسلام قيل أن قوماً كانوا يتحرجون من العقد على الكافرة إذا أسلمت فبين الله بذلك أنه لا حرج في ذلك فلذلك أفردهن بالذكر البلخي.

**الثاني:** أن يخص ذلك بنكاح المتعة أو ملك اليمين لأنه يجوز عندنا و طوهم بقعد المتعة و ملك اليمين و قوله: **إِذَا اتَّيَمُّوهُنَّ أَجُورَهُنَّ** يعني مهورهن، وهو عوض الإستمتاع بهن وهو قول ابن عباس وجميع المفسرين انتهى كلام الشيخ في التبيان.

وأما قوله: **مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ** فالمعنى أحل لكم المحصنات في الفريقين وأنتم محصنون غير مسافحين ولا متخذي أخدان، أي أعتاء غير مسافحين بكل فاجرة وهو الزنا ولا متخذي أخدان يعني أعتاء غير مسافحين ولا متفردين ببغية واحدة، خادنها وخادنته إتخذها لنفسه صديقة يفجر بها وأما العامة فالمشهور عندهم جواز نكاح أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس إلا الشافعي فإنه خالفهم في المجوس.

قال الشافعي وأهل الكتاب الذين يحل نكاح حرائرهم، اليهود والنصارى دون المجوس، وأما الصابئون والسامرة من اليهود والنصارى إلا أن يعلم أنهم يخالفونهم في أصل ما يحلون من الكتاب ويحرمون، فيحرمون كالمجوس انتهى.

**أقول** ظاهر العبارة أن المجوس عنده من أهل الكتاب إلا في نكاحهم و ذبائحهم.

وقال الرّازي في تفسيره ذهب أكثر الفقهاء الى أنّه يحلّ التّزويج بالذّمية من اليهود والنّصارى وتمسّكوا فيه بهذه الآية وكان ابن عمر لا يرى ذلك ويحتجّ بقوله تعالى: **وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ** وكان يقول لا أعلم شركاً أعظم من أنّ ربّها عيسى قال بهذا القول اجابوا عن التمسّك بقوله تعالى: **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** بوجوه:

**الأول:** أنّ المراد الذين آمنوا منهم فأنّه كان يحتمل أن يخطر ببال بعضهم أنّ اليهوديّة اذا أمنت فهل يجوز للمسلم أن يتزوّج بها أم لا فبيّن الله تعالى بهذه الآية جواز ذلك.

**الثاني:** روي عن عطاء أنّه قال أنّما رخص الله تعالى في التّزويج بالكتّابية في ذلك الوقت لأنّه كان في المسلمات قلّة و أمّا الآن ففيهنّ الكثرة العظيمة فرالت الحاجة فلا جرم زالت الرّخصة.

**الثالث:** الآيات الدّالة على وجوب المباحة عن الكفّار كقوله: **لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّيَّ وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ** وقوله: **لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ** ولأنّ عند حصول الزّوجية ربما قويت المحبّة ويصير ذلك سبباً لميل الزّوج الى دينها وعند حدوث الولد فربما مال الولد الى دينها وكلّ ذلك إلقاء للنفس في الضّرر من غير حاجة.

**الرابع:** قوله في خاتمة هذه الآية ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين وهذا من أعظم المسفردات عن التّزويج بالكافرة فلو كان المراد بقوله تعالى: **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ** إباحة التّزويج بالكتّابية لكان ذلك هذه الآية عقيها كالتناقض وهو غير جائز انتهى كلامه.

**أقول** يظهر من كلام الرّازي إختياره هذا القول وهو عدم جواز النّكاح بهنّ، وإلّا كان حقّاً عليه أن ينكر على ابن عمر ولم ينكر وهو دليل على الرّضا وعليه فقد خالف في هذه المسألة إمامه الشافعي وقد أصاب.

ثم أن قلنا المراد بالمحصنات الحرائر لم تدخل الأمة الكتابية تحت الآية و  
أن قلنا المراد بها العفاف دخلت و على هذا وقع الخلاف بين الشافعي و  
أبو حنيفة و مَنْ يَكْفُرُ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِي الْأَخِرَةِ مِنْ  
الْخَاسِرِينَ الظاهر أن المراد بالكفر هو كفر الجحود أي من جحد و أنكر ما أمر  
الله الإقرار به من توحيد الله و نبوة نبيه فقد حبط عمله يعني الأعمال التي  
يعملها و يعتقدها قربات الى الله فإنها تنحبط و لا يستحقّ عليها ثواباً بل  
يستحقّ عليها العقاب في الآخرة وفيه إشارة الى أن الواجب على المؤمن  
حفظ إيمانه والدوام عليه و هو لا يكون إلا بالمواظبة على فعل الواجبات و  
ترك المحرّمات قربة الى الله على أساس الاعتقاد الصحيح الذي لا ريب فيه  
قال الله تعالى: وَمَا أَتَيْكُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيْكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا<sup>(١)</sup>.



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ  
فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَ  
امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَ  
إِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ  
عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ  
أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا  
صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ  
مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ  
يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ  
تَشْكُرُونَ (٦)

### ◀ اللغة

إِلَى الْكَعْبَيْنِ قَالَ الرَّاغب كَعَبُ الرَّجُلِ الْعِظَمُ الَّذِي عِنْدَ مِلْتَقَى الْقَدَمِ وَالسَّاقِ.  
صَعِيدًا قَالَ الرَّاغب الصَّعِيدُ يُقَالُ لَوَجْهِ الْأَرْضِ وَقَالَ بَعْضُهُم الصَّعِيدُ يُقَالُ  
لِلْغُبَارِ الَّذِي يَصْعَدُ مِنَ الصُّعُودِ وَلِهَذَا لَا يَدُ لِلْمُتَيَمِّمِ أَنْ يَلْقَى بِيَدِهِ غُبَارًا.  
طَيِّبًا، الطَّيْبُ ضِدُّ الْخَبِيثِ.  
حَرَجٍ، الْحَرَجُ الْمَشَقَّةُ.

### ◀ الإعراب

إِلَى الْمَرَافِقِ مَتَعَلَّقٌ بِأَغْسِلُوا وَأَرْجُلَكُمْ يَقْرَأُ بِالنَّصْبِ وَفِيهِ وَجْهَانِ:  
أحدهما: هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى الْوُجُوهِ وَالْأَيْدِي فَأَغْسِلُوا وَجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ وَ  
أَرْجُلَكُمْ.

الثاني: أنه معطوف على موضع برؤوسكم وقد يُقرأ في الشذوذ بالرفع على الابتداء ويقرأ بالجر أيضاً وفيها وجهان: أحدهما: أنه معطوفة على الرؤوس.

الثاني: أنه مجرور بجارٍ محذوف تقديره وأفعلوا بأرجلكم غسلًا وَاَيَّدِيكُمْ مِنْهُ منه، في موضع نصب بامسحوا والباقي واضح لا خفاء فيه.

### ◀ التفسير

الآية خطاب للمؤمنين أمرهم الله بالطهارة إذا أرادوا القيام إلى الصلاة وهم على غير طهر فقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ لَمَّا أمر الله تعالى فيما تقدم بالوفاء بالعقود فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ<sup>(١)</sup> ومن جملة الصلاة و من شرائطها الطهارة بين في هذه الآية كيفيتها فقال إذا قمتم إلى الصلاة أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم على غير طهر قالوا حذف الإرادة لأن في الكلام دلالة عليه و مثله قوله تعالى: فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ<sup>(٢)</sup> والمعنى إذا أردت قراءة القرآن والدليل عليه أن الاستعاذة قبل القراءة لا معها أو بعدها و هذا قول أكثر المفسرين و تخصيص الخطاب بالمؤمنين مع أن الكفار أيضاً مكلفون بالفروع بإجماع الفرقة المحقة والنقل المستفيض عن أهل البيت عليهم السلام ودلالة بعض الآيات عليه لأن المؤمنين هم المستفوعون بمثل ذلك والمتلقون لهذه الأحكام أو لأنهم أشرف وأجدر لأن يتوجه الخطاب إليهم.

و أما ما ذهب إليه كثير من العامة من أن الخطاب بالمؤمنين يقتضي هذا الوصف أنهم هم المكلفون بالفروع دون الكفار ففيه أن دلالة مفهوم الوصف



ليست بحجة عند أكثر المحققين سيما اذا دلت الدلائل على كون التوصيف فائدة أخرى كما في المقام.

وأما تخصيص المؤمنين دون المؤمنات فمن باب التغليب الشائع في لغة العرب ثم أنّ هذه الآية تقتضي بظاهرها تعميم هذا الحكم لسائر المكلفين المحدثين وغيرهم فيجب عليهم ذلك كلّما ما قاموا إليها لكن خصّ ذلك بالمحدثين بالأخبار الواردة عن أهل البيت وبإجماع الفرقة المحقة وقيل أنّ الفرض كان في بدء الإسلام التوضوء عند كلّ صلاة ثمّ نسخ بالتخفيف وقيل أنّ الأمر في قوله: **إِذَا قُمْتُمْ** للندب أو مطلق الرجحان لا للوجوب وكيف كان لا خلاف في عدم وجوب الوضوء عند كلّ صلاة اذا لم يكن المكلف محدثاً فاذا توضأ لنافلة أو فريضة أو قراءة قرآن أو دخول مسجد أو غير ذلك ممّا يجب أو يستحبّ الوضوء له جاز له أن يصليّ به فريضة وكذا يصليّ بوضوء واحد ما شاء من الصلوة وهو مذهب أهل العلم.

وفي الآية اشعار بأنّ الوضوء واجب للصلوة لا لنفسه لقوله: **إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا** الخ كما يقال اذا أردت لقاء الأمير فألبس ثيابك وإذا أردت لقاء العدو فخذ سلاحك وهذا الوجوب لا لنفسه كما هو المشهور بين الأصحاب.

وقيل أنّه واجب لنفسه لكن وجوباً موسعاً يتضيّق الشّروط به ويدلّ عليه بعض الأخبار أيضاً اذا عرفت هذا فاعلم أنّ الآية تدلّ على وجوب غسل الوجه واليدين ومسح الرّأس والرجلين الآن في هذه الامور نوع إجمال كما لا يحفي ولذلك مع الاختلاف بين العامة والخاصّة في كيفية الوضوء وقد حصل البيان في الوضوء بفعل رسول الله ﷺ ولا نعلم فعله ﷺ إلا من طريق أهل البيت عليهم السّلام الذين هم أدرى بما في البيت.

فقد روي العياشي في تفسير الآية عن زرارة وبكير إبنّي أعين قالاً سألت أبا جعفر عليه السلام عن وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله فدعا بطشت أو تور فيه ماء فغمس كفّه اليمنى فغرف بها غرفة فصبها على وجهه (جبهته) فغسل وجهه بها ثم غمس كفّه اليسرى فغرف بها غرفة على يده اليمنى فغسل به ذراعه من المرفق إلى الكف لا يردّها إلى المرفق ثم غمس كفّه اليمنى فأفرغ بها على ذراعه اليسرى من المرفق وصنع بها كما صنع باليمنى ومسح رأسه بفضل كفّه وقدميه لم يحدث لهما ماءً جديداً ثم قال (قالا) ولم يدخل أصابعه تحت الشراك قالاً ثم قال عليه السلام أن الله تعالى يقول:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ

فليس له أن يدع شيئاً من وجهه إلا غسله وأمر بغسل اليدين إلى المرفقين فليس له أن يدع شيئاً إلا غسله لأن الله تعالى قال: فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ثم قال: وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ فإذا مسح بشئ من رأسه أو بشئ من قدميه ما بين أطراف الكعبين إلى أطراف الأصابع فقد أجزأه.

قالا قلنا أصلحك الله أين الكعبان قال هاهنا يعني المفصل دون عظم الساق، قلنا هذا ما هو من عظم الساق والكعب أسفل ذلك فقلنا أصلحك الله فالغرفة الواحدة تجزي الوجه وغرفة للذراع قال عليه السلام نعم إذا بالغت فيهما والثلثان تأتيان على ذلك كله انتهى.

وروي في الفقيه في الصحيح عن زرارة قال قلت لأبي جعفر أخبرني عن حدّ الوجه الذي ينبغي أن يوضئ الذي قال الله عزّ وجلّ فقال عليه السلام الوجه الذي قال الله تعالى وأمر بغسله الذي لا ينبغي لأحد أن يزيد عليه ولا ينقص منه أن زاد عليه لم يؤجر وأن

نقص منه أثم، مادارت عليه الوسطى و الإبهام من قصاص الشعر أي شعر الرأس الى الذقن و ما جرت عليه الإصبعان مستديراً فهو من الوجه و ما سوى ذلك.

فليس من الوجه فقال له الصدغ من الوجه قال عليه السلام لا قال زرارة قلت أرايت ما أحاط به الشعر فقال عليه السلام كلما أحاط به الشعر فليس على العباد أن يطلبوه يبحثوا عنه ولكن يجري عليه الماء انتهى.

أقول قد ذكر فيه أن الصدغ ليس من الوجه وهو المفتى به عند أكثر علماءنا كما أنه روي أن الأذنين ليسا من الوجه.

فقد روي محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال الأذن ليس من الوجه و لا من الرأس.

و روي في الفقيه عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال تابع بين الوضوء كما قال الله تعالى إبدأ بالوجه ثم اليدين ثم أمسح الرأس والرجلين ولا تقدم شيئاً بين يدي شيء تخالف أمره.

وكان أمير المؤمنين اذا توضأ لم يدع أحداً يصّب عليه الماء فقليل له يا أمير المؤمنين لم لا تدعهم يصبون عليك الماء فقال: لا أحب أن أشرك في صلاتي أحداً قال الله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، هذا كله في معنى الوجه وحده الذي يجب أن يغسل في الوضوء كما قال: **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ** ولا خلاف فيه عندنا لما قد عرفت من أن ما دارت عليه الوسطى و الإبهام من قصاص شعر الرأس الى الذقن جرت عليه الإصبعان مستديراً فهو من الوجه و ما سوى ذلك فليس من الوجه و قد ذكر أن الصدغ ليس من الوجه و أن الأذنين أيضاً ليسا منه.

وأمّا العامة فقد اختلفوا في حد الوجه الذي يجب غسله عند الوضوء على قولين أو أقوال:

قال الطَّبْرِي في تفسيره لهذه الآية اختلف أهل التأويل في حدّ الوجه الذي أمر الله بغسله القائم الى الصَّلَاة بقوله اذا قمتم الى الصَّلَاة فأغسلوا وجوهكم. فقال بعضهم هو ما ظهر من بشرة الإنسان من قصاص شعر رأسه منحدرًا الى منقطع ذقنه طولاً و ما بين الأذنين عرضاً قالوا فأما الأذن و ما بطن من داخل الفم والأنف والعين فليس من الوجه ولا غيره ولا أحبّ غسل ذلك ولا غسل شيء منه في الوضوء.

ثم نقل الطَّبْرِي أخبار كثيرة في ذلك، وبعد ذلك نقل عن قوم آخرين أنّهم قالوا أنّ باطن الفم ولأنف من الوجه.

أقول فعليه يجب المضمضة والاستنشاق عند الوضوء فيبطل بتركهما.

وقال آخرون الوجه كلّ ما دون منابت شعر الرأس الى منقطع الذقن طولاً و من الإذن عرضاً ما ظهر من ذلك لعين الناظر و ما بطن منه من منابت شعر اللحية التّابت على الذقن و على العارضين و ما كان منه داخل الفم والأنف و ما أقبل من الإذنين على الوجه، كلّ ذلك عندهم من الوجه الذي أمر الله بغسله بقوله: فَأَغْسِلُوا وَجُوهَكُمْ و قالوا أن ترك شيئاً من ذلك المتوضّي فلم يغسله لم تجزه صلاته بوضوءه، ثم ذكر في ذلك أيضاً أخبار كثيرة من طرقهم، و نقل عن قوم آخرين أنّهم قالوا، أنّ ما أقبل من الأذنين فمن الوجه و ما أدبر فمن الرأس.

و نقل في ذلك أيضاً أحاديث ثم قال الطَّبْرِي بعد ما نقله عنه ما هذا لفظه.

و أولى الأقوال بالصواب في ذلك عندنا قول من قال الوجه الذي أمر الله جلّ ذكره بغسله القائم الى صلاته كلّ ما انحدر عن منابت شعر الرأس الى منقطع الذقن طولاً و ما بين الإذنين عرضاً ممّا هو ظاهر لعين الناظر دون ما بطن من الفم والأنف والعين و دون ما غطّاه شعر اللحية والعارضين والشّاربين فستره عن أبصار الناظرين و دون الإذنين انتهى موضع الحاجة من كلامه.

وأما المذاهب الأربعة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية فقد اختلفوا في حد الوجه ونحن نشير الى وجوه الاختلاف فيها زيادة للبصرة فنقول أما الحنفية فقالوا حد الوجه طولاً لمن لا لحية له فهو يتدي من منابت شعر الرأس المعتاد الى منتهى الذقن ومنابت الشعر المعتاد من فوق الجبهة وسميها العامة القورة فالرجل العادي يتدي وجهه من أول الشعر النابت في نهاية جبهته أما غير العادي فلا يخلو أما أن يكون أصلع أو يكون أفرع، بالفاء لا بالقاف، فحكم الأصلع أنه لا يجب عليه أن يغسل كل ما ليس عليه شعر من الصلح وأما يغسل القدر الذي ينبت عنده شعر الرأس غالباً وهو ما فوق الجبهة بيسير وأما الأفرع وهو الذي طال شعره حتى نزل على جبهته فأنا حكمه في ذلك كالأصلع بمعنى أنه يجب عليه غسل ما فوق الجبهة بيسير. وأما حد الوجه عرضاً فأنا يتدي من أصل الإذن الى أصل الإذن الأخرى ويعبر عنه بعضهم بوتر الأذن فالبياض الموجود بين الذقن وبين الأذن داخل في الوجه طبعاً فيجب غسله عندهم.

وأما الشعر النابت في الوجه فأهمه شعر اللحية وشعر الشارب فأما حكم شعر اللحية فإنه يجب أن يغسل منها كل ما كان على جلد الوجه من أعلاه الى نهاية جلد الذقن وتسمى البشرة وما طال عن ذلك فإنه لا يجب غسله. وأما المالكية فقولهم في حد الوجه هو الحد الذي ذكره الحنفية إلا أن المالكية قالوا أن البياض الذي فوق وتدي الأذنين المتصل بالرأس من أعلا لا يجب غسله بل يجب مسحه لأنه من الرأس لا من الوجه ومثله شعر الصدغين فإنه من الرأس لا من الوجه بخلاف الحنفية فأنهم يقولون أنه من الوجه فغسله فرض لا بد منه.

وأما الشافعية فحد الوجه طولاً وعرضاً هو عندهم بعينه ما تقدم عند الحنفية إلا أن الشافعية قالوا أن ما تحت الذقن يجب غسله وهذا مما أنفرد به

الشَّافِعِيَّة وَحَدَّثَهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ وَافَقُوا الْمَالِكِيَّةَ وَالْحَنَابِلَةَ عَلَى أَنَّ اللَّحْيَةَ الطَّوِيلَةَ تَتَّبِعُ الْوَجْهَ فَيَفْتَرِضُ غَسْلُهَا إِلَى آخِرِهَا خِلَافًا لِلْحَنَفِيَّةِ كَمَا عَرَفَتْ مِنْ أَنَّ مَا طَالَ عَنِ الذَّقْنِ لَا يَجِبُ غَسْلُهُ.

وَأَمَّا الْحَنَابِلَةُ، فَهُوَ مُتَّفَقُونَ فِي هَذَا الْوَجْهِ طَوْلًا وَعَرْضًا مَعَ الْمَالِكِيَّةِ فَقَدْ قَالُوا أَنَّ شَعْرَ الصَّدْغَيْنِ وَالْبَيَاضَ الَّذِي فَوْقَ وَتَدِي الْأُذْنَيْنِ مِنَ الرَّأْسِ لَا مِنْ الْوَجْهِ فَالْوَاجِبُ مَسْحُهُمَا لَا غَسْلُهُمَا، إِلَّا أَنَّهُمْ خَالَفُوا جَمِيعَ الْأَنَّمَةِ فِي دَاخِلِ الْقَمِّ وَالْأَنْفِ فَقَالُوا أَنَّهُمَا مِنَ الْوَجْهِ فَالْفَرَضُ غَسْلُهُمَا بِالْمُضْمَضَةِ وَالِإِسْتِنْشَاقِ، فَقَهَّ عَلَى الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ<sup>(١)</sup>.

فهذه هي أقوالهم في حدِّ الوجه في قوله تعالى: **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَمَا قَوْلُهُ: **وَإَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ** بِكسر الفاء جمع مرفق بفتح الفاء وكسر الميم وهو الموصل بين السَّاعِدَةِ وَالْعَضُدِ مَا إِرْتَفَعَتْ بِهِ.**

وَأَمَّا الْأَيْدِي فِيهِ جَمْعٌ يَدٌ وَهِيَ الْجَارِحَةُ أَمَرَنا اللَّهُ تَعَالَى بِغَسْلِ الْأَيْدِي إِلَى الْمَرَافِقِ بَعْدَ غَسْلِ الْوَجْهِ فَقَالَ: **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَإَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ** فَقَوْلُهُ: **وَإَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ** مَنْصُوبٌ بِالْعَطْفِ عَلَى الْوَجْهِ الْوَاجِبُ غَسْلُهَا قَالَ الشَّيْخُ فِي التَّبْيَانِ وَيَجِبُ عِنْدَنَا غَسْلُ الْأَيْدِي مِنَ الْمَرَافِقِ وَغَسْلُ الْمَرَافِقِ مَعَهَا إِلَى رُؤُوسِ الْأَصَابِعِ وَلَا يَجُوزُ غَسْلُهَا مِنَ الْأَصَابِعِ إِلَى الْمَرَافِقِ وَالْأَيْدِي فِي الْآيَةِ بِمَعْنَى، مَعَ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **مَنْ أَنْضَابِي إِلَى اللَّهِ<sup>(٢)</sup>**.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا<sup>(٣)</sup>**.

وَقَالَ إِمْرُؤُ الْقَيْسِ:

لَهْ كَفْلٌ كَالِدَعَصِ لِبَدِّهِ النَّدَى إِلَى حَارِكٍ مِثْلَ الرِّتَاجِ الْمَضْيَبِ

أي مع حارك، وقول النَّابغة:

و لوح ذراعين في بركةٍ الى جوء جوء أرجل المنكبين  
أنتهى كلامه أقول لا خلاف عندنا فيما ذكره الشيخ عليه السلام فإنه فقيه الشيعة.  
وهاهنا سائل الأولي يجب عندنا تقديم غسل اليمنى على اليسرى.

فقد روي النجاشي في الفهرست بسنده عن عبد الرحمن بن محمد بن  
عبد الله بن أبي رافع وكان كاتب أمير المؤمنين عليه السلام أنه عليه السلام كان يقول إذا  
توضأ أحدكم للصلاة فليبتدأ من اليمين قبل الشمال من جسده، والأخبار به  
كثيرة مضافاً إلى أنه من المجمع عليه بين علماءنا.

**الثانية:** يجب البدأ بالمرفق للخبر السابق الذي نقلناه عن العياشي في  
تفسير الآية عن زرارة وبكير عن أبي جعفر عليه السلام حيث سألاه عن وضوء رسول  
الله صلوات الله عليه وآله فإنه عليه السلام غسل ذراعه من المرفق إلى الكف وفعل المعصوم حجة لنا  
كقوله وقد ثبت أن هذا الترتيب من فعلهم عليهم السلام الذي استمروا عليه و  
كون عكسه فعل مخالفيهم وأهل البيت أدري بما في البيت ومع ذلك يدل  
عليه.

مارواه في الكافي والشيخ في التهذيب عن الهيثم بن عروة التميمي  
قال سئلت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: فَأَغْسِلُوا  
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ فقال عليه السلام ليس هكذا تنزلها إنما  
هي فأغسلوا ووجوهكم وأيديكم من المرافق، ثم أمر يده من مرفقه  
إلى أصابعه.

أقول وهذا الخبر يدل على أن إلى، هنا بمعنى، من، الإبتدائية وقد ذكر  
ذلك بعض أعظم النحوسيين كابن هشام في المغني مستشهداً على ذلك  
بقول الشاعر:

تقول وقد عاليت بالكور فوقها أيسقى فلا يروى إلي ابن أحمر

أراد منِّي ابن أحمر.

قال بعض المحققين أنّ (إلى) في الآية الشريفة لو فرض كونها الإنتهاء نقول يحتمل أنّها لنهاية المغسول كما يحتمل كونها لنهاية الغسل فهي مجملة من هذه الجهة محتاجة الى البيان من صاحب الشريعة ونحن معاصر الإمامية قد إعتمدنا في التبين والتخصيص بما بينه وفعله أهل البيت عليهم السّلام فأخذنا به نعم يجب إدخال المرفق في الغسل من باب المقدّمة أو لكون، الى، بمعنى، مع، وفيهما نظروا الإستدلال على ذلك بما وصل إلينا من طريق أهل البيت والإجماع إنتهى كلامه.

**الثالثة:** قال العلامة في المختلف لا خلاف في أنّه يجب غسل الوجه و اليدين مستوعباً للجمع فلو لم يكفّ الكفّ الأوّل وجب الثاني ولو لم يكفيا وجب الثالث وهكذا ولا يتقدّر الوجوب بقدر معيّن واما إذا حصل الغسل بالكفّ الأوّل والمرة الأولى هل يستحبّ المرة الثانية في غسل الوجه واليدين أكثر علماؤنا على إستحبابها وقال ابن إدريس أنّ الثانية لا تجوز وقال أبو جعفر بن بابويه لا يؤجر عليها ثمّ قال العلامة رحمته لنا.

قوله تعالى: **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ** وهو عام يتناول المرة والزّائد فيدخلان معاً تحت عموم الأمر وما رواه الشيخ في الصحيح عن معاوية بن وهب قال سئلت أبا عبد الله عن الوضوء فقال عليه السلام مثنى مثنى إنتهى.

وما رواه صفوان عنه عليه السلام قال الوضوء مثنى مثنى.

وعن زرارة عنه عليه السلام قال الوضوء مثنى مثنى ومن زاد لم يؤجر عليه و الأخبار كثيرة حملوا الأخبار الدّالة على مثنى مثنى على الإستحباب والأخبار الدّالة على الواحدة على الوجوب.

أمّا الثالثة: فلا يقول به المشهور بل صرّحوا بأنّها بدعة.

وقال المفيد رحمته الغسل مرّة فريضة وتثنية إسباغ وفضيلة وتثليثة تكلف فمن زاد على الثلاث (ثلاث) أبدع وكان مأزوراً وتفصيل الكلام في الفقه.



**الرابعة:** لو خلقت له يدان على ذراع واحد أو مفصل واحد وله أصابع زائدة أو على ذراعه جلدة منبسطة، قال الشيخ رحمته الله يجب عليه غسله إذا كان ذلك من المرفق إلى أطراف الأصابع وأن كان فوق المرفق لم يجب عليه لأن الله تعالى أوجب الغسل من المرفق إلى أطراف الأصابع ولم يستثن الزائد من الأصلي، وقال العلامة رحمته الله ومن تبعه ما ذكره الشيخ جيد في غير اليدين وأما في اليد الزائدة فإنه يجب غسلها مطلقاً سواء كان فوق المرفق أو دونه هذا تمام الكلام في غسل اليدين عندنا.

وقال الحنفية يجب غسل اليدين مع المرفقين و المرفق عظم المفصل البارزة في نهاية الذراع والأصبع الزائد يجب غسله وأما إذا كان له يد زائدة فإن كانت محاذية ليد الأصلية يجب غسلها وأن كانت على طويلة فإنه يجب عليه أن يغسل منها المحاذي لليد الأصلية وأما الزائد عنها فلا يجب بل يندب غسله وبه قال المالكية والشافعية والحنبلية ولم يخالفوا في دخول المرفق في اليد في الوضوء أما لأنهم ذهبوا إلى كون، إلى، بمعنى، مع، كما نقول به أو لإدخالهم الغاية في المعية في هذا المقام وكيف كان فقد وافقونا في وجوب غسل المرفق، نعم خالف في ذلك غيرهم من العامة أمثال الطبري وزفر بن الهذيل وغيرهما قال الطبري في تفسيره بعد نقل الأقوال والصواب من القول في ذلك عندنا أن غسل اليدين إلى المرفقين من الفرض الذي أن تركه أو شيئاً منه تارك لم تجزه الصلاة مع تركه غسله فأما المرفقان وما ورائهما فإن غسل ذلك من الندب الذي ندب إليه صلى الله عليه وسلم أمته بقوله أمّتي الغر المحجلون من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفع، فلا تفسد صلاته تارك غسلهما وغسل ما ورائهما إنتهى موضع الحاجة من كلامه. وقال الرازي في تفسيره في هذا المقام، المسئلة الخامسة والثلاثون، قوله تعالى: **إِلَى الْمِرْفَقِ** يقتضي تحديد الأمر لا تحديد المأمور به يعني أن قوله:

فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ أَمْزِغْغسل اليدين الى المرفقين  
فياغسل الغسل محدود بهذا الحد فبقى الواجب هو هذا القدر فقط وأما نفس  
الغسل فغير محدود بهذا الحد لأنه ثبت بالأخبار أن تطويل الغرة سنة مؤكدة  
إنتهى.

و يظهر من كلامه أن غسل المرفق لا يجب بل يستحب فهو موافق للطبري  
ومخالف لإمامه الشافعي حيث قال بوجوب غسل المرفق وأما قوله أن قوله  
تعالى تحديد الأمر لا تحديد الأمور به فهو كلام لا طائل تحته ولا نعلم من  
أين علم أنه لتحديد الأمر لا لتحديد الأمور به، وأما تقديم اليمنى على  
اليسرى فقال الرّازي أنه مندوب وليس بواجب ونقل عن أحمد بن حنبل  
الوجوب وأستدل على مدعاه بأن الله ذكر الأيدي والأرجل ولم يذكر تقديم  
اليمنى على اليسرى وذلك يدل على أن الواجب هو غسل اليدين بأيّ صفة  
كان إنتهى.

ولقائل أن يقول أن الله تعالى قال: أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَلَمْ يُبَيِّن  
الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ فِي الْآيَةِ فَيَجِبُ الْإِتْيَانُ بِهِمَا بِأَيِّ صِفَةٍ كَانَ وَهَكَذَا سَائِر  
الْأَحْكَامِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ مِنْ غَيْرِ تَبْيِينٍ وَتَفْصِيلٍ كَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَالنِّكَاحِ وَ  
الطَّلَاقِ وَغَيْرِهَا فَهَلْ يَجُوزُ لِعَاقِلٍ مُسْلِمٍ أَنْ يَقُولَ فِيهَا بِرَأْيِهِ أَلَيْسَ التَّفْصِيلُ  
والتَّبْيِينُ فِيهَا يُؤْخَذُ مِنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ أَوْ مِنَ السَّنَةِ فَكَيْفَ أَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى  
بِالْوُضُوءِ وَقَالَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ وَلَمْ يُبَيِّنْ رَسُولُهُ  
لَنَا كَيْفِيَّةَ الْوُضُوءِ وَأَحْتَمَلَ الْأَمْرُ ثُمَّ مَاتَ هَذَا عَجِيبٌ.

ثم قال السنة أن يصب الماء على الكف بحيث يسيل الماء من الكف الى  
المرفق فإن صب الماء على المرفق حتى سال الماء الى الكف فقال بعضهم  
هذا لا يجوز لأنه تعالى قال: وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ فجعل المرافق غاية  
الغسل فجعله مبدأ الفعل خلاف الآية نوجب أن لا يجوز وقال جمهور الفقهاء  
أنه لا يخل بصحة الوضوء إلا أنه يكون تركاً للسنة، إنتهى.

فهذه هي أقوال العامة والخاصة في الأيدي وَاَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَارْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ لَمَّا امر الله تعالى بغسل الوجوه والأيدي أمرنا بالمسح على الرأس والرجلين، إعلم أنهم اختلفوا في المراد بالمسح، فقالت الشيعة الإمامية يمسح منه ما يقع عليه اسم المسح ولو كان إصبع واحدة قال العلامة في المختلف المشهور بين علماؤنا الإكتفاء في مسح الرأس والرجلين بإصبع واحدة إختاره الشيخ في أكثر كتبه وبه قال ابن عقيل وابن الجنيّد و سلاّر وأبو الصلاح وابن البراج وابن إدريس.

وقال الشيخ في النهاية والمسح بالرأس لا يجوز بأقل من ثلاث مضمومة مع الإختيار، فإن خالف البرد من كشف الرأس أجزاءه مقدار إصبع واحدة و جعل ابن إدريس ذلك على سبيل الوجوب ونقله عنه مذهباً مخالفاً في أقواله و أقوال أكثر علماءنا مع أنّ كلام الشيخ محتمل فأنّه كثيراً ما يطلق على المندوب أنّه لا يجوز تركه انتهى.

أقول يظهر من كلام العلامة أنّه حمل كلام الشيخ على التدب وهو كذلك. ونقل عن ابن بابويه أنّه قال حدّ مسح الرأس أن يمسح بثلاث أصابع مضمومة من مقدّم الرأس.

وقال المفيد ويجزي الإنسان في مسح رأسه أن يمسح من مقدّمه مقدار إصبع يضعها عليه أرضاً مع الشعر الى قصاصه وأن مسح منه مقدار ثلاث أصابع مضمومة بالعرض كان أسبغ ويدل على ما إختارناه أنّه تعالى أمر بالمسح ببعض الرأس والرجلين فقط فأتى بالمأمور به لو مسح بإصبع واحدة طولاً أو عرضاً فيخرج عن عهدة التكلّف انتهى.

أقول يظهر من كلماتهم أنّ المسح بثلاث أصابع ممدوح مندوب اليه وأما الواجب منه فيتحقّق بمقدار إصبع واحدة، و عليه فالأمر يدور بين إصبع واحدة وثلاث أصابع في تحقّق المسح وأما غسل الرأس والرجلين فلم يقل به أحد من الإمامية.

أَمَّا الْعَامَّةُ فَقَالَتْ الْحَنْفِيَّةُ يَجِبُ غَسْلُ الرَّجْلَيْنِ مَعَ الْكَعْبَيْنِ وَهُمَا الْعِظْمَانِ الْبَارِزَانِ فِي أَسْفَلِ السَّاقِ فَوْقَ الْقَدَمِ وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَهَّدَ بِالْغَسْلِ بِالْمَاءِ.  
وَأَمَّا مَسْحُ الرَّأْسِ فَيَجِبُ عِنْدَهُمْ مَسْحُ رِيعِ الرَّأْسِ وَيَقْدَرُونَ رِيعَ الرَّأْسِ بِكَفِّ قَالُوا فَالْوَاجِبُ أَنْ يَمْسَحَ مِنْ رَأْسِهِ بِقَدْرِ الْكَفِّ كُلِّهَا عَلَى أَنَّهُ لَا يُلْزَمُ أَنْ يَكُونَ الْمَسْحُ بِنَفْسِ الْكَفِّ فَلَوْ أَصَابَ الْمَاءُ رِيعَ رَأْسِهِ بِأَيِّ سَبَبٍ فَاتَّهَ يَكْفِي وَيَشْتَرِطُ لِلْمَسْحِ بِالْيَدِ أَنْ يَكُونَ ثَلَاثَ أَصَابِعٍ عَلَى الْأَقْلَى لِأَجْلِ أَنْ يَصِيبَ الْمَاءُ رِيعَ الرَّأْسِ قَبْلَ أَنْ يَجِفَ.

وَقَالَ الْمَالِكِيَّةُ يَجِبُ مَسْحُ جَمِيعِ الرَّأْسِ وَيَبْتَدَأُ حَدَّ الرَّأْسِ مِنْ مَنْابِتِ شَعْرِ الرَّأْسِ الْمَعْتَادِ مِنَ الْأَمَامِ وَيَنْتَهِي إِلَى نَقْرَةِ الْقَفَا مِنَ الْخَلْفِ وَيَدْخُلُ فِيهِ شَعْرُ الصَّدْغَيْنِ وَالْبَيَاضِ الَّذِي خَلْفَهُ فَوْقَ وَتَدِي الْأَذْنَيْنِ وَكَذَلِكَ يَدْخُلُ الْبَيَاضُ الَّذِي فَوْقَ الْأَذْنَيْنِ الْمُتَّصِلُ بِالرَّأْسِ وَإِذَا طَالَ شَعْرُ الرَّأْسِ كَثِيراً أَوْ قَلِيلاً فَاتَّهَ يَجِبُ مَسْحُهُ عِنْدَهُمْ.

وَقَالَ الشَّافِعِيَّةُ يَجِبُ مَسْحُ الرَّأْسِ وَلَوْ قَلِيلاً وَلَا يَشْتَرِطُ أَنْ يَكُونَ الْمَسْحُ بِالْيَدِ مَا إِذَا رَشَّ الْمَاءُ عَلَى جِزْءٍ مِنْ رَأْسِهِ وَأَمَّا غَسْلُ الرَّجْلَيْنِ مَعَ الْكَعْبَيْنِ فَقَدْ إِنْتَفَقَ الشَّافِعِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ وَالْحَنْبَلِيَّةُ وَالْحَنْفِيَّةُ فِي وَجُوبِهِ وَلَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَهُمْ فَظَهَرَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ أَنَّهُمْ اِخْتَلَفُوا فِي مَسْحِ الرَّأْسِ وَإِنْتَفَقُوا فِي الرَّجْلَيْنِ وَالْكَعْبَيْنِ إِذَا عُرِفَتْ هَذَا وَعَلِمَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِي الْمَسْحِ فَقُولُ:

لَا خِلَافَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَنَّ الْوَاجِبَ فِي الرَّأْسِ الْمَسْحَ دُونَ الْغَسْلِ وَكَذَلِكَ لِأَنَّ الْآيَةَ الشَّرِيفَةَ قَدْ حُرِّمَتْ بِهِ قَالَ تَعَالَى: **وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ** وَالْمَسْحُ عَلَى مَا فَسَّرَهُ الرَّاعِبِيُّ فِي الْمَفْرَدَاتِ هُوَ إِمْرَارُ الْيَدِ عَلَى الشَّيْءِ وَإِزَالَةُ الْأَثَرِ عَنْهُ وَقَالَ بَعْدَ ذَلِكَ وَالْمَسْحُ فِي تَعَارُفِ الشَّرْعِ إِمْرَارُ الْمَاءِ عَلَى الْأَعْضَاءِ.

وَأَمَّا الرَّجُلُ فَنَحْنُ نَقُولُ حُكْمَهُ حُكْمَ الرَّأْسِ فِي وَجُوبِ الْمَسْحِ قَضَاءً لِحُكْمِ الْعُطْفِ وَهُمْ يَقُولُونَ فِي الرَّجْلَيْنِ بِالْغَسْلِ لِأَنَّ قَوْلَهُ: **وَأَرْجُلَكُمْ**

معطوف على قوله: **وُجُوهَكُمْ** أي أغسلوا وجوهكم وأرجلكم فكما أن الوجوه تغسل كذلك يغسل الرجالان و عليه فقد فصل بين المعطوف والمعطوف عليه وهذا هو الأصل في الاختلاف وليت شعري ما الذي دعاهم الى هذا التركيب في الآية مع أن ظاهر الكلام هو أن قوله: **وَأَرْجُلَكُمْ** معطوف على قوله: **يُرْءُوسَكُمْ** فحكم الرجلين حكم الرؤوس ليس ما ذكره من قبيل الأكل من القفا مضافاً الى أنه خلاف البلاغة، ولو كان الأمر كما ذكره لقال الله تعالى فأغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وأمسحوا برؤوسكم وأغسلوا أرجلكم فإن هذا أحسن وأبلغ من الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما عرفت.

قال الشيخ في التبيان إختلفوا في صفة المسح فقال قوم يمسح منه ما يقع عليه اسم المسح وهو مذهبنا وبه قال ابن عمر والقاسم بن محمد وعبد الرحمن بن أبي ليلى وإبراهيم والشعبي وسفيان وإختره الشافعي وأصحابه والطبري وذهب قوم الى أنه يجب مسح جميع الرأس ذهب اليه مالك. وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد لا يجوز مسح الرأس بأقل من ثلاثة أصابع وعنه روايتان فيهما خلاف ذكرناهما في الخلاف وعندنا لا يجوز المسح إلا على مقدم الرأس المروي عن ابن عمر والقاسم بن محمد وإختره الطبري ولم يقل أحد من الفقهاء ذلك وقالوا أي موضع مسح أجزأه، وأما إعتبرنا المسح ببعض الرأس لدخول الباء الموجبة للتبعية والأكان لغواً و حملها على الزيادة لا يجوز مع إمكان حملها على فائدة مجددة انتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول ويدل على ما ذكرناه مضافاً الى الخبر السابق ما رواه الشيخ في الحسن وغيره عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام ألا تخبرني من أين علمت و قلت أن المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين فضحك ثم قال يا زرارة قال رسول الله صلوات الله عليه وآله ونزل به الكتاب من

اللَّهُ لَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ فَعَرَفْنَا أَنَّ الْوَجْهَ كُلَّهُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَغْسَلَ ثُمَّ قَالَ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ثُمَّ فَصَلَ بَيْنَ الْكَلَامِينَ فَقَالَ وَأَمْسَحُوا بَرُؤُسَكُمْ فَعَرَفْنَا حِينَ قَالَ بَرُؤُسَكُمْ أَنَّ الْمَسْحَ بِيَعُضِ الرَّأْسِ لِمَكَانِ الْبَاءِ ثُمَّ وَصَلَ الرَّجْلَيْنِ بِالرَّأْسِ كَمَا وَصَلَ الْيَدَيْنِ بِالْوَجْهِ فَقَالَ: وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ فَعَرَفْنَا حِينَ وَصَلَهُمَا بِالرَّأْسِ أَنَّ الْمَسْحَ عَلَى بَعْضِهَا ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنَّاسِ فَضَيَّعُوهُ.

إذا عرفت هذا فاعلم أن في الآية دلالة على الترتيب من وجهين: أحدهما: أن الواو يوجب الترتيب لغة على قول القراء وأبي عبيد وشرعاً على قول كثير من الفقهاء ولقوله عليه السلام: **إِبْدَأُوا بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ.**

الثاني: أن الله أوجب على من يريد القيام إلى الصلاة إذا كان محدثاً أن يغسل وجهه أولاً لقوله: **إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ** والفاء توجب الترتيب والتعقيب بلا خلاف فإذا ثبت أن البدأة بالوجه هو الواجب ثبت في باقي الأعضاء لأن أحداً لم يفرق بينها.

وأيضاً فيها دلالة على أن المسح على العمامة أو الخفين لا يجزأه لأن العمامة لا تسمى رأساً كما أن الخف لا يسمى رجلاً والبرقع وما يستر اليدين وجهاً يداً.

وأيضاً فيها دلالة على وجوب النية وهو ظاهر لقوله عليه السلام لا عمل إلا بالنية مضافاً إلى أن الصلاة عبادة وقد أجمعوا على أن الأفعال العبادي بدون النية لا تصح وتفصيل الكلام في الفقه:

وَأِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا

أي وأن أصابتك جنابة وأردتم القيام إلى الصلوة فأطهروا، الجنب يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث يقال رجلٌ جنب وإمرأة جنب وقوم جنب وأصل الجنابة البعد والمراد شرعاً البعد عن أحكام الطاهرين بالجماع وخروج المني، والمراد بالطهارة هنا الغسل لأن المتبادر منها في لسان الشرع الوضوء والغسل والتيمم، والبيان النبوي وتصريح أهل العصمة وإجماع الأمة خصّها هنا بالغسل مع التصريح بذلك في الآية الشريفة حيث قال تعالى: **وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا**<sup>(١)</sup> مضافاً إلى مفهوم قوله: **فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا** أي إن وجدتم ماءً فأغتسلوا فإن لم تجدوا ماءً فتيمموا ثم أن قوله: **وَأِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطَهِّرُوا** معطوف على الشرطية السابقة وهي قوله: **إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ** فلا تكون حينئذ مندرجة تحت القيام إلى الصلوة بل هي مستقلة برأسها ويجوز أن يكون عطفاً على جزاء الشرط أي على جملة فأغسلوا بتقدير شيء محذوف وعليه فالمعنى إذا قمتم إلى الصلوة فإن كنتم محدثين فتوضؤوا وإن كنتم جنباً فأغتسلوا فتندرج تحت القيام إلى الصلوة وعلى الأول يستنبط منها وجوب الغسل لنفسه ويدل عليه قوله **عَلَيْكُمْ إِذَا التَقَيْتُمُ الْخِتَانَانَ** وجب الغسل، وقوله، **إِذَا أَدْخَلَهُ وَجِبَ الْغُسْلُ** إلا أنه ليس واجباً مضيّقاً بل هو واجب موسّع وإنما يتضيّق عند تضيّق مشروط بالطهارة.

**على الثاني:** وهو أن يكون عطفاً على جزاء الشرط يمكن أن لا يكون الوجوب فيه لنفسه بل يكون الوجوب غيراً بمعنى أن وجوبه للصلوة كما مرّ في الوضوء وتفصيل الكلام فيه في أصول الفقه، وتظهر ثمرة الخلاف في النية عند خلّو الذمة من مشروط بالطهارة هل ينوي في ذلك الوجوب أو الاستحباب وفي عصيانه لو ظن الموت قبل التكليف بمشروط بالطهارة. وقال بعض لا فائدة في هذا الخلاف إذا الفائدة الثانية قلما يتفق موردها و معه يوجب خروجاً من محلّ الخلاف.

**أما الفائدة الأولى:** فلا ريب أنَّ الأئمة و أتباعهم لم يكونوا يوجبون تأخير الطهارة الى الوقت بل كانوا يواظبون عليها مع نقل الاتفاق على شرعية إيقاعها قبل الوقت و أما النية فلم يثبت وجوب نية الوجه و على تقدير ثبوته فأنما هو فيما كان معطوفاً بإيقاعها بنية القرية كافٍ لا سيما اذا ضم إليها نية الرفع أو الإستباحة لصلاة ما هذا كله مع أنَّ الظاهر أنَّ القائلين بالوجوب النفسي قائلون بالوجوب الغيري أيضاً بعد دخول وقتٍ مشروط به.

أقول و يؤيده ما رواه في الخصال عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عن أباءه عن أمير المؤمنين قال **عليه السلام**: لا ينام المسلم و هو جنب و لا ينام إلا على طهورٍ فإن لم يجد الماء فليتييم بالصعيد فإن روح المؤمنين تروح الى الله عز و جل فيلقاها و يبارك عليها فإن كان أجلها قد حصر جعلها في مكنون رحمته و أن لم يكن أجلها قد حصر بعث بها مع أمناه من ملائكته فيردوها في جسده انتهى.

و في موثقته سماعة قال سألته عن الجنب يجنب ثم يريد النوم فقال **عليه السلام**: أني أحب أن يتوضأ فليفعل والغسل أفضل من ذلك و أن هو نام ولم يتوضأ ولم يغتسل فليس عليه شيء إن شاء الله، ثم أعلم أنَّ سبب الجنابة أمران:

**أحدهما:** إنزال المني المتيقن كونه منياً فإنه يوجب الغسل كيف إتفق سواء خرج متدافقاً أو متثاقلاً بشهوةٍ غيرها في نومٍ و يقظةٍ و هذا مما أجمعت عليه الأمة و الأخبار به مستفيضة.

**الثاني:** الجماع قبلاً أو دبراً رجلاً كان أو امرأة حياً كان أو ميتاً على ما فصل في الكتب الفقهية و قد تكلمنا في الغسل و موجباته عند قوله تعالى: **وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا** (١).



وَأِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ  
النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا

ففيه بيان حكم التيمم عند فقدان الماء وذلك لأنه سبحانه لما ذكر حكم  
الواجدين للماء بقوله إذا قمتم إلى الصلاة فأغسلوا الخ على ما مر بيانه ذكر بعد  
ذلك حكم ذوي الأعدار كما إذا كان المكلف مريضاً لا يقدر على استعمال  
الماء أو على سفر لا يجد الماء فيه وهكذا ففي الصور وظيفته التيمم شرعاً.  
والمراد بالمريض ما يشمل المرض الذي يضر معه استعمال الماء والذي  
يكون سبباً للعجز عن تحصيله بحيث يوجب العلم أو الظن بالبصيرة أو التجربة  
بشدة المرض أو زيادته أو بطؤه البرء منه وقد يقول في ذلك على أخبار العدل  
الثقة وظاهر إطلاق الآية عدم الفرق في المرض بين شديده أو يسيراً إلا أن  
يكون يسيراً مما ليس فيه كلفة ومشقة بحيث لا يصدق عليه المرض عرفاً  
كالصداع ووجع الصّرس وأمثال ذلك.

فقد روي في الصحيح عن الرضا عليه السلام في الرجل تصيبه الجنبانة وبه قرح و  
جرح أو يكون يخاف على نفسه البرد قال عليه السلام لا يغتسل يتيمم.  
ونحوه صحيحة داود بن سرحان عن أبي عبد الله عليه السلام وعنه عليه السلام قال  
يؤمّم المجذور والكسير إذا أصابتهما الجنبانة ونحو ذلك من الأخبار.

أما قوله: **أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ** أي كان المكلف على حال سفر لا يحصل له فيه  
الماء كما يرشد إليه تنكير سفر، هكذا قيل والحق أن التنكير فيه يوجب  
التوعية والمعنى، على أي سفر كان، ولا يخفى أن هذا أي عدم وجدان الماء  
في السفر من قبيل الجري على الغالب وذلك لأن فقدان الماء في البراري و  
الصحاري أكثر منه في الحضر، **أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ** كناية عن  
مطلق الحدث الأصغر من باب تسمية الحال باسم المحل أو البول أو الغائط  
خاصة أو ما يخرج من السبيلين منهما ومن الريح أو العذرة خاصة، وأو، هنا  
بمعنى الواو كما ذكره الأكثر فيكون هذا قيداً للسفر والمرض المذكورين.

و قيل أنها أي، أو، باقية على ظاهرها و عليه فتكون للتقسيم و التنوع و المعنى أن كنتم مرضى أو صحاحاً حاضرين و حصل لكم الغائط فلم تجدوا ماءً فتيّموا صعيداً طيباً، و حينئذ يكون إعتبار قيد الحديث في المرضى و المسافرين مفهوماً من شاهد الحال و من العرف القاطع بحصوله لهما.

قيل هذا أرجح لسلامته من التجوز في إستعمالها بمعنى الواو لدخول الأقسام الثلاثة في الآية.

و أما على الإحتمال الأول، فيكون القسم الثالث مستفاداً من غيرها كالأخبار و الإجماع كما أن غير الغائط من الأحداث مستفاد من الغير فتأمل، و قوله: **أَوْ لَا مَسْتُمْ النِّسَاءَ** فهو كناية عن مطلق الموجب للغسل هكذا قيل.

و قال بعضهم أنه كناية عن الجماع الموجب للغسل كما في قوله: **مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْسُوهُنَّ فَإِنَّ اللَّمَسَ وَالْمَسَّ** بمعنى واحد و قد روي أن المس هو الجماع.

و نقل عن ابن عباس أنه قال، أن الله سبحانه حيي كريم يعبر عن مباشرة النساء بالمس.

فأن قيل ما معنى تكرير قوله: **أَوْ لَا مَسْتُمْ النِّسَاءَ** أن كان معنى اللمس الجماع مع أنه قد تقدّم ذكر الواجب عليه لقوله: **وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا**. قلنا وجه ذلك أن المعنى في قوله: **وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا** غير المعنى الذي ألزمه الله بقوله أو لا مستم النساء، لأنه تعالى بيّن الحكم بقوله: **إِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا** أي اذا كنتم واجدين للماء متمكنين لإستعماله فاطهروا، ثم بيّن حكمه اذا عدم الماء أو لا يتمكن من إستعماله أو هو مسافر ولا يجد الماء فأعلمه أن التيمم هو فرضه و هو طهارته.

قال بعض المفسرين من العامة يجوز للمريض أن يتيمم بقولٍ مطلق لقوله تعالى: **وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى** ولا يجوز أن يقال أنه شرط فيه عدم الماء لأن عدم الماء يبيح التيمم فلا معنى لضمه الى المرض و أنما يرجع قوله فلم تجدوا ماءً الى المسافر انتهى كلامه.

أقول ما ذكره لا يمكن أن يعتمد عليه و ذلك لأن المرض يختلف شدة و ضعفاً و نوعاً و المقصد من الآية إفادة أن المرض اذا كان بحيث يضر الماء له فلا يجوز للمكلف الطهارة المائية فالتقدير و أن كنتم مرضى بحيث لا تقدرون على استعمال الماء فتييموا و أن كان الماء موجوداً و هذا بخلاف السفر فأن المطلوب فيه عدم وجدان الماء فقله و لا يجوز أن يقال أنه شرط فيه عدم الماء، كلام بلا محصل فأنا لا نقول أنه شرط فيه عدم الماء بل نقول شرط في المريض عدم جواز استعماله سواء وجد الماء أم لم يوجد.

قال الرّازي المرض على ثلاثة أقسام:

أحدها: أن يخاف الضرر و التلف فيها هنا يجوز التيمم بالإتفاق.

الثاني: أن لا يخاف الضرر و لا التلف فيها هنا قال الشافعي: لا يجوز التيمم و قال مالك و داود يجوز و حجّتهما أن قوله: **وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى** يتناول جميع أنواع المرض.

الثالث: أن يخاف الزيادة في العلة ويطي المرض فيها هنا يجوز له التيمم على أصحّ قولي الشافعي و به قال مالك و أبو حنيفة و الدليل عليه عموم قوله: **وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى**.

الرابع: أن يخاف بقاء شين على شيء من أعضاءه.

قال في الجديد لا يتيمم و قال في القديم يتيمم و هو الأصحّ لأنه مطابق للآية انتهى.

قوله: **فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا** فيه مسائل:

أحدها: أن قوله فلم تجدوا معطوف على أي شيء، فقلل أنه معطوف على قوله كنتم، و يكون المراد بعد وجود الماء العجز و عدم التمكن من استعماله سواء كان من جهة فقده أو من جهة حصول الضرر باستعماله.

وقيل المراد بعدم الوجدان فقده لا ما يشمل عدم التمكن من استعماله بل قيل هذا المعنى هو المتبادر من ظاهر الآية فيدخل فيه بعض أفراد المريض

أعني من كان المرض مانعاً له عن السَّعي إليه و تحصيله وكان ممّن لا يضره استعماله و يكون حينئذٍ بقية أفراد المريض الذين يجوز لهم التَّيمم مستفاداً حكمها من دليل آخر.

وقال بعضهم هو معطوف على قوله، جاء، و يكون قيداً للسَّفر والغائط و ما عطف عليه و يكون حكم من كان المرض مانعاً له من تحصيله لا إستعماله مستفاداً من دليل آخر.

وقال بعضهم هو معطوف على قوله: لَأَمْسُتُمْ لَّأنه أقرب لفظاً و التَّوجيه ح كما مرّ من جعل، أو، على حقيقتها أو بمعنى الواو و أعلم أنّ العطف بالفاء في قوله: فَلَمْ تَجِدُوا مشعر بأنّ المعتبّر في عدم الوجدان أنّما هو بعد حصول هذه الأسباب و أمّا قبله فلا، ثمّ أنّهم اختلفوا في معنى المراد بوجود الماء، هل هو وجود ما يكفي للطَّهارة فلو وجد ما يكفي لبعض الأعضاء فقط فهو في حكم الفاقد لها أجمع أو لا فقالت الإمامية يشترط وجود ما يكفي للطَّهارة و أمّا ما يكفي لبعض الأعضاء فهو حكم الفاقد فيجب عليه التَّيمم و خالف في ذلك بعض العامة و قال ليس هو في حكم الفاقد بل يتطَّهر به بعض الأعضاء ثمّ يتيمم.

**الثاني:** إذا وجد ماء لا يكفيهِ إلّا مع المزج مع المضاف بحيث لا يسلبه الإطلاق فهل يجب المزج كذلك ثمّ الطَّهارة أم لا، فيه خلاف بين أصحابنا فذهب جماعة إلى الأوّل و آخرون إلى الثاني و مبني القولين أنّما هو على تفسير عدم الوجود للماء فإن كان المراد به عدم التَّمكّن منه ثبت القول الأوّل لأنّه ح متمكّن منه، و أن كان المراد بعدم الوجدان فقدّه فقد ثبت صحّة القول الثاني لأنّه لم يجد ما يكفيهِ للطَّهارة فهو في حكم الفاقد.

و قيل مبني القول الأوّل على كون الطَّهارة بالماء واجباً مطلقاً و ما لا يتم الواجب المطلق إلّا به يكون واجباً.

ومبنى الثاني على أنها واجب مشروط بوجود الماء وما لا يَتَم الواجب المشروط إلّا به ليس تحصيله واجباً.

قال بعض المحققين أظهر القول بوجوب المزج كما يجب سائر ما يتوقف عليه تحصيل الماء كالألات وبذل الثمن وجمعه إذا كان متفرقاً وكشف التراب عنه إذا كان تحت الأرض والسعي إليه ونحو ذلك ممّا لا شكّ في وجوبه من المقدمات التي هي من قبيل الواجب المطلق ولذلك قد يستدلّ بهذه الآية على وجوب الطلب في الجملة لأنّ من كان الماء على يمينه أو على يساره لا يقال أنّه فاقد الماء كما يشهد بذلك العرف وقيدّه أكثر الأصحاب بكون الطلب غلوة سهم في الخزانة وسهين في السهلة على ما قرّر في الفقه.

وأما قوله: **فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا** أي أقصدوا صعيداً يقال يَمَّمْتُهُ إذا قصدته ثمّ كثر استعمالهم هذه اللفظة حتّى صار التيمم مسح الجبهة واليدين فهو في اللغة القصد وفي الشرع هو المسح على الكيفية المنقولة عن صاحب الشريعة، واختلفوا في معنى المراد من الصعيد فقال الجوهري هو التراب وافقه ابن فارس وجماعة من أهل اللغة.

ونقل عن ابن دريد عن أبي عبيدة أنّه التراب الخالص الذي لا يخالطه رمل سبخ.

وعن الزجاج أنّ الصعيد ليس التراب بل هو وجه الأرض تراباً كان أو غيره وأما يسمّى به لأنّه نهاية ما يصعد من باطن الأرض وقال الرّاعب في المفردات، الصعيد يقال لوجه الأرض وقال بعضهم الصعيد يقال للغبار الذي يصعد من الصُّعود ولهذا لا بدّ للمُتَيَمَّم أن يعلق بيده غبار انتهى كلامه.

**أقول** المشهور عند أهل اللغة أنّ الصعيد وجه الأرض وعليه فكأما صدق عليه الأرض جاز التيمم به وفي المقام مسائل يجب التنبيه عليها.

الأولى، في وقته قال العلامة في المختلف المشهور أنّ تضييق الوقت شرط

في صحّة التَّيْمَمِ ففي أوّل الوقت لم يَصَحَّ وهو الظَّاهر من كلام المفيد وقال ابن بابويه يجوز في أوّله وفَصَّلَ ابن الجنيد وقال طلب الماء قبل التَّيْمَمِ مع الطَّمْع في وجوده والرجاء للسلامة واجب على كلّ أحدٍ الى آخر الوقت مقدار رمية سهم في الخزانة وفي الأرض المستوية رميتا سهم فأَن وقع اليقين بفوته الى آخر الوقت أو غلبة الظَّن كان تَيَمَّمَهُ وصلاته في أوّل الوقت أَحَبَّ إِلَيَّ، قال العَلَّامة بعد نقله ما نقلناه عن ابن الجنيد والوجه عندي ما ذكره من التَّفْصِيل ثم ذكر بعض الأخبار الدَّالة على المدَّعي، وإحتجَّ ابن بابويه في جوازه أوّل الوقت بقوله تعالى: إِذَا قُتِلْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا إِلَى قَوْلِهِ: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا قال والعطف يقتضي التسوية في الحكم فكما يَصَحَّ إيقاعه في أوّل الوقت في المعطوف عليه كذلك في المعطوف عليه وقد نقل بعض الأخبار الدَّالة على هذا الحكم أيضاً مضافاً الى أَنَّ التَّيْمَمَ إحدى الطَّهَّارَتَيْنِ فَصَحَّ فعله في أوّل الوقت كالوضوء وقد أجاب العَلَّامة وغيره من الفقهاء عن ذلك وتفصيل الكلام موكول الى كتب الفقهية.

**الثَّانِيَّة:** فيما يَتَيَمَّمُ به، وهو عبارة عن كلّما يصدق عليه إسم الأرض بناءً على المختار من أَنَّ المراد بالصَّعِيد هو الأرض.

**الثَّالِثَة:** في كَيْفِيَّتِهِ، المشهور عند علماءنا أَنَّ الواجب في مسح الوجه مسح الجبهة خاصّة وفي اليدين مسح الكَفَّيْنِ من الرِّزْدِ الى أطراف الأصابع على ظاهرهما دون باطنهما، على بن بابويه يمسح الوجه بأجمعه وكذا اليدين من المرفقين الى أطراف الأصابع.

وَإِسْتَدَلَّ المشهور على المدَّعي بِأَنَّ البَاءَ في قوله: فَاغْسِلُوا بِوُجُوهِكُمْ للتَّبْعِيضِ كما في قوله: بِرُءُوسِكُمْ وقد مرَّ الكلام فيه.

**الرَّابِعَة:** المشهور في عدد الضَّرَبَاتِ التَّفْصِيلِ فَأَن كان التَّيْمَمُ بدلاً من الوضوء ضرب بيديه على الأرض ضربةً واحدةً للوجه والكَفَّيْنِ وَأَن كان بدلاً من الغسل ضرب ضربتين ضربة للوجه وأخرى لليدين هذا هو المشهور.

وقال علي بن بابويه يجب ضربتان في الجميع ضربة للوجه وأخرى لليدين ولم يفصل الغسل من الوضوء.

**الخامسة:** لو وجد الماء قبل شروعه بالصلاة إنتقض تيممه إجماعاً وأن وجده وقد دخل فيها فقال الشيخ يرجع ما لم يركع وفي قول آخر متى كبر للإفتتاح لم يجز له الرجوع ومضى في صلاته بتيممه وقال ابن عقيل يمضي في صلاته ركع أو لم يركع وقال سلاّر إلا أن يقرأ وقال ابن الجنيد إن وجد الماء بعد دخوله في الصلاة قطع ما لم يركع الركعة الثانية فأن ركعها مضى في صلاته. وقال العلامة لنا أنه دخل في الصلاة مشروعاً مأموراً به فيجب عليه إكماله ولا يجوز له إبطاله لقوله تعالى: **وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ**<sup>(١)</sup>.

وما رواه محمد بن حمران عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له رجل تيمم ثم دخل في الصلاة وقد كان طلب الماء فلم يقدر عليه ثم يؤتي بالماء حين يدخل في الصلاة قال عليه السلام يمضي في الصلاة وأعلم أنه ليس ينبغي لأحد أن يتيمم إلا في آخر الوقت انتهى

**أقول** وقد وردت الأخبار في الباب مختلفة فمنها ما دل على ما ذكره الشيخ ومنها ما دل على ما ذكره ابن الجنيد وهكذا وللبحث فيها سنداً ودلالة موضع آخر.

**الخامسة:** متعمد الجنابة إذا خشي على نفسه التلف بإستعمال الماء تيمم وصلى الشيخ ويعيد الصلاة إذا وجد الماء وإغتسل وقال المفيد من أجنب مختاراً وجب عليه الغسل خاف منه على نفسه ولم يجزأه التيمم بهذا جاء الأثر عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وكلام ابن الجنيد مشعر بعدم الإجزاء وفي المختار، وإختار ابن إدريس الإجزاء وتبعه العلامة مستدلاً بقوله تعالى: **وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**<sup>(٢)</sup> ولما رواه ابن بابويه عن رسول الله صلى الله عليه وآله لما قيل له أن فلاناً أصابته جنابة وهو مجدور فغسلوه فمات فقال صلى الله عليه وآله قتلوه ألا سألوا ألا تيمموا إن شفاء الغي السؤال وأطلق عليه السلام تسويغ التيمم من غير تفصيل.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

وروي أن أبا ذر أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله هلكت جامعة على غير ماء فأمر النبي ﷺ بمحمل وبماء فأستترنا به فأغتسلت أنا وهي ثم قال ﷺ يا أبا ذر يكفيك الصَّعيد عشر سنين انتهى.

وأما الجواب عن ابن الجنيد فقالوا أنها صلاة وقعت على الوجه المأمور به شرعاً فيخرج الآتي بها عن العهدة لما ثبت من أن الأمر للإجزاء وتفصيل الكلام فيه وفي أمثاله من الأحكام موكول إلى الفقه فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه إشارة إلى كيفية التيمم وقد مر الكلام فيها في المسألة الثالثة والرابعة وقوله: منه أي من الصَّعيد وقوله: ما يريد الله ليَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ إشارة إلى أن الشريعة المقدسة سهلة ليس فيها حرج ولا مشقة كما قال رسول الله ﷺ إني بعثت إلى الشريعة السمحة السهلة.

وقال ﷺ جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وروي الشيخ عن أبي عبد الله عليه السلام قال ليس عليه أن ينزل الزكية أن رب الماء هو رب الأرض فليتيمم إنتهى.

وأما ذلك من الأخبار الدالة على نفي الحرج كثيرة ولما كانت في المقام مظنة سؤال وهو أنه ما الذي أراد الله من الوضوء والغسل والتيمم قال تعالى: وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أي أن الله تعالى قد أراد أن يطهركم من الأحداث ويزيل عنكم الموانع من الدخول في الشيء المشروط بالطهارة وليتم بشرعه ما هو مطهر لأبدانكم ومكفر لذنوبكم في الدين، أو ليتم أنعامه عليكم بعزائمه وفرائضه لعلكم تشكرون نعمته، و قيل المعنى فرض هذه الأشياء والزمكم بها ليكون إتيانكم بها ومداومتكم عليها سبباً ووسيلة لدوام نعمه عليكم كما قال: لَعِنَ شُكْرُكُمْ لِأَنْ يَدْنَكُمْ.



وَ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثَاقَهُ الَّذِي  
 وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ اتَّقُوا اللَّهَ  
 إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ  
 آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَ لَا  
 يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا إِعْدِلُوا هُوَ  
 أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا  
 تَعْمَلُونَ (٨) وَ عَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا  
 الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ  
 (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ  
 عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أُنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ  
 فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ  
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)

### ◁ اللغة

مِيثَاقُهُ، الميثاق بكسر الميم عقدٌ مؤكدٌ بيمينٍ وعهدٍ وهو مأخوذ من الوثاق  
 بفتح الواو وكسرهما إسمان لما يُوثق به الشيء.

بِالْقِسْطِ بكسر القاف العدل.

شَنَا نُ بفتح الشين والتون مصدر شَنَأَ، يقال شَنَنَتْهُ، تقدَّرَتْه بغضاً له وقال  
 بعضهم هو البغض مع عداوةٍ وسوء خلقٍ.  
 فَكَفَّ، الكَفَّ المنع والباقي واضح.

## ◀ الإعراب

إِذْ ظُرِفَ لَوِاثِقِكُمْ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالاً مِنْ الْهَاءِ الْمَجْرُورَةِ وَأَنْ يَكُونَ حَالاً مِنْ الْمِيثَاقِ وَعَدَّ اللَّهُ وَعَدَ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ وَيَجُوزُ الْإِقْتِصَارُ عَلَى أَحَدِهِمَا وَالْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ هُنَا، الَّذِينَ آمَنُوا، وَالثَّانِي، مَحْذُوفٌ اسْتِغْنَى عَنْهُ بِالْجُمْلَةِ الَّتِي هِيَ قَوْلُهُ: لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَلَا مَوْضِعَ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ يَتَعَلَّقُ بِنِعْمَةٍ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالاً مِنْهَا فَيَتَعَلَّقُ بِمَحْذُوفٍ وَإِذْ ظُرِفَ لِلنِّعْمَةِ أَيْضاً وَإِذَا جَعَلْتَ، عَلَيْكُمْ، حَالاً جَازَ أَنْ يَعْمَلَ فِي إِذَا، أَنْ يَبْسُطُوا، أَيْ بِأَنْ يَبْسُطُوا أَيْدِيَهُمْ مَفْعُولٌ، لِلْفِعْلِ.

## ◀ التفسير

وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ الْخَطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَالْمَرَادُ بِالنِّعْمَةِ قِيلَ هِيَ الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ وَذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِينَ فَوْقَ جَمِيعِ النُّعَمِ وَمِيثَاقُهُ الَّذِي وَاثَّقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الْمَرَادِ بِالْمِيثَاقِ عَلَى أَقْوَالٍ:

**أحدها:** أَنَّ الْمَرَادَ بِهِ مَا أَخَذَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حِينَ بَايَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ.

**ثانيها:** أَنَّ الْمَرَادَ الْمِيثَاقَ الْوَاقِعَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ وَفِي بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ وَإِضَافَتُهُ إِلَيْهِ تَعَالَى مَعَ صُدُورِهِ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَكُونَ الْمَرْجِعُ إِلَيْهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ، أَنَّ الَّذِينَ يَبَايَعُونَكَ أَتَمَّا يَبَايَعُونَ اللَّهَ الْأَيَّةَ.

**ثالثها:** أَنَّ الْمَرَادَ بِهِ هُوَ الْمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَى عِبَادِهِ حِينَ أَخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

**رابعها:** أَنَّ الْمَرَادَ مَا أَخَذَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي عَالَمِ الذَّرِّ حَيْثُ قَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى<sup>(١)</sup>.

**خامسها:** ما ذكره في مجمع البيان وهو أن المراد به ما بين لهم رسول الله ﷺ في حجة الوداع من تحريم المحرمات وكيفية الطهارة وفرض الولاية وغير ذلك عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام **وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** أي واتقوا الله في نقض ميثاقه الذي واثقكم به فلا تنقضوا ميثاقه.

**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ** أمر الله المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي قائمين بالعدل يقومون به ويدومون عليه، شهداء أي مبینون عن دين الله لأن الشاهد مبین ما شهد عليه ولا يجر منكم شأن قوم على ألا تعدلوا أي لا يحملنكم بغض قوم على أن لا تعدلوا فيهم وفي غيرهم أعدلوا هو أقرب للتقوى **وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** لما نهاهم أولاً عن أن يحملهم البغضاء على ترك العدل أمرهم بالعدل ثانياً تأكيداً وتشديداً ثم ذكر لهم أن العدل أقرب للتقوى أي أنه أقرب إلى الإتياء من معاصي الله.

وقيل أقرب إلى الإتياء من عذاب الله قال بعض المفسرين فيه حث عظيم على وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله فمات ظنك بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياء الله وأحباءه ولذلك قال واتقوا الله أي كونوا على حذر من عذاب الله واعلموا أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأفعالكم.

**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**

أي وعد الله الذين صدقوا بوحدانية الله وأقروا بنبوة نبيه محمد ﷺ ومع ذلك عملوا الصالحات بالمغفرة والأجر العظيم، قال الشاعر:

وَجَدْنَا الصَّالِحِينَ لَهُمْ جَزَاءً وَجَنَاتٌ وَعَيْنًا سَلْسِبِيلاً

ففي الآية دلالة على أن الإيمان الذي رتب الله تعالى عليه الأجر العظيم لا

يَتَحَقَّقُ بِدُونِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فَمَنْ قَالَ أَوْ يَقُولُ أَنَّ الْإِيمَانَ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْرَدِ الْإِعْتِقَادِ وَأَنَّ الْعَمَلَ خَارِجٌ عَنْ حَقِيقَتِهِ شَرْعاً سَلَكَ مَسْلَكَ الْإِعْتِسَافِ وَخَرَجَ عَنْ جَادَةِ الْإِنصَافِ.

وَالْمُرَادُ بِالْأَجْرِ هُوَ الثَّوَابُ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ عَلَى الطَّاعَاتِ وَلَمَّا وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ بَعْدَ الْمَغْفِرَةِ عَلَى طَاعَتِهِمْ أَوْعَدَ الْكَفَّارَ عَلَى كُفْرِهِمْ فَقَالَ:

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ

أَيُّ وَالَّذِينَ جَحَدُوا وَأَنْكَرُوا تَوْحِيدَ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَعَدْلَهُ وَأَنْكَرُوا نَبُوَّةَ نَبِيِّهِ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ بِالْإِنْكَارِ وَالِاسْتِهْزَاءِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَهُوَ إِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ وَمَعْنَى أَصْحَابِ الْجَحِيمِ أَنَّهُمْ يَخْلُدُونَ فِي النَّارِ لِأَنَّ الْمَصَاحِبَةَ تَقْتَضِي الْمَلَازِمَةَ ثُمَّ خَاطَبَ الْمُؤْمِنِينَ ثَانِياً فَقَالَ:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسُطُّوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ

قَالَ قِتَادَةُ وَغَيْرُهُمُ الْيَهُودُ هَمُّوا بِأَنْ يَقْتُلُوا النَّبِيَّ لَمَّا مَضَى إِلَى بَنِي قَرِيظَةَ يَسْتَعِينُ بِهِمْ عَلَى دِيَةِ مَقْتُولَيْنِ مِنْ بَنِي كَلَابِ بَعْدَ بَثْرِ مَعُونَةٍ كَانَا وَفَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَقِيَهُمَا عُمَرُ وَبْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ فَقَالَ أَمْسَلِمَيْنِ، فَقَالَا بَلْ رَافِدَيْنِ فَفَتَلَهُمَا فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَا الْمَاءَ وَاللَّهُ لَأَدِينَهُمَا وَمَضَى إِلَى يَهُودِ بَنِي قَرِيظَةَ يَسْتَعِينُ بِهِمْ وَقِيلَ، كَانَ يَسْتَقْرِضُ لِأَجْلِ الدِّيَةِ لِأَنَّهُ كَانَ يَحْمِلُهَا فَهَمَّتْ بَنُو قَرِيظَةَ بِالْفِتْكَ بِهِ وَبَقْتَلَهُ فَأَعْلَمَ اللَّهُ تَعَالَى النَّبِيَّ ذَلِكَ فَأَنْصَرَفَ عَنْهُمْ، وَقَالَ الْحَسَنُ بَعَثَ قَرِيشٌ رَجُلًا لِيَفْتِكَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَاِطَّلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَى أَمْرِهِ وَمَنَعَهُ اللَّهُ مِنْهُ لِأَنَّهُ دَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ وَسِيفُهُ مَسْلُولٌ فَقَالَ لَهُ أَرَيْنِي فَأَعْطَاهُ آيَاهُ فَلَمَّا حَصَلَ فِي يَدِهِ قَالَ مَا الَّذِي يَمْنَعُنِي مِنْ قَتْلِكَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ اللَّهُ يَمْنَعُكَ فَرَمَى بِالسَّيْفِ وَأَسْلَمَ وَإِسْمُ الرَّجُلِ عُمَرُ وَبْنُ وَهَبِ

الجمعي بعثه صفوان ابن أمية ليغتاله ﷺ بعد بدر فأعلمه الله ذلك وكان ذلك سبب إسلام عمرو بن وهب.

وقال الواقدي غزا رسول الله ﷺ جمعا من بني ذبيان ومحارب بذى أمر ففتحوا برؤوس الجبال ونزل رسول الله ﷺ بحيث يراهم فذهب لحاجة فأصابه مطر فبَل ثوبه فنشره على ضجرة واضطجع تحته بعيداً من أصحابه والأعراب ينظرون اليه فأخبروا سيدهم دمشور بن الحارث المحاربي فجاء حتى وقف على رأسه بالسيف مشهوراً فقال يا محمد من يمنعك مني اليوم فقال ﷺ الله ودفع جبرائيل في صدره ووقع السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ وقام على رأسه وقال من يمنعك مني اليوم فقال: لا أحد وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فنزلت الآية.

وعن الجبائي أنه قال المعنى بذلك ما لطف الله المسلمين من كف أعداءهم عنهم حين هموا باستنصالهم بأشياء شغلهم بها من الأمراض والقحط وموت الأكابر وهلاك المواشي وغير ذلك من الأسباب التي أنصرفوا عندها عن قتل المؤمنين.

وقال ابن عباس كانت اليهود دعوا رسول الله ﷺ الى طعام لهم وعزموا في الفتك به فأعلم الله ذلك نبيه ﷺ فلم يحضر.

وقال آخرون نزلت الآية فيما عزم المشركون على الإيقاع بالنبي وأصحابه يوم بطن النخلة إذ دخلوا في الصلاة فأعلمه الله ذلك فصلى بهم صلاة الخوف، وهذه الأقوال نقلها الشيخ في التبيان وفي الآية أقوال أخر لم نذكرها حذراً من الإطناب وعدم الفائدة في نقلها فإن شأن نزول الآية أي شيء كان لا ينافي عمومها من حيث المعنى فإنما بعد ما علمنا بأن المشركين كانوا في بدو الأمر غالبين والمسلمين كانوا مقهورين مغلوبين ومن المعلوم أن المشركين كانوا يريدون إيقاع البلاء والقتل والنهب بالمسلمين والله تعالى منعهم من ذلك إلى أن قوي الإسلام وعظمت شوكة المسلمين، لا خفاء لنا في معنى

المراد منها وهو أن الله تعالى هو أيدهم بنصره وزاد عزتهم وشوكتهم على رغم أعداءهم من الكفار والمعاندين والآن أيضاً كذلك وهذا مما وعد الله رسله وأوليائه في كل عصرٍ وزمانٍ قال تعالى: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** <sup>(١)</sup> صدق الله ولذلك قال: **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** أمرهم بالتقوى أولاً وبالتوكل عليه ثانياً وفيه إشارة إلى أن نصر الله للمؤمنين مشروط بهذين الأمرين وذلك لأن التوكل على الله فرع على معرفته ولازم المعرفة الطاعة لأوامره والإجتنب عن نواهيه ولا نعني بالتقوى إلا هذا فكل متوكل متصف بالتقوى لا محالة ومن يتوكل على الله فهو حسبه.



وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا  
 مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ  
 أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ  
 عَزَرْتُمْ أَوْهَامَكُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ  
 عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ  
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ  
 سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ  
 وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ  
 مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ  
 تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ  
 عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)

### ◀ اللغة

نَقِيبًا أصل النَقِيب في اللغة، النَقَب وهو الثقب والواسع وقيل هو فاعيل  
 بمعنى مفعول كأنه إختيار ونَقَب عليه كما يقال للمضروب ضريب وللمقتول  
 قتيل وقال الأصم هم المنظور اليهم والمسند اليهم أمور القوم وتدبير  
 مصالحهم وعليه فأن كان بمعنى الفاعل فهو الناقب عن أحوال القوم المفتش  
 عنها وأن كان بمعنى المفعول فالمعنى إختيارهم على علم بهم.

حَظًّا، الحَظُّ النَّصِيب.

خَائِنَةٍ، بمعنى المصدر كالكافية والعافية ويحتمل أن تكون صفة و  
 المعنى تَطَّلَعُ على فرقة خائنة أو نفيس خائنة وباقي اللغات واضح.

## ﴿الإعراب﴾

مِنْهُمْ أَتْنَى عَشَرَ نَفِيسًا يجوز أن يتَّعلق، منهم، ببعثنا وأن تكون صفة لأتني عشر تقدّمت فصارت حالاً قَرَضًا يجوز أن يكون مصدرًا محذوف الزوائد والعامل فيه أقرضتم، أي إقراضاً، ويجوز أن يكون القرض بمعنى المقرض فيكون مفعولاً به لَا كَفْرَونَ جواب الشرط فِيمَا نَقَضْتُمُ الباء تتعلّق ببعثناهم وما بمعنى شيءٍ وَجَعَلْنَا بمعنى صَيَّرْنَا فهو متعلِّد إلى مفعولين وفَاسِيَةً المفعول الثاني وباءه واو في الأصل لأنّه من القسوة يُحَرِّفُونَ مُستأنف ويجوز أن يكون حالاً من المفعول في، لعناهم، وأن يكون حالاً من الضمير في، قاسية، إلا قَلِيلاً مِنْهُمْ إستهناء من خائنة ولو قرأ بالجرّ على البدل لكان مستقيماً.

## ﴿التفسير﴾

إِعلم أنّه تعالى لما خاطب المؤمنين فيما تقدّم بقوله وأذكروا نعمة الله عليكم إلى قوله سمعنا وأطعنا ذكر في هذه الآية أخذ الميثاق من بني إسرائيل لكثّهم نقضوه وتركوا الوفاء به فكأنّه قال أيّها المسلمون لا تكونوا كقوم موسى إذ نقضوا عهدهم وميثاقهم فاستحقوا بذلك اللّعن والطرد والعذاب اذ لو كنتم في هذه الصّفة فتكونون مثلهم في إستحقاق اللّعن.

و الوجه الآخر أنّه تعالى ذكر في الآية السّابقة عداوة اليهود للإسلام وأنهم أرادوا إيقاع الشرّ برّسول الله ﷺ أتبعه بذكر هذه الآية وبيان أنّهم أي اليهود كان دأبهم على نقض العهود والمواثيق.

وفي المقام وجه ثالث وهو أنّ الغرض من الآيات المتقدمة ترغيب المكلفين في قبول التكاليف وترك التمرّد والعصيان فذكر الله تعالى في هذه الآية أنّه قد كلّف من كان قبلكم أيضاً فالتكليف والإلزام غير مخصوص بكم وبهم بل هو سنّة الله التي لا تبدل لها في جميع الأزمنة بالنسبة إلى جميع عباده اذا عرفت هذا فتقول:



وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا  
 قِيلَ أَنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ كَانُوا اثْنِي عَشَرَ سَبْطًا فَاخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ كُلِّ سَبْطٍ  
 رَجُلًا يَكُونُ نَقِيبًا لَهُمْ وَحَاكِمًا عَلَيْهِمْ.

ونقل عن مجاهد والكلبي والسُّدي أَنَّ النَّقَبَاءَ بَعَثُوا إِلَى مَدِينَةِ الْجَبَارِينَ  
 الَّذِينَ أَمَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْقِتَالِ مَعَهُمْ، لِيَقْفُوا عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَيَرْجِعُوا بِذَلِكَ إِلَى  
 نَبِيِّهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمَّا ذَهَبُوا إِلَيْهِمْ رَأَوْا أَجْرَامًا عَظِيمَةً وَقُوَّةً وَشَوْكَةً فَهَابُوا وَ  
 رَجَعُوا فَحَدَّثُوا قَوْمَهُمْ وَقَدْ نَهَاَهُمْ مُوسَى أَنْ يَحْدِثُوهُمْ فَنَكَثُوا الْمِيثَاقَ إِلَّا كَالْب  
 بَن يُونَا مِنْ سَيْطِ يَهُوذَا وَيُوشَعَ بْنِ نُونٍ مِنْ سَبْطِ أَفْرَائِيمَ بْنِ يُونُسَ وَهُمَا  
 اللَّذَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمَا قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ الْآيَةَ.

وقال الطَّبْرِي فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ أَنَّهُ قَالَ أَمَرَ اللَّهُ  
 مُوسَى أَنْ يَسِيرَ بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَقَالَ أَنِّي كَتَبْتُهَا لَكُمْ دَارًا وَ  
 قَرَارًا وَمَنْزَلًا فَأَخْرَجَ إِلَيْهَا وَجَاهَدَ مِنْ فِيهَا مِنَ الْعَدُوِّ فَأَنَّى نَاصَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَخَذَ  
 مِنْ قَوْمِكُ اثْنِي عَشَرَ نَقِيبًا مِنْ كُلِّ سَبْطٍ نَقِيبًا يَكُونُ عَلَى قَوْمِهِ بِالْوَفَاءِ مِنْهُمْ عَلَى  
 مَا أَمَرُوا بِهِ وَقِيلَ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَكُمْ أَنِّي مَعَكُمْ لِأَنَّ إِيَّايَ مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ  
 الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ إِلَى قَوْلِهِ: فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ وَأَخَذَ مُوسَى  
 مِنْهُمْ اثْنِي عَشَرَ نَقِيبًا إِخْتَارَهُمْ مِنَ الْأَسْبَاطِ كَفَلَاءَ عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ عَلَى  
 الْوَفَاءِ بَعْدَهُ وَمِيثَاقِهِ وَأَخَذَ مِنْ كُلِّ سَبْطٍ مِنْهُمْ خَيْرَهُمْ وَأَوْفَاهُمْ رَجُلًا يَقُولُ  
 اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمْ اثْنِي عَشَرَ نَقِيبًا  
 فَسَارَ بِهِمْ مُوسَى إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ بِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا نَزَلَ إِلَيْهِ بَيْنَ مِصْرَ وَ  
 الشَّامِ وَهِيَ بِلَادُ لَيْسَ فِيهَا شَجَرٌ وَلَا ظِلٌّ فَدَعَا مُوسَى رَبَّهُ حِينَ أَذَاهُمُ الْحَرَّ  
 فَظَلَّلَ عَلَيْهِمُ بِالْغَمَامِ وَدَعَا لَهُمُ بِالزَّرْقِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَى وَأَمَرَ  
 اللَّهُ مُوسَى فَقَالَ أَرْسِلْ رَجُلًا يَتَجَسَّسُ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ الَّتِي وَهَبْتُ لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ  
 مِنْ كُلِّ سَبْطٍ رَجُلًا فَأَرْسَلَ مُوسَى الزُّوُوسَ كُلَّهُمُ الَّذِينَ فِيهِمْ وَهَذِهِ أَسْمَاءُ  
 الرَّهْطِ الَّذِينَ بَعَثَ اللَّهُ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ فِيمَا يَذْكُرُ أَهْلُ التَّوْرَةِ.

- ١ - من سبط روبيل ، شامون بن ركون.
- ٢ - من سبط شمعون ، سافاط بن حربي.
- ٣ - من سبط يهوذا ، كالب بن يوحنا.
- ٤ - من سبط كاذ بيخايل بن يوسف.
- ٥ - من سبط يوسف و هو سبط افرائيم ، يوشع بن نون.
- ٦ - من سبط بنيامين ، فلط بن ذنون.
- ٧ - من سبط ربالون ، كرابيل بن سودي.
- ٨ - من سبط منشابن يوسف ، حدي بن سؤشا.
- ٩ - من سبط دان ، حمللائل بن حمل.
- ١٠ - من سبط أشار ، سابور بن ملكيل.
- ١١ - من سبط نفتالي ، محرين وقسي.
- ١٢ - من سبط يساخر حولاييل بن مُنكد.

فهذه أسماء الَّذِينَ بعثهم موسى يَتَجَسَّسُونَ له الأرض ويومئذ سَمَّى يوشع بن نون يوشع بن نون فأرسلهم وقال لهم إرتفعوا قبل الشَّمْسِ فارقوا الجبل و أنظروا ما في الأرض الشَّعْب الَّذِي يسكنونه أقوياء هم أم ضعفاء أ قليل هم أم كثير وأنظروا أرضهم التي يسكنون أشمسة هي أم ذات شجر وأحملوا البنا من ثمرة تلك الأرض وكان في أول ما سَمَّى لهم من ذلك ثمرة العنب انتهى ما أردنا ذكره.

ونحن نقول ما ذكره الطَّبْرِي وغيره من المفسرين وأرباب السِّير في هذا الباب من أسماء النَّبَاءِ وكيفيَّة القِصَّة لا يمكن الإعتماد عليه اذ لا دليل على صحَّته من نصٍّ معتبر و الَّذِي لا كلام لنا فيه هو أَنَّ الله تعالى بعث منهم اثني عشر نقيباً كما هو صريح الآية وأما أَنَّهُم بعثوا الى موضع فلان أو لأمر فلان و أمثال ذلك من الأقوال فلا يستفاد من الآية ولا يوجد فيه نصٌّ يعتمد عليه و كيف كان يظهر من الآية أَنَّ الله تعالى قد أخذ ميثاق بني إسرائيل وبعث منهم اثني عشر نقيباً، الى ما لا يعلمه إلا هو.

وَأَمَّا أَنْ التَّقْبَاءَ كَانُوا رِسَالاً أَوْ قَادَةَ فَلَا نَعْلَمُ وَقَوْلُهُ: بَعَثْنَا لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا رِسَالاً وَأَمَّا كَوْنُهُمْ قَادَةً فَقِيلَ يَسْتَفَادُ مِنَ التَّقَابَةِ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُظَاهِرَنَّ أَنْ قَوْلُهُ: إِنِّي مَعَكُمْ خُطَابٌ لِلتَّقْبَاءِ وَقِيلَ أَنَّهُ خُطَابٌ لِكُلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْأَقْوَى الْأَوَّلُ لِأَنَّ الْأَقْرَبَ يَمْنَعُ الْأَبْعَدَ.

قَالَ الْمَفْسُورُونَ أَنَّ الْكَلَامَ قَدْ تَمَّ عِنْدَ قَوْلِهِ: إِنِّي مَعَكُمْ وَالْمَعْنَى أَنِّي مَعَكُمْ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ فَأَسْمَعَ كَلَامَكُمْ وَأَرَى أَعْمَالَكُمْ وَأَعْلَمُ ضَمَانَكُمْ وَأَقْدَرُ عَلَى إِيصَالِ الْجَزَاءِ إِلَيْكُمْ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ لِأَنَّهُ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ الْخُفَّ فَقَدْ أَتَى بِالْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ وَالشَّرْطُ فِيهَا مَرْكَبٌ مِنْ أُمُورٍ خَمْسَةٍ:

أَحَدُهَا: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ.

ثَانِيهَا: إِيْتَاءُ الزَّكَاةِ.

ثَالِثُهَا: الْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ.

رَابِعُهَا: تَعْزِيرُهُمْ.

خَامِسُهَا: إِقْرَاضُهُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَالْمُرَادُ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ هُوَ الْإِتْيَانُ بِهَا بِحُدُودِهَا وَشَرَائِطِهَا كَمَا أَنَّ الْمُرَادَ بِإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ إِيْتَانُهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَقْرَّرِ فِي الشَّرِيعَةِ، وَالْمُرَادُ بِالْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ هُوَ الْإِعْتِقَادُ الْجَازِمُ الثَّابِتُ بِكَوْنِ الرُّسُولِ مَرْسَلًا مِنْ جَانِبِ الْحَقِّ إِلَى الْخَلْقِ وَأَمَّا قَالَ بِرُسُلِي وَلَمْ يَقُلْ بِرُسُولِي مَعَ أَنَّ الرُّسُولَ كَانَ وَاحِدًا فِي زَمَانِهِمْ وَهُوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ بِرُسُولٍ وَاحِدٍ لَا يَكْفِي بَلْ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ بِمَعْنَى أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ وَاحِدًا مِنْهُمْ فَقَدْ أَنْكَرَ الْجَمِيعَ، وَالْمُرَادُ بِالتَّعْزِيرِ فِي قَوْلِهِ: وَعَزَّرْتُمُوهُمْ هُوَ رَدُّ الْقَبَائِحِ عَنْهُمْ فِعْلًا وَقَوْلًا لِأَنَّ الْعِزَّ فِي اللُّغَةِ الرَّدُّ قَالُوا وَتَأْوِيلُ عَزَّرْتُ فَلَتًا، فَعَلْتُ بِهِ مَا يَزِدُّهُ عَنِ الْقَبِيحِ وَيُزْجِرُهُ عَنْهُ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ مَعْنَى قَوْلِهِ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ، أَيِ نَصَرْتُمُوهُمْ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ نَصَرَ إِنْسَانًا فَقَدْ رَدَّ عَنْهُ أَعْدَاءَهُ قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ، عَزَّرْتُمُوهُمْ، أَيِ نَصَرْتُمُوهُمْ وَمَنْعْتُمُوهُمْ مِنْ أَيْدِي الْعَدُوِّ وَمِنْهُ التَّعْزِيرُ وَهُوَ التَّنْكِيلُ وَالْمَنْعُ مِنْ مَعَاوِدَةِ الْفَسَادِ.

و أما قوله: **وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** قيل المراد به الصدقات المندوبة ولذلك خصه بالذكر بعد الزكاة فإن الزكاة صدقة واجبة ويحتمل أن يكون القرض من الإحسان لا من الصدقة وكيف كان فمن أتى بهذه الأمور الخمسة المذكورة.

مستحق الجزاء وهو قوله: **لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** رتب على الشرط أمرين: أحدهما: تكفير السيئات وهو حطها ومحوها والعفو عنها.

ثانيهما: دخول الجنة التي تجري من تحتها الأنهار وأما قدم التكفير لأن دخول الجنة مع وجود السيئات ممتنع لقوله: **وَأُزِلْفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ<sup>(١)</sup>**. فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ أي فمن كفر بعد تمامية الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتاب وسلك غير مسلك الحق وإتبع هواه فقد ضل وإنحرف عن جادة الحق وطريق المستقيم ووقع في تيه الضلالة والغواية أعادنا الله منه ولما ذكر في الآية الشرط والجزاء بالنسبة إلى التابعين والمطيعين شرع في ذم الناكثين والناقضين للعهد والميثاق فقال تعالى:

**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً**

أي بسبب نقض اليهود الميثاق لعنناهم واللعن هو الطرد للسخط على العبد وهو الإبعاد من رحمة الله على جهة العقوبة وقال بعضهم هو المسخ الذي كان فيهم حين صاروا قردة وخنازير، والمراد بالجعل هنا التسمية أي سميناهاهم بذلك عقوبة على كفرهم ونقض ميثاقهم، وكلمة، ما، في قوله فبما، قيل أنها زائدة وقيل أنها مؤكدة والهاء والميم كنايةان عن بني إسرائيل.

وقيل في الآية تسلية للنبي ﷺ وأصحابه والمقصود أن الغدر كان من عادتهم وعادات أسلافهم لأنني أخذت ميثاق سلفهم على عهد موسى على

طاعتي وبعثت منهم إثني عشر نقيباً فنقضوا ميثاقى ونكثوا عهدي فلعتهم،  
بنقضهم ميثاقهم فلا تعجب من أنهم أن غدروا بك و هموا أن يبسطوا أيديهم  
إليك والى أصحابك يُحَرِّفُونَ أَلَكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا  
ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ذكر الله تعالى  
في المقام بعض ما هو من نتائج تلك القسوة المجمولة في قلوبهم، فقال:  
يُحَرِّفُونَ أَلَكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ التَّحْرِيفُ قد يكون بسوء التأويل وقد يكون  
بالتغيير و التبديل في اللفظ، وقد حرّفوا الكلم عن مواضعه بكلا المعنيين:

قال الله تعالى: وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ أَلْحَقَّ وَ هُمْ يَخْلُمُونَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ  
مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ<sup>(٢)</sup>.

و المراد بقوله: نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ تركوا نصيباً مما ذكرُوا به يعني  
مما أنزل على موسى وقال ابن عباس أي تركوا نصيباً مما أمروا به في كتابهم و  
هو الإيمان بمحمد ﷺ.

وقوله: وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إشارة الى أن الغدر والمكر و  
الخيانة منهم لا تختص بما ذكرناه لك بل لا تزال يا محمد تطلع على خائنة من  
اليهود، و فاعلة في أسماء المصادر كثيرة نحو عافاه الله عافية:

قال الله تعالى: فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: وَ أَلْمُؤْتِفَاتُ بِالْخَاطِئَةِ<sup>(٤)</sup>.

و أمثال ذلك كثيرة كل ذلك بمعنى المصدر، ثم إستثنى منهم القليل فقال  
إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ لَا يَتَصِفُونَ بِالْغَدْرِ وَ نقض العهد وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ أَلَشَّكُورُ ثم  
أمر نبيه بالمدارة معهم فقال: فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ أَصْفَحْ إِنَّ أَللهَ يُحِبُّ  
أَلْمُحْسِنِينَ. قيل أنه منسوخ بقوله:

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

فَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ<sup>(١)</sup>.

وقال أبو علي منسوخ بقوله:

وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ<sup>(٢)</sup>.

وقال البلخي يجوز أن يكون الأمر بالعفو و الصّفح بشرط التّوبة أو بذل الجزية لأنهم إذا بذلوا الجزية لا يؤاخذون بشئ من كفرهم فعلى هذا لا يكون منسوخاً والمعنى فأعف عن مذنبهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم فإنّ الأنبياء كانوا مأمورين من قبل الله تعالى بالمداراة والمماشاة مع النّاس وهو ظاهر.



وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ  
فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ  
وَالْبُغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ  
بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ  
جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ  
مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ  
اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ  
اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمُ  
مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى  
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ  
اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ  
اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ  
أُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ  
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ  
يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ  
لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ  
(١٨) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ  
لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا  
مِنَ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَ  
اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)

## ◀ اللغة

حَظًّا، الْحَظُّ النَّصِيبُ.

فَأَعْرَضْنَا، يقال أَعْرَضَ فلان بفلان اذا ولع به كأنه أَلْصَقَ به و يقال لما إلتصق به الشئ الغراء.

يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ، الأنباء الأخبار.

سُبُلَ السَّلَامِ، السُّبُلُ بَضَمُ السَّيْنِ والباء جمع سبيل.

فَتْرَةً، الْفَتْرَةُ سَكُونٌ بعد حَذْوَةٍ وَلِينٌ بعد شِدَّةٍ وضعفٌ بعد قُوَّةٍ وهى من الفتور.

## ◀ الإعراب

وَمِنَ الَّذِينَ مَن تَعْلُقُ بِأَخْذِنَا تَقْدِيرُهُ وَأَخْذَنَا مِنَ الَّذِينَ قَالُوا أَنَا نَصَارَى وَ  
الْكَلَامُ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَعْرَضْنَا إِلَيْهِ فِيهِ  
مِنَ الْوَاوِ وَإِسْتِثْقَاةٌ مِنَ الْفَرَاءِ يُقَالُ سَهْمٌ مَغْرُوبٌ وَيُسْتَهْمُ ظَرْفٌ أَوْ حَالٌ مِنَ الْعِدَاوَةِ وَ  
لَا يَكُونُ ظَرْفًا لِلْعِدَاوَةِ لِأَنَّ الْمَصْدَرَ لَا يَعْمَلُ فِيمَا قَبْلَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ يَتَعْلَقُ  
بِأَعْرَضْنَا أَوْ بِالْبَغْضَاءِ أَوْ بِالْعِدَاوَةِ يُبَيِّنُ لَكُمْ حَالٌ مِنْ رِسُولِنَا مِنَ الْكِتَابِ حَالٌ  
مِنَ الْهَاءِ الْمَحْذُوفَةِ فِي يَخْفُونَ قَدْ جَاءَ كُمْ لَا مَوْضِعَ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَتَعْلَقُ بِجَاءَ كُمْ  
أَوْ حَالٌ مِنْ، نَوْرٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ حَالٌ مِنْ رِسُولِنَا بَدَلًا مِنْ يَبَيِّنُ أَوْ حَالٌ مِنْ  
الضَّمِيرِ فِيهِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً لِنُورٍ أَوْ لِكِتَابٍ وَمِنْ، بِمَعْنَى الَّذِي أَوْ نَكْرَةً  
مَوْصُوفَةً سُبُلَ السَّلَامِ الْمَفْعُولُ الثَّانِي، لِيَهْدِيَ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ  
رِضْوَانِهِ فَمَنْ يَمْلِكُ مَنْ إِسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ مِنَ اللَّهِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مَتَّعِلَقًا  
بِیَمْلِكُ وَأَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ شَيْئًا وَجَمِيعًا حَالٌ مِنَ الْمَسِيحِ وَأُمُّهُ وَمِنْ فِي  
الْأَرْضِ عَلَى فِتْرَةٍ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي يَبَيِّنُ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا  
مِنَ الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ فِي، لَكُمْ، مِنْ الرُّسُلِ نَعَتْ لِفِتْرَةٍ



## ◀ التفسير

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا تَقَدَّمَ أَخْذَ الْمِيثَاقِ مِنَ الْيَهُودِ وَغَدَرِهِمْ وَنَقْضِهِمُ الْمِيثَاقَ وَاسْتِحْقَاقَهُمْ بِذَلِكَ اللَّعْنِ وَالطَّرْدِ بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَخْذَ الْمِيثَاقِ مِنَ النَّصَارَى وَأَنَّهُمْ نَقَضُوا الْمِيثَاقَ وَأَصْلَوْ وَأَصْلَوْا وَحَكَمَ الْأَمْثَالُ وَاحِدَ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى** وَهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى وَأَمَّا قَالَ أَنَا نَصَارَى وَلَمْ يَقُلْ مِنَ النَّصَارَى مَثَلًا لِأَنَّهُمْ ابْتَدَعُوا النَّصْرَانِيَّةَ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا الْيَوْمَ وَتَسَمَّوْا بِهَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ لَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّاهُمْ بِهَا **أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ** بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَالإِقْرَارِ بِنَبْوَةِ الْمَسِيحِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ فَتَنَسَّوْا **حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ** كَمَا قَالَ فِي الْيَهُودِ، وَنَسَّوْا **حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ** أَي أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ كَتَمَانَ الْحَقِّ وَنَقْضَ الْمِيثَاقِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا الْإِيمَانَ بِالرَّسُولِ مَعَ أَنَّ أَوْصَافَهُ كَانَتْ مَذْكُورَةً فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ أَوْ أَنَّ النَّصَارَى أَنْكَرُوا مُحَمَّدًا ﷺ كَمَا أَنَّ الْيَهُودَ أَنْكَرُوا عِيسَى وَمُحَمَّدًا وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحَظِّ هُوَ الْإِيمَانُ بِالرَّسُولِ وَتَنْكِيرُ الْحَظِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ حَظٌّ وَاحِدٌ وَهُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ مَعَ أَنَّهُمْ تَرَكُوا أَكْثَرَ مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ فَتَخْصِيصُهُ بِالذِّكْرِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَيُّ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ مِنْ أَعْظَمِ الْحُظُوظِ الَّتِي نَسَّوْهَا وَتَرَكُوهَا **فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ**.

قال مجاهد وقتادة وابن زيد والسدي وغيرهم معناه فأغرينا بين اليهود والنصارى العداوة والبغضاء.

وقال الزجاج والطبري معناه بين النصارى وهو ما وقع بينهم من الخلاف نحو الملكية وهم الروم والنطورية واليعقوبية من العداوة وأصل الإغراء تسليط بعضهم على بعض وقيل معناه التحريش وأصله اللصوق، فمن قال بالأول وهو الإغراء بين اليهود والنصارى استدلل على مدعاه بأن الله تعالى قد ذكر اليهود فيما تقدم من هذه السورة وتكذيبهم وفريتهم على الله ثم ذكر النصارى فلما جمع بين الفريقين في الذكر في هذه السورة وإن لم يجمعهم في

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

هذه الآية جاز أن يذكر أنه أغرى بينهم العداوة بأن أمر كل واحدٍ منهما بمعادة عدوه فيما عصى فيه وصح الإغراء بينهم وإلقاء العداوة والتباعد والمنافرة و صح أن يجعل ذلك جواباً.

وقال البلخي في توجيه الثاني وهو الإغراء بين النصاري فقط أن ظاهر الآية يقتضي ذلك والوجه فيه هو أنه تعالى نصب الأدلة على إبطال قول كل فرقة من فرق النصاري فإذا عرفت طائفة منها فساد مذهب الآخر فيما نصب الله لها من الأدلة وأن جهلت فساد مقالة نفسها لتفريطها في ذلك و سوء إختيارها فجاز على هذا أن يضاف الإغراء في ذلك إلى الله من حيث أنه أمر كل فرقة بمعادة الأخرى على ما تعتقده وإن أمرها أيضاً بأن تترك ما هي متمسكة به لفساده.

فأن قيل أيجوز على هذا أن يقال أن الله أغرى بين المؤمنين والكفار العداوة.

قلنا أما إغراء المؤمن بالكافر فصحيحٌ وأما إغراء الكافر بالمؤمن فلا يصح لأن ما عليه المؤمنون حقٌ وما عليه الكفار باطلٌ وحيث أن اليهود والنصارى سلكا مسلك الباطل فالإغراء بينهما حقٌ وهكذا بين جميع الفرق من النصاري ولذلك قال الله تعالى: فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ وَآتَمَّا أَغْرَى بَيْنَ الْكُفَّارِ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ لثَلَاثَتٍ تَتَّحَدُوا عَلَى قَتْلِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْإِضْرَارَ بِهِمْ كَمَا وَرَدَ فِي الدُّعَاءِ اللَّهُمَّ أَشْغَلِ الظَّالِمِينَ بِالظَّالِمِينَ وَأَجْعَلْنَا مِنْ بَيْنَهُمْ سَالِمِينَ وَأَجْعَلْ ذَلِكَ يَجُوزُ الْإِفْسَادَ بَيْنَ الْكُفَّارِ بِأَيِّ نَحْوٍ كَانَ وَ سَوْفَ يُبَيِّنُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِيهِ إشارة إلى ما أعدَّ الله تعالى لهم في الآخرة من العذاب مضافاً إلى العداوة والبغضاء في الدنيا والحاصل أن الله تعالى ليس بغافل عما يعمل الظالمون بل يجزيهم عاجلاً وأجلاً خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ثم خاطب أهل الكتاب جميعاً من اليهود والنصارى وغيرهما إن وجد فقال: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا

مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ أَيْ يُبَيِّنُ الرَّسُولُ لِلنَّاسِ كَثِيرًا مِمَّا كُنتُمْ تَخْفَوْنَ عَنْهُمْ مِنَ الْأَحْكَامِ الثَّابِتَةِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ لِأَجْلِ مَنَافِعِكُمْ وَمَصَالِحِكُمْ وَفِيهِ إِيْمَاءٌ إِلَى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كَانُوا يَخْفَوْنَ الْحَقَائِقَ عَنْ عَوَامِهِمْ وَهُوَ كَذَلِكَ.

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في كثير من الآيات:

قال الله تعالى: قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَغْلَمَهُ اللَّهُ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْثَرُ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تَخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا<sup>(٣)</sup>.

وغيرها من الآيات وفي قوله (ويعفوا عن كثير) إشارة إلى أَنَّ مَا بَيْنَهُ الرَّسُولُ وَأَنْ كَانَ كَثِيرًا، فِي نَفْسِهِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَا أَخْفَوْهُ، فِي بَاطِنِهِمْ مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدَاوَةِ أَوْ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ أَحْكَامِ الْكِتَابِ.

قال أبو علي معناه يترك كثيراً لا يأخذكم به ولا يذكره لَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﷺ لم يؤمر به وقيل معنى يعفوا، أي يصفح الرسول عن كثيراً بالتوبة قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ.

قيل المراد بالنور النبي ﷺ وقيل هو القرآن لَأَنَّهُ يَهْتَدِي بِهِ كَمَا يَهْتَدِي بِالنُّورِ.

قال في التبيان والأولى أَنْ يَكُونَ كِنَايَةً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِأَنَّ قَوْلَهُ: وَكِتَابٌ مُبِينٌ المراد به بالقرآن.

أقول لعل الوجه فيه هو أَنَّ الْعَطْفَ يَوْجِبُ الْمَغَايِرَةَ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ فَلَوْ قُلْنَا أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ النُّورِ الْقُرْآنَ لَمْ تَتَحَقَّقِ الْمَغَايِرَةُ.

ولقائل أَنْ يَقُولَ الْمَغَايِرَةُ ثَابِتَةٌ بِالْإِعْتِبَارِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ يَهْتَدِي بِهِ

نورٌ و من حيث أنّه جامع للأحكام كتابٌ و بعبارةٍ أخرى من حيث أنّه منوّر للقلب فهو نور و من حيث أنّه مبينٌ للأحكام فهو كتاب و هذا القدر من الفرق بين المعطوف و المعطوف عليه يكفي في صحّة العطف.

مضافاً إلى أنّ الواو في قوله وكتاب مبين يحتمل أن تكون للتفسير و التّوضيح لا للعطف و عليه فقوله وكتاب مبين توضيح و تفسير للنور هذا أن قلنا بأنّ المراد بالنور و الكتاب واحد.

و أن قلنا بأنّ المراد بالنور هو النّبي و بالكتاب القرآن كما هو أحد القولين فلا إشكال فيه أيضاً لا كما يقولون من جهة التّغاير بل من حيث أنّ النّبي قرآن ناطق و الكتاب قرآن صامت و الإحتمالات كثيرة و المعنى واضح لا خفاء فيه يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ أي يهدي الله بالنور أو بالكتاب المبين أو بهما من اتّبع رضوانه، أي من اتّبع رضا الله

و أمّا من اتّبع هواه فلا يهدي به و أمّا قوله سبل السّلام، فالسّبل جمع سبيل و هو الطّريق و في السّلام قولان:

أحدهما: أنّ المراد به دين الله.

الثّاني: أنّ المراد به السّلامة من كلّ مخافةٍ و مضرةٍ إلّا ما يعتدّ به لأنّه يؤول إلى نفع في العاقبة.

و إحتمل بعض المفسّرين أن يكون الكلام بحذف المضاف و التّقدير سبل دار السّلام وهي الجنّة و يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ أي أنّ النور أو الكتاب يخرجهم من الظّلمات إلى النور بأذن الله، أي من الكفر إلى الإيمان لأنّ الكفر ظلمة لتّحير صاحبه فيه كما يتّحير في الظّلام، و الإيمان نور لأنّه هادٍ إلى النّجاة كما يهتدي بالنور في الظّلمات.

و يحتمل أن يكون المراد بالظّلمة جهل و بالنور العلم و هذا أولى لأنّ الخروج من الكفر إلى الإيمان لا يكون إلّا بعد العلم بأنّ الكفر ضلالة و الإيمان سعادة.

وفي قوله: **يَاذُنْهِ** إشارة إلى أن الخروج يكون بأذن الله و ذلك:

قال الله تعالى: **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ**<sup>(٢)</sup>.

هذا اذا قلنا أن فاعل الفعل هو النور والمراد به البغي وأما اذا قلنا أن الفاعل هو الكتاب المبين أي أن الكتاب يخرجهم من الظلمات إلى النور، فأيضاً كذلك و ذلك لقوله تعالى:

**و لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا**<sup>(٣)</sup>.

ومحصل الكلام في المقام هو أن شرط الإهداء بالكتاب أو بالنبي القابلة والاستعداد والقابلة من مواهب الله و عطياته مضافاً إلى أن قلوب العباد تحت تسخير فهو مقلّب القلوب والأبصار فلا يؤثر في قلب العبد شيء إلا بأذنه ومشيئته كما قيل:

**أَرَمَّةُ الأُمُور طُرّاً بِيَدِهِ وَالْكُلُّ مُسْتَمَدّةٌ مِنْ مَمَدِهِ**

وليس هذا جبراً، بل هو إثبات القدرة المطلقة له تعالى فللعبد السؤال وللرب الإعطاء كما ورد في الدعاء يامن يعطي من سأله يامن يعطي من لم يسأله ولم يعرفه تحنناً منه ورحمة.

وأما قوله: **وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** فقد ظهر معناه فإن النور أعني به الرسول وكذلك الكتاب شأنهما الهداية إلى صراط مستقيم غير ذي عوج:

قال الله تعالى: **وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ**<sup>(٦)</sup>.

و قد مرَّ الكلام في المراد منه في سورة الحمد عند قوله: أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وقلنا أنَّ الصِّرَاطَ المستقيم هو صراطِ عليٍّ وأهل بيته وذكرنا بعض الأخبار الواردة في هذا المعنى هناك، ثَبَّتْنَا الله عليه.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

الله علمٌ على الأُصْح للذَّات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصِّفَات الكماليَّة وهذا ممَّا لا خلاف فيه ولذلك لا يطلق هذا اللَّفْظ أعني به، الله، إلَّا عليه تعالى لعدم صدق الاوصاف على غيره فأَنْ غيره كائناً من كان فهو مخلوق وكلُّ مخلوق ممكن الوجود ومع ذلك لا يكون مستجمعاً لجميع الصِّفَات الكماليَّة وهو واضح فمن قال أنَّ الله هو المسيح بن مريم جاهلٌ أو معاندٌ أولاً وكافرٌ ملحدٌ ثانياً لأنَّه نفى الألوهية عن المستحق لها وأثبتها لمن لا يستحق لها وهذا هو الكفر بالله.

قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ  
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا

معناه قل يا محمد لهؤلاء النَّصارى الذين قالوا أنَّ الله هو المسيح بن مريم، فمن يملك من الله شيئاً، أي فمن يقدر أن يدفع أمر الله إن أراد الله أن يهلك المسيح وأُمَّه مريم ومن في الأرض جميعاً.

وجه الإحتجاج بذلك هو أنَّ المسيح لو كان إلهاً لقدر على دفع أمر الله إذا أتى بإهلاكه أمَّه ومن المعلوم أنَّه ليس بقادرٍ عليه وإذا كان كذلك فهو ضعيف وكلُّ ضعيف محتاج وكلُّ محتاج ممكن مخلوق فثبت أنَّ المسيح ممكن مخلوق فكيف يكون هو الله القادر على كلِّ شيء وأن شئت قلت إذا لم يقدر على دفع الموت عن نفسه فهو ضعيف وإذا كان المسيح هو الله فهو قادر على كلِّ شيء فيلزم أن يكون قادراً وغير قادرٍ فيلزم إجتماع التَّقْضِيين وهو محال وإذا لم يقدر على دفع أمر الله عن نفسه لم يقدر على دفعه عن غيره بطريق أولى ثبت المطلوب.

وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

الآم في قوله لله، للإختصاص والمعنى ملك السموات والأرض وما بينهما من الموجودات مخصوص به تعالى لا يشركه فيه غيره لأن غيره كائناً من كان فهو مخلوق له، والمخلوق لا يكون شريكاً لخالقه لإستحالة تقدم الشيء على نفسه.

وفي قوله: يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ الى قدرته الكاملة على الإيجاد فتارةً يخلق الإنسان من الذكر والأنثى كما هو المعتاد واليه الإشارة بقوله: إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ<sup>(١)</sup> وتارةً يخلق الإنسان من غير أب ولا أم كما في آدم وحواء وتارةً من الأم فقط كما في عيسى ف سبحانه الذي يخلق ما يشاء كيف يشاء وفي قوله: وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إشارة الى عدم محدودية القدرة أي أن قدرته لا تتعلّق بشيءٍ دون شيءٍ بل تتعلّق بجميع المقدورات والممكنات.

وأما الممتنع فلا تتعلّق القدرة به لا لضعف في القادر بل لعدم قابلية المحل، فتأمل.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ

حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة، وذلك لأن اليهود قالت نحن أشياع عزيز ابن الله وقالت النصارى نحن أشياع المسيح ابن الله وقد يقال لأشيع الأبناء كما يقال لأقارب الملوك وقيل أن النصارى كانوا يتلون في الإنجيل أن المسيح قال أني ذاهب الى أبي وأبيكم.

ولذلك قالوا نحن أبناء الله وقيل أرادوا أن الله تعالى كالأب لنا في الحنو والعطف كالأبناء له في القرب والمنزلة وجملة الكلام أن اليهود والنصارى

في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

كانوا يرون لأنفسهم فضلاً على سائر الخلق بسبب أسلافهم من الأنبياء حتى إنتهوا في تعظيم أنفسهم الى أن قالوا نحن أبناء الله وأحباءه ثم رد الله عليهم دعواهم بقوله: **قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ** أي أن كنتم أحباء الله فلم يعذبكم بذنوبكم ولكنه يعذبكم بها فلستم بأبناءه وأحباءه وهو المطلوب.

والمراد بالعذاب في قوله: **يُعَذِّبُكُمْ** قيل عذاب الآخرة وقيل عذاب الدنيا والآخرة معاً، فمن قال بالأول قال لأنهم كانوا معترفين بعذاب الآخرة كما أخبر الله تعالى: **وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً** (١).

ومن قال بالثاني قال لأنهم في الدنيا أيضاً صاروا معذبين بالمسح وإذا ثبت العذاب في حقهم فهم مثل سائر الناس فكيف كانوا يدعون ما حكاها الله عنهم ولذلك قال الله تعالى: **بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** يعني أنتم بشر مثل سائر البشر وحكم الأمثال واحد فالمخلوق كائناً من كان يكون تحت قدرة الخالق إن شاء غفره وأن شاء عذبه **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** أي أن الله مالك السموات والأرض وما بينهما من الموجودات والمالك يفعل ما يشاء في مملوكه وفي قوله واليه المصير إشارة الى رجوع المخلوق الى الخالق قال الله تعالى: **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** فهو تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ** خاطب أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وأعلمهم بمجيئ رسول الله ﷺ فقال قد جائكم رسولنا، وهو محمد ﷺ، يبين الأحكام لكم على فترة من الرسل يعني على إنقطاع منهم وفيه دلالة على أن زمان الفترة لم يكن فيه نبي والفترة إنقطاع ما بين النبيين والمراد بها في المقام ما بين عيسى ومحمد ﷺ وستين ستمائة سنة أو خمس مائة وخمسين سنة وقيل أربع مائة سنة وبضعاً وستين سنة وقد يعبر عن زمان الفترة بعد الجاهلية أن تقولوا ما جاءنا من بشيرٍ و



لَا تَذِيرُ فَتَكُونُ الْحُجَّةَ بِذَلِكَ لَكُمْ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ  
تَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَقَدْ تَمَّتِ الْحُجَّةُ بِذَلِكَ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ وَالْبَشِيرُ  
الْمُبَشِّرُ لِكُلِّ مَطِيعٍ بِالثَّوَابِ كَمَا أَنَّ التَّذِيرَ الْمَخَوْفُ كُلَّ عَاصٍ بِالْعِقَابِ وَاللَّهُ  
تَعَالَى قَدْ وَصَفَ نَبِيَّهِ بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ:

قال الله تعالى: **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا<sup>(١)</sup>**.

قال الله تعالى: **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا<sup>(٢)</sup>**.

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا<sup>(٣)</sup>**.

وغيرها من الآيات وقال حكاية عن عيسى بن مريم: **مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي  
مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ<sup>(٤)</sup>** ولا ريب أنه على كل شيء قدير.



وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ  
 اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكًا  
 وَ آتَكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا  
 قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ  
 لَكُمْ وَ لَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا  
 خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا  
 جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا  
 فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَأَنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ  
 مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا  
 عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانْكَبُوا غَابِرُونَ وَ  
 عَلَى اللَّهِ فِتْوَاكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا  
 مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ  
 أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ  
 رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا  
 وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُّحَرَّمَةٌ  
 عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا  
 تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)

### ◀ اللغة

وَ لَا تَرْتَدُّوا يقال إرتد عنه إذا رجع.

جَبَّارِينَ أصل الجبر إصلاح الشيء بضرب من القهر، و الجبَّار في صفة  
 الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بإدعاء منزلة من التَّعَالَى لا يستحقها و هذا لا

يقال إلا على طريق الندم قال تعالى: وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١).  
يَتَبَهُونَ يُقال تاهَ يَتَّيهُ إذا تحير.

فَلَا تَأْسُ، الأسى الحزن و حقيقته إتباع الفائت بالغم أي فلا تحزن على القوم الكافرين.

### ◀ الإعراب

عَلَى أَذْبَارِكُمْ حال من الفاعل في ترتدوا فَتَنَقَّلُوا مجزوم معطوف على، ترتدوا، ويجوز فيه النصب على جواز النهي مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ في موضع رفع صفة لرجلين و يخافون صفة الذين و الواو العائد أَنْعَمَ اللَّهُ صفة أخرى لرجلين و يجوز أن يكون حالاً و قد معه مقدرة و صاحب الحال رجالان أو الضمير في، الذين، ما داموا هو بدل من أبدا، لأن ما مصدرية تنوب عن الزمان و هو بدل بعض وههنا ظرف، لقاعدون وَ أَخِي نصب عطفاً على، نفسي أو على إسم، أن و قيل مرفوع عطفاً على الضمير في أملك أَرْبَعِينَ سَنَةً ظرف لمحرمة فالتحريم على هذا مقدر و يَتَبَهُونَ (يتيهون) حال من الضمير المجرور فَلَا تَأْسُ ألف تأساً بدل من الواو لأنه من الأسى الذي هو الحزن و تشنيته، أسوان يقال رجل أسوان وأسيان.

### ◀ التفسير

وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ  
أي و أذكروا يا محمد إذ قال موسى لقومه و هم بنو إسرائيل يَا قَوْمِ أذكُرُوا  
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ الواو للعطف فهو متصل بقوله: وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي  
إِسْرَآئِيلَ و أنما قال موسى لهم ذلك لأن النعمة توجب الشكر فكأنه قال إذكروا  
نعمة الله و أشكروا عليها ثم بيّن لهم النعمة التي من الله بها عليهم و هي ثلاثة.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

الجلد السادس

أحدها قوله: **إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ** وذلك لأنهم من أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وهؤلاء من أكابر الأنبياء وأما عبّر عنه بالنعمة لأن طهارة المولد وشرافة النسب من أعظم النعم.

ثانيها قوله: **وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا قِيلَ** معناه سخر لكم من غيركم خدماً يخدمونكم وقال قتادة لأنهم أول من سخر لهم الخدم من بني إسرائيل وملكوا، وقال السدي معناه، وجعلكم أحراراً تملكون أنفسكم بعد ما كنتم في أيدي القبط بمنزلة أهل الجزية فينا ولا يغلبكم على أنفسكم غالب.

وقال آخرون أن كل نبي ورسول فهو ملك لأنه يملك التصرف فيهم و نافذ الحكم عليهم ولا نعني بالملك إلا هذا فكل رسول ملك ولا عكس، وقيل أطلق عليهم الملك لأن أسلافهم كانوا كذلك وقد يقال فيمن حصل فيهم ملوك أنتم ملوك على سبيل الإستعارة، أقول قال الراغب في المفردات، الملك هو المتصرف بالأمر والنهي في الجمهور يختص بسياسة الناطقين ولهذا يقال ملك الناس ولا يقال ملك الأشياء والملك ضربان، ملك هو التملك والتولي، و ملك هو القوة على ذلك تولّى أو لم يتول فمّن الأول قوله أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها.

من الثاني قوله: **إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا** فجعل النبوة مخصوصة و الملك عاماً فإن معنى الملك ها هنا القوة التي بها يترشح للسياسة لا أنه متولّي للأمر فذلك مناف للحكمة كما قيل لا خير في كثرة الرؤساء إنتهى كلامه.

فعلى هذا معنى قوله: **وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا** جعلكم أقوياء على التملك و التولي، ولذلك قال بعضهم أن الملك إسم لكل من يملك السياسة إما في نفسه و ذلك بالتمكين من زمام قواه و صرفها عن هواها، وأما في غيره سواء تولّى ذلك أم لم يتول و محصل الكلام أن الله تعالى أخرجكم من الحقارة و الذلة وجعلكم أقوياء مسلطين على القبط فكونهم ملوكاً كناية عن قدرتهم و إستيلائهم.

ثالثها قوله: **وَ أَتُكْمُ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ** أي وآتاكم الله من النعم ما لم يؤت أحداً من العالمين، من اجتماع هذه الأمور وكثرة الأنبياء فيهم و الآيات التي جاءتهم، من إنزال المَنَّ والسَّلوى عليهم و فلق البحر لهم، و إهلاك عدوهم، و إخراج المياه العذبة من الحجر و تظليل الغمام فوق رؤوسهم و الجمع بين الملك و النبوة و أمثال ذلك من الآيات الباهرة. و المقصود من ذكر النعم هو أنه يجب على صاحب النعمة عقلاً و نقلاً الشكر عليها:

قال الله تعالى: **وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** (١).

قال الله تعالى: **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** (٢).

و حيث أن قوم موسى لم يتعظوا بمواعظ نبيهم فلم يشكروا ربهم على ما آتاهم الله، ضربت عليهم الذلة و المسكنة فباءوا بغضبٍ من الله و سيأتي تفصيل الكلام فيهم إن شاء الله.

**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ** لَمَّا وَعَظَهُمْ وَذَكَرَهُمْ بِالنَّعْمِ قَالَ لَهُمْ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ.

اختلفوا في الأرض المقدسة، فقال قوم أنها بيت المقدس. و قال قوم هي دمشق و فلسطين و بعض الأردن. و قيل هي الشام، و قال مجاهد هي أرض الطور، و أنما سُميت بالمقدسة و هي في اللغة المطهرة لأنها طهرت من الشرك و جعلت مسكناً و قراراً للأنبياء و المؤمنين.

و قيل أن إبراهيم عليه السلام لَمَّا صعد جبل لبنان قال الله تعالى له أنظر فما أدركه بصرك فهو مقدس و هو ميراث ذريتك و لَمَّا خرج قوم موسى من مصر و عدهم

اللَّهُ إِسْكَانَ أَرْضِ الشَّامِ وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَسْمُونَ أَرْضَ الشَّامِ أَرْضَ الْمَوَاعِيدِ  
ثُمَّ بَعَثَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا مِنَ الْأَمْنَاءِ لِيَتَجَسَّسُوا لَهُمْ عَنْ أَحْوَالِ تِلْكَ  
الْأَرْضِ فَلَمَّا دَخَلُوا تِلْكَ الْبِلَادَ رَأَوْا أَجْسَامًا عَظِيمَةً هَائِلَةً فَرَأَاهُمْ وَاحِدٌ مِنْ  
أَوْلِيكَ الْجَبَّارِينَ فَأَخَذَهُمْ وَجَعَلَهُمْ فِي كَمِّهِ مَعَ فَاكِهَةٍ كَانَتْ قَدْ حَمَلَهَا مِنْ بَسْتَانِهِ  
وَأَتَى بِهِمْ الْمَلِكَ فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ مَتَّعِجِبًا لِلْمَلِكِ هَؤُلَاءِ يَرِيدُونَ قِتَالَنَا  
فَقَالَ الْمَلِكُ أَرْجِعُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ وَأَخْبِرُوهُ بِمَا شَاهَدْتُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا قَوْلَهُ إِلَّا  
رَجُلَانِ مِنْهُمْ وَهُمَا يُوشَعَ بْنِ نُونٍ وَطَالِبُ بْنُ لُوقْنَا فَانْهَمَا سَهْلًا الْأَمْرَ وَقَالَا هِيَ  
بِلَادٌ طَيِّبَةٌ كَثِيرَةُ النِّعَمِ.

وَالْأَقْوَامُ وَأَنْ كَانَتْ أَجْسَامُهُمْ عَظِيمَةً إِلَّا أَنَّ قُلُوبَهُمْ ضَعِيفَةٌ وَأَمَّا الْعِشْرَةُ  
الْبَاقِيَةُ فَقَدْ أَوقَعُوا الْجِبِينَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ حَتَّى أَظْهَرُوا الْإِمْتِنَاعَ مِنْ غَزْوِهِمْ  
فَقَالُوا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَا لَنْ نَدْخُلَهَا الْخَ وَقَوْلُهُ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ، يَعْنِي فِي اللَّوْحِ  
الْمَحْفُوظِ ثُمَّ نَهَا هُمْ مُوسَى عَنْ الْمَخَالَفَةِ فَقَالَ لَهُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَيَّ  
أَذْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ أَيَّ لَا تَرْجِعُوا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ إِلَى مَعْصِيَةٍ.  
وَقِيلَ مَعْنَاهُ لَا تَرْجِعُوا عَنِ الْأَرْضِ الَّتِي أَمَرْتُمْ بِدُخُولِهَا وَفِي قَوْلِهِ: فَتَنْقَلِبُوا  
خَاسِرِينَ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ كَانَ فَرَضٌ عَلَيْهِمْ دُخُولُهَا كَمَا فَرَضَتِ الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالزَّكَاةُ وَ  
الْحَجُّ فَلَمَّا لَمْ يَفْعَلُوا فَقَدْ خَسَرُوا الثَّوَابَ.  
الثَّانِي: أَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ خَسْرَانَ حَظَّهُمْ كَالْخَسْرَانِ فِي الْبَيْعِ بِذَهَابِ رَأْسِ  
الْمَالِ.

أَقُولُ وَقَدْ وَقَعَ نَظِيرُ هَذَا فِي هَذِهِ الْأَمَةِ حَيْثُ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ  
أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ  
شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ<sup>(١)</sup>.

وقد مرَّ الكلام فيها وقلنا هناك أنه أخبار من الله تعالى عما سيقع في هذه الأمة إنقلابهم بعد الرسول على أعقابهم بتركهم وصية الرسول في خليفته ووصيه ومتابعهم الهوى في دينهم وديناهم وفعلهم المنكرات وتركهم الخيرات وأمثال ذلك من الأمور التي في رأسها مخالفة الرسول في أوامره ونواهيه، وهكذا كان قوم موسى فأنهم خالفوا نبيهم وإتبعوا أهوائهم فلا محالة إنقلبوا خاسرين فماتوا في التيه ولم يصلوا الى شيء من منافع الدنيا وثواب الآخرة وذلك هو الخسران المبين وهذه الأمة أعني بها أمة الإسلام أيضاً وقعت في تيه الضلالة والحيرة بعد نبيه، وماتوا فيه في الحقيقة فسلك كل طائفة منهم مسلكاً غير ما سلكه الآخر حتى تشعبوا وتفرقوا أيادي صبا ألا ترى أن الأمة إفتقرت على أكثر من سبعين فرقة كلهم في النار إلا فرقة واحدة كما أخبر به الرسول في حياته وقد ثبت أن الفرقة الناجية من خسران الدنيا والآخرة هي الفرقة التي تابع الرسول في حياته ومماته وإتبعته أوامره ونواهيه بمتابعة أوصيائه الذين أوصى الرسول بهم في غدир خم وغيره من المواطن الشيعة الإمامية الاثنى عشرية ولا غرو فيه فأَنَّ الله تعالى يقول: **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** <sup>(١)</sup> صدق الله العلي العظيم.

**قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُكَ لَنَذْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ**

أي أن قوم موسى قالوا له أن في الأرض المقدسة التي أمرتنا بدخولها قوماً جبارين، والجبار فعال من جبره على الأمر بمعنى أجبره عليه وهو العاني الذي يجبر الناس على ما يريد.

وقيل أنه مأخوذ من قولهم نخلة جبارة اذا كانت طويلة مرتفعة لا تصل الأيدي إليها ولذلك يقال رجل جبار اذا كان طويلاً عظيماً قوياً تشبيهاً

في القرآن  
في تفسير القرآن

جزء ٦

الجلد السادس

بالجبارين من النخل و حيث أَنَّ القوم كانوا في غاية القوة و عظم الأجسام فسمُّوهم جبارين.

ولذلك قال قوم موسى لن ندخلها أي لن ندخل الأرض المقدسة أبداً فأَنَّ كلمة، لن، لنفي الأبد حتَّى يخرجوا منها، أي لن ندخلها حتَّى يخرج الجبارين منها فان يخرجوا منها، و خلت الأرض المقدسة منهم، فأنا داخلون، فيها هذا كلام أكثر القوم الَّذِينَ بعثهم موسى للتَّجسس.

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ اِخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الْمَرَادِ بِالرَّجُلَيْنِ مِنْ هُمَا، عَلَى قَوْلَيْنِ:

**أحدهما:** قول المشهور بين المفسرين وهو أَنَّهُمَا كانا من جملة النِّبَاء الَّذِينَ بعثهم موسى لتَّعرف خبر القوم قالوا هما يوشع بن نون، و كالب و قيل كلاب بن يوفنا و به قال ابن عَبَّاس و مجاهد و السُّدي و أمثالهم.

**ثانيهما:** قال الضَّحَّاك هما رجلان كانا في مدينة الجبارين و كانا على دين موسى مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ قِيلَ أي يخافون الله و قال أبو عَلِيٍّ يخافون الجبارين أي لم يمنعهم الخوف من الجبارين أَن قالوا الحقَّ، أَنعم الله عليهما، بالتوفيق للطاعة و قيل بالإسلام.

**أقول** من قرأ يَخَافُونَ بفتح الياء كما هو المشهور إختار القول الأوَّل وهو أَنَّهُمَا كانا من جملة النِّبَاء الَّذِينَ كانوا يخافون الجبارين، و من قرأ بضم الياء بصيغة المجهول، إختار القول الثاني وهو أَنَّهُمَا كانا في مدينة الجبارين على دين موسى أَنعم الله عليهما بالإيمان و على التقديرين هما اللذان قالَا ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ، على الجبارين أي لا تخافوا منهم فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ولذلك قال الله تعالى حكاية عنهما وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنتُمْ مَوْمِنِينَ و من المعلوم أَنَّ التَّوَكُّلَ مع الإيمان يوجب النَّصْر و الغلبة:



قال الله تعالى: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ<sup>(٤)</sup> والآيات كثيرة جداً.

قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ هذا إخبار عن قوم موسى أنهم قالوا لن ندخلها أي لن ندخل الأرض المقدسة أبداً ما داموا فيها، أي مادام الجبارون فيها.

و ذلك لأن قوم موسى خافوا من قتال الجبارين لعظم أجسامهم وشدة بطشهم ولم يثقوا بوعد نبئهم ولذلك قالوا لموسى، اذهب أنت وربك فقاتلا هؤلاء والجبارين أنا هاهنا قاعدون، أي قاعدون عن الحرب قال بعض المفسرين أن هذا الكلام يدل على أن قوم موسى كانوا قائلين بالتجسيم في حقه تعالى ولذلك نسبوا الذهاب والمجيئ اليه فقالوا اذهب أنت وربك. والحق أن الكلام لا يدل عليه إذ من المحتمل أن لا يكون مرادهم حقيقة الذهاب بل هو كناية والتقدير اذهب أنت وربك الذي معين بزعمك. وقال بعضهم كلامهم هذا كناية عن تمردهم ومخالفتهم لموسى وقعودهم عن الجهاد في سبيل الله.

قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَقَوْمِ الْفَاسِقِينَ

أي لما سمع موسى مقاتلتهم، قال رب أني لا أملك إلا نفسي وأخي، هارون أنما قال موسى ذلك لأن القوم خالفوه وقالوا لن ندخلها أبداً، والمعنى أني لا أملك إلا نفسي وأخي في طاعتك وأنما قلنا ذلك لأن العبد لا يملك نفسه

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

حقيقة لأن الأصل في الملك القدرة والمالك هو القادر ومن حق المملوك أن يكون مقدوراً عليه أو في حكمه ومحصل الكلام هو أن العبد لا يكون مالكا لنفسه حقاً بل يكون مالك تصريف نفسه في طاعة الله أو معصيته فالإسناد مجازي لا حقيقي.

وقوله: أخى إشارة إلى أن أخاه أيضاً مطيع لأمر مولاه ونهيه فكان كالقادر عليه ثم أن موسى دعا على قومه وطردهم عن نفسه وقال فأفرق بيننا وبين القوم الفاسقين، أي أنهم بسبب تمردهم ومخالفتهم لنبيهم صاروا فاسقين إذ لا معنى بالفسق إلا هذا ومن كان فاسقاً لا يصلح للمصاحبة والمعاشرة ولا سيما للأنبياء فهو كقوله نجني من القوم الظالمين فاستجاب الله دعاء موسى على القوم.

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ

أي قال الله تعالى لموسى فأنها، أي الأرض المقدسة (محزمة عليهم) أي على القوم أربعين سنة وإختلفوا في هذا التحريم على قولين: أحدهما: أنه تحريم منع كما قال الشاعر:

حالت لتصرعني فقلت لها أقصرى      أني إمرو صرعي عليك حرام  
أي أنا فارس فلا يمكنك صرعى.

ثانيهما: أنه تحريم تعبّد وأكثر المفسرين على الأول وقوله يتيهون في الأرض، أي يتحيرون فإن أصل التيه التّحير الذي لا يهتدي لأجله الخروج عن الطريق إلى الغرض المقصود ثم أنهم إختلفوا في كيفية التّحير.

فقال قوم يجوز أن يكونوا أمروا بأن يطوفوا فيه أربعين سنة يتيهون في الأرض يعني في المسافة التي بينهم وبينها.

وقال آخرون كانوا يصبحون حيث أمسوا ويمسون حيث أصبحوا.

وقال أبو علي قد يكون ذلك بأن يحوّل الله الأرض التي هم عليها اذا ناموا فيردّهم الى المكان الذي ابتدأوا منه، وقد يكون بغير ذلك من الإشتباه و الأسباب المانعة من الخروج عنها على طريق المعجزة الخارقة عن العادة. قال بعض المفسرين لم يمت موسى في التّيه.

قال الآخرون مات موسى فيه على علم منه فيه و أمّا هارون فأثّه مات قبل موسى في التّيه وكان أكبر من موسى وإستخلف موسى يوشع بعده و أمّا قوله: **فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** فهو خطاب لموسى أمره أن لا يحزن على هلاكهم لفسقتهم و الله أعلم بكلامه.



وَ أَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا  
فَقَبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ  
لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)  
لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ  
يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ  
الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ  
فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَ ذَلِكَ جَزَاءُ  
الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ  
فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا  
يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ  
أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا  
الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ  
النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي  
إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ  
فَسَادٍ بِغَيْرِ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا  
وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ  
جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ  
ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)

◀ اللغة

وَ أَتْلُ أَمْرٌ مِنْ تَلَى يَتْلُو.  
نَبَأُ، النُّبَأُ الْخَبَرُ.

بَسَطَتْ، البَسَطَ هو المَدَّ ضِدَّ الْقَبْضِ.

أَنْ تَبَوَّءَ مِنْ بَاءٍ يَبْوُءُ، إذا رجع إلى المباءة وهي المنزل.

إِثْمِي، الإِثْمُ الخطيئة والذنب.

فَطَوَّعَتْ أَي زَيَّنَتْ وَقِيلَ أَي سَاعَدَتْ يُقَالُ طَاعَ لِفُلَانٍ كَذَا أَي أَتَاهُ طَوْعًا.

سَوْءَةٌ أَصْلُ السَّوِّ التَّكْرَهُ تَقُولُ سَاءَ هَذَا يَسُوءُهُ إِذَا أَتَاهُ بِمَا يَكْرَهُ.

### ◁ الإعراب

أَبْنَى أَدَمَ الهمزة في، إِبْنِي، همزة وصل كما هي في الواحد إِذْ قَرَّبْنَا ظَرْفَ لِبْنَاءٍ أَوْ حَالٍ مِنْهُ وَبِالْحَقِّ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي، أَتْلُ، أَي مُحَقَّقًا أَوْ صَادِقًا قَرَّبَانَا هُوَ فِي الْأَصْلِ مُصَدَّرٌ وَقَدْ وَقَعَ هُنَا مَوْضِعُ الْمَفْعُولِ بِهِ وَالْأَصْلُ إِذْ قَرَّبْنَا قَرْبَانَيْنِ لَكِنَّهُ لَمْ يَشَأَنَّ لِأَنَّ الْمَصْدَرَ لَا يَتَنَبَّى وَقِيلَ تَقْدِيرُهُ إِذْ قَرَّبَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَرْبَانًا بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَي تَرْجِعُ حَامِلًا لِلِإِثْمَيْنِ كَيْفَ يُؤَارِي كَيْفَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي، يُؤَارِي وَ الْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ نَصَبِ بِيرِي وَ الْأَلْفُ فِي وَتَلَّتْنِي بَدَلُ مِنْ بَاءِ الْمُتَكَلِّمِ فَأُؤَارِي مَعْطُوفٌ عَلَى، أَكُونُ مَنْ قَتَلَ مَنْ شَرْطِيَّةٌ بِغَيْرِ بَغِيرِ حَالٍ مِنَ الضَّمِيرِ فِي، قَتَلَ بِغَيْرِ مَعْطُوفٍ عَلَى نَفْسٍ وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَرْفٌ لِمُسْرَفُونَ.

### ◁ التفسير

قالوا في وجه إتصال هذه الآيات بما قبلها أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يَبَيِّنَ أَنَّ حَالَ الْيَهُودِ فِي الظُّلْمِ وَنَقْضِ الْعَهْدِ وَإِرْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ كَحَالِ إِبْنِ آدَمَ قَابِيلَ فِي قَتْلِهِ أَخَاهُ هَابِيلَ وَ مَا عَادَ عَلَيْهِ مِنَ الْوَبَالِ بِتَعْدِيهِ فَأَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ أَخْبَارَهُمَا وَ فِيهِ تَسْلِيَتُهُ لِلنَّبِيِّ لِمَا نَالَ مِنْ جَهْلِهِمْ بِالتَّكْذِيبِ فِي جُحُودِهِ وَ تَبَكَيْتِ الْيَهُودُ قَالَهُ فِي التَّبْيَانِ وَ أَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبْنَا قُرْبَانًا أَي وَأَتْلُ يَا مُحَمَّدُ عَلَى النَّاسِ خَبَرَ قَابِيلَ وَ هَابِيلَ إِبْنَيْ آدَمَ وَ مَا جَرَى

منهما إذ قَرَّبَا قرباناً، القَرْبَان بَضَمُ القاف على وزن فعلان من القرب كالفرقان من الفرق والعدوان من العدو والكفران من الكفر وهو ما يقصد به القرب من رحمة الله قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد و قتادة وأكثر المفسرين أنَّ المتقربين كانا ولدي آدم لصلبه، قابيل وهابيل وقال الحسن وأبو مسلم والزجاج هما من بني إسرائيل لأنَّ علامة تقبُّل القربان لم تكن قبل ذلك و استدلوا على الأخير بقوله تعالى: **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ وَجَهِ الإِسْتِدْلَالِ هُوَ أَنَّ صُدُّورَ الذَّنْبِ مِنْ أَخْدِ** إِبْنِي آدَمَ لَا يَصْلَحُ أَنْ يَكُونَ سَبَباً لِإِجَابِ الْقَصَاصِ عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَهَذِهِ بِخِلَافِ صُدُورِ الذَّنْبِ مِنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فَإِنَّهُ يَصْلَحُ أَنْ يَكُونَ سَبَباً لَهُ زَجْراً لَهُمْ عَنِ الْمَعَاوِدَةِ إِلَى مِثْلِ هَذَا الذَّنْبِ.

**أَقُولُ الْحَقُّ أَنَّهُمَا** إِبْنَا آدَمَ مِنْ صِلْبِهِ وَهُمَا قَابِيلُ وَهَابِيلُ وَعَلَيْهِ جَمْهُورُ الْمَفْسِّرِينَ وَمَا ذَكَرَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَأَبُو مُسْلِمٍ وَالزَّجَّاجُ مِنَ الْاَوْهَامِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ الْإِعْتِمَادُ عَلَيْهِ أَمَّا أَوَّلًا فَلَأَنَّ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مُخَالَفٌ لِقَوْلِ الْجَمْهُورِ. **ثَانِيًا:** أَنَّ قَوْلَهُ إِبْنِي آدَمَ، ظَاهِرٌ فِي أَبِي الْبَشَرِ فَأَنَّ، آدَمَ، عِنْدَ الْإِطْلَاقِ مَنْصَرَفٌ إِلَيْهِ.

**ثالثاً:** كَيْفَ يَعْقِلُ أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي عَهْدِ مُوسَى أَوْ قَبْلَهُ يَجْهَلُ صُورَةَ الدَّفْنِ حَتَّى يَقْتَدِيَ بِالْغُرَابِ وَأَمَّا كَوْنُهُ سَبَباً لِإِجَابِ الْقَصَاصِ عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ فَالْوَجْهُ فِيهِ هُوَ أَنَّ قَابِيلَ كَانَ مُؤَسَّساً لِلظُّلْمِ وَالْقَتْلِ وَالْمَقْصُودُ أَنَّ بَنِي إِسْرَآئِيلَ إِقْنَدُوا بِأَسْلَافِهِمْ فِي الظُّلْمِ وَأَنَّهُ لَيْسَ هَذَا أَوَّلُ قَارُورَةٍ كَسَرَتْ فِي الْإِسْلَامِ فَبَيَّنَّا فِي ذِكْرِ الْقِصَّةِ مَوْعِظَةً لِجَمِيعِ أَوْلَادِ آدَمَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَعَ ذَلِكَ فِيهَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ فِي حَقِّ الظَّالِمِ وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ لِنَقْلِ الْقِصَّةِ لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ وَغَيْرِهِمْ وَهُوَ وَاضِحٌ عَلَى الْمُتَأَمِّلِ اللَّيِّيبِ وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ الْقِصَّةِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمَفْسَّرُونَ هِيَ أَنَّ هَابِيلَ كَانَ صَاحِبَ غَنَمٍ وَقَابِيلَ كَانَ صَاحِبَ زَرْعٍ فَقَرَّبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَرْبَانًا فَطَلَبَ هَابِيلُ أَحْسَنَ شَاةٍ فِي غَنَمِهِ وَجَعَلَهَا قَرْبَانًا وَطَلَبَ

هابيل شر حنطة كانت في زرعه فجعلها قرباناً ثم تقرب كل واحد منهما بقربانه الى الله فنزلت نار من السماء فاحتملت قربان هابيل ولم تحمل قربان قابيل فعلم قابيل أن الله تعالى قبل قربان أخيه ولم يقبل قربانه فحسده وقصد قتله. والوجه الآخر في سبب وقوع النزاع بينهما ما ذكروه أيضاً وهو أن أمهما حواء كانت يولد لها في كل بطن غلام و جارية أي ذكر وأنثى وكان آدم يزوج البنت من بطن بالغلام من بطن آخر فولد لها قابيل وتوأمته وبعدهما هابيل وتوأمته وكانت توأمت قابيل أحسن الناس وجهاً فأراد آدم أن يزوجهما من هابيل فأبى قابيل ذلك وقال أنا أحق بها وهو أحق بأخته وليس هذا من الله تعالى و أنما هو رأيك فقال لهما آدم <sup>عليه السلام</sup> قربا قرباناً فأيكما قبل قربانه زوجتها منه فقبل الله تعالى قربان هابيل فقتله قابيل حسداً له.

أما الوجه الأول: فلا إشكال فيه.

أما الثاني: فلا يساعده العقل ولا النقل.

وقد بسطنا الكلام في شناعة هذا القول عند قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً<sup>(١)</sup> و قلنا هناك أن هذا غير معقول ولو كان كذلك لما رغب عنه رسول الله <sup>صلى الله عليه وآله</sup> وما كان آدم إلا على دين رسول الله وكيف يعقل أن الله خلق صفوته وأحباءه وأنبياءه ورسله والمؤمنين والمؤمنات من حرام وأنه لم يكن له من القدرة ما يخلقهم من حلال وقد أخذ ميثاقهم على الحلال الطاهر الطيب ما لهم قاتلهم الله أننى يؤفكون ثبت أن الله تعالى عز وجل أمر القلم فجرى على اللوح المحفوظ بما هو كائن الى يوم القيامة قبل خلق آدم بألفي عام وأن كتب الله كلها فيما جرى فيه القلم في تحريم الأخوات ثم أن هذه الكتب الأربعة المشهورة في هذا العالم أعني بها التوراة والإنجيل والزبور والقرآن أنزلها الله من اللوح المحفوظ على رسله منها التوراة على موسى و

الزبور على داوود والإنجيل على عيسى والقرآن على محمد ليس فيها تحليل من ذلك حقاً فمن قال أو يقول بهذه المقالة الشنيعة الرديئة فهو في الحقيقة قوئ حجاج المجوس عمداً أو جهلاً على ما مرّ الكلام فيه.

أن قلت فما كان سبب وقوع النزاع بين قابيل وهايل حتى إنجر الأمر إلى القربان فوق ما وقع من القتل.

قلت سبب النزاع وعلته على ما يظهر من الأخبار والأثار المروية عن أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، هو أن آدم عليه السلام أوصى إلى ابنه هابيل وجعله وصياً وخليفة بعد موته على أولاده فقد روي عن الصادق عليه السلام أن الله تعالى أوحى إلى آدم أنه قد سبق في علمي أن لا أترك الأرض من عالم يعرف به ديني وأن أخرج ذلك من ذريتك فأنظر إلى إسمي الأعظم وإلى ميراث النبوة وما علمتك من الأسماء كلها وما يحتاج إليه الخلق من الأثرة عني فأرفعه إلى هابيل قال عليه السلام ففعل ذلك آدم بهابيل فلما علم قابيل ذلك من فعل آدم غضب فأتى آدم فقال له يا أبه ألسنت أكبر من أخي وأحق بما فعلت به فقال آدم يا بني أن الأمر بيد الله يؤتية من يشاء وأن كنت أكبر ولدي فإن الله خصه بما لم يزل له أهلاً فإن كنت تعلم أنه خلاف ما قلت ولم تصدقني فقرباً قرباناً فأيكما قبل قربانه فهو أولى بالفضل من صاحبه القربان في ذلك الوقت تنزل النار فتأكله فخرجاً فقرباً قرباناً كما ذكره الله في كتابه وقال:

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا

وكان قابيل صاحب زرع فقرب قمحاً نسياً رديئاً وكان هابيل صاحب غنم فقرب كبشاً سميناً من خيار غنمه فأكلت النار قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل فأتاه إبليس لعنه الله فقال يا قابيل لو ولد لكما ولد وكثر نسلكما إفتخر نسله على نسلك بما خصه به أبوك ولقبول النار قربانه وتركها قربانك وأنت أن قتلت لم يجد أبوك بداً من أن يخلصك بما رفعه إليه قال فوثب هابيل فقتله الحديث (١).



أقول هذا هو الوجه الذي صار باعثاً و سبباً على قتل قابيل هابيل لا ما ذكروه من الموهومات التي اخترعتها أنفسهم و أما قوله: بِالْحَقِّ أي بالغرض الصحيح و هو تقبيح الحسد الذي صار سبباً للقتل.

و قيل معناه ليعتبروا به و لا يحملوه على اللعب و الباطل مثل أكثر الأفاضل التي لا أصل لها و إنما هي لهو الحديث.

وقول ثالث: أي تلاوة متلبسة بالصدق و الحق موافقة لما في التوراة و الإنجيل فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا و هو هابيل وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ و هو قابيل حيث لم تأكل النار قربانه كما مرَّ قَالَ لَا قَتْلَنَّاكَ وَ نُون التأكيد تدل على أن القتل قطعي قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أي قال هابيل في جواب قابيل لما هدده بالقتل، إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، أي شرط قبول العمل عند الله التقوى فمن لا يتصف بالتقوى لا يقبل عمله عند الله و أنت كذلك و بعبارة أخرى كأنه قال هابيل لقابيل و ما ذنبي إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، نقل القرطبي في تفسيره عند هذه الآية عن ابن عطية أنه قال المراد بالتقوى هنا إتياء الشُّرك بإجماع أهل السنة فمن إتقاه و هو موحد فأعماله التي تصدق فيها نية مقبولة إنتهى كلامه.

ولقائل أن يقول يلزم من كلام القرطبي و ابن عطية أن تكون أعمال جميع المسلمين مقبولة لأنهم موحدون غير مشركين و لا يقول بهذه المقالة عاقل فضلاً عن مسلم يدعي الفضل أهكذا يفسر كتاب الله أليس هذا من التفسير بالرأي الذي قال رسول الله من فسر القرآن برأيه فليتبوأ بمقعده من النار، ثم نقول من فسر كلام الله هكذا فهو لم يعرف الإسلام و لا التقوى أصلاً و ذلك لأن المراد بالتوحيد عند القرطبي و ابن عطية و جمهور العامة هو الإقرار بكلمة لا إله إلا الله فمن قالها فهو موحد فنقول هذا موحد، وكل موحد أعماله مقبولة فأعمال هذا مقبولة، ثم يقال لهم أليس معاوية و يزيد و عبد الملك و أمثالهم من موحدين بزعمكم فأن قالوا لا فيلزم أن يكونوا مشركين و هم لا

يقولون به بل سموهم بأمر المؤمنين ولا واسطة بين الكفر والتوحيد، وإذا كانوا موحدين فأعمالهم مقبولة عند الله فيكون معاوية مصيباً في قتل حجر بن عدّي وأمثاله من الصّالحاء مأجوراً عليه وهكذا يزيد مأجور مصاب في قتله الحسين عليه السلام وغيره من الصّالحاء وعبد الملك مأجور مصاب في جنائياته التي يعجز القلم عن ذكرها وذلك لأنهم عملوا والمفروض كونهم موجددين وأعمالهم مقبولة وإذا كان العمل مقبولاً فيؤجر عليه قطعاً نعوذ بالله من هذه العقائد الباطلة.

لَئِنْ بَسَطْتُ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن هابيل حين هدّاه أخوة قابيل بالقتل على ما مرّ في الآية السابقة حيث قال لأخيه لأقتلنك فقال هابيل في جوابه لئن بسطت، أي مددت، إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأجل القتل وذلك لأنني أخاف الله ربّ العالمين لأنّ الله تعالى نهانا عن القتل بغير جرم يوجهه بقوله: **إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** كأنّه تعليل لعدم بسط اليد للقتل دليل على إيمان هابيل لأنّ المؤمن يخاف الله بأيمانه وعلى عدم إيمان قابيل بالله واليوم الآخر وفي المقام بحث وهو أنّ الدّفاع عن النفس واجب عقلاً وشرعاً فلو كان هابيل عاجزاً عن الدّفاع فكيف قال ما أنا بباسط يدي إليك، ولم يقل أنا عاجز عن الدّفاع أو أنا لا أقدر على قتلك مثلاً فقوله ما أنا بباسط يدي إليك، دليل على قبوله الظلم وأنه تسليم للقتل وأن كان قادراً على الدّفاع عن نفسه فكيف قال ما أنا بباسط يدي إليك مع أنّه كان واجباً عليه الدّفاع عن نفسه عقلاً وشرعاً وقد أجابوا عنه بوجوه:

**أحدها:** أنّ معنى قول هابيل، لئن بدأتني بقتل لم أبداك لا على أنّي لا أدفعك عن نفسي إذا قصدت قتلي هذا قول ابن عباس وجماعة وقيل أنّه قتله غيلة بأن القى عليه وهو نائم صخرة شدّخه بها.

**ثانيها:** قال الحسن ومجاهد أنه كان كتب عليهم إذا أراد الرجل قتل رجلاً تركه ولم يمتنع منه وكان عمر وبن عبید يجيز الوجهين نقل هذين القولين في التبيان وأختار القول الأخير فقال وهو الأقوى.

**الثالثها:** ما ذكره القرطبي في تفسيره وأختاره وهو أن هابيل كان أشد قوة من قابيل ولكنه تخرج ومن هاهنا يقوى أن قابيل إنما هو عاص لا كافر لأنه لو كان كافراً لم يكن للتخرج هنا وجه وإنما وجه التخرج في هذا أن المتخرج يأبى أن يقاتل موخداً ويرضى بأن يظلم ليجازي في الآخرة.

**رابعها:** ما ذكره أيضاً وهو أنه أراد لئن بسطت إلي يدك ظلماً فما أنا بظالم إنني أخاف الله رب العالمين.

**خامسها:** ما ذكره الرازي في تفسيره، قال يحتمل أن يقال لاح للمقتول به امارات تغلب على الظن أنه يريد قتله فذمر له هذا الكلام على سبيل الرعظ والصيحة يعني إننا لا أجوز من نفسي أن أبدأك بالقتل وإنما لا أفعله خوفاً من الله وإنما ذكر له هذا الكلام قبل إقدام القاتل على قتله وكان غرضه منه تقبيح القتل في العمد في قلبه ولهذا يراوي أن قابيل صبر حتى نام هابيل فضرب رأسه بحجر كبير فقتله.

**سادسها:** وجوب الدفع عن النفس أو يجوز أن يختلف باختلاف الشرائع و قال مجاهد أن الدفع عن النفس ما كان مباحاً في ذلك الوقت.

**أقول** الوجوه المذكورة في التفاسير كثيرة جداً ولا نحتاج إلى ذكر جميعها والاستقصاء فيها بل فيما ذكرناه كفاية لأولي الدراية والحق أن هذه الوجوه لا فائدة فيها لأنها ناشئة عن قلة التدبر في الآية فمن تدبر فيها حق التدبر علم أن أصل الإشكال مرتفع من رأسه وبعبارة أخرى ليس في الآية إشكال حتى نحتاج إلى الجواب عنه وذلك لأن قول هابيل لئن بسطت إلي يدي لا يبدل على تسليم هابيل للقتل وأنه لم يدفع عن نفسه القتل حتى يقال قد وجب بحكم العقل والشرع الدفع عن

النفس بل يدل على الدّفاع بقصد القتل ألا ترى أنّه قال ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلك ولم يقل ما أنا بباسطٍ يدي إليك أصلاً حتّى يقال ما يقال فقله يدل على عدم بسط اليد بقصد القتل لا مطلقاً المعلوم أنّ الدّفاع عن النفس بقصد قتل الظّالم لا يجوز وعليه فمعنى الآية لئن بسطت إلي يدك لأجل قتلي ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأجل قتلِكَ فالمنفَى في قول هابيل هو عدم بسط اليد بقصد القتل وأما إذا كان بقصد الدّفاع فالكلام لا يدل عليه وهذا أمرٌ مذمومٌ عقلاً وشرعاً في جميع الشّرائع هذا ما خطر ببالي في معنى الآية والله العالم بحقيقة كلامه.

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ.

اختلفوا في معنى قوله: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ، بعد إتفاقهم على أنّ هذا الكلام أخبار من الله تعالى عن هابيل المقتول، أي أنّ هابيل قال لأخيه قابيل كذلك، فقال قوم معناه إِنِّي أريد أن ترجع عن إثم قتلي أن قتلتنى وإثمك الذي كان منك قبل قتلي وأختاره جماعة منهم ابن عباس وابن مسعود والحسن وقتادة ومجاهد وغيرهم ونقل عن الزجاج أنّه قال، أي وإثمك الذي من أجله لم يتقبّل قربانك، وقيل المراد بإثمى الأول، إثم قتلي أن قتلتنى وإثمك الذي قتلتنى فأضافه تارة إلى المفعول وأخرى إلى الفاعل لأنّه مصدر يصح ذلك فيه.

وقال البيضاوي هو تعليل ثان للإمتناع عن المعارضة والمقاومة والمعنى أنّما إستسلم لك إرادة أن تحمل إثمى لو بسطت إليك يدي وإثمك ببسط يدك إليّ.

وقال بعضهم معناه أَنِّي أريد أن تبوء بإثمى لو قاتلتك وقتلتك وإثم نفسك في قتالي وقتلي.

أقول لا شك أنّ في الآية ذكر إثمين:

أحدهما: مضاف الى الياء المتكلم.

ثانيهما: مضاف الى الكاف الخطاب المراد بها قابيل و هذا القدر ممّا لا خلاف فيه بين المفسّرين و أنّما الخلاف في معنى المراد من الإثم في الموضوعين و أنّه كيف أحال الأثمين على أخيه.

أما الثاني: و هو قوله: وَ إِيْمَكَ فهو راجع الى القاتل قطعاً بالإتّفاق لأنّه بسبب القتل صار من الأثمين.

أما الأوّل: و هو قوله: يَأْتِيهِ فهو مورد الخلاف بين المفسّرين فالظاهر أنّ المراد به الإثم التّديري الذي يحصل للدّافع عن نفسه اذا كان الدّفع انجرّ الى القتل اذا أراد الدّافع قتل الباديّ بالظّلم فيما اذا لم يمكن دفع الظّالم إلّا بقتله فذنب هذا القتل على عهدة الباديّ أيضاً لأنّه صار باعثاً على أن يكون الدّافع قاتلاً ففي الحقيقة يكون الظّالم الباديّ متّحماً للإثمين:

إثم، حصل له بسبب كونه قتالاً و إثم حصل له بسبب كونه سبباً لأن يتّصف الدّافع بكونه قاتلاً على تقدير وقوعه و عدم إمكان الدّفع إلّا به هذا ما فهمناه من هذا الكلام و الله أعلم.

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ والمعنى شجعت نفسه على قتل أخيه في قول مجاهد و قال قتادة زينت له نفسه قتل أخيه و قال قوم ساعدته نفسه على قتل أخيه فلمّا حذف حرف الجرّ نصب قوله: قَتْلَ أَخِيهِ وكيف كان فقد قتل قابيل أخيه هابيل و قالوا في كيفية قتله إياه أنّه قتله بصخرة شدخ رأسه بها، قال بعضهم كان هابيل نائماً بعضهم لم يكن نائماً.

قال مجاهد لم يدر قابيل كيف يقتله حتّى ظهر له إبليس في صورة طير فأخذ طيراً آخر و ترك رأسه بين حجرين فشدخه و قابيل ينظر اليه ففعل مثله و قيل هو أوّل قتل كان في النّاس و نقلوا في كيفية القتل أقوالاً كثيرة غير ما ذكرناه

إِلَّا أَنَّهُ لَا دَلِيلَ عَلَى صَحَّتِهَا مِنَ الْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ وَأَمَّا الْمُسْلِمُ الْمَقْطُوعُ بِهِ هُوَ أَنَّ قَابِيلَ قَتَلَ هَابِيلَ بِصَرِيحِ الْقُرْآنِ.  
وَأَمَّا أَنَّهُ كَيْفَ قَتَلَهُ أَوْ أَنَّهُ كَانَ عَالِماً بِكَيْفِيَّةِ الْقَتْلِ أَوْ عَلَّمَهُ الشَّيْطَانُ كَمَا نَقَلْنَاهُ عَنْ مُجَاهِدٍ كُلِّ ذَلِكَ لَا دَلِيلَ عَلَى صَحَّتِهِ وَإِعْتِبَارِهِ (فَأَصْبَحَ) أَيِ فَاصْبَحَ الْقَاتِلُ وَهُوَ قَابِيلُ، مِنَ الْخَاسِرِينَ، بِقَتْلِهِ هَابِيلَ ظُلْماً وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ ثَمَرَةَ الذَّنْبِ وَالْعَصْيَانِ لَيْسَتْ إِلَّا الْخُسْرَانُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قِيلَ أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَيِّتٍ فِي النَّاسِ فَلِذَلِكَ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُوَارِيهِ وَكَيْفَ يَدْفِنُهُ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ غُرَابَيْنِ وَاحِدَهُمَا حَيًّا وَالْآخَرُ مَيِّتٌ وَقِيلَ كَانَا حَيَّيْنِ فَقَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ ثُمَّ بَحَثَ الْحَيُّ الْأَرْضَ فَدَفَنَ فِيهِ الْغُرَابُ الْمَيِّتَ فَفَعَلَ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ قَابِيلُ.

أَقُولُ وَمِنْهُ يَظْهَرُ فَسَادُنَا قِيلَ مِنْ أَنَّ الرَّجُلَيْنِ كَانَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَدْرُونَ كَيْفَ يَدْفِنُونَ أَمْوَاتَهُمْ وَمَعْنَى قَوْلِهِ: فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا أَلْهَمَهُ ذَلِكَ إِذَا لَا يَكُونُ الْغُرَابُ مَكْلَفًا، وَقِيلَ أَكْرَمَ اللَّهُ الْمَقْتُولَ بِأَنْ يَبْعَثَ غُرَابًا حَيًّا عَلَيْهِ التُّرَابَ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ وَقَالَ قَوْمٌ كَانَ مَلَكًا فِي صُورَةِ الْغُرَابِ، وَفِي قَوْلِهِ سَوْأَةَ أَخِيهِ، قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: مَعْنَاهُ جِيفَةُ أَخِيهِ لِأَنَّهُ كَانَ تَرَكَهُ حَتَّى أَنْتَنَ فَقِيلَ لَجِيفَتِهِ سَوْأَةٌ.

الثَّانِي: مَعْنَاهُ عَوْرَةُ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي أَيِ قَالَ قَابِيلُ بَعْدَ مَا رَأَى الْغُرَابَ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ، يَا وَيْلَتَى، قِيلَ فِي الْكَلَامِ حَذْفُ وَالتَّقْدِيرُ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ فَوَارَاهُ ثُمَّ قَالَ الْقَاتِلُ يَا وَيْلَتَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ<sup>(١)</sup> قَالَ بَعْضُ النُّحَوِيِّينَ، يَا وَيْلَتَا وَأَمَّا وَقَعَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى تَنْبِيهِ الْمُخَاطَبِ وَأَنَّ الْوَقْتَ

الَّذِي يدعي هذه الأشياء هو وقتها والمعنى يا ويلتا تعالى أي مَنّي الويل و كذلك يا عجباً معناه مَنّي العجب هذا وقتك وقيل يا أيّها العجب هذا وقتك. وقال سيبويه، الويل كلمة، تقال عند الهلكة، وقيل، الويل وإِذ في جهنّم ومعنى العجز الضّعف فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ أي أصبح القاتل وهو قابيل من النّادمين لما فعله من قتل أخيه قال ابن عباس لما قتل قابيل هابيل أشاك الشجر وتغيّرت الأطعمة وحمضت الفواكه وأمرّ الماء وإِغْبَرَّت الأرض فقال آدم قد حدّث في الأرض حدث فإنكشف أنّ قابيل قتل هابيل فأنشأ يقول:

تَغَيَّرَتِ البلاد وَمَنَ عليها      فَوَجَّهَ الأرض مُغْبَرٌّ قَبِيحٌ  
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي لَوْنٍ وَطَعْمٍ      وَقَلَّ بِشَاشَةِ الوجه الصَّبِيحُ

قيل لمّا مضى من قتل قابيل هابيل خمس سنين ولدت حواء شيئاً وتفسيره هبة الله، يعني أنّه خلف من هابيل وكان وصي آدم وولّي عهده وأمّا قابيل فقيل له إذهب طريداً شريداً فزعاً مذعوراً لا يأمن من يراه فذهب إلى عدن من اليمن فأثاء إبليس فقال أنما أكلت النّار قربان هابيل لأنّه كان يعبدها فأنصب أنت أيضاً ناراً تكون لك ولعقبك فبنى بيت نارٍ وهو أوّل من نصب النّار وعبدها وإِتَّخَذَ أولاده آلات اللّهُو من البِراع والطَّنْبور والمزامير وإنهمكوا في اللّهُو وشرب الخمر وعبادة النّار والزّنا والفواحش حتّى غرقهم الله أيّام نوح بالطّوفان وبقي نسل شيث إلى آخر الدّهر وأمّا كونه من النّادمين على قتله ليس معناه أنّه ندم على الوجه الذي يكون توبة بل معناه أنّه كان من النّادمين على حملة لا على قتله وقيل على موت أخيه لا على إرتكاب الذّنْب اذ لو كان النّدْم على الوجه الصّحيح لقبل الله توبته وعلى مذهبنّا كان يستحق الثّواب لو كانت توبته صحيحة وأن لم يسقط العقاب.

وقال بعضهم أنّه ندم لأنّه لم يتنفع بالقتل بل ناله ضرر بسببه من أبيه وأخوته ولما كان القتل ظلماً من الأفعال القبيحة لأنّه يوجب قطع المقتول في أمثال هذه الموارد والفساد في الأرض في جميع الموارد قال الله تعالى:

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ بِغَيْرٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا.

الظاهر أنَّ قوله: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ متعلق بقوله: كَتَبْنَا وقال بعضهم أنه متعلق بقوله: مِنَ النَّادِمِينَ أي ندم من أجل ما وقع والمعنى بسبب ذلك وبعلمته و قيل أصله من، إذا جناه ومنه قول الشاعر:

وأهل خباءٍ صالحٍ ذاتَ بينهم قد إحترَبوا في عاجلٍ أنا آجله

من، لإبتداء الغاية ومعنى كتبنا، فرضنا والمعنى من أجل ذلك القتل الذي صدر من قابيل كتبنا وفرضنا على بني إسرائيل وهم أولاد يعقوب أنه من قتل نفساً بغير مفسٍ أي بغير قتل نفسٍ يوجب القصاص، أو فسادٍ في الأرض، هو معطوف على نفسٍ أي وبغير فسادٍ، وإختلفوا في المراد به، فقيل هو الشُّرك بالله، وقيل قطع الطريق و قتل الأشجار و قتل الدواب إلا لضرورة و حرق الزرع و ما يجري مجراه فكأنما قتل النَّاسَ جميعاً ومن أحياها أي أحى النفس فكأنما أحيا النَّاسَ جميعاً، فيه أقوال ذكرها المفسرون:

**أحدها:** أنه بمنزلة، من قتل النَّاسَ جميعاً في أنهم خصومه من قبل ذلك الإنسان.

**الثاني:** أنَّ عليه مثل مأثم كلِّ قاتلٍ من النَّاسِ لأنه سنَّ القتل و سهَّله لغيره فكان بمنزلة المشارك فيه و مثله قوله **عَلَيْهِ** فمن سنَّ سنةً حسنةً كان له أجرها و أجر من عمل بها الى يوم القيامة، و من سنَّ سنةً سيئةً كان له وزرها و وزر من عمل بها.

**الثالث:** أنَّ معناه تعظيم الوزر و المأثم أي كنت تستحق الخلود في النار في قتلك إنساناً ظلماً كما تستحقه بقتل النَّاسَ جميعاً.

**الرابع:** قال ابن عباس معناه من شدَّ على عضد نبيٍّ أو إمامٍ عدلٍ فكأنما أحيا النَّاسَ جميعاً و من قتل نبياً أو اماماً عدلٍ فكأنما قتل النَّاسَ جميعاً.



**الخامس:** معناه فكأنما قتل النَّاس جميعاً عند المقتول، وكأنما أحيا النَّاس جميعاً عند المستنقذ.

**السادس:** معناه، أنه عليه من القود والقتل مثل ما يجب عليه لو قتل النَّاس جميعاً، ومن أحيا أي من نجَّى نفساً من الهلاك مثل الفرق و الحرق فكأنما أحيا النَّاس جميعاً وقال ابن زيد من عفى عن دمها وقد وجب القود عليها و أمثال ذلك من الأقوال كثيرة بين المفسرين و الذي يختلج بالبال تبعاً لبعض المحققين هو أنَّ الآية تدل على وحدة البشر و تحريص كل منهم على حياة الجميع و إنقائه ضرر كل فردٍ لأنَّ إنتهاك الفرد بعينه إنتهاك لحرمة الجميع كما أنَّ القيام بحق الفرد حيث أنه عضو في النوع و ما قرّره من حقوق المساواة في الشرع في الحقيقة قيام بحق الجميع و محصل الكلام هو أنه في الآية حثٌ و تحريص على مراعاة الحقوق في جميع الشئون بالنسبة الى جميع النَّاس فإنَّ حكم الأمثال واحد فحكم الواحد حكم الجميع لأنَّ الكلي الطبيعي يوجد بوجود فرده.

وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ

أي لم تغن عنهم بيّنات الرّسل و لا هذّبت نفوسهم بل كان كثير منهم بعد ذلك الذي ذكر من التّشديد عليهم في أمر القتل و من مجي الرّسل بالبيّنات يسرفون في الأرض بالقتل و غيره من ضروب البغي، أكّد إثبات وصف الإسراف لكثيرٍ منهم تأكيداً بعد تأكيد لأنّ تشديد الشّريعة و تكرار بيّنات الرّسل كانت تقتضي عدم ذلك أو ندوره و النَّاس يطلقون وصف الكثير على الجميع في الغالب و الإسراف عبارة عن مجاوزة الحدّ في العمل أي حدّ الحقّ و المصلحة و الأصل في معنى الإسراف الإفساد فهو من السّرفة و هي بالضمّ الدودة التي تأكل الشّجرة و الخشب و إذا كان الإسراف في فعل الخير يجعله

كَالْفَقَّةِ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحْبَةِ الَّتِي تَهْبُ بِالْمَالِ كُلِّهِ فَتَفْسِدُ عَلَى صَاحِبِهِ أَمْرَ  
مَعَاشِهِ فَمَا بِالْكَ بِالْإِسْرَافِ فِي الشَّرِّ الْمُبَالِغَةِ وَتَجَاوِزَ مَا أَعْتَادَهُ الْأَشْرَارُ فِيهِ وَ  
الَّذِي يَفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ فِي قِصَّتِهِ إِبْنِي آدَمَ هُوَ أَنَّ الْحَسَدَ كَانَ مَثَارَ الْفِتْنَةِ وَأَوَّلَ  
جَنَائِيَةٍ فِي الْبَشَرِ وَلَا يَزَالُ هُوَ الَّذِي يَفْسِدُ عَلَى النَّاسِ أَمْرَ إِجْتِمَاعِهِمْ فَتَرَى  
الْحَاسِدَ تَتَقَلُّ عَلَيْهِ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَخِيهِ فَمَنْ قَرَأَ الْآيَةَ وَتَأَمَّلَ فِيهَا وَعَلِمَ تَعْلِيلَ  
تَحْرِيمِ الْقَتْلِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَكَوْنِ هَذَا الْحَقِّ لَا يَعْدُو الْقِصَاصَ وَ مَنَعَ الْإِفْسَادَ فِي  
الْأَرْضِ، يَتَوَجَّهَ ذَهَنُهُ لِاسْتِبَانَةِ الْعِقَابِ الَّذِي يُؤْخَذُ بِهِ الْمَفْسِدُونَ حَتَّى لَا يَتَجَرَّأَ  
غَيْرُهُمْ عَلَى مِثْلِ فَعْلِهِمْ الَّذِي يَتَّبِعُهُ الْخُزْيُ وَالْخُسْرَانُ وَالنَّدَامَةُ وَالْحَرَمَانُ فِي  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُوَ وَاضِحٌ.



إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَ  
 يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا  
 أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا  
 مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي  
 الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ  
 قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ  
 رَحِيمٌ (٣٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ  
 ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ  
 تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي  
 الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ  
 يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦)  
 يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ  
 بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧) وَ  
 السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا  
 كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨)  
 فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ  
 يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ  
 أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ  
 يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ (٤٠)

فضاء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

## ◀ اللّٰغَة

فَسَادًا، الفساد خروج الشَّيْءِ عن الإعتدال قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً و  
ضدّه الصّلاح.

يُصَلَّبُونَ، الصّلب الذي هو تعلّق الإنسان للقتل، قيل هو شدّ صلبه على  
خشبٍ وقيل أنما هو من صلب الودك وهو إستخراجه عن العظم.  
خِزْيٌ: الخِزْي بكسر الخاء الذّلة والحقارة.  
وَأَبْتَغُوا، الإبتغاء الطّلب.  
نَكَالًا يقال نكل عن الشَّيْءِ اذا ضعف وعجز، ونكلته، قِيدته.

## ◀ الإعراب

يُحَارِبُونَ اللَّهَ أَي يحاربون أولياء الله فحذف المضاف أَنْ يُقَتَّلُوا خبر  
جزاء أَوْ يُصَلَّبُوا معطوف عليه مِنْ خِلافٍ حال من الأيدي والأرجل أَوْ  
يُنْفَوْنَ مِنَ الْأَرْضِ أَي الأرض التي يريدون الإقامة بها، فحذف الصّفة وَذَلِكَ  
مبتدأ وَلَهُمْ خِزْيٌ مبتدأ وخبر في موضع خبر ذلك وفي الدُّنْيَا صفة خِزْيٍ و  
يجوز أن يكون ظرفاً له إِلَّا الَّذِينَ إِسْتِثْنَاءٌ مِنَ الَّذِينَ يحاربون في موضع نصب  
وقيل في موضع رفع بالإبتداء إِلَيْهِ الْوَسِيلَةُ متعلّق بإبتغوا، أو بالوسيلة ويجوز  
أن يكون حالاً أي الوسيلة كائنة اليه وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ مبتدأ وفي الخبر و  
جهان:

أحدهما: أنّه محذوف وتقديره وفيما يتلى عليكم.

الثاني: الخبر قوله: فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا لَأَنّ الألف واللام في السّارق بمنزلة،  
الذي، إذ لا يراد سارق بعينه جَزَاءً مفعول من أجله أو مصدر لفعلٍ محذوف  
أي جازاهما جزاءً وكذلك نكالاً.

## ◀ التفسير

إِنَّمَا جَزَأُوا الَّذِينَ يُخَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ اِخْتَلَفُوا فِي سَبَبِ نَزُولِهَا. قال القرطبي فالذي عليه الجمهور أنها نزلت في العرين روي الأئمة واللفظ لأبي داود عن أنس بن مالك أنَّ قوماً من عكل (قبيلة مشهورة من قبائل العرب) أو قال من عرنية قدموا على رسول الله ﷺ فاجتوا المدينة فأمر لهم رسول الله ﷺ بلقاح وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فإنطلقوا فلما صحوا قتلوا راعي النبي ﷺ وإستاقوا النعم فبلغ النبي خبرهم من أول النهار فأرسل في آثارهم فما إرتفع النهار حتى جئ بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم وألقوا في الحرة يستسقون فلا يسقون قال أبو قلابة فهؤلاء قوم قتلوا وسرقوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله وفي رواية فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم وما حسمهم.

وفي رواية فبعث رسول الله في طلبهم كافة فأتى بهم قال فأنزل الله تعالى: جَزَأُوا الَّذِينَ يُخَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا. وفي رواية قال أنس فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشاً حتى قالوا، وفي البخاري قال جرير بن عبد الله في حديثه فبعثني رسول الله في نفر من المسلمين حتى أدركناهم وقد أشرفوا على بلاده فجئنا بهم إلى رسول الله ﷺ قال جرير فكانوا يقولون الماء ويقول رسول الله ﷺ النار وقد حكى أهل التواريخ والسير أنهم قطعوا يدي الراعي ورجليه وعرزوا الشوك في عينيه حتى مات وأدخل المدينة ميتاً وكان اسمه يسار وكان نوبياً وكان هذا الفعل من المرتدين سنة ست من الهجرة وفي بعض الروايات أنَّ رسول الله ﷺ أحرقهم بالنار بعد ما قتلهم انتهى كلام القرطبي.

أقول هذه الأراجيف لا يمكن المساعدة عليها في شأن نزول الآية.

**أَمَّا أَوَّلًا:** فَلَأَنَّ الرَّأْيِي هُوَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ وَهُوَ كَذَّابٌ وَضَاعَ مَعَانِدٍ لِلْحَقِّ عَدُوٌّ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَوْلِيَاءِهِ.

**ثَانِيًا:** أَنَّ شَأْنَ الرَّسُولِ الْمَعْصُومِ الْمَبْعُوثِ إِلَى هِدَايَةِ الْخَلْقِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى الصَّوَابِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** <sup>(١)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** <sup>(٢)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** <sup>(٣)</sup>.

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ أَجْلٌ وَأَعْظَمُ وَأَشْرَفُ مِنْ أَنْ يَفْعَلَ أَوْ يَأْمُرَ بِقَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ وَسَمْرِ الْأَعْيُنِ وَأَفْطَعِ مِنْهَا مَنَعَ الْمَاءِ عَنِ الْعِطْشَانِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي لَا تَلِيْقُ أَنْ تَنْسَبَ إِلَّا إِلَى أَوْبَاشِ النَّاسِ وَأَرَادَ لَهُمْ مِثْلَ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ وَابْنِ سَعْدٍ وَشَمْرِ بْنِ ذِي الْجَوْشَنِ وَأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ مِنْ عَمَلِ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ.

وَأَمَّا الرَّسُولُ الْمَعْظَمُ الْمَكْرَمُ فَكَيْفَ يَعْقِلُ أَنْ يَفْعَلَ أَوْ يَأْمُرَ بِذَلِكَ وَأَنْتَ أَظُنُّ بَلْ أَقْطَعُ قِطْعًا لَا غِبَارَ عَلَيْهِ أَنَّ غَرَضَ أَنَسٍ وَأَمْثَالِهِ مِنْ عَمَلِ الظُّلْمَةِ مِنْ جَعْلِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْمَجْعُولَةِ هُوَ تَصْحِيحُ أَعْمَالِ الظَّالِمِينَ الْغَاصِبِينَ أَمْثَالِ مَعَاوِيَةَ وَابْنِهِ يَزِيدَ وَعَبْدِ الْمَلِكِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَانُوا مَتَّصِفِينَ بِالْإِلْحَادِ وَقِسَاوَةِ الْقَلْبِ وَتَخْرِيبِ الدِّينِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ إِذَا مَنَعَ الْمَاءَ عَنِ الْمَحْكُومِ وَقَالَ فِي جَوَابِهِ النَّارَ، فَلَا لَوْمَ عَلَى يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ وَابْنِ زِيَادٍ وَأَعْوَانِ الظُّلْمَةِ فِي فَعْلِهِمْ وَمَنْعِهِمُ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَصْحَابِهِ وَأَوْلَادِهِ مِنْ شَرْبِ الْمَاءِ وَأَنْ قَالُوا فِي جَوَابِ الْحُسَيْنِ النَّارَ، لِأَنَّ الرَّسُولَ فَعَلَ كَذَلِكَ وَلَا يَقُولُ بِهِذِهِ الْمَقَالَةَ وَأَمْثَالَهَا إِلَّا مَنْ لَا إِيْمَانَ لَهُ مَا لَهُمْ خَذَلَهُمُ اللَّهُ وَعَذَّبَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ عَهْدٌ فَتَقَضُوا الْعَهْدَ وَقَطَعُوا الطَّرِيقَ وَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ بِالْقَتْلِ وَالنَّهْبِ وَغَارَةً إِذَا عُرِفَتْ هَذَا فَنَقُولُ:

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا الْمَحَارِبُ عِنْدَنَا مَعْشَرُ الْإِمَامِيَّةِ هُوَ الَّذِي أَشْهَرُ السَّلَاحِ وَأَخَافُ السَّبِيلِ سِوَاهُ كَانَ فِي الْبَلَدِ أَوْ خَارِجَ الْبَلَدِ فَأَنَّ اللَّصَّ الْمَحَارِبَ فِي الْمَصْرِ وَغَيْرِ الْمَصْرِ سِوَاهُ وَبِهِ قَالَ الْأَوْزَعِيُّ وَالتَّبَرِيُّ وَمَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُمْ وَقَالَ قَوْمٌ هُوَ قَاطِعُ الطَّرِيقِ فِي غَيْرِ الْمَصْرِ ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ وَعَطَاءٌ.

قَالُوا وَمَعْنَى، يُحَارِبُونَ اللَّهَ، يُحَارِبُونَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ وَقَوْلُهُ: وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا مَعْنَاهُ إِشْهَارُ السَّيْفِ وَإِخَافَةُ السَّبِيلِ وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ جَزَاءَهُمْ عَلَى قَدَرِ اسْتِحْقَاقِهِمْ فَأَنْ قَتَلَ، قَتَلَ، وَأَنْ أَخَذَ الْمَالَ وَقَتَلَ، قَتَلَ وَصَلَبَ وَأَنْ أَخَذَ الْمَالَ وَلَمْ يَقْتُلْ قَطَعَتْ يَدُهُ وَرَجُلُهُ مِنْ خِلَافٍ، وَإِنْ أَخَافَ السَّبِيلَ فَقَطْ، نَفَى لَا غَيْرَ هَذَا مَذْهَبُنَا وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ وَالسُّدِّيِّ وَأَمْثَالُهُمْ وَحَكَى عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ قَالَ، أَنْ أَخَذَ الْمَالَ جَهْرًا كَانَ لِلْإِمَامِ صَلْبُهُ حَيًّا وَإِنْ لَمْ يَقْتُلْ، قَالَهُ الشَّيْخُ فِي التَّبْيَانِ وَالْإِىْ هَذَا أَشَارَ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: أَنْ يَقْتُلُوا أَوْ يُصَلِّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ

قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ الْآيَةَ تَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ كَانَ مُوصُوفًا بِهَذِهِ الصِّفَةِ أَعْنَى بِهَا الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ سِوَاهُ كَانَ كَافِرًا أَوْ مُسْلِمًا أَقْصَى مَا فِي الْبَابِ أَنْ يُقَالَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ ثُمَّ قَالَ الْمَحَارِبُونَ الْمَذْكُورُونَ فِي الْآيَةِ هُمُ الْقَوْمُ الَّذِينَ يَجْتَمِعُونَ وَلَهُمْ مَنَعَةٌ مِمَّنْ أَرَادَ هُمْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ يَحْمِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَقْصِدُونَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَرْوَاحِهِمْ وَدِمَائِهِمْ وَأَنْمَا إِعْتَبَرْنَا الْقُوَّةَ وَالشُّوْكَهَ لِأَنَّ قَاطِعَ الطَّرِيقِ أَنْمَا يَمْتَازُ عَنِ السَّارِقِ

بهذا القيد وإتفقوا على أنّ هذه الحالة إذا حصلت في الصّحراء كانوا قطاع الطرق فأما لو حصلت في نفس البلدة فكانوا مفسدين في الأرض بالفساد وكيف كان فجزاء المفسدين في الأرض ما ذكره في الآية بقوله: **أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا** الى آخر الآية.

ثمّ أنّهم إختلفوا في لفظ، أو، في هذه الآية على قولين.

**أحدهما:** أنّها للتغيير وهو قول ابن عبّاس والحسن وسعيد بن المسيّب ومجاهد فالمعنى أنّ الإمام أن شاء قتل وأن شاء صلب وأن شاء قطع الأيدي والأرجل وأن شاء نفي، أيّ واحد من هذه الأقسام شاء فعل.

**ثانيهما:** أنّها ليست للتغيير بل هي لبيان أن الأحكام تختلف باختلاف الجنائيات فمن إقتصصر على القتل قتل ومن قتل وأخذ المال قتل و صلب ومن إقتصصر على أخذ المال قطع يده ورجله من خلاف ومن أخاف السبيل ولم يأخذ المال نفي من الأرض وهذا قول الأكثرين من العلماء وبه قال الشافعي أيضاً ونحن نقول به لأنّه مرّوي عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام كما نقلناه عن الشيخ حيث قال هذا مذهبننا، وعليه، فالمعنى **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا** بالمعنى الذي ذكرناه، أن يقتلوا، إذا قتلوا، أو يصلّبوا، إذا قتلوا أو أخذوا المال، أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أي يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، إذا إقتصروا على أخذ المال فقط أو ينفوا من الأرض، إذا أخافوا السبيل وفي معنى النفي ثلاثة أقوال:

**أحدها:** أن يخرج من بلاد الإسلام ينفي من بلد إلى بلد إلا أن يتوب ويرجع وهذا هو المختار عندنا وبه قال مالك وابن عبّاس وأنس والحسن والسّدي والضّحاك وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم.

**الثاني:** أن ينفي من بلد إلى بلد غيره وذهب إليه سعيد بن جبير في رواية أخرى وعمر وبن عبد العزيز.



**الثالث:** أَنَّ النَّفْيَ هُوَ الْحَبْسُ ذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ.

قال الرّازي بعد نقله ما نقلناه عن أبي حنيفة أَنَّ المراد بالنفي الحبس ما هذا لفظه إختيار أكثر أهل اللغة، قالوا ويدل عليه أَنَّ قوله: **أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ** أمّا يكون المراد النفي من جميع الأرض وذلك غير ممكن مع بقاء الحياة، و أمّا أن يكون إخراجهم من تلك البلدة إلى بلدة أخرى وهو أيضاً غير جائز لأنّ الغرض من هذا النفي دفع شرّه عن المسلمين فلو أخرجناه إلى بلد آخر لأسّئّر به من كان هناك من المسلمين و أمّا أن يكون المراد إخراجهم إلى دار الكفر وهو أيضاً غير جائز لأنّ إخراج المسلم إلى دار الكفر تعريض بالردة وهو غير جائز ولما بطل الكل لم يبق إلّا أن يكون المراد من النفي نفيه عن جميع الأرض إلّا مكان الحبس قالوا والمحبوس قد سمّي منفياً من الأرض لأنّه لا ينتفع بشيء من طيّبات الدنيا ولذاتها ولا يرى أحداً من أحبائه وأقربائه انتهى.

**أقول** ما ذكره الرّازي وأيده من أَنَّ المراد بالنفي الحبس لا يساعده العقل النقل، أمّا العقل فلا والله تعالى قال: **أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ** والعقل السليم يحكم بأنّ المحبوس ليس كذلك ألا ترى أنّه لا يقال للمحبوس أنّه نفي من الأرض.

**أمّا النقل** فقال أهل اللغة النفي الطرد، قوله: **أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ** أي يطردوا منها ويدفعوا عنها إلى أرض أخرى والنفي هو الطرد أو الدّفع يقال نفيت الحصى من وجه الأرض فإنّفى ومنه نفى إلى بلدة أخرى أي دفع إليها و أمّا كونه بمعنى السجن فقله بعض أهل اللغة فالحقّ أَنَّ النفي الطرد ولنذكر بعض ما ورد من الأخبار الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام في معنى الآية فإنّهم أدركوا بما في البيت روي علي بن إبراهيم بأسناده عن جميل بن درّاج قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجل: **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ** أي شيء عليهم من هذه الحدود التي سمّي الله

عَزَّوَجَلَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ إِلَى الْإِمَامِ إِنْ شَاءَ قَطَعَ وَأَنْ شَاءَ نَفَى وَأَنْ شَاءَ صَلَبَ وَ أَنْ شَاءَ قَتَلَ قَتَلَ النَّفْيَ إِلَى أَيْنَ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّفْيُ مِنْ مِصْرَ إِلَى مِصْرَ آخَرَ وَقَالَ أَنْ عَلِيًّا نَفَى رَجُلَيْنِ مِنَ الْكُوفَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ انْتَهَى.

وَأَيْضًا بِأَسْنَادِهِ عَنْ بَرِيدِ بْنِ مَعَاوِيَةَ قَالَ سَأَلَ رَجُلٌ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مَا يَشَاءُ قَلْتُ فَقُضِيَ ذَلِكَ إِلَيْهِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا وَلَكِنْ نَحْوُ الْجَنَابَةِ انْتَهَى.** بِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرُّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ سَأَلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا** فَمَا الَّذِي إِذَا فَعَلَهُ اسْتَوْجِبَ وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَسَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا قُتِلَ بِهِ فَان قَتَلَ وَأَخَذَ الْمَالَ، قَتَلَ وَصَلَبَ وَأَنْ أَخَذَ الْمَالَ وَلَمْ يَقْتُلْ قُطِعَتْ يَدُهُ وَرِجْلُهُ مِنْ خِلَافٍ وَأَنْ شَهِرَ السَّيْفَ فَحَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَسَعَى فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَلَمْ يَقْتُلْ وَلَمْ يَأْخُذْ بِالْمَالِ نَفَى مِنَ الْأَرْضِ قَتَلَ كَيْفَ يَنْفَى وَمَا حَدَّثَ نَفِيهِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْفَى مِنَ الْمِصْرِ الَّذِي فَعَلَ فِيهِ مَا فَعَلَ إِلَى مِصْرٍ غَيْرِهِ وَيَكْتُبُ إِلَى أَهْلِ ذَلِكَ الْمِصْرِ أَنَّهُ مَنَفَى فَلَا تَجَالِسُوهُ وَلَا تَبَايَعُوهُ وَلَا تَنَاقَحُوهُ وَلَا تَوَاكَلُوهُ وَلَا تَشَارِبُوهُ فَيَفْعَلُ ذَلِكَ بِهِ سَنَةً فَإِنْ خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْمِصْرِ إِلَى غَيْرِهِ كَتَبَ إِلَيْهِمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ حَتَّى تَمُتَ السَّنَةُ قَتَلَ فَإِنْ تَوَجَّهَ إِلَى أَرْضِ الشَّرْكِ لِيَدْخُلَهَا قَالَ إِنْ تَوَجَّهَ إِلَى أَرْضِ الشَّرْكِ لِيَدْخُلَهَا قَتَلَ أَهْلَهَا انْتَهَى.

وَبِأَسْنَادِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا هَذَا نَفْيُ الْمَحَارِبَةِ غَيْرَ هَذَا النَّفْيِ**، قَالَ يَحْكُمُ الْحَاكِمُ بِقَدْرِ مَا عَمِلَ وَيُنْفَى وَيَحْمَلُ فِي الْبَحْرِ ثُمَّ يَقْذِفُ بِهِ لَوْ كَانَ النَّفْيُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ كَأَنْ يَكُونَ إِخْرَاجُهُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ، عَدِلَ الْقَطْعُ وَالصَّلْبُ وَالْقَتْلُ وَلَكِنْ يَكُونُ حَدًّا لَوَافِقِ الْقَطْعِ وَالصَّلْبِ انْتَهَى.

وأسناده عن أبي عبيدة بن بشر الحشعمي قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قاطع الطريق وقلت أن الناس يقولون الإمام فيه مُخَيَّر أَي شَيْءٍ صَنَعَ قَالَ عليه السلام لَيْسَ أَيُّ شَيْءٍ صَنَعَ وَلَكِنَّهُ يَصْنَعُ بِهِمْ عَلَى قَدَرِ جُنَايَاتِهِمْ مِنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ وَأَخَذِ الْمَالِ قَطَعَتْ يَدَهُ وَرِجْلَهُ وَصَلَبَ وَ مِنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ فَقَتَلَ وَلَمْ يَأْخُذِ الْمَالِ، قُتِلَ، وَ مِنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ فَأَخَذَ الْمَالِ وَلَمْ يَقْتُلْ قَطَعَتْ يَدَهُ وَ رِجْلَهُ وَ مِنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ فَلَمْ يَأْخُذِ الْمَالِ وَلَمْ يَقْتُلْ نَفِي مِنَ الْأَرْضِ انْتَهَى.

وأيضاً محمد بن يحيى بأسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام مَنْ شَهَرَ السِّلَاحَ فِي مِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ إقْتَصَصَ مِنْهُ وَنَفِيَ مِنْ ذَلِكَ الْبَلَدَةِ وَمَنْ شَهَرَ السِّلَاحَ فِي غَيْرِ الْأَمْصَارِ وَضُرِبَ وَعَقِرَ وَأَخَذَ الْمَالِ وَلَمْ يَقْتُلْ فَهُوَ مُحَارَبٌ فَجَزَاءُ جَزَاءِ الْمُحَارَبِ وَأَمْرُهُ إِلَى الْإِمَامِ إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ وَأَنْ شَاءَ صَلَبَهُ وَأَنْ شَاءَ قَطَعَ يَدَهُ وَرِجْلَهُ قَالَ وَأَنْ ضُرِبَ وَقَتَلَ وَأَخَذَ الْمَالِ فَعَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَقْطَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى بِالسَّرْقَةِ ثُمَّ يَدْفَعُهُ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ فَيَتَّبِعُونَهُ بِالْمَالِ ثُمَّ يَقْتُلُونَهُ قَالَ فَقَالَ لَهُ عليه السلام أَبُو عبيدة أَصْلَحَكَ اللَّهُ أَرَأَيْتَ إِنْ عَفَى عَنْهُ أَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ قَالَ فَقَالَ أَبُو جعفر عليه السلام إِنْ عَفَوْا عَنْهُ فَأَنْ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَقْتُلَهُ لِأَنَّهُ حَارِبٌ وَقَتَلَ وَسَرَقَ، قَالَ فَقَالَ أَبُو عبيدة أَرَأَيْتَ إِنْ أَرَادَ أَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْهُ الدِّيَّةَ وَيَدْعُوهُ أَلَهُمْ ذَلِكَ قَالَ عليه السلام لَا، عَلَيْهِ الْقَتْلُ انْتَهَى <sup>(١)</sup>.

وقد ورد بهذه المضامين أخبار كثيرة فيه وفي غيره ثم قال الله تعالى: ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ أَي مَا عَذَّبَهُ مِنْ الْعُقُوبَاتِ فِي الْآيَةِ مِنَ الْقَتْلِ وَالصَّلْبِ وَقَطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ وَنَفْيِ الْبَلَدِ،

بَابُ الْقِتَالِ  
فِي الْقِتَالِ  
فِي الْقِتَالِ

جزء ٦

الجزء السادس

أَتَمَّا هُوَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى لَيْسَ جَزَاءَ  
الْمُحَارِبِ مَنْحَصَرًا فِيمَا بَيْنَهُ بَلْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ أَيْضًا عَذَابٌ وَعِقَابُ الْمَعْلُومِ أَنَّ  
عَذَابَ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا فَالْمُحَارِبُ مِنَ الَّذِينَ خَسِرُوا  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ثُمَّ اسْتَشْنَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ  
التَّائِبِينَ مِنْهُمْ بِشَرْطِ أَنْ تَكُونَ التَّوْبَةُ قَبْلَ أَخْذِهِمْ بِعُنْوَانِ الْمُحَارِبِ فَقَالَ:

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ  
يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ، الَّذِينَ، فِي مَوْضِعِ الرَّفْعِ بِالْإِبْتِدَاءِ وَقَوْلُهُ فَاعْلَمُوا الْخ  
خَبْرُهُ وَالْمَعْنَى غَفُورٌ رَحِيمٌ لَهُمْ، أَيْ لَكِنِ التَّائِبُونَ مِنْ قَبْلِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ فَاللَّهُ  
غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ مِنْ قَوْلِهِ:  
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ حُكْمُ التَّائِبِ قَبْلَ  
أَنْ يُؤْخَذَ وَيَقْدَرَ عَلَيْهِ لِأَنَّ التَّوْبَةَ بَعْدَ أَخْذِهِ وَحُصُولِهِ فِي قُبْضَةِ الْإِمَامِ وَقِيَامِ  
الْبَيِّنَةِ عَلَيْهِ بِذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُ وَلَا تَمْنَعُ مِنْ إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِ.

قَالَ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ وَضَبَطَ هَذَا الْكَلَامَ أَنَّ مَا يَتَعَلَّقُ مِنْ تِلْكَ  
الْأَحْكَامِ بِحَقْقِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ يَسْقُطُ بَعْدَ هَذِهِ التَّوْبَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ مِنْهَا  
بِخُصُوصِ الْأَدَمِيِّينَ فَإِنَّهُ لَا يَسْقُطُ فَهَؤُلَاءِ الْمُحَارِبُونَ إِنْ قَتَلُوا إِنْسَانًا ثُمَّ تَابُوا قَبْلَ  
الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ كَانَ وَلِيُّ الدِّمِّ عَلَى حَقِّهِ فِي الْقَصَاصِ وَالْغَفْوِ إِلَّا أَنَّهُ يَزُولُ حَتْمُ  
الْقَتْلِ بِسَبَبِ هَذِهِ التَّوْبَةِ وَأَنْ أَخَذَ مَا لَوْ جَبَّ عَلَيْهِ رَدُّهُ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ قَطْعُ الْيَدِ  
وَالرَّجْلِ وَأَمَّا إِذَا تَابَ بَعْدَ الْقُدْرَةِ فَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّ التَّوْبَةَ لَا تَنْفَعُهُ وَتَقَامُ الْحُدُودُ  
عَلَيْهِ ثُمَّ نَقَلَ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ قَالَ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَسْقُطَ كُلُّ حَدٍّ لِلَّهِ بِالتَّوْبَةِ لِأَنَّ مَا  
عَزَا، لَمَّا رَجِمَ أَظْهَرَ تَوْبَتَهُ فَلَمَّا تَمَّمُوا رَجْمَهُ ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ  
هَلَا تَرَكْتُمُوهُ أَوْ لَفْظٌ هَذَا مَعْنَاهُ وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّوْبَةَ تَسْقُطُ عَنِ الْمَكْلَفِ  
كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِحَقِّ اللَّهِ أَنْتَهَى كَلَامُهُ.

**أقول** ما ذكره الرّازي في المقام دليل على أنّه لم يفهم معنى المراد من الآية و ذلك لأنّ الآية لا تدلّ على سقوط الحدّ بعد التّوبة بل تدلّ على سقوط العذاب في الآخرة إذا تاب بينه وبين الله و الدليل على ذلك قوله فأعلموا أنّ الله غفورٌ رحيمٌ و ثمرة الغفران في الآخرة لا في الدنيا فلا ينافي اجراء الحدّ عليه بعد التّوبة في الدّنيا و أمّا ما ذكره من أنّ ما يتعلّق من تلك الأحكام بحقوق الله فأنّه يسقط بعد هذه التّوبة و ما يتعلّق بحقوق آدميّين فأنّه لا يسقط فهو و أن كان في موضعه لا كلام فيه إلّا أنّ الكلام في معنى السّقوط فأن كان مراده سقوط الحدّ في حقوق الله في الدّنيا كما هو ظاهر كلامه تبعاً لإمامه الشّافعي ففيه أنّ الحدّ في حقّ الله لا يسقط في الدّنيا تاب أو لا فإنّ السّارق تقطع يده على أي حالٍ مع أنّ قطع اليد حقّ الله و الرّزاني ان كان غير محصّن يحدّ و أن كان محصّناً يقتل بعد القدرة عليه سواء تاب أم لا و أمّا قصّة ما عز على ما نقله الشّافعي من أنّ رسول الله قال هلاً تركتموه أو لفظ هذا معناه، فلم نر الحديث على هذا الوجه إلّا في نقل الرّازي، و ذلك لأنّ ما عزّاً كان زانياً مخطئاً بإقراره حكم الرّسول بقتله و توبته أن كانت و ثبتت لا تمنعه من القتل مع أنّه من حقوق الله في ما زادوا في الحديث من أنّه تاب و قال رسول الله كذا و كذا لم يثبت في غير كلام الشّافعي فهو من المجعولات، و هكذا قول الرّازي، و أن أخذ مالا و جب عليه ردّه و لم يكن عليه قطع اليد و الرّجل، كلام بلا محصّل بل يجب قطع اليد و الرّجل قطعاً ولو بعد التّوبة لأنّ قطع اليد و الرّجل حقّ الله و قد ثبت أنّ الحدود الإلهيّة لا تسقط بحال فيما إذا كان الحقّ له تعالى نعم، إذا كان الحقّ من حقوق آدميّين مثل القصاص فلاولياء الدّم القصاص و العفو و الدّية سواء تاب القاتل أم لا و محصّل الكلام في المقامين أعني بهما حقوق الله و حقوق آدميّين هو أنّ توبة الثّائب لا تمنع من إقامة الحدود أصلاً بعد القدرة على العاصي و أمّا قبلها فلا كلام لنا فيه إذ لا حدّ قبل الإثبات.

إذا عرفت هذا فنقول أنَّ الآية ناظرة إلى التوبة قبل القدرة على التائب بينه وبين الله والله تعالى يقبل التوبة من عباده وهو ممَّا لا كلام لأحد فيه ومعناه واضح وأما بعد أخذ المحارب وإثبات الجرم فحكمه قد سبق في الآية السابقة، والمراد بقول التوبة أنَّ الله تعالى لا يعذبه في الآخرة فقول الشافعي، ويحتمل أن يسقط كلَّ حدٍّ لله بالتوبة كلام في غير محلّه أن كان مراده به بعد القدرة عليه وأن كان المراد قبل القدرة عليه فليس هناك حدٌّ حتَّى يسقط إذا الحد لا يكون إلا بعد القدرة على الجاني وإثبات الجرم بالشهود أو الإقرار هذا ما فهمناه من الآية الشريفة والله أعلم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أمر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بأمر ثلاثة: أحدها: التَّقوى بفعلهم الواجبات وتركهم المحرمات قربة إلى الله قدّم التقوى لأنها رأس الأمور ولذلك قال: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ وقد مرّ الكلام في ماهية التقوى على إختلاف التفاسير فيها بما لا مزيد عليه وإلى هذا الأصل أشار بقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ خاطب المؤمنين بها لأنَّ التقوى لا تحصل إلّا للمؤمن.

ثانيها: أمرهم بطلب الوسيلة وإختلفوا في معناها فقال الحسن هي القربة في العمل وقالوا هي فيلة من قولهم تَوَسَّلْتُ إِلَيْكَ أي تَقَرَّبْتُ قال عنترة: أَنَّ الرَّجَالَ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ أن يأخذوك فلجلجي وتخصبي وقال الآخر:

إذا غَقَلَ الواثمونُ عُدنَا لِيُوصِلَنَا وعَادَ التَّصَافِي بَيْنَنَا وَالْوَسَائِلَ  
والى هذا المعنى أشار بقوله: وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ.

قال الرّازي أعلم أنَّ مجامع محصورة في نوعين لا ثالث لهما:

أحدهما: ترك المنهيات واليه الإشارة بقوله، إتقوا الله.

ثانيهما: فعل المأمورات واليه الإشارة بقوله: وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَلَمَّا كان ترك المنهيات مقدماً على فعل المأمورات بالذات لا جرم قدمه تعالى عليه في الذكر وأما قلنا أن التَّرك مقدّم على الفعل لأنَّ التَّرك عبارة عن بقاء الشَّيْءِ على عدمه الأصلي والفعل هو الإيقاع والتَّحصيل ولا شك أن عدم جميع المحدثات سابق على وجودها فكان التَّرك قبل الفعل لا محالة. فأن قيل لم جعلت الوسيلة مخصوصة بالفعل مع أننا نعلم أن ترك المعاصي قد يتوسل به إلى الله.

قلنا التَّرك إبقاء الشَّيْءِ على عدمه الأصلي وذلك لعدم المُستمر لا يمكن التَّوسل به إلى شيء البتة فنبت أن التَّرك لا يمكن أن يكون وسيلة إلى آخر ما قال انتهى ما اردنا نقله ولقائل أن يقول من فسّر الوسيلة بفعل المأمورات، و من فسّر التَّقوى بترك المنهيات والحق أن هذا التفسير لهما من مخترعات نفسه فهو فاسد أو مردود مطرود وذلك لأنَّ التَّقوى لا تحصل بترك المنهيات فقط بل تحصل به وبفعل المأمورات معاً وإلا يلزم أن يكون تارك المعاصي من المتقين وإن لم يفعل ما أمر به وبعبارة أخرى يلزم على قول الرّازي أن يكون تارك الصّلاة والصّوم والحجّ وغيرها من الواجبات من المتقين إذا ترك المحرّمات فقط ولا يقول بهذه المقالة الفاسدة أحد من المسلمين بل حقيقة التَّقوى عبارة عن الفعل والتَّرك معاً، فعل الواجب وترك الحرام وهذا أمر قد فرغنا عن بحثه وتحقيقه في موضعه.

وأما ما ذكره من التخريجات الفلسفية من أن التَّرك مقدّم على الفعل في جميع المحدثات فلا ربط له بما نحن بصددّه اذ ليس البحث في معنى الحادث و أنّه مسبوق بالعدم أو بالعلة أو بغير ذلك بل البحث في التَّقوى و بيان حقيقتها.

إذا عرفت هذا فاعلم أنَّ الوسيلة في الآية شيء آخر وأن شئت قلت أنها عبارة عن السَّبَب الموجود بين العبد وخالقه وهو ليس نفس العمل بل شيء آخر وهذا هو الَّذي أمرنا بطلبه فقال: **وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** مضافاً إلى نفس العمل إذ لو حصلت الوسيلة بنفس العمل فذكرها في الآية مستدرك لقوله: **اتَّقُوا اللَّهَ** وقد قلنا أنَّ العمل مأخوذ في تحقُّق التَّقْوَى فلا معنى لقوله: **وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** أي أعملوا بعد ترك المنهيات وإذا كان الأمر على هذا المنوال فمعنى الآية إتقوا الله أي ما أتاكم الرُّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ثم بعد ذلك وابتغوا إلى الله الوسيلة، أي لا تعتمدوا على الأعمال فقط لأنَّ صدورها على وجهها مشكَّل جداً فأطلبوا وسيلةً و سبباً آخر غير نفس العمل حتَّى تكون أعمالكم مقبولة بها و الَّذي يظهر من الأخبار المروية عن أهل البيت هو أنَّ المراد بالوسيلة في هذه الآية محمد ﷺ وأهل بيته المعصومين وقد نقل ابن شهر آشوب في المناقب عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في قوله تعالى: **وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** أنا وسيلته وإلى هذا المعنى، أشار الصَّاحِب حيث قال:

العدل والتَّوحيد والإمامة والمصطفى المبعوث من تهامة

وسيلتي في عَرَصَةِ القيامة

والمقصود من كونهم وسيلة هو أنَّ الطَّاعات لا تقبل إلا بولايتهم ومحبتهم ففي الحقيقة ولاية أهل البيت هي الوسيلة والسَّبَب لقبول الطَّاعات و العبادات أو نقول أنَّ المراد بها الشَّفاعة فإنها أيضاً سبب للمغفرة وهي أيضاً لا تكون بدون الولاية و عليه فالمعنى في الآية واضح لا خفاء فيه فإنَّ فعل الواجبات وترك المحرَّمات مع الولاية التي هي سبب و علة لقبولها يوجب سعادة الدارين.

**ثالثها:** الجهاد في سبيل الله كما قال: **وَجاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ** وليس المراد به الجهاد مع الأعداء في الحروب فقط بل المراد به معناه العام الشَّامِل للجهاد



النَّفْسِي والمَالِي والعِلْمِي وغيرها وأَعْظَم أنواع الجِهَاد وأَصْعَبُهَا الجِهَاد دَفْع  
النَّفْسِ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ الَّذِي يَعْْبُرُ عَنْهُ بِالْجِهَادِ الْأَكْبَرِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** فَالْمَعْنَى أَنْ فَعَلْتُمْ مَا ذَكَرْنَاهُ لَكُمْ فَأَنْتُمْ  
الْمُفْلِحُونَ الْفَائِزُونَ بِمَا فِيهِ صَلَاحُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ  
مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**

لَمَّا أَرَشَدَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ إِلَى جَمِيعِ مَعَاوِدِ  
الْخَيْرَاتِ الْمُنْتَهِيَةِ إِلَى الْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ أَتْبَعَهُ بِشَرْحِ حَالِ الْكَافَرِ فَقَالَ أَنَّ الَّذِينَ  
كَفَرُوا، بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا عَلَى ذَلِكَ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَ  
مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ  
أَلِيمٌ أَي مَوْجِعٍ فِي الْقِيَامَةِ وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا التَّمْثِيلِ هُوَ لَزُومُ الْعَذَابِ لَهُمْ فَلَا  
سَبِيلَ لَهُمْ لِلْخُلُوصِ مِنْهُ.

**يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ  
مُقِيمٌ**

أَي يُرِيدُونَ الْكَفَّارَ وَيَقْصُرُونَ بِالْإِقْتِدَاءِ أَوْ مُطْلَقًا الْخُرُوجَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ  
بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ لِإِسْتِحْقَاقِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ، أَي دَائِمٌ لَا يَزُولُ وَلَا يَحُولُ  
كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

فَإِنَّ لَكُمْ بِيَوْمِ الشَّيْبِ مَنَى عَذَابًا دَائِمًا لَكُمْ مُقِيمًا

ثُمَّ شَرَعَ فِي بَيَانِ حُكْمِ السَّارِقِ فَقَالَ:

**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ  
عَزِيزٌ حَكِيمٌ.**

قيل ظاهر قوله: **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ** يقتضي عموم وجوب القطع على كل من إتصف بالسرقه رجلاً كان أو امرأة لعموم التكليف وظهور اللفظ، و إستدلوا على العموم بأن الألف واللام اذا دخلا على الأسماء المشتقة أفاد الإستغراق اذا لم يكونا للعهد، دون تعريف الجنس و عليه فالمعنى يجب القطع على كل من كان سارقاً من الرجال والنساء كما هو مفاد الإستغراق وهو كذلك. قال بعضهم أن الآية مجملة تفتقر الى بيان لأن القطع لا يجب إلا على من كان سارقاً مخصوصاً من مكانٍ مخصوص بمقدارٍ مخصوص و ظاهر الآية لا ينبأ عن تلك الشروط.

وقد أجابوا عنه بأن ظاهر الآية يقتضي وجوب القطع على كل من يسمى سارقاً وأما يحتاج الى معرفة الشروط ليخرج من ملتهم من لا يجب قطعه فأما من يجب قطعه فأننا نقطعه بالظاهر فالآية مجملة فيمن لا يجب قطعه دون من يجب قطعه فسقط ما قالوه قاله الشيخ في التبيان.

**أقول** تحقيق القول في الآية يستدعي التكلم فيها إجمالاً فنقول:

في إعراب الآية وجهان:

**أحدهما:** الرفع وهو المشهور بناءً على أن السارق والسارقة مبتدأ والخبر محذوف أي فيما يتلى عليكم فالتقدير السارق والسارقة فيما يتلى عليكم فأقطعوا أيديهما ولا يجوز أن يكون قوله فأقطعوا خبراً للمبتدأ لا يدخل عليه الفاء.

**الثاني:** النصب إختاره سيبويه وبه قرأ عيسى ابن عمر والعامل في السارق المصدر المذلول عليه بأقطعوا لأن المعنى جازوهم ونكلوهم وإستدل المشهور على القول بالرفع بأن الألف واللام في قوله: **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ** يقومان مقام الذي فصار التقدير الذي سرق فأقطعوا يده و على هذا التقدير حسن إدخال الفاء على الخبر لأنه صدر جزاءً وأيضاً النصب أنما يحسن اذا

أردت سارقاً بعينه أو سارقة بعينها فأما إذا أردت توجيه هذا الجزاء على كل من أتى بهذا الفعل فالرفع أولى وهذا القول هو الذي إختاره الزجاج ثم أيدوا هذا الوجه بوجوه:

**أحدها:** أن الله تعالى صرح بذلك وهو قوله: **جَزَاءٌ بِمَا كَسَبَا** وهذا دليل على أن القطع شرع جزاءً على فعل السرقة فوجب أن يعم الجزاء لعموم الشرط.

**الثاني:** أن السرقة جناية و القطع عقوبة وربط العقوبة بالجناية مناسب وذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على أن الوصف علة لذلك الحكم.

**الثالث:** أننا لو حملنا الآية على هذا الوجه كانت الآية مفيدة ولو حملناها على سارقٍ معين كما هو مقتضى النصب صارت مجملة غير مفيدة فكان الرفع أولى إذا عرفت هذا فنقول بناءً على الرفع فالسارق والسارقة مبتدأ وخبره مضمر وهو ما يتلى عليكم فحينئذ قد تمت هذه الجملة بمبتدأها وخبرها وفي الآية مسائل:

**الأولى:** هل الآية مجملة أو لا فذهب قوم إلى إجمالها وإستدلوا عليه بوجوه:

**الأول:** أن الحكم في الآية معلق على السرقة ومن المعلوم أن مطلق السرقة لا يوجب القطع بل له شرائط مقررة وحيث أنها غير مذكورة في الآية وكانت مجملة.

**الثاني:** أنه تعالى أوجب قطع الأيدي وليس فيه بيان أن الواجب قطع الإيمان أو الشرائع وبالإجماع لا يجب قطعهما معاً فكانت مجملة.

**الثالث:** أن اليد إسم يتناول الأصابع فقط وقد يقع على الأصابع والكف وقد يقع على الأصابع والكف والساعدين إلى المرفقين ويقع على كل ذلك إلى المنكبين وإذا كان لفظ اليد محتملاً لكل هذه الأقسام والتعيين غير مذكور في الآية فكانت مجملة.

**الرابع:** أن قوله فأقطعوا خطاب مع قوم فيحتمل أن يكون هذا التكليف واقعاً على مجموع الأمة وأن يكون واقعاً على طائفة مخصوصة منهم وأن يكون واقعاً على شخص معين منهم وهو إمام الزمان كما يذهب اليه الأكثرون ولما لم يكن التعيين مذكوراً في الآية فكانت مجملة فثبت بهذه الوجوه أن هذه الآية مجملة على الإطلاق ذكر هذه الوجوه الرأزي في تفسيره ثم أجاب عنها بما لا فائدة في نقله والأحسن في الجواب ما قاله الشيخ في التبيان وهو أن الآية غير مجملة بالنسبة إلى وجوب القطع على كل سارق ومجملة بالنسبة إلى من لا يجب قطعه وقد نقلنا كلامه في صدر المبحث.

والذي نقول ونعتمد عليه في المقام هو أن الآية مبينة لأصل الحكم ومجملة بالنسبة إلى كيفية إجراء الحكم.

**أما الأول:** فواضح لأن الله تعالى قال السارق والسارقة فأقطعوا أيديهما وهذا أي الحكم بقطع يد السارق لا إجمال فيه قطعاً.

وأما تعيين السارق الذي يجب قطع يده وأن اليد من أي موضع تقطع تعيين المال المسروق كمّاً وكيفاً وأنه من أي موضع سرق وفي أي حال سرق وأمثال ذلك من الأمور والشرائط المقررة في إثبات السرقة الموجبة لقطع اليد.

فالآية ساكتة عنها فلا بد لنا من التمسك بالسنة في تعيين المراد منها ولهذا قلنا أن الآية مجملة بالنسبة إلى كيفية إجراء الحكم وإلى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله: **وَمَا أَنْتُمْ بِالرُّسُولِ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيْكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا** <sup>(١)</sup>.

**الثانية:** إطلاق السرقة أو عمومها في الآية يتناول الصغير والكبير والحر والمملوك والمسلم والكافر وبأي وجه تحققت السرقة والقطع ظاهر في الإبانة وأن كان قد يستعمل في غيرها.

و ظاهر الأيدي مشمول اليسار وأنها من المنكب وأن كانت قد تطلق على غيره ولكن ظاهر الآية غير مراد قطعاً وبمحكم ما أتاكم الرسول فخذوه. وقوله: ويبين للناس ما نزل إليهم ونصّ أنّي مخلف فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي الحديث يعرف المراد بها.

**الثالثة:** السرقة التي توجب القطع هي ما أخذ من الحرز لقول الصادق في صحيحة محمد بن مسلم كل من سرق من مسلم شيئاً قد حواه وأحزاه فهو يقع عليه إسم السارق وهو عند الله السارق.

وفي رواية السكوني عن أبي جعفر عليه السلام: عن أبيه عن علي عليه السلام قال كل مدخل يدخل فيه بغير إذن يسرق منه السارق فلا قطع عليه فهي تدل بمفهومها على أنّ الأخذ من الموضع الذي يحتاج في الدخول إليه إلى الإذن يعدّ سرقة وأن كانت الأبواب مفتحة.

وتدل عليه حسنة أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام: فقد قيل له فإن سرق من منزل أبيه فقال عليه السلام لا تقطع لأنّ ابن الرجل لا يحجب من الدخول إلى منزل أبيه هذا خائن وكذا أن سرق من منزل أخيه وأخته إذا كان يدخل عليها لا يحجبانه عن الدخول انتهى.

ويظهر من هذه الأخبار ونحوها أنّ الحرز عبارة عن كلّ موضع لم يكن لغير المتصرف فيه الدخول إلاّ بأذنه وأن كانت بابها مفتوحة وربما يقيد بكون صاحبه فيه وفي حكمه قبر الميت في سرقة الكفن والجيب والكمّ الباطنان و نحو ذلك ممّا يشهد العرف في العادة بأنّه حرز فلا قطع في السرقة من الصحراء والطريق والرحى والحمام والمساجد والبساتين والمزارع ومثلها.

**الرابعة:** يشترط في السرقة التي يترتب عليها الحكم الإخراج من الحرز أمّا بنفسه أو بسببه مثل أن يضعه على دابة ويخرجه أو يشده بحبل ونحوه ثمّ يجرّ من خارج أو يأمر غير المميّز من الصبيان والمجانين بإخراجه لضعف المباشر وقوة السبب.

وَأَمَّا مَعَ الْمَشَارِكِ فَيَقْطَعُ إِذَا بَلَغَ نَصِيبَهُ نَصَابًا.  
وَيَذَلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَاهُ إِسْحَاقُ بْنُ عَمَّارٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ  
أَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَقُولُ لَا قَطْعَ عَلَى السَّارِقِ حَتَّى يُخْرَجَ  
بِالسَّرْقَةِ مِنَ الْبَيْتِ وَيَكُونَ فِيهَا مَا يَجِبُ فِيهِ الْقَطْعُ انْتَهَى.  
**الخامسة:** أَنْ لَا يَدْعِيَ السَّارِقُ بِشِبْهِهِ مُحْتَمَلَةٍ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحُدُودَ تَدْرَأُ  
بِالشَّبَهَاتِ.

**السادسة:** أَنْ يَأْخُذَ السَّارِقُ ذَلِكَ سِرًّا فَلَا يَقَعُ فِي الدَّغَارَةِ الْمَعْلَنَةِ وَهِيَ  
الْخَلْسَةُ وَلَا فِي الْإِسْتِلَابِ كَمَا يَذَلُّ عَلَيْهِ بَعْضُ الْأَخْبَارِ.  
**السابعة:** أَنْ لَا يَكُونَ أَمِينًا كَالْمُسْتَوْدَعِ وَالْأَجِيرِ وَفِي حُكْمِهِ الضَّيْفُ إِلَّا أَنْ  
يَكُونَ مُحْرَزًا مِنْ دُونِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَعْدُ خَائِنًا لَا سَارِقًا وَأَنْ لَا يَكُونَ وَالِدًا  
مَمْلُوكًا فَلَوْ سَرَقَ الْأَبُ مِنْ مَالٍ وَلَدَهُ أَوْ الْمَمْلُوكُ مِنْ سَيِّدِهِ فَلَا قَطْعَ لِدَلَالَةِ  
الْأَخْبَارِ مَكْرَهًا عَلَى السَّرْقَةِ وَلَا يَكُونَ الْمَسْرُوقُ مَأْكُولًا فِي عَامِ الْمَجَاعَةِ وَ  
الْأَظْهَرُ تَقْيِيدُهُ بِالْمُضْطَّرِّ إِلَى ذَلِكَ وَلَا طَيْرًا وَلَا رَخَامًا أَشْبَهَ ذَلِكَ لِدَلَالَةِ الْأَخْبَارِ  
عَلَيْهِ.

**الثامنة:** أَنْ يَكُونَ مَا سَرَقَهُ رِبْعَ دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ الْمَسْكُوكِ بِسَكَّةِ  
الْمُعَامَلَةِ أَوْ مَا يَبْلُغُ قِيَمَةَ ذَلِكَ وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ ثَلَاثَ دِينَارٍ وَفِي بَعْضِهَا  
خَمْسَ دِينَارٍ وَفِي بَعْضِهَا عَشْرَةَ دِرَاهِمٍ وَلِأَوَّلِ أَشْهُرٍ وَهُوَ الْمَعْتَمَدُ بِهِ قَالَ  
مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ إِلَى التَّحْدِيدِ بِعَشْرَةِ دِرَاهِمٍ وَالْحَسَنُ  
الْبَصْرِيُّ بِدِرْهَمٍ.

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ لَا حَدَّ لَهُ بَلْ أَيْ شَيْءٍ كَانَ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، فَإِذَا تَمَّتِ الشَّرُوطُ  
يَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ، وَالْمَرَادُ بِالْأَيْدِي فِي آيَةِ الشَّرِيفَةِ هُنَا الْإِيمَانُ وَأَنْ مِنْ سَرَقٍ  
ثَانِيًا تَقْطَعُ رِجْلَهُ الْيَسْرَى وَبِالثَّلَاثَةِ، يَخْلُدُ فِي السِّجْنِ، ثُمَّ أَنْ قُطِعَ الْيَدُ مِنْ وَسْطِ  
الْكَفِّ وَيَتْرَكَ الْإِبْهَامَ وَصَدْرَ رَاحَتِهِ، وَقُطِعَ الرَّجْلُ مِنْ وَسْطِهَا أَيْ مِنَ الْكَهْبِ وَ  
يَتْرَكَ عَقْبَهُ يَمْشِي عَلَيْهَا، وَإِنْ سَرَقَ وَهُوَ فِي السِّجْنِ قُتِلَ.

فقد رُوي العياشي في تفسيره عن أبي جعفر الثاني عليه السلام أنه سأله المعتصم عن السارق من أي موضع يجب أن يُقطع فقال عليه السلام من مفصل أصول الأصابع فَيَتَرَكَ الكَفَّ قال فما الحُجَّة في ذلك قال عليه السلام قول رسول الله ﷺ السُّجُود على سبعة أعضاء الوجه واليدين والرَّكْبَتَيْنِ والرَّجْلَيْنِ فإذا قطعت يده من الكر سوع إذ المِرْفَق لم يبق له يد يسجد عليها أن المساجد لله، يعني بها الأعضاء السبعة التي يسجد عليها فلا تدعوا مع الله أحداً و ما كان لله فلا يُقطع.

و أما عند العامة فالقطع من مفصل الكفّ وعند الخوارج من المنكب وهو باطل لما ذكرناه قال بعض المحققين أن وجه التعبير بالأيدي في الآية هو أن المراد بها الجنس الشامل للأفراد المتعددة و تنبيه الضمير للإشارة الى نوعي السارق و السارقة.

**التاسعة:** لو ذهب يمينه بعد السرقة لم تقطع اليسار و أما قبلها ففي قطع اليد اليسرى أو الرجل خلاف و كذا لو لم يكن له يد يسرى و لا يمينى ففي قطع الرجل خلاف و الوقوف على النفس أحوط و فى ذكر التعليل دلالة على خروج غير المكلف كالمجنون و الصبي عن هذا الحكم فلا قطع عليهما. نعم قد ورد في بعض الأخبار تعزيز الصبي فإن عاد الى السرقة قطع أطراف الأصابع فإن عاد قطع أسفل من ذلك و فى بعض الأخبار يعفى عنه مرتين و بالثالثة تقطع بانه و بالرابعة أسفل من بانه و بالخامسة أسفل من ذلك و قيل غير ذلك و الحق أن في هذا كله من باب التأديب و قد وقع نحوه في كثيرين من التعزيرات.

**العاشر:** في ثبوت السرقة طريقان.

أحدهما: شهادة عدلين على السرقة.

ثانيهما: إقرار السارق مرتين.

و أعلم أن السرقة إن كانت من حقوق الناس فلهم العفو لكن قبل الإثبات عند الإمام و أما بعده فلا يسقط القطع كما تدل عليه الأخبار.

**الحادية عشرة:** لا يغني القطع عن ردّ المسروق بل لابدّ للسارق من ردّه أو مثله أو قيمته عند التّعذر وعليه إجماع الإماميّة لقوله ﷺ: **عَلَى الْيَدِ مَا أَخَذَتْ حَتَّى تَوْدِيَ**، وهو المروي عن أئمتنا عليهم السّلام وخالف في ذلك الحنفيّة فقالوا لا يجتمع القطع والغرم إستدلالاً بظاهر الآية والجواب أنّها مختصة بما ذكرناه.

**الثانية عشرة:** من تكرّرت منه السرقة ولم يرفع بينهما فالقطع واحد لأنّه حدّ فتداخل أسبابه لو اجتمعت وهل القطع للأولى أو الثانية قولان.

وأما قوله: **جَزَاءُ بِمَا كَسَبْنَا نَكَالاً** فالنكال العذاب أي إفعلوا بهم ذلك مجازاة لهم، أو فافعلوا بهم ذلك ردعاً لهم عن العود الى مثله أو لنيكل غيره نكالاً عن مثل فعله من نكل ينكل اذا جبن **فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** المراد بالظلم هنا الظلم على النفس وعلى الغير والمعنى من تاب ورجع عمّا فعله بعد ظلمه لنفسه ولغيره بالسرقة وغيرها، وأصلح، أي استمر على توبته وأظهر الندم على ما فعل أو أتى بالأعمال الصّالحة الدّالة على إنباته فإنّ الله يتوب عليه وعده لا خلف فيه ففي الآية ترغيب على التّوبة والإقلاع عن المعاصي كما يدل عليه الإنيان بالجملة الإسميّة المؤكّدة بحرف التّأكيد وفي قوله: **غَفُورٌ رَحِيمٌ** دلالة على أنّ التّوبة وسقوط العقاب من باب التّفضل المترتب على رحمته وأيضاً فيها دلالة على سقوط الحدّ عن التّائب إلا أنّ الأخبار خصّصت ذلك بما اذا كان قبل الثّبوت عند الحاكم.

فقد روي الشيخ في الصّحيح عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله قال اذا جاء السّرق من قبل نفسه تائباً وردّ سرقة على صاحبه فلا قطع عليه انتهى.

وعن جميل بن درّاج عن رجل عن أحدهما **عليّاً** في رجل سرق أو شرب الخمر أو زنى فلم يعلم بذلك منه ولم يؤخذ حتّى تاب وصلح وعرف منه أمر جميل لم يقيم عليه الحدّ انتهى.



وقال أبو حنيفة لا يسقط الحدّ وهو أحد قولي الشافعي، وإعلم أنّه يظهر من بعض الأخبار الفرق بين الثبوت بالإقرار والثبوت بالبيّنة ففي الأوّل أن شاء الإمام عفى وأن شاء قطع.

**في الثّاني:** فليس للإمام أن يعفو عنه والأصل فيه ما رواه الشّيخ قال جاء رجل إلى أمير المؤمنين فأقرّ بالسّرقة فقال عليه السلام له أتقرأ شيئاً من كتاب الله قال نعم سورة البقرة قال عليه السلام قد وهبت يدك سورة البقرة فقال الأشعث أتعطلّ حدود الله (حدّاً من حدود الله) فقال عليه السلام وما يدريك يا هذا إذا قامت البيّنة فليس للإمام أن يعفوا وإذا أقرّ الرّجل على نفسه فذلك إلى الإمام أن شاء عفى وأن شاء قطع انتهى.

وليعلم أنّ هذا يجري بعد التّوبة وأمّا قبلها فلا فرق بين الثبوت بالإقرار أو بالبيّنة في إجراء الحدّ وعدم إختيار الإمام كما مرّ الكلام فيه.

**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**

هذه الآية كأنّها جواب عن سؤالٍ مقدّر وهو أنّه كيف يتوب الله على من تاب من بعد ظلمه، فقال في الجواب ألم تعلم يا محمّد، والمراد أمّته، وقيل أنّه متّوجه إلى كلّ مكلفٍ من النّاس وتقديره، ألم تعلم يا إنسان، أنّ الله له ملك السّموات والأرض، فهو يتصرّف فيهما من غير دافع ولا منازع بما شاء وكيف يشاء كما هو مقتضى المالكيّة والخالقيّة، فيعذب من يشاء، من عباده و يغفر لمن يشاء منهم وهو على كلّ شيءٍ قدير لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون. وفي ذلك دلالة على أنّه تعالى قادر على أن يعاقب على وجه الجزاء لأنّه لو لم يكن قادراً عليه لما كان فيه وجه مدح وقوله على كلّ شيءٍ قدير عام في كلّ ما يصح مقدوراً وقد تكلمنا في عموم القدرة سابقاً.

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ  
 فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ  
 تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ  
 لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ  
 يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ  
 أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ  
 مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا  
 أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ  
 فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ  
 (٤١) سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْأَلُونَ لِمِلْسَتِهِ فَإِنْ  
 جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ  
 تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ  
 فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ  
 (٤٢) وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا  
 حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ  
 بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ  
 نُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ  
 هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ  
 كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا  
 النَّاسَ وَآخَشُونِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا  
 وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ  
 الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ

بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنِ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفِ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥)

### ◀ اللغة

لِلشَّحْتِ، الشَّحْتُ بَضَمُ السِّينِ فِي الْأَصْلِ، الْقَشْرُ الَّذِي يَسْتَأْصِلُ وَيَطْلُقُ عَلَى الْمَحْظُورِ الَّذِي يُلْزَمُ صَاحِبُهُ الْعَارُ كَأَنَّهُ يَسْحَتُ دِينَهُ وَمَرْؤَتَهُ وَبَاقِيَ اللِّغَاتِ وَاضِحٌ.

### ◀ الإعراب

مِنْ الَّذِينَ قَالُوا فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ عَلَى الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي يَسَارِعُونَ أَوْ مِنَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَتَّعِلِقَ بِقَالُوا وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ الْجُمْلَةُ حَالِ سَمَاعُونَ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ أَيِ هُمْ سَمَاعُونَ وَقِيلَ، سَمَاعُونَ مُبْتَدَأٌ وَمَنْ الَّذِينَ هَادُوا خَبَرُهُ لِلْكَذِبِ فِيهِ وَجْهَانِ:  
أحدهما: أَنَّ اللَّامَ زَائِدَةٌ تَقْدِيرُهُ سَمَاعُونَ الْكَذِبِ.

الثَّانِي: أَنَّهَا لَيْسَتْ زَائِدَةٌ وَالْمَفْعُولُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ سَمَاعُونَ أَخْبَارَكُمْ لِلْكَذِبِ أَيِ لِيَكْذِبُوا عَلَيْكُمْ فِيهَا وَ سَمَاعُونَ الثَّانِيَّةُ تَكْرِيرٌ لِلأَوَّلِ لِقَوْمٍ مَتَّعِلِقَ بِهِ أَيِ لِأَجْلِ قَوْمٍ لَمْ يَأْتُواكَ فِي مَوْضِعٍ جَرَّ صِفَةً أُخْرَى لِقَوْمٍ يُحَرِّفُونَ مُسْتَأْنَفٌ لَا مَوْضِعَ لَهُ أَوْ فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ خَبَرَ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ أَيِ هُمْ يَحَرِّفُونَ.

الثَّانِي: لَيْسَتْ بِمُسْتَأْنَفٍ بَلْ هُوَ صِفَةٌ لِسَمَاعُونَ أَيِ سَمَاعُونَ مُحَرِّفُونَ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالاً مِنَ الضَّمِيرِ فِي سَمَاعُونَ يَقُولُونَ مِثْلَ يَحَرِّفُونَ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالاً مِنَ الضَّمِيرِ فِي يُحَرِّفُونَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَيِ شَيْئاً

كائنًا من أمر الله سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَي هُم سَمَاعُونَ أَكَالُونَ لَلشَّحْتِ أَي هُم أَكَالُونَ فَلَنْ يَصْرُوكَ شَيْئًا فِي مَوْضِعِ الْمَصْدَرِ أَي ضَرًّا وَ كَيْفَ يَحْكُمُونَكَ كَيْفَ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي يَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ الْتَوْرَةُ جُمْلَةً فِي مَوْضِعِ الْحَالِ وَالتَّوْرَةُ مَبْتَدَأٌ وَعِنْدَهُمُ الْخَبَرُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ وَحُكْمُ اللَّهِ مَبْتَدَأٌ أَوْ مَعْمُولُ الظَّرْفِ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ التَّوْرَةِ بِمَا اسْتُحْفِظُوا بَدَلَ مِنْ قَوْلِهِ، بِهَا فِي قَوْلِهِ، يَحْكُمُ بِهَا، وَقِيلَ مَفْعُولٌ بِهِ أَي بِسَبَبِ إِسْتِحْفَازِهِمْ ذَلِكَ وَ، مَا، بِمَعْنَى، الَّذِي، أَي بِمَا اسْتَحْفَظُوهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ حَالٍ مِنَ الْمَحْذُوفِ أَوْ مِنْ، مَا، وَعَلَيْهِ يَتَعَلَّقُ بِشَهَادَةِ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ فِي مَوْضِعِ رَفْعِ خَبَرِ أَنْ، وَفِيهِ ضَمِيرٌ وَأَمَّا، الْعَيْنُ إِلَى قَوْلِهِ، وَالسَّنْ، فَيَقْرَأُ بِالنَّصْبِ عَلَى مَعْمُولٍ، أَنْ، وَبِالرَّفْعِ وَفِيهِ ثَلَاثَةٌ أَوْجُهٌ:

أحدها: هُوَ مَبْتَدَأٌ وَالْمَجْرُورُ خَبَرُهُ.

الثاني: أَنْ الْمَرْفُوعُ مِنْهَا مَعْطُوفٌ عَلَى الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ، بِالنَّفْسِ.

الثالث: أَنَّهَا مَعْطُوفَةٌ عَلَى الْمَعْنَى لِأَنَّ مَعْنَى كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ، قُلْنَا لَهُمُ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالتَّجْرُوحَ مَوْضِعُهَا النَّصْبُ حَمَلًا عَلَى النَّفْسِ وَبِالرَّفْعِ وَفِيهِ الْأَوْجُهُ الثَّلَاثَةُ الْمَذْكُورَةُ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا أَيِ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فِي شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

### ◀ التفسير

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ

الظاهر أَنَّ الآيةَ نَزَلَتْ فِي النِّفَاقِ وَدَمَّةٌ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى النَّبِيَّ عَنِ الْحُزَنِ فِيمَنْ سَارَعَ فِي الْكُفْرِ بِإِعْرَاضِهِ عَنِ الْإِيمَانِ وَإِقْبَالِهِ عَلَى النِّفَاقِ فَقَالَ تَعَالَى: لَا يَحْزُنْكَ نِفَاقُهُمْ وَكَفَرُهُمْ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا أَيِ صَدَّقْنَا، بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ، أَيِ لَمْ تَصْدَقْ قُلُوبُهُمْ وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْإِيمَانَ مِنْ

الأمر القلبية الاعتقادية فمن ظنَّ أنه يحصل بالإقرار فقط أخطأ وقد تقدّم الكلام في الإيمان غير مرة بما لا مزيد عليه وَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعٌ بفتح السين وتشديد الميم مبالغة من، سامع مثل جابر وجبار والمعنى أن بعضاً من اليهود سمّاعون كلامك للكذب عليك لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ أَي لِيَكْذِبُوا عَلَيْكَ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ، أي هم عيون وجواسيس عليك من قومهم فيدعون الإيمان عندك ويبطنون الكفر في قلوبهم كما حكى الله عنهم في سورة البقرة حيث قال: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ<sup>(١)</sup> يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِتَحْرِيفِ الْكِتَابِ أَي فَقَالُوا لَهُؤُلَاءِ الْجَوَاسِيسُ أَنْ أَفْتَاكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْجُلْدِ فَخَذُوهُ وَأَنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَلَا تَقْبَلُوهُ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَدْ كَانُوا حَرَفُوا حُكْمَ الْجُلْدِ الَّذِي فِي التَّوْرَةِ إِلَى جُلْدِ أَرْبَعِينَ وَتَسْوِيدِ الْوَجْهِ وَ الْإِشْهَارِ عَلَى حِمَارٍ.

قاله ابن عباس وجابر وسعيد بن المسيب وغيرهم وقال قتادة أنما كان ذلك في قتيلٍ منهم قالوا إن أفتاكم بالدّية فأقبلوه وإن أفتاكم بالقود فأحذروه وقال أبو جعفر نزلت الآية في أمر بني النضير وبني قريظة وقوله يحرفون الكلم قيل المراد به تحريف كلام النبي بعد سماعه.

وقال بعضهم، المراد بالتحريف هو جعلهم بدل رجم المحصن، جلد أربعين تغييراً لحكم الله، وقوله من بعد مواضعه معناه من بعد استقراره في مواضعه ومضي الأيام عليه يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخَذُّوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا أَي إِنْ أُوتِيتُمْ مِنْ مُحَمَّدٍ مَا قَلَنَاهُ لَكُمْ، فَخَذُّوهُ، وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ، بَأَنْ قَالَ لَكُمْ خَلَّافٌ مَا قَلَنَاهُ فَاحْذَرُوا وَلَا تَقْبَلُوهُ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً قيل المراد بالفتنة، الفضيحة وقيل الهلاك العذاب والمآل

في تفسير القرآن

جزء ٦

الجلد السادس

واحد و المعنى من يرد الله فضيحتة أو هلاكه أو عذابه، فلا يقدر أحدٌ على دفعه كائنًا من كان قال الله تعالى: **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** <sup>(١)</sup>.

### أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ

أي أولئك الكفار والمنافقون لم يرد الله ولم يقصد تطهيرهم من الكفر بالحكم بأنها بريئة منه متّصفة بضدّه، كما يطهر قلوب المؤمنين بذلك قال البلخي ولا يجوز أن يكون المراد بذلك الذين لم يرد منهم الإيمان لأنه لو لم يكن مريدًا منهم الإيمان لم يكن مكلفًا لهم مع أنه كلّفهم وأمرهم به بلا خلاف والأمر لا يكون أمرًا إلا بإرادة المأمور به على ما بيّن في غير موضع.

أقول الاحتمالات ثلاثة:

أحدها: معناه لم يرد الله أن يمدّ قلوبهم بالأنطاف والعنايات الإلهية وذلك لعلمه تعالى بأنه لا فائدة في تلك الأنطاف لأنها لا تنجع في قلوبهم.

ثانيها: **لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ** عن الحرج والغمّ والوحشة الدالة على كفرهم.

ثالثها: أن هذا إستعارة عن سقوط وقعه عند الله وأنه تعالى غير ملتفتٍ إليه بسبب قبح أفعاله و سوء أعماله، ذكر هذه الوجوه الرّازي في تفسيره.

وقال بعض المفسّرين في معناه، أي سبق لهم في علم الله ذلك وأن يكونوا مذلسين بالكفر لإنهما كهّم في الكفر والضلالة وإصرارهم عليهما وإعراضهم عن صرف إختيارهم الى تحصيل الهداية بالكلية كما ينبأ عنه وصفهم بالمسارعة في الكفر أولاً وشرح فنون ضلالتهم ثانيًا. قال والجملة إستئناف مبين لكون إرادته تعالى لفتنتهم منوطة بسوء إختيارهم وقبح صنيعهم الموجب لها لا واقعة منه تعالى ابتداءً.

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ

قيل خزي المنافقين هتك سترهم بإطلاع الرسول ﷺ على كذبهم و خوفهم من القتل و خزي اليهود فضيحتهم بظهور كذبهم في كتمان نص الله في إيجاب الرجم و أخذ الجزية منهم و لهم في الآخرة، مع الخزي الدنيوي، عذاب عظيم، وهو الخلود في النار، أو غير ذلك من أنواع العذاب سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّخْتِ أَيَّ أَنَّ الْيَهُودَ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلْسُّخْتِ، و السَّماع مبالغة من سامع و الأَكَال بفتح الألف و تشديد الكاف مبالغة من أكل و المعنى أَنَّ اليهود لهم صنعتان.

أحدهما: أَنَّهُمْ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ و قد مرَّ معناه.

ثانيهما: أَنَّهُمْ أَكَّالُونَ لِلْسُّخْتِ أَيَّ الْحَرَامِ و التَّعْبِيرُ بِصِيغَةِ الْمَبَالِغَةِ فِي الْمَوْضِعِينَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى حُرْصِهِمْ عَلَى السَّمَاعِ و الأَكْلِ كَذَلِكَ.

و روي عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ السُّخْتَ الرِّشْوَةُ فِي الْحُكْمِ، و فيه لغتان ضمَّ الحاء و إسكانها و قد قرأ بهما فَالسُّخْتُ إِسْمٌ لِلشَّيْءِ الْمَسْحُوتِ و ليس بمصدر لَأَنَّهُ بَفَتْحِ السِّينِ.

و قال الحسن سمعوا كذبه و أكلوا رشوته.

و عن عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: السُّخْتُ الرِّشْوَةُ فِي الْحُكْمِ و مَهْرُ الْبَغْيِ و عَسْبُ الْفَحْلِ و كَسْبُ الْحَجَّامِ و ثَمْنُ الْكَلْبِ و ثَمْنُ الْخَمْرِ و ثَمْنُ الْمَيْتَةِ و طَوَانُ الْكَاهِنِ و الإِسْتِعْجَالُ فِي الْمَعْصِيَةِ.

و روي عن أَبِي هُرَيْرَةَ مِثْلَهُ و أَصْلُ السُّخْتِ الإِسْتِئْصَالُ كَمَا مَرَّ فِي شَرْحِ اللَّغَاتِ.

فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ

أَيَّ أَنْتَ بِالْخِيَارِ بَيْنَ الْحُكْمِ و الإِعْرَاضِ عَنْهُمْ و إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا أَيَّ و أَنَّ تَعْرِضَ عَنْهُمْ فِي الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ فِي زِنَاءِ الْمُحْصَنِ و قَالَ

إبن زيد أنه تعالى خيّرهُ في الحكم بينهم في قتل من اليهود فلن يضروك شيئاً، أي أنت آمن من ضررهم منصور عليهم على كل حال.

وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ

أي وأن أردت الحكم بين اليهود فأحكم بينهم بالقسط كما تحكم بين المسلمين وفيه دلالة على أن الحكم بغير العدل والقسط لا يجوز ولو كان بين الكفار ولذلك قال أن الله يحبّ المقسطين على كل حال وفي جميع الموارد لأنّ ضدّ العدل الظلم وهو قبيح على كل حال فكذلك ضده وهو العدل حسنٌ على كل حال قضاءً لحقّ الضدّ.

وَكَيفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ

كيف للتعجب والمعنى كيف يجعلونك حكماً بينهم ويرضون بك والحال أن التّوراة عندهم وفيها حكم الله وهو واحد لا فرق فيه وهو تقرّيع لليهود والمقصود أنّهم لا يرضون بك واقعاً ولذلك قال ثمّ يتولّون أي ثمّ يعرضون من حكمك ولا يعملون به ولا يقبلونه وذلك لأنّهم لم يؤمنوا برسالتك.

قال بعض المفسرين فيه دليل على أنّه لم ينسخ لأنّه لو نسخ لم يطلق عليه بعد النسخ أنّه حكم الله كما لا يطلق أنّ حكم الله تحليل الخمر أو تحرّيم السّبب.

وقال الحسن، فيها حكم الله، بالرجم وقال قتادة وعصياناً لي فيها حكم الله بالقود، فإن قيل أليست التّوراة محرّفة مغيرة فكيف يقولون: فيها حكم الله.

قلنا لا يمتنع أن يكون فيها هذان الحكمان غير مبدلين وهما رجم المحصن وجوب القود، ويحتمل أن يكون المراد بذلك فيها حكم الله عندهم لأنّهم لا يقرّون بأنّها مغيرة ومحصل الكلام هو أنّ الحكم الذي يجعلونك حكماً فيه



بينهم وهو رجم المحصن وجوب القود أو غيرهما موجود في التّوراة عندهم لم ينسخ فلا وجه للسؤال منك والمفروض أنّهم لم يؤمنوا لك وإذا كان كذلك فليس في تحكيمهم أيّاك غير العناد والجهل والاستخفاف ولذلك يتولون بعد الحكم وينصرفون عنه كأن لم يكن شيئاً مذكوراً إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ أَي فِيهَا بَيَانٌ أَنَّ أَمْرَ النَّبِيِّ حَقٌّ وَأَنَّ مَا سَأَلُوكَ فِي رَجْمِ الْمُحْصَنِ وَجُوبِ الْقُودِ أَيْضاً حَقٌّ فَتَبَتِ أَنَّ التَّوْرَةَ تَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَكَيْفَ لَا تَكُونُ كَذَلِكَ وَهِيَ كَلَامُ اللَّهِ الْمَنْزُولُ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ كغِيَرَهَا مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ وَحُكْمِ الْأَمْثَالِ وَاحِدٌ.

وَأَمَّا أَنَّهُ نُورٌ، فَلَأَنَّ التُّورَ ظَاهِرٌ بِالذَّاتِ وَمُظْهَرٌ لِلْغَيْرِ وَالْكِتَابُ أَيْضاً كَذَلِكَ وَآتَمَّا قُلْنَا الْكِتَابَ كَذَلِكَ وَلَمْ نَقُلْ أَنَّ التَّوْرَةَ كَذَلِكَ لِعَدَمِ الْفَرْقِ بَيْنِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ فَلَا أَنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْقُرْآنَ كُلَّهَا نُورٌ فَكَمَا أَنَّ التُّورَ الْحَسَنِيَّ رَافِعٌ لِلظُّلْمَةِ الْحَسَنِيَّةِ كَذَلِكَ التُّورُ الْمَعْنَوِي وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ رَافِعٌ لِلظُّلْمَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ كَالْكَفْرِ وَالْجَهْلِ وَالضَّلَالَةِ وَأَمْثَالِهَا وَقَوْلُهُ: يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا أَي الَّذِينَ أَدْعَوْنَا بِحُكْمِ اللَّهِ وَأَقْرَبُوا بِهِ وَمِنْهُمْ نَبِيُّ الْإِسْلَامِ وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ كَانَ مُتَعَبِّداً بِشَرْعِ مُوسَى فِي جَمِيعِ الْأَحْكَامِ بَلْ مَعْنَاهُ أَنَّ مَا لَمْ يَنْسَخْ مِنَ التَّوْرَةِ فَهُوَ مُتَّبَعٌ لِلنَّبِيِّاءِ بَعْدَ مُوسَى وَهُوَ كَذَلِكَ فِي هَذَا الْكَلَامِ تَنْبِيهُ لِلْيَهُودِ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ حَيْثُ عِلْمُ مَا هُوَ مِنْ غَامُضِ عِلْمِ التَّوْرَةِ وَمِمَّا قَدْ إلتبسَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْيَهُودِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَقْرَأْ كُتُبَهُمْ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى عُلَمَاءِهِمْ فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلَّا بِإِعْلَامِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ مِنْ دَلَائِلِ صَدَقَةِ ﷺ وَأَيْضاً فِيهِ إِيْمَاءٌ إِلَى صَدَقِ مُوسَى وَعِيسَى وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حَقٌّ وَلِذَلِكَ حُكْمُ الرَّسُولِ بِصَدَقِ مَا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ كَمَا كَانَ عِيسَى مُصَدِّقاً لِلتَّوْرَةِ.

الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ

قوله: **الَّذِينَ أَسْلَمُوا** صفة النبيين والمعنى يحكم بالتوراة النبيون الذين أسلموا أي أذعنوا بحكم الله وأقرّوا به للذين هادوا، المراد بهم اليهود، والزبانيون، جمع ربّاني، وهم العلماء البصراء بسياسة الناس وتدير أمورهم، والأخبار جمع، خبر، وهو العالم، وقوله: **بِمَا اسْتُخْفِظُوا** معناه بما استودعوا وقوله: **كَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ** أي شهداء على حكم النبي في التوراة أو شهداء على ذلك الحكم أنّه الحقّ من عند الله **فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ** يا علماء اليهود في كتمان ما أنزلت، أو في الحكم بغير ما أنزلت **وَآخْشَوْنِ** أي وأخشوني فإنّ النّفع والضّر بيدي لا بيد غيري **وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا** أي لا تأخذوا بترك الحكم الذي أنزلته على موسى أيها الأخبار خسيساً وهو الثمن القليل **وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** قيل معناه من كتم حكم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حكماً بين عباده فأخفاه وحكم بغيره من رجم المحصن والقود فأولئك هم الكافرون، حقاً وينبغي التنبيه على أمور:

**أحدها:** أنّ قوله: **يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ** أي بالتوراة دليل على أنّ التوراة وما فيها من الأحكام كانت متبعة بعد موسى إلى مجيئ عيسى عليه السلام ونزول الإنجيل والمراد بالنبيون الأنبياء الذين كانوا بعد موسى وذلك أنّ الله تعالى بعث في بني إسرائيل كثيراً من الأنبياء ولم يكن معهم كتاب إلا كتاب موسى و كانوا مأمورين بإقامة التوراة والعمل بأحكامها حلالها وحرامها.

**ثانياً:** أنّ قوله: **أَسْلَمُوا** أي إنقادوا الحكم التوراة.

إن قلت كلّ نبي لا بدّ وأن يكون مسلماً متقاداً لصاحب الشريعة وهو الرّسول وفي المقام حيث كان موسى صاحب كتاب وشريعة والأنبياء بعده إلى زمان عيسى لم يكونوا كذاك ولا أحدهم صاحب كتاب وشريعة فلا محالة كانوا مسلمين متقادين لشريعته فما فائدة قوله: **أَسْلَمُوا**.

قلت الأمر كما تقولوا والحقّ أنّ القيد توضيحي أي يحكم بها النبيون المتقادون أي أنّ النبي يكون كذلك لا أنّ النبي قد يكون متقاداً وقد لا يكون،

وقد أجاب بعضهم عن الإشكال بما حاصله أنّ المراد بالنَّبِيُّون هم الذين كانوا من مبعث موسى الى مبعث عيسى، فأَنَّ من الأنبياء من لم تكن شريعته شريعة موسى فقوله: **أَسَلِّمُوا** يدخل من ليست له شريعة ويخرج من له شريعة مستقلة.

**أقول** هذا الجواب ليس بصحيح وذلك لأنّ الكلام في التّوراة وهي كتاب موسى: **يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسَلَّمُوا** ظاهر في الأنبياء بعد موسى الى عيسى ومن المعلوم أنّهم كانوا مرّوجين مطيعين لشريعة موسى وأما الأنبياء قبل موسى فخروجهم عن الموضوع قطعاً لا يحتاج الى قوله: **أَسَلَّمُوا** عيسى ومحمد ﷺ حيث كانا صاحب كتاب و شريعة مستقلة فهما خارجان قطعاً فلا يبقى في البين إلاّ الأنبياء الذين كانوا بعد موسى الى عيسى وهم صنف واحد ولم يكن فيهم من لم يسلم حتّى يحتاج الى قوله: **أَسَلَّمُوا** فلا محالة يكون القيد توضيحياً لا غير وهو المطلوب.

**ثالثها:** أنّ الآية تدلّ بظاهرها على أنّ الأحكام الشرعية الثابتة في الكتب السماوية يجب إتباعها ما لم يدلّ دليل على نسخها وما نحن فيه من هذا القبيل فإنّ حكم القود ورجيم المحصن حيث لم ينسخا في شريعة عيسى و شريعة محمد ﷺ كانا باقيين على قوّتهما وهو كذلك ويمكن أن يستدل على المدعى بأنّ كلّها لله وأنّما تختلف أحكامها بحسب مقتضيات في كلّ عصر وزمان على وجه المصلحة التي رآها الله في عباده فما غيرّه منها فهو منسوخ وما بقي منها على حاله فهو باق وهو واضح.

**رابعها:** في قوله تعالى: **فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُونِ** إشارة الى أنّ العلماء الذين يفسّرون الكتاب في كلّ أمة وظيفتهم تبين الحكم للناس و مراعاة الأمانة في أعلام الحكم.

وأما تفسير الكتاب على طبق أميال الناس ولا سيّما الحكّام منهم، خيانة بل جناية الأسف فعلوا بالكتاب ما فعلوا، في جميع الأمم فهذا كتاب التّوراة و

هذا كتاب الإنجيل، تراهما قد مسخا عما كانا عليه، بحيث لا يطلق كتاب الله عليهما في زماننا هذا.

وأما القرآن وأن لم يكن كذلك من حيث الآيات والكلمات إلا أنه وقع في هذه الهلكة من حيث التفسير والمعنى، فأن كل صنف يجزئ النار الى قرصته و ستقف على شطر منها في تضاعيف هذا الكتاب هذا وقد قال الله تعالى: وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا فَتَأْمَلْ ثُمَّ أعجب.

وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ

أي فرضنا وأوصينا على اليهود فيها أي في التوراة، أن النفس بالنفس، أي اذا قتلت نفس نفساً أخرى متعمداً ظلماً يستحق عليها القود اذا كان القاتل عاقلاً وكان المقتول مكافياً للقاتل بأن يكون مسلمين أو كافرين مملوكين.

وأما لو كان القاتل حرّاً مسلماً والمقتول كافراً أو مملوكاً فأَنْ عندنا لا يقتل و فيه خلاف بين الفقهاء، وأن كان القاتل مملوكاً أو كافراً والمقتول مثله أو فوقه فإنه يقتل به بلا خلاف والباء في قوله: بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنِ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ الخ للبدل أي النفس الإنسانية بدل النفس وكذا البواقي.

أن قلت هذه الأحكام ثابتة في التوراة في شرع موسى كما هو نص الآية حيث قال وكتبنا عليهم، أي على بني إسرائيل وأما في شرعنا فلا دلالة على ثبوتها فيه.

قلنا هذه الأحكام ثابتة في هذه الشريعة أيضاً بالنص والإجماع ولا ينافيه كون الشريعة السابقة منسوخة بهذه الشريعة لأن النسخ لها أنما توجه الى المجموع لا الى كل واحد من الأحكام كما مرّت الإشارة اليه فكأن الآية إشارة الى أن حكم القصاص لم يتغير ولم ينسخ في جميع الشرائع بل هو ثابت الى يوم القيامة وقد مرّ الكلام فيما مضى في هذا الباب بما لا مزيد عليه وسيأتي أيضاً في المستقبل.

وَأَمَّا الْقِصَاصُ فِي الْأَعْضَاءِ فِيرَاعِي فِيهِ مَا يِرَاعِي فِي قِصَاصِ النَّفْسِ مِنَ التَّكَافُوفِ فَلَا قِصَاصَ عَلَى التَّرْتِيبِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي النَّفْسِ سِوَاءٍ وَفِيهِ أَيْضاً خِلَافٌ وَيِرَاعِي فِي الْأَعْضَاءِ التَّسَاوِي أَيْضاً فَقَوْلُهُ: **وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ** مَعْنَاهُ تَقْلَعُ عَيْنَ الْيَمَنِ بِالْيَمَنِ وَالْيَسْرَى بِالْيَسْرَى فَلَا تَقْلَعُ الْيَمَنِ بِالْيَسْرَى وَبِالْعَكْسِ كَمَا لَا تَقْطَعُ الْيَمِينَ بِالْيَسَارِ وَلَكِنْ تَقْطَعُ النَّاقِصَةَ بِالْكَامِلَةِ.

وَأَمَّا عَيْنُ الْأَعْرُ فَإِنَّهَا تَقْلَعُ بِالْعَيْنِ الَّتِي قَلَعْتَهَا سِوَاءَ كَانَتْ مَقْلُوعَةً عِوَاءَ أَوْ لَمْ تَكُنْ.

وَأَنْ قَلَعْتَ الْعَيْنَ الْعِوَاءَ كَانَ فِيهَا كَمَالُ الدِّيَةِ إِذَا كَانَتْ خَلْقَةً أَوْ ذَهَبَتْ بِأَفْءٍ مِنْ اللَّهِ وَهَكَذَا الْكَلَامُ فِي الْأَنْفِ وَالْأُذُنِ وَالسِّنِّ فَإِنَّهُ يَشْتَرِطُ فِيهَا أَيْضاً التَّكَافُوفُ وَأَمَّا قِصَاصُ الْجُرُوحِ فَقَالَ الشَّيْخُ فِي التَّبْيَانِ يَقْتَصُّ مِنْهَا إِذَا كَانَ الْجَارِحُ مَكَافِئاً لِلْجُرُوحِ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي النَّفْسِ فَتَقْتَصُّ بِمِثْلِ جِرَاحَتِهِ، الْمُؤْمِنَةُ بِالْمُؤْمِنَةِ وَهَاشِمَةُ بِالْهَاشِمَةِ وَالْمُنْقَلَةُ بِالْمُنْقَلَةِ وَلَا قِصَاصَ فِي الْمَأْمُومَةِ وَهِيَ الَّتِي أَمَّ الرَّأْسَ وَلَا الْجَايِفَةَ وَهِيَ الَّتِي تَبْلُغُ الْجُوفَ لِأَنَّ فِي الْقِصَاصِ مِنْهَا تَعْزِيزاً بِالنَّفْسِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَقْتَصَّ مِنَ الْجِرَاحِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَنْدَمَلَ مِنَ الْمَجْرُوحِ فَإِذَا إِنْدَمَلَ إقْتَصَّ مِنَ الْجِرَاحِ وَأَنْ سَرَتْ إِلَى النَّصِّ كَانَ فِيهَا الْقُودُ وَكَسَرَ الْعِظْمَ لَا قِصَاصَ فِيهِ وَأَمَّا فِيهِ الدِّيَةُ وَكُلُّ جَارِحَةٍ كَانَتْ نَاقِصَةً فَإِذَا قُطِعَتْ كَانَ فِيهَا حُكُومَةٌ وَلَا يَقْتَصُّ لَهَا الْجَارِحَةُ الْكَامِلَةُ كَيْدٍ شِلَاءٍ وَعَيْنٍ لَا تَبْصُرُ وَسِنَّ سُدُوءٍ مَتَاكَلَةً فَإِنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ حُكُومَةٌ لَا تَبْلُغُ دِيَةَ تِلْكَ الْجَارِحَةِ.

وَقَدْ رَوَى أَنَّ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مَقْدَرًا وَهُوَ ثُلُثُ الدِّيَةِ الثَّابِتَةِ لِلْعِضْوِ الصَّحِيحِ وَتَفْصِيلُ الْأَحْكَامِ مُوَكَّوِلٌ إِلَى الْفَقْهِ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ أَيْ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِالْقِصَاصِ بَأَنْ لَا يَقْتَصَّ مِنَ الْجَارِحِ فَهُوَ، أَيْ التَّصَدَّقُ كَفَّارَةٌ لَهُ، أَيْ لَذَنْبِهِ فَالضَّمِيرُ لِلْمُتَصَدِّقِ لِأَنَّهُ الْمَالِكُ لِلْقِصَاصِ.

وَقِيلَ أَنَّهُ عَانَدٌ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ يَقُومُ مَقَامَ أَخْذِ الْحَقِّ عَنْهُ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ.

ورَدَّ هذا القول بأنَّ العائد يجب أن يرجع إلى مذكور وهو من تصدَّق، وأمَّا المتصدَّق عليه فلم يجر له ذكر، ومعنى من تصدَّق به، عفا عن الحقِّ وأسقط، ومعنى، كفارة له أنه إذا تصدَّق بذلك على الجارح لوجه الله كفرَّ الله عنه بذلك عقوبة ما مضى من معاصيه وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ قيل أنه مختصَّ باليهود الذين لم يحكموا بما أنزل الله في التَّوراة من العقود والزَّجَم والحقُّ أنَّ الحكم على عمومهم في كلِّ من لم يحكم أو لا يحكم بما أنزل الله سواء فيه اليهود وغير اليهود فإنَّ خصوص المورِد لا ينافي شمول الحكم و عمومهم كما قرَّ مراراً مضافاً إلى أنَّ هذا الوجه يوجب أنَّ ما تقدَّم ذكره من الأحكام الثَّابتة في التَّوراة يجب العمل به في هذا الشَّرع بعد أن ثبت عدم النسخ فيها وأن كانت مكتوبة فيها وقد بيَّنا وجهه فيما مضى آنفاً.



وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا  
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ  
هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ  
وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ  
الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا  
أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنزَلْنَا  
إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ  
الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ  
اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ  
لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ  
لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّبَيِّنُوكُمْ فِي مَا  
أَتَيْتُكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ  
جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَن  
أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ  
أَخْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ  
إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن  
يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ  
لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَسْبُغُونَ وَمَن  
أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

اللغة

وَقَفَّيْنَا معناه إتبعنا، يقال قفاه يقفوه وَقَفَّوْا ومنه قافية الشعر لأنها تتبع  
الوزن ومنه القفا.

أَثَارِهِمْ، الْأَثَارُ جَمْعُ أَثَرٍ وَهُوَ الْعَمَلُ الَّذِي يَظْهَرُ لِلْحَسِّ وَأَثَارُ الْقَوْمِ مَا أَبْقَوْا مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَمِنْهُ الْمَأْثُورَةُ وَهِيَ الْمَكْرَمَةُ الَّتِي يَأْتُرُهَا الْخَلْفُ عَنْ السَّلَفِ لِأَنَّهَا عَمَلٌ يَظْهَرُ نَصَاباً لِلنَفْسِ.

مُهَيِّمِنًا، الْمُهَيِّمِينَ بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِ الْهَاءِ وَسُكُونِ الْبَاءِ وَكَسْرِ الْمِيمِ الْمُؤْتَمِنِ وَقِيلَ الْحَفِيزُ وَقِيلَ الرَّقِيبُ وَالْأَصْلُ فِيهِ، مُؤَيِّمِنٌ، فَقَلَبْتَ الْهَمْزَةَ هَاءً كَمَا قِيلَ فِي أَرَقْتَ الْمَاءَ هَرَقْتَ.

شُرْعَةً، الشَّرْعَةُ بِكَسْرِ الشَّيْنِ الطَّرِيقَةُ الظَّاهِرَةُ كَمَا أَنَّ الشَّرِيعَةَ هِيَ الطَّرِيقُ الَّذِي يُوَصِّلُ مِنْهُ إِلَى الْمَاءِ الَّذِي فِيهِ الْحَيَاةُ فَقِيلَ الشَّرِيعَةُ فِي الدِّينِ. مِنْهَاجًا، الْمَنْهَاجُ بِكَسْرِ الْمِيمِ الطَّرِيقُ الْمُسْتَمَرُّ وَقَالَ الْمُبَرِّدُ الشَّرْعَةُ إِبْتِدَاءُ الطَّرِيقِ وَالْمَنْهَاجُ الطَّرِيقُ الْمُسْتَمَرُّ. لِيَبْتَلُواكُمْ، الْبَلَاءُ الْإِمْتِحَانُ وَالْإِخْتِبَارُ أَيُّ لِيُخْتَبَرَكُمْ.

### ◀ الإعراب

مُصَدِّقًا: حَالٌ مِنْ عَيْسَى وَمِنْ أَلْتَوَرِيَةِ حَالٌ مِنْ، مَا، أَوْ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الظَّرْفِ وَفِيهِ هُدًى جَمْلَةٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الْإِنْجِيلِ وَمُصَدِّقًا الثَّانِي حَالٌ أُخْرَى مِنَ الْإِنْجِيلِ وَقِيلَ مِنْ عَيْسَى أَيْضًا وَهُدًى وَمَوْعِظَةً حَالٌ مِنَ الْإِنْجِيلِ أَيْضًا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا مِنْ أَجْلِهِ أَيْ قَفَيْنَا لِلْهُدَى أَوْ وَآيِنَاهُ الْإِنْجِيلِ لِلْهُدَى بِالْحَقِّ حَالٌ مِنَ الْكِتَابِ مُصَدِّقًا حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ بِالْحَقِّ وَلَا يَكُونُ حَالًا مِنَ الْكِتَابِ إِذْ لَا يَكُونُ حَالًا لِعَامِلٍ وَاحِدٍ وَمُهَيِّمِنًا حَالٌ أَيْضًا عَمَّا جَاءَكَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَيْ عَادِلًا عَمَّا جَاءَكَ وَ(مِنْ الْحَقِّ) حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي جَاءَكَ أَوْ مِنْ، مَا، مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ وَفِي الْعَامِلِ وَجْهَانِ:

أحدهما: المصدر المضاف لأنه في تقدير اليه ترجعون جميعاً والضَّمير المجرور فاعل في المعنى أو قائم مقامه.



الثَّانِي: أن يعمل فيه الإستقرار الَّذِي إرتفع به مرجعكم أو الضمير الَّذِي فِي الجارِ وَأَنْ أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي، أَنْ، وجهان:

أحدهما: هي مصدرية والأمر صلة لها وفي موضعها ثلاثة أوجه.  
أحدها: نصب عطفاً على الكتاب في قوله: وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ أَي و أنزلنا إليك الحكم.

الثَّانِي: جرّ عطفاً على الحقّ أي أنزلنا إليك بالحقّ وبالحكم.  
الثالث: أن يكون في موضع رفع تقديره وأن أحكم بينهم بما نزل الله أمرنا أو قولنا أَنْ يَفْتُنُوكَ فِيهِ وجهان:

أحدهما: هو بدل من ضمير المفعول بدل الإشتمال أي أحذرهم فتنتهم.  
الثَّانِي: أن يكون مفعولاً من أجله أي مخافة أن يفتنوك وَمَنْ أَحْسَنُ مَبْتَدَأُ وخبر استفهام في معنى النفي و حُكْمًا تمييز ولِقَوْمٍ هو في المعنى عند قوم يُؤَفَّقُونَ وليس المعنى أَنَّ الحكم لهم وَأَمَّا المعنى أَنَّ الموقن يتدبر حكم الله فيحسن عنده ومثله، أَنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ولقوم يوقنون ونحو ذلك، و قيل هي على أصلها والمعنى إِنَّ حكم الله للمؤمنين على الكافرين وكذلك الآية لهم أي الحجة لهم والباقي واضح لا خفاء فيه.

### ◀ التفسير

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَي و أتبعنا على آثار اليهود بعيسى ابن مريم وجعلناه نبياً ورسولاً بعد موسى بن عمران مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ أَي حال كون عيسى عليه السلام مصدقاً بالتوراة التي أنزلناها على موسى عليه السلام قبله وَأَمَّا قَالَ بَيْنَ يَدَيْهِ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مَا يَأْتِي بَعْدَهُ خَلْفَهُ فَالَّذِي مَضَىٰ قَبْلَهُ، قَدَامَهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ أَي آتينا عيسى بن مريم الإنجيل وهو الكتاب الَّذِي أنزل عليه، فيه هدى، أي بيان و حجة ونور، لما فيه مِنَ الْإِهْتِدَاءِ به كما يهتدي بالنور وقد تكلمنا في معنى

النور عند قوله: **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ** <sup>(١)</sup> وأما وصف الإنجيل بذلك كما وصف التوراة به دليل على عدم الفرق بين التوراة والإنجيل بل وجميع الكتب المنزلة على الأنبياء من هذه الجهة وذلك لأنها كلام الله و كلامه هدى ونور:

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا** <sup>(٢)</sup>.

**وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ**  
وصف الله الإنجيل بكونه مصدقاً للتوراة كما أن عيسى مصدقاً لها فلا تكرار في المقام إذ التصديق الأول حال لعيسى عليه السلام وأنه يدعو أمته الى التصديق بها، وأما التصديق الثاني فهو حال للإنجيل نفسه أي أن الإنجيل يصدق التوراة بأنها كلام الله الذي أنزل على موسى وقوله: **هُدًى وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ**، وصف للإنجيل أي أن الإنجيل يهدي الناس ويعظهم الى الحق. وفي قوله: **لِّلْمُتَّقِينَ** إشارة الى أن شرط الإعتاظ بالإنجيل هو التقوى وأما غير المتقين فليست لهم قابلية الإعتاظ والاستضاءة بنور الإنجيل والتوراة والقرآن، كما قال الله تعالى: **الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يَبْغُوا الْإِيمَانَ وَلَهُمْ جَنَّتُهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** <sup>(٣)</sup> وذلك لما قد ثبت في العلوم العقلية أن شرط تأثير العلة في المعلول هو قابلية التأثير في المعلول وإستعداده لتأثير العلة فيه ألا ترى أن النار لا تؤثر في الحجر مثلاً فعدم التأثير ليس لإضعف العلة بل لعدم قابلية المعلول، فالكتب السماوية و مواظ الأنبياء و الصلحاء أيضاً لا تؤثر في قلوب المعاندين الفاسقين لعدم قابليتها وإستعدادها وهذا أمر واضح محسوس قال الله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** <sup>(٤)</sup>.

وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْأَنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

أمر الله تعالى أهل الإنجيل وهم أتباع عيسى عليه السلام أن يحكموا بما أنزل الله فيه من الأحكام وذلك كما أمر نبينا عليه السلام بالحكم بما أنزل الله عليه في كتابه حيث قال: **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** <sup>(١)</sup>. وقال تعالى: **فَاَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ**.

والآيات كثيرة ثم قال تعالى: **وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** حكم الله بفسق من لم يحكم بما أنزل الله، لأنَّ المعرض عن حكم الله فاسق وأي فسق أكبر وأعظم من مخالفة أوامر الله ونواهيه ومن المعلوم أنَّ الحكم بغير ما أنزل الله كالرَّد على الله وهو في حدَّ الكفر.

وأعلم أنَّ في قوله: **وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْأَنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ** قراءتين.

**الأولى:** قراءة حمزة فأنه قرأ، **لِيَحْكَمْ**، بكسر اللام وفتح الميم فجعل اللام متعلّقة بقوله وآتيناه الإنجيل لأنَّ إتياء الإنجيل إنزال ذلك عليه فكان المعنى، آتيناه الإنجيل ليحكم كذلك.

**الثانية:** قراءة الباقيين وهي أشهر وهي جزم اللام والميم على سبيل الأمر وعليها المصاحف وفيها وجهان:

**أحدهما:** أن يكون التقدير **وَقُلْنَا لِيَحْكُمَ أَهْلُ الْأَنْجِيلِ** فيكون هذا إخباراً عما فرض عليهم في ذلك الوقت من الحكم بما تضمّنه الإنجيل ثم حذف القول لأنَّ ما قبله من قوله: **وَكُتِبْنَا**، وقفينا يدلُّ عليه قالوا وحذف القول كثير قال الله تعالى: **وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ**، **سَلَامٌ عَلَيْكُمْ** <sup>(٢)</sup> أي يقولون سلام عليكم.

**الثاني:** أن يكون قوله: **وَلِيَحْكُمَ** ابتداءً أمر للتصاريء بالحكم في الإنجيل و

هاهنا سؤال وهو أنه كيف يجوز أن يؤمرو بالحكم بما في الإنجيل بعد نزول القرآن، وقد أجابوا عنه بوجوه:

**أحدها:** أن المراد بالحكم في قوله: وَلِيَحْكُمُوا أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بما أنزل الله فيه، الحكم بما أنزل الله فيه من صفة محمد ﷺ والدلائل الدالة على نبوته وذلك لأن أوصافه كانت مذكورة في الإنجيل فكتموها وهو من أدل الدلائل على فسقهم.

**ثانيها:** معناه وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه مما لم يصير منسوخاً بالقرآن وأما المنسوخ فلا.

**ثالثها:** المقصود زجرهم عن تحريف ما في الإنجيل وتغييره مثل ما فعله اليهود من إخفاء أحكام التوراة وعليه فالمعنى وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه على الوجه الذي أنزله فيه من غير تحريف ولا تبديل ذكر هذه الوجوه الرزاي في تفسيره.

**أقول** وفي المقام وجه آخر وهو أن قوله: وَلِيَحْكُمُوا أَهْلُ الْإِنْجِيلِ الخ حكاية عما سلف أي قلنا لهم كذلك وبعبارة أخرى معناه، لما بعثنا إليهم عيسى عليه السلام وأنزلنا عليه الإنجيل فقلنا له ولأتباعه وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه.

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ

هذا خطاب للنبي ﷺ الألف واللام في الكتاب الأول للعهد أي أنزلنا إليك الكتاب إلى آخر المعهود القرآن ويحتمل أن تكون للحضور فقط كما تقول ضربت زيدا اليوم، أي اليوم الحاضر.

وأما في الكتاب الثاني فيمكن أن تكون للعهد الذكري لأنه قد سبق ذكر التوراة والإنجيل وأن تكون للجنس لتشمل التوراة والإنجيل والزبور و

صحف إبراهيم وغيرها من الكتب السماوية فَأَنَّ الْقُرْآنَ يَصَدِّقُ الْكُلَّ، والمعنى وأنزلنا عليك الكتاب يعني القرآن يا مُحَمَّدٌ بِالْحَقِّ حال كونه مصدقاً لما بين يديه من الكتاب يعني التوراة والإنجيل أو جميعها وفي قوله: **مُهِيمِنًا** عليه قولان:

**أحدهما:** أَنَّهُ صِفَةٌ لِلْكِتَابِ وَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْمَفْسَّرِينَ.

**الثاني:** هُوَ صِفَةُ النَّبِيِّ وَ حَرْفُ الْعَطْفِ تَدُلُّ عَلَى الْأَوَّلِ.

وقيل أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَصَدَّقاً وَمَعْنَى قَوْلِهِ: **مُهِيمِنًا عَلَيْهِ** أَي شَاهِداً عَلَيْهِ أَوْ حَفِيزاً أَوْ رَقِيباً عَلَيْهِ أَي أَنَّ الْقُرْآنَ شَاهِدٌ صَدِيقٌ عَلَى صَدَقِ التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ (فَأَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ) أَي بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ وَ عَلَى هَذَا فَيَجِبُ عَلَى الْحُكَّامِ أَنْ يَحْكُمُوا بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالْقُرْآنِ إِذَا تَرَاَفَعُوا إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ الْأَمْرُ يَقْتَضِي الْإِجَابَ، هَذَا إِنْ قُلْنَا بِأَنَّ الْمُرَادَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مَا أَنْزَلَهُ فِي الْقُرْآنِ.

وَأَمَّا أَنْ قُلْنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ مَعْنَاهُ الْعَامَّ الشَّامِلُ لَجَمِيعِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَالْمَعْنَى فَأَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا نَزَلَ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ السَّمَاوِيَّةِ وَلَمْ يَنْسَخْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ **عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ** أَي لَا تَتَّبِعْ يَا مُحَمَّدُ أَهْوَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ أَوْ أَهْوَاءَ أَهْلِ الْقُرْآنِ عَلَى التَّفْسِيرِينَ وَ لَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ أَتْبَعَ أَهْوَاءَهُمْ فَفَنَاهُ اللَّهُ عَنْهُ لِأَنَّهُ مِثْلُ قَوْلِهِ: **لَنْ أَشْرَكَتُ لِيَخْبُطُنَّ عَمَلُكَ** وَ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّرْكَ كَانَ وَقَعَ مِنْهُ وَ قَوْلُهُ: **عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ** أَي لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَادِلًا عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ وَ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُتَابَعَةَ الْحَقِّ لَا إِشْكَالَ فِيهِ بَلْ يَجِبُ وَ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى الْمُتَابَعَةُ بِمَا هِيَ هِيَ لَا إِشْكَالَ فِيهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ عَادِلَةً عَنِ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَ مِنْهَا جَا الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُضَافَ إِلَيْهِ مَحْذُوفٌ أَي وَلِكُلِّ أُمَّةٍ.

فَبَاءَ الْقُرْآنَ فَإِنَّ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٦

المجلد السادس

و الخطاب في، منكم، للناس والمعنى ولكل أمة من الناس شرعة ومنهاجاً  
فاليهود شرعة ومنهاج وللنصارى كذلك ويعنون ذلك في الأحكام وأما  
المعتقد فواحد في الجميع التوحيد والإيمان بالرسول والكتب وما تضمنته  
من المعاد والجزاء وقد ذكر الله تعالى جماعة من الأنبياء شرائعهم مختلفة ثم  
قال: أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده، والمعنى في المعتقدات.

وقال ابن عطية يحتمل أن يكون المراد الأنبياء لا سيما وقد تقدم ذكرهم و  
ذكر ما أنزل اليهم وتجي الآية مع هذا الإحتمال تنبيهاً لمحمد ﷺ والمعنى  
فأحفظ شرعك ومنهاجك لئلا تستزك اليهود وغيرهم في شيء منه وعليه  
فيكون المحذوف النبي والتقدير لكل نبي منكم أيها الأنبياء شرعة ومنهاجاً  
فأحفظوها.

وقال مجاهد الشرعة والمنهاج دين محمد ﷺ والمعنى لكل منكم أيها  
الناس جعلنا هذا الدين الخالص فأتبعوه والمراد بذلك أنا أمرناكم باتباع دين  
محمد إذ هو ناسخ للأديان كلها.

وقيل الشرعة الدين، والمنهاج الدليل وقيل الشرعة النبي، والمنهاج  
الكتاب أي وجعلنا لكل طائفة أو أمة نبياً وكتاباً، هذا ما قالوه في تفسير الآية  
وعن الكافي بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل، يقول فيه  
فلما إستجاب لكل نبي من إستجاب له من قومه من المؤمنين جعل  
لكل منهم شرعةً ومنهاجاً قال عليه السلام والشرعة والمنهاج سبيلٌ و  
سنة وقال الله لمحمد ﷺ أنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح و  
النبيين من بعده، وأمر كل نبي بالأخذ بالسبيل والسنة وكان من  
السبيل والسنة التي أمر الله بها عز وجل موسى عليه السلام أن جعل  
عليهم السبت انتهى.

وفي تفسير علي بن إبراهيم، قوله: لكل جعلنا منكم شرعةً و  
منهاجاً قال عليه السلام لكل نبي شريعة وطريق انتهى.

أقول والذي إستفدناه من الأخبار هو أنّ الآية دالة على إختلاف الشرائع بحسب إختلاف المصالح المُقتضية في كلّ عصرٍ وزمانٍ والمعنى ولكلّ أمةٍ من الأمم جعلنا شريعة مستقلة وأن كانت الشرائع في الأصول واحدة إلا أنّ المقصود هو الإختلاف في الفروع فكلّ أمةٍ مأمورة بإتباع شريعتهما في الأحكام في عصرها وزمانها وأما بعد نسخها فلا، لقوله تعالى في شريعة محمد ﷺ و هي آخر الشرائع النَّاسخة لما قبلها:

قال الله تعالى: **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ.**

قال الله تعالى: **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ<sup>(١)</sup>.**

قال الله تعالى: **الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا<sup>(٢)</sup>.**

فهذه الآيات صريحة في المدعى ولَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً أي ولو شاء الله لجعل الدين واحداً وإذا كان الدين واحداً فلا محالة تكون الأمة أيضاً واحدة وذلك لأنّ إختلاف الأمم أنّما هو بإختلاف الأديان ألا ترى أنّه يقال أمة موسى وأمة عيسى، وأمة محمد كما يقال شريعة موسى وشريعة عيسى وشريعة محمد فلو كانت الشرائع والأديان واحدة في جميع الأعصار كان الإنسان أيضاً أمةً واحدة وأنّما لم يجعل الله الشرائع والأمة واحدة لأنّ المصالح في التكليف بالنسبة الى العباد تختلف بإختلاف الأعصار والأفكار والمقتضيات.

ألا ترى أنّ الأديان من حيث الأحكام مختلفة ومراتب الأنبياء متفاوتة ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، كلمة، لو، للشرط. وقال بعضهم معناه ولو شاء الله أن يجعلكم أمةً واحدة لجعلكموها أي جماعة متفقة على شريعة واحدة في الضلال.

و قيل لجعلكم أمة واحدة على الحق، ولكنه لم يشاء ذلك ليختبركم فيما أتاكم كما قال وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْكُمْ مِنَ الْكُتُبِ أَوْ مِنَ الْأَدْيَانِ وَ الشَّرَائِعِ وَ كان هذا الكلام علة لعدم جعل الناس أمة واحدة قال صاحب الكشف أي ليبلوكم فيما أتاكم من الشرائع المختلفة هل تعملون بها مذعنين معتقدين أنها مصالح قد اختلفت على حسب الأحوال والأوقات معترفين بأن الله تعالى لم يقصد باختلافها إلا ما اقتضته الحكمة أم تتبعون الشبه وتفرون في العمل انتهى كلامه.

وقال ابن جريج وغيره ولكنه لم يشاء لأنه أراد إختبارهم وإبتلاءهم فيما أتاهم من الكتب والشرائع فليس لهم إلا أن يجدوا في إمتثال الأوامر، أقول المأل في الأقوال واحد.

فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُبَيِّنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ أي اذا كان الأمر على هذا المنوال وأنتم في معرض الإختبار و الإمتحان فاستبقوا الخيرات:

قال الله تعالى: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذن الله<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ<sup>(٣)</sup> وغيرها من الآيات.

ولا شك في حسن الخير ومدحه عقلاً و شرعاً وإذا كان الخير حسناً في نفسه فالفضل لمن سبق.

و أما قوله: إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ معناه أنكم ترجعون إلى الله لا محالة بالموت:



قال الله تعالى: **إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَخْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** <sup>(٢)</sup>.

وقوله: **فَيُخَيِّبُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** إشارة الى الحساب والكتاب يوم القيامة وهو اليوم الذي لا يملك أحد فيه ضراً ولا نفعاً إلا الله تعالى ولمثل ذلك فليعمل العاملون بل وليبك الباكون أعادنا الله منه **وَأَن آخُكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ** أمر الله تعالى نبيه أن يحكم بينهم أي بين أهل الكتاب بما أنزل الله فيه وأن لا يتبع أهواءهم، في الحكم ثم قال: **وَأَحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** قيل معناه وأحذرهم أن يضلوك بالكذب عن التوراة بما ليس فيها فأنني قد بينت لك حكمها.

وقال ابن عباس معناه، إحذرهم أن يضلوك عن ذلك الى ما يهودون من الأحكام إطماعاً منهم في الإستجابة الى الإسلام. أقول الفتنة البلية والشدة والمعنى إحذرهم أي إحذر اليهود أن يفتنوك، أي يوقعونك في بلية وشدة في صرفهم إياك عما أوحى اليك.

**فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ**

التولي الإعراض أي وأن أعرضوا عن حكمك بما أنزل الله فاعلم يا محمد أنما يريد الله أن يصيبهم أي يصيب اليهود ببعض ذنوبهم وفيه أقوال:

أحدها: ما ذهب اليه الجبائي وهو أنه وإن ذكر لفظ الخصوص فإن المراد به العموم كما قد يذكر العموم ويراد به الخصوص.

ثانيها: أنه على تغليظ العقاب أي يكفي أن يؤخذوا ببعض ذنوبهم في إهلاكهم والتدمير عليهم.

فصل القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

الجلد السادس

**ثالثها:** أن يعجل بعض العقاب بما كان من التمرّد في الإجماع لأنّ ذلك من حكم الله في العباد.

**رابعها:** قال الحسن أنّ المراد به إجماع بني النضير بنقض العهد و قتل بني قريظة بحكم سعد معاذ وإنّ كثيراً من النّاس لفاسقون فيه تسليّة للنبي ﷺ عن إتباع هؤلاء القوم إلى إجابته والإقرار بنبوته وأنّ قليلاً من النّاس يؤمنون وأنّ الأكثرهم الفاسقون فلا ينبغي أن يعظم ذلك عليك وذلك لأنّ هذه سيرة مستمرة في النّاس في جميع الأعصار قال الله تعالى: وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشّكُورُ<sup>(١)</sup>.

**أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.**

قرأ ابن عامر، تبغون، بالتاء والباقون بالياء فمن قال بالتاء فعلى معنى قل لهم، ومن قال بالياء فلاّنّ ما قبله على لفظ الغيبة وهو قوله: وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ إختلفوا في المكنى عنه فقال قوم أنّها كناية عن اليهود لأنهم كانوا إذا وجب الحكم على ضعفاءهم ألزموهم إياه واذ وجب على أقوىاءهم بالغنى والشرف في الدنيا لم يأخذوهم به فقل لهم أفحكم الجاهلية يعني عبدة الأوثان، تبغون، وأنتم أهل الكتاب.

وقيل أنّها كناية عن كلّ من طلب غير حكم الله أي أنّما خرج منه إلى حكم الجاهلية وكفى بذلك خزيّاً أن يحكم بما يوجب الجاهل دون ما يوجب العلم. وأما قوله: وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ فمعناه واضح وهو أنّ الله تعالى أحسن حكماً من غيره كائناً من كان والوجه فيه هو أنّ الحُسن أيّنا وجد فهو منه واليه بالحقيقة وهو مع ذلك عالمٌ بالمصالح الخفية التي لا يعلمها إلا هو ولا نغني بالحسن إلا المطابق للمصلحة والخال عن المفسدة

فعلاً كان أو قولاً فهو حسنٌ في ذاته محسنٌ في فعله وقوله، ولا يعلم هذا في حقه تعالى إلا من عرفه ولا يعرفه إلا من وصل إلى مقام اليقين قال: لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَأَمَّا غَيْرُ الْمُوقِنِ فَيَعْتَرِضُ عَلَى حَكَمِ اللَّهِ بَلْ يَزِدُّهُ وَيَنْكَرُهُ وَلَا يَفْرَقُ بَيْنَ حَكَمِهِ وَحَكَمِ غَيْرِهِ.



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ  
 النَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ  
 يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
 الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ  
 يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا  
 دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ  
 عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ  
 نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ  
 أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ  
 أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ  
 آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ  
 اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ  
 أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ  
 مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)

### ◀ اللغة

دَائِرَةٌ، الدائرة الدولة التي تحول الى من كانت له عمّن هي في يديه.  
 أَسْرُوا أي أبطنوا.

يَرْتَدَّ، الإرتداد الرجوع الى القهقري.  
 لَائِمٍ إسم فاعل من لام يَلُوم فهو لائم.

## ◀ الإعراب

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ مَبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ لَا مَوْضِعَ لَهُ يُسَارِعُونَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ يَقُولُونَ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي يُسَارِعُونَ وَدَائِرَةُ صِفَةٍ غَالِبَةٌ لَا يَذْكُرُ مَعَهَا الْمَوْصُوفُ أَنَّ يَأْتِي فِي مَوْضِعِ نَصَبِ خَبَرٍ عَسَى وَقِيلَ هُوَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بَدَلًا مِنْ إِسْمِ اللَّهِ فَيُضْبِحُوا مَعْطُوفٌ عَلَى يَأْتِي مَنْ يَزِيدُ مِنْكُمْ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ يُجِبُّهُمْ فِي مَوْضِعِ جَرِّ صِفَةٍ لِقَوْمٍ أَذِلَّةٌ وَأَعَزَّةٌ صَفَتَانِ يُجَاهِدُونَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً لِقَوْمٍ أَيْضًا.

## ◀ التفسير

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ

نهى الله تعالى المؤمنين عن إتخاذهم اليهود والنصارى أولياء، قيل سبب نزولها قصّة عبد الله بن أبي وإستمساكه بحلف يهود وتبرؤ عبادة بن صامت من حلفهم عند إنقضاء بدر.

وقال عكرمة سبب نزولها أمر أبي لبابة بن عبد المنذر وإشارته إلى بني قريظة أنّه الذّبح حين إستفهموه عن رأيه في نزولهم على حكم سعد بن معاذ. وقال السّدي لما نزل بالمسلمين أمر أحد فرّج بينهم قوم فقال بعضهم لبعض فآخذ من اليهود عهداً يعاضدونا أن المت بنا قاصمة من قريش أو سائر العرب.

وقال آخرون بل نلحق بالنصارى فنزلت، وقيل هي عامّة في المنافقين أظهروا الإيمان وظاهروا اليهود والنصارى وقيل غير ذلك.

أقول الحقّ أنّ الآية عامّة لجميع المكلفين المؤمنين إلى يوم القيامة وأن كان شأن نزولها مورداً خاصاً لأنّ خصوص المورد لا ينافي عموم الحكم كما مرّ مراراً وعليه فإنّ الله تبارك وتعالى نهانا عن إتخاذ اليهود والنصارى أولياء. قال بعض المفسّرين معناه لا تعتمدوا على الإستنصار بهم ولا تتودوا اليهم.

أقول هذا التفسير لا بأس به إذا قلنا أن المراد بالولاية النصرة و أما أن قلنا أنها بمعنى تولى الامر فالمعنى لا تولوهم أموركم.

وقال الطبري، بعد نقله الأقوال المنقولة في الآية ما هذا لفظه و الصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال أن الله تعالى نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود و النصارى أنصاراً أو خلفاء على أهل الإيمان بالله و رسوله و أخبر أنه من إتخذهم نصيراً و حليفاً و ولياً من دون الله و رسوله و المؤمنين فإنه منهم في التحزب على الله و رسوله و المؤمنين و أن الله و رسوله منه بريثان انتهي موضع الحاجة من كلامه.

أقول لا يبعد أن يكون النهي عن ولاية أهل الكتاب مثل النهي عن ولاية المشركين في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ<sup>(١)</sup> فأنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة لما كتب الى قريش يخبرهم بعزم النبي ﷺ على حربهم لأن له عندهم مالا و أهلاً فأراد أن يتخذ عندهم يداً لأجل حماية أهله و من المعلوم عند العقل أن النهي عن الشيء بسبب من الأسباب ينتفي عند فقد سببه و لا يتناول من لم يتحقق السبب منه و لعله لأجل ذلك قال الله تعالى في هذه السورة:

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، لَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَ ظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تُولَّوهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ<sup>(٢)</sup>.

فهذه الآيات و أمثالها تنادي بأعلى صوتها أن النهي عن الولاية أنما هو لأجل العداوة و كون القوم حرباً لا لأجل الخلاف في الدين لذاته فإن النبي لما

خالف اليهود كتب في كتابه، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، كما أمره الله أن يقول لجميع المخالفين لكم دينكم ولي دين، هكذا حققه بعض المحققين من متأخري المفسرين وهو حق لا مرية فيه فقد تحصل مما ذكرناه وأيدناه أن النهي في الآية عن إتخاذهم اليهود والنصارى أولياء، ليس على إطلاقه بل لابد من تقييده بما إذا كانت اليهود والنصارى وغيرهما من أصناف الكفار في حال الحرب مع المسلمين وأن الولاية ولاية النصرة، وأما في غير هذه الصورة فلا، وأن شئت قلت أن حملنا الولاية في الآية على الإستنصار من الكافر الحربي فهو بحاله وأن حملنا الولاية على المؤدة وحسن المعاملة والمعاشرة وإستخدام الكفار من أهل الكتاب وغيرهم من أصناف الكفار كما ذهب اليه كثير من المتأخرين وإستدلوا في ذلك بأمر عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعري بعزل كتابه النصراني فالسياق يابى ذلك إذ لم يدل دليل من العقل والشرع على صحة ذلك وأما أمر عمر أبا موسى فلو ثبت صحته لا يجوز الإستناد به ثم حمل الآية عليه وذلك لأن قول عمر أو فعله ليس بحجة في ذلك بل هو على فرض صحته مربوط بشخصه.

نعم لو كان الرسول ﷺ قد أمر أبا موسى بذلك لكان لهذا الحمل وجه وجيه لعصمته وأن فعله وقوله وتقريره حجة في الشريعة وأما أبو بكر وعمر وأمثالهما فلا، وعلى ما ذكرناه فمعنى الكلام أيها المؤمنون لا تتخذوا اليهود النصارى ممن يستنصر به إذا كانوا لكم حرباً وأما إذا كانوا سلماً فالآية ساكنة عنه إلا بدلالة المفهوم لو قلنا بحجبتها فأنها تدل على عدم البأس هذا ولو تمسكنا بظاهر الآية وحملنا النهي فيها على عدم جواز الإستنصار بهم سواء كانوا حرباً أو سلماً، أيضاً لا إشكال فيه كما هو مقتضى العموم.

وأما المعاشرة والمجالسة والمعاملة معهم فلا إشكال فيها والآية لا تدل على عدم الجواز هذا ما فهمناه من الآية والله أعلم.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** فهو واضح لأنَّ الجنس يميل إلى الجنس  
فالكافر وليُّ الكافر والمسلم وليُّ المسلم.

قال الله تعالى: **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا.**

وقال الله تعالى: **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاءُ لَهُمُ الطَّاغُوتُ.**

ولنعم ما قال الخليل، النَّاسُ إلى أشكالهم، وفي قولٍ إلى أشباههم أميل ألا  
ترى أنَّ الفيل يألف الفيلة، فمن زعم أنَّ الكافر المخالف له في الدِّين يعينه  
وينصره فهو جاهل وذلك لأنَّ المخالفة في العقيدة والدِّين من أعظم  
المصائب ولذلك حثَّ الله المسلمين في كثير من الآيات عن الإعتماد على  
الكفار وحذَّره بما لا مزيد عليه بحيث عدَّ المتولي لهم منهم في الحقيقة  
فقال: **وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّهُ مِنْهُمْ** في الظلم والغدر والخيانة وأن لم يكن  
منهم في ظاهر الأمر **إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** سواء كان الظالم  
مسلمًا أم كافرًا وحيث أنَّ من يتولى الظالمين فهو يعدُّ منهم في الحقيقة فلا  
جرم يدخل تحت الحكم وقال الله تعالى: **وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ**  
**النَّارُ** <sup>(١)</sup> ولذلك قال الله تعالى بعد ذلك:

**فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ**

قالوا أنَّ الآية نزلت في المنافقين الذين في قلوبهم مرض النِّفاق فإنهم  
يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم وكان عبد الله بن أبيّ زعيم المنافقين ذا  
ضلع مع يهود بني قنيقاع غيره من المنافقين يميلون إلى اليهود بالولاء و  
العهد ويسارعون في هذا السَّبيل التي سلكوها فهم كانوا يسارعون في أعمال  
موالاتهم مسارعة الدَّاخل في الشَّيْءِ الثَّابت عليه الرَّاغب فيما يزيده تمكينًا و  
ثباتًا ولهذا قال: **يُسَارِعُونَ فِيهِمْ** ولم يقل يسارعون اليهم هكذا قرَّره بعض



المفسرين من العامة وأنت ترى أنّ ما ذكره في تفسير الكلام ناظر الى نزول الآية وأنهم أي أهل النفاق كانوا كذلك وهو لا ينافي عموم الآية من حيث الحكم على كلّ منافق أو معاند في كلّ عصر وزمان الى يوم القيامة فإنّ مريض القلب لا يختص بالمنافق **يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ** أي نخشى أن تقع بنا مصيبة كبيرة ممّا يدور به الزمان أو من المصائب والدواهي التي تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها فنحتاج الى نصرتهم لنا فنحن نتخذ لنا يداً عندهم في السراء تنتفع بها إذا قسّت الضراء **فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ** نادمين إختلفوا في المراد بالفتح.

فقال قوم المراد به هو فتح مكة الذي كان به ظهور الإسلام والثقة بوقته و إنجاز الله وعده لرسوله، وقيل المراد به فتح بلاد اليهود في الحجاز كخيبر وغيرها.

وأما المراد بالأمر في قوله أو أمر من عنده، فقال بعضهم، الأمر من عنده بالجزية تضرب على أهل الكتاب فينقطع أمل المنافقين منهم ويندموا على ما كان من إسرارهم بالولاء لهم، وقال بعضهم المراد به الإيقاع باليهود وإجلاءهم عن موطنهم وإخراجهم من حصونهم إمّا بالقهر والإيجاف عليهم بالخيال و الركاب كبنى قريظة.

وأما بإلقاء الرعب في قلوبهم حتى يعطوا بأيديهم، كبنى النضير. وأعلم أنّ، عسى موضوعة في اللغة للشكّ وهى من الله تفيد الوجوب لأنّ الكريم إذا أطمع في خير يفعله فهو بمنزلة الوعد به في تعلّق النفس به وإرجاءها له ولذلك حقّ لا يضيع ومنزلة لا تخيب، هذا ممّا أفاده بعض المفسرين، وأما قوله: **فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا** الخ فمعناه أنّ المنافقين كانوا كذلك وذلك لأنّ النفاق يتبعه الندم في الدنيا والآخرة.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ.

قرأ ابن أثير وعامر ونافع (يقول، بلا واو والباقون بالواو) وأما اللام في يقول، فالمشهور فيها الضمّ وقد قرأ أبو عمرو وبفتحها، فمن رفعها فعلى الاستئناف ومن نصبها فالمعنى عسى أن يقول، لما ذكر الله تعالى شأن المنافقين في الآية السابقة وحكم بالنّدم والخسران حكى الله في هذه الآية عن المؤمنين الذين صدقوا بالله ورسوله ظاهراً وباطناً، تعجبهم من نفاق المنافقين فقال تعالى: وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ أَيَّ أَنْ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُونَ بعضهم لبعض، أَنَّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ أَغْلَظَ الْإِيمَانَ مُجْتَهِدِينَ فِي توكيدها، أَنَّهُمْ لَمَعَكُمْ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي حَرْبِكُمْ وَسَلْمِكُمْ وَمَعَاوَنَتِكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ وَنَصْرَتِكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ أَيَّ بَطَلَتْ أَعْمَالُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَتَكَلَّفُونَهَا نِفَاقاً لِيَقْنَعُوا بِأَنَّهُمْ مِنْكُمْ كَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْجِهَادِ مَعَكُمْ، قَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّبُ كَأَنَّهُ قِيلَ مَا أَحْبَطَ أَعْمَالُهُمْ وَمَا أَخْسَرَهَا وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَضَاعُوا أَعْمَالَهُمُ الَّتِي عَمِلُوهَا لِأَنَّهُمْ أَوْقَعُوهَا عَلَى خِلَافِ الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ بَلْ فَعَلُوا عَلَى وَجْهِ التَّفَاقُ دُونَ التَّقَرُّبِ بِهِ إِلَى اللَّهِ وَمَعْنَى أَصْبَحُوا خَاسِرِينَ، أَيَّ صَارُوا خَاسِرِينَ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ

قرأ من أهل المدينة ونافع، يرتدّد، بدالين وبه قرأ ابن عامر أيضاً والباقون بدالٍ مشدّدة واحدة وكذلك هو في مصاحفهم ونظيره في القرآن:

قال الله تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقَّوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ<sup>(٣)</sup>.

فالإدغام لغة أهل الحجاز، وحجة من أدغم أنه لما أسكن الحرف الأول من المثيلين للإدغام لم يمكنه أن يدغمه في الثاني والثاني ساكن فحرك المدغم فيه لإلتقاء الساكنين، وأما حجة من أظهر وهم أهل الحجاز هي أن الحرف المدغم لا يكون إلا ساكناً ولا يمكن الإدغام في الحرف الذي يدغم حتى يسكن لأن اللسان يرتفع عن المدغم والمدغم فيه إرتفاعه واحدة فإذا لم يسكن لم يرتفع كذاك وإذا لم يرتفع لم يمكن الإدغام فلا يجوز الإدغام في الساكن لأن المدغم والمدغم فيه إذا كانا ساكنين يلزم إلتقاء الساكنين وهو في هذا التحول ليس من كلامهم فأظهر للحرف الأول في حركة وأسكن الثاني من المثيلين فلم يلتق الساكنين هكذا قرره في التبيان، إذا عرفت هذا فأعلم أنهم إختلفوا في نزول الآية على أقوال:

منها ما نقل الشيخ عن الحسن وقتادة والضحاك وابن جريح أنها نزلت في أبي بكر.

ومنها، ما نقله عن السدي أنها نزلت في الأنصار.

**ثالثها:** عن مجاهد أنها نزلت في أهل اليمن وأختاره الطبري وقال صاحب الكشاف كان أهل الردة إحدى عشر فرقة ثلاث في عهد رسول الله ﷺ، وهم بنو مدلج ورئيسهم ذو الخمار وهو الأسود العنسي وكان كاهناً تنبأ باليمن فكتب رسول الله إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن فأهلكه الله على يدي فيروز الديلمي.

وبنو حنيفة قوم مسيلمة تنبأ وكتب الى رسول الله ﷺ من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله أما بعد فَأَنَّ الأرض نصفها لك فأجاب رسول الله من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب أما بعد فَأَنَّ الأرض يرثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، فحاربه أبو بكر بجنود المسلمين وقتل على يدي وحشي قاتل حمزة.

وبنو أسد قوم طلحة بن خويلد تنبأ فَبَعَثَ اليه رسول الله ﷺ خالداً فَأَنهَزهم بعد القتال الى الشَّام ثم أسلم وحسن إسلامه.

وسبع في عهد أبي بكر، فزاره قوم عينية بن حصن، وعطفان قوم قرّة بن سليمة القرشي، وبنو سليم قوم الفُجّاة بن عبد ياليل وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة الّتي زوّجت نفسها مسيلمة الكذاب.

وكندة قوم الأشعث بن قيس، وبنو بكر من وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد وكفى الله أمرهم على يدي أبي بكر وفرقة واحدة في عهد عمر، غسان قوم جبلة بن الأيهم نصرته اللطمة وسيرته الى بلاد الرّوم بعد إسلامه إنتهى كلامه.

فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ قِيلَ لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ أشار رسول الله الى أبو موسى الأشعري فقال قوم هذا وقيل هم ألقان من النخع وخمسة آلاف من كندة وبلجية وثلاثة آلاف من إفناء النّاس جاهدوا اليوم القادسية وقيل هم الأنصار وقيل سئل رسول الله ﷺ عنه فضرب يده على عاتق سلمان وقال هذا وذووه ثم قال لو كان الإيمان معلقاً بالشّريا لناله رجال من أبناء فارس، ذكره صاحب الكشاف.

أيضاً، قوله: يُحِبُّهُمْ أي يحبهم الله وقوله: يُحِبُّونَهُ أي وهم أيضاً يُحِبُّونَ الله، قالوا محبة العباد لرّبهم طاعته وإبتغاء مرضاته، ومحبة الله لعباده أن

يُثَبِّهِمْ أَحْسَنَ الثَّوَابِ عَلَى طَاعَتِهِمْ وَيَعْظَمُهُمْ وَيُثْنِي عَلَيْهِمْ وَيَرْضَى عَنْهُمْ  
 أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا  
 يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ وصف الله تعالى القوم الذين يحبهم ويحبونه بآمون:  
 أحدها: أنهم أذلة على المؤمنين أي أنهم أهل لين ورقة أي عاطفين عليهم  
 على وجه التذلل والتواضع فأذل الذل بضمن معنى الحنو والعطف.  
 وقيل معناه، أنهم مع شرفهم وعلو طبيعتهم وفضلهم خافضون لهم  
 أجنحتهم.

ثانيها: أعزة على الكافرين، أي أنهم أهل غلظة وشدّة عليهم كما قال الله  
 تعالى: أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ<sup>(١)</sup>.

ثالثها: يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حتى جهاده لإعلاء كلمة التوحيد.  
 رابعها: وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ أي لا يخافون شيئاً قط من لوم أحد من  
 اللّوام ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليهم ذلك، إشارة الى  
 ما وصف به القوم من المحبة والذلة والعزة والمجاهدة وإنتفاء خوف اللومة  
 ومن المعلوم أنها من فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء والله واسع، أي كثير  
 الفواضل والألطف، عليهم بمن هو أهل لها ولائق بها هذا محصل كلام  
 المفسرين في الآية الشريفة.

والذي يظهر لنا من الأخبار الواردة عن أهل البيت عليهم السلام هو أنّ  
 الآية نزلت في الناكثين وهم أهل البصرة ومن قاتل علياً عليه السلام في حرب الجمل  
 روي ذلك عن عمّار وحذيفة وابن عباس وبه قال أبو جعفر عليه السلام وأبو عبد  
 الله عليه السلام.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال يوم البصرة، واللّه ما قُوتل أهل هذه  
 الآية حتّى اليوم، وتلى هذه الآية قال الطبرسي عليه السلام في المجمع: وقيل هم

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وأصحابه حين قاتل من قاتله من النّاكثين والقاسطين والمارقين وروي ذلك عن عمّار وحذيفة وابن عبّاس وعن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد الله عليه السلام.

وقال الشيخ في التّبيان قبله بذلك وعليه إتّفاق الشيعة في تفاسيرهم وهذا هو الحقّ الذي لا مربة فيه مضافاً الى أنّ دليل العقل أيضاً يقتضي ذلك لأنّ الأوصاف المذكورة في الآية لا توجد في غيره قال الشيخ في التّبيان ما هذا لفظه:

والذي يقوّي هذا التّأويل أنّ الله تعالى وصف من عناء بالآية بأوصاف وجدنا أمير المؤمنين مستكملاً لها بالإجماع لأنّه قال:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

وقد شهد النبيّ لأمر المؤمنين بما بوافق لفظ الآية في قوله: وقد ندبه لفتح خبير بعد فرار من فرّ عنها واحداً بعد واحد (لأعطين الرّاية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كزارٍ غير فرارٍ لا يرجع حتّى يفتح الله على يديه) فدفعها الى أمير المؤمنين فكان من ظفره ما وافق خبر الرّسول ثمّ قال: أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ فوصف من عناء بالتّواضع للمؤمنين والرّفق بهم والعزّة على الكافرين والعزيز على الكافرين هو الممتنع من أن ينالوه مع شدّة نكايته فيهم ووطأته عليهم وهذه أوصاف أمير المؤمنين التي لا يداني فيها ولا يقارب.

ثمّ قال: يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ فَوَصَفَ جَلَّ إِسْمُهُ مِنْ عَنَا بِهذا الجهاد وبما يقتضي الغلبة فيه وقد علمنا أنّ أصحاب الرّسول بين رجلين، رجلاً لا عناء له بالحرب والجهاد، والأخر له جهاد وعناء ونحن نعلم قصور كلّ مجاهدٍ عن منزلة أمير المؤمنين في الجهاد فإنّهم مع علوّ

منزلتهم في الشجاعة وصدق البأس ليلحقون منزلته ولا يقاربون رتبته لأنه ﷺ المعروف بتفريج الغم وكشف الكرب عن وجه الرسول وهو الذي لم يحم قط عن قرن ولا نکص عن هول ولا ولي الدبر وهذه حالة لم تسلم لأحد قبله ولا بعده فكان ﷺ بالإختصاص بالآية أولى لمطابقة أوصافه لمعناها.

وأما من قال أنها نزلت في أبي بكر فقله بعيد من الصواب لأنه تعالى إذا كان وصف من أراد به الآية بالعزة على الكافرين وبالجهاد في سبيله مع إطراح خوف اللوم كيف يجوز أن يظن عاقل، توجه الآية الى من لم يكن له حظ في ذلك الموقف لأنّ المعلوم أنّ أبا بكر لم يكن له نكاية في المشركين ولا قيل في الإسلام ولا وقف في شيء من حروب النبي موقف أهل البأس والفناء بل كان الفرار شيمته والهرب ديدنه وقد إنهزم عن النبي في مقام بعد مقام فإنهزم يوم أحد ويوم حنين وغير ذلك فكيف يوصف بالجهاد في سبيل الله على ما يوصف في الآية من لا جهاد له جملة وهل العدول بالآية عن أمير المؤمنين مع العلم الحاصل بموافقة أوصافه لها الى غيره إلا عصبية ظاهرة انتهى كلام الشيخ رحمه الله بالفاظه وعباراته فلم يبق لنا شيئاً نذكره لأن ما ذكره في تفسير الآية هو التمام الذي لا يزداد عليه ونحن نذكر في المقام شيئاً آخر مضافاً الى ما ذكره رحمه الله من جهة أخرى لإثبات المدعى أنّ قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ يَدُلْ عَلَى خِلاف ما ذكره لأنّ المخاطب بها المؤمنون وهذا مما لا كلام فيه بيننا وبين العامة ثم قال: مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فكلمة، من، في قوله: مِنْكُمْ للتبعيض قطعاً لأن جميع المؤمنين لم يرتدوا في حياة النبي أو بعد حياته بل ارتد بعضهم دون بعض وهذا أيضاً مسلم عند الكل ففيه دلالة على أنّ المرتدين كانوا من المؤمنين وقد ثبت أنّ المؤمن الحقيقي لا يرتد فيعلم بذلك أنّ المرتدين لم يكونوا من المؤمنين الذي رسخ الإيمان في قلوبهم بل كانوا من المتظاهرين بالإيمان شئت قلت من

المنافقين و من المعلوم أنّ إختصاص هؤلاء بأهل الرّدة في حياة الرّسول أو بعد مماته لا دليل عليه لا من الآية ولا من غيرها فمن إختصّها بأهل الرّدة إختصّها به بميله و هواه و فسرّ الآية على خلاف مقتضاها فإنّ إطلاق الآية يشمل كلّ من إرتد عن دينه و الفاسطين و النّاكثين و المارقين من أعظم مصاديق المرتد في الآية لولم نقل بإختصاصهم بهم و ظهورها منهم، و أمّا الإرتداد فهو على ضربين، مرتد عن فطرة الإسلام فأنّه يجب قتله ولا يستتاب و يقسم ماله بين ورثته و تعتدّ منه زوجته عند الوفاة من يوم إرتداده.

الآخر من أسلم عن كفرٍ ثمّ إرتد فهذا يستتاب فإن تاب وإلّا وجب عليه القتل فإن لحق بدار الجرب إعتدّت منه زوجته عدّة الطّلاق فإن رجع الى الإسلام في زمان العدّة كان أمّلك بها و أن لم يرجع و أنقضت العدّة فقد ملكت نفسها سبيل له عليها و أن رجع فيما بعد.

و أمّا المرأة فأنّها تستتاب على كلّ حالٍ فإن تابت وإلّا حبست حتّى تموت و الحمد لله ربّ العالمين.





إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ  
 يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ  
 (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا  
 فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ  
 آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَ  
 لَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ  
 الْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧)  
 وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا  
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨) قُلْ يَا أَهْلَ  
 الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُونَ مِمَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا  
 أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ  
 فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ  
 مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ  
 وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ  
 الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ  
 السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ  
 دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ  
 بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ  
 يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمْ  
 الشُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا  
 يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ  
 أَكْلِهِمُ الشُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) وَ

قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ  
لُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ  
يَشَاءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ  
رَبِّكَ طُغْيَانًا وَ كُفْرًا وَ أَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ  
الْبُغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا  
لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ  
فَسَادًا وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَ لَوْ أَنَّ  
أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ  
سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَ لَوْ  
أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرِيَّةَ وَ الْأَنْجِيلَ وَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ  
مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ  
أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا  
يَعْمَلُونَ (٦٦)

### ◀ اللغة

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ، الولاية تَوَلَّى الأمر.

هَزُؤًا، الهُزُؤُ بضم الهاء مزح في خفية و قد يقال لما هو كالمرح.

لَعِبًا قال الرَّاغب أصل الكلمة اللُّعَاب و هو البزاق السَّائِل و لعب فلان اذا

كان فعله غير قاصدٍ به مقصداً صحيحاً.

تَتَفَمُّونَ يقال نَقِمْتُ الشَّيْءَ و نَقِمْتُهُ اذا أنكرته أما باللسان و أما بالعقوبة

أُنَبِّئُكُمْ، الإنباء الإخبار.

مَثُوبَةً، المَثُوبَةُ الثَّوَابُ وقيل هي مفعلة مثل مكرهه و معقلة و مشغلة.  
 أَلْسُحَتْ بضم السين الحرام.  
 مُقْتَصِدَةً، الإقتصاد الاعتدال.

## ◁ الإعراب

الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ صفة للذين آمنوا وَهُمْ رَأَكُونُ حال من الضمير  
 في يؤتون فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ قيل هو خبر المبتدأ الذي هو من، ولم  
 يعد منه ضمير اليه لأنَّ الحزب هو، من، في المعنى فكأنه قال، فَأَنَّهُمْ مِنْ  
 الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ في موضع الحال من الذي الأولى أو من الفاعل في  
 إِتَّخَذُوا وَ الْكُفَّارَ يقرأ بالجر عطفًا على الَّذِينَ المجرورة و بالنصب على  
 المنصوبة ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ذلك مبتدأ و ما بعده الخبر مبتدأ مفعول تنقمون الثاني و  
 ما بعد إلا، هو المفعول الأول وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ معطوف على أن آمنّا و  
 قيل معطوف على ما، والتقدير إلا أن آمنّا بالله وبأن أكثركم فاسقون مَثُوبَةً  
 منصوب على التمييز عِنْدَ اللَّهِ صفة لمثوبة مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ في موضع جر بدلاً  
 من شرأ أو في موضع نصب بفعلٍ دلَّ عليه أنبئكم أو في موضع رفع أي هو من  
 لعنه الله وَ عَبْدَ الطَّاغُوتِ بفتح العين و الباء و نصب الطَّاغُوتِ على أَنَّهُ فعل  
 معطوف على لعن وَ قَدْ دَخَلُوا في موضع الحال من الفاعل في قالوا أو من  
 الفاعل في آمَنَّا بِالْكَفْرِ في موضع الحال من الفاعل في، دَخَلُوا وَهُمْ قَدْ  
 خَرَجُوا حال أخرى وَ أَكْلِهِمُ المصدر مضاف الى الفاعل وَأَلْسُحَتْ مفعوله  
 يُنْفِقُ مستأنف لِلْحَرْبِ صفة لنار، فيتعلق بمحذوف وفساداً مفعول لأجله  
 لَا أَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ مفعول أكلوا محذوف و من فوقهم نعت له تقديره رزقاً كائناً  
 من فوقهم.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

الجزء السادس

## ﴿التفسير﴾

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُوْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ

إِعلم أنَّ هذه الآية مَعركة الأراء بين العامة و الخاصة و ذلك لأنَّ العامة حملوا الآية على ظاهرها و قنعوا بتفسير ألفاظها على طبق أميالهم كما ستعرف الكلام فيها.

و أما الشيعة ففسروها كما هو حقُّها و أخذوا تفسيرها من الأخبار الواردة في شأن نزولها و نحن نذكر أولاً ما ذكره أهل السُنَّة في تفاسيرهم لها ثم نتبعه بما ذهب إليه أهل الحقِّ وهم الإمامية من غير تعصُّب و لا عناد فنقول:

قال صاحب الكشاف و معنى إِنَّمَا وجوب اختصاصهم بالموالاة.

أقول و ذلك لأنَّه ذكر قبل الآية ما هذا الفظه عَقَّب النَّهي عن موالاة من تجب معاداتهم، ذكر من تجب موالاتهم بقوله: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا ثم قال فأن قلت قد ذكرت جماعة فهلاً قيل إِنَّمَا أولياءكم، قلت أصل الكلام إِنَّمَا وليكم الله فجعلت الولاية لله على طريق الإصالة ثم نظم في سلك إثباتها لرسول الله و المؤمنين على سبيل التَّبَع انتهى موضع الحاجة من كلامه فعلاً.

و قال البيضاوى إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا لَمَّا نَهَى عن موالاة الكفر ذكر عقيبه مَنْ هو حقيقُّ بها ثم ذكر ما قاله الزمخشري حيث قال فجعلت الولاية لله على طريق الإصالة الخ.

و قال الفخر الرّازي في قوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا قولان:

الأول: أنَّ المراد عامَّة المؤمنين ثم ذكر قصّة عبادة بن الصّامت حيث تبرأ من اليهود و قصّة عبد الله بن سلام حيث قال يا رسول الله أن قومنا قد هجرونا و أقسموا أن لا يجالسونا و لا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل فنزلت

هذه الآية فقال رضىنا بالله ورسوله وبالمؤمنين أولياء فعلى هذا الآية عامة في حق كل المؤمنين فكل من كان مؤمناً فهو ولي كل المؤمنين الى أن قال وعلى هذا فقلوه: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ صفة لكل المؤمنين والمراد بذكر هذه الصفات تمييز المؤمنين عن المنافقين وساق الكلام الى أن قال. قال أبو مسلم المراد من الزكوع الخضوع يعني أنهم يصلون ويزكون وهم متقادون خاضعون الى أن قال.

**القول الثانى:** أن المراد من هذه الآية شخص معين وعلى هذا فيه أقوال:

الأول: روي عكرمة أن هذه الآية نزلت في أبى بكر.

الثانى: روي عطاء عن ابن عباس أنها نزلت في علي بن أبى طالب الى آخر ما قال.

وقال الطبرى: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ يعني تعالى ذكره بقوله: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ليس لكم أيها المؤمنون ناصر إلا الله ورسوله والمؤمنون الذين صفتهم ما ذكر تعالى ذكره فأما اليهود والنصارى الذين أمرهم الله أن تبرأوا من ولايتهم ونهاكم أن تتخذوا منهم أولياء فليسوا لكم أولياء نصراء بل بعضهم أولياء بعض ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً وقيل أن هذه الآية نزلت في عبادة بن الصامت في تبرأه من ولاية يهود بني قينقاع وحلفهم الى رسول الله ﷺ والمؤمنين، ثم ذكر من أخبارهم ما يدل على مدعاه بزعيمه.

نعم نقل بعض الأخبار أنها نزلت في علي عليه السلام حين تصدق بخاتمته ولكن الآية تشمل جميع المؤمنين وعلي منهم ومن شاء الإطلاع على تفصيل ما ذكره فعليه بمراجعة كتابه.

وقال الألويسي في روح المعاني في تفسير الآية ما هذا لفظه، فكأنه قيل لا تتخذوا أولئك أولياء لأن بعضهم أولياء بعض وليسوا بأولياءكم أنما أولياءكم

اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ الْآيَةَ، أَيِ وَالْمُؤْمِنُونَ فَاخْتَصَوْهُمْ بِالْمَوَالَةِ وَلَا تَتَّعِظُوهُمْ إِلَى الْغَيْرِ وَأَفْرَدَ الْوَلِيَّ مَعَ تَعَدُّدِهِ لِيُفِيدَ كَمَا قِيلَ أَنَّ الْوِلَايَةَ لِلَّهِ تَعَالَى بِالْإِصَالَةِ وَلِلرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالتَّبَعِ إِلَى آخِرِ مَا قَالَ. وَقَالَ غَيْرُ هَؤُلَاءِ مِنْ مَفْسَرِي الْعَامَّةِ نَظِيرَ مَا نَقَلْنَاهُ عَنْ هَؤُلَاءِ وَذَلِكَ لِأَنَّ غَيْرَهُمْ أَخَذُوا مَا أَخَذُوا مِنْهُمْ وَلِذَلِكَ تَرَى ابْنَ كَثِيرٍ، وَأَبِي حَيَّانَ فِي بَحْرِ الْمَحِيطِ وَرَشِيدَ رِضَا فِي الْمَنَارِ وَأَمْثَالَهُمْ نَقَلُوا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ مَا نَقَلْنَاهُ مَعَ إختلاف في الألفاظ والعبارات ولذلك أَعْرَضْنَا عَنْ مَقَالَتِهِمْ فِي الْمَقَامِ حَذراً مِنْ الْإِطْنَابِ وَالتَّكْرَارِ وَقَدْ ظَهَرَ لَكَ أَنَّ الْعَامَّةَ حَمَلُوا الْآيَةَ عَلَى ظَاهِرِهَا وَأَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُؤْمِنِينَ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ النَّاسَ بِاتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرُوهُ وَنَمَّقُوهُ.

وَأَمَّا عِنْدَ الشَّيْعَةِ الْإِمَامِيَّةِ فَالْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ حِينَ تَصَدَّقَ بِخَاتَمِهِ فِي الرُّكُوعِ وَلَمْ يَشْرِكْ لَهُ فِي هَذِهِ الْفَضِيلَةِ أَحَدٌ وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى إِمَامَتِهِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ قَطْعاً فَالْبَحْثُ يَقَعُ فِي مَقَامَيْنِ:

**الأول:** أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي حَقِّهِ.

**الثاني:** أَنَّهُ تَدَلَّ عَلَى إِمَامَتِهِ بَعْدَ الرَّسُولِ.

**أَمَّا الْمَقَامُ الْأَوَّلُ:** وَهُوَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا شَكَّ فِيهِ فَأَنَّ الْأَخْبَارَ الْوَارِدَةَ مِنَ الطَّرَفَيْنِ كَثِيرَةٌ جَدًّا بِحَيْثُ لَا يَبْقَى مَجَالٌ لِلشَّكِّ فِيهِ إِلَّا لِلْمَعَانِدِ الْمُتَعَصِّبِ الَّذِي لَا كَلَامَ لَنَا مَعَهُ فَنَقُولُ:

مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ وَمُتَوَكِّلاً عَلَيْهِ قَدْ تَظَاهَرَتِ الرِّوَايَاتُ الْوَارِدَةُ مِنْ طَرِيقِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ مُنْحَصِراً بِقَوْلٍ مُطْلَقٍ أَمَّا الْأَخْبَارُ مِنْ طَرُقِ الْعَامَّةِ.

فَمِنْهَا مَا رَوَاهُ الْحَافِظُ الْحُسَيْنِيُّ فِي شَوَاهِدِ التَّنْزِيلِ بِأَسْنَادِهِ عَنْ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ مَجَاهِدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** قَالَ نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

و منها، ما رواه أيضاً بأسانيد مختلفة عن ابن عباس في قوله: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا** قال عليّ عليه السلام.

و منها، ما رواه أيضاً بأسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قول الله تعالى: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ** يعني ناصركم الله ورسوله يعني محمداً ثم قال و الذين آمنوا، فخص من بين المؤمنين علي بن أبي طالب، **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ** يعني يتمون وضوءها و قراءتها و ركوعها و سجودها، و يؤتون الزكاة و هم راعون، و ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى يوماً بأصحابه صلاة الظهر و انصرف هو و أصحابه فلم يبق في المسجد غير علي عليه السلام قائماً يصلي بين الظهر و العصر إذ دخل عليه فقير من فقراء المسلمين فلم يرى في المسجد أحداً إلا علياً (خلا علياً) فأقبل نحوه فقال يا ولي الله بالذي يصلي له أن تصدق علي بما أمكنك و له خاتم عقيق يمانى أحمر كان يلبسه في الصلاة في يمينه فمد يده فوضعها على ظهره وأشار الى السائل بنزعه فنزعه و دعى له و مضى و هبط جبرائيل فقال النبي صلى الله عليه وآله لعلي لقد باهى الله بك ملائكته اليوم اقرأ: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ**.

ما رواه بأسناده عن أنس بن مالك قال أن سائلاً أتى المسجد و هو يقول من يقرض الوفي الملى و علي راع يقول بيده خلفه للسائل أي إخلع الخاتم من يدي فقال رسول الله صلى الله عليه وآله يا عمر و جبت، قال بأبي و أمي يا رسول الله ما و جبت قال صلى الله عليه وآله و جبت له الجنة و الله ما خلعه من يده حتى خلعه من كل ذنب و من كل خطيئة قال بأبي و أمي يا رسول الله هذا لهذا قال هذا لمن فعل هذا من أمتي.

ما رواه بأسناده عن أنس أيضاً قال خرج النبي الى صلاة الظهر فإذا هو بعلي يركع و يسجد و إذا بسائل يسأل فأوجع قلب علي كلام السائل فأومأ بيده اليمنى الى خلف ظهره فدنا السائل منه

فَسَلَّ خَاتَمَهُ عَنْ إِبْصَعِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ وَإِنْصَرَفَ عَلَيَّ إِلَى الْمَنْزِلِ فَبَعَثَ النَّبِيَّ ﷺ إِلَيْهِ فَأَحْضَرَهُ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ عَمِلْتَ يَوْمَكَ هَذَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ هَنِئُوكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**.

ما رواه بأسناده عن محمد بن الحنفية أن سائلاً سأل في مسجد رسول الله ﷺ فلم يعطه غير عليٍّ أحد شيئاً فخرج رسول الله ﷺ وقال هل أعطاك أحد شيئاً قال لا إلا رجل مررتُ به وهو راکع فناولني خاتمه فقال النبي وتعرفه قال لا فنزلت هذه الآية: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا**.

ما رواه بأسناده عن عطاء في قوله تعالى: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ** قال نزلت في عليٍّ مرَّ به سائلٌ وهو راکع فناولته خاتمه.

ما رواه عن عبد الملك بن جريح المكي قال لما نزلت: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** خرج النبي ﷺ وإذا سائلٌ قد خرج من المسجد فقال له هل أعطاك أحد شيئاً وهو راکع قال نعم رجل لا أدري من هو قال ﷺ ماذا أعطاك قال هذا الخاتم فإذا الرجل علي بن أبي طالب انتهى.

أقول ثم روي كثيراً من الأخبار بطرق مختلفة.

منها، ما رواه عن عمار بن ياسر.

منها، ما رواه عن جابر بن عبد الله الأنصاري.

منها، ما رواه عن المقداد بن الأسود الكندي.

منها، ما رواه عن أبي ذر الغفاري.

منها، ما رواه عن عبد الله بن عباس وهكذا وإنما لم نذكرها حذراً من الإطناب أراد الإطلاع على ما نقله الحافظ الحسكاني فعليه بمراجعة كتابه



القيّم شواهد التنزيل مع أنّ ما ذكره فيه بالنسبة الى ما لم يذكره ليس إلا كالفقرة في جنب البحر كيف و متون كتبهم مشحونة بذكر هذه الأحاديث في هذه الآية، انظروا فرائد السّمطين، و المناقب للخوارزمي، و ينابيع المودة للشّيخ سليمان الحنفي و المستدرك للحاكم النّيسابوري و غيرها من المختصرات و المطوّلات بحيث لو أراد أحد أن يجمع الأحاديث الواردة في الباب لا يمكنه الإستقصاء فيها.

و قد روي صاحب غاية المرام أربعة وعشرون حديثاً من طرق العامّة و تسعة عشر حديثاً من طرق الخاصّة و لولا خوف الإطالة و خروج الكتاب عن تفسير الآيات لقلنا أكثر ممّا قلناه ففيه كفاية للمتدبّر المنصف.

و أمّا الأخبار الواردة من طريق الخاصّة فهي كثيرة جداً لأنّ المسألة إتفاقية عندهم بحيث لم يخالف فيها أحد و مع ذلك تُشير الى شطرين ممّا ورد من طريق أهل البيت تيمناً و تبرّكاً به.

روي صاحب غاية المرام بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** قال إنّما يعني أولى بكم أي أحقّ بكم و بأموالكم من أنفسكم الله و رسوله و الذين آمنوا يعني عليّاً و أولاده الأئمّة الى يوم القيامة ثمّ وصفهم الله عزّ وجلّ فقال: **الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** و كان أمير المؤمنين في صلاة الظّهر و قد صلّى ركعتين و هو راعٍ الحديث.

في قوله عزّ وجلّ: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** قال عليه السلام أنّ رهطاً من اليهود أسلموا منهم عبد الله بن سلام و أسد و ثعلبة و ابن يامين و ابن صوريا فأتوا النّبي و قالوا يانّبي الله أنّ موسى أوصى الى يوشع بن نون فمن وصيك يا رسول الله و من ولينا بعدك فنزلت هذه الآية: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** قال رسول الله ﷺ قوموا فقاموا و أتوا المسجد فإذا سائل خارج فقال

يا سائل ما أعطاك أحدٌ شيئاً قال نعم هذا الخاتم قال من أعطاكه قال أعطانيه ذلك الرجل الذي يصليّ قال على أيّ حال أعطاك قال كان راعماً فكبر النبي ﷺ وكبر أهل المسجد فقال النبي ﷺ عليّ وليكم بعدي قالوا رضينا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيناً وبعلي بن أبي طالب ولياً فأنزل الله عزّ وجلّ:

وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ.

أقول لا نحتاج الى نقل الأخبار من طرقنا أكثر ممّا ذكرناه و ذلك لعدم الخلاف عند الشيعة الإمامية في المسألة والعجب أنّ مفسري العامة أيضاً ذكروا في تفاسيرهم أنّ الآية نزلت في عليّ عليه السلام إلا أنّهم خلطوا البحث و أشركوا غيره معه في هذه الفضيلة و بعبارة أخرى أنّهم لم ينكروا أنّ الآية نزلت في عليّ رأساً وبالكلية بل قالوا بنزولها في حقّه إلا أنّه على سبيل الاحتمال حيث جعلوه أحد المؤمنين مثلاً.

أو أنّ القول بنزولها أحد الأقوال في المسألة، وهذا لا يكفي في المقام بل الحقّ أنّ الآية نزلت في حقّه عليه السلام على سبيل الإنحصار ولم يشرك فيه أحد و هو أي نزول الآية فيه من الفضائل التي خصّه الله بها و هذا كان مشهوراً في صدر الإسلام ألا ترى أنّ الشعراء بعد نزول الآية قالوا في أشعارهم ما يزيل الشكّ عن القلوب المريضة الضعيفة.

قال حسّان بن ثابت بعد نزول الآية وتكبير النبي ﷺ وأصحابه في المسجد:

أبا حسنٍ تفديك نفسي ومهجتي	وكلّ بطيٍّ في الهدى ومسارعٍ
أيذهب مدحي والمخير ضائعاً	وما المدح في جنب الإله بضائع
وأنت الذي أعطيت إذ كنت راعماً	زكاةً فدتك النفس يا خير راعٍ
فأنزل فيك الله خير ولايةٍ	فبينها مثني كتاب الشرائع

وقال الآخر:

أوفى الصلاة مع الزكاة فقامها      والله يرحم عبده الصابرا  
من ذا بخاتمه تصدق راعها      وأسرّه في نفسه إسرارا  
من كان بات على فراش محمد      ومحمد يسري وينحو الغارا  
من كان جبريل يقول يمينه      منها وميكال يقوم يسارا  
من كان في القرآن سمي مؤمناً      في تسع آيات جعلني كباراً  
وقال صاحب ابن عباد:

ولما علمت بما قد جنيت      وأشفقت من سخط العالم  
نقشت شفيعي على خاتمي      إماماً تصدق بالخاتم  
و الأشعار أيضاً كثيرة جداً وإذا وصل الكلام إلى هذا المقام فقد وجب  
علينا رفع شبهات القوم التي ذكروها عند تفسيرهم لهذه الآية بعون الله تعالى  
وأعظمها وأهمها ما ذكره الرازي في تفسيره وهو فحلهم وإمامهم في  
المسائل العقلية وقد إشتهر في الناس بإمام المُشككين فأنه بعد ما ذكر على  
أحد القولين أن المراد من هذه الآية شخص معين روي فيه قولين:

**أحدهما:** عن عكرمة وهو أن هذه الآية نزلت في أبي بكر قال ما هذا لفظه.  
**الثاني:** روي عطاء عن ابن عباس أنها نزلت في علي بن أبي طالب روى أن  
عبد الله بن سلام قال لما نزلت هذه الآية قلت يارسول الله أتني رأيت علياً  
تصدق بخاتمه على محتاج وهو راعك فنحن نتولاه.

وروي عن أبي ذر أنه قال صليت مع رسول الله ﷺ يوماً صلاة الظهر فسأل  
سائل في المسجد ولم يعطه أحد فرفع السائل يده إلى السماء وقال اللهم  
أشهد أنني سألت في مسجد الرسول ﷺ فما أعطاني أحد شيئاً وعليّ عيال  
كان راعك فأومأ إليه بخنصره اليمنى وكان فيها خاتم فأقبل السائل حتى أخذ  
الخاتم بمراى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ اللهم أن أخي موسى سألك فقال

رَبِّ إشرح لي صدري الى قوله وأشركه في أمري فأنزلت قرأناً ناطقاً سنشد  
عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك فأشرح  
لي صدري وسر لي أمري وأجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهري.  
قال أبو ذر فو الله ما أتم رسول الله هذه الكلمة حتى نزل جبرئيل فقال يا  
محمد اقرأ: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** الى آخرها فهذا مجموع ما يتعلق  
بالروايات ثم قال الرازي، المسألة الثانية.

قالت الشيعة هذه الآية دالة على أن الإمام بعد رسول الله ﷺ هو علي بن  
أبي طالب عليه السلام وتقريره أن نقول هذه الآية دالة على أن المراد بهذه الآية إمام و  
متي كان الأمر كذلك وجب أن يكون ذلك الإمام هو علي بن أبي طالب بيان  
المقام الأول أن الولي في اللغة قد جاء بمعنى الناصر والمحَب كما في قوله: **وَأَلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** <sup>(١)</sup> وجاء بمعنى المتصر قال عليه السلام أيما امرأة  
نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل.

فنقول هاهنا وجهان:

**الأول:** أن لفظ الولي جاء بهذين المعنيين ولم يعين الله مراده ولا منافاة بين  
المعنيين فوجب حملهما فوجب دلالة الآية على أن المؤمنين  
المذكورين في الآية متصرفون في الأمة.

**الثاني:** أن نقول الولي في هذه الآية لا يجوز أن يكون بمعنى الناصر فوجب  
أن يكون بمعنى المتصرف وأما قلنا لا يجوز أن يكون بمعنى الناصر لأن  
الولاية المذكورة في هذه الآية غير عامة في كل المؤمنين بدليل أنه تعالى ذكر  
بكلمة، أنما، وكلمة أنما للحصر كقوله: **أَنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ** والولاية بمعنى  
النصرة عامة لقوله: **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** وهذا يوجب  
القطع بأن الولاية المذكورة في هذه الآية ليست بمعنى النصرة وإذا لم تكن

بمعنى النصرّة كانت بمعنى التّصّرف لأنّه ليس للوَلّي معنى سوى هذين فصار تقدير الآية أنما المتصرّف فيكم أيّها المؤمنون هو الله ورسوله والمؤمنون الموصوفون بالصفة الفلانية وهذا يقتضي أنّ المؤمنين الموصوفين بالصفات المذكورة في هذه الآية متصرفون في جميع الأمة ولا معنى للإمام إلا الإنسان الذي يكون متصرفاً في كلّ الأمة فثبت بما ذكرناه دلالة هذه الآية على أنّ الشّخص المذكور فيها يجب أن يكون إمام الأمة.

**أمّا المقام الثّاني:** وهو أنّه لمّا ثبت ما ذكرناه وجب أن يكون ذلك الإنسان هو عليّ بن أبي طالب وبيانه من وجوه:

**الأوّل:** أنّ كلّ من أثبت بهذه الآية إمامة لشخص قال أنّ ذلك الشّخص هو عليّ عليه السلام وقد ثبت بما قدّمناه دلالة هذه الآية على إمامة شخص فوجب أن يكون ذلك الشّخص هو عليّ عليه السلام ضرورة أنّه لا قائل بالفرق.

**الثّاني:** تظاهرت الروايات على أنّ هذه الآية نزلت في حقّ عليّ ولا يمكن المصير الى قول من يقول أنّها نزلت في أبي بكر لأنّها لو نزلت في حقّه لدلّت على إمامته وأجمعت الأمة على أنّ هذه الآية لا تدلّ على إمامته فبطل هذا القول.

**الثّالث:** أنّ قوله: **وَهُمْ رَاكِعُونَ** لا يجوز جعله عطفاً على ما تقدّم لأنّ الصّلوة قد تقدّمت و الصّلوة مشتملة على الرّكوع فكانت إعادة ذكر الرّكوع تكراراً فوجب جعله حالاً أي يؤتون الرّكوة حال كونهم راكعين وأجمعوا على أنّ إيتاء الرّكوة حال الرّكوع لم يكن إلّا في حقّ عليّ فكانت الآية مخصوصة به ودالة على إمامته من الوجه الذي قرناه وهذا حاصل استدلال القوم بهذه الآية على إمامة عليّ عليه السلام انتهى كلام الرّازي في بيان الاستدلال عن قبل الشيعة.

ولعمري لقد أجاد في بيان الإستدلال بما لا مزيد عليه ونحن أيضاً نقول به يمكننا الإستدلال بهذه الآية على إثبات المدعى بأحسن ممّا استدّل عليه ثمّ أنّه بعد ذلك تصدّى للجواب عن الإستدلال وهو عجيب فقال ما هذا لفظه: والجواب أمّا حمل اللفظ أي لفظ الولي على الناصر وعلى المتصرف معاً فغير جائز لما ثبت في أصول الفقه أنّه لا يجوز حمل اللفظ المشترك على مفهوميه معاً انتهى.

**أقول** على فرض ثبوت الإشتراك في اللفظ الولي لا إشكال في إستعماله فيهما لأنّ الموضوع له هو كلّ واحد من المعنيين أو المعاني لا شرط الوحدة عدمها وهو متحقّق في حال إرادة الواحد والأكثر هذا أولاً.

**ثانياً:** نقول لا دليل على ثبوت الإشتراك في لفظ الولي بل الحقّ أنّه حقيقة في المتصرف مجاز في غيره فكلمّا أطلق بغير قرينة دلّت على إرادة معنى المجازي فيه نحمله على معناه الحقيقي وما نحن فيه من هذا القبيل ألا ترى أنّ قولهم فلان ولي الصّغير، أو ولي المجنون أو ولي المرأة، يراد بالولي لمتصرف في أمور الصّغير ولا مجنون والمرأة فلو كان اللفظ مشتركاً بين الناصر والمتصرف مثلاً، للزم أن يكون تصرف الولي في مال الصّغير والمجنون محتاجاً الى نصّ خاص غير أصل الولاية إذ لقائل أن يقول للولي أنت ناصر الطفل مثلاً لا متصرفاً في ماله فإن قال الولي اللفظ مشترك بين المعنيين وأنا أردت بولايتي التصرف يقال له هذا من التّرجيح بلا مرجّح وأمثال ذلك من الأقاويل الباطلة التي لا طائل تحتها هذا كلّّه مضافاً الى وجود القرائن الحاليّة والمقاليّة الدّالة على أنّ المراد بالولي في الآية المتصرف لا الناصر لأنّ نصرته الله ورسوله للمؤمنين ثابتة محقّقة وهكذا نصرته المؤمن لمؤمن آخر وهي ممّا لا كلام فيه مع قطع النظر عن هذه الآية.

ثم قال الرّازي أمّا الوجه الثّاني فنقول لم لا يجوز أن يكون المراد من لفظ الولي في هذه الآية النّاصر والمحبّ ونحن نقيم الدّليل على أنّ حمل لفظ الولي على هذا المعنى أولى من حمله على معنى المتصّرف ثمّ نجيب عمّا قالوه.

فنقول الذي يدّل على أنّ حمله على النّاصر أولى وجوه:

**الأوّل:** أنّ اللّاتق بما قبل هذه الآية وبما بعدها ليس إلّا هذا المعنى، أمّا ما قبل هذه الآية فلاّنه تعالى قال: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ**<sup>(١)</sup> وليس المراد لا تتخذوا اليهود والنّصارى أئمة متصّرفين في أرواحكم وأموالكم لأنّ بطلان هذا كالمعلوم بالضرورة بل المراد لا تتخذوا اليهود والنّصارى أحبّاباً وأنصاراً ولا تخالطوهم ولا تعاضدوهم ثمّ لمّا بالغ في النّهي عن ذلك قال أنما وليكم الله ورسوله والمؤمنون الموصوفون والظاهر أنّ الولاية المأمور بها هاهنا هي المنهي عنها في ما قبل ولما كانت الولاية المنهي عنها فيما قبل هي الولاية بمعنى النّصرة كانت الولاية المأمور بها هي الولاية بمعنى النّصرة وأمّا ما بعد هذه الآية فهي قوله:

**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُمَ مُّؤْمِنِينَ**

فأعاد النّهي عن إتخاذ اليهود والنّصارى والكفّار أولياء ولا شك أنّ الولاية المنهي عنها هي الولاية بمعنى النّصرة فكذلك الولاية في قوله: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ** يجب أن تكون هي بمعنى النّصرة وكلّ من أنصف وترك التّعصب وتأمل في مقدّمة الأولى وفي مؤخرها قطع بأنّ الولي في قوله: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ** ليس

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

الجلد السادس

إلا بمعنى الناصر والمحِبَّ ولا يمكن أن يكون بمعنى الإمام لأن ذلك يكون إلقاء كلام أجنبي فيما بين كلامين مُسَوِّقين بغرض واحد يكون في غاية الرِّكاكة والسَّقُوط ويجب تنزيه كلام الله تعالى عنه انتهى كلامه في دليل الأول.

ونحن نقول العجب من الرّازي حيث يدعو النّاس إلى الإنصاف وترك التعصّب دخل بكلامه هذا في بحر التّعصّب والعناد وخرج عن جادة الإنصاف وذلك لأن مدار كلامه وأساس استدلاله على مدّعه هو كون الولاية بمعنى النّصرة والمحِبَّ، على أنّ الولاية في الآية السّابقة وهى قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ<sup>(١)</sup>.

وفي الآية التي تأتي بعد ذلك وهى قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا إلی قوله: وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مَوْمِنِينَ بمعنى الناصر والمحِبَّ فكذلك فيما نحن فيه تكون الولاية بمعنى الناصر والمحِبَّ إلى آخر ما قال وهذا الإستدلال في غاية الرِّكاكة والوهم بل هو أوهن من بيت العنكبوت وذلك لأنّ ترتيب الآيات وتنظيمها ليس من الله تعالى أو من رسوله بل هو مربوط بجمع القرآن بعد الرّسول في عهد عثمان أو بأمره على يد زيد ابن ثابت وابن مسعود و أمثالهما من الذين أمروا به وعليه فلا يمكن الإستدلال على إثبات أمر عقلي أو شرعي بكيفية ترتيب الآيات كما فعله الرّازي هذا أولاً.

ثانياً: نقول اذا فرضنا أنّ لفظ الولي في الأيتين بمعنى الناصر والمحِبَّ كما ادّعاه الرّازي فهو لا يدلّ على أنّ الولي في هذه الآية أيضاً كذلك بعد ثبوت الإشتراك من حيث المعنى كما اعترف هو أيضاً به اذ لا يبعد أن يكون اللفظ في آية من الآيات بمعنى الناصر والمحِبَّ وفي أخرى بمعنى المتصرف وهو واضح على المتأمل.



و أمّا قوله لأنّ ذلك يكون إلقاء كلام أجنبي الى قوله وذلك يكون في غاية الركاكة والسقوط، فجوابه أنّ كلّ آية من الآيات نزلت في مورد خاصّ ولبيان حكم خاصّ و المفسّر لكلام الله لا بدّ له من الدقّة في فهم الآيات بضميمة الأخبار الواردة فيها، وفي صورة عدم القدرة على ذلك السكوت والتّجنب عن التفسير لئلاّ يقع في ورطة من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار.

**ثالثاً:** أنّ ما ذكره فهو القياس في اللّغة بعينه و الرّازي وأمثاله وأن إلّزمو ذلك في الأحكام الشرعية، إلّا أنّ اللّغة شيء آخر لم نسمع القياس فيهما لأنّها لا تقبل القياس أصلاً، أليس هذا من العناد والتعصّب، أليس هذا بعيداً عن الإنصاف هذا كلّّه اذا سلّمنا أنّ الوليّ في الآية السابقة واللاحقة بمعنى الناصر والمحّب كما إدّعاه الرّازي وأمّا اذا قلنا أنّ الوليّ فيهما أيضاً بمعنى المتصرّف كما قويناه في الآية السابقة و سنقويه في الآية اللاحقة فالإستدلال من أصله باطل عاطل ولا يحتاج الى الجواب أصلاً، وهو كذلك لأنّ قوله تعالى: **لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ** ليس معناه لا تتخذوهم أحبّاء وأنصاراً ولا تخالطوهم تعاضدوهم كما قال الرّازي اذ ليس فيه إشكال لا شرعاً ولا عقلاً و أيّ إشكال في مخالطتهم و معاشرتهم و معاضدتهم و إلقاء المحبة اليهم و الإستنصار بهم أحياناً في إقامة الحقّ.

بل المراد والمعنى لا تتخذوهم متصرّفين في أرواحكم وأموالكم بأن تجعلوهم حكاماً على دينكم و دنياكم فإنّ الإسلام يعلو ولا يعلو عليه و المؤمن لا يكون تابعاً للكافر و هذا هو المراد من الآية و غيرها من نظائرها، فقولته لأنّ بطلان هذا كالمعلوم بالضرورة، كلام بلا محصل بل الحقّ أن يقال لأنّ صحّة هذا معلوم بالضرورة كما أنّ بطلان ما ذهب اليه أيضاً معلوم بالضرورة و سيأتي البحث فيه في المستقبل بوجه أبسط إن شاء الله ثمّ قال الرّازي.

الحِجَّةُ الثَّانِيَّةُ: إِنَّا لو حملنا الولاية على المتصرف والإمامة لما كان المؤمنون المذكورون في الآية موصوفين بالولاية حال نزول الآية لأنَّ على بن أبي طالب عليه السلام ما كان نافذ التصرف حال حياة الرسول والآية تقتضي كون هؤلاء المؤمنين موصوفين بالولاية في الحال أمَّا لو حملنا الولاية على المحبة والنصرة كانت الولاية حاصلة في الحال فثبت أنَّ حمل الولاية على المحبة أولى من حملها على التصرف والذي يؤكد ما قلناه أنَّه تعالى منع المؤمنين من إتخاذ اليهود والنصارى أولياء ثمَّ أمرهم بموالات هؤلاء المؤمنين فلا بدَّ أن تكون موالات هؤلاء المؤمنين حاصلة في الحال حتَّى يكون النَّفي والإثبات متواردين على شيء واحدٍ ولما كانت الولاية بمعنى التصرف غير حاصلة في الحال إمتنع حمل الآية عليها انتهى كلامه في هذه الحجة.

**والجواب** أنَّ في الآية الشريفة قد أثبتت حكم الولاية بمعنى التصرف لعلِّي عليه السلام في حياة الرسول وأما إعمال الولاية بهذا المعنى فكان مشروطاً بموت الرسول صلوات الله عليه وآله وبعبارة أخرى إثبات الحكم في زمانٍ وإعماله في زمانٍ آخر وكأنَّ الرازي لم يفرق بين المقامين ألا ترى أنَّ الله تعالى أثبت الحكم ليحيى بن زكريا في صباوته:

قال الله تعالى: **وَإِئْتِنَاهُ أَلْحُكْمَ صَبِيًّا**<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَإِئْتِنَاهُ أَلْحُكْمَ صَبِيًّا**.

قال الله تعالى: **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**.

قال الله تعالى: **وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا**.

ومن المعلوم أنَّ الصبي لا يجري الحكم وقال تعالى في عيسى عليه السلام:

قال الله تعالى: **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**<sup>(٢)</sup>.

و هو قال ذلك في المهد ونظائره كثيرة:

قال الله تعالى: **وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا**<sup>(١)</sup>.

حكم الله تعالى نبوة هارون ومن المعلوم أن موسى كان حياً وفي حياته لم يكن هارون نبياً على قول الرّازي فكيف قال تعالى ما قال.

**والجواب** ما ذكرناه فهارون كان نبياً في حياة موسى بنص الآية إلا أن التصرف في الأمور كان مشروطاً بموت موسى ولكن هارون لم يتصرف لأنه مات قبل موسى ولو كان حياً بعده لكان متصرفاً تصرف الولاية وهذا ظاهر ومانحن فيه من هذا القبيل فعلي عليه السلام كان ولياً في حياة الرسول بنص الآية إلا أن تصرفه كان مشروطاً بموت النبي إلا أن هارون مات قبل موسى فلم يتصرف لأن المشروط ينتفي بإنتفاء شرطه وأما علي عليه السلام فكان حياً بعد الرسول وكان متصرفاً واقعاً في جميع الكائنات كما كان الرسول ﷺ كذلك وأن لم يكن ظاهراً مبسوط اليد لوجود الغاصبين ورسول الله أيضاً كان كذلك لوجود المشركين المعاندين، ثبت عند الفريقين أن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، فأن معنى الحديث هو إثبات جميع صفات النبي ﷺ لعلي عليه السلام إلا النبوة ومن المعلوم أن الولاية في رأس الصفات الثابتة لرسول الله في حياته فلم يكن أمير المؤمنين عليه السلام ولياً بعد الرسول لإستثناه كما إستثنى النبوة.

أو قال لا ولي بعدي مثلاً ومحصل الكلام هو أننا بصدد إثبات أصل الولاية فعلاً بمقتضى الآية وهو ثابت قطعاً وأما إعمال الولاية والتصرف في الأمور فهو موكول إلى زمانه ونحن لا ندعي إثبات إعمالها وفعليتها من حيث التصرف لعدم وجود شرطه وهو موت الرسول فالأمر واضح بحمد الله.

في القرآن  
في قوله  
فأما علي  
فكان حياً  
بعد الرسول

جزء ٦

المجلد  
السادس

ثُمَّ قَالَ الْحِجَّةُ الثَّلَاثَةُ: أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوصُوفِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ وَهِيَ قَوْلُهُ: **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ** وَ حَمَلَ أَلْفَاظَ الْجَمْعِ وَأَنْ جَازَ عَلَى الْوَاحِدِ عَلَى سَبِيلِ التَّعْظِيمِ لَكِنَّهُ مَجَازٌ لَا حَقِيقَةً وَالْأَصْلُ حَمَلَ الْكَلَامِ عَلَى الْحَقِيقَةِ. **انتهى.**

### والجواب:

**أما أولاً:** فبأنَّ حَمَلَ الْكَلَامِ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَوْلَى مِنْ حَمَلِهِ عَلَى الْمَجَازِ مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ لِأَحَدٍ مِنَ الْعُقَلَاءِ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي حَمْلِ الْكَلَامِ هُوَ حَمَلُهُ عَلَى مَعْنَاهِ الْحَقِيقِيِّ، لِأَنَّهُ أَيُّ الْأَصْلِ مَتَّبِعٌ فِيمَا إِذَا لَمْ تَقُمْ قَرِينَةٌ حَالِيَةً أَوْ مُقَالِيَةً عَلَى رَفْعِ الْيَدِ عَنِ الْحَقِيقَةِ وَ حَمَلَ اللَّفْظِ عَلَى الْمَجَازِ وَ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى مَجْرَى الْأَصْلِ فِي ذَلِكَ عَدَمُ وَجُودِ الْقَرِينَةِ.

وَأَمَّا إِذَا كَانَتِ الْقَرِينَةُ مَوْجُودَةً فَلَا يَجْرِي الْأَصْلُ قِطْعاً وَبِالِاتِّفَاقِ وَ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ فَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: **وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ** قَرِينَةٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: **وَ الَّذِينَ أَمَّنُوا** بِصِيغَةِ الْجَمْعِ هُوَ هَذَا الْفَرْدُ الْخَاصُّ الْمُوصُوفُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ لَا جَمِيعُ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْقَرِينَةُ مُقَالِيَةٌ وَ حَالِيَةٌ، أَمَّا كَوْنُهَا مَقَاسَةً فَظَاهِرٌ مِنَ الْآيَةِ وَ أَمَّا كَوْنُهَا حَالِيَةً فَلِأَنَّ الْوَاقِعَ فِي قَوْلِهِ: **وَ هُمْ رَاكِعُونَ** لِلْحَالِ أَيُّ فِي حَالِ الرُّكُوعِ وَ إِذْ ثَبَتَتِ الْقَرِينَةُ فَالْقَاعِدَةُ تَقْتَضِي رَفْعَ الْيَدِ عَنْ مَعْنَى الْحَقِيقِيِّ وَ هُوَ الْجَمْعُ، وَ حَمَلَ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى الْمَجَازِيِّ الْفَرْدِ.

**ثانياً:** أَنَّ الْإِتْيَانَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ وَإِرَادَةَ الْفَرْدِ لِلتَّعْظِيمِ أَمْرٌ شَائِعٌ فِي الْإِسْتِعْمَالِ وَ الْمَقَامُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ فَكَأَنَّهُ تَعَالَى أَتَى بِصِيغَةِ الْجَمْعِ مَعَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الشَّخْصَ تَعْظِيماً وَ تَكْرِيماً لِمَقَامِ الْوَلَايَةِ.

**ثالثاً:** ذَكَرَ صَاحِبُ الْكَشَافِ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّ الْوَجْهَ فِيهِ هُوَ تَرْغِيبُ النَّاسِ فِي

مثل فعله فنالوا مثل ثوابه واليك نصّ كلامه قال: وَهُمْ رَاكِعُونَ الواو فيه للحال أي يعملون ذلك في حال الرّكوع وهو الخشوع والإخبات والتّواضع لله إذا صلّوا وإذا ركعوا وقيل هو مال من يؤتون الزّكوة بمعنى يؤتونها في حال ركوعهم في الصّلاة وأنها نزلت في عليّ عليه السلام حين سأله سائل وهو راكع في صلاته فطوع له خاتمه كأنه كان مرجأتين في خنصره فلم يتكلّف بخلعه كثير عمل تغد بمثله صلوته فأن قلت كيف صحّ أن يكون لعليّ عليه السلام واللفظ لفظ جماعة، قلتُ جئ به على لفظ الجمع وأن كان السّبب فيه رجلاً واحداً ليرغب النّاس في مثل فعله فينالوا مثل ثوابه ولينبّه على أنّ سجيّة المؤمن يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البرّ والإحسان وتفقّد الفقراء حتّى إن لزمهم أمرٌ لا يقبل التّأخير وهم في الصّلاة لم يؤخّروه الى الفراغ منها إنتهى كلامه.

فقد قرّر الرّمخشري وجه الإتيان بصيغة الجمع على أحسن الوجوه وهو من أساطير علم البلاغة وكلامه في هذا المضمار حجة قطعاً وإذا كان المجاز حاوياً لهذه النّكات العميقة الخفية، والحقيقة خالية عنها فالمجاز أولى عنها وهذا هو السرّ في العدول عن الحقيقة الى المجاز فلا يقال في أمثال هذه الموارد الأصل حمل الكلام على الحقيقة.

قال الرّازي الحُجّة الرّابعة إنّنا قد بيّنا بالبرهان البين أنّ الآية المتقدّمة وهي قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ<sup>(١)</sup> الى آخر الآية، من أقوى الدلائل على صحّة إمامة أبي بكر فلو دلّت هذه الآية على صحّة إمامة عليّ بعد الرّسول لزم التناقض بين الأيتين وذلك باطل فوجب القطع بأنّ هذه الآية لا دلالة فيها على أنّ عليّاً هو الإمام بعد الرّسول إنتهى.

والجواب أنّ الآية السّابقة وهي قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ قد مرّ الكلام فيها وقلنا أنّ الصّفات المذكورة في الآية:

قال الله تعالى: **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ.**

قال الله تعالى: **أُذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ.**

قال الله تعالى: **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ.**

لا توجد في غير علي عليه السلام أصلاً فالآية نزلت فيه والمراد بالمرتدين في الآية القاسطين والتاكثين والمارقين على ما مرّ البحث فيه فقول الرازي إنّنا قد بيّنا بالبرهان البين أنّ الآية المتقدمة من أقوى الدلائل على صحّة إمامة أبي بكر كلام بلا محضّل ألم يعلم الرازي أنّ الكذب والوهم بل إنكار الحقّ عمداً ونسبة الحقّ الى غير من له الحقّ عناداً وتّعصّباً لا يسمّى برهاناً.

بلى، قد علم لأنّه من فرسان هذا الميدان أعني به المنطق والفلسفة فكيف لم يعلم البرهان، ولكن حبّ الشّي يعمي ويصمّ.

قال الرازي الحجة الخامسة: أنّ عليّ ابن أبي طالب كان أعرف بتفسير القرآن من هؤلاء الرّوافض فلو كانت هذه الآية دالة على إمامة لأحتج بها في محفل من المحافل وليس للقوم أن يقولوا أنّه تركه للتّقية فأنّهم يتقولون عنه أنّه تمسك يوم الشّورى بخبر الغدير وخبر المباهلة وجميع فضائله ومناقبه ولم يتمسك البتّة بهذه الآية في إثبات إمامته وذلك يوجب القطع بسقوط قول هؤلاء الرّوافض انتهى.

والجواب عنه أمّا أولاً، من أين علم الرازي أنّ عليّاً عليه السلام لم يتمسك بها في إثبات إمامته.

ثانياً: أنّه تمسك بما هو أظهر وأصرح منها وهو قصّة الغدير وتبعية النّاس إياه بالإمامة والولاية بعد الرّسول صلّى الله عليه وآله، ولم يسمع منه بل أنكروها بالكلية كأن لم يكن شيئاً مذكوراً وإذا كانت قصّة الغدير هكذا حالها فما ظنك بغيرها من الآيات والأثار التي ليست صريحة في المدعى كقصّة الغدير.

ثالثاً: الآيات الدّالة على إمامته عليه السلام في القرآن كثيرة وليست منحصرة بهذه الآية.

وابعاً: أن الإحتجاج بالقرآن في إثبات المدعى لا يصحّ ولذلك نهى أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن عباس حين بعثه الى الخوارج ليتكلم معهم ويحتجّ عليهم، عن الإحتجاج بالقرآن، وأمره أن يحتجّ عليهم بالسنة، فقال عليه السلام لا تخاصمهم بالقرآن فإنّ القرآن حمّال ذو وجوه تقول ويقولون ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً انتهى.

صدق وليّ الله عليه السلام في قوله هذا والدليل على صدقه عليه السلام كثير لا نحتاج الى ذكره ويكفيك لإثبات المدعى هذه الآية التي نبحت فيها فإنّها ظاهرة في المدعى لدى المنصف وأما المعاند فيقول فيها ما يشاء فتارة يقول أنّ الولي فيها ليس بمعنى التصرف بل هو بمعنى الناصر والمحبّ وأخرى يقول لو كان المراد شخصاً خاصاً معيّناً لما أتى بصيغة الجمع في قوله: الَّذِينَ آمَنُوا.

ثالثاً: يقول إعطاء الخاتم في الصلاة أو في الركوع ينافي الخضوع والخشوع وأمثال ذلك ممّا عرفت الكلام فيه كلّ ذلك لإخراج الآية عمّا نزلت فيه وليس هذا إلا أنّ القرآن ذو وجوه تقول ويقولون، ألا ترى أنّ الرّازي يقول شيئاً ونحن نقول شيئاً، ولأجل هذه الأمور لم يحتجّ عليه السلام في مناشداته بالقرآن وتمسك بالسنة.

قال الرّازي الحجّة السادسة: هب أنّها دالة على إمامة عليّ لكنّا توافقنا على أنّها عند نزولها ما دلّت على حصول الإمامة في الحال لأنّ عليّاً ما كان نافذ التصرف في الأمة حال حياة الرّسول صلّى الله عليه وآله فلم يبق الى أن تحمل الآية على أنّها تدلّ على أنّ عليّاً سيصير إماماً بعد ذلك ومتى قالوا ذلك فنحن نقول بموجبه ونحمله على إمامته بعد أبي بكر وعمر وعثمان اذ ليس في الآية ما يدلّ على تعيين الوقت الخ.

والجواب أنّ ذلك أي قياس إمامة عليّ بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان قياس مع الفارق بل هو نوع سفسطة في الكلام فإنّ البحث في الإمامة المشروع و

بعبارة أخرى بحثنا في دلالة الآية الشريفة على إثبات الولاية الإلهية مثل ولاية الله و ولاية الرسول لعلّي ابن أبي طالب، و أمّا الإمامة بمعناها اللّغوي كما ثبتت لأبي بكر و عمر و أمثالهما فهي خارجة عن مورد البحث فكيف يقول الرّازي و نحمله على إمامته بعد أبي بكر و عمر و عثمان اذ ليس في الآية ما يدلّ على تعيين الوقت.

و محصل الكلام هو أنّه لا بحث لنا في هذا السنخ من الإمامة ثمّ أقام الرّازي أدلّة أخرى على إثبات مدّعه إلّا أنّها عاطلة باطلة فاسدة و يعلم الجواب عنها ممّا مرّ من الكلام حول الآية الشريفة و لعمرى أنّ دلالة الآية على ولاية أمير المؤمنين الذي أعطى السائل خاتماً في ركوعه ممّا لا مزية فيه و لا سيّما على أمثال الرّازي و لكن حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة و العناد و التّعصب أساس الشرّ و الفساد أعاذنا الله منها و العجب من الألوسي أنّه بعد ذكره الأحاديث الدّالة على أنّ الآية نزلت في عليّ عليه السلام في تفسيره لهذه الآية و بيان استدلال الشيعة على دلالتها على إمامة أمير المؤمنين و ولايته قال ما هذا لفظه:

و قد أجاب أهل السّنة عن ذلك بوجوه:

**الأوّل:** النّقص بأنّ هذا الدّليل كما يدلّ بزعمهم على نفي إمامة الأئمّة المتّقدمين كذلك يدلّ على سلب الإمامة عن الأئمّة المتأخّرين كالسّبطين و باقي الأثني عشر بعين ذلك التّقرير فالدّليل يضرّ الشيعة أكثر ممّا يضرّ أهل السّنة كما لا يخفى إنتهى كلامه.

**أقول** وجه التّعجب هو أنّه لم يعلم أنّ كلّما ثبت لعلّي عليه السلام في الإمامة و الولاية فهو ثابت لأحد عشر من أولاده المعصومين بعدم القول بالفصل فلا نحتاج في إثبات إمامة السّبطين و غيرهما بدليل آخر ثمّ أنّه قد أطال الكلام في هذا المقام بما لا فائدة من ذكره لأنّه لم يأت بشيء يعتمد عليه بل غير عبارات القوم و ذكر في كتابه و عمدة مطالبه أخذت عن الرّازي نقلناها و أجبنا عنها بما



لا مزيد عليه ونحن بعد التفحص التّام في عباراته وكلماته لم نجد فيها شيئاً يليق بالجواب لأنّ الألوّسي دابة إطالة الكلام ونقل كلمات القوم من غير أن يفهم مرادهم أو يعلم إرباط كلماتهم بالبحث ولذلك أعرضنا عن ذكر كلماته في المقام حذراً عن الإطناب والأمر واضح بحمد الله على كلّ من أنصف و تجنب من العناد.

وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ  
الظاهر أنّ هذه الآية مرتبطة بالسّابقة وذلك لأنّه تعالى لمّا بيّن في الآية السّابقة أنّ الولاية منحصرة في الله ورسوله وأمير المؤمنين الذي أعطى السّائل في حال الرّكوع على ما بيّناه ذكر في هذه الآية أنّ من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا أعني به عليّاً فإنّ حزب الله هم الغالبون، أي فإنّهم هم الغالبون لأنّ الظّاهر أقيم مقام المضمركم إعراف به صاحب الكشف والمراد منه هم الغالبون على من لا يكون كذلك عند الله وأن كانوا في ظاهر الأمر مغلوبين مهوورين، كذلك ألا ترى أنّ الحقّ دائماً يكون مغلوباً مهووراً والباطل غالباً قاهراً في هذه الدّنيا.

وأما في الواقع فليس كذلك قال رسول الله ﷺ للحقّ دولة وللباطل جولة، و سيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.  
واعلم أنّ ولاية الله ذاتية له تعالى بمعنى أنّه تعالى لم يأخذها عن غيره و أما الولاية في الرّسول و من قام مقامه فهي عرضيّة تبعيّة لأنّ الله أعطاه لرسوله و وليه ولذلك نقول أنّ الولاية الدّاتية منحصرة في ولاية الله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ

خاطب الله تعالى المؤمنين ثمّ نهاهم عن إتخاذهم المستهزئين من أهل الكتاب والكفّار، أي المشركين أولياء لأنفسهم وذلك لأنّهم أعداء للمؤمنين و

المسلم العاقل لا يتخذ عدوه لنفسه ولياً وليس المراد بالولاية هنا التناصر و المحب بل المراد بها التصرف كما مرّ الكلام فيه مفصلاً.

و قال بعضهم أنّ المراد بها النصرة والمحبة والمعاضدة أي لا تُعاشروهم تخالطوهم ولا تحبّوهم وهو كما ترى وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أي مؤمنين بوعده و وعيده والمعنى أن كنتم مؤمنين فاتقوا الله من إتخاذهم أولياء، وهو ظاهر اذ الإيمان ملازم للتقوى.

وَ إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن صفة الكفار الذين نهى الله المؤمنين عن إتخاذهم أولياء في الآية السابقة بأنهم اذا نادى المؤمنون الى الصلاة إتخذوها هزواً ولعباً.

قال بعض المفسرين أنهم كانوا اذا أذن المؤمنون للصلاة تضاحكوا فيما بينهم وقيل أنهم كانوا يرون المنادي اليها بمنزلة اللاعب الهازي بفعلها ثم قال: بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ لأن لعبهم وهزؤهم من أفعال السفهاء والجهلة فكأنه لا عقل لهم.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمْنَا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ.

أى قل يا محمد لأهل الكتاب هل تنقمون، أي تسخطون أو تنكرون، أو تكرهون منّا، إلا أن أماناً بالله و ما أنزل الينا من القرآن أو الدين و ما أنزل من قبل، على الأنبياء من الشرائع، وكلمة، إلا، بمعنى الغير أي، غير أن أماناً بالله الخ ومحصل المعنى أنه لا وجه لسخطكم علينا في إيماننا بالله و ما أنزله من الكتب والشرائع على أنبياء وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ بركوب الأهواء والخروج

عن أمر الله طلباً للرئاسة وحسداً على منزلة النبوة وأنتم تعلمون أنا على حقّ  
والتقمة على الحقّ دليل على الفسق وأنما قال: أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ولم يحكم  
بالفسق على جميعهم لأنّ بعضهم لم يكونوا كذلك وهو واضح.

### قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ

المثوبة بمعنى الثواب الذي هو الجزاء ووزنها مفعولة مثل مقولة ومجوزة  
على معنى المصدر قال الرّاعب في المفردات الثواب يقال في الخير والشر  
لكنّ الأكثر المتعارف إستعماله في الخير وعلى هذا قوله: ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ  
اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ<sup>(١)</sup>.

وقال في المنجد الثواب والمثوبة الجزاء على الأعمال خيرها وشرّها و  
أكثر إستعماله في الخير انتهى.

أقول فعلى هذا المثوبة في الآية بمعنى الجزاء والمعنى قل يا محمّد لأهل  
الكتاب هل أنبئكم، أي أخبركم بشرّ من ذلك، أي من الذي طعنتم عليه من  
المسلمين ومما رغبتم عنه ونقمتم عليه.

قال المفسّرون وأنما قال بشرّ من ذلك، وأن لم يكن من المؤمن شرّ على  
الإنصاف في الخطاب لأنّ الكفّار كانوا يعتقدون أنّ هؤلاء أشرار وأن ما فيهم  
من الإيمان شرّ، فخرج الكلام على ما يعتقدونه مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ أي هل  
أخبركم بشرّ من ذلك من حيث الجزاء عند الله.

مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ  
الطَّاغُوتَ

فصل القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

قيل موضع، من، الجزّ والتّقدير بشرّ من ذلك لمن لعنه الله، وقيل الرّفْع على  
الخبر أي هو من لعنه الله.

وقيل النَّصَب على المفعولية والتقدير، هل أنبئكم من لعنه الله وكيف كان فالمعنى من لعنه الله و غضب الله عليه وجعل منهم القردة والخنازير و عبدة الطَّاغوت و هو الشَّيْطَانُ أُولَئِكَ شَرُّ مَكَانًا أي هؤلاء الذين وصفهم الله باللَّعن والغضب و عبادة الطَّاغوت شَرُّ مكانًا في الدنيا والآخرة وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ والطَّرِيقِ المستقيم.

قال الرَّازِي الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ: إحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفر بقضاء الله قالوا لأن تقدير الآية وجعل الله منهم من عبد الطَّاغوت وأما يعقل معنى هذا الجعل اذا كان هو الذي جعل فيهم تلك العبادة اذ لو كان جعل تلك العبادة منهم لكان الله تعالى ما جعلهم عبدة الطَّاغوت بل كانوا هم الذين جعلوا أنفسهم كذلك وذلك على خلاف الآية.

وقالت المعتزلة معناه أنه تعالى حكم عليهم بذلك و وصفهم به كقوله وَ جَعَلُوا أَلْمَلَكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاءً<sup>(١)</sup> انتهى كلامه.

أقول الإنصاف أن الآية لا تدل على ما ذكره لأن معنى قوله: وَ جَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَ الْخَنَازِيرَ وَ عَبْدَ الطَّاغُوتِ هو أنه تعالى جعلهم كذلك بسوء أعمالهم التي كانوا إرتكبوها بعد تمام الحجّة بسبب العقل و وجود النبي فيهم فهذا الجعل في الحقيقة مسبب عن أعمالهم وأن شئت قلت أعمالهم صيرتهم كذلك و هم كانوا مختارين غير مضطّرين فيها فقوله أن الكفر بقضاء الله.

أن كان مراده بالقضاء، قضاء الحتم فهو أول الكلام وأن كان المراد به علمه تعالى بأنهم سيصيرون كذلك بإختيارهم فهو حقّ و قد قلنا مراراً أن العلم الأزلي لا يكون علّة بفعل المكلف فالعبد لا يكون مجبوراً في فعله بمعنى أن الفعل يكون مخلوقاً له لا مخلوقاً له تعالى في العبد حتّى يكون مجبوراً فيه. وأعلم أن قوله: وَ عَبْدَ الطَّاغُوتِ فيه أوجه.

**أحدها:** ضَمَّ العين والباء على صيغة الجمع و عليه فهو جمع عباد، و عباد جمع عبد فهو من قبيل جمع الجمع ويكون المعنى و جعل منهم عبد الطَّاغُوت كما تقول جعلت زيدا أخاك أي نسبته اليك و يجوز على هذا رفع الدال على تقدير و هم عبد الطَّاغُوت لكن لم يقرأ به أحد ولو قرأ قارئ وعبد الطَّاغُوت كان صواباً يريد به عبدة الطَّاغُوت و حذفت الهاء للأضافة.

**ثانيها:** على ما لم يسمّى فاعله ذكره الرُّماني وقال الطُّبري هي قراءة أبي جعفر المدني.

**ثالثها:** عابد الطَّاغُوت.

**رابعها:** عباد الطَّاغُوت جمع عابد مثل كفَّار جمع كافر ونقل في المقام أقوال كثيرة غير ما ذكرناه ولكن هذه الأقوال كلها شاذة نادرة والحق أن قوله: وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ عطَفَ على صلة، من، كأنه قيل من لعنه الله و من عبد الطَّاغُوت نعم قرأ أبي، و عبدوا الطَّاغُوت على المعنى لأن كلمة، من، تصلح للجمع و المفرد و المشهور ما ذكرناه و عليه الجمهور كما هو مكتوب في المصاحف و به يصير المعنى مستقيماً كما أوضحناه ولا خفاء فيه و أظن أن الإشكال أنما نشأ من عطفهم قوله: وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ على قوله: وَ جَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنَازِيرَ أي و جعل منهم القردة و الخنازير و عبد الطَّاغُوت، وليس كذلك بل هو أي قوله: وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ معطوف على قوله: مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ أي من لعنه الله و من غضب عليه و من جعل منهم القردة و الخنازير و من عبد الطَّاغُوت، أولئك شرّ مكاناً و أضلّ عن سواء السبيل و على هذا فقد سقطت الشبهة رأساً.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

وَ إِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ

في هذه الآية قد أخبر الله رسوله بأن هؤلاء المنافقين إذا جاؤا المؤمنين قالوا لهم، آمنا، بالله ورسوله وما جاء به من عند الله وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ الْوَاحِلَ أَي أَنَّهُمْ يَدْعُونَ الْإِيمَانَ وَالْحَال أَنَّهُمْ قَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ بِخِلَافِ مَا أَظْهَرَهُ عَلَى النَّبِيِّ وَخَرَجُوا بِهِ مِنْ عِنْدِهِ.

وقيل معناه قد دخلوا به في أحوالهم وقد خرجوا به إلى أحوالٍ آخر كقولك هو يتقلب في الكفر ويتصرف به.

وقال صاحب الكشف نزلت الآية في ناسٍ من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ يظهرون له الإيمان نفاقاً فأخبره الله تعالى بشأنهم وأنهم يخرجون من مجلسك كما دخلوا لم يتعلق بهم شيء مما سمعوا به من تذكيرك بآيات الله ومواعظك وقوله: بِالْكَفْرِ وبه حالان:

أَي دَخَلُوا كَافِرِينَ وَخَرَجُوا كَافِرِينَ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ وَقَدْ دَخَلُوا وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا ادْخَلْتَ، قَدْ، تَقْرِيْباً لِلْمَاضِي مِنَ الْحَالِ انْتَهَى كَلَامُهُ.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ هَذَا الْكَلَامُ بِمَنْزِلَةِ التَّفْسِيرِ لِمَا تَقْدُمُ أَي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمُ بِحَالِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ الْإِيمَانَ وَيَكْتُمُونَ الْكَفْرَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا فِي قُلُوبِهِمْ وَضَمَائِرُهُمْ وَأَنَّ قَصْدَهُمُ الْإِسْتِهْزَاءُ أَوْ إِغْفَالُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ حَيْثُ قَالَ: وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ<sup>(١)</sup>.

وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ هَذِهِ الْآيَةُ بِمَنْزِلَةِ الدَّلِيلِ عَلَى إِثْبَاتِ الْمُدْعَى أَي أَنَّ الدَّلِيلَ عَلَى كَوْنِهِمْ فِي إِدْعَاءِهِمُ الْإِيمَانَ هُوَ أَنَّهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ، أَي الْكَفْرِ

أو مطلق المعصية، والعدوان، وهو الظُّلم، والسُّحت وهو الرِّشوة في الحكم، وتقدير الإستدلال هو أن نقول والدليل على نفاقهم هو مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم السُّحت، فأنهم لو كانوا صادقين في إدعاءهم الإيمان لما كانوا متّصفين بهذه الصفات لأنّ المؤمن لا يسرع في الإثم والعدوان ولا يأخذ الرِّشوة على الحكم فمن كان متّصفاً بهذه الصفات ليس بمؤمنٍ واقعاً وأن كان متظاهراً به ولا نعني بالتَّفاق إلا هذا وأما قوله (وليس ما كانوا يعملون) فمعناه واضح إذ التَّفاق أقبح من الكُفر ولذلك قال الله تعالى فيهم ما لم يُقَل في الكفّار:

قال الله تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى في موضع آخر: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ<sup>(٢)</sup>.

لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ  
لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ

قل معنى، لولا، هاهنا، هلا، أي هلا ينهاهم الربانيون، وأصلها أن يمتنع الشيء لوجود غيره.

وقال الرماني أصلها التّقدير لوجوب الشيء عن الأوّل فنقلت الى التّحضيض على فعل الثّاني من أجل الأوّل وأن لم يذكر ولا بدّ معها من دلالة دخلها معنى، لم لا يفعل، ثمّ أنّها أي، لولا، هاهنا معناها التّوبيخ لدخولها على الماضي كقوله تعالى: لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ<sup>(٣)</sup> والربانيون، واحدها،

الرَّبَّانِي وهو العالم بالدين الَّذِي من قِبَلِ الرَّبِّ كما قالوا، روحاني، في النسبة الى الرُّوح ويحراني في النسبة الى البحر، وقيل المراد بهم في الآية علماء أهل الإنجيل كما أَنَّ المراد بالأخبار علماء التَّوراة وقيل المراد بهم جميعاً اليهود لأنَّه يتصل بذكرهم، ومعنى الآية لم لا ينهاهم الرِّبانيون والأخبار من علماءهم عن قولهم الإثم وأكلهم السُّحت وهو الرِّشوة على الحكم، لبئس ما كانوا يصنعون، أي الرِّبانيون والأخبار حيث سكتوا عن النَّهي.

ويحتمل أن يكون المعنى لبئس ما كانوا يصنعون أي اليهود والأوّل أظهر لأنَّ الآية نزلت في ذمّ علماءهم بعد سكوتهم وقلة مبالاتهم بالدين:

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا  
إِعلم أَنَّ اليد تستعمل على وجوه.

أحدها: الجارحة.

الثَّاني: النِّعمة.

الثَّالث: القوَّة.

الرَّابع: الملك

الخامس: تحقيق إضافة الفعل.

وقد إتفقوا على أَنَّها حقيقة في الجارحة ومجاز في غيرها وذلك لأنَّه قد يراد بها النِّعمة تقول العرب كم يد لي عند فلان أي كم نعمة لي عنده، وقد يراد بها الملك والقوَّة والقدرة: قال الشَّاعر:

وَأَنْتَ عَلَى أَعْبَاءِ مُلْكٍ ذُو يَدٍ أَي ذُو قُدْرَةٍ.

وقد يراد بها التأييد والنَّصر كقولهم يد الله مع الجماعة.

أيضاً يراد بها الفعل كقوله تعالى: ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ<sup>(١)</sup> أي ذلك بفعلك وأمثال ذلك من موارد الإستعمال كثيرة.



وأما المراد بها في الآية فقليل أريد بها معناها الحقيقي وهو الجارحة و ذلك لأنّ مذهبهم التّجسيم زعموا أنّ ربّهم أبيض الرّأس واللّحية قاعد على كرسيّ وزعموا أنّه فرغ من خلق السّموات والأرض يوم الجمعة وإستلقى على ظهره واضعاً إحدى رجليه على الأخرى للإستراحة ولذلك ردّ الله عليهم حيث قال: **وَمَا مَسْنَأُ مِنْ لُغُوبٍ**<sup>(١)</sup> أي ولم يعي بخلقهنّ وظاهر الآية يدلّ على أنّهم أرادوا بغلّ اليد وبسطها البخل والجود مجازاً ومنه قوله تعالى: **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ**<sup>(٢)</sup> و قل بعضهم أنّ المراد بقوله: **مَغْلُولَةً** أي مقبوضة من العطاء على وجه الصّفة له بالبخل، وهو قريب ممّا ذكرناه بل لا فرق بين المعنيين.

وقال الحسّن معنى الكلام، أنّها مقبوضة عن عذابنا، بمعنى أنّه لا يقدر على عذابنا، فقال الله تعالى: **غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا** أي ليس الأمر كما زعموا وقالوا بل أنّهم أبخل النّاس، أو غلت أيديهم في جهنّم، وبذلك القول أبعدوا من رحمة الله وثوابه ثمّ قال **بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ** وفيه تكذيب لقولهم والمعنى أنّ يديه مبسوطتان أي نعمه مبسوطه وفي ثنية اليد أقوال: **أحدها:** أنّه أراد نعمة الدّنيا ونعمة الدّين، أو نعمة الدّنيا ونعمة الآخرة.

**الثّاني:** أنّ اليد بمعنى القوّة أي ما قوّته بالتّوابع والعقاب والغفران والعذاب، مبسوطتان بخلاف قولهم أنّ يده مقبوضة عن عذابنا.

**الثّالث:** أنّ الثّنية للمبالغة في صفة النّعمة مثل قولهم لبيك وسعديك، و كما يقول القائل، بسط يديه يعطي يمنةً ويسرةً ولا يريدون الجارحة وأنّما يريدون كثرة العطية كما قال الأعشى:

يَدَاكَ يَدَا مَجْدٍ فَكُفْ مَفِيدَةً      وَكُفْ إِذَا مَا ضَنَّ بِالزَّادِ تَنْفَقَ

وقوله: **يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ** معناه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء.

وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا

معناه أنهم لا يقنعون بما قالوا بل سيزدادون عند ذلك طغياناً وكفراً، كما يقال و عظمتك فكانت موعظتي وبالأعلى عليك و ما زاد إلا شراً أي أنك إزدادت عندها شراً والطغيان هاهنا الغلو في الكفر، و قال بعضهم علّق بكثير لأنّ منهم من آمن و منهم من لا يزداد إلا طغياناً و هذا إعلام للرّسول بفرط عتوهم إذ كانوا ينبغي لهم أن يبادروا بالإيمان بسبب ما أخبرهم به الله تعالى على لسان رسوله من الأسرار التي يكتُمونها و لا يعرفها غيرهم لكن ربّوا ذلك غير مقتضاه و زادهم ذلك طغياناً وكفراً و ذلك لفرط عنادهم و حسدهم.

و قيل معناه، كلّما نزل عليك شيء كفروا به، و قال مقاتل معناه، و ليزيدنّ بني النّضير ما أنزل اليك من ربّك من أمر الرّجم و الدّماء، و قيل المراد بالكثير علماء اليهود و قيل إقامتهم على الكفر زيادة منهم في الكفر و كيف كان قال: وَ أَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبُغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَي و ألقينا بين اليهود و النّصارى العداوة و البغضاء الى يوم القيامة لأنّه قد جرى ذكرهم في قوله: لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَى أَوْلِيَاءَ مضافاً الى أن قوله: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ شامل للفرقيين.

و قال بعض المفسّرين الضّمير في قوله: بَيْنَهُمْ عائد الى اليهود فقط اذ هم جبرية و قدرية و موحدة و مشبهة وكذلك فرق النّصارى كالمالكية أو البيعوية و النّطورية و المراد أنهم لا يزالون متباغضين متعادين فلا يمكن إجتماعهم على قتالك و لا يقدرّون على الإضرار بك و لا يصلّون اليك و لا الى أتباعك لأنّ الطائفتين لا تؤاد بينهما مجتمعتان على حرك و في ذلك إخبار بالمغيب و الى هذا المعنى أشار بعض المفسّرين حيث قال فكّلهم أبداً مختلف و قلوبهم شتى لا يقع إتفاق بينهم و لا تعاضد انتهى كلامه و أعلم أنّ العداوة أخصّ من البغضاء لأنّ كلّ عدوّ مبغضّ و قد يبغض من ليس بعدوّ و قيل أنّ البغضاء لا

تَتَجَاوَزُ النَّفُوسَ وَ الْعِدَاوَةَ تَظْهَرُ بِسَبَبِ الْعَمَلِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَ فِي هَذَا الْكَلَامِ دَلَالَةٌ عَلَى خُبْرِهِمْ وَ سُوءِ سَرِيرَتِهِمْ وَ أَنَّهُمْ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَ مَعَ ذَلِكَ فِيهِ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى تَنْبِيَهُ عَنِ الْغَيْبِ وَ كَانَ كَمَا أَخْبَرَ، لِأَنَّ الْيَهُودَ كَانَتْ أَشَدَّ بَأْسًا مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ حَتَّى أَنْ قَرِيشًا كَانَتْ تَعْتَصِدُ بِهِمْ وَ الْأَوْسَ وَ الْخَزْرَجَ تَسْتَبِقُ إِلَى مَخَالَفَتِهِمْ وَ التَّكْثُرِ بِنَصْرَتِهِمْ فَأَبَادَهُمُ اللَّهُ وَ إقْتَلَعَ أَصْلَهُمْ وَ اجْلَى النَّبِيُّ ﷺ بَنِي قَيْنِقَاعَ وَ بَنِي النَّضِيرِ وَ قَتَلَ بَنِي قَرِيطَةَ وَ شَرَّدَ أَهْلَ خَيْبَرَ وَ غَلَبَ عَلَى فِدْكَ وَ دَانَ لَهُ أَهْلُ وَادِي الْقُرَى فَمَحَى اللَّهُ أَثَارَهُمْ صَاغِرِينَ.

وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ أَيَّ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا كَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعِصُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخَالِفُونَ أَمْرَهُ وَ نَهْيَهُ وَ يَجْتَهِدُونَ فِي دَفْعِ الْإِسْلَامِ وَ فِي ذِكْرِ النَّبِيِّ مِنْ كِتَابِهِمْ وَ ذَلِكَ هُوَ سَعْيُهُمْ بِالْفَسَادِ وَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ، لِأَنَّ الْفَسَادَ ظِلْمَ وَ الْمُفْسَدَ ظَالِمًا وَ مُحِبَّ الظَّالِمِ ظَالِمًا وَ اللَّهُ تَعَالَى مَنَزَهُ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ

قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِي مَعْنَى، لَوْ، وَ أَنَّهُ إِمْتِنَاعٌ غَيْرُهُ أَوْ وَجُوبُ الْمَعْنَى الثَّانِي بِالْأَوَّلِ عَلَى جِهَةِ التَّقْدِيرِ بِطَرِيقَةٍ، لَوْ كَانَ كَذَا لَكَانَ كَذَا، وَ الْفَرْقُ بَيْنَ، لَوْ، وَ، إِنْ، أَنَّ، لَوْ، لِلْمَاضِي وَ، إِنْ، لِلْمُسْتَقْبَلِ كَقَوْلِكَ، إِنْ أَتَيْتَنِي أَكْرَمْتُكَ، وَلَوْ أَتَيْتَنِي لِأَكْرَمْتُكَ، فَيَقْدَرُ الْإِكْرَامُ بِالْإِيتْيَانِ فِي الْمَاضِي، وَ فِي، إِنْ، وَعَدٌّ وَ لَيْسَ فِي، أَوْ، ذَلِكَ وَ مُحْصَلُ الْكَلَامِ فِي مَعْنَى الْآيَةِ هُوَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ وَ الْكُفَّارَ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقَوْا مَعَاصِيَهُ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ أَيَّ أَرْزَلْنَا عِقَابَهُمْ عَنْهُمْ وَ اثْبَتْنَاهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَ تَقْوَاهُمْ وَ لَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، اللَّامُ لِلْقِسْمِ وَ اللَّفْظُ وَ أَنَّ كَانَ لِلْمَاضِي إِلَّا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْإِسْتِقْبَالَ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ

أي ولو أن أهل الكتاب أقاموا التّوارة والإنجيل و عملوا بهما على ما فيهما من دون أن يحرفوا شيئاً منهما أو يغيروا أو يبدلوا كما كانوا يفعلون، وما أنزل إليهم من ربهم، قيل هو الفرقان أي وأقاموا الفرقان أيضاً.

وقيل كل ما دلّ الله عليه من أمور الدّين، لأكلوا من فوقهم، من بركات السّماء بإرسال السّماء عليهم مدراراً، ومن تحت أرجلهم، بإعطاء الأرض خيرها وبركتها، وقيل المراد بقوله: مِنْ فَوْقِهِمْ ثمرات النّحل والأشجار وبقوله: مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمُ الزّرع ونظير هذه الآية قوله تعالى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ<sup>(١)</sup>.

وأما قوله: مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ الإقتصاد الاعتدال أي ومن هؤلاء الكفّار قوم معتدلون في العمل من غير غلو ولا تقصير وهم الذين كانوا أسلموا منهم و تابعوا النّبي ﷺ.

وقال بعضهم نزلت في النّجاشي وأصحابه وقيل هم مسلموا أهل الكتاب وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ أي وكثير من هؤلاء اليهود والنّصارى ساء عملهم وهم الذين أقاموا على الكفر، وقوله ساء، أي قبح قال الله تعالى و قليل من عبادي الشّكور ففي هذه الآية دلالة على أن سعادة الدّارين لا تحصل إلّا بالإيمان الذي هو الإقرار والاعتقاد والعمل.



يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ  
لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ  
النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٤٧)  
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى  
تُقِيمُوا التَّوْرِيَّةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ  
رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ  
مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ  
الْكَافِرِينَ (٤٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَ  
الصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ  
يَحْزَنُونَ (٤٩) لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَ  
أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا  
تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٥٠)  
وَ حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ  
اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ  
بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٥١)

فيهاء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

اللغة

يَعْصِمُكَ، العَصْمُ المنع يقال عصمه الله أي حفظه ومنعه من المكروه.  
تَأْسُ يقال أَسَىْ يَأْسِيْ أساء إذا حزن.  
وَالصَّابِئُونَ جمع صابئ وهو الخارج عن دين عليه أمة عظيمة من الناس  
التي ما عليه فرقة قليلة وهم عبادة الكواكب.

وَالنَّصَارَىٰ هُمَ الَّذِينَ يَقْرُونَ بِالْمَسِيحِ.  
تَهْوَى، الهوى لطف محل الشيء من النفس مع الميل اليه بما لا ينبغي.

### ◀ الإعراب

رِسَالَتُهُ يقرأ على الأفراد على أنه جنس في معنى الجمع، و يقرأ بالجمع لأن جنس الرسالة مختلف فَرِيقًا كَذَّبُوا فَرِيقًا مفعول كَذَّبُوا و فَرِيقًا الثاني مفعول يقتلون، وكذبوا جواب، كلما، ويقتلون بمعنى قتلوا وأتما جاء بصيغة المضارع لتوافق رؤوس الأي كثيرٌ مِنْهُمْ هو خبر مبتدأ محذوف أي العمى و الصَّم كثير.

### ◀ التفسير

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ  
اختلفوا في سبب نزول الآية على أقوال:

أحدها: ما نقل عن محمد بن كعب القرطبي وغيره وهو أن إعرابياً هم بقتل النبي ﷺ فسقط السيف من يده وجعل يضرب برأسه شجرة حتى إنتشر دماغه.

الثاني: أن النبي كان يهاب قريشاً فأزال الله عز وجل تلك الهيبة.

الثالث: قيل كان للنبي حراس بين أصحابه فلما نزلت الآية قال الحقوا بملاحقكم فإن الله عصمني من الناس.

الرابع: قالت عائشة أن المراد بذلك إزالة التوهم أن النبي ﷺ كتم شيئاً من الوحي للتقية.

الخامس: قال أبو جعفر وأبو عبد الله عليه السلام: أن الله تعالى لما أوحى إلى النبي ﷺ أن يستخلف علياً كان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من

أصحابه فأنزل الله تعالى هذه الآية تشجيعاً له ﷺ على القيام بما أمره بأداءه، نقل هذه الأقوال في التبيان.

ونقل الرّازي في تفسيره لهذه الآية أيضاً وجوهاً:  
 منها، أنها نزلت في قصّة الرّجم والقصاص على ما تقدّم في قصّة اليهود.  
 ومنها، أنها نزلت في عيب اليهود وإستهزاءهم بالدين والنبي سكت عنهم.  
 ومنها، أنها نزلت في قصّة زيد وزينب بنت جحش.  
 ومنها، أنها نزلت في الجهاد فأَنَّ المنافقين كانوا يكرهونه فكان يمسك أحياناً عن حتّهم عن الجهاد.

ومنها، أنّه لمّا نزل قوله تعالى: **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** <sup>(١)</sup> سكت الرّسول عن عيب ألّهتهم فنزلت هذه الآية وقال بلّغ يعني معايب ألّهتهم ولا تخفها عنهم والله يعصمك منهم.  
 ومنها، أنها نزلت في حقوق المسلمين وذلك لأنّه قال في حجة الوداع لمّا بيّن الشرائع والمناسك هل بلّغتم قالوا نعم قال ﷺ اللهم فأشهد، ثمّ نقل الوجوه التي نقلناها عن التّبيان ثمّ قال.

نزلت الآية في فضل عليّ بن أبي طالب عليه السلام ولمّا نزلت هذه الآية أخذ بيده وقال: **مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ** وال من والاه وعاد من عاداه فلقيه عمر فقال هنيئاً لك يابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة وهو قوله ابن عباس والبراء بن عازب ومحمّد بن عليّ ثمّ قال.  
**وإعلم أنّ هذه الروايات وأن كثرت إلّا أنّ الأولى حملها على أنّه تعالى أمّنه** من مكر اليهود والنصارى وأمره بإظهار التّبليغ من غير مبالاة منه بهم وذلك لأنّ ما قبل هذه الآية بكثير وما بعدها بكثير لمّا كان كلاماً مع اليهود والنصارى إمتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين على وجه تكون أجنبيّة عمّا قبلها وما بعدها انتهى كلام الرّازي بألفاظه وعباراته.

وَأَنَا أَقُولُ الْحَقَّ أَنَّ الرَّازِي خَرَجَ عَنْ جَادَةِ الْإِنْصَافِ وَ سَلَكَ مَسْلَكَ الْإِعْتِسَافِ.

**أَمَّا أَوَّلًا:** فَلَأَنَّ الْوُجُوهَ الَّتِي ذَكَرَهَا غَيْرُ الْوُجُوهِ الْعَاشِرِ، مِمَّا إِسْتَخْرَجَهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ وَ نَسَبَهُ إِلَى الْمَفْسَّرِينَ.

**ثَانِيًا:** أَنَّ الْوُجُوهَ الْمَذْكُورَةَ لَا مَنَاسِبَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْآيَةِ أَصْلًا كَمَا هُوَ وَاضِحٌ إِذْ آيَةٌ مَنَاسِبَةٌ بَيْنَ الْآيَةِ وَ قِصَّةِ الرَّجْمِ وَ الْقِصَاصِ وَ عِيبِ الْيَهُودِ وَ إِسْتِهْزَاءِهِمْ وَ قِصَّةِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَ غَيْرِهَا مِنْ الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرَهَا.

**ثَالِثًا:** قَوْلُهُ أَنَّ الْأَوَّلَى حَمَلَهَا عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَمْنُهُ مِنْ مَكْرِ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى، وَ أَنَّ كَانَ فِي الْوَاقِعِ مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمِنَ الرَّسُولَ مِنْ مَكْرِ الْأَعْدَاءِ إِلَّا أَنَّ حَمْلَ الْآيَةِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى خُرُوجٌ مِنْ مَقَادِ الْآيَةِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهَا بِصَدَدِ بَيَانِ حَقِيقَةٍ أُخْرَى وَ هِيَ أَنَّهُ تَعَالَى أَمْرُ نَبِيِّهِ بِإِبْلَاحِ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ مِنْ غَيْرِ تَقْيَّةٍ وَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمَوَارِدَ بِتَبْلِيغِهَا إِلَى الْمُسْلِمِينَ لَا إِلَى الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى وَ عَلَيْهِ فَالْخَوْفُ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَا مِنَ الْكُفَّارِ فَالْحَقُّ أَنَّ يُقَالُ أَنَّ الْأَوَّلَى حَمَلَهَا عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَمْنُهُ مِنْ مَكْرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ فَأَمْرُهُ بِإِظْهَارِ التَّبْلِيغِ مِنْ غَيْرِ مَبَالَاةٍ مِنْهُمْ فَالْمُرَادُ بِالنَّاسِ فِي قَوْلِهِ مِنَ النَّاسِ، الْمُسْلِمُونَ لَا غَيْرَ كَمَا سَتَعْرِفُ حَقَّ الْقَوْلِ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَ قَالَ الطَّبْرِي فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ مَا هَذَا لَفْظُهُ:

وَ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ بِإِبْلَاحِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ وَ النَّصَارَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى قِصَصَهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَ ذَكَرَ فِيهَا مَعَايِبَهُمْ وَ خَبَثَ أَدْيَانَهُمْ وَاجْتِرَاءَهُمْ عَلَى رَبِّهِمْ وَ تَوَثُّبَهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَ تَبْدِيلِهِمْ كِتَابَهُ وَ تَحْرِيفَهُمْ إِيَّاهُ وَ رَدَاءَهُ مَطَاعِمَهُمْ وَ مَا كُلُّهُمْ وَ سَائِرَ الْمُشْرِكِينَ غَيْرَهُمْ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ فِيهِمْ مِنْ مَعَايِبِهِمْ وَ الْأَزْرَاءَ عَلَيْهِمْ وَ التَّقْصِيرَ بِهِمْ وَ التَّهْجِينَ لَهُمْ وَ مَا أَمْرُهُمْ بِهِ وَ نَهَاؤُهُ عَنْهُ وَ أَنَّ لَا يَشْعُرُ نَفْسُهُ حَذَرًا مِنْهُمْ أَنَّ يَصِيبَهُ فِي نَفْسِهِ مَكْرُوهٌ مَا قَامَ



فيهم بأمر الله ولا جزعاً من كثرة عددهم وقلة عدد من معه وأن لا يتقي أحداً في ذات الله فإن الله تعالى كافيه كل أحد من خلقه ودافع عنه مكروهه من يتقي مكروهه وأعلمه تعالى ذكره أنه قصر عن إبلاغ شيء مما أنزل إليه اليهم فهو في تركه تبليغ ذلك وأن قل ما لم يبلغ منه فهو في عظيم ما ركب بذلك من الذنب بمنزلته لو لم يبلغ من تنزيله شيئاً انتهى كلامه.

ثم ذكر من الأخبار المروية من طرقهم ما يدل على ذلك وتبعه على ذلك غيره من مفسر لهم أمثال البيضاوي والألوسي والزمخشري والمنار والقرطبي وغيرهم إلا أن الأخير منهم زاد في الطنبور نغمة أخرى.

وهي أن معنى الآية، أظهر التبليغ لأنه كان في أول الأمر (أول الإسلام) يخفيه خوفاً من المشركين ثم أمر بإظهاره في هذه الآية وأعلمه الله أنه يعصمه من الناس وساق الكلام إلى أن قال:

فدلت الآية على رد قول من قال أن النبي ﷺ كتم شيئاً من أمر الدين تقيّةً وعلى بطلانه وهم الرافضة ودلت على أنه ﷺ لم يسر إلى أحد من أمر الدين شيئاً لأن المعنى بلغ جميع ما أنزل اليك ظاهراً ولولا ذلك ما كان في قوله: **وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** فائدة ثم أشار إلى قصة زينب بنت جحش كما نقلناها عن الرازي انتهى كلام القرطبي.

**أقول** كفى في جهل القرطبي أنه لم يعلم أن الآية في سورة المائدة وهي مدنية والآية نزلت في حجة الوداع بإجماع المفسرين وأين هذا من قوله أنه كان في أول الإسلام وأنه ﷺ كان يخفي الأمر من المشركين ثم أمر بإظهاره، فهذا مما لم يقل به أحد فاعتبروا يا أولي الأبصار.

ثم نقول ومن الذي قال من الشيعة أن النبي ﷺ كتم شيئاً من أمر الدين تقيّةً لتكون الآية ردّاً عليه ألم يعلم القرطبي أن الشيعة لا تقول بالتقيّة في النبي ﷺ وأنما تقول بها في الأئمة بعده ومن لا يعلم ذلك من مذهبهم

ككيف ينسبها اليهم في حقّ النبي وهو ﷺ لم يتّق من أحدٍ أليس هذا من الكذب بل التُّهمة عليهم.

ونحن نقول ألا لعنة الله على الكاذبين ومحصل الكلام في المقام هو أنّ جميع العامة أنكروا كون الآية مرتبطاً بالخلافة والوصاية فتارةً يقولون أنّها نزلت في إبلاغ هؤلاء اليهود والنصارى من أهل الكتاب كما عرفت وأخرى يقولون أنّ المولى في قوله ﷺ من كُنْتُ مَوْلَاهُ فهذا عليّ مَوْلَاهُ ليس بمعنى الأولى بالتصرف بل هو بمعنى المحبّ وهكذا من الأقوال التي لا فائدة في إيرادها لأنّها نشأت عن التعصب والعناد وهذا ممّا لا دواء له.

فنقول يقع البحث حول الآية في مقامين:

أحدهما: في نزولها.

ثانيهما: في دلالتها.

أمّا المقام الأوّل: فإعلم أنّ الآية نزلت في حجة الوداع وقد تظافرت الأخبار به من العامة والخاصّة ونحن نذكر شطراً منها في المقام توضيحاً للمقال و على الله التّوكل وبه الإعتصام.

ما رواه الحافظ الحسكاني وهو من أعيان العامة في كتابه المُسمّى بشواهد التنزيل لقواعد التّفصيل في هذه الآية بأسناده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال لَمَّا أُسْرِي بِي إِلَى السَّمَاءِ سَمِعْتُ تَحْتَ الْعَرْشِ أَنَّ عَلِيّاً رَايَةَ الْهُدَى وَحَبِيبَ مَنْ يُؤْوِينِي كَذَا بَلَغَ يَا مُحَمَّدُ قَالَ فَلَمَّا نَزَلَ النَّبِيُّ أُسِّرَ ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ فِي عَلِيٍّ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ الْآيَةَ.

ما رواه أيضاً بأسناده عن أبي إسحاق الحميدي (الخَدري خ) قال نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ.

أقول رواه الواحد في أسباب النزول<sup>(١)</sup> بأسناده عن أبي سعيد الخدري قال نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب.

ما رواه الحسكاني أيضاً بأسناده عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله عز وجل: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ قَالَ نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ يَبْلَغَ فِيهِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِ عَلِيٍّ فَقَالَ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالِي مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ.

ما رواه بأسناده عن عُمر بن نُعَيْم بن عُمر بن قيس الماصر قال سمعتُ جَدِّي قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يَوْمَ غَدِيرِ خَمٍّ وَتَلَى هَذِهِ الْآيَةَ، يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى يَرَى بَيَاضَ أَبْطِيهِ ثُمَّ قَالَ: أَلَا مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالِي مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ أَشْهَدُ.

وَبِأَسْنَادِهِ عَنْ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ سُلَيْمَانَ النَّوْفَلِيِّ قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ سَمِعْتُ زِيَادَ بْنَ الْمُنْذِرِ يَقُولُ كُنْتُ عِنْدَ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَحَدِّثُ النَّاسَ إِذْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ يُقَالُ لَهُ عَثْمَانُ الْأَعْشَى كَانَ يَرُوي عَنْ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ أَنَّ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ يَخْبِرُنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ بِسَبَبِ رَجُلٍ وَلَا يُخْبِرُنَا مَنْ الرَّجُلُ، يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يُخْبِرَ بِهِ لَأَخْبَرَ بِهِ وَلَكِنَّهُ يَخَافُ أَنَّ جَبْرَائِيلَ هَبَطَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَدُلَّ أُمَّتَكَ عَلَى زَكَاتِهِمْ فَذَلَّهِمْ عَلَيْهَا ثُمَّ هَبَطَ فَقَالَ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَدُلَّ أُمَّتَكَ عَلَى وَلِيِّهِمْ

على مثل ما دللتهم عليه من صلواتهم وزكواتهم وضيافتهم و  
حَجَّهم ليلزمهم الحجة من جميع ذلك فقال رسول الله ﷺ يا رب  
أَنْ قومي قاربوا عهد بالجاهلية وفيهم تنافس وفخر وما منهم  
رجل إلا وقد وتره وليتهم وأنِّي أخاف فأنزل الله تعالى: يَا أَيُّهَا  
الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ  
رِسَالَتَهُ يُرِيدُ فَمَا بَلَغْتَهَا تَامَةً، والله يعصمك من الناس فلما ضمن  
الله له العصمة وخوفه، أخذ بيد علي بن أبي طالب ثم قال أيها الناس  
من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه و  
أنصر من نصره وأخذل من خذله وأحب من أحبه وأبغض من  
أبغضه، فقال عثمان ما إنصرفتُ إلى بلدي بشيء أحب إلي من هذا  
الحديث.

وأسناده عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وجابر بن عبد  
الله قال: أَمَرَ الله مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَنْصِبَ عَلِيًّا لِلنَّاسِ لِيُخْبِرَهُمْ بَوْلَايَتِهِ  
فَتَخَوْفَ رسول الله ﷺ أَنْ يَقُولُوا هَابًا ابْنِ عَمَةٍ وَأَنْ يَطْغُوا فِي ذَلِكَ  
عَلَيْهِ فَأَوْصَى الله اليه، يَا أَيُّهَا الرِّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فَقَامَ  
رسول الله بولايته يوم غدير خم.

وأسناده عن عباية بن ربيعي عن عبد الله بن عباس عن النبي و  
ساق حديث المعراج إلى أن قال وأنِّي لم أبعث نبيًّا إلا جعلت له  
وزيراً وأنتك رسول الله و أن علياً وزيرك قال ابن عباس فَهَبَطَ فِكْرُهُ  
أَنْ يَحْدِثَ النَّاسُ بِشَيْءٍ مِنْهَا إِذْ كَانُوا حَدِيثِي عَهْدَ بِالْجَاهِلِيَّةِ حَتَّى  
مَضَى مِنْ ذَلِكَ سِتَّةَ أَيَّامٍ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: فَلَعْنُكَ تَارِكُ بَعْضِ مَا يُوحَى  
إِلَيْكَ <sup>(١)</sup> فَاحْتَمَلَ رسول الله ﷺ حَتَّى كَانَ يَوْمَ الثَّامِنِ عَشَرَ أَنْزَلَ  
الله عليه: يَا أَيُّهَا الرِّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ثُمَّ أَنْ رَسُولَ

اللَّهُ أَمَرَ بِلَالًا حَتَّى يُؤَدِّنَ فِي النَّاسِ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ غَدًا إِلَّا خَرَجَ إِلَى  
 غَدِيرِ خُمٍ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ وَالنَّاسُ مِنَ الْغَدَا فَقَالَ ﷺ يَا أَيُّهَا النَّاسُ  
 أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ بِرِسَالَةٍ وَأَنِّي ضِيقْتُ بِهَا ذِرْعًا مَخَافَةَ أَنْ  
 تَتَّهَمُونِي وَتُكَذِّبُونِي حَتَّى عَاتَبَنِي رَبِّي فِيهَا بِوَعِيدٍ أَنْزَلَهُ عَلَيَّ بَعْدَ  
 وَعِيدٍ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَرَفَعَهَا حَتَّى نَظَرَ النَّاسُ إِلَى  
 بَيَاضِ إِبْطِيهِمَا ثُمَّ قَالَ أَيُّهَا النَّاسُ اللَّهُ مَوْلَايَ وَأَنَا مَوْلَاكُمْ فَمَنْ كُنْتُ  
 مَوْلَاهُ فَعَلَيْكُمْ مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادَ مِنْ عَادَاهُ وَأَنْصُرْ مَنْ  
 نَصَرَهُ وَأَخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ  
 عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا<sup>(١)</sup>.

و الأحاديث نقلناها عن كتابه<sup>(٢)</sup>.

أقول، روي ابن الصَّبَّاحِ المالكي في فصول المهمة عن الإمام أبي  
 الحسن الواحدي في كتابه المُسَمَّى بِأَسْبَابِ التَّزْوِلِ يرفعه بسنده  
 عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا  
 أَنْزَلَ إِلَيْكَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍ فِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

قال وقوله بغدير خُمٍ بضم الخاء المعججه وتشديد الميم مع التنوين  
 إسم لغيبه على ثلاثة أميال من الجحفة عندها غدير مشهور  
 يضاف إلى الغيبة، فيقال غدير خُمٍ هكذا ذكره الشيخ محيي الدين  
 النووي.

ما رواه صاحب غاية المرام عن تفسير الثعالبي قال قال أبو جعفر  
 محمد بن علي عليه السلام في تفسير الآية معناه بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ  
 رَبِّكَ فِي فَضْلِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَفِي نَسْخَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَا  
 أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ فِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَكَذَا نَزَلَتْ رَوَاهُ جَعْفَرُ

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

بن محمد عليه السلام فلما نزلت هذه الآية أخذ رسول الله ﷺ بيد علي و قال من كنت مولاه فعلي مولاه.

ما رواه أيضاً عنه بأسناده عن ابن عباس في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَمْرَ النَّبِيِّ بَأَنْ يُبَلِّغَ فِيهِ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِ عَلِيٍّ وَقَالَ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادْ مَنْ عَادَاهُ.

ما رواه عن كشف الغمّة عن ذرّ بن عبد الله قال كنّا نقرأ على عهد رسول الله: يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ أَنْ عَلِيّاً مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ.

ما رواه عن إبراهيم بن محمد الحمويّني من أعيان علماء الغامة في كتاب السبطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين بأسناده عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ ليلة أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ سَمِعْتُ نَدَاءً مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ أَنْ عَلِيّاً رَأْيَةَ الْهُدَى وَحَبِيبَ مَنْ يُؤْمِنُ بِي بَلِّغْ عَلِيّاً فَلَمَّا نَزَلَ النَّبِيُّ مِنَ السَّمَاءِ نَسِيَ ذَلِكَ فَأَنْزَلَ إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ.

ما رواه عن صاحب المناقب الفاخرة في العترة الطاهرة عن محمد بن إسحاق عن أبي جعفر عن أبيه عن جدّه عليه السلام قال عليه السلام لما أنصرف رسول الله ﷺ مِنْ حَجَّةِ الْوَدَاعِ نَزَلَ أَرْضاً يَقُولُ لَهَا صَوْجَانُ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ فَلَمَّا نَزَلَتْ عَصِمَتْهُ مِنَ النَّاسِ نَادَى الصَّلَاةَ جَامِعَةً فَاجْتَمَعَ النَّاسُ

إليه فقال ﷺ مَنْ أَوْلَىٰ مِنْكُمْ بِأَنْفُسِكُمْ فَضَجُّوا بِأَجْمَعِهِمْ وَقَالُوا  
اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَخَذَ بِيَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَقَالَ مِنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ فَعَلَيَّْ  
مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالْأَهْلَ مِنْ وَالَاهُ وَعَادَ مَنْ عَادَاهُ وَأَنْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ وَأَخْذُلْ  
مَنْ خَذَلَهُ فَأَتَتْهُ مَتَّى وَأَنَا مِنْهُ وَهُوَ مَتَّى بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا  
أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَكَانَ آخِرَ فَرِيضَةٍ فَرَضَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أُمَّةٍ  
مُحَمَّدٍ ﷺ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ: أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ  
أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا<sup>(١)</sup> قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ قَبِلُوا  
مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلَّمَا أَمَرَهُمْ مِنَ الْفَرَائِضِ فِي الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ  
وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَدَّقُوهُ عَلَى ذَلِكَ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ قُلْتُ لِأَبِي  
جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ ذَلِكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تِسْعَةَ عَشَرَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ  
سَنَةِ عَشْرَةٍ عِنْدَ مُنْصَرَفِهِ مِنْ حِجَّةِ الْوُدَاعِ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ  
وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ مِائَةَ يَوْمٍ وَكَانَ سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَغْدِيرَ خُفْمٍ إِثْنِي  
عَشَرَ رَجُلًا.

مَا رَوَاهُ عَنْ أَبِي نَعِيمٍ فِي الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ يَرْفَعُهُ إِلَى عَلِيِّ بْنِ عَامِرٍ  
عَنْ أَبِي الْجَحَافِ عَنْ الْأَعْمَشِ قَالَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ  
إِلَيْكَ وَقد قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ  
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.

أَقُولُ الْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ فِي الْبَابِ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ السَّنَةِ كَثِيرَةٌ جَدًّا وَفِيمَا نَقَلْنَاهُ  
كَفَايَةً لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ وَلِنَشْرِ إِلَى شَطْرِ مِمَّا وَرَدَ فِي الْمَقَامِ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْبَيْتِ  
أَيْضًا تَيَمُّنًا وَتَبَرُّكًا بِهِ وَإِلَّا فَالْمَوْضُوعُ وَالْحُكْمُ عِنْدَنَا مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ فَأَنَّ أَهْلَ  
الْبَيْتِ وَاتَّبَاعَهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي فَضْلِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حِجَّةِ  
الْوُدَاعِ وَلَمْ يَخَالَفْ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ.

ما وراه في غاية المرام عن محمد بن يعقوب بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْعِبَادِ خَمْساً أَخَذُوا أَرْبَعاً وَتَرَكُوا وَاحِدةً قُلْتُ أَتُسَمِّيهِنَّ لِي جُعِلَتْ فِدَاكَ فَقَالَ عليه السلام الصَّلَاةُ وَكَانَ النَّاسُ لَا يَدْرُونَ كَيْفَ يُصَلُّونَ فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْهُمْ بِمَوَاقِيتِ صَلَوَاتِهِمْ ثُمَّ نَزَلَتِ الزَّكَاةُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْهُمْ عَنْ زَكَوَاتِهِمْ مَا أَخْبَرْتَهُمْ عَنْ صَلَوَاتِهِمْ ثُمَّ نَزَلَ الصَّوْمُ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا كَانَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ بَعَثَ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْقُرَى فَصَامُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ فَنَزَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ بَيْنَ شَعْبَانَ وَشَوَّالٍ ثُمَّ نَزَلَ الْحَجُّ فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ فَقَالَ أَخْبِرْهُمْ عَنْ حَجِّهِمْ مَا أَخْبَرْتَهُمْ مِنْ صَلَوَاتِهِمْ وَزَكَوَاتِهِمْ وَصَوْمِهِمْ ثُمَّ نَزَلَتِ الْآيَةُ وَأَنَّمَا أَتَاهُ ذَلِكَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ بَعْرَفَةَ: أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي <sup>(١)</sup> وَكَانَ كَمَالُ الدِّينِ بَوْلَايَةَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أُمَّتِي حَدِيثُوا عَهْدِي بِالْجَاهِلِيَّةِ وَمَتَى أَخْبَرْتَهُمْ بِهَذَا فِي ابْنِ عَمِّي قَالَ قَائِلٌ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْطِقَ بِهِ لِسَانِي فَأَتَتْنِي عَزِيمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِثَلَاثَةِ أَوْعَدَنِي أَنْ لَمْ أَبْلُغْ أَنْ يُعَذِّبَنِي فَنَزَلَتْ: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِ عَلِيٍّ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِمَّنْ كَانَ قَبْلِي إِلَّا وَقَدْ عَمَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى ثُمَّ دَعَاهُ فَأَجَابَهُ فَأَوْشَكَ أَنْ أَدْعِي فَأُجِيبَ وَأَنَا مَسْئُولٌ وَأَنْتُمْ مَسْئُولُونَ فَمَاذَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ فَقَالُوا أَنْشَهِدْ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَنَصَحْتَ وَأَدَيْتَ مَا عَلَيْكَ فَجَزَاكَ اللَّهُ أَفْضَلَ جِزَاءِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ شَهِدْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ هَذَا وَلَيْكُمْ بَعْدِي فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام كَانَ وَاللَّهِ أَمِينُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ وَغَيْبَةِ عِلْمِهِ



ودينه الذي إرتضاه لنفسه ثم أن رسول الله ﷺ حَضَرَهُ الَّذِي حَضَرَهُ فَدَعَى عَلِيًّا فَقَالَ يَا عَلِيُّ أَنِّي أُرِيدُ أَنْتُمْكَ عَلَيَّ مَا إِنْتُمْنِي اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْبِهِ وَعِلْمِهِ وَمِنْ خَلْقِهِ وَمِنْ دِينِهِ الَّذِي إِرْتَضَاهُ لِنَفْسِهِ فَلَمْ يُشْرِكْ وَاللَّهُ فِيهَا يَا ذِيا وَاحِدًا مِنَ الْخَلْقِ وَأَنْ عَلِيًّا حَضَرَهُ الَّذِي حَضَرَهُ فَدَعَى وَلَدَهُ فَكَانُوا إِثْنِي عَشَرَ ذَكَرًا فَقَالَ لَهُمْ يَا بُنَيَّ أَنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَبَى أَنْ يَجْعَلَ فِيَّ سَنَةً مِنْ يَعْقُوبَ وَأَنْ يَعْقُوبَ دَعَا وَلَدَهُ وَكَانُوا إِثْنِي عَشَرَ وَلَدًا ذَكَرًا فَأَخْبَرَهُمْ بِصَاحِبِهِمْ إِلَّا وَأَنِّي أَخْبَرَكُمْ بِصَاحِبِكُمْ إِلَّا أَنْ هَذِينَ إِبْنَا رَسُولَ اللَّهِ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَأَسْمَعُوا لَهُمَا وَأَطِيعُوا وَازْرَوْهُمَا فَأَنِّي قَدْ إِنْتُمْنِيهِمَا عَلَيَّ مَا إِنْتُمْنِي عَلَيْهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِمَّا إِنْتُمْنِيهِ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ غَيْبِهِ وَمِنْ دِينِهِ الَّذِي إِرْتَضَاهُ لِنَفْسِهِ فَأَوْجَبَ لَهُمَا مِنْ عَلِيٍّ مَا أَوْجَبَ مِنْ عَلِيٍّ لِرَسُولِ اللَّهِ فَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدِهِمَا فَضْلٌ عَلَى صَاحِبِهِ إِلَّا بِكِبَرِهِ وَأَنَّ الْحُسَيْنَ كَانَ إِذَا حَضَرَ الْحَسَنَ لَمْ يَنْطِقْ فِي ذَلِكَ أَلْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَقُومَ ثُمَّ أَنَّ الْحَسَنَ حَضَرَهُ الَّذِي حَضَرَهُ فَسَلَّمَ ذَلِكَ إِلَى الْحُسَيْنِ ثُمَّ أَنَّ حُسَيْنًا حَضَرَهُ الَّذِي حَضَرَهُ فَدَعَا ابْنَتَهُ الْكُبْرَى فَاطِمَةَ بِنْتَ الْحُسَيْنِ فَدَفَعَ إِلَيْهَا كِتَابًا مَلْفُوفًا وَوَصِيَّةَ ظَاهِرَةَ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ مَبْطُونًا لَا يَرَوْنَ إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا بِهِ فَدَفَعَتْ فَاطِمَةُ الْكِتَابَ إِلَى عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ ثُمَّ صَارَ وَاللَّهُ ذَلِكَ الْكِتَابَ الْيَنَّا انْتَهَى.

ما رواه بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ قَالَ عليه السلام هِيَ الْوَلَايَةُ انْتَهَى.

ما رواه العياشي في تفسيره بأسناده عن ابن عباس وجابر بن عبد الله قالوا أَمَرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا أَنْ يَنْصِبَ عَلِيًّا لِلنَّاسِ لِيُخْبِرَهُمْ بِوَلَايَتِهِ فَتَخَوَّفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقُولُوا حَابَا ابْنِ عَمَةٍ وَأَنْ يَطْعِنُوا فِي

ذَٰلِكَ عَلَيْهِ فَوَحِيَ اللَّهُ إِلَيْهِ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ بولايته يوم غدیر خُم انتهى.

ما رواه عنه أيضاً بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام لَمَّا نَزَلَ جَبْرِئِيلُ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ بِإِعْلَانِ أَمْرِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ قَالَ عليه السلام فَمَكَثَ النَّبِيُّ ثَلَاثًا حَتَّى أَتَى الْجُحْفَةَ فَلَمْ يَأْخُذْ بِيَدِهِ خَوْفًا مِنَ النَّاسِ فَلَمَّا نَزَلَ الْجُحْفَةَ يَوْمَ الْغَدِيرِ فِي مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ مَهْبِيعَةُ فَنَادَى الصَّلَاةَ جَامِعَةً فَاجْتَمَعَ النَّاسُ فَقَالَ النَّبِيُّ مَنْ أَوْلَىٰ بَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ قَالَ عليه السلام فَجَهَرُوا فَقَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ثُمَّ قَالَ لَهُمُ الثَّانِيَةَ فَقَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ثُمَّ قَالَ لَهُمُ الثَّلَاثَةَ فَقَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ فَقَالَ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالِ مِنَ الْوَالِهِ وَعَادِ مِنَ عَادَاهُ وَأَنْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ وَأَخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ فَأَنَّهُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ وَهُوَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي انتهى <sup>(١)</sup>.

أقول لا نحتاج الى نقل الأخبار الواردة في الباب أكثر ممّا نقلناه فإنّ الأمر أوضح من أن يخفى إلّا على المتعصب العنيد.

وقد نقل الطبرسي رحمته الله في الإحتجاج بأسناده عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام أنّه قال حجّ رسول الله من المدينة وقد بلغ جميع الشرائع قومه غير الحجّ والولاية فاتاه جبرئيل فقال يا محمد صلى الله عليه وآله أنّ الله جلّ اسمه يقرأوك السّلام ويقول لك أنّي لم أقبض نبيّاً من أنبيائي ولا رسولاً من رسلي إلّا بعد إكمال ديني وتأكيّد حجّتي وقد بقى عليك من ذلك فريضتان ممّا يحتاج أن تبّلّغها قومك فريضة الحجّ وفريضة الولاية والخلافة من بعدك فأنتي لم أخل الأرض من حجّةٍ ولن أخليها أبداً فإنّ الله جلّ ثناءك يأمرك أن تبّلّغ قومك الحجّ وتحجّ ونحجّ معك من استطاع اليه سبيلاً من أهل الحضرة والأطراف و

الأعراب وتعلمهم من معالم حجّهم مثل ما علمتهم من صلاتهم وزكاتهم و صيامهم وتوقفهم من ذلك على مثال الذي أوقفتم عليه من جميع ما بلغتهم من الشرائع منادي فنادى رسول الله ألا أن رسول الله يريد الحج وأن يعلمكم من ذلك مثل الذي علمكم من شرائع دينكم ويوقفكم من ذلك على ما أوقفكم عليه من غيره فخرج وخرج معه الناس وأصغوا اليه لينظروا ما يصنع فيصنعوا مثله فحجّ بهم وبلغ من حجّ مع رسول الله ﷺ من أهل المدينة و أهل الأطراف والأعراب سبعين ألف إنسان أو يزيدون على نحو عدد أصحاب موسى الذين أخذ عليهم بيعة هارون فنكثوا البيعة وابتغوا العجل و السّامري وكذلك أخذ رسول الله ﷺ البيعة لعليّ بالخلافة على عدد أصحاب موسى فنكثوا البيعة وابتغوا العجل و السّامري سنة بسنة ومثلاً بمثل واتّصلت التّلبية بين مكّة والمدينة فلمّا وقف بالموقف أتاه جبرئيل عن الله عزّ وجلّ فقال يا محمّد أنّ الله عزّ وجلّ يقرأوك السّلام ويقول لك أنّه قد دنى أجلك ومدّتك وأنا أستقدمك على ما لا بدّ منه ولا عنه محيص فأعهد عهدك و قدّم وصيتك وأعمد إلى ما عندك من العلم وميراث العلوم من قبلك و السّلاح والتّابوت وجميع ما عندك من آيات الأنبياء فسلمه إلى وصيك وخليفتك من بعدك حجّتي البالغة على خلقي عليّ بن أبي طالب عليه السّلام فأقمه للناس علماً وجدّد عهده وميثاقه وبيعته.

وساق الحديث إلى أن قال فخشي رسول الله من قومه وأهل النّفاق و الشّقاق أن يتفرّقوا ويرجعوا جاهلية لما عرف من عداوتهم لما ينطوي عليه أنفسهم لعليّ من العداوة والبغضاء وسأل جبرئيل أن يسأل ربّه العصمة من النّاس وأنظر أن يأتيه جبرئيل بالعصمة من النّاس عن الله عزّ وجلّ فأخّر ذلك إلى أن بلغ مسجد الخيف فأتاه جبرئيل في المسجد الخيف فأمره بأن يعهد و يقيم عليّاً للنّاس ولم يأت به بالعصمة من الله جلّ جلاله بالذي أراد حتّى بلغ كراع الغميم بين مكّة والمدينة فأتاه جبرئيل بالذي أتاه فيه من قبل الله ولم يأت به

بالعصمة فقال يا جبرئيل أني أخشى قومي أن يكذبوني ولا يقبلون قولي في عليّ فرجع فلما بلغ غدير خمّ قبل الجحفة بثلاثة أميال أتاه جبرئيل على خمس ساعات مضت من النهار بالزجر والانتهاز والعصمة من الناس فقال يا محمد أن الله عزّ وجلّ يقرأوك السلام ويقول لك.

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فِي عَلِيٍّ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ وَكَانَ أَوَائِلُهُمْ قَرِيباً مِنَ الْجَحْفَةِ فَأَمْرُهُ بَرْدٌ مِنْ تَقَدُّمِ مِنْهُمْ وَحَسْبٌ مِنْ تَأَخَّرِ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ لِيَقِيمَ عَلِيّاً عَلِماً لِلنَّاسِ وَيُبَلِّغَهُمْ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِي عَلِيٍّ وَأَخْبَرَهُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ عَصَمَهُ مِنَ النَّاسِ فَأَمَرَ رَسُولَ اللَّهِ عِنْدَ مَا جَاءَتْهُ الْعَصْمَةُ مَنَادِيّاً يَنَادِي فِي النَّاسِ بِالصَّلَاةِ جَامِعَةً وَيُرَدُّ مِنْ تَقَدُّمِ مِنْهُمْ وَيَحْبِسُ مِنْ تَأَخَّرِ وَتَنَحِّيٍّ عَنْ يَمِينِ الطَّرِيقِ إِلَى جَنْبِ مَسْجِدِ الْغَدِيرِ أَمْرُهُ بِذَلِكَ جَبْرِئِيلُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَانَ فِي الْمَوْضِعِ سَلَامَاتٌ فَأَمَرَ رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَقُمْ مَا تَحْتَهُنَّ وَيَنْصُبَ لَهُ حِجَابَةً كَهَيْئَةِ الْمَنبَرِ لِيَشْرَفَ عَلَى النَّاسِ فَتَرَجَعَ النَّاسُ وَاحْتَبَسُوا وَأَوَّحَرَهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوْقَ تِلْكَ الْأَحْجَارِ ثُمَّ حَمْدَ اللَّهَ تَعَالَى وَأَشْنَى عَلَيْهِ فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَا فِي تَوْحِيدِهِ وَدَنَا فِي تَفَرُّدِهِ وَجَلَّ فِي سُلْطَانِهِ وَعَظُمَ فِي أَرْكَانِهِ وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِماً إِلَى آخِرِ الْخُطْبَةِ بِتَفْصِيلِهَا، الَّذِي ذَكَرَهُ صَاحِبُ الْإِحْتِجَاجِ وَحَيْثُ أَنَّهَا مَطْوَلَةٌ جِذَاً أَعْرَضْنَا عَنْ نَقْلِهَا فِي الْمَقَامِ وَمِنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَيْهَا بِتَمَامِهَا فَعَلِيهِ بِالْإِحْتِجَاجِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَأْخِذِ الْمَعْتَبِرَةِ فَأَنَّ الْخُطْبَةَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مَا لَا يَوْجَدُ فِي غَيْرِهَا وَلِأَجْلِ ذَلِكَ شَرَحْنَاهَا وَأَوْضَحْنَاهَا أَلْفَاظُهَا بِالْفَارْسِيَّةِ بِاسْتِدْعَاءِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ مَفْصَلاً وَذَكَرْنَا فِي شَرْحِ الْخُطْبَةِ مَا تَشْتَبِهُهُ الْأَنْفُسُ وَتَلْذُّ بِهِ الْأَعْيُنُ وَكَمَلَتْ بِهِ الْمَعَارِفُ وَالْعُقُولُ وَنَرْجُوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُوَفِّقَنَا لَطَبْعِهِ وَنُشْرِهِ وَأَنْ يَتَقَبَّلَهُ بِقَبُولٍ حَسَنٍ أَنَّهُ خَيْرٌ مَوْقِفٌ وَمَعِينٌ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَمَّا فَرَعْنَا عَنِ الْبَحْثِ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ وَهُوَ نَزُولُ الْآيَةِ وَتَبَيَّنَ مِنْ طَرِيقِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي حُجَّةِ الْوُدَاعِ نَتَكَلَّمُ فِي الْمَقَامِ

الثَّانِي أعني به دلالة الآية على المدعى وذلك لأن المخالفين قد أتبعوا نفوسهم وبذلوا جهدهم في إنكار دلالتها على خلافة أمير المؤمنين عليه السلام كما هو شأنهم في جميع الآيات الواردة في فضائل أهل البيت، قل كل يعمل على شاكلته، وكل حزب بما لديهم فرحون، إنا لله وإنا إليه راجعون فنقول المقام الثاني في دالة الآية.

إعلم أن المتأخرين من مفسري العامة إكتفوا في تفسير الآية بظاهر اللفظ و قالوا فيها ما لا يقبله العقل ولا النقل.

قال القرطبي في المقام معناها، أظهر التبليغ لأنه كان في أول الإسلام يخفيه خوفاً من المشركين ثم أمر بإظهاره في هذه الآية وأعلمه الله أنه يعصمه من الناس وكان عمر أول من أظهر إسلامه وقال لا نعبد الله سراً إلى أن قال فدلّت الآية على ردّ من قال أن النبي كتم شيئاً من أمر الدين تقيّةً وعلى بطلانه وهم الرافضة ودلت على أنه صلّى الله عليه وآله لم يسر إلى أحد شيئاً من أمر الدين لأن المعنى بلغ جميع ما أنزل اليك ظاهراً ولولا هذا ما كان في قوله: وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ فائدة، وقيل بلغ ما أنزل اليك من ربك في أمر زينب بنت جحش الأسدية وقيل غير هذا والصحيح القول بالعموم ثم قال، وقال ابن عباس المعنى بلغ جميع ما أنزل اليك من ربك فإن كتمت شيئاً منه فما بلغت رسالته وهذا تأديب للنبي صلّى الله عليه وآله وتأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئاً من أمر شريعته إلى آخر ما قال وقال في تفسير قوله: وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ دليل على نبوته لأن الله أخبر أنه معصوم ومن ضمن سبحانه له العصمة فلا يجوز أن يكون قد ترك شيئاً ممّا أمره، ثم أطال النقل بذكر الأقاويص التي لا فائدة في نقلها إلا تسويد الأوراق وتضييع العمر.

ونحن نقول في جوابه لو كان نزول الآية في بدء البعثة وأول التبليغ كان لهذا التفسير وجه وأما لو كان نزول الآية في آخر التبليغ كما عليه الشيعة أو بعد الهجرة كما عليه جميع المفسرين فليس لهذا التفسير موقع ولا محلّ

كفيع يقول القرطبي معناها أظهر التبليغ لأنه كان في أول الإسلام يخفيه خوفاً من المشركين ثم أمر بإظهاره، ثم نسأل عنه ونقول ما الذي كان الرسول يخفيه خوفاً من المشركين من أحكام الإسلام قبل نزول الآية، فأن قال، الصلاة والصوم والحج والجهاد وأمثالها من الأحكام.

فهو كذب بين وفرية على رسول الله ﷺ قد بلغ جميع الأحكام الفرعية قبل نزول الآية فأن الناس وقت نزولها كانوا يصلون ويذكرون ويصدقون ويحجون وهكذا ولم يبق من الأحكام شيء إلا وقد بلغه.

وأما قصة زينب بنت جحش فلا ربط لها بالآية أصلاً مصافاً إلى أنها من الأكاذيب والأفاصيص المختلعة، وأما ما نقله عن ابن عباس من أن الآية نزلت في تأديب النبي وتأديب حملة العلم فهو كلام لا طائل تحته ولا يليق بالجواب لأن النبي ﷺ لم يقصر في تبليغ الأحكام حتى يحتاج إلى التأديب فيعلم من ذلك كله أنه كان هناك شيئاً آخر سوى الأحكام وكان الرسول يخاف من تبليغه اليهم لكثرة المنافقين وقلة المؤمنين وهذا هو الذي نحن بصدد إثباته وبعبارة أخرى أن الرسول ﷺ بلغ جميع الأحكام قبل نزول الآية إلا الولاية والخلافة والوصاية وهي التي كان ﷺ يخفيها خوفاً من المنافقين فأنزل الله: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وهو المطلوب.

وقال الألوسي في روح المعاني ما هذا لفظه.

وأنت تعلم أن أخبار الغدير التي فيها الأمر بالاستخلاف غير صحيحة عند أهل السنة ولا مسلمة لديهم أصلاً ولنبين ما وقع هناك أتم تبين ولنوضح الغث منه والسمين ثم نعود على استدلال الشيعة بالإبطال، ثم نقل في توضيحه الغث منه والسمين، قصة اليمن وإعتراض بعضهم على أمير المؤمنين فخطب رسول الله في مكان بين مكة والمدينة عند مرجعه من حجة الوداع فبين فيها فضل علي وأَنَّ الحق كان معه ثم ذكر قصة زينب بنت جحش وقصة الإعرابي كما نقلناه عن القرطبي وأنكر الأخبار الصحيحة

الواردة بطرقهم أشدّ الإنكار كما هو دأب المعاند في جميع الأحوال، وعجب من ذلك كلّ أنّه نسب إلى الطّبري وابن عساكر أنّهما كانا من المحدثين ولم يميّز بين الصّحيح والضعيف من الأخبار وأنّما قال فيهما ذلك، لأنّه نقل عن الطّبري أنّه جمع في أخبار الغدير مجلّدين أورد فيهما سائر طرقه وألفاظه وساق الغث والسمين والصّحيح والسّقيم على ما جرت به عادة كثير من المحدثين فأنّهم يوردون ما وقع لهم في الباب من غير تمييز بين صحيح و ضعيف وكذلك الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر أورد أحاديث كثيرة في هذه الخطبة والمعول عليه فيها ما أشرنا إليه ونحوه ممّا ليس فيه خبر الاستخلاف كما يزعمه الشيعة انتهى كلامه.

**أقول** انظروا يا أهل الإنصاف إلى ملفّقات الألوسي ثمّ أعجبوا من كثرة جهله وقلة حياءه فإذا كان محمّد بن جرير الطّبري وابن عساكر لا يميّزان الصّحيح والسّقيم بين علماء العامة فمن يميّزهما منهم فاعتبروا يا أولي الأبصار ثمّ انظروا إلى شدّة التّعصب والعناد بالنسبة إلى أهل البيت.

ونحن نقول لقد حقّت عليه كلمة العذاب ماله من جواب، ثمّ نشرع في وجه إستدلال الشيعة بخبر، من كنت مولاة فعليّ مولاة، وقال لا يخفى أنّ أوّل الغلط في هذا الإستدلال جعلهم المولى بمعنى الأولى وقد أنكر ذلك أهل العربيّة قاطبة بل قالوا لم يجيء مفعّل بمعنى أفعّل أصلاً ولم يجوز ذلك إلّا أبو زيد اللّغوي متمسكاً بقول أبي عبيدة في تفسير قوله (هي مولاكم) أي أولى بكم إلى آخر كلامه<sup>(١)</sup>.

**أقول** كأن المسكين لم يطلع على أقوال اللّغويين في الباب ولأجل ذلك قال ما قال هذا أولاً.

ثانياً: أنّ إستدلال الشيعة لا ينحصر بما ذكره فقط بل إستدلالهم ثابت بجميع ألفاظ الخطبة من أولها إلى آخرها.

ثالثاً: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال قبل هذا الكلام أَلَسْتُ أَوْلَىٰ بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ قالوا بلى يا رسول الله قال ﷺ من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، و عليه فالمراد بالمولى هو الأولى و بعبارة أخرى.

المراد بالأولى و المولى واحد فما قال الخصم في الأولى نقول به في المولى لأنّ الرّسول جعلها واحداً من حيث المعنى ولم يقل أحد من العقلاء أنّ الأولى في قوله: أَلَسْتُ أَوْلَىٰ بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، بمعنى المحبة لأنّ كلام الرّسول مأخوذ من كلام الله تعالى حيث قال تعالى: أَلَنْبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ<sup>(١)</sup> وقد أجمع المفسّرون على أنّ الأولى في الآية بمعنى التّصرف في الأمور و حيث جعل النّبي المولى في كلامه، فعليّ مولاه، بعد قوله أَلَسْتُ أَوْلَىٰ بِكُمْ الخ علمنا أنّ المعنى فيهما واحد هذا كله مضافاً الى أنّ العقل السليم لا يحكم بأنّ النّبي صار مأموراً من قبل الله تعالى على أساس الآية بتبليغ المحبة دون الولاية و لعمرى هذا من قلة الإنصاف و شدة العناد و حيث إنّ البحث حول الآية و نقل الأقوال فيها يستدعي كتاباً مستقلاً و نحن بحمد الله صرنا من المؤفّقين فشرحنا الخطبة شرحاً كاملاً وافياً فلا نطيل الكلام بنقل أقوالهم في المقام حذراً من الإطناب و لنرجع الى بيان ما إستفدناه من الآية الشريفة في مقام الإستدلال فنقول دلّت الآية على أمور ينبغي التنبية عليها و الإعتقاد بها في الإمامة.

أحدها: أنّه يستفاد منها أن الإمامة و خلافة الرّسول لا تثبت إلا بتعيين من الله من الرّسول، فالجاعل هو الله تعالى و المبلّغ هو الرّسول فليس للرّسول تعيين الخليفة و الإمام بعده و أنما وظيفته تبليغ ما أنزل عليه من ربّه و إذا كان تعيين الإمام بيد الله كما أنّ تعيين الرّسول بيده فالرّسول و الإمام من هذه الجهة لا فرق بينهما.

أمّا الرّسول فلا كلام لأحد فيه، و أمّا الإمام فلدلالة الآية.



حيث قال: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ تَقْرِبَ  
الِاسْتِدْلَالَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَاطَبَ الرَّسُولِ وَأَمْرُهُ أَنْ يَبْلُغَ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ.  
وَقَدْ قُلْنَا أَنَّهُ أَيُّ الْمَأْمُورِ بِهِ لَمْ يَكُنِ الصَّلَاةُ وَلَا الصَّوْمُ وَلَا الزَّكَاةُ وَلَا غَيْرُهَا  
مِنَ الْأَحْكَامِ الْفَرْعِيَّةِ بَلْ كَانَ الْوَلَايَةُ وَالْخِلَافَةُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا  
عَلَيَّ مَوْلَاهُ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا الْمَنْوَالِ، فَالْمَنْزِلُ هُوَ اللَّهُ وَالْمَنْزِلُ هُوَ  
الْوَلَايَةُ وَالْمَبْلُغُ هُوَ الرَّسُولُ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

**ثَانِيهَا:** يَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْحُكْمَ أَعْنِي بِهِ خِلَافَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِلرَّسُولِ  
كَانَ ثَابِتًا مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ عِنْدَ الرَّسُولِ إِلَّا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَخْفِيهِ خَوْفًا مِنْ تَكْذِيبِ  
الْمُنَافِقِينَ فَلَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ بِالْعَصْمَةِ بَلَّغَهُ وَأَظْهَرَهُ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: مَا  
أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَذَلِكَ لِأَنَّ، أُنْزِلَ، فَعَلَ مَاضٍ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى الْحَدُوثِ فِي الْمَاضِي  
أَيُّ قَبْلَ التَّكَلُّمِ وَعَلَيْهِ فَإِنْزَالَ الْحُكْمَ كَانَ فِي الْمَاضِي وَإِظَاهَرَهُ كَانَ فِي غَدِيرِ  
خَمٍّ، وَلَوْ كَانَ إِنْزَالُ الْحُكْمِ فِي غَدِيرِ خَمٍّ، لَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى بَلِّغْ مَا نَزَلَ إِلَيْكَ بِفَعْلٍ  
الْمَضَارِعِ الدَّالِّ عَلَى الْحَدُوثِ فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ، وَلِذَلِكَ نَقُولُ أَنَّ النَّبُوَّةَ وَ  
الْإِمَامَةَ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ أَيُّ مَنْ حَيْثُ أَتَاهُمَا مَجْعُولَانِ مِنَ اللَّهِ فَعَلَى  
هَذَا كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِمَامًا وَخَلِيفَةُ الرَّسُولِ مِنْ بَدْوِ الْبَعْثَةِ إِلَّا أَنَّ تَصَرُّفَهُ فِي  
الْأَمْرِ كَانَ بَعْدَ الرَّسُولِ فَالرَّسُولُ كَانَ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ وَعَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ  
خَلِيفَةً وَوَصِيًّا لَهُ وَآدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ نَعَمْ ظَهَرَ الْإِمَامَةُ وَالْخِلَافَةُ كَانَ بَعْدَ  
ظَهَرِ الْبَعْثَةِ وَالرَّسَالَةِ.

**ثَالِثُهَا:** يَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ أَكْثَرَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مُخَالَفِينَ لَخِلَافَةِ عَلِيٍّ بَعْدَ  
الرَّسُولِ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ  
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْخُطْبَةِ عِنْدَ إِعْتِزَارِهِ، لِعَلَمِي بِقَلَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَكَثْرَةِ الْمُنَافِقِينَ، وَهُوَ  
بِمَنْزِلَةِ التَّفْسِيرِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ فَالْمُرَادُ بِالنَّاسِ فِي الْآيَةِ  
هُوَ الْمُنَافِقُونَ.

**رَابِعُهَا:** يَسْتَفَادُ مِنْهَا أَنَّ أَمْرَ الْوَلَايَةِ كَانَ مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ وَأَوْجِبَ الْوَاجِبَاتِ

في الشريعة والدليل عليه قوله وأن لم تفعل فما بلغت رسالته، فإنّ هذا الكلام بمنزلة التهديد والتخويف وأن شئت قلت أنّ الولاية كانت تعادل جميع الأحكام بل أصلها وأساسها بحيث لولاها لا فائدة في الدين فالولاية من الإسلام كالروح من الجسد فكما لا خير في جسد لا روح له لا خير في دين لا ولاية فيه والأخبار الواردة في هذا المعنى كثيرة جداً ولأجل هذا قال الله تعالى: **وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ.**

وقد روي عن الصادق عليه السلام: أنه قال بُنيت الإسلام على خمس: الصلاة، والزكاة، والصوم والحج، والولاية، وما نُودي بشيءٍ منها كما نُودي بالولاية فأخذ الناس بالأربع وتركوها.

**خامسها:** أنّ المراد بالكافرين في قوله: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** الكافرين بنعمة الولاية فالمراد بالكفر في الآية هو كفر الجحود هذا تمام الكلام في تفسير الآية الشريفة عند الشيعة من أعظم ما يستدل به على المدعى و الحق أنّه لا خفاء في الآية من حيث الدلالة لمن أنصف ولكن لا إنصاف لمن لا إيمان له قل كلّ يعمل على شاكلته و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون إنّنا لله وإنا اليه راجعون و حيث إنجّر البحث الى هنا فلا بأس بالإشارة الى بعض الأشعار الواردة في قصّة الغدير فإنّ الميسور لا يسقط بالمعسور تيمناً و تبركاً به وإلا فاستقصاء الأشعار يستدعي مجالاً واسعاً و قد بذل جهده غير واحد من علمائنا في هذا الباب كصاحب العبقات و مؤلف كتاب الغدير و صاحب المناقب و غيرهم رضوان الله عليهم أجمعين و حشرهم الله مع مولا هم أمير المؤمنين و أولاده المعصومين المظلومين قال حسّان بن ثابت الأنصاري:

يُنَادِيهِمْ يَوْمَ الْغَدِيرِ نَبِيُّهُمْ      بَخْمٌ وَأَسْمَعُ بِالنَّبِيِّ مُنَادِيًا  
يَقُولُ فَمَنْ مَوْلَاكُمْ وَوَلِيِّكُمْ      فَقَالُوا وَلَمْ يَبْدُوا هُنَاكَ التَّعَادِيَا  
إِلَهُكَ مَوْلَانَا وَأَنْتَ وَلَيْنَا      وَلَا تَجِدُنَا لَكَ الْيَوْمَ عَاصِيًا

رَضِيتُكَ مِنْ بَعْدِي إِمَاماً وَهَادِياً  
فَكُونُوا لَهُ أَنْصَارَ صَدَقِ مُوَالِياً  
وَكُنْ لِلَّذِي عَادَى عَلِيّاً مُعَادِياً

قال ابن حمّاد:

وَأَجَلَّهَا قَدَرًا عَلَى الْإِسْلَامِ  
أَعْنِي الْوَصِي إِمَامَ كُلِّ إِمَامٍ  
كَفَّ الْوَصِي يَقُولُ لِلْأَقْوَامِ  
بِالْوَحْيِ مَنْ ذِي الْعِزَّةِ الْعَلَامِ  
فَإِذَا قَضِيتُ فَذَا يَقُومُ مَقَامِي  
وَأَنْزَلَ بِمَنْ عَادَاهُ سُوءَ حِمَامِ

وَمُشَبِّهُهُ فِي شِيْمَةٍ وَضَرَائِبِ  
وَقَدْ خَافَ مِنْ غَدْرِ الْعُدَاةِ النَّوَاصِبِ  
فَقَالُوا بَلَى رَبِّبِ الْمُرِيبِ الْمَوَارِبِ  
فَهَذَا مَوْلَاهُ بَعْدِي وَصَاحِبِي  
كَهَارُونَ مِنْ مُوسَى الْكَلِيمِ الْمُخَاطَبِ

ولنعم ما قال الأمير أبو فراس الحمداني حيث قال:

فِيمَا يَسُوؤُهُمْ فِي غَدٍ عُقْبَاهُ  
عَنْهُ النَّبِيُّ مِنَ الْمَقَالِ أَتَاهُ  
مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَذَا مَوْلَاهُ

يَوْمَ خُمٍّ بَيْنَ دَوْحٍ مُنْتَظِمٍ  
وَالْيَا يُوجِبُ حَقِّي فِي الْقَدَمِ  
كُنْتُ مَوْلَاهُ قَضَاءُ قَدَحَتَمِ

فَقَالَ لَهُ فُؤَادِي يَا عَلِيَّ فَأَنَّنِي  
فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا وَلِيِّهِ  
هَنَّاكَ دَعَى اللَّهْمُ وَال وَلِيِّهِ

يَوْمَ الْغَدِيرِ لِأَشْرَفِ الْأَيَّامِ  
يَوْمَ أَقَامَ اللَّهُ فِيهِ إِمَامَنَا  
قَالَ النَّبِيُّ بَدَّوْحٍ خُمٍ رَافِعاً  
مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَذَا مَوْلَى لَهُ  
هَذَا وَزِيرِي فِي الْحَيَاةِ عَلَيْكُمْ  
يَا رَبِّ وَالِي مَنْ أَقْرَ لَهُ الْوَلَا  
وَقَالَ الْقَاضِي التَّنُوخِي:

وَصَّى النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى وَوَزِيرَهُ  
وَمَنْ قَالَ فِي يَوْمِ الْغَدِيرِ مُحَمَّدٌ  
أَمَا إِنَّنِي أَوْلَى بِكُمْ مِنْ نَفُوسِكُمْ  
فَقَالَ لَهُمْ مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ مِنْكُمْ  
أَطِيعُوهُ ظَرْراً فَهُوَ مَتِي بِمَنْزِلِ

تَبَّأَ لِقَوْمٍ بَايَعُوا أَهْوَاءَهُمْ  
أَتَرَاهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا مَا خَصَّهِ  
إِذْ قَالَ فِي يَوْمِ الْغَدِيرِ مُعَالِئاً  
وَقَالَ الْحَمِيرِي رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ:

جَاحَدُوا مَا قَالَهُ فِي صِنُوهِ  
أَيُّهَا النَّاسُ فَمَنْ كُنْتُ لَهُ  
فَعَلِيٌّ هُوَ مَوْلَاهُ لِمَنْ

أَقُولُ قال الآلوسي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه.

و خير الغدير عمدة أدلتهم على خلافة الأمير كَرَّمَ الله وجهه وقد زادوا فيه إتماماً لغرضهم زيادات منكرة و وضعوا في خلاله كلمات مزورة و نظّموا في ذلك الأشعار و طعنوا على الصحابة رضي الله عنهم بزعمهم أنّهم خالفوا نصّ النبي المختار ﷺ فقال إسماعيل ابن محمّد الحميري عامله الله تعالى بعدله من قصيدة طويلة:

عَجَبْتُ مِنْ قَوْمٍ أَتَوْا أَحْمَدًا	بِخَطَّةٍ لَيْسَ لَهَا مَوْضِعٌ
قَالُوا لَهُ، لَوْ شِئْتُ أَعَلَّمْتُنَا	إِلَى مَنْ الْغَايَةِ وَالْمَفْزَعِ
إِذَا تَوَفَّيْتَ وَفَارَقْتَنَا	وَفِيهِمْ فِي الْمُلْكِ مَنْ يَطْمَعُ
فَقَالَ لَوْ أَعَلَّمْتُكُمْ مَفْزَعًا	كُنْتُمْ عَسِيْنٌ فِيهِ أَنْ تَصْنَعُوا
كَصْنَعِ أَهْلِ الْعِجْلِ إِذْ فَارَقُوا	هَازُونَ فَالْتَرَكْ لَهُ أَوْرَعُ
ثُمَّ أَتَتْهُ بَعْدَهُ عَزْمَةٌ	مَنْ رَبِّهِ لَيْسَ لَهَا مَدْفَعُ
أَبْلَغُ وَإِلَّا لَمْ تَكُنْ مُبْلَغًا	وَاللَّهِ مِنْهُمْ عَاصِمٌ يَمْنَعُ
فَعِنْدَهَا قَامَ النَّبِيُّ الَّذِي	كَانَ بِمَا يَأْمُرُهُ يَصْدَعُ
يَخْطُبُ مَأْمُورًا وَفِي كَفِّهِ	كُفٌّ عَلَى نُورِهَا يَلْمَعُ
رَافِعُهَا أَكْرَمُ بِكَفِّ الَّذِي	يَرْفَعُ وَالْكَفُّ الَّتِي تَرْفَعُ
مَنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ فَهَذَا لَهُ	مَوْلَى فَلَمْ يَرْضُوا وَلَمْ يَقْنَعُوا
وَوَظَلَ قَوْمٌ غَاظُهُمْ قَوْلُهُ	كَإِنَّمَا إِنْفَاهُمْ تَجْدَعُ
حَتَّى إِذَا وَارَوْهُ فِي لَحْدِهِ	وَإِنْصَرَفُوا عَنْ دَفْنِهِ ضَيَّعُوا
مَا قَالَ بِالْأَمْسِ وَأَوْصَى بِهِ	وَإِشْتَرَوْا الضُّرَّ بِمَا يَتَفَعُّ
وَقَطَّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَعْدَهُ	فَسَوْفَ يُجْزَوْنَ بِمَا قَطَّعُوا
وَأَزْمَعُوا مَكْرًا بِمَوْلَاهُمْ	تَبًّا لِمَا كَانُوا بِهِ أَرْمَعُوا
لَا هُمْ عَلَيْهِ يَرُدُّو حَوْضَهُ	غَدَاً وَلَا هُوَ لَهُمْ يَشْفَعُ

إلى آخر ما قال لا غفر الله تعالى له ولا أقال وأنت تعلم أنّ أخبار الغدير التي فيها الأمر بالإستخلاف غير صحيحة عند أهل السنة ولا مسلمة لديهم أصلاً انتهى موضع الحاجة من كلامه.

وأنا أقول أمّا قوله في صدر كلامه، وخبر الغدير عمدة أدلتهم على خلافه الأمير، فلا إشكال فيه إذ لا شك لنا في صحة الخبر وأنه نص على خلافة الأمير إلا أنّ أدلتنا ليست منحصرة فيه.

وأمّا قوله، وقد زادوا فيه إتماماً لغرضهم زيادات منكرة و وضعوا في خلاله كلمات مزورة، فنقول في جوابه:

ما الذي زادوا فيه إتماماً لغرضهم ثمّ ما الذي وضعوا في خلاله من الكلمات المزورة، فإن كان نقل كلمات القوم في فهم الآيات والأحاديث من الزيادات والموضوعات فعلى الإسلام السلام.

وأمّا الأحاديث الواردة في الباب فلا تنحصر فيما نقله أتباع أهل البيت بل كتب القوم مشحونة بها بما لا مزيد عليه وقد نقلنا شطراً منها فإن كانت الأحاديث الموجودة في صحاحهم ومسانيدهم من الموضوعات فما ذنب الشيعة ثمّ أنّي أتعجب من الألوسي في نسبته الزيادة والوضع في الأحاديث إلى الشيعة وهو يعلم أنّ أول من وضع الحديث إتماماً لغرضه هو أبو بكر حيث وضع حديث نحن معاشر الأنبياء لا نورث وتبعه عليه عمر و عثمان و عائشة و حفصة، وهو مخالف لصريح الكتاب وقد زاد عمر بن الخطاب في الأذان، الصلاة خير من النوم وصلاة التراويح جماعة وأمثال ذلك من الموضوعات كثيرة مذكورة في كتب القوم في باب مطاعن الخلفاء.

وأمّا أبو هريرة و أنس بن مالك و سمرة بن جندب و عمران بن حطان و معاوية و أمثالهم من رواة أحاديثهم فلا شك أنّهم من الوضاعين الكذابين على الله ورسوله، فكيف يقول في حق الشيعة هذه المقالة والشيعة لا تقول إلا ما صدر عن أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً.

وَأَمَّا قَوْلُهُ وَنَظَّمُوا فِي ذَلِكَ الْأَشْعَارِ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ إِطْلَاعِهِ وَقِلَّةِ تَبَعِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَشْعَارَ الَّتِي قَالُوهَا فِي حَدِيثِ الْغَدِيرِ أَكْثَرُهَا مِنْ أَهْلِ السَّنَةِ، فَأَنَّ حَسَانَ بْنَ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيَّ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ قَالَ الشَّعْرَ فِي حَدِيثِ الْغَدِيرِ فِي يَوْمِ الْغَدِيرِ وَكَانَ حَاضِرًا فِي غَدِيرِ حَمٍّ، لَيْسَ مِنَ الشَّيْعَةِ وَلِذَلِكَ تَخَلَّفَ عَنْ بَيْعَةِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ وَهُوَ مَعْلُومٌ، وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ:

يُسْنَدِيهِمْ يَوْمَ الْغَدِيرِ نَبِيَّهُمْ      بِحَمٍّ وَإِسْمَاعِيلَ مَنَادِيًا الْخ...

وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ وَهَكَذَا أَبُو الْفَرَجِ وَابْنُ الرُّومِيِّ وَأَبُو الْعَلَاءِ، وَأَبُو فَرَّاسٍ، وَالْقَاضِي التَّنُوخِيُّ وَأَبُو تَمَامٍ الطَّائِي وَابْنُ الْبَنُوِي وَأَمثالهم كُلُّهُمْ مِنْ أَهْلِ السَّنَةِ وَإِنْ شِئْتَ الْإِطْلَاعَ عَلَى أَسْمَاءِهِمْ مَفْصَلًا فَعَلَيْكَ بِمِرَاجِعَةِ الْكُتُبِ الْمَوْضُوعَةِ فِي هَذَا الْبَابِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ وَطَعَنُوا عَلَى الصَّحَابَةِ بِزَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ خَالَفُوا نَصَّ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَفِيهِ أَمَّا أَوَّلًا أَنَّهُمْ لَمْ يَطَعَنُوا عَلَى جَمِيعِ الصَّحَابَةِ بَلْ طَعَنُوا عَلَى الْفَاسِقِينَ الْمَعَانِدِينَ الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا<sup>(١)</sup> وَحَيْثُ أَنَّ أُمَّةَ الشَّيْعَةِ كَانُوا مَظْلُومِينَ فَقَالُوا فِي ظَالِمِيهِمْ مَا قَالُوا وَهَكَذَا شَيَّعَتْهُمْ وَمَتَابَعِيَهُمْ وَقَدْ أَجَازَ اللَّهُ ذَلِكَ بِصَرِيحِ الْآيَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا وَنَعَمَ الْحُكْمُ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاِنْتَظَرُوا إِنَّا مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ.

وَأَمَّا نَقْلُهُ الْأَشْعَارَ مِنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْحَمِيرِيِّ فَنَحْنُ لَا نُنْكِرُهُ بَلْ نَفْتَخِرُ بِهِ وَنَقُولُ أَعْلَى اللَّهِ مَقَامَهُ، وَقَوْلُهُ فِي آخِرِ الْكَلَامِ، لَا غُفَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ عَثْرَتُهُ أَقَالَ، لَا يَشْبَهُ بِكَلَامِ الْمُسْلِمِ الْمُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَمِيرِيَّ لَمْ يَمْدَحْ مُشْرِكًا وَلَا كَافِرًا وَلَا مُحَارِبًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ بَلْ قَالَ شَعْرًا عَلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْمَرْوِيَةِ فِي كُتُبِ الْفَرِيقَيْنِ وَبِذَلِكَ يَسْتَحَقُّ الْمَدْحَ

والتَّقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَمُسْتَوْجِبًا لِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ فَأَنَّ كَانَ هَذَا عِنْدَ الْأَلُوسِيِّ  
مِنَ الذَّنُوبِ الَّتِي لَا تَغْفَرُ فَلَا كَلَامَ لَنَا مَعَهُ فَأَنَّ حُبَّ الشَّيْءِ يَعْصِي وَيَصْمُ وَمَنْ  
يُضِلُّ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ.

نَعَمْ لَوْ قَالَ الْحَمِيرِيُّ فِي شَعْرِهِ أَنَّ قَوْلَ النَّبِيِّ فِي غَدِيرِ خَمٍّ، مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ  
فَهَذَا عَلَيٌّ مَوْلَاهُ الْخُ مِنْ قَبِيلِ الْهَذِيانِ، لَقَالَ الْأَلُوسِيُّ وَأَمْثَالُهُ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ لَقَدْ  
أَجَادَ فِي شَعْرِهِ، وَلَمَّا لَمْ يَنْسَبِ الرَّسُولَ إِلَى الْهَذِيانِ، وَلَمْ يَقُلْ دَعَاهُ أَنَّ الرَّجُلَ  
لِيَهْجُرَ، صَارَ مُسْتَحَقًّا لِلذَّمِّ وَعَدَمِ الْمَغْفَرَةِ وَأَمَّا الْأَشْعَارُ الَّتِي نَقَلَهَا الْأَلُوسِيُّ فِيهِ  
مِنْ قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ وَهِيَ مِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي الْمَقَامِ وَلَمْ يَقُلْ فِيهَا إِلَّا حَقًّا،  
أُولَاهَا:

لَأَمْ عَمْرٍو بِاللَّوِيِّ مِزِيعٍ      طَامِسَةٌ أَعْلَامُهَا بُلْعَقِ  
تَرَوْحُ عَنْهُ الطَّيْرُ وَحَشِيَّةٌ      وَالْأَسَدُ مِنْ خَيْفَتِهِ تَفَرَّعِ  
بِرَسْمِ دَارٍ مَا بِهَا مُؤَنَسٌ      إِلَّا صَلَالٌ فِي الثَّرَى وَقُغِ  
لَمَّا وَقَفَنَ الْعَيْسُ فِي رَسْمِهَا      وَالْعَيْنُ مِنْ عَرَفَانِهِ تَدْمَعِ  
ذَكَرْتُ مَنْ قَدْ كُنْتُ أَلَهُو بِهِ      نُبْتُ وَالْقَلْبُ شَجَّ مَوْجِعِ  
فَأَنَّ بِالنَّارِ لَمَّا شَفَّنِي      مِنْ حُبِّ أَرَوَى كِبْدِي تُلْدَعِ  
عَجَبْتُ مِنْ قَوْمٍ أَتَوْا أَحْمَدًا      الْخُ مَا ذَكَرَهُ الْأَلُوسِيُّ، وَبَعْدَهُ قَالَ.

حَوْضٌ لَهُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ إِلَى      أَيْلَةٍ وَالْعَرَضُ بِهِ أَوْسَعِ  
يَنْصَبُ فِيهِ عِلْمٌ لِلْهُدَى      وَالْحَوْضُ مِنْ مَاءٍ لَهُ مُتَرَعِ  
يَفِيضُ مِنْ رَحْمَتِهِ كَوِثْرُ      أَبْيَضِ كَالْفَضَّةِ أَوْ أَنْصَعِ  
حِصَاهُ يَاقُوتٍ وَمَرْجَانَةٍ      وَلَوْلَوْ لَمْ تَجْنِهِ اصْبَعِ  
إِلَى أَنْ قَالَ.

فِيهِ أَبَارِيقٌ وَقَدْ حَانَهُ      يَذَّبُ عَنْهَا ابْنُ أَبِي طَالِبِ  
يَذَّبُ عَنْهَا ابْنُ أَبِي طَالِبِ      دَبَّأَ كَجَرَبَا إِبْلِ شُرْعِ

والعطر والريحان أنواعه  
ريح من الجنة مأمورة  
إذا دنوا منه لكي يشربوا  
دونكم فإلتمسوا منها  
هذا لمن وإلى بني أحمد  
فالقوز للشارب من حوضه  
والناس يوم الحشر راياتهم  
فراية العجل وفرعونها  
وراية يقدمها أدلهم  
وراية يقدمها حبترو  
وراية يقدمها نعل  
أربعة في سقر أودعوا  
وراية يقدمها حيدر  
غداً يُلاقى المصطفى حيدر  
مولي له الجنة مأمورة  
إمام صدق وله شيعه  
بذاك جاء الوحي من ربنا  
الحميري ما دحككم لم يزل  
وبعدا صلوا على المصطفى

ذاك وقد هبت به زعر  
ذاهبة ليس لها مرجع  
قيل لهم تباً لكم فأرجعوا  
يزويكم أو مطعماً يشبع  
ولم يكن غيرهم يتبع  
والويل والذل لمن يمنع  
خمس فمنها هالك أربع  
وسامري الأمة المشنع  
عبد لئيم لكع أكوع  
للزور والبهتان قد أبدع  
لا برد الله له مضجع  
ليس لها من قعرها مطلع  
ووجهه كالشمس إذ تطلع  
وراية الحمد له ترفع  
والنار من إجلاله تفرع  
يرووا من الحوض ولم يمنعوا  
يا شيعه الحق فلا تجزعوا  
ولو يقطع إصبع إصبع  
وصنوه حيدرة الأصلع

أقول أنما نقلنا القصيدة بطولها لما فيها من الحلاوة والخلوص لمن كان له قلب، ومع ذلك فيها عذاب ونكال للمعاندين الخبيث ولأجل ذلك لم يذكرها الألويسي إلى آخرها ومن أشعار الحميري أيضاً قوله:

يا بائع الدين بذنيه  
فأرجع إلى الله وألق الهوى  
ليس بهذا أمر الله  
أن الهوى في النار مأواه



مِنْ أَيْنَ أَبْغَضْتَ عَلَيَّ الرَّضِيَ وَأَحْمَدُ قَدْ كَانَ يَرْضَاهُ  
 جُهِدَكَ أَنْ تَسْلِبَهُ الْيَوْمَ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ أَعْطَاهُ  
 مَنْ ذَا الَّذِي أَحْمَدُ مِنْ بَيْنِهِمْ يَوْمَ غَدِيرِ الْخُفِّ نَادَاهُ  
 أَقَامَهُ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِهِ وَهُمْ حَوْلَيْهِ فَسَمَاهُ  
 هَذَا عَلَيَّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مَوْلَى لِمَنْ قَدْ كُنْتُ مَوْلَاهُ  
 فَوَالِ مَنْ وَالَاهُ يَا ذَا الْعُلَى وَعَادِ مَنْ قَدْ كَانَ عَادَاهُ

و الأشعار في قصة الغدير كثيرة جداً وفيما ذكرناه كفاية هذا تمام الكلام  
 حول الآية الشريفة و حيث أن كتابنا هذا موضوع لتفسير كلام الله فلا يسعنا  
 البحث في الآية أكثر من هذا

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَ  
 مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ

قيل في سبب نزول الآية أنه جاء جماعة من اليهود فقالوا يا محمد ألسنت  
 تقول أن التوراة من عند الله قال بلى، قالوا فأننا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها  
 فنزلت الآية، فقال الله تعالى قل، يا محمد، يا أهل الكتاب، المخاطب بهذا  
 الكلام جميع أهل الكتاب من اليهود و النصارى لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ من دين  
 الله، حَتَّى تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، بالعمل بأحكامها و التصديق بما فيها من  
 البشارة بالنبي.

و قال بعض المفسرين أن الأمر بإقامة التوراة والإنجيل و ما فيهما أنما كان  
 قبل النسخ لهما، وهذا القول ليس بشيء لأن دين اليهود و النصارى صاروا  
 منسوخين من بدو البعثة فأَنَّ الإسلام نَاسَخَ لجميع الأديان كائناً ما كان و من  
 المعلوم أن الآية نزلت على الرسول بعد البعثة فكيف يعقل ما ذكره هذا  
 القائل، و الحق هو القول الأول فمعنى الآية أنكم يا أهل الكتاب بعد مجي  
 الإسلام لا دين لكم واقعاً و ذلك لأنكم لم تقيموا التوراة و الإنجيل حقاً و لذلك  
 بقيتم على الكفر و مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ أي حَتَّى تَقِيمُوا ما أنزل اليكم

من ربكم، قيل المراد به القرآن الذي أنزله الله تعالى على جميع الخلق وعليه فالمعنى لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل والقرآن، بالإعتقاد بها والعمل بما فيها.

وقال بعضهم أريد به جميع ما نصبه الله من الأدلة على توحيده وصفاته وصدق نبيه وليريدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً أي أن كثيراً من أهل الكتاب يزدادون عند نزوله طغياناً وكفراً وذلك لأن الذي خبت لا يخرج إلا نكداً فلا تأس على القوم الكافرين تسلياً للنبي أي لا تأسف عليهم بسبب زيادة طغيانهم وكفرهم فإن ضرر ذلك راجع اليهم لا إليك ولا إلى المؤمنين.

وقيل في معناه لا تتأسف بسبب نزول اللعن والعذاب عليهم فأنهم من الكافرين المستحقين لذلك هكذا قيل:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَ  
الْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

أي أن الذين آمنوا، بالله وأقرؤا بنبوة نبيه والذين هادوا وهم قوم اليهود الذين إعتقدوا نبوة موسى عليه السلام وتأيد شريعته والصابئون جمع صابئ وهم عباد الكواكب والنصارى وهم الذين يقرؤون بالمسيح من آمن بالله ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون وحاصل المعنى أن الذين آمنوا بأفواههم ولم يؤمنوا بقلوبهم ويهود والصابئون والنصارى، من آمن من هؤلاء بالله واليوم الآخر بقلبه ثم عمل صالحاً وفي إشارة إلى أن الإعتقاد لا يكفي في تحقق الإيمان بل لابد في تحققه من العمل الصالح، ومن المعلوم أن من كان كذلك فلا خوف عليه من عذاب الله فإن المؤمن الواقعي لا يعذب وفي المقام قول آخر وهو أن المراد من دام على الإيمان والإخلاص ولم يرتد عن الإسلام.

أَنْ قَلْتُ ظَاهِرَ الْإِعْرَابِ يَقْتَضِي أَنْ يُقَالَ وَالصَّابِثِينَ كَمَا قَرَأَ أَبُو بِنِ كَعْبٍ  
وَأَبْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ كَثِيرٍ، فَمَا وَجْهَ الرَّفْعِ.  
قَلْتُ ذَكَّرُوا فِي قِرَاءَةِ الْمَشْهُورِ وَجُوهًا:

أَحَدُهَا: مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْخَلِيلُ وَسَيُوبِيهِ وَهُوَ أَنَّ وَجْهَ الرَّفْعِ فِي الصَّابِثِينَ عَلَى  
نِيَّةِ التَّأْخِيرِ كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِثُونَ وَ  
النَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ  
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَلَا صَابِثُونَ كَذَلِكَ، وَعَلَى هَذَا فَالصَّابِثُونَ مُبْتَدَأٌ وَخَبْرُهُ  
مَحْذُوفٌ قَالُوا وَالْفَائِدَةُ فِي عَدَمِ عَطْفِهِمْ عَلَى مَنْ قَبْلَهُمْ هُوَ أَنَّ الصَّابِثِينَ أَشَدُّ  
كُفْرًا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَكَيْفَ يَكُونُ مَعْطُوفًا عَلَى مَا هُوَ أَوْعَفُّ مِنْهُ كُفْرًا وَ  
ضَلَالًا.

الوجه الثاني: ما نَقَلَ عَنِ الْقَرَاءِ وَهُوَ أَنَّ كَلِمَةَ إِنْ ضَعِيفَةٌ فِي الْعَمَلِ لِكُونِهَا  
مِثَابَةً لِلْفِعْلِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمِثَابَةَ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْحَرْفِ ضَعِيفَةٌ.

الوجه الثالث: أَنَّهَا وَأَنْ كَانَتْ تَعْمَلُ لَكِنْ إِنَّمَا تَعْمَلُ فِي الْإِسْمِ فَقَطْ وَأَمَّا  
الْخَبْرُ فَأَنَّهُ بَقِيَ مَرْفُوعًا بِكَوْنِهِ خَبْرُ الْمُبْتَدَأِ وَلَيْسَ لَهَا فِي رَفْعِ الْخَبْرِ تَأْثِيرٌ.

الوجه الرابع: أَنَّهَا إِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهَا فِي بَعْضِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي لَا يَتَغَيَّرُ حَالُهَا عِنْدَ  
إِخْتِلَافِ الْعَوَامِلِ فَلَا يَظْهَرُ أَثَرُ هَذَا الْحَرْفِ فِيهَا وَالْأَمْرُ هَاهُنَا كَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِسْمَ  
هُوَ قَوْلُهُ، الَّذِينَ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ لَا يَظْهَرُ فِيهَا أَثَرُ الرَّفْعِ وَالتَّصْبِ وَالْخَفْضِ وَإِذَا  
كَانَ كَذَلِكَ فَالْمَعْطُوفُ عَلَى إِسْمٍ، إِنَّ يَجُوزُ فِيهِ التَّصْبِ عَلَى إِعْمَالٍ، إِنَّ، وَالرَّفْعِ  
عَلَى إِسْقَاطِ عَمَلِهِ فَعَلَى هَذَا يَجُوزُ فِي الصَّابِثِينَ، الرَّفْعِ وَالتَّصْبِ، وَأَنْ شُتِ  
قُلْتُ التَّصْبِ عَلَى ظَاهِرِ الْإِسْمِ وَالرَّفْعِ عَلَى مَحَلِّهِ وَهُوَ الْإِبْتِدَاءُ، وَالْأَمْرُ سَهْلٌ.  
وَأَعْلَمُ أَنَّهُ يَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ أَمْرَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ فِي سَعَادَةِ الدَّارِينَ وَالْخَلَاصِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ هُوَ  
الْإِيمَانُ فَقَطْ.

**ثانيهما:** أن الإيمان لا يحصل بمجرد الاعتقاد بل لابد له من العمل الصالح كما هو معتقد الشيعة فمن لا عمل له لا إيمان له واقعاً والدليل عليه من العقل هو أن الإنسان له قوتان، قوة نظرية، وقوة عملية، والقوة النظرية عبارة عن الاعتقاد الصالح من التوحيد والنبوة والمعاد ومكارم الأخلاق والإتصاف بما ينبغي له من الكمالات النفسانية والإدراكات العقلية وأما القوة العملية فهي عبارة عن إظهار الحقائق والمعارف والكمالات النفسانية في قالب العمل في الخارج وحيث أن القوة النظرية مرتبطة بالباطن والقوة العملية بالظاهر وقد ثبت عقلاً أن الآثار مترتبة على الوجود الخارجي فلا محالة لا تأثير للنظرية قبل الظهور في الخارج المعبر عنه بالعمل ولأجل ذلك قالوا إن الإيمان لا تأثير له إلا بعد العمل.

**لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ قِيلَ لِلَّامِ لِلْقِسْمِ** والمعنى أقسم بالله تعالى أنه أخذ الميثاق وهو الإيمان المؤكدة التي أخذها أنبياءهم على بني إسرائيل، قاله أبو علي وقيل أن الميثاق هي الآيات البينات وأنما أخذ ميثاقهم على الإخلاص لتوحيد الله والعمل بما أمر به والإنتهاء عما نهى عنه قالوا وجه الإحتجاج عليهم بما أخذ على آبائهم من الميثاق وأنهم قد عرفوا ذلك في كتبهم وأقروا بصحته.

وقد مر الكلام في معنى الميثاق في سورة البقرة **وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا** أي أرسلنا إلى بني إسرائيل رسلاً إتماماً للحجة.

**كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ**

أي كلما جاءهم رسول من الأحكام التي لم تكن على طبق أميالهم وأهواءهم كذبوه أو قتلوه وهو دليل على ضعف إيمانهم وأنهم لم يؤمنوا بالله ورسوله واقعاً وذلك لأن الإيمان الحقيقي يقتضي متابعة الرسول فيما يأمر به وينهى مطلقاً سواء كان موافقاً لهواه أم مخالفاً.

ثُمَّ أَنَّ الْحَكَمَ لَا يَخْتَصُّ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ كَذَلِكَ فِي كُلِّ عَصَرٍ وَ  
 زَمَانٍ أَلَا تَرَى أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي زَمَانِنَا هَذَا مِنْ مَصَادِيقِ هَذِهِ الْآيَةِ فَكُلَّ  
 حَكَمٍ مِنْ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ كَانَ مُوَفَّقًا لِأَرْأَهُمْ وَ أَهْوَاءِهِمْ فِي الْإِيصَالِ إِلَى  
 مَقَاصِدِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ يَأْخُذُونَ بِهِ وَيَقُولُونَ الْإِسْلَامُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا وَكُلَّ حَكَمٍ  
 كَانَ مُخَالَفًا لِأَهْوَاءِهِمْ مُضَرًّا بِدُنْيَاهُمْ يَقُولُونَ هَذَا لَيْسَ مِنَ الْإِسْلَامِ وَلَمْ يَعْلَمُوا  
 أَنَّهُ تَكْذِيبٌ لِمَا حَبَّبَ الشَّرِيعَةُ وَأَمَّا قَتْلُ الْأَنْبِيَاءِ فَلَيْسَ فِي زَمَانِنَا هَذَا نَبِيٌّ وَلَوْ  
 كَانَ لَقَتَلُوهُ يَقِينًا وَمَحْضَلُّ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ مُتَابَعَةَ الْهَوَى لَيْسَتْ مِنْ خَصَائِصِ قَوْمٍ  
 دُونَ قَوْمٍ وَمَلَّةٌ دُونَ مَلَّةٍ بَلْ هِيَ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْبَاطِنِيَّةِ الْمُسْرِئَةِ الَّتِي قُلُوبُ أَكْثَرِ  
 النَّاسِ فِي كُلِّ عَصَرٍ وَزَمَانٍ أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهَا.

وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ  
 صَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ

أَيُّ ظَنٍّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ أَنَّهُ لَا يَقَعُ مِنَ اللَّهِ فِيهِمْ إِبْتِلَاءٌ وَ  
 إِبْتِحَارٌ بِالشَّدَائِدِ إِغْتِرَارًا بِقَوْلِهِمْ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ وَأَنَّمَا إِغْتَرَوْا بِطُولِ  
 الْإِمْهَالِ، وَفِي (تَكُونُ) مِنْ حَيْثُ الْإِعْرَابِ وَجِهَانِ.  
 أَحَدُهَا: رَفَعَ النَّوْنُ وَبِهِ قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَالْكَسَائِيُّ.

ثَانِيهِمَا: نَصَبَ النَّوْنُ وَهُوَ قِرَاءَةُ الْمَشْهُورِ وَعَلَيْهَا الْمَصَاحِفُ.

حِجَّةُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ أَنَّ، حَسَبَ، بِمَعْنَى عِلْمٍ وَتَيَقُّنٍ، وَأَنَّ فِي أَلَّا، مُخَفَّفَةٌ مِنْ  
 الثَّقِيلَةِ وَدُخُولِ، لَا، عَوْضٌ مِنَ التَّخْفِيفِ وَحَذْفُ الضَّمِيرِ لِأَنَّهُمْ كَرِهُوا أَنْ يَلِيَهَا  
 الْفِعْلُ وَلَيْسَ مِنْ حِكْمِهَا أَنْ تَدْخُلَ عَلَيْهِ فَفَصَّلُوا بَيْنَهُمَا، بَ، لَا، وَحِجَّةُ الْقَوْلِ  
 الثَّانِي، أَنَّ حَسَبَ عَلَى بَابِهِ مِنَ الشَّكِّ وَغَيْرِهِ.

قَالَ سَيَبَوِيه، حَسِبْتَ أَلَّا يَقُولُ ذَلِكَ، أَيُّ حَسِبْتَ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ وَأَنَّ شَيْئًا  
 نَصَبْتَ قَالَ النَّحَّاسُ وَالرَّفْعُ عِنْدَ النَّحْوِيِّينَ فِي حَسَبَ وَأَخَوَاتِهَا أَجُودُ لِأَنَّ،  
 حَسَبَ، وَأَخَوَاتِهَا بِمَنْزِلَةِ الْعِلْمِ لِأَنَّهُ شَيْءٌ ثَابِتٌ انْتَهَى كَلَامُهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: فَعَمُّوا وَصَمُّوا معناه عموا عن الهدى وصمُّوا عن سماع الحق وذلك لعدم إنتفاعهم بما رأوه وسمعوه ومنه قوله تعالى: صُمُّ بُحْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَزِجُّونَ<sup>(١)</sup>.

والوجه في ذلك هو أنَّ العين للرؤية والسمع للإستماع، ثم ترتب الآثار عليهما فمن لم يترتب الأثر على الرؤية والإستماع فكأنه فاقدهما وأي فرق بين الأعمى والبصير الذي يرى ولا يعتبر وهكذا في جانب السمع: قال الله تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: صُمُّ بُحْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ<sup>(٣)</sup>.  
قال الله تعالى: وَ الَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا<sup>(٤)</sup>.

ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بعد أن أصابتهم الفتنة وهى القحط فكشفناه عنهم ثُمَّ عَمُّوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ أي بعد ما تبين الحق لهم برفع القحط أو بإرسال محمد ﷺ اليهم، فعموا وصمُّوا كثير من بني إسرائيل ولم يتعظوا بما وقعوا فيه من الفتنة والشدّة سابقاً وهو من أجلي الدلائل على شقاوتهم وسوء سريرتهم وأعلم أنَّ المفسرين ذكروا في معنى الفتنة وجوهاً.

منها، القحط، منها الوباء، منها القتل، منها العداوة والبغضاء، منها الإدبار و النحوسة قالوا وكلّ ذلك قد وقع بهم كما هو مذكور في التواريخ.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، الآية دالة على أنَّ عماهم و صمهم عن الهداية الى الحق حصل مرّتين وإختلف المفسرون في المراد بهاتين المرّتين على وجوه.

**الأول:** أَنَّهُمْ عَمُوا وَصَمُّوا فِي زَمَانِ زَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَىٰ بَعْضِهِمْ حَيْثُ وَقَفُوا لِلْإِيمَانِ بِهِ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي زَمَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ بَأَن أُنْكِرُوا نَبُوَّتَهُ وَرِسَالَتَهُ وَأَمَّا قَالَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لِأَنَّ أَكْثَرَ الْيَهُودِ وَإِنْ أَصْرُوا عَلَى الْكُفْرِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا أَنَّ جَمْعًا مِنْهُمْ آمَنُوا بِهِ مِثْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ.

**الثاني:** عَمُوا وَصَمُّوا حِينَ عَبْدُوا الْعَجَلَ ثُمَّ تَابُوا عَنْهُ فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِالْتَّمَعَتِ وَهُوَ طَلِبُهُمْ رُؤْيَا اللَّهِ جَهْرَةً وَنَزُولِ الْمَلَائِكَةِ.

**الثالث:** قَالَ الْقِفَالُ ذَكَرَ اللَّهُ فِي سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرًا لِهَذِهِ الْآيَةِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ قَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَخَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا<sup>(١)</sup>.

فهذا في معنى، فَعَمُوا وَصَمُّوا.

ثُمَّ قَالَ: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَيَذْكُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا<sup>(٢)</sup>.

فهذا في معنى قوله: ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ.

**الرابع:** أَنَّ قَوْلَهُ فَعَمُوا وَصَمُّوا أَمَّا كَانَ بِرَسُولٍ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مِثْلَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَغَيْرِهِمَا فَأَمَنُوا بِهِ فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ وَقَعَتْ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا مَرَّةً أُخْرَىٰ انْتَهَى كَلَامُهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِالرَّفْعِ فَقِيلَ هُوَ خَيْرٌ لِمَبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ وَتَقْدِيرُهُ، هُمْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَقِيلَ هُوَ عَلَى لُغَةِ بَعْضِ الْعَرَبِ، أَكْلُونِي الْبَرَاغِيثَ.

قال الرّازي المسألة الرابعة: لاشك أن المراد بهذا العمى والصّم الجهل والكفر فنقول أن فاعل هذا الجهل هو الله أو العبد والأول يبطل قول المعتزلة. الثاني: باطل لأن الإنسان لا يختار البتة تحصيل الجهل والكفر لنفسه الخ. أقول ما ذكره لا يرجع إلى محصل لأنه على أساسه الباطل وهو القول بالجبر وقد تكلمنا في بطلانه غير مرة فقله لأن الإنسان لا يختار البتة تحصيل الجهل والكفر لنفسه، كلام لا طائل تحته وذلك لأن الجهل والكفر أمران عديميان والأمر العدمي لا يطلب فلا يتعلّق به الاختيار فمن لم يطلب العلم بقي على جهله ومن لم يطلب الإيمان بقي على كفره وبعد تمامية الحجّة بسبب العقل والرّسل لا مجال لهذه الأبحاث لأن الإنسان لم يؤمن باختياره فبقي على كفره لا محالة وحيث أنّه كان قادراً على الإيمان عقلاً ونقلاً ولم يؤمن فهو في الحقيقة إختار الكفر من حيث لا يشعر هذا كلّهُ مضافاً إلى حكم العقل بل الحس بأن الإنسان مختار في فعله وقوله اذ لو لم يكن كذلك يلزم أن يكون الرّازي مجبوراً في إختياره مذهب أهل السنّة وإنكاره النص على خلافة علي بل تفضيله أبو بكر وعمر وعثمان على أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) وهو لا يقول به والحق أن الإنسان كائناً من كان مختار في جميع أفعاله وإعتقاداته والمخالف مكابر عقله ولتفصيل الكلام في أمثال هذه الأبحاث مقام آخر.





لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوِيهِ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَا كُلَّانِ الطَّعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَ ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ

أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ  
 خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ  
 وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا  
 مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً  
 لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ  
 أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا  
 نَصَارَى ذَلِكَ بِأَن مِنْهُمْ قَسْبِيسِينَ وَرُهْبَانًا وَ  
 أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

### ◀ اللغة

هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، الْمَسْحُ بفتح الميم و سكون السين والهاء إمارة اليد  
 على الشيء وإزالة الأثر عنه و المسيح بفتح الميم وكسر السين و سكون الياء  
 مبالغة من المسح وهو في المقام لقب عيسى عليه السلام وهو من الألقاب الشريفة  
 قيل لقب به لكونه ماسحاً في الأرض أي ذاهباً فيها وذلك أنه كان في زمانه قوم  
 يسمون المشائين والسياحين لسيرهم في الأرض.

وقيل سمي به لأنه كان يمسخ العاهة فيبرأ.

وقيل سمي به لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن.

وقال بعضهم أنه كان مشوحاً بالعبرانية فعرب ف قيل المسيح وكذا موسى  
 كان موسى وقيل المسيح الصديق وقيل غير ذلك والأمر سهل بعد وضوح  
 المقصود، وأما مريم بفتح الميم و سكون الراء وفتح الياء ف قيل هو مفصل من  
 رام يريم وهذا يقتضي أن يكون عربياً وقيل أنه إسم أعجمي وزنه مفعول و  
 بناؤه قليل وميمه زائدة ولا يجوز أن تكون أصلية وكيف كان فهو إسم لأم  
 عيسى ومريم كانت بنت عمران.

لِيَمَسَّنَ، الْمَسَّ كَالْمَسِّ لَكِنَّ اللَّمَسَ قَدْ يُقَالُ لَطَلَبِ الشَّيْءِ وَأَنْ لَمْ يَوْجَدْ، وَ الْمَسُّ يُقَالُ فِيْمَا يَكُونُ مَعَهُ إِدْرَاكٌ بِحَاسَّةِ اللَّمَسِ.  
يُؤْفَكُونَ، الْإِفْكَ كُلٌّ مَصْرُوفٌ عَنْ وَجْهِهِ الَّذِي يَحَقُّ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ وَ مِنْهُ قِيلَ الرِّيحُ الْعَادِلَةُ عَنْ الْمَهَابِ مُؤْتَفِكَةٌ.  
لَا تَعْلُوا، الْعُلُوُّ تَجَاوَزُ الْحَدَّ.

قِسِّيسِينَ وَ رَهْبَانًا، الْقِسُّ وَالْقِسِّيسُ بِكسْرِ الْقَافِ الْعَالِمُ الْعَابِدُ مِنْ رُؤُسِ النَّصَارَى وَأَصْلُ الْقِسِّ تَتَبَعَ الشَّيْءَ وَ طَلَبَهُ بِاللَّيْلِ، وَالْقَسْقَاسُ وَالْقَسْقَاسُ الدَّلِيلُ بِاللَّيْلِ، وَالرَّهْبَانُ بَضَمِّ الرَّاءِ وَ سَكُونِ الْهَاءِ جَمْعُ رَاهِبٍ وَ هُوَ الْخَائِفُ لِأَنَّهُ مِنَ الرَّهْبِ بِمَعْنَى الْخَوْفِ وَ الرَّاهِبُ هُوَ الَّذِي يَظْهَرُ عَلَيْهِ لِبَاسُ الْخَشْيَةِ وَ قَدْ كَثُرَ اسْتِعْمَالُ الرَّاهِبِ فِي مَنْسَكِي النَّصَارَى وَ الرَّهْبَانِيَةِ تَرْهَبُهُمْ فِي الْجِبَالِ وَ الصَّوَامِعِ وَ إِنْفِرَادِهِمْ عَنِ الْجَمَاعَةِ لِلْعِبَادَةِ وَ مَعْنَاهَا الْفِعْلَةُ الْمَنْسُوبَةُ إِلَى الرَّاهِبِ وَ هُوَ الْخَائِفُ.

### ◀ الإعراب

ثَالِثُ ثَلَاثَةِ أَيَّ أَحَدٍ ثَلَاثَةٌ وَ لَا يَجُوزُ فِي مِثْلِ هَذَا إِلَّا الْإِضَافَةُ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ قَالُوا، مِنْ زَائِدَةٍ وَ، إِلَهٍ، فِي مَوْضِعٍ مُبْتَدَأٍ وَ الْخَبَرُ مَحْذُوفٌ أَيَّ وَ مَا لِلْخَلْقِ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهٌ بَدَلَ مِنْ إِلَهٍ لِيَمَسَّنَ جَوَابُ قِسْمٍ مَحْذُوفٍ وَ سَدَّ مَسَدَ جَوَابِ الشَّرْطِ الَّذِي هُوَ، وَ إِنْ لَمْ يَتَّهَمُوا، وَ مِنْهُمْ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، إِمَّا مِنْ، الَّذِينَ أَوْ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي، كَفَرُوا، قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ فِي مَوْضِعِ رَفْعِ صِفَةِ لِرَسُولٍ كَانُوا يَأْكُلَانِ الْأَطْعَامَ لَا مَوْضِعَ لَهُ مِنَ الْإِعْرَابِ أَنِّي بِمَعْنَى كَيْفٍ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ وَ الْعَامِلُ فِيهَا، يُؤْفَكُونَ، مَا لَا يَمْلِكُ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ، مَا، نَكْرَةً مَوْصُوفَةً، وَ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى، الَّذِي، تَعْلُوا فَعَلَ لَازِمٌ وَ غَيْرُ الْحَقِّ صِفَةً لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ أَيَّ غَلَوْا غَيْرَ الْحَقِّ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ، أَيَّ لَا تَعْلُوا مُجَاوِزِينَ الْحَقِّ مِنْ بَنَى إِسْرَآئِيلَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ

في كفروا عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ مَتَّعِلِق، بلعن أَنَّ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنَّ والفعل في تقدير مصدر مرفوع خبر ابتداء محذوف أي هو سخط الله وقيل في موضع نصب بدلاً من، ما، أي بئس شيئاً سخط الله عليهم وقيل هو في موضع جر بلام محذوفة أي لأن سخط عداوة تمييز والعامل فيه، أَشَدَّ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مَتَّعِلِق بالمصدر أو نعت له آلِيَهُودَ المفعول الثاني، لتجد، ذَلِكَ مبتدأ وِبِأَنَّ مِنْهُمْ الخبر أي ذلك كائن بهذه الصفة.

### التفسير

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قَالُوا اللَّامُ فِي قَوْلِهِ، لقد، لام القسم أي أقسم الله بأنه كفر الذين قالوا كذلك وهم اليعقوبية وهم فرقة من النصارى يقولون أن مريم ولدت إلهاً قال بعض المحققين ولعل معنى هذا المذهب أنهم يقولون أن الله تعالى حل في ذات عيسى وإتحد بذات عيسى وهم مع ذلك يقولون بالتثليث لأنهم اعتقدوا أن الأب والابن وروح القدس إله واحد حكى عنهم أنهم يقولون جوهر واحد ثلاثة أقانيم، أب وابن وروح القدس وهذه الثلاثة إله واحد كما أن الشمس إسم يتناول القرص و الشعاع والحرارة وعنوا بالأب، الذات، وبالابن الكلمة، والزوج الحياة وأثبتوا الذات والكلمة والحياة وقالوا أن الكلمة التي هي كلام الله إختلطت بجسد عيسى إختلاط الماء بالخمير وإختلاط الماء باللين، وزعموا أن الأب إله، و الابن إله، والروح إله والكل إله واحد هكذا نقله الرّازي في تفسيره عنهم أقول لو صحّ هذا فهو بمقالة المجانين أشبه إذ كيف يعقل أن يكون الأب الذات على قولهم، إلهاً والابن وهو الكلمة إله والروح وهو الحياة إله ومع ذلك يكون الكل إلهاً واحداً أليس مرجع هذا الكلام إلى أن الكثير في كثرته واحد والواحد مع وحدته كثير وبعبارة أخرى كيف يكون الواحد ثلاثة والثلاثة واحد وقال الشيخ في التبيان أن الذين يقولون أن المسيح ابن الله هم طائفة من النصارى

غير اليعقوبية وكيف كان لا شبهة في وجودهم إجمالاً أما حقيقة مذاهبهم و كيفية عقائدهم وأقوالهم فلا علم لنا بها إلا من طريق النقل ولنرجع الى تفسير الكلام فنقول حكم الله بكفرهم لقولهم إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ والسَّبَب فيه هو أَنَّ المسيح مخلوق كغيره من المخلوقين وهو لا يكون إلهاً لوجوده.

**أحدها:** أَنَّ اللَّهَ قديم وما سواه كائناً ما كان حادث والقديم والحادث لا يجتمعان، أما أَنَّ اللَّهَ قديم فلما ثبت أَنَّهُ لا قديم سوى اللَّه تعالى إذ لو لم يكن قديماً لكان حادثاً لعدم الوساطة بين القديم والحادث وإذا كان حادثاً فهو مسبوق بعدم أن كان الحدوث زمانياً فهو محتاج الى من يخرججه من العدم الى الوجود وكل محتاج الى الغير ممكن الوجود مخلوق لغيره والخالق واجب الوجود فكيف يكون الحادث الزماني إلهاً وأن كان الحدوث ذاتياً بمعنى أَنَّهُ غير مسبوق بعدم لدوام الفيض بل مسبوق بالعلّة فقط.

فهو أيضاً في وجوده محتاج الى علته والمحتاج الممكن لا يكون غنياً و اجباً فالمخلوق لا يكون إلهاً والاله لا يكون مخلوقاً و حيث أَنَّ المسيح مخلوق حادث واللّه تعالى واجب الوجود قديم بالذات فكيف يمكن القول بأنَّ اللَّهَ هو المسيح.

**ثانيها:** لا شك لنا ولهم أَنَّ المسيح ولد من أمّه في زمانٍ معيّن معلوم فلو كان اللَّه هو المسيح يلزم أن لا يكون قبل ولادة المسيح في العالم خالق و صانع فمن خلق الخلق قبل المسيح.

**ثالثها:** لو كان اللَّه هو المسيح فلا محالة له أُم وهي مريم. وقد قال اللَّه تعالى في سورة الإخلاص: **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.**

**رابعها:** كلّ مولودٍ فهو جسم وكلّ جسم له أجزاء يحتاج اليها في وجوده و بقاءه وكلّ محتاج الى غيره ممكن الوجود وكلّ ممكن مخلوق لغيره و

المخلوق لا يكون خالقاً والخالق لا يكون مخلوقاً فثبت و تحقق أنَّ الله تعالى غير المسيح أين التراب وربُّ الأرباب وأتما أطلق عليهم الكفر في الآية لأنه لا فرق بين إنكار الخالق بالكليّة وبين قول القائل أنَّ الله هو المسيح أو غير المسيح وهو واضح وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فِي هَذَا الْكَلَامِ إشارة بل دلالة على أنَّ ما قالوه في حقِّ المسيح قالوه من عند أنفسهم ولم يكن المسيح راضياً به بل كان منكراً له أشدَّ الإنكار ولذلك قال لهم أعبدوا الله ربِّي وربكم الذي يملكني وأياكم وأتني وأنتم عبيده ومن خلقتني وخلقكم قال الله تعالى الحمد لله ربِّ العالمين إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ لَمَّا تبين في صدر الآية أنَّ طائفة من النَّصَارَى اعتقدوا بأنَّ الله هو المسيح ثمَّ حكم بكفرهم أفاد في المقام أنَّ هذا الكفر يعدُّ شركاً لأنهم لم ينكروا الخالق رأساً بل جعلوا له شريكاً في إلهيَّته وخالقيَّته وهو المسيح فقالوا هو هو وحيث أنَّ الشُّرك بالله من أعظم الذُّنوب فقد رتب عليه أموراً:

أحدها: تحريم الجنة على المشرك لأنها أعدت للمتقين ولذلك قال فقد حرَّم عليه الجنة.

ثانيها: جعل ماواه النار يوم القيامة.

ثالثها: عدم النُّصرة له في الدنيا والآخرة وفي قوله وما للظَّالِمِينَ، إشارة إلى أنَّ الشُّرك ظلم قال الله تعالى حكاية عن لقمان: وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ<sup>(١)</sup>.

وأعلم أنَّ الشُّرك على قسمين:

أحدهما: الشُّرك العظيم وقد يعبر عنه بالشُّرك الجلي وهو إثبات شريك لله تعالى يقال أشرك فلان بالله، وذلك أعظم كفر بل يستفاد من الأخبار أنَّه لا ذنب أعظم منه ويدل عليه:

قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ<sup>(٣)</sup>.

والآيات في ذم هذا النوع من الشرك كثيرة وهذا هو المراد من قوله ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة الخ.

ثانيهما: الشرك الصغير وقد يعبر عنه بالشرك الخفي وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور وقد يسمّى بالرياء والتفاق واليه الإشارة بقوله:

قال الله تعالى: شُرَكَاءُ فِيمَا اتَيْنَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ<sup>(٦)</sup>.

واليه الإشارة بقوله ﷺ الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على الصفا.

وأما قوله تعالى: وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا<sup>(٧)</sup> فهو إشارة الى الشركين معاً وذلك لأن لفظ الشرك مشترك بين المعنيين فالمؤمن الحقيقي منزّه عنهما.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وهذا قسم آخر من الكفار في ملّة المسيح وهم جمهور النصارى، من الملكانية واليعقوبية والنطورية وملتخص مقاتلهم أنهم يقولون، أب وابن وروح القدس إله واحد، ولا يقولون

بهاء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

٢- النساء = ١١٦

١- النساء = ٤٨

٤- الأعراف = ١٩٠

٣- الحج = ٣١

٦- النحل = ١٠٠

٥- يوسف = ١٠٦

٧- الكهف = ١١٠

أَنَّ الألهة ثلاثة ويمنعون من العبارة وأن كان يلزمهم ذلك و أنما قلنا يلزمهم ذلك لأنهم يقولون، الأب إله والإبن إله والروح إله، والكل إله واحد، فإذا كان كل واحد من هذه الثلاثة إله فالألهة ثلاثة وقد مرّ الكلام في سوء اعتقادهم و أنه من كلام المجانين اذ كيف يعقل كل واحد منها مع قطع النظر عن الآخر إله والكل إله واحد ولذلك قال بعض المحققين لا يرى في الدنيا مقالة أشدّ فساداً وأظهر بطلاناً من مقالة النصارى.

و أما معنى قوله: **ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ** واحد ثلاثة وتوضيحه إجمالاً هو أنهم أرادوا بذلك أَنَّ الله، وعيسى و مريم آلهة ثلاثة، فالأب هو الله، والإبن عيسى، والروح مريم.

وقال بعضهم الروح القدس وهو جبرائيل.

والحق أَنَّ المراد بالروح هو مريم بدليل قوله تعالى للمسيح: **ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ** <sup>(١)</sup> فقوله: **ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ** أي أحد ثلاثة آلهة أو واحد من ثلاثة آلهة تكسر ثلاثة بالإضافة ولا يجوز نصبها.

و أما اذا قلت رابع ثلاثة فيجوز الجزّ والنصب فتأمل في المقام فأنه دقيق وَ **مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ** كلمة ما، للنفي أي ليس في العالم إِلَهٌ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ بمعنى أنه لا شريك له في الملك فهو واحدٌ أحدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

أَنْ قُلْتَ أَنَّ المستثنى والمستثنى منه واحد وهو غير معقول.

قلت ليس كذلك فَإِنَّ المستثنى منه مطلق الإله لا بشرط الوحدة ولا بشرط غيرها، والمستثنى هو الإله المقيد بالوحدة، فالمستثنى منه مطلق والمستثنى مقيد واستثناء المقيد من المطلق أمر معقول بل شائع في الإستعمال لأنّ المقيد في الحقيقة فردٌ من المطلق يقال لا يكرم من رجلٍ إِلَّا رجلٌ عالم فظهر الفرق ثمَّ أَنَّ في هذا الكلام ردٌّ على القائلين بالتثليث المعتقدين بأنَّ الله ثالث



ثلاثة ويستفاد من هذا الكلام أَنَّ الإله لا يكون إلّا واحداً بمعنى أَنَّ الإلوهية لا تقتضي الشركة لا لفظاً ولا معنىً ولأجل هذه الدّقيقة إختار هذا الإسم من سائر الأسماء فلم يقل ما من ربّ واحد أو ما من خالقٍ أوراقي أو غير ذلك لأنّ الرّب والخالق والزّاق وغيرها قد يطلق على غير الله ولو مجازاً وهذا بخلاف الإله فإنّه لا يطلق على غيره ألا ترى أَنَّ يوسف قال أذكرني عند ربّك، ولم يقل أذكرني عند إلهك هذا من حيث اللفظ وأما من حيث المعنى فهو أيضاً كذلك فإنّ الإله مشتق من أله، اذا تحيّر فهو تعالى، أله، لأنّ النّاس تحيّرُوا في ذاته موجود في عالم الوجود كذلك إلّا هو تعالى.

أَنْ قُلْتُ لم قال تعالى: **إِلَهُ وَاحِدٌ** ولم يقل إله أحد كما قال قل هو الله أحد. قلتُ أَنَّ الواحد يدخل في الضّرب والعدد بخلاف الأحد فإنّه لا يدخل فيه فاذا قلنا أنّه واحد معناه لا ثاني له ولما قالت النّصارى أَنَّ الله هو ثالث ثلاثة أي واحد منها جعلوه في العدد فردّ الله تعالى عليهم وقال ما من إله إلّا إله واحد أي أَنَّ الإله ليس بكثير كما زعمتم بل أنّه واحد.

وأما الأحد فيقال لما لا جزء له فلو قالت النّصارى بالتركيب و أَنَّ الله مركّب من الأعضاء والأجزاء لقال الله في جوابهم أنّه تعالى أحد أي بسيط لا جزء له ولما قالوا بالكثرة من حيث العدد أي أَنَّ الألّهة ثلاثة أجاب الله بنفي الكثرة فقال هو واحد وسيأتي تفصيل الكلام في معنى الواحد والأحد والفرق بينهما في سورة التّوحيد لو عمّرني الله تعالى ووفّقني لإتمام هذا السّفر الجليل إن شاء الله.

سأل الإمام الجواد ما معنى الواحد فقال **إِلَهُ** إجماع الألسن عليه بالوحدانية وفي الحديث أنّه تعالى واحدٌ الذات وأحدٌ المعنى ومحصل الكلام أَنَّ الله تعالى واحد من جميع الجهات بخلاف سائر الأشياء فإنّ وحدتها بإعتبار العدد.

وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ  
 أي أن لم يرجعوا ولم يتوبوا عما كانوا عليه ويقولون به من القول بالتثليث  
 وإستمرّوا على كفرهم ليَمَسَّنَّ الَّذِينَ يَسْتَمِرُّونَ عَلَى الْكُفْرِ عَذَابٌ أَلِيمٌ، و  
 المراد بالْمَسِّ اللَّمس وذلك لأنَّ الْمَسَّ وَاللَّمْسَ واحد إلا أنَّ اللَّمس قد يقال  
 لطلب الشّيء وإن لم يوجد، وأمّا اللَّمس فأنّه يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة  
 اللَّمس إذا عرفت هذا فنقول:

عبر في الآية بالْمَسِّ دون اللَّمس للإشارة إلى أنّهم يدركون العذاب بحاسة  
 اللَّمس كما كانوا في الدّنيا فإنّ الإنسان في حياته يدرك الألم بحاسة لامسة، و  
 في هذا التعبير ردٌّ على من قال أو يقول بأنّ عذاب الآخرة رُوحِي لا جَسْمِي، و  
 الضّمير في قوله، منهم، يرجع إلى أهل الكتاب من النصارى فالوعيد يعمّ  
 الفريقين الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَالَّذِينَ قَالُوا هُوَ ثالث  
 ثلاثة فمن أقام من الفريقين على الكفر لزمه هذا الوعيد ولذلك قال:

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

الإستفهام للإبكار تفريقاً لهم وإنكاراً عليهم ترك التّوبة وقيل أنّه أمر في لفظ  
 الإستفهام كما قال في آية الخمر، فهل أنتم متّهون.  
 وفي قوله: إِلَى اللَّهِ إشارة إلى أنّ التّوبة هي الرّجوع إلى طاعة الله لأنّ  
 التّائب بمنزلة من ذهب عنها ثمّ عاد إليها والعبد بعد التّوبة يستحقّ بها الثّواب  
 وأمّا إسقاط العذاب فهو تفضّل من الله غير واجب عليه، والفرق بين التّوبة و  
 الإستغفار هو أنّ الإستغفار طلب المغفرة بالدّعاء أو التّوبة أو غيرهما من  
 الطّاعة.

والتّوبة النّدم على القبيح مع العزم على أن لا يعود إلى مثله في القبيح أو  
 الإخلال بالواجب والإستغفار مع الإقرار على القبيح لا يصحّ ولا يجوز هكذا  
 قال الشّيخ في التّبيان.

## مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ

ما، نافية بمعنى، ليس والمعنى ليس المسيح بن مريم إلا رسول من الله إلى الخلق ومع ذلك ليس أول من أرسله الله بل كان قبله رسلاً بعثوا لأداء رسالتهم وإرشاد خلقه ثم قالوا وفي هذا الكلام إشارة إلى أمرين:

**أحدهما:** أن المسيح كان رسولاً من الله كغيره من الرسل والرسل لا يكون إلا مخلوقاً مبعوثاً فكيف يقولون بالوهيته وأن الله هو المسيح أو أنه شريك له في ألوهيته ومن المعلوم أن المرسل غير الرسول فلو كان الله هو المسيح أو أن المسيح أحد الألوهة لزم أن يكون المرسل والرسول واحداً وهو محال لأن الله لا يرسل نفسه إلى خلقه وفيه لطيفة أخرى أن الله تعالى نص في هذا الكلام على رسالة المسيح وهو ردٌ على من أنكر رسالته ونبوته.

**ثانيهما:** أن قوله: **قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** إشارة إلى أنه رسول كغيره من الرسل فلو كان إلهاً قالت النصارى لزم أن يكون غيره من الرسل أيضاً إلهاً لأن حكم الأمثال واحد.

**ثانياً:** أن الرسل قبله ماتوا جميعاً والمسيح أيضاً يموت لأن الحكم واحد، والله تعالى لا يموت لأنه واجب فكيف يكون إلهاً ثم قال: **وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ** أي كيف يكون إلهاً وله أم تسمى مريم وأما عبر عنها بقوله صديقة، لأنها كانت صدق آيات ربها، بدليل قوله: **وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا** <sup>(١)</sup>.

وقيل في وجه التسمية أنها كانت كثيرة الصدق، وقيل على وجه المبالغة وقيل غير ذلك وكيف كانت لاشك أنها كانت من جنس البشر ولا مولود من البشر بشر وبشر لا يكون إلهاً.

**ثانياً:** إذا ثبت له أم فقد ثبت حدوثه وتركيبه.

أما الحدوث فواضح لأنه كان مسبقاً بالعدم أو بالعلة.

فصل القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

الجلد السادس

وَأَمَّا التَّرْكِيبُ فَلَأَنَّ الموجود لا يخلو أما أن يكون بسيطاً مجرداً عن المادة أو يكون مركباً عنها ومعلوم أن المركب من المادة لا يوجد إلا من المركب وحيث أن أمه مريم كانت من جنس البشر والإنسان وكل بشر له مادة فالذي يولد منه أيضاً كذلك فثبت وتحقق أن المسيح كان بشراً ولد من بشر مثله فلا يكون إلهاً لعدم تجرده وبساطته أين التراب ورب الأرباب.

وفي قوله: **يَا كَلَانِ الطَّعَامِ** إشارة إلى ما ذكرناه لأن المجرد عن المادة لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب وحيث أن المسيح وأمّه كانا يأكلان الطعام ويشربان الشراب فكانا كغيرهما من الموجودات والمخلوقات من جهة المادة ولوازمها وجود الأعضاء والجوارح فيهما فكيف يكونان إلهين وإلى هذه النكات والدقائق المستنبطة من الآية الشريفة قال: **أَنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرْ أَتَى يُؤْفَكُونَ** أي أنظر يا محمد كيف نبين لهؤلاء الملحدين الآيات الدالات على كون المسيح وأمّه مريم من المخلوق ثم أنظر ثانياً أنهم أي النصارى أتى يؤفكون أي أتى يصرفون أو أتى يقلبون.

وفي هذا الكلام ذم وتوبيخ على النصارى أولاً وعلى كل عاقل لا يتدبر فيما يقول ثانياً وأن شئت أن تجعل الآية في صورة البرهان فقل:

أن المسيح رسول وكل رسول مخلوق، فالمسيح مخلوق.

ثانياً: أن المسيح له أم، وكل من له أم مخلوق فالمسيح مخلوق.

ثالثاً: المسيح وأمّه يأكلان الطعام، وكل من يأكل الطعام مخلوق فهما مخلوقان، ولما كان الشكل الأول من الأشكال الأربعة بديهي الإنتاج فالنتيجة مسلمة لا كلام فيها ثم بين الله تعالى فساد عقيدتهم بطريق آخر فقال.

**قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**

أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار، أتعبدون من دون الله، أي تتوجهون عبادتكم إلى من لا يقدر على الضرر و النفع و تدعون عبادة القادر عليها و الخالق لكم و لغيركم فلو جاز توجيه العبادة إلى المسيح الذي لا يملك ذلك لجاز توجيهها إلى الأصنام كما يقوله عبّاد الأصنام و قد علمنا خلاف ذلك و فيه إشارة إلى أنّ الذي لا يقدر على النفع و الضرر فوجوده كالعدم، فكيف تجوز عبادته و في قوله: **وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** إشارة إلى أنّه تعالى سميع قول العبد في مورد التوبة كما يسمع ما يضره منها و أنّه يعلم كلّ شيء يخفى عليه شيء من السرّ و العلن بذلك أنّه تعالى مالك بقول مطلق و من كان كذلك فهو مستحق للعبادة.

### قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ

الغلوّ التّجاوز عن الحدّ أمر الله تعالى نبيّه أن يقول لأهل الكتاب من اليهود و النصارى، لا تغلوا في دينكم، أي لا تتجاوزوا عن الحدّ الذي حدّه الله لكم إلى الإزدياد و هو ضدّ التقصير الذي هو الخروج عن الحدّ إلى النقصان و الوجه عن النهي فيهما هو أنّ الحقّ الذي ينبغي أن يتّبع هو بين طرفي الإفراط و التفریط المعبر عنه أحياناً بالإقتصاد.

و في قوله: **غَيْرَ الْحَقِّ** إشارة إلى أنّ الغلوّ قسمان:

غلوّ حقّ، و غلوّ باطل، فالمنتهي عنه هو الثاني أي غلوّ الباطل مثل غلوّ اليهود في عيسى و أمّه بما نسبوه اليهما فنسبوا أمّه إلى الزّناء و النصارى نسبوا إلى عيسى أنّه هو الله أو ابن الله و أمثال ذلك من الأباطيل فكلّ هذه الأمور من غلوّ الباطل و هكذا النصارى فاليهود فرطوا في عيسى و النصارى أفرطوا فيه و الحقّ بين ذلك.

و أمّا النصارى فإنّهم فرطوا في موسى حيث أنكروا رسالته و أفرطوا في عيسى حيث جعلوه إلهاً و محصّل الكلام هو أنّ الله تعالى نهى أهل الكتاب

عن التَّقُول بهذه المقالات الفاسدة والإعتقادات الرديئة الخبيثة وهذا النَّهْي لا يختص باليهود والنصارى كما هو ظاهر الآية بل هو عام لجميع أهل الكتاب فيدخل فيه المسلمون أيضاً ولذلك جعلنا الله أمةً وسطاً، حيث قال لتكونوا أمةً وسطاً.

وأما غُلُو الحقِّ فقيل هو عبارة عن المبالغة في تقرير الدين وتأكيده قاله الرّازي في تفسيره وأظنّ أنّه أخذه عن الكشاف.

قال صاحب الكشاف في قوله تعالى: **غَيْرَ الْحَقِّ** صفة للمصدر أي لا تغلوا في دينكم غُلُوّاً غير الحقِّ أي غُلُوّاً باطلاً لأن الغُلُو في الدين غُلُوّان، غُلُو حقٌّ و هو أن يفحص عن حقائقه ويفتش عن أباعد معانيه ويجتهد في تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون من أهل العدل والتّوحيد.

و غُلُو باطل وهو أن يتجاوز الحقَّ ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة وإتباع الشّبه كما يفعل أهل الأهواء والبدع انتهى كلام صاحب الكشاف.

**أقول** وتبعه عليه غير واحدٍ من المفسرين ولم يعلموا أنّ الغُلُو في الحقِّ لا معنى له في المقام ولا كلام لنا فيه وأن شئت قلت الغُلُو لا يكون إلّا باطلاً.

وأما الغُلُو في الحقِّ فلا نفهم معناه وذلك لأنّ الغُلُو كما قالوا في معناه عبارة عن التّجاوز عن الحدِّ وهذا ممّا لا كلام لنا ولهم فيه وهو أي التّجاوز عن الحدِّ مذموم عقلاً و شرعاً أينما وجد فأن وجد في الباطل كمقالة اليهود بأنّ عزيزاً ابن الله ومقالة النصارى بأنّ الله هو المسيح فهو مذمومٌ ممنوعٌ بلا كلام. وأما اذا وجد في الحقِّ كالتّفحص عن حقائق الدين والتّفتيش عن أباعد

معانيه والتّحصيل في حججه كما ذهب اليه الزّمخشري ومن تبعه فهو أيضاً مذمومٌ بمعنى أنّه يجعل الحقَّ باطلاً فيدخل الغُلُو في القسم الباطل المذموم، ولا يقال أنّه غُلُو ممدوح لأنّ الملاك في صدقه هو التّجاوز عن الحدِّ والمفروض أنّه تجاوز عن حدِّ الحقِّ وبعبارة أخرى أن تجاوز عن حدِّ الحقِّ فصار باطلاً وأن لم يتجاوز لا يكون غُلُوّاً فأين غُلُو الحقِّ الممدوح وأما الأمثلة

التي ذكرها الرّمخشري في الكشف من الفحص عن حقائقه و التفتيش عن  
أبعد معانيه و الإجتهد في تحصيل حججه فليست من الغلو أصلاً و أيّ عاقلٍ  
يقول أنّ الإجتهد في تحصيل الحجج و التفتيش في الحقائق من الغلو في  
الحقّ و العجب من الرّازي و أمثاله كيف قالوا بهذه المقالة من غير تدبّر فيها و  
الحاصل أنّ الغلو أينما وجد فهو باطل سواء كان في طرف الحقّ أم كان في  
الباطل فالغلو الذي كان متصفاً بالحقّ لم يوجد ولن يوجد أبداً.

أن قلت لو كان الأمر كذلك فما معنى غير الحقّ، قلت قوله غير غير الحقّ  
تأكيد للكلام لا أنّه تعالى نهى عن الغلو في غير الحقّ و أجاز في الغلو في الحقّ  
كما توهّموه.

وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَ ضَلُّوا عَنْ  
سَوَاءِ السَّبِيلِ

أي لا تسلكوا سبيل الأوائل لأنّ الاتّباع هو سلوك الثاني طريقة الأول على  
وجه الإقتداء به حقّاً كان أو باطلاً و أنّما يعلم أحدهما بدليل، و الأهواء، قيل  
أنّ المراد بها هاهنا المذاهب التي تدعو إليها الشهوة دون الحجّة و حيث أنّ  
المذاهب الباطلة نشأت من أهواءهم و أميالهم فمن تبع المذاهب تبع أهواء  
الناس في الحقيقة و لذلك قال و لا تتبعوا أهواء قومٍ و لم يقل مذاهبهم، و في  
قوله قد ضلّوا من قبل و أضلّوا كثيراً إشارة الى أنّهم قد ضلّوا بسبب إعتقادهم و  
كفرهم و لم يقنعوا بذلك بل أضلّوا غيرهم أيضاً و عدلوا عن طريق الحقّ و هو  
ظاهر.

و أعلم أنّ الآية الشريفة و أن نزلت بظاهرها في اليهود و النصارى و نهاهم  
الله بها عن الغلو في دينهم و المتابعة لأهواء آبائهم و أوائلهم في الإعتقادات  
إلا أنّها أي الآية من حيث المعنى ناظرة الى جميع أهل الكتاب و ذلك لأنّ كلّ  
واحد من الغلو في الدين و متابعة الأهواء في كلّ دين و مذهب مذموم مطرود

وَأَمَّا قُلْنَا ذَلِكَ لِأَنَّهُمَا مِنَ الْقَبَائِحِ الَّتِي يَحْكُمُ كُلُّ عَقْلٍ سَلِيمٍ بِقُبْحِهَا وَذَمِّهَا وَ  
مَحْصُلُ مَا ذَكَرَهُ فِي الْآيَةِ.

هُوَ أَنَّ، النَّهْيَ عَنِ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ، وَ النَّهْيَ عَنِ مَتَابَعَةِ الْأَهْوَاءِ.  
أَمَّا الْغُلُوُّ فَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِيهِ، وَأَمَّا مَتَابَعَةُ الْأَهْوَاءِ فَهِيَ مِنَ الْأَمْرَاضِ الْمَسْرِيَةِ فِي  
جَمِيعِ الْأَدْيَانِ وَ الْمَذْهَبِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْإِنْسَانِ لَا يَخْلُو مِنْ  
الْهَوَىِّ وَ أَتَمَّا سَمَّى الْهَوَىِّ هَوَىِّ لَأَنَّهُ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ فِي النَّارِ كَمَا قِيلَ:  
أَنَّ الْهَوَىَّ لَهْوُ الْهَوَانِ بَعِينُهُ فَإِذَا هَوَيْتَ فَقَدْ لَقِيتَ هَوَانًا  
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىَّ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ<sup>(١)</sup>.  
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ<sup>(٢)</sup>.

وَ قَالَ بَعْضُهُمُ الْهَوَىِّ إِلَهٌ يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَ لَا عَاصِمَ مِنْ مَتَابَعَتِهِ وَ خَطَرِهِ  
إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَ لِيَعْلَمَ أَنَّ الْمَذْمُومَ مَتَابَعَةَ الْهَوَىِّ لَا نَفْسَهُ فَمَا قَالَ الشَّعْبِيُّ، مَا  
ذَكَرَ اللَّهُ لَفْظَ الْهَوَىِّ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا ذَمَّهُ كَلَامَ بَاطِلٍ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ ذَمَّ عَنْ  
مَتَابَعَةِ الْهَوَىِّ لَا عَنْ نَفْسِ الْهَوَىِّ وَ فَرَقَ بَيْنَ كَوْنِ الشَّيْءِ مَذْمُومًا بِنَفْسِهِ وَ كَوْنِهِ  
مَذْمُومًا مِنْ حَيْثُ الْمَتَابَعَةُ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ إِتْبَاعَ الْهَوَىِّ وَ  
طُولَ الْأَمَلِ.

أَمَّا إِتْبَاعُ الْهَوَىِّ فَتَصِيدُ عَنِ الْحَقِّ وَ أَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيَنْسِي الْآخِرَةَ وَ الْأَيَّاتِ وَ  
الْأَخْبَارِ فِي ذَمِّ مَتَابَعَةِ الْهَوَىِّ كَثِيرَةٌ جَدًّا وَ سَيَأْتِي الْكَلَامُ فِي الْهَوَىِّ وَ النَّفْسِ  
الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ وَ مَا يُلْحِقُ بِذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَ الَّذِي لَا بَدَّ لَنَا فِي  
الْمَقَامِ بِمُنَاسَبَةِ الْآيَةِ الْإِشَارَةَ إِلَيْهِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ ذَمَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بِمَتَابَعَتِهِمْ  
أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا وَ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَ هَذَا مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ فَنَقُولُ أَلَيْسَ الْمُسْلِمُونَ  
مِنْ مَصَادِيقِ الْآيَةِ فِي مَتَابَعَتِهِمْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا وَ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَ ضَلُّوا عَنْ  
سَوَاءِ السَّبِيلِ الْإِمَامَةِ.



فأن قال قائل ليس كذلك نقول له فما وجه إفتراق الآية على أكثر من سبعين فرقة والمفروض أن إلهنا واحد ونبينا واحد وكتابتنا وديننا واحد فلولا متابعة الأهواء وتشتت الآراء لكنا على مذهب واحد وهو ظاهر على من له أدنى تأمل في المقام.

لَعْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ

اللعن، الطرد والمعنى أن الذين كفروا من بنى إسرائيل، فقللوا في عزيز الله ابن الله وأنكروا نبوة عيسى وقالوا فيه ما قالوا، أبعدهم الله من رحمته، وقال أكثر المفسرين المراد بهم هو أصحاب السبب وأصحاب المائدة.

أما أصحاب السبب فهم قوم داوود وهم أهل إيلة لما إعتدوا في السبب بأخذ الحيتان على ما ذكره الله قصتهم في سورة الأعراف فقال داوود اللهم إلعنهم وأجعلهم آية فمسخوا قردة.

وأما أصحاب المائدة فأنهم لما أكلوا من المائدة ولم يؤمنوا قال عيسى اللهم إلعنهم كما لعنت أصحاب السبب فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبي والى هذا المعنى أشار الله بقوله: ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ قال بعضهم أن اليهود كانوا يفتخرون بأبائهم وأنهم من أولاد الأنبياء فذكر الله هذه الآية الدالة على أنهم ملعونون على ألسنة الأنبياء.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٦

المجلد السادس

كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين مضى ذكرهم في الآيات السابقة أنهم كانوا لا يتناهون عن المنكر أي لم يكن ينهى بعضهم بعضاً واللام في قوله: لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ.

قيل أنها للقسم وتقديره أقسم لبئس ما كانوا يفعلون، ولا يجوز أن تكون لام الإبتداء لأنها لا تدخل على الفعل إلا في باب (أن) ولا على الماضي، وما، في قوله: لِبِئْسَ ما، قيل أنها كافة كما في، أمّا، وبعدها، وربما، وقيل أنها نكرة كأنه قال بئس شيئاً فعلوه.

ثم أن الآية دالة على وجوب إنكار المنكر لأن كل شيء ذم الله عليه فتركوه واجب إلا أن يقيد بوقت تخصه والمنكر هو القبيح.

سمي بذلك لأنه ينكره العقل من حيث أن العقل يقبل الحسن ويعترف به يأباه وينكر القبيح ويأباه والإنكار ضد الإقرار فما يقرب به العقل هو الحق وما ينكره هو الباطل، وقيل في معنى المراد منه هاهنا ثلاثة أقوال.

أحدها: صيد السمك في السبت.

الثاني: أخذ الرشوة في الحكم.

الثالث: أكا الرباء وأثمان الشحوم.

قال رسول الله ﷺ لا قدست أمة لا تأخذ لضعيفها حقّه غير مضيع، قاله الشيخ في التبيان.

أقول أما صيد السمك فلا منع فيه في الإسلام لا في السبت ولا في باقي الأيام وأما الرشوة في الحكم وأكل الرباء فلا ظن أنهما كانا في بني إسرائيل أكثر منهما في الإسلام وهكذا غيرهما من المنكرات من الكذب والبهتان والظلم والغصب وغيرهما والعاقبة للمتقين نعوذ بالله من فعل المنكر وترك المعروف.

ثم عقب الكلام.

تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ

ترى يا محمد كثيراً من اليهود أو من أهل الكتاب يتولون الكفار من عبدة الأوثان أو يتولون الملوك الجبارين ويزنون لهم أهواءهم ليصيبوا من دنياهم بشئ شيئاً قدّموه لمعادهم في الآخرة لأنهم اشتروا سخط الخالق برضاء المخلوق فلا محالة هم في العذاب خالدون.

أقول في الآية دلالة على أن تولي الكفار من أشنع المنكرات وأقبحها وهو كذلك وردت في ذمّ التولي آيات كثيرة:

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ<sup>(٤)</sup>.

والآيات كثيرة وإعلم أن المراد بالتولي هو الركون والإعتماد على الكفار ومتابعتهم في الدين والدنيا وليس المراد به مجرد المحبة والمخالطة والمعاشرة وأمثال ذلك.

قال الله تعالى: وَلَا تَزْكُتُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُ النَّارُ<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا<sup>(٦)</sup>.

والحاصل هو أن المذموم المنهي عنه جعل الكفار أولياء في أمر الدين و

قد مرّ الكلام فيه عند قوله تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ<sup>(٧)</sup>.

بَابُ التَّرْكَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٦

المجلد السادس

١- الممتحنة = ١٣

٢- الفتح = ١٦

٣- التوبة = ٧٤

٤- الإسراء = ٧٤

٥- الممتحنة = ١٣

٦- الفتح = ١٧

٧- هود = ١١٣

٨- البقرة = ٢٥٧

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ

هذه الآية بمنزلة التفسير للآية السابقة كأنه قيل كيف يتولون الذين كفروا، فقال تعالى لعدم إيمانهم ولو كانوا مؤمنين بالله والرسول وما أنزل اليه ما كانوا كذلك أي ما يتخذوهم أولياء ولأجل هذا قال ولكن كثيراً منهم فاسقون أي متابعة الكافر والتولي له من شأن الفاسق الذي لم يؤمن واقعاً وأن كان من المؤمنين ظاهراً ففي الآية دلالة على أن الإيمان الحقيقي يمنع المؤمن عن متابعة الكفار والتولي لهم وهو مما لا خفاء فيه قال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُ لَهُمُ الطَّاغُوتُ<sup>(١)</sup>.

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا

النون، في لتجدن في الموضعين للتأكيد ولذلك أتى بها مثقلة والخطاب للنبي ﷺ والمعنى، لتجدن يا محمد أشد الناس عداوة وبغضاً للمؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله قوم اليهود وصف الله تعالى اليهود بأنهم أشد عداوة للمؤمنين لأنهم كانوا يظهرون المشركين على المؤمنين مع أن المؤمنين كانوا يؤمنون بنبوة موسى وعيسى وجميع الأنبياء كما آمنوا بنبوة رسول الله فكان ينبغي لليهود أن يوافقهم في الإيمان وأما كانوا يظهرون المشركين حسداً للنبي ﷺ وهكذا قيل ولعمري أنه كذلك.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: ما خلا يهوديان بمسلم إلا همًا بقتله و لما كان الأمر على هذا المنوال فينبغي للمؤمنين أن يكونوا على حذر من اليهود ثم وصف الله النصاري بأنهم أليين عريكة من اليهود وأقرب إلى المؤمنين منهم.

نقل عن ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما أنَّ المراد بالنصارى في الآية النجاشي وقومه الَّذِينَ قدموا من الحبشة على الرسول وأمنوا به ولم يرد جميع النصارى مع ظهور عداوتهم للمؤمنين.

**أقول** ظاهر الآية ياباه والحقُّ الحكم لجميع النصارى وحيث أنَّ الأحكام المترتبة على الموضوعات في جميع الموارد تكون باعتبار الأعم الأغلب فلا يضرُّ بها خروج بعض الموارد هذا مضافاً إلى أنَّ ما ذكره الله تعالى في اليهود والنصارى من أنَّ إحدى الطائفتين أشدَّ عداوةً من الأخرى، أمرٌ محسوسٌ فأنا نجد الأمر كذلك في زماننا هذا وإلى قرب النصارى إلى المؤمنين ورأفتهم بالنسبة إليهم.

**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى**

قال بعض المفسرين مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر إلى من يخالفهم في الدين بأيّ طريقٍ كان فأن قدروا على القتل فذاك وإلا فبغضب المال والسرقه أو بنوع من المكر والكيد والحيلة. وأما النصارى فليس مذهبهم ذاك بل الإيذاء في دينهم حرام فهذا هو وجه التفاوت انتهى كلامه.

**أقول** ما ذكره لا يرجع إلى محصل وذاك لأنَّ الإيذاء في جميع الأديان حرام لأنه ظلم فلا فرق بين اليهود والنصارى من هذه الجهة وأما الفرق وأن شئت قلت العلة في عداوة اليهود أكثر من عداوة النصارى بالنسبة إلى المؤمنين ما ذكره الله تعالى بقوله ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَيُّ مِنَ النَّصَارَى قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَالْقَسِيصِينَ جمع قسيس وهو العابد الزاهد، والرهبان بضم الراء جمع راهب كراكب وركبان وفارس وفرسان، والراهب الخائف والمقصود أنَّ العلة في كون النصارى أليّن عريكة وأقرب مودة من اليهود هو وجود القسيسين والرهبان بينهم بخلاف اليهود اذ ليس لهم قسيس

ولا راهب، ومن المعلوم أنَّ الإنسان اذا لم يكن له من يرّبه ويصلحه ويعلمه يبقى على جهله وتوَّحشه.

وأما قوله: **وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** يمكن أن يكون المراد أنهم أي النصارى لا يستكبرون عن عبادة ربهم ومتابعة رسولهم والعمل بكتابهم ويمكن أن يكون المراد بأنهم لا يستكبرون عن التّعلم وأخذ الأحكام عن علماءهم وهذا بخلاف اليهود فأنهم قوم خبيث ومع ذلك يستكبرون عن جميع ذلك وأنما همّهم دنياهم وشهواتهم لا يعلمون الشّرف والرّحم والعدل وغير ذلك من الصّفات ولأجل ذلك لعنهم الله تعالى في موارد كثيرة.

**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا**<sup>(١)</sup> وكفى في ذمهم أنَّ الله تعالى جعل منهم القردة والخنازير وهم الذين قالوا قلوبنا غلّف فقال تعالى بل لعنهم الله بكفرهم وسيأتي الكلام فيهم بوجه أبسط عند تفسير الآيات الواردة في ذمهم في المستقبل، إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمدٍ وآله الطّاهرين الذين أذهب عنهم الرّجس وطهرهم تطهيراً.

هذا آخر الكلام في الجزء السادس من هذا السّفر الجليل ويليهِ الجزء السابع وأوله قوله تعالى: **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ**<sup>(٢)</sup>.





**الجزء**

**السابع**





وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ  
تَفِضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ  
رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا  
نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ  
يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ  
اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ  
الْجَحِيمِ (٨٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا  
طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا  
يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ  
حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ  
مُؤْمِنُونَ (٨٨)

## ◀ اللغة

تَفِضُ، فاضَ يَفِضُ فَيْضًا، فاض الماء إذا سال منصباً.  
مِنَ الدَّمْعِ، الدَّمْعُ بفتح الدال وسكون الميم والعين يكون إسمًا للسائل من  
العين يقال دمعت العين دمعاً.  
لَا تَعْتَدُوا، الاعتداء مجاوزة الحق.

## ◀ الإعراب

وَ إِذَا سَمِعُوا الْوَاوَ هَاهُنَا عَطَفْتَ، اِذَا، عَلَى خَيْرِ، أَنْ، وَ هُوَ قَوْلُهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ، فَصَارَ الْكَلَامُ دَاخِلًا فِي صَلَةٍ، أَنْ، وَ إِذَا فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ بِقَوْلِهِ تَرَى، وَ هِيَ أَيْ، اِذَا، وَ جَوَابُهَا فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ عَطْفًا عَلَى خَيْرِ أَنَّ الثَّانِيَةَ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا.

تَفْضِضُ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ عَلَى الْحَالِ لِأَنَّ تَرَى مِنْ رُؤْيَا الْعَيْنِ.  
مِنْ الدَّمْعِ فِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: مِنْ، لِإِبْتِدَاءِ الْغَايَةِ أَيْ فِيضُهَا مِنْ كَثْرَةِ الدَّمْعِ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ حَالًا وَ التَّقْدِيرُ تَفْضِضُ مَمْلُوءَةٌ مِنَ الدَّمْعِ وَ أَمَّا، مِنْ، فِي قَوْلِهِ مِمَّا عَرَفُوا فَهِيَ لِإِبْتِدَاءِ الْغَايَةِ أَيْ مِنْ أَجْلِ الَّذِي عَرَفُوهُ مِنْ الْحَقِّ حَالٍ مِنَ الْعَائِدِ الْمَحْذُوفِ يَقُولُونَ حَالٍ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي، عَرَفُوا وَ مَا لَنَا مَا، فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَ، لَنَا، الْخَبَرُ وَلَا نُؤْمِنُ حَالٍ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الْخَبَرِ وَ الْعَامِلُ فِيهِ الْجَارُ، أَيْ مَا لَنَا غَيْرَ مُؤْمِنِينَ، وَ مَا جَاءَنَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعٍ جَرٍّ أَيْ وَ بَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ حَالٍ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِإِبْتِدَاءِ الْغَايَةِ أَيْ وَلَمَّا جَاءَنَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُبْتَدَأً وَ مِنَ الْحَقِّ، الْخَبَرُ، وَ الْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ وَ نَطْمَعُ مُعْطُوفٌ عَلَى، نُؤْمِنُ، أَيْ وَ مَا لَنَا لَا نَطْمَعُ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ، وَ نَحْنُ نَطْمَعُ، فَتَكُونُ الْجُمْلَةُ حَالًا مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي، نُؤْمِنُ أَنْ يُدْخِلَنَا أَيْ فِي أَنْ يَدْخِلَنَا فَهُوَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ أَوْ جَرٍّ عَلَى خِلَافِ بَيْنِ الْخَلِيلِ وَ سَيَبُوهِ حَالًا فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَوْجُهُ.

أَحَدُهَا: هُوَ مَفْعُولٌ، كَلُوا، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ، مِمَّا، فِي مَوْضِعِ الْحَالِ لِأَنَّهُ صِفَةٌ لِلنَّكَرَةِ قَدِّمَتْ عَلَيْهَا.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ، مَا، لِأَنَّهُا بِمَعْنَى، الَّذِي، أَوْ حَالًا مِنَ الْعَائِدِ الْمَحْذُوفِ فَيَكُونُ الْعَامِلُ، رَزَقَ.

الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ صِفَةً لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ أَيْ أَكَلًا حَالًا.

## ﴿التفسير﴾

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ حَالَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَذَكَرَ أَنَّ الْيَهُودَ أَشَدَّ عِدَاوَةً لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّصَارَى وَأَنَّ النَّصَارَى أَقْرَبُ مَوَدَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْيَهُودِ وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ أَيَّ مِنَ النَّصَارَى قَسَّيِينَ وَرَهَبَانًا وَمَعَ ذَلِكَ هُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ أَشَارَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى بَعْضِ أَوْصَافِ النَّصَارَى الَّذِينَ آمَنُوا بِالرَّسُولِ فَقَالَ: **وَإِذَا سَمِعُوا أَيَّ النَّصَارَى.**

**مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ مِنَ الْقُرْآنِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ** أَيَّ أَنَّهُمْ بَعْدَ مَا سَمِعُوا آيَاتِ الْقُرْآنِ تَرَاهُمْ يَكُونُ فَتَجْرِي دُمُوعُهُمْ عَلَى خَدَّوْهُمْ شَوْقًا مِنْهُمْ إِلَى إِسْتِمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ وَتَقْدِيرِ الْكَلَامِ، وَمِنْهُمْ إِذَا سَمِعُوا، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ جَمِيعُهُمْ كَذَلِكَ بَلْ بَعْضُهُمْ وَلِذَلِكَ لَمْ يُؤْمِنْ جَمِيعُ النَّصَارَى وَأَنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ وَقُلْنَا أَنَّ فَيْضَ الْعَيْنِ هُوَ إِمْتِلَآؤُهَا مِنَ الدَّمْعِ سَيْلًا وَمِنْهُ فَيْضُ النَّهْرِ مِنَ الْمَاءِ وَفَيْضُ الْإِنَاءِ وَهُوَ سَيْلَانُهُ عَنْ شِدَّةِ إِمْتِلَآئِهِ قَالَ الشَّاعِرُ:

فَفَاضَتْ دُمُوعِي فَطَلَ الشُّونُ      إِمَّا وَكِيفًا وَإِمَّا إِنْحِدَارًا  
**مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ** هَذَا الْكَلَامُ بِمَنْزِلَةِ السَّبَبِ وَالْعِلَّةِ لَفَيْضَانِ الدَّمْعِ فَكَانَهُ قِيلَ وَلَمْ ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى، مِمَّا عَرَفُوا الْحَقَّ، أَيَّ مِمَّا عَلِمُوهُ مِنْ صَدَقِ النَّبِيِّ وَصَحَّةِ مَا أَتَى بِهِ وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَمَّنَّا فَأَكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ أَيَّ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ الْمَوْصُوفِينَ مِنَ النَّصَارَى الَّذِينَ أَعْيَنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ رَبَّنَا أَمَّنَّا، بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِكَ فَأَكْتَبْنَا، أَيَّ فَأَجْعَلْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ فَأَكْتَبْنَا مَعَهُمْ فِي أَمِّ الْكِتَابِ وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ وَفِي قَوْلِهِ: **مَعَ الشَّاهِدِينَ.**

صَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ جَرِيرٍ، مَعَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** (١).

وَقِيلَ هُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ بِالْإِيمَانِ وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ يَشْهَدُونَ بِتَصْدِيقِ نَبِيِّكَ.

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ

في هذا الكلام إخبار من الله تعالى عن هؤلاء النصارى الذين آمنوا بالرسول بأنهم قالوا وَمَا لَنَا قَالَ الزَّجَاجُ هو جواب لمن قال لهم من قولهم معنيين لهم، لم آمنتهم، فقالوا في جوابهم، ومالنا، لا نؤمن وقيل قدروا في أنفسهم كأن سائلاً يسألهم عنه فأجابوا بذلك فقوله: لَا نُؤْمِنُ في موضع نصب على الحال وتقديره أَي شَيْءٍ لَنَا تَارِكِينَ لِلْإِيمَانِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ أَي بعد وضوح الحق وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ورسوله.

وفيه إشارة إلى أن الحق أحق أن يتبع فمن خالفه بعد ظهوره ووضوحه فهو معاند وأيضاً أَنَّ الحشر مع الصالحين من أعظم البركات.

فَأَتَاهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ

أَي لَمَّا آمَنُوا هَؤُلَاءِ النَّصَارَى فَأَتَاهُمُ اللَّهُ، أَي جازاهم بالنعيم على العمل الصالح بعد إيمانهم بالنبي ثم ذكر الله تعالى ما أتاهم من النعيم فقال: جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَى الْأَبَدِ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ أَي أَنَّ هَذَا الْجَزَاءَ لَا يَخْتَصُّ بِهِمْ بَلْ هُوَ حَقٌّ لِكُلِّ مُحْسِنٍ، وَلِمَثَلِ هَذَا فليعمل العاملون.

ثم أشار الله تعالى بعد ذلك إلى حال المكذبين المعاندين الذين لم يؤمنوا بالله ورسوله من النصارى ومن غيرهم فقال: وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا أَي كَفَرُوا بِاللَّهِ وَكَذَّبُوا رَسُولَهُ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ كَمَا قَالَ: بِآيَاتِنَا أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ الجحيم النار الشديدة الإيقاد يقال جحمت فلان النار إذا شدد إيقادها فقد حصل من هاتين الآيتين أَنَّ الْمُؤْمِنَ مُخَلَّدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ

المكذَّب فهو من أصحاب النَّار وهذا هو الأصل في باب الجزاء وأما فضل الله ورحمته فهو شيء آخر.

أَنْ قُلْتَ يَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْكَفَّارَ لَا يَخْلَدُونَ فِي النَّارِ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ولم يقل خالدين فيها كما قال كذلك في حق المؤمنين، قلت قوله: **أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** مشعرٌ به لأن المصاحب للشيء ملازم له لا ينفك عنه فهذا يقتضي تخصيص هذا الدوام بالكفار والله تعالى أعلم بكلامه.

**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**

لما ذكر الله تعالى ثواب المؤمنين في قوله فأثابهم الله بما قالوا جنَّات تجري من تحتها الأنهار الآية ذكر في هذه الآية وما بعدها من الآيات أحكاماً لا بد للمؤمن العلم بها ومراعاتها في حياته فقال مخاطباً أيهاهم: **لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ** التحريم هو العقد على ما لا يجوز فعله للعبد كما أَنَّ التحليل حلّ ذلك العقد، والطيبات اللذيذات التي تشتهيها النفوس وتميل إليها القلوب.

قال الرَّاغِب في المفردات يقال طاب الشيء يطيب طيباً فهو طَيِّبٌ وأصل الطَّيْب ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس والطَّعام الطَّيْب في الشرع ما كان متناولاً من حيث ما يجوز ما بقدر ما يجوز ومن المكان الذي يجوز فأثمة متى كان كذلك كان طيباً عاجلاً وآجلاً لا يستوخم إنتهى كلامه.

**أَقُول** إذا عرفت معنى الطَّيْب بحسب اللُّغة والعرف والشرع.

**فَاعْلَمْ** أَنَّ من الطَّيْب ما هو حلال في الشرع ومنه ما هو حرام وذلك لأنَّ الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد الواقعية فما فيه مفسدة حرّمه الشرع وما فيه مصلحة حلّله ولا يجوز لأحدٍ تحليل ما حرّمه الشرع أو تحريم ما حلّله و

هذا مما لا كلام فيه لأنّ حلاله حلال الى يوم القيامة و حرامه كذلك و لأجل ذلك نهى الله تعالى عن تحريم الطيبات التي لم يحرمها الله أو تحليل الطيبات التي حرمها الله فقال: (لَا تَحْرِمُوا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) طيبات ما أحل الله لكم و قد ورد آيات كثيرة في هذا المعنى:

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِ تَعْبُدُونَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ<sup>(٣)</sup> والآيات كثيرة جداً.

ثم أنّ الطيبات لا تختص بالمأكل و المشروب بل تعمّ غيرهما،

قال الله تعالى: فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ<sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا<sup>(٧)</sup>.

قال الله تعالى: رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ<sup>(٨)</sup>.

قال الله تعالى: كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ<sup>(٩)</sup>.

قال الله تعالى: وَ مَسَاكِينٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَذْنٍ<sup>(١٠)</sup> وغيرها من الآيات

نقل المفسرون في نزول الآية أنّها نزلت بسبب جماعة من أصحاب الرسول ﷺ حيث إجتمعوا في دار عثمان بن مظعون و إتفقوا على أن

١- المائدة = ٤

٢- النساء = ٣

٣- الفاطر = ١٠

٤- آل عمران = ٣٨

٥- التوبة = ١٠

١- البقرة = ١٧٢

٢- الأعراف = ٣٢

٣- الحج = ٢٤

٤- المائدة = ٦

٥- إبراهيم = ٢٤

يصوموا النَّهارَ ويقوموا اللَّيْلَ ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللَّحْمَ ولا الودك ولا يقربوا النَّساءَ والطَّيْبَ ويلبسوا المسوح ويرفضوا الدُّنْيَا ويسيحوا في الأرضَ ويترهبوا فأنزل الله هذه الآية ذكر هذا الوجه القرطبي وغيره.

**والوجه الآخر** ما نقله عن مسلم عن أنس أنَّ نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السرِّ فقال بعضهم لا أتزوج النساء وقال بعضهم لا أكل اللحم وقال بعضهم لا أنام على الفراش فحمد الله وأثنى عليه فقال ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكنِّي أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنّتي فليس منِّي ثم ذكروا وجوهاً كثيرة ممّا ليس له أصل سند.

ونقل الشيخ في التّبيان عن ابن عبّاس ومجاهد وغيرهما أنَّ الذي إقتضى ذكر التّهي عن تحریم الطّيبات هو حال الرّهبان الذين حرّموا على أنفسهم المطاعم الطّيبة والمشارب اللّذيذة وحسبوا أنفسهم في الصّوامع وساحوا في الأرض وحرّموا النّساء فهم قوم من الصّحابة أن يفعلوا مثل ذلك فنهاهم الله عنه انتهى.

**أقول** الوجوه المذكورة وغيرها ممّا لم نذكرها لا دليل على صحّتها ومع ذلك لا بأس بها والحقّ عندنا هو أنَّ الآية نزلت لبيان حكم من الأحكام وهو التّهي عن تحریم الطّيبات التي لم يحرمها الشّرع وبعبارة أخرى أحكام الشّرع توفيقية من جانب الشّريعة فلا يجوز لأحد تغييرها وتبديلها ولذلك قال: **وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** فإنّ الإعتداء مجاوزة حدّ الحكمة إلى ما نهى عنه الحكيم وزجر عنه أمّا بالعقل أو السّمع وقيل هو تجاوز المرء ما له إلى ما ليس له.

وقوله: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** قيل معناه يبغضهم ويريد الإنتقام منهم ومحصل الكلام هو أنّه تعالى ما نهى عباده عن التّصرف في الأحكام و



تغييرها عما هي عليه ولذلك قال: وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ بعد ما نهى الله تعالى المؤمنين عن تحريم الطيبات مما أحل الله لهم في الآية السابقة أمرهم في هذه الآية بأكلها اذا كانت حلالاً فقال: كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حال كون المرزوق حلالاً طيباً وأما اذا كان حراماً فلا تأكلوا منه لأنه ليس من الطيب قطعاً.

قال بعض المفسرين في المقام أن قوله: حَلَالًا طَيِّبًا يحتمل أن يكون متعلقاً بالأكل وأن يكون متعلقاً بالمأكل.

**فعلی الأول:** يكون التقدير كلوا حلالاً طيباً مما رزقكم الله.

**على الثاني:** معناه، كلوا من الرزق الذي يكون حلالاً طيباً.

أما على التقدير الأول فإنه حجة المعتزلة على أن الرزق لا يكون إلا حلالاً وذلك لأن الآية على هذا التقدير دالة على الإذن في أكل كل ما رزق الله تعالى و أنما يأذن الله في أكل الحلال فيلزم أن يكون كل ما كان رزقاً حلالاً.

وأما على التقدير الثاني فإنه حجة على أن الرزق قد يكون حراماً لأنه تعالى خصص إذن الأكل بالرزق الذي يكون حلالاً طيباً ولولا أن الرزق قد لا يكون حلالاً لم يكن لهذا التخصيص والتقييد فائدة انتهى كلامه.

**أقول** اختلفوا في معنى الرزق فقالت الأشاعرة كل ما إنتفع به مباحاً كان أو حراماً فهو رزق.

وقالت المعتزلة هو كل ما صح إنتفاع الحيوان به بالتغذي وليس الحرام رزقاً، وأنت خبير بأن الأحاديث في الباب مختلفة، فالمعتزلة تمسكوا بقوله ﷺ أَنَّ اللَّهَ قَسَمَ الْأَرْزَاقَ بَيْنَ خَلْقِهِ حَلَالًا وَلَمْ يَقْسَمْهَا حَرَامًا.

والأشاعرة تمسكوا بقول عمر بن قرة حيث قال، يا رسول الله أن الله كتب علي الشقوة فلا أراني أرزق إلا من دفي بكفي أتأذن لي في الغناء فقال له رسول الله ﷺ بعد كلام أي عدو الله أن الله قدر رزقك طيباً فأخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله، قال الشيخ في التبيان.

فَأَنْ قِيلَ إِذَا كَانَ الرِّزْقُ لَا يَكُونُ إِلَّا حَلَالًا فَلَمْ يَقُلْ، حَلَالًا، قِيلَ ذَكَرَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّأْكِيدِ كَمَا قَالَ: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا<sup>(١)</sup> وقد أطلق في موضع آخر على جهة المدح وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ<sup>(٢)</sup> انتهى كلامه.

ويظهر من كلامه عليه السلام أنه إختار في المقام مسلك المعتزلة وهو إنحصار الرِّزْق في الحلال وعليه جمهور الإمامية.

ولقائل أن يقول لو كان قوله، حلالًا، من قبيل التأكيد كما ذهب إليه الشيخ لقال الله تعالى واكلوا مما رزقكم الله رزقاً طيباً، ليكون الرِّزْق الثاني وهو المصدر تأكيداً للفعل وهو، رزق، كما في قوله: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا حيث أن قوله: تَكْلِيمًا مصدر للفعل المؤكد.

وأما القول بأن حلالاً تأكيد للرِّزْق في قوله: رَزَقَكُمُ اللَّهُ فلانفهم معناه اذ لا تساعد القاعدة.

والذي نقول به ونختاره في المقام هو أن الرِّزْق إن أعتبر بمعناه اللغوي أو العرفي أو العقلي فهو أعم من الحلال وأن أعتبر بمعناه الشرعي المستفاد من الدين فهو لا يكون إلا حلالاً.

#### توضيحه

أن الرِّزْق على ما فسره الرَّاغب في المفردات يقال للعتاء الجاري تارةً دنيوياً كان أم أخروياً وللنصيب تارةً ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارةً. يقال أعطى السلطان رزق الجند، ورزقت علماً انتهى موضع الحاجة من كلامه.

ومن المعلوم أن الرِّزْق بهذا المعنى لا يختص بالحلال بل أعم منه ومن الحرام.

وأما الرِّزْقُ في لسان الشَّرْع فهو عبارة عَمَّا قَسَّمَهُ اللَّهُ تعالى بين خلقه ويعبر عنه بالرِّزْقِ المقسوم أو المقدَّر وهو الَّذِي يصل إلى المخلوق من حيث لا يحتسب فإن كان مراد الأشاعرة بالرِّزْقِ هذا المعنى فهو لا يطلق على الحرام و أن كان مرادهم ما نقلناه عن الرَّاغب فهو يطلق على الحلال والحرام وعلى هذا فالنِّزاع بين المعتزلة والأشاعرة لفظيٌّ، وقد يمكن الجمع بين القولين بأن يقال الرِّزْقُ المقسوم المحتوم لا يكون إلا حلالاً.

وأما الرِّزْقُ المكتسب فهو قد يكون حلالاً وقد يكون حراماً لأنَّ تحصيله بيد المكلَّف وكيف كان فالأمر سهل بعد وضوح المراد وعليه فقلوه: **وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ** معناه إِتَّقُوا اللَّهَ في كسب الرِّزْقِ فلا تطلبوه إلا من طريق الحلال.

وأما الحرام فلا وقيل معناه وإِتَّقُوا اللَّهَ في تحريم ما أحلَّ الله لكم على أنفسكم.



لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ  
يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ  
عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ  
أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَخْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ  
ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَ  
أَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ  
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا  
الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ  
مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ  
(٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ  
الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَ  
يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ  
مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ  
أَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا  
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢)

### ◀ اللُّغَةُ

بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ، اللَّغْوُ بفتح اللام وسكون الغين ما لا يعتد به وهو الذي  
يورد لا عن رؤية وفكر فيجري مجرى اللغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور  
يسمى كل كلام قبح لغواً وقد يكون في الفعل والملاك في وجوده ما ذكرناه.  
الْأَيْمَانُ، بفتح الألف جمع اليمين وهو في الأصل الجارحة ولذلك يقال  
اليمين في الحلف مستعار من اليد اعتباراً بما يفعله المعاهد والمحالف وغيره.

عَقَّدْتُمُ الْإِيمَانَ، الْعَقْدُ بفتح العين و سكون القاف والذَّال مصدر وهو الجمع بين أطراف الشئ ويستعمل ذلك في الأجسام الصُّلبة كعقد الحبل و عقد البناء.

ثمَّ يستعار ذلك للمعاني نحو عقد البيع والعهد وغيرهما فيقال عاقدته و عقده.

فَكَفَّارَتُهُ، ما يَغْطِي الإِثْمَ.

أَوْ كِسْوَتُهُمْ، الكِسْوَةُ بكسر الكاف وفتح الواو اللباس.

رَقَبَةٍ بفتح الرءاء والقاف والباء إسم للعضو المعروف ثمَّ يعبر بها عن الجملة في التعارف إسمًا للماليك.

### ◁ الإعراب

فِيْ أَيْمَانِكُمْ فيه وجوه.

أحدها: أن يكون متعلقاً بنفس اللغو لأنك تقول، لغا في يمينه.

الثاني: أن يكون حالاً من اللغو أي باللغو كائناً أو واقعاً في أيمانكم.

الثالث: أن يتعلق بيؤاخذكم.

عَقَّدْتُمُ يقرأ بتخفيف القاف وتشديدها إِطْعَامُ مصدر مضاف الى المفعول

به رَجَسَ خبر عن الخمر مِنْ عَمَلٍ صفة لرجس أو خبر ثانٍ فِي الْخَمْرِ وَ

الْمَيْسِرِ في، متعلقة، بيقوع وهى بمعنى السَّبَب ويجوز أن تتعلق بالعدواة، أو

بالبغضاء والباقي واضح.

### ◁ التفسير

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيْ أَيْمَانِكُمْ قِيلَ سبب نزول الآية هو أن بعض

المسلمين حرّموا طيبات المطاعم والملابس والمناكح على أنفسهم حلفوا

على ذلك فلمّا نزلت لا تحرّموا طيبات ما أحلّ الله لكم، قالوا كيف نصنع

بأيماننا فنزلت الآية و قال ابن زيد نزلت عبد الله بن رواحة كان عنده ضيف فأخبرت زوجته عشاءه فحلف لا يأكل من الطعام وحلفت المرأة لا تأكل إن لم يأكل وحلف الضيف لا يأكل إن لم يأكل فأكل عبد الله بن رواحة وأكل معه و أخبر النبي ﷺ بذلك فقال له أحسنت ونزلت هذه الآية وكيف كان شأن نزولها لا يهمننا البحث فيه بعد التصريح فيها بأن الله لا يؤاخذ في اللغو من اليمين وهو ما لا يعتد به من الكلام كقول القائل، لا والله أو بلى والله وبذلك وردت الأخبار من طريق أهل البيت عليهم السلام فعن أبي بصير قال: قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ قال عليه السلام هو، لا والله وبلى والله ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان يقرأ بتخفيف القاف والأصل وعقد اليمين هو قصد الإلتزام بها، ويقرأ بتشديدها وذلك لتوكيد اليمين كقوله والله الذي لا إله إلا هو وقرأ ابن عامر، عاقدتم، بالألف ولكل وجه.

ثم أشار الله تعالى إلى كيفية المؤاخذه فقال: فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ أي فكفارة ما عقدتم الأيمان، أو كفارة اللغو، أو كفارة حنث اليمين المدلول عليه قاله الشيخ في التبيان.

أقول الحق أن الإحتمال الثاني وهو رجوع الضمير إلى اللغو لا معنى له إذ لا كفارة في اللغو من الأيمان فلعله إشتباه من النسخ والله أعلم.

وكيف كان لاخلاف في أن كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة إنما ذكر المساكين بلفظ المذكر تغليبا للتذكير إذ لا خلاف عندهم أنه لو أطعم الإناث لأجزأه وأما مقدار الطعام فقليل يعطيهم قدر ما يكفيهم وقد حذاه أصحابنا أن يعطي كل واحد مدأ أو مدين وقدره رطلان وربيع منفرداً أو يجمعهم على ما هذا قدره ليأكلوه ولا يجوز أن يعطي خمسة ما يكفي عشرة وهل تجوز إعطاء القيمة، فيه خلاف قاله الشيخ رحمه الله.

والظاهر يقتضي أنه لا يجزئ الروايات تدل على إجزائه وأما قوله: **مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ فِيهِ قَوْلَانِ.**

**أحدهما:** الخبز والأدم دون اللحم لأن أفضله الخبز واللحم والتمر، وأوسطه الخبز والزيت والسمن، وأدونه الخبز والملح، هذا إذا كان المعطى الطعام كان الكسوة فهي أيضاً مثل الطعام فالذي رواه أصحابنا أنه ثوبان لكل واحد منزر و قميص وعند الضرورة قميص وقال الحسن ومجاهد وعطاء وغيرهم، ثوب.

والمراد بتحرير رقبة كل رقبة كانت سليمة من العاهة صغيرة كانت أو كبيرة مؤمنة كانت أو كافرة والمؤمنة أفضل.

**وأعلم أن المكلف مخير في هذه الثلاثة** فإن شاء أطعم وأن شاء أكس وأن شاء أعتق رقبة، وقال قوم أن الواجب منها واحد لا بعينه **فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ** أي فمن لم يجد واحدة من الثلاثة فكفارته صيام ثلاثة أيام، قال بعضهم أن حد من ليس بواحد هو من ليس عنده ما يفضل من قوته و قوت عياله يومه وليلته.

وبه قال الشافعي وقادة وقالوا في الصوم لابد من أن يكون متتابعاً في ثلاثة أيام وقال بعضهم التتابع أفضل والتفريق يجوز وبه قال مالك والحسن. والقول الأول أقوى ويؤيده أن ابن مسعود وأبي قرأ، صيام ثلاثة أيام متتابعات، قال الشيخ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** اليمين على ثلاثة أقسام.

**أحدها:** عقدها طاعة وحلها معصية فهذه يتعلق بحنثها كفارة بلا خلاف كقوله والله لا شربت خمرأ ولا قتلت نفساً.

**الثاني:** عكس الأول أي عقدها معصية وحلها طاعة كقوله والله لا صليت صمت فإذا جاء بالصلاة والصوم فلا كفارة عليه عندنا، ومخالفونا أوجبوا عليه الكفارة.

**الثَّالِث:** أن يكون عقدها مباحاً كقوله و الله لا لبست هذا الثوب فمتى خنثت تعلّق به الكفارة بلا خلاف فيه عندنا.

**ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ** اذ لا كفارة قبل الحنث ولا تجزي أيضاً وَ **أَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ** قيل معناه لا تحلفوا وقيل معناه اذا حلفتُمْ فأحفظوا أيمانكم من الحنث لأن الحلف مباح إلا في معصية وأما الواجب ترك الحنث وذلك يدل على أن اليمين في المعصية غير منعقدة لأنها لو إنعقدت للزم حفظها وإذا لم تلزمه كفارة كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أي أن الله تعالى يبين لكم الآيات والأحكام كما بين لكم أمر الكفارة تسهيلاً عليكم للخروج من الإثم بها لتشكروهم فأَنْ بَيَّنَّ الأحكام من أحسن النعم على العباد لو كانوا يعلمون.

**تنبيه:**

**إِعلم** أن مذهب الأصحاب أن الضابط في إنعقاد اليمين هو أن يكون متعلقه راجحاً أو متساوي الطرفين فمتى كان الرّجحان في نقيضه دنياً أو ديناً لم ينعقد وهذا ممّا لا خلاف لهم فيه.

قال العلامة رحمته في القواعد، أنما تنعقد اليمين على فعل الواجب أو المندوب والمباح اذا تساوى فعله وتركه في المصالح الدّينية أو الدّنيوية أو كان فعله أرجح أو على ترك الحرام أو المكروه أو المرجوح في الدّين و الدّنيا من المباح فإن خالف أثم وكفر ولو حلف على فعل حرام أو مكروه أو ترك مرجوح من المباح أو على ترك الواجب أو مندوب لم تنعقد اليمين ولا كفارة بياالترك بل يجب التّرك كما في فعل الحرام أو ترك الواجب انتهى والأخبار به كثيرة:.

ما رواه الشّيخ عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن اليمين التي يجب فيها الكفارة فقال عليه السلام الكفارة، في الذي يحلف على المتاع إلاّ يبيعه يشتره ثمّ يبدوله فيكفر عن يمينه وأن حلف على شيء إتّيانه



خير من تركه فليأت الذي هو خير ولا كفارة عليه أنما ذلك من  
خطوات الشيطان حيث تضمن الكفارة في البيع الذي هو مباح (من  
المباح) انتهى.

إذا عرفت هذا فنقول، هاهنا أمران:

أحدهما: أن اليمين عبارة عن تحقيق ما يمكن فيه الخلاف بذكر اسم الله أو  
صفاته المختصة وأنما تنعقد بالله تعالى كقوله: ومقلب القلوب، والذي نفسي  
بيده، والذي فلق الحبة أو بأسماءه المختصة به كقوله والله، والرحمن  
والقديم والأزل والأول الذي ليس قبله شيء أو بأسماء التي تصرف إطلاقها  
إليه وأن أمكن فيها المشاركة كالرب والخالق والرازق وكل ذلك تنعقد اليمين  
به مع القصد لا بدونه ولا تنعقد بما لا ينصرف الإطلاق إليه كالموجود والحي  
والسميع والبصير وأن نوى به الحلف لسقوط الحرمة بالمشاركة.

ثانيها: أن الحالف يشترط فيه البلوغ والعقل والإختيار والقصد والنية فلو  
حلف الصغير أو المجنون أو المكروه أو السكران والغضبان إذا لم يملك نفسه  
لم تنعقد وكذلك لو حلف من غير نية سواء كان بصريح أو كناية وهي يمين  
اللفظ.

ولا ينعقد يمين وليد مع والده إلا بأذنه ولا المرأة مع زوجها كذلك ولا  
المملوك مع مولاه إلا بأذنه وذلك فيما عدا فعل الواجب وترك القبيح أما  
فيهما فينعقد بدون إذنهم.

نعم لهم الحل وتفصيل الكلام في اليمين وما يتعلق بها موكول إلى كتب  
الفقهية.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ  
مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

في هذه الآية حرّم الله تعالى أشياء على المؤمنين ونهاهم من إرتكابها و التّخصيص بالمؤمنين في الخطاب لأنّ غيرهم لا يتناهون اذا نهوا وإلّا فالخطاب في الواقع عام يشمل الكلّ وهكذا في سائر الخطابات وذلك لثبوت الإشتراك في التكليف حتّى أنّ الكفّار أيضاً مكلفون بالفروع ويعاقبون على تركها كما ثبت في موضعه والمحرمات في الآية أربعة:

**أحدها:** الخمر وهى عصير العنب المشتد الذي يسكر كثيره وقليله و الخمر حرام بالإجماع وتسمّى خمرأ لأنها بالسّكر تغطي على العقل والأصل في الباب التّغطية من قول أهل اللّغة، خمرت الإناء اذا غطيته وعلى هذا الإشتقاق يجب أن يسمّى النّبيذ وكلّ مسكرٍ على إختلاف أنواعه خمرأ لإشتراكها في المعنى يجري عليها أجمع جميع أحكام الخمر قاله الشّيخ في التّبيان.

وقال القرطبي و الجمهور من الأمة على أنّ المسكر حراماً قليله وكثيره سواء إتخذ من العنب أم من غيره والحدّ في ذلك واجب.

ونقل عن أبي حنيفة والثوري وابن أبي ليلى وابن شبرمة و جماعة من فقهاء الكوفة أنّهم قالوا ما أسكر كثيرة من غير خمر العنب فهو حلال قال القرطبي وهذا ضعيف يرّده النّظر والخبر.

**ثانيها:** الميسر الميسر بفتح الميم وسكون الباء وكسر السين قمار العرب بالأزلام

قال ابن عباس كان الرّجل في الجاهليّة يخاطر الرّجل على أهله وماله فأيهما قمر صاحبه ذهب بماله وأهله فنزلت الآية.

وقال مجاهد وابن سيرين والحسن وابن المسيّب وغيرهم كلّ شيء فيه قمار من نردٍ و شطرنج فهو الميسر حتّى لعب الصّبيان بالجوز والكعاب إلّا ما أبيض من الرّهان في الخيل والقرعة في إفراز الحقوق.

وقال مالك، الميسر ميسران، ميسر اللّهُو، و ميسر القمار فمن ميسر اللّهُو النّرد والشّطرنج والملاهي كلّها.

وميسر القمار ما يتخاطر النّاس عليه ونقل عن عليّ عليه السلام أنّه قال الشّطرنج ميسر العجم.

وقال مالك كلّ ما قومر به فهو ميسر وهو مأخوذ من اليسر وهو وجوب الشّيء لصاحبه يقال يسر لي كذا، اذا وجب، والياسر اللّاعب بالقдах.

وقال الأزهري، الميسر الجزور الذّي كانوا يتقامرون عليه سمّي ميسراً لأنّه يجرّأ أجزاء فكأنّه موضع التّجزئة وكلّ شيء جزأته فقد يسرته والياسر الجازر لأنّه يجرّي لحم الجزور قال الأصل في اليأسر ثمّ يقال للضّارين بالقдах والمتقامين على الجزور ياسرون انتهى ما ذكره القرطبي.

وقال الشّيخ في التّبيان، الميسر القمار كلّهُ مأخوذ من تيسير أمر الجزور بالإجتماع على القمار فيه والذّي يدخل فيه يسير والذّي لا يدخل فيه برم قال أبو جعفر عليه السلام ويدخل فيه الشّطرنج والنّرد وغيره حتّى اللّعب بالجوز والأصل فيه اليسر خلاف العسر إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

**ثالثها:** الأنصاب فقليل هي الأصنام، وقيل هي النّرد والشّطرنج، وهي جمع نصب، وسمّيت الأنصاب بها لأنّها كانت تنصب للعبادة وأصله الانتصاب قال الشّاعر:

وذا النّصب المنصوب لا تنسكه ولا تعبّد الشّيطان واللّه فأعبدا

**رابعها:** الأزلام، فهي القдах وهي سهام كانوا يجيلونها ويجعلون عليها علامات، إفعل، ولا تفعل، ونحو ذلك على ما يخرج من ذلك في سفر أو إقامة أو غير ذلك من الأمور المهمّة وكانوا يجيلونها للقمار، واحدها، زلم، وقال الأصمعي كان الجزور يقسمونه على ثمانية وعشرين جزءاً وقال أبو عمرو كان عددها على عشرة وقال أبو عبيدة لا علم لي بمقدار عدتها وقد

ذكرت أسماؤها مفصلاً وهي عشرة ذوات الحظوظ منها سبعة، وأسمائها: الفُدَّ، والتَّوَم، والرَّقِيب، والحلس، والنَّفْس، والمبل، والمعلَى، والإغفال التي لا حظوظ لها ثلاثة: السَّفِيج، المنيح والوغد.

رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ الرَّجَسُ بكسر السين يقال للثَّن والقذرة والأقذار، ولذلك يقال الرَّجَسُ النَّجَسُ وقال الفراء رجس يرجس، إذا عمل عملاً قبيحاً وأما الرَّجَسُ بفتح الراء فهو شدة الصوت وقوله من عمل الشَّيْطَانِ، إشارة إلى أنه يأمر بها لما فيها من الفساد، فيأمر بالسَّكْر ليزيل العقل، وبالزُّمَار لاستعمال الأخلاق الدنية، وبعبادة الأوثان لما فيها من الكفر بالله، وبالْأَزْلَام لما فيها من ضعف الرأي والإتكال على الإتفاق هكذا قيل فَاجْتَنِبُوهُ أمرٌ بالاجتناب.

أي كونوا جانباً منه في ناحيته، لعلكم تفلحون أي لكي تفوزوا بالثواب قيل في الآية دلالة على تحريم هذه الأشياء من أربعة أوجه:

أحدها: أنه وصفها بأنها رجس وهي محرّم بلا خلاف.

الثاني: نسبها إلى عمل الشَّيْطَانِ وذلك لا يكون إلا محرماً.

الثالث: أنه أمر بإجتنابه والأمر يقتضي الإيجاب.

الرابع: أنه جعل الفوز والفلاح بإجتنابه، والهاء في قوله فَاجْتَنِبُوهُ، راجعة إلى عمل الشَّيْطَانِ، وقال ابن عبّاس الرَّجَسُ هاهنا السَّخَطُ، وقال ابن زيد هو الشر.

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ إِرْتِكَابَ الْمُنْتَهَيَاتِ مِنَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ أَوْ يُقَالُ وَلَمْ يَعْمَلِ الشَّيْطَانُ ذَلِكَ وَآيٍ مُقْصِدٍ لَهُ فِي هَذِهِ الْوَسَاوِسِ فَقَالَ تَعَالَى مُقَاصِدُهُ ثَلَاثَةٌ:

أحدها: أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر بسبب الإغراء المزين لهم ذلك لأن في السكر إزالة العقل والإقدام على فعل المكاره و القبائح التي تمنعه منها عقولهم السليمة قال قتادة كان الرجل يقامر في ماله و أهله فيقمر و يبقى حزيناً سليباً فيكسبه ذلك العداوة و البغضاء قيل أنه لا حق سعد بن أبي وقاص رجلاً من الأنصار و قد كانا شربا الخمر فضربه بلجي الجمل ففرز أنف سعد بن أبي وقاص و نقل صاحب المتطرف أن عمر بن الخطاب شرب الخمر فأخذ بلجي بعير و شج به رأس عبد الرحمن بن عوف ثم قعد ينوح على قتلى يدر بشعر الأسود بن يعفر حيث يقول:

وكائن بالقلب قلب بدرٍ      من الفتيان والعرب الكرام  
أبوعدني بن كبشة أن سنجيا      وكيف حياة إصداء وهام  
أبعجز أن يرد الموت عني      وينشري إذا بليت عظامي  
فقل لله يمنعي شرابي      وقل لله يمنعي طعامي

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مغضباً يجر رداءه فرفع شيئاً كان في يده فضربه به فقال أعوذ بالله من غضبه و غضب رسوله فأنزل الاله: إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فَقَالَ عمر إنتهينا إنتهينا، و ممن تركها في الجاهلية عبد الله بن جدعان و كان جواداً من سادات قريش و ذلك أنه شرب الخمر مع أمية بن أبي الصلة الثقفي فضربه على عينيه فأصبحت عين أمية مخضرة يخاف عليها الذهاب فقال له عبد الله ما بال عينك فسكت فألح عليه فقال ألسنت ضاربها بالأمس فقال أو بلغ مني الشراب ما أبلغ معه الى هذا لا أشربها بعد اليوم ثم دفع له عشرة آلاف درهم و قال الخمر علي حرام لا أذوقها بعد اليوم أبداً.

و ممن حرّمها في الجاهلية أيضاً قيس بن عاصم و ذلك أنه سكر ذات ليلة فقام لأبنته أو لأخته فهربت منه فلما أصبح سأل عنها فقيل له أو ما علمت ما صنعت البارحة فأخبر بالقصة فحرّم الخمر على نفسه.

وَمَنْ حَرَّمَهَا أَيْضاً فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْعَبَّاسِ بْنِ مُرْدَاسٍ فَقِيلَ لَهُ لِمَ تَرَكْتَ  
الشَّرَابَ وَهُوَ يَزِيدُ فِي سَمَاحَتِكَ فَقَالَ أَكْرَهَ أَنْ أَصْبَحَ سَيِّدَ قَوْمِي وَأَمْسَى  
سَفِيهَهُمْ، قِيلَ لِإِعْرَابِي لِمَ لَا تَشْرَبُ النَّبِيذَ فَقَالَ لَا أَشْرَبُ مَا يَشْرَبُ عَقْلِي وَقَالَ  
الضُّحَاكُ بْنُ مَزَاحِمٍ لِرَجُلٍ مَا تَصْنَعُ بِشْرَبِ النَّبِيذِ قَالَ يَهْضُمُ طَعَامِي قَالَ أَمَا أَنَّهُ  
يَهْضُمُ مِنْ دَنِيكَ وَعَقْلُكَ أَكْثَرُ، قَالَ الشَّاعِرُ:

أَلَا يَا قَوْمِي لَيْسَ فِي الْخَمْرِ رَفْعَةٌ      فَلَا تَقْرَبُوا مِنْهَا فَلَسْتُ بِفَاعِلٍ  
فَأَنِّي رَأَيْتُ الْخَمْرَ شَيْئاً وَلَمْ يَزَلْ      أَخُو الْخَمْرِ دَخَالاً لِشَرِّ الْمَنَازِلِ  
وَقَالَ الْحَسَنُ لَوْ كَانَ الْعَقْلُ يَشْتَرَى لَتَغَالَى النَّاسُ فِي ثَمَنِهِ فَالْعَجَبُ مِمَّنْ  
يَشْتَرِي بِمَالِهِ مَا يَفْسُدُهُ وَلَنَعَمَ مَا قِيلَ:

بَلَوْتُ نَبِيذَ الْخَمْرِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ      فَلَيْسَ لِأَخْوَانِ النَّبِيذِ حِفَافُ  
إِذَا دَارَتِ الْأَرْطَالُ أَرْضُوكَ بِالْمَنَى      وَأَنْ فَقَدُواهَا فَالْوَجْهَ غِلَافُ  
وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: يَاكَ وَإِخْوَانَ النَّبِيذِ فَبَيْنَمَا أَنْتَ مَتَّبُوحٌ عِنْدَهُمْ  
مَخْدُومٌ مَكْرَمٌ مَعْظَمٌ إِذْ زَلَّتْ بِكَ الْقَدَمُ فَجُرَّوْكَ عَلَى شَوْكِ السُّلَمِ فَأَحْفَظْ قَوْلَ  
الْقَائِلِ حَيْثُ قَالَ:

وَكُلَّ أَنَاسٍ يَحْفَظُونَ حَرِيمَهُمْ      وَلَيْسَ لِأَصْحَابِ النَّبِيذِ حَرِيمٌ  
فَأَنْ قُلْتُ هَذَا لَمْ أَقُلْ عَنْ جِهَالَةٍ      وَلَكِنِّي بِالْفَاسِقِينَ عَلِيمٌ  
وَقَالَ الْآخَرُ:

دَعِ الْخَمْرَ فَالزَّحَاتُ فِي تَرْكِ رَاحِهَا      وَفِي كَاسِهَا لِلْمَرْءِ كِسُوءَةٌ عَارٍ  
وَكَمْ أَبَسَتْ نَفْسُ الْفَتَى بَعْدَ نُورِهَا      مَدَارِعُ تَارٍ فِي مَدَارِ عِقَارٍ  
قِيلَ إِجْتَمَعَ نَصْرَانِيٌّ وَمُحَدِّثٌ فِي سَفِينَةٍ فَصَّبَ النَّصْرَانِيُّ خَمِراً مِنْ زَقٍّ كَانَ  
مَعَهُ فِي شَرِبَةٍ وَشَرَبَ ثُمَّ صَبَّ فِيهَا وَعَرَضَ عَلَى الْمُحَدِّثِ فَتَنَاوَلَهَا مِنْ غَيْرِ  
فَكَّرَ مَبَالَةً فَقَالَ النَّصْرَانِيُّ جَعَلْتَ فِدَاكَ أَنَّمَا هِيَ خَمْرٌ قَالَ الْمُحَدِّثُ مِنْ أَيْنَ  
عَلِمْتَ أَنَّهَا خَمْرٌ قَالَ إِشْتَرَاهَا غُلَامِي مِنْ يَهُودِيٍّ وَحَلَفَ أَنَّهَا خَمْرٌ فَشَرِبَهَا  
الْمُحَدِّثُ عَنْ عَجَلٍ وَقَالَ لِلنَّصْرَانِيِّ يَا أَحْمَقُ نَحْنُ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ نَضْعَفُ

مثل سفيان بن عيينة ويزيد بن هارون أفنصّدق نصرانياً عن غلامه عن يهودي  
والله ما شربتها إلا لضعف الأسناد، ومن ذلك ما حكى أن سكراناً إستلقى  
على طريق فجاء كلب فلحس شفّتيه فقال خدّمك بنوك ولا عدموك فبال على  
وجهه فقال وماء حارّ أيضاً بارك الله فيك وقيل حالة السّكاري ثلاثة، قرد حرّك  
رأسه فرقص، وكلب هارّش فنبّح، وحيّة زويت فنامت<sup>(١)</sup>.

أقول ولا بأس بالإشارة إلى بعض ما ورد في الباب من الأخبار تيمناً وتبرّكاً.  
ما رواه في الوسائل عن محمّد بن يعقوب بأسناده عن أبي عبد  
الله عليه السلام قال ما بعث الله نبياً قطّ الأودق علم الله أنّه اذا أكمل له دينه  
كان فيه تحريم الخمر ولم تزل الخمر حراماً أنّ الدّين أنّما يحوّل  
من خصلة ثمّ أخرى فلو كان ذلك جملة قطع بهم دون الدّين انتهى.  
ما رواه بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال يأتي شارب الخمر يوم  
القيامة مسوداً وجهه مدلّعاً لسانه يسيل لعابه على صدره وحقّ  
على الله أن يسقيه من طينة بئر خبال قلت وما بئر خبال قال بئر  
يسيل فيها صديد الزّناة.

وأيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام شارب الخمر يأتي يوم  
القيامة مسوداً وجهه مائلأ شقّه مدلّعاً لسانه ينادي العطش انتهى.  
أيضاً بأسناده عنه عليه السلام قال يا يونس أبلغ عطية عني أنّه من شرب  
جرعة من خمر لعنه الله وملائكته ورسله والمؤمنون وأشربها  
حتّى يسكر منها نزع روح الإيمان من جسده وركبت فيه روح  
سخيّة خبيثة ملعونة الحديث.

أيضاً بأسناده عنه عليه السلام قال قال رسول الله من شرب خمرأ حتّى  
يسكر لم يقبل منه صلاة أربعين صباحاً.

أيضاً بأسناده عنه عليه السلام من ترك الخمر لغير الله سقاه الله من الرّحيق المختوم قال قلت فيتركه لغير الله قال نعم صيانة لنفسه. أيضاً بأسناده عن محمد بن مسلم قال سألت أبو عبد الله عن الخمر فقال قال رسول الله صلى الله عليه وآله أول ما نهاني عنه ربّي جلّ جلاله عن عبادة الأوثان و شرب الخمر وملاحاة الرّجال الحديث.

بأسناده عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة لا يدخلون الجنة، مُدْمِنُ الخمر، ومُدْمِنُ سحرٍ، وقاطع رَحِمٍ، ومن مات مُدْمِنُ خمرٍ سقاه الله من نهر الغوطة وهو نهرٌ يجري من فُروج المُومسات يؤذي أهل النَّار رِيحَه انتهي.

وعن العلل بأسناده عن المفضّل قال قلت لأبي عبد الله لِمَ حَرَّمَ الله الخمر قال عليه السلام حَرَّمَ الله الخمر لفعّلها وفسادها لأنّ مُدْمِنَ الخمر تُورثه الإرتعاش وتذهب بنوره، وتهدم مُرُوتَه وتحمله أن يجسر على إرتكاب المحارم وسفك الدّماء وركوب الرّناء ولا يؤمن اذا سكر أن يثب على حَرَمه وهو لا يعقل ذلك ولا يزيد شاربها إلا كلّ شرّاً انتهى<sup>(١)</sup>.

والأحاديث كثيرة وأما الأخبار الواردة في حرمة القمار فكثيرة أيضاً ولنشر إلى شطرٍ منها.

روي صاحب الوسائل بأسناده عن زياد بن عيسى قال سألت أبا عبد الله عن قول الله عزّ وجلّ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل فقال عليه السلام كانت قريش يقامر الرّجل بأهله وماله فنّهاهم الله عزّ وجلّ عن ذلك انتهى.

وبأسناده عن أبي الحسن عليه السلام قال الميسر هو القمار.



وبأسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام لَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ أَنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمَيْسِرُ فَقَالَ صلى الله عليه وآله كُلُّ مَا تُقَوْمَرُ بِهِ حَتَّى الْكَعَابُ وَالْجَوْزُ قِيلَ فَمَا الْأَنْصَابُ، قَالَ مَا ذَبَحُوا لِأَلِهَتِهِمْ، قِيلَ فَمَا الْأَزْلَامُ قَالَ قَدَاحُهُمُ الَّتِي يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا انْتَهَى.

وبأسناده عن الرضا عليه السلام قَالَ أَنَّ الشُّطْرَنْجَ وَالنَّرْدَ وَأَرْبَعَةَ عَشَرَ وَكُلَّ مَا قُومَرُ عَلَيْهِ مِنْهَا فَهُوَ مَيْسِرٌ انْتَهَى <sup>(١)</sup>.

أقول كفى في حرمة الخمر وأخواتها إجماع الأمة من الخاصة والعامة وقد قيل أَنَّهَا مُحَرَّمَةٌ بِالْأَدْلَةِ الْأَرْبَعَةِ وَلَمْ يَخَالَفْ فِي هَذَا الْحُكْمِ أَحَدٌ مِنْ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ هَذَا تَمَامُ الْكَلَامِ فِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ مِنَ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا فِي الْآيَةِ.

**الوجه الثاني:** الصّد عن ذكر الله كما قال تعالى: وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الصّد المنع أي يمنعكم عن ذكر الله تعالى وذلك لوجوه:

أحدها: أَنَّ شَارِبَ الْخَمْرِ يَزُولُ عَقْلُهُ وَمِنْ زَالِ عَقْلِهِ لَا ذِكْرَ لَهُ لِأَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ أَمَّا قَوْلِي أَوْ فَعَلِي أَوْ حَالِي.

ونعني بالذكر القولي الذكر باللسان وبالذكر الفعلي، الذكر بسبب الأعمال، وبالذكر الحالي، التسليم للقضاء والقدر وعدم الشكاية في حال العسر وعدم الطغيان في حال اليسر.

وهذه الإذكار لا تحصل إلا بالعقل فمن لا عقل له لا يكون ذاكرةً بلسانه وفعله وحاله وغير الذّاكر يكون غافلاً لا محالة والغفلة عن الله رأس الضلال وهذا في شارب الخمر معلوم لا خفاء فيه.

وأما الميسر والأنصاب والأزلام، فحيث أَنَّ الإشتغال بها إشتغال باللغو

مانع عن الإشتغال بالرّب والتّوجه اليه فهي من هذه الجهة صادّة عن ذكر الله قطعاً مضافاً إلى تأثيرها في الرّوح والعقل ولذلك:

قال الله تعالى: **وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ** <sup>(٢)</sup>.

وقال في وصف الجنّة:

قال الله تعالى: **لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لَا تَأْثِيمًا، إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا** <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لَا كِدَابًا** <sup>(٥)</sup>.

فأن قلت، هذه الآيات قد دلّت على ذمّ اللغو وأي دليل دلّ على أنّ الميسر والأنصاب والأزلام من مصاديق اللغو.

قلت اللغو على ما فسره الرّاعب ما لا يعتدّ به أو هو الذي يورد لا عن روية وفكر فيجري مجرى اللغا، وعليه فهذه المنكرات من أعلى مصاديقه.

**الوجه الثالث:** قوله تعالى: **وَعَنِ الصَّلَاةِ** أي أنّ إرتكاب هذه الأمور يصدّ المكلف عن الصّلاة، أمّا الخمر فواضح إذ السّكران في حال سكره لا يصلي و أمّا الميسر وأحواتها كذلك أيضاً لأنّ الإشتغال بها يمنع المكلف عن الإشتغال بغيرها هكذا قيل.

**أقول** لا يبعد أن يكون المراد أنّ الخمر والميسر وغيرهما مانعة عن قبول الصّلاة لما ورد في الأخبار من أنّ مدمن الخمر لا تقبل صلواته أربعين صباحاً وقد قال الله تعالى: **لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى** <sup>(٦)</sup> وعليه فقلوه وعن

بَابُ الْفَرْقَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٧

المجلد السادس

٢- القصص = ٥٥

٤- مريم = ٦٢

٦- النساء = ٤٣

١- المؤمنون = ٣

٣- الواقعة = ٢٥/٢٦

٥- النبأ = ٣٥

الصَّلَاةُ بحذف المضاف والتقدير و عن قبول الصَّلَاةِ و أمَّا قوله (فهل أنتم متتهون) صيغة الإستفهام ومعناه التَّهْيِ و ذلك لأنَّه إذا ظهر قبح الفعل للمخاطب صار في منزلة من نهى عنه فإذا قيل له، أتفعله، بعد ما قد ظهر من أمره، معناه لا تفعله و حيث إنَّا قد أشرنا إلى بغض ما ورد في ذمِّ شرب الخمر من الأخبار فلا بأس بالإشارة إلى شطرنجٍ ممَّا ورد في ذمِّ الميسر تكميلاً للبحث و تعميماً للنفع فنقول روي في الكافي بأسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال سمعته يقول الغناء ممَّا قال الله: **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ** **الْحَدِيثِ<sup>(١)</sup>**.

و عنه عليه السلام قال الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله.

و عنه عليه السلام لمَّا سأل عن بيع جوارى المغنيات قال شرائهنَّ وبيعهن حرام و تعليمهنَّ كفر و إسماعهنَّ نفاق انتهى.

قال بعض المحققين، و أمَّا الميسر فيدخل فيه سائر أنواع القمار و يلزم من ذلك تحريم عمل آله و حفظها و بيعها و إعارتها بل بيع الخشب و نحوه لمن يعمله آله لذلك بل ورد التَّهْيِ عن الجلوس إلى مجلس يكون فيه ذلك و عن النظر إلى اللأهي به و السلام عليه، و نقل عن بعض الشافعية القول بجواز اللعب بالشطرنج محتجاً عليه بأنَّ فيه تصحية للخاطر و هو إجتهد في مقابل النص.

و أمَّا الأنصاب، فيدخل في عموم تحريمها بيعها و شراءها و بيع الخشب و شبهه ليعمل صنماً وكذا الكلام في الأزلام و لنختم الكلام فعلاً بما رواه ابن بابويه فيمن لا يحضره الفقيه أنَّه سأل الصادق عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ: **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ<sup>(٢)</sup>** قال عليه السلام الرِّجْسُ مِنَ الْأَوْثَانِ الشَّطْرَنْجُ و قول الزُّور الغناء و التُّرد و أشدُّ من الشَّطْرَنْجِ فَأَنْ يَتَّخِذَهَا

في الغناء في القرآن تفسير القرآن

جزء ٧

الجلد السادس

كفر واللَّعِب فيها شرك وتعليمها كبيرة موبقة والسَّلام على اللَّاهي فيها معصية ومقلِّدًا كمقلِّب لحم الخنزير والنَّاظر اليها كالنَّاظر الى فرج أمه واللَّاعِب بالنَّرد قماراً مثله من يأكل لحم الخنزير ومثل الَّذي يلعب بها من غير قمارٍ مثل من يضع يده في لحم الخنزير أو في دمه ولا يجوز اللَّعِب بالخواتيم والأربعة عشر وكلَّ ذلك وأشباهه قمار حتَّى لعب الصِّبيان بالجوز هو القمار وأياك والضَّرْب بالصَّواخ فأَنَّ الشَّيْطان يركض معك والملائكة تنفر عنك ومن بقى في بيته طنبوراً أربعين صباحاً فقد باء بغضبٍ من الله انتهى.

أقول أنما أشبغنا الكلام في هذا المقام لأنَّ الخمر وأخواتها ممَّا هو مذكور في الآية صار في زماننا هذا ممَّا يقيم به البلوى أعادنا الله من الفتن.

وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ

الخطاب للمؤمنين أمرهم الله بإطاعة الله وإطاعة الرَّسول، أصل الطَّوع الإنقياد ويضاده الكره قال الله تعالى: **وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّفَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا<sup>(١)</sup>** والطَّاعة مثله لكن أكثر ما يقال في الإلتزام لما أمر والإرتسام فيما رسم، قاله الرَّاغب في المفردات وعليه فالمعنى إنقادوا لله ولرسوله أي كونوا متقادين مطيعين في الأمر والنهي وأنما كرر اللَّفْظ مع أنَّ إطاعة الله لا تكون إلَّا بعد إطاعة الرَّسول وإطاعة الرَّسول هي إطاعة الله وبعبارة أخرى إطاعة الله وإطاعة الرَّسول في الحقيقة واحدة قال الله تعالى: **مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ<sup>(٢)</sup>** لبيان التأكيد على إطاعة الرَّسول.

ثم حذَّره عن المخالفة فقال وأحذروا أي وأحذروا عن المخالفة والتَّمرّد وأنما لم يذكر لدلالة الكلام عليه فأَنَّ الحذر لا يكون إلَّا في العصيان:

قال الله تعالى: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ<sup>(٣)</sup>.

والحذر في الأصل الإحتراز عن مخيف ومن المعلوم أن في مخالفة الله ورسوله خوف العذاب وأما قوله فإن توليتم فأعلموا الآية فيه إشارة إلى أنه تعالى لا يجبر عبده على الطاعة بل جعله مختاراً في قوله وفعله فإرسال الرُّسل ليس إلا لإتمام الحجة ولذلك قال: فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ وحيث أن كلمة، أنما، تفيد الحصر فوظيفة الرسول هي البلاغ لا غيره قال تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ<sup>(٤)</sup>.

وأنما قال ذلك لأن عدم التبليغ من غير عذر تقصير في حق الرسول قال وإن لم تفعل فما بلغت رسالته وقد مر الكلام في تفسير الآية مفصلاً. وأعلم أن في قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ نَكَتْهُ لَأُبَاسٌ بِالْإِشَارَةِ إِلَيْهَا وَهِيَ أَنْ التَّوَلَّى بِمَعْنَى الإِعْرَاضَ وَهُوَ قَدْ يَكُونُ بِالْجِسْمِ وَقَدْ يَكُونُ بِتَرْكِ الإِصْغَاءِ لِكَلَامٍ غَيْرِهِ فَكَأَنَّهُ قَالَ تعالى: فَإِنْ أَعْرَضْتُمْ عَنِ الرَّسُولِ وَلَمْ تَصْغُوا إِلَى كَلَامِهِ يَرْجِعُ الْخُسْرَانُ وَالْوَبَالُ عَلَيْكُمْ لِأَنَّ الرَّسُولَ قَدْ أَدَّى وَظِيفَتَهُ بِالتَّبْلِيغِ وَاللَّهُ تَعَالَى غَنَى عَنِ الْعَالَمِينَ.

وقال بعض المفسرين معناه الوعيد والتهديد كأنه قال حق لكم العقاب لتوليكم عما أَدَّى رسولنا من البلاغ المبين يعني الإداء الظاهر الواضح فوضع كلام موضع كلام للإيجاز و، ما، في قوله، أنما، كافة.

٢- آل عمران = ٣٨

٤- المائدة = ٦٧

١- النور = ٦٣

٣- آل عمران = ٣٠

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا  
 الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسِنُوا  
 وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ  
 آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ  
 أَيْدِيكُمْ وَرِمَاكُمْ لِیَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ  
 بِالْغَيْبِ فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ  
 (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ  
 حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا  
 قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدِيًّا  
 بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ  
 ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَقَا اللَّهُ عَمَّا  
 سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو  
 أَنْتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا  
 لَّكُمْ وَلِلْسَيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ  
 حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)  
 جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيُبَىٰ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَ  
 الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا  
 أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ  
 وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ  
 شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٨) مَا  
 عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ

مَا تَكْتُمُونَ (٩٩) قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالْطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)

### ◀ اللغة

جُنَاحٌ بَضْمُ الجيم من قولهم جنحت السفينة أي مالت إلى أحد جانبيها  
وُسُمِيَ الأثم المائل بالإنسان عن الحق جناحاً ثم سُمِيَ كلُّ إثمٍ جناحاً.  
لَيَبْلُغَنَّكُمْ البلاء الإختبار والإمتحان.  
الصَّيْدُ بفتح الصاد مصدر صَادَ وهو تناول ما يظفر به مما كان ممتنعاً للشرع  
تناول الحيوانات الممتنعة ما لم يكن مملوكاً.  
تَنَالَهُ، النَّيْلُ الوصول.  
أَعْتَدَى، الإعتداء التجاوز.  
حُرْمٌ بَضْمُ الحاء والراء، المحرم، وقيل هو الحرم.  
مِنْ النَّعْمِ، النِّعَمُ بفتح النون والعين الإبل والبقر والغنم.  
وَبَالَ أَمْرُهُ الوبال العقوبة.

### ◀ الإعراب

مِنْ الصَّيْدِ في موضع جرّ صفة لشئٍ و، من، لبيان الجنس وقيل للتبعيض  
تَنَالَهُ صفة لشئٍ ويجوز أن يكون حالاً منه لأنه قد وصف وأن يكون حالاً من  
الصَّيْدِ لِيَعْلَمَ اللَّامُ متعلّقة بليبلونكم بِالْغَيْبِ حال من مِنْ، أو من ضمير الفاعل  
في، يخافه وَ أَنْتُمْ حُرْمٌ في موضع الحال من ضمير الفاعل في، تقتلوا و  
مُتَعَمِّدًا حال من ضمير الفاعل في، قتله فَجَزَاءً مبتدأ والخبر محذوف، وقيل  
التقدير، فالواجب جزاءً فعلى هذا يكون مثْلُ صفة له أو بدلاً ومثل هنا بمعنى

مماثل يَحْكُمُ بِهِ فِي مَوْضِعِ رَفْعِ صِفَةِ لِحْزَاءِ إِذَا نَوْنَتْهُ، وَأَمَّا عَلَى الْإِضَافَةِ فَهُوَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ وَالْعَامِلُ فِيهِ مَعْنَى الْإِسْتِقْرَارِ الْمُقَدَّرِ فِي الْخَبَرِ الْمَحْذُوفِ ذَوَا عَدْلٍ الْأَلْفُ لِلتَّشْنِيعِ مِنْكُمْ صِفَةً لِدَوَاءِ هَدْيًا حَالٍ مِنَ الْهَاءِ فِي، بِهِ وَهُوَ بِمَعْنَى مَهْدًى بِاللَّغِ الْكُعْبَةِ صِفَةً لِهَدْيٍ أَوْ كَفَّارَةً مُعْطَوْفَةً عَلَى جِزَاءِ طَعَامٍ بَدَلَ مِنْ كَفَّارَةٍ أَوْ خَبَرٍ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ أَيْ هِيَ طَعَامٌ صَيَامًا تَمِييزٌ فَيَسْتَقِمُّ اللَّهُ جَوَابَ الشَّرْطِ أَلْبَيَّتْ بَدَلَ مِنَ الْكُعْبَةِ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِ رَفْعِ خَبَرٍ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ أَنْ يَكُونَ الْمَحْذُوفُ هُوَ الْخَبَرُ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ أَيْ فَعَلْنَا ذَلِكَ.

### ◀ التفسير

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا قِيلَ فِي نَزُولِهَا أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ قَالَتِ الصَّحَابَةُ كَيْفَ بِمَنْ مَاتَ مِنْ أَخْوَانِنَا الَّذِينَ كَانُوا يَشْرِبُونَهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ وَبَيَّنَ فِيهَا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ.

إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

قَالُوا فِي وَجْهِ تَكَرُّرِ الْإِتْقَاءِ، أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَوَّلِ هُوَ إِتْقَاءُ الْمَعَاصِي وَبِالثَّانِي الْإِسْتِمْرَارَ عَلَيْهَا وَبِالثَّلَاثِ مَظَالِمَ الْعِبَادِ وَعَلَيْهِ فَيَصِيرُ مَعْنَى الْآيَةِ لَا جُنَاحَ عَلَى الَّذِينَ طَعَمُوا أَيْ شَرَبُوا الْخَمْرَ قَبْلَ أَنْ أَسْلَمُوا، إِذَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ غَافِلِينَ لِلصَّالِحَاتِ ثُمَّ يَتَّقُونَ الْمَعَاصِي وَجَمِيعَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِسْتَمَرُّوا عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ ثُمَّ اتَّقَوْا مَظَالِمَ الْعِبَادِ وَأَحْسَنُوا إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَصِلُ نَفْعُهُمْ إِلَى الْغَيْرِ، وَقِيلَ الْمُرَادُ.

بِالْأَوَّلِ: إِتْقَاءُ جَمِيعِ الْمَعَاصِي قَبْلَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ.

بِالثَّانِي: إِتْقَاءُ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ.



**بِالثَّالِثِ:** إنقَاء ما يحدث تحريمه بعد هذه الآية وهذا قول الأعم.  
وقال بعضهم، المراد بالأوّل، إنقَاء الكفر وبالثّاني إنقَاء الكبائر، وبالثّالث، إنقَاء الصّغائر ونقل عن الففال أنّه قال، التّقوى الأولى عبارة عن الإنقَاء من القدح في صحّة النّسخ وذلك لأنّ اليهود كانوا يقولون النّسخ يدُل على البداء فأوجب الله على المؤمنين أن يتّقوا عن هذه الشّبهة عند سماع تحريم الخمر بعد أن كانت مباحة.

قال و التّقوى الثّانية، الإتيان بالعمل المطابق لهذه الآية وهى الإحتراز عن شرب الخمر، و التّقوى الثّالثة، عبارة عن المُدوامه على التّقوى المذكورة في الأوّل والثّاني ثمّ يضمّ الى هذه التّقوى الإحسان الى الخلق، وفى المقام خامس وهو أنّ المقصود من هذا التّكرير التّأكيد والمبالغة فى الحثّ على الإيمان و التّقوى نقل هذه الوجوه الرّازي فى تفسيره:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُغْتُكُمْ اللَّهُ بَشْيءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِمَاحُكُمْ

خاطب المؤمنين وقال لهم، لِيَبْلُغْتُكُمْ أي ليختبرن طاعتكم من معصيتكم بَشْيءٍ مِّنَ الصَّيْدِ أي صيد البرّ دون البحر، وقيل صيد الأحرام دون الأحلال، وقال الزّجاج، للتجنيس نحو إجتنبوا الرّجس من الأوثان تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِمَاحُكُمْ قيل المراد به فراخ الطّيور و صغار الوحش وزاد المجاهد، والبيض، والذي تناله الرّماح الكبار من الصّيد، قال أبو عليّ معناه أنّ الصّيد فى الحرم يقرب من النّاس ولا ينفر عنهم فيه كما ينفر فى الحلّ وذلك آية من آيات الله قال المجاهد والحسن حرّم بهذه الآية صيد التبرّكله.

وقال أبو عليّ صيد الحرم هو المحرّم بهذه الآية وقال الزّجاج بيّن النّبي ﷺ تحريم صيد الحرم على المحرم وغيره وهو الحقّ وأما صيد غير الحرم فهو يحرم على المحرم دون المحل انتهى كلامه.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَقِيلَ مَعْنَاهُ لِيَعْلَمَكُمْ مَعَامِلَةَ الْمُخْتَبَرِ، أَوْ مَعَامِلَةً مَنْ يَطْلُبُ أَنْ يَعْلَمَ مَظَاهِرَةً فِي الْعَدْلِ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ لِيُظْهِرَ الْمَعْلُومَ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَأَنْ كَانَ عَالِمًا بِمَا يَفْعَلُونَهُ فِيمَا لَمْ يَزَلْ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَهِمَ وَلَا يَعَاقِبُهُمْ عَلَى مَا لَا يَعْلَمُ مِنْهُمْ وَأَمَّا يَسْتَحْقُونَ ذَلِكَ إِذَا عِلْمُهُ وَاقِعًا عَلَى وَجْهِ كَلْفِهِمْ فَإِذَا لَا بَدَّ مِنَ التَّكْلِيفِ وَالْإِبْتِلَاءِ وَأَمَّا الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ مَنْ يَخَافُهُ الْغَيْبِ، يَعْنِي مَنْ يَخْشَى عِقَابَهُ إِذَا تَوَارَى بِحَيْثُ لَا يَقَعُ عَلَى الْحَسِّ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ، مَنْ يَخَافُ صَيْدَ الْحَرَمِ فِي السَّرَكَمَا يَخَافُهُ فِي الْعِلَاقَةِ فَلَا يَعْزُضُونَ لَهُ عَلَى حَالٍ فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَيَّ مَنْ تَجَاوَزَ حَدَّ اللَّهِ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ وَإِرْتِكَابِ نَهْيِهِ بِالصَّيْدِ فِي الْحَرَمِ وَفِي حَالِ الْإِحْرَامِ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ، أَمِي مُؤَلَّمٌ فِي النَّارِ أَوْ بَغِيرَ ذَلِكَ مِنْ صُنُوفِ الْأَلَامِ.

أَقُولُ لَا شَكَّ أَنَّ سَنَةَ اللَّهِ جَرَتْ عَلَى إِبْتِلَاءِ النَّاسِ وَإِخْتِبَارِهِمْ وَلَا سِيَّمَا الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِيُمَيِّزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَالْمُحْسِنَ مِنَ الْمُسِيءِ وَ الْأَصْلُ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: أَلَمْ، أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَنْزَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ<sup>(١)</sup> مَرَّ الْكَلَامِ فِي الْإِبْتِلَاءِ فِيمَا مَضَى غَيْرَ مَرَّةٍ وَقُلْنَا أَنَّ الْإِخْتِبَارَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَبْدِ لَيْسَ لِأَجْلِ كَشْفِ بَاطِنِ الْعَبْدِ وَحَقِيقَتِهِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فَأَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْعَلَنَ وَالظَّاهِرَ وَالْبَاطِنَ مَعْلُومَ ثَابِتَ عَقْلًا وَنَقْلًا وَهَذَا مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ.

ثُمَّ أَنَّ الْإِبْتِلَاءَ قَدْ يَكُونُ فِي الْمَالِ وَالْبَدَنِ وَالْأَوْلَادِ وَالصَّحَّةِ وَالسُّقْمِ وَالْفَقْرِ وَ الْغِنَاءِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ وَقَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ التَّكْلِيفِ الشَّرْعِيِّ مِنَ الْأُمُورِ وَالتَّوَاهِي وَ الْحَلْيَةِ وَ الْحَرَمَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ الْخَمْسَةِ التَّكْلِفِيَّةِ وَمِنْهَا هَذِهِ الْآيَةُ حَيْثُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ الْبَتَّةَ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ الَّذِي تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِمَاحُكُمْ أَيُّ الصَّيْدِ الَّذِي يَكُونُ قَرِيبًا مِنْكُمْ وَ

أنتم تقدرون على أخذه أو قتلته اذ لو ذلك ليس من الإختبار لأن شرط الإختبار القدرة على الفعل لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ أي ليظهر الله بذلك من يخافه بالغيب هو السر الذي يقابل العلن.

ثم قال فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ أي بعد العلم بالحكم فَلَهِ عَذَابٌ أَلِيمٌ أي مؤلم موجه لتمرده وعصيانه وإقدامه على ما نهى عنه كما قال:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ

لَمَّا بَيَّنَّ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُكُم بِالصَّيْدِ عَلَى مَا مَرَّ بَيَانُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَنِ الصَّيْدِ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ، أَوْ فِي الْحَرَمِ مُحَرَّمًا كَانَ الْقَاتِلُ أَوْ مُحِلًّا، أَوْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ عَلَى إختلاف الأقوال فيه وعلى القول الأول لا فرق بين المحرم، بالحج أو عمرة.

قال بعضهم أَنَّ الصَّيْدَ هُنَا إِسْمٌ لِلْمَصِيدِ وَالْحُرْمُ بَضْمٌ الْحَاءِ وَالرَّاءِ جَمْعُ حَرَامٍ بِفَتْحِ الْحَاءِ وَرَجُلٌ حَرَامٌ وَمَحْرَمٌ بِمَعْنَى الْحَلَالِ وَمَحَلٌّ وَالْوَاوُ فِي قَوْلِهِ: وَأَنْتُمْ لِلْحَالِ أَيِ حَالِ كَوْنِكُمْ مُحْرَمِينَ، وَعَلَيْهِ فَيَشْتَمِلُ إِحْرَامُ الْحَجِّ وَإِحْرَامُ الْعِمْرَةِ لَصَدَقَ الْمُحْرَمُ فِي الْمَوْضِعِينَ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ قَرَأَ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَيَعْقُوبُ، فَجَزَاءٌ مَنُونًا، وَرَفَعَ مِثْلَ، صِفَةٌ لَهُ عَلَى مَعْنَى فَعَلَيْكُمْ أَوْ فَالْوَجِبُ جَزَاءٌ مِمَّا ثَلِ، وَالْباقُونَ بَضْمَهُ مضافاً إِلَى مِثْلٍ وَ مِنْ النَّعَمِ صِفَةُ الْجِزَاءِ أَوْ بَيَانُ فَيَكُونُ صِفَةً لِمِثْلٍ، وَ الْمَعْنَى مَنْ قَتَلَ الصَّيْدَ مُتَعَمِّدًا، أَيِ عَنْ عِلْمٍ وَقَصْدٍ فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ، الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بِالْغَنَمِ يَعْنِي بِحَكْمِ شَاهِدَانِ عَدْلَانِ بِأَنَّهُ جَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ الصَّيْدِ لِيَهْدِيَهُ هَدْيًا يَبْلُغُ الْكَعْبَةَ أَوْ كَقَارَةِ طَعَامٍ مَسَاكِينَ أَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْبَدْلِ أَوْ عَدْلٍ ذَلِكَ صِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَى عَشْرَةِ أَيَّامٍ لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ يَعْنِي عِقُوبَةً مَا فَعَلَهُ مِنَ الْقَتْلِ مُتَعَمِّدًا عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفَ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنْ عَادَ فَيَسْتَنْقِمْ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو

أَتَنْتَقِمُ أَيُّ وَمَنْ عَادَ ثَانِيًا إِلَى مَا فَعَلَهُ أَوَّلًا، فَيَنْتَقِمُ مِنْهُ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْإِنْتِقَامِ.

إِعْلَمُ أَنَّ فِي آيَةِ مَسَائِلَ لَا يَدَّ لَنَا مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَيْهَا.

الأولى: أَنَّ التَّعْبِيرَ بِالْقَتْلِ فِي قَوْلِهِ: لَا تَقْتُلُوا دُونَ الذَّبْحِ لِلإِشَارَةِ إِلَى تَعْمِيمِ الْحُكْمِ فَيَشْمَلُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْقَتْلِ بِأَيِّ وَجْهِ كَانَ وَلَوْ بِالِإِشَارَةِ وَالذَّلَالَةِ وَالمُشَارَكَةِ وَغُلُقِ الْبَابِ عَلَيْهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَوْجِبَةِ لِلْقَتْلِ كَمَا هُوَ مَفْصَّلٌ فِي الْأَخْبَارِ.

الثانية: يَظْهَرُ مِنْ إِطْلَاقِ الصَّيْدِ فِي آيَةِ تَعْلُقِ التَّحْرِيمِ بِجَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ الطَّيْرِ وَغَيْرِهِ وَالْمَأْكُولِ وَغَيْرِهِ إِلَّا مَا إِسْتَشْنَى بِالذَّلِيلِ وَمَنِ الْمَعْلُومُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالصَّيْدِ هُوَ صَيْدُ الْبَرِّ.

الثالثة: أَنَّ هَذَا النَّهْيَ هَلْ يُلْغِي حُكْمَ الذَّبْحِ فَيُلْحَقُ مَذْبُوحٌ مُحَرَّمٌ بِالمَيْتَةِ وَمَذْبُوحٌ الْوُثْنِي فِي النَّجَاسَةِ وَعَدَمِ الْإِنْتِفَاعِ بِشَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ لَا فَيَكُونُ لَاحِقًا بِمُحَرَّمِ التَّصَرُّفِ كَالشَّاةِ الْمَغْصُوبَةِ إِذَا ذُبِحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ الْمَالِكِ وَيَتَفَرَّعُ عَلَى ذَلِكَ جَوَازُ أَكْلِهِ إِخْتِيَارًا لِلْمَحَلِّ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ وَمَوْضِعُ الْخِلَافِ مَا إِذَا ذُبِحَ الْمُحَرَّمُ فِي الْحَلِّ.

فَذَهَبَ الْأَكْثَرُ إِلَى الْأَوَّلِ وَمِنْهُمْ الشَّيْخُ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ وَتَفْصِيلُ الْكَلَامِ فِي الْفَقْهِ.

قَالَ ابْنُ إِدْرِيسَ إِذَا ذُبِحَ الْمُحَرَّمُ صَارَ مَيْتَةً بِلَا خِلَافٍ وَقَالَ الْعَلَامَةُ فِي الْمُنْتَهَى أَنَّهُ قَوْلُ عُلَمَاءَنَا أَجْمَعَ وَقَالَ ابْنُ بَابُوَيْهِ فِي الْفَقِيهِ بِالثَّانِي وَهُوَ الْمَنْقُولُ عَنْهُ فِي الْمَقْنَعِ وَعَنِ الْمُرْتَضَى وَجَمَاعَةٍ وَقَالَ الْمَفِيدُ فِي الْمَقْنَعَةِ وَلَا بَأْسَ أَنْ يَأْكُلَ الْمَحَلَّ مَا صَادَهُ الْمُحَرَّمُ وَعَلَى الْمُحَرَّمِ فَدَاهُ ثُمَّ قَالَ وَلَا يَجُوزُ أَكْلُ مَا ذُبِحَ الْمُحَرَّمُ مِنَ الصَّيْدِ عَلَى حَالٍ لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْمَيْتَةِ وَكَذَلِكَ إِذَا ذُبِحَ الْمَحَلُّ فِي الْحَرَمِ.

إستدلّ الأولون بظاهر الآية حيث دلّت على النّهي المقتضي لفساد المنهي عنه المترتب عليه عدم جواز الإنتفاع به وبظاهر التّحريم في الآية الثّانية المتناول لفعل الصّيد وأكله وإستدلّ الآخرون بصحيحة منصور بن حازم قال قلت لأبي عبد الله رجل أصاب صيداً وهو محرم أكل منه وأنا حلال قال أنا كنت فاعلاً قلت له فرجل أصاب مالاّ حراماً فقال عليه السلام ليس هذا مثل هذا يرحمك الله أنّ ذلك عليه.

وصحيحة حريز قال سألت أبي عبد الله عليه السلام عن محرم أصاب صيداً يأكل منه المحلّ فقال ليس على المحلّ شيء أتما الفداء على المحرم انتهى وأمثال ذلك من الأخبار فتامل.

الرّابعة: قوله تعالى: **وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا لَمَّا دَلَّ النَّهْيُ عَلَى الْإِثْمِ** بارتكاب المنهي عنه أردفه بما يدلّ على أنّ الإثمّ والجزاء أنّما هما على المتعمّد لا النّاسي والمخطئ وليس ذكر العمد في الآية لتقييد وجوب الجزاء به خاصّة فأنّه واجب على كلّ حالٍ وعليه علماءنا أجمع وبه قال أكثر العامّة منهم الفقهاء الأربعة، والأخبار الواردة بذلك من طريق أهل البيت مستفيضة. منها، ما رواه الشّيخ في الصّحيح عن أحمد بن محمّد قال سألت أبا الحسن عليه السلام عن المحرم يصيد الصّيد بجهالة أو خطأ أو عمد، هم فيه سواء، قال عليه السلام لا قلت جعلت فداك ما تقول في رجل أصاب صيداً بجهالة وهو محرم قال عليه الكفّارة قلت فأنّ أصابه خطأ قال عليه السلام وأي شيء الخطأ عندك قلت يرمي هذه النّخلة فيصيب نخلة أخرى فقال عليه السلام.

نعم هذا الخطأ وعليه الكفّارة قلت فأنّه أخذ ظبيّاً متعمّداً وذبحه وهو محرم قال عليه السلام عليه الكفّارة قلت أأست قلت أنّ الخطأ والجهالة والعمد ليس بسواء فبأي شيء يفضل المتعمّد من الخطأ قال عليه السلام بأنّه أثمّ ولعب بدينه انتهى.

و مؤثقة معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام ليس عليك فداء شيء أتيته وأنت محرم جاهلاً به إذا كنت محرماً في حجاجك أو عمرتك إلا الصَّيْدَ فَأَنْ عَلَيْكَ الْفِدَاءُ بِجَهْلٍ كَانَ أَوْ عَمْدٍ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَهُ عَلَيْكَ الْحَدِيثَ. وعلى هذا يكون قوله: **وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهَ مِنْهُ** لتغليظ الحرمة فيه وأنه لا كفارة سوى ذلك كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

إذا عرفت هذا فيمكن أن يكون التقييد بالعمد في الآية ناظراً إلى سبب نزولها فقد روي أنه عن لهم في غزوة الحديبية حمار وحشي فحمل عليه أبو البشير فطعنه برمح فقتله ف قيل له أنك قتلت الصَّيْدَ وأنت محرم فنزلت الآية ويمكن أن يقال أن حكم العمد علم من الكتاب وغيره علم من السنة هذا. وقال قوم من العامة إذا تعمّد القتل وهو ذاكر لإحرامه فلا كفارة لعظم الذنب.

وقال آخرون لا كفارة في قتل غير العمد عملاً بظاهر القرآن وهو ضعيف أقول الحق متابعة العترة في تفسير القرآن لقوله عليه السلام كتاب الله وعترتي ما أن تمسكتما بهما لن تضلوا أبداً، فالتمسك بأحدهما مضلة.

الخامسة: قوله: **مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ** اختلفوا في هذه المماثلة، فقال قوم هي بإعتبار الخلقة والصورة وقال الآخرون هي بإعتبار القيمة.

قال أبو حنيفة بالثاني فعنده يقوم الصَّيْدُ فَأَنْ بلغت قيمته ثمن هدي تخير بين شراء وبين أن يشتري طعاماً يتصدق به وأن شاء صام عن طعام كل مسكين يوماً فأَنْ لم يبلغ ثمن الهدى أو لم يبلغ طعام مسكين صام يوماً أو تصدق به، و إلى الأول ذهب معظم أهل العلم وهو مذهب أصحابنا الإمامية لأنه المتبادر من المثلية، ومن قوله: **مِنْ النَّعَمِ** وكذا من قوله: **هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ**.

ويدل عليه ما رواه الشيخ في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال في قول الله عز وجل، فجزأ مثل ما قتل من النعم، قال في النعمة، بدنة، وفي حمار وحش بقرة وفي الطيبي شاة وفي البقرة بقرة.

وفي صحيحة سليمان بن خالد قال أبو عبد الله عليه السلام في الظبي شاة البقرة بقرّة وفي الحمار بدنة وفي النعامة بدنة وفيما سوى ذلك قيمته انتهى.  
وحاصل المعنى أنّه ليس كلّ صيد له مثل في الخلقة والصورة وهو واضح فقصّد سبحانه بيان هذا الفرد بصريح الدلالة وهو أنّ الصيد الذي له مثل في الأنعام فجزأ مثله والى ما عداه بطريق التنبيه والإشارة وهو ما لم يكن له مثل فهو قسمان:  
**أحدهما:** ما عيّن جزاءه فجزاه المعين.

**الثاني:** ما لم يعيّن له جزاء فالقيمة كما هو مفصّل في الفقه ويستفاد من الأخبار الواردة في بيانها أنّ المماثلة نوعيّة فيجزي الصّغير عن الكبير والذكر عن الأنثى وبالعكس وقيل تعتبر المماثلة الشّخصية وهو الأحوط.  
**السادسة:** قوله تعالى: **يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ** جعل الله تعالى الحكم فيه بيد العدلين، وذلك لأنّ الأنواع قد تشبهه وتشابه كثيراً ويمثل بعضها بعضاً وتختلف قيمتها وحيث كان الغالب في البيّنات لإثبات الأحكام الشرعية هو شهادة العدلين إحتاج هنا الى تمييز ذلك الشّخص الفداء الذي تحصل به البراءة بأن يحكم به رجلان صالحان من المسلمين العارفين بذلك.  
قيل ولو كان أحدهما القاتل جاز اذا كان القتل خطأ لا عمداً لأنّ العامد فاسق فلا يقبل قوله ونحوه لو اشترك به أثنان.

**السابعة:** قوله: **هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ** قالوا المراد بالبلوغ العرفي ويتحقّق بدخول الحرم والمتبادر أنّ المراد ذبحه هناك لا مجرد وصوله وقد روي عن أهل البيت عليهم السلام أنّه أن كان في إحرام العمرة ففي الكعبة وأن كان في إحرام الحجّ فيمنى.

ففي صحيحة عبد الله بن سنان قال قال أبو عبد الله من وجب عليه فداء صيد أصابه محرماً فإن كان حاجاً نحر هديه الذي يجب عليه بمنى وأن كان معمراً نحره قبالة الكعبة انتهى.

و الأخبار به كثيرة و عن المدارك هذا مذهب الأصحاب لا أعم فيه مخالفاً  
و أعلم أن مقتضى ذبحه هناك أنه تجب الصدقة بلحمه في ذلك المكان الذي  
ذبح أو نحر فيه على مساكية و هو الذي أفتى به و الأصحاب و أما عند أبي  
حنيفة حيث شاء.

الثامنة: قوله تعالى: **أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا** فيه  
حكما:

أحدهما: الإطعام.

ثانيهما: الصيام.

**أما الأول:** فقيل أنه يقوم الصيد المقتول حياً ثم يجعل طعاماً.  
وقيل يقوم المماثل من النعم ثم يجعل قيمته طعاماً و عليه دلت النصوص  
الواردة عن أهل البيت عليهم السلام و هو مذهب الأصحاب.

**أما الثاني:** و هو الصيام فهو بدل بمعنى أنه لو عجز عن القيمة والإطعام صيام.  
ففي قتل النعامة بدنة و مع العجز تقوم البدنة و يقض ثمنها على البر و  
يتصدق به لكل مسكين مدان على الأضهر الى ستين مسكيناً و لا يلزمه  
التصدق بما زاد على ذلك كما أنه لا يلزمه الإكمال اذا لم يف ثمنها بذلك، فإن  
عجز صام عن كل مدين يوماً، فإن عجز صام ثمانية عشر يوماً و في فراخها مثل  
ما في النعامة على الأقوى و أما في البقرة الوحشية و حمارة فبقرة أهلية و مع  
العجز يقض ثمنها على البر لكل مسكين مدان و لا يلزم ما زاد على ثلثين  
مسكيناً كما لا يلزمه الإكمال لو نقص، فإن عجز صام عن كل مدين يوماً فإن  
عجز تسعة أيام

و في الطيبي شاة و مع العجز فض الثمن و لا يلزم ما زاد على عشرة فإن  
عجز صام عم كل مدين يوماً، فإن عجز ثلاثة أيام.

التاسعة: أن هذه الأبدال هل هي على الترتيب أو على التخسير ذهب أكثر  
الأصحاب الى الأول و به قال أبو حنيفة و الشافعي.



العاشرة: قوله تعالى: **لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ** علة للجزاء بأنواعه الثلاثة أي ليدوق سوءها عاقبة هتكه لحرمة الإحرام والوبال المكروه والضّرر في العاقبة قال الله تعالى: **فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا**<sup>(١)</sup> فأن قيل كيف يسمّى الجزاء وبالاً مع أنّه لمصلحة فتكون رحمة، وأجابوا عنه بأنّ تشديد التّكليف بعد العصيان ثقل على المكلّف كما حرّم على بني إسرائيل الشّحم لما أعتدوا في السّبب فتقل ذلك عليهم وأن كان ذلك مصلحة لهم.

وأجاب عنه بعضهم بأنّ هذا التّكليف وقع عقوبة لا مكفراً وأما قوله تعالى: **عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ** أي عفى الله من الصيد لكم في الجاهلية أو قبل نزول التّحريم والبيان أو عمّا سلف منكم في هذه المرّة التي وقعت منكم ومن عاد الى مثل ذلك مرّة أخرى متعمداً لذلك فلا جزاء عليه غير الانتقام ويدل عليه ما رواه الشّيخ في الصّحيح عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال المحرم إذا أصاب الصيد فعليه جزاؤه ويتصدّق بالصيد على مسكين فإن عاد وقتل صيداً آخر لم يكن عليه جزاءه وينتقم الله منه والنّقمة في الآخرة انتهى.

وعنه عليه السلام قال إذا أصاب المحرم الصيد خطأ فعليه كفارة فإن أصابه ثانياً خطأ فعليه كفارة وهكذا إذا كان خطأ، فإن أصابه متعمداً كان عليه الكفارة فإن أصابه ثانية متعمداً فهو ممّن ينتقم الله منه ولم يكن عليه الكفارة انتهى.

أقول يظهر من الأخبار أنّ الانتقام في الآية مختصّ بصورة العمد وأما في صورة الخطأ فالكفارة ثابتة الى الأبد، هذا قوله تعالى:

**أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** سياق الآية يقتضي أنّ الخطاب للمحرمين وهو ظاهر وفي الآية حكمان:

أحدهما: صيد البحر.

ثانيهما: صيد البر.

فيه القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

**أَمَّا الْأَوَّلُ:** فقالوا أن المراد به صيد الطَّري وأما العتيق فلا خلاف في حليته ويدخل ما في الأنهار لأنَّ العرب تسمي النَّهر بحراً ومنه قوله: **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَابْنُ بَجْرٍ<sup>(١)</sup>** ثُمَّ أَنَّ الْأَغْلَبَ عَلَى الْبَحْرِ هُوَ الَّذِي يَكُونُ مَاءَهُ مِلْحاً لَكِنْ إِذَا أُطْلِقَ دَخَلَ فِيهِ الْأَنْهَارُ بِلَا خِلَافٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَطَعَامُهُ** يَعْنِي طَعَامُ الْبَحْرِ وَقِيلَ فِي مَعْنَاهُ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ مَا قَذَفَ بِهِ مَيْتاً، قَالَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُمْ.

ثَانِيَهُمَا: أَنَّهُ الْمَمْلُوحُ وَهُوَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ مَذْهَبُنَا فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: **صَيْدُ الْبَحْرِ** مَا أَخَذَ طَرِيّاً وَبِلَا طَعَامٍ مَا كَانَ مِنْهُ مَمْلُوحاً لِأَنَّ مَا يَقْذَفُ بِهِ الْبَحْرُ مَيْتاً لَا يَجُوزُ عِنْدَنَا أَكْلُهُ لِلْمُحْرَمِ وَلَا لِغَيْرِهِ وَقَوْلُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ، نَصَبَ مَتَاعاً عَلَى الْمَصْدَرِ وَمَعْنَاهُ الْمَسَافِرُ فَتَحْصُلُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ صَيْدَ الْبَحْرِ الطَّري حَلَالٌ لِلْمُحْرَمِ وَغَيْرِهِ وَلِلْمَسَافِرِ وَهَذَا مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ.

**وَأَمَّا الثَّانِي:** وَهُوَ صَيْدُ الْبَرِّ أَيُّ صَيْدٍ كَانَ فَهُوَ حَرَامٌ عَلَى الْمُحْرَمِ لقوله: **مَا دُمْتُمْ حُرُمًا**.

وَحَلَالٌ عَلَى غَيْرِ الْمُحْرَمِ إِذَا كَانَ مِمَّا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَقَوْلُهُ: **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** أَمْرٌ مِنْهُ بِأَنْ يَتَّقِيَ الْمُكَلَّفُ جَمِيعَ مَعَاصِيهِ مِنَ الصَّيْدِ فِي الْإِحْرَامِ وَغَيْرِهِ لِأَنَّ إِلَهَ الرَّجُوعِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ فِيهِ الضَّرَرَ وَالنَّفْعَ سِوَاهُ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ وَأَدْخَلْنَا فِي رَحْمَتِهِ.

**جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالتَّقْلِيدَ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**

قرأ ابن عامر قِيَامًا لِلنَّاسِ بِلا أَلِفٍ والباقون، قياماً، بالألف قيل تقدير الآية جعل الله حجَّ الكعبة أو نصب الكعبة قياماً لمعايش الناس أو مكاسب الناس لأنه أي القيام مصدر قَامَ فكأنَّ المعنى تام بنصبه ذلك لهم فأثبتت بذلك معايشهم وإستقامت أحوالهم فالقيام كالعياذ والعيال و على هذا ألحقته تاء التأنيث في هذه المصادر فجاءت، فعالة كالزيادة و السَّياسة و الحياكة فكما جاءت هذه المصادر على فعال، أو فعالة كذلك حكم القيام أن يكون على، فعال، ووجه قراءة ابن عامر قِيَمًا، أحد أمرين:

أما أن يكون جعله مصدراً، أو حذف الألف و هو يريد بها كما يقصر الممدود، قاله الشَّيخ في التَّبيان.

ثم أنَّ القوام هو العماد تقول هو قوام الأمر وملاكه وهو ما يستقيم به أمره و قلبت الواو ياءً لأنكسار ما قبلها في مصدر (فَعَلَ، يفعل) و هو قام بالأمر قياماً مثل صام صياماً فأما صحَّة الواو فمن قاومه قواماً مثل حاوره حواراً، وتقدير الآية جعل الله حجَّ الكعبة أو نصب الكعبة قياماً لمعايش النَّاس و مصالحهم. وقوله: **وَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ** معطوف على المفعول الأول وهو، الكعبة و الهدي و القلائد معطوفان عليه، ذلك لتعلموا أنَّ الله يعلم مصالح ما في **السَّمَوَاتِ وَ ما في الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** فلا يخفى عليه شيء في الأرض و لا في السَّماء،

**وَ اعْلَمُ أَنَّ الكعبةَ كُلَّ بيت على هيئته في التَّربَع فسمَّيت الكعبة كعبة** بتربيعها ولما كان هذا اللَّفظ ممَّا أطلقه بعض العرب على غير بيت الحرام كالبيت الَّذي كان في خثعم يسمَّى كعبة اليمانية، أضاف الله الكعبة إلى البيت الحرام ليختصَّ اللَّفظ به فقوله: **الْبَيْتَ الْحَرَامَ** بدل من الكعبة أو عطف بيان لها، و وصف البيت بالحرام لتحريم الله إيَّاه أن يصاد صيدها أو يعضد شجرها.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ** فالمراد هي الأشهر الحرام الأربعة، فاللّام في الشهر للجنس وهي فرد وثلاثة سرد، والفرد رجب، والسرد، ذو القعدة و ذوالحجة والمحرم.

وَأَمَّا الْهَدْيِ وَالْقِلَادِ، فالهدي قد مضى ذكره في قوله: **هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ** والقلائد جمع قلادة وذلك لأن من أراد الإحرام تقلّد قلادة من شعرٍ أو لحى الشجرة فتمنعه من الناس حتّى يأتي أهله.

و قال الحسن القلائد ن يقلّد الإبل والبقر النعال أو الخفاف على ما هو مسطور في الكتب الفقهيّة هذا وقد حصل لنا من الآية أنّ الله تعالى جعل البيت الحرام والحرم أمناً يأمن فيه كلّ شيء ويسكن قلبه فالطّبيّ يأنس بالسبع والدّئب ما دام في الحرم فاذا خرج عنه خاف وطلبه السبع وهرب منه الطّبي حتّى يرجع الى الحرم فاذا رجع اليه كفّ عنه السبع وهذا من عظيم آيات الله وعجيب دلائله وكذلك الطّير والحمامة تأنس به الإنسان فاذا خرج من الحرم خافه ولم يدن من أحد حتّى يعود الى الحرم والطّير يستشفى بالبيت الحرام اذا مرض يسقط على سطح البيت إستشفاء به فاذا زال عنه المرض لم ير على سطحه ولا محاذيه في الهواء إجلالاً له وتعظيماً وهكذا كلّ ذلك يدلّ على أنّه تعالى عالم بمصالح الخلق وبكلّ شيء وللبحث في أمثال هذه الأمور مقام آخر.

**أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**

الخطاب لجميع النّاس وأن كان ظاهراً السّياق يقتضي أن يكون للمؤمنين و أمّا قلنا ذلك لأنّ في قوله: **أَعْلَمُوا** أمرٌ منه تعالى بتحصيل العلم الذي يقتضي سكون النّفس ولا شك أنّ جميع النّاس مأمورون به اذ العلم بهذا المعنى لا يكون إلّا بعد المعرفة بالله وبصفاته ومن المعلوم أنّه ليس من الصّروريات اذ لو كان كذلك لما أمرنا به ومحصّل الكلام هو أنّ العلم كسبيّ.

وفي قوله: **شَدِيدُ الْعِقَابِ** تهديد لمن إنتهك حرمة وفي قوله: **عَفُورٌ رَحِيمٌ** توجيه بالغفران والرحمة لمن حافظ على طاعته أو تاب عن معاصيه فهو تعالى أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة والمغفرة وأشد المعاقبين في موضع التكال والنقمة وسيأتي البحث فيه.

**مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ**

لما أُنذِر في الآية السابقة شدة العقاب وبشّر بالعفو والغفران، قال في هذه الآية ما على الرسول إلا البلاغ، ولا شك أن الرسول قد بلغ فهو أدّى وظيفته لقوله تعالى: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**<sup>(١)</sup>.

ومن المعلوم أن الله أكمل دينه بواسطة الرسول إذ المقصود إكمال الدين في الناس لا إكماله في حدّ نفسه والإكمال في الناس لا يكون إلا بعد تبليغ جميع أحكامه اليهم وفي قوله: **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ** غاية التهديد والزجر لمن كان له قلب.

**قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**

أي قل يا محمد لهم، لا يستوي الخبيث والطيب، أي لا يساوي، قالوا الإستواء على أربعة أقسام.

إستواء في المقدار، وإستواء في المكان، وإستواء في الذهاب، وإستواء في الإنفاق.

وإلستواء بمعنى الإستيلاء راجع إلى الإستواء في المكان لأنه تمكّن وإقتدار، قاله الشيخ في التبيان.

بناءً على القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

ولقائل أن يقول، من قسم الإستواء الى هذه الأربعة المذكورة فأن الإستواء وعدمه يجري في جميع الأمور.

منها الإستواء في العلم، ومنها الإستواء في المال.

ومنها الإستواء في الأولاد وهكذا وما نحن فيه أحد المصاديق في جانب العدم. وأما الخبيث والطيب، ففيل في معناهما قولان:

أحدهما: الحرام والحلال وهو قول الحسن وأبي علي فالخبيث الحرام والطيب الحلال والمعنى لا يستوي الحرام والحلال.

ثانيهما: الكافر والمؤمن فالكافر الخبيث والمؤمن الطيب.

فعلى الأول: معنى الآية لا يتساوي الحرام والحلال ولو أعجبك كثرة الخبيث أي وأن أعجبك كثرة ما تراه من الحرام والمراد به أمته وقوله: فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ معناه إجتنبوا ما حرّمه الله عليكم يا أولي العقول لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ لكي تفلحوا وتفوزوا بالثواب الدائم في الآخرة. وقال الرّازي في تفسيره لهذه الآية الخبيث والطيب قسمان. أحدهما: الذي يكون جسماً نياً وهو ظاهر لكل أحد.

الثاني: الذي يكون روحانياً وأخبت الخبائث الروحانية الجهل والمعصية وأطيب الطيبات الروحانية معرفة الله وطاعة الله وساق الكلام الى أن قال وكما أن لخبيث والطيب في عالم الجسمانيات لا يستويان فكذا في عالم الروحانيات لا يستويان بل المباشنة بينهما في عالم الروحانيات أشد الى آخر كلامه.

اقول ما ذكره في معنى الخبيث والطيب ثم حملوا الآية عليه لا ربط له بها وذلك لأن سياق الآية يدل على أن المراد بهما في المقام العاصي والمطيع بالنسبة الى أحكام الله تعالى فالعاصي خبيث لأن عصيانه نشأ من خبث ذاته ومن أشد مصاديقه الكفر والمطيع طيب كذلك قال الله تعالى: وَالَّذِي خَبَثَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكَدًا<sup>(١)</sup>.

ولمّا كان أكثر المسلمين في صدر الإسلام من المنافقين الذين كانوا يقولون  
بألسنتهم ما ليس في قلوبهم أمر الله ورسوله فقال له: **قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ  
وَالطَّيِّبُ** أي لا يستوي المنافق والمؤمن وهذا ظاهر لا خفاء فيه ويمكن أن  
يراد بهما الأعمال الخبيثة والأعمال الصالحة وهو أيضاً يرجع الى ما ذكرناه  
قال الزّاعب الخبيث ما يكره ردائهُ وخساسةٌ محسوساً كان أو معقولاً وذلك  
يتناول الباطل في الاعتقاد والكذب في المقال والقبيح في الفعل.

قال رسول الله ﷺ المؤمن أطيب من عمله و الكافر أخبث من عمله، و  
يدلّك على ما ذكرناه في تفسير الآية من أنّ المراد بالخبيث هو المنافق وعمله.  
قوله: **وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ** فيه إشارة الى أنّ الدّوات الخبيثة كانوا أكثر  
من الطّيبين والآن أيضاً كذلك والمعنى لا تعجبك يا محمّد كثرة عددهم وكثرة  
أموالهم وأولادهم، فإنّ الخبيث لا يساوي الطّيب أبداً، عند العقلاء ولذلك  
قال: **فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْجَابِ** أي فاتّقوا الله يا أولي العُقول السّليمة  
الخالصة من شوائب الأوهام وفي قوله: **لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ** إشارة الى أنّ الفلاح و  
هو سعادة الدّارين وحلاوة النشأتين لا يحصل للإنسان إلّا في التقوى فمن لا  
يتقي لا يفلح أبداً وكيف يفلح من لا يجتنب المعاصي ولا يفعل الطّاعات و  
هو واضح.



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ  
لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ  
الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ  
(١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا  
كَافِرِينَ (١٠٢) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ  
وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ  
(١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ  
إِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا  
أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ  
(١٠٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا  
يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ  
جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

### ◀ اللغة

تُبَدَّ بضم التاء مجهول من بدى يبدؤ إذا ظهر.

بَحِيرَةٍ، البَحِيرَةُ بفتح الباء وكسر الحاء وسكون الياء هي الناقة التي تشق  
أذنها يقال بحرت الناقة أبحرها بحرًا و الناقة مبحورة و بحيرة إذا شقتها شقاً  
واسعاً ومنه البحر لسعته.

وَلَا سَائِبَةٍ، السَّائِبَةُ هي المخلاة وهي المسيبة يقال ناقتي سائبة، فكانت  
كالبحيرة في التخليّة.

وَلَا وَصِيلَةٍ، الوَصِيلَةُ بفتح الواو وكسر الصاد وسكون الياء الأنثى من الغنم  
إذا ولدت أنثى مع الذكر، قالوا أوصلت أخاها فلم يذبحوه.



وَلَا حَامٍ، الْحَامُ الْفَحْلُ مِنَ الْإِبِلِ قَدْ حَمَى ظَهْرَهُ مِنْ أَنْ يَرْكَبَ بَتَاتِعَ أَوْلَادِهِ  
تَكُونُ مِنْ صُلْبِهِ وَكَانَتِ الْعَرَبُ إِذَا أُنتَجَتْ مِنْ صُلْبِ الْفَحْلِ عَشْرَةَ أَبْطُنٍ، قَالُوا  
حَمَى ظَهْرَهُ.

### ◀ الاعراب

إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ الشَّرْطُ وَجَوَابُهُ فِي مَوْضِعٍ جَرِ صِفَةً لِأَشْيَاءٍ عَفَا اللَّهُ  
عَنْهَا مُسْتَأْنَفٌ هُوَ فِي مَوْضِعٍ جَرٍ أَيْضاً مِنْ قِيلَ لَكُمْ مُتَعَلِّقٌ بِسَأْلِهَا مِنْ بَحِيرَةٍ مِنْ  
زَائِدَةٍ فَعَلَى هَذَا يَكُونُ بَحِيرَةٌ أَحَدُ الْمَفْعُولِينَ وَالْآخَرُ مُحذَوْفٌ حَسْبُنَا هُوَ مُبْتَدَأٌ  
مَصْدَرٌ بِمَعْنَى إِسْمِ الْفَاعِلِ وَمَا وَجَدْنَا هُوَ الْخَيْرُ (مَا) بِمَعْنَى الَّذِي أَوْ نَكْرَةً  
مُوصُوفَةً (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) عَلَيْكُمْ هُوَ إِسْمٌ لِلْفِعْلِ وَبِهِ إِنْتِصَبٌ، عَلَيْكُمْ، وَ  
التَّقْدِيرُ أَحْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ وَإِذَا ظَرَفَ لِيَضُرَّ وَيَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا، لَضَلَّ، لِأَنَّ  
الْمَعْنَى لَا يَصِحُّ مَعَهُ (فَيَنْبِئُكُمْ) الْإِنْبَاءُ الْإِخْبَارُ.

### ◀ التفسير

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ

الخطاب للمؤمنين نهاهم الله أن يسألوا عن أشياء أن تظهر تسوءهم قيل  
في سبب نزول الآية أن رجلاً يقال له عبد الله بن حذافة وكان يطعن في نسبه  
فقال يا رسول الله من، أبي، فقال ﷺ حذافة فنزلت الآية، وقال بعضهم لما  
نزلت آية الحجَّ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ<sup>(١)</sup> قالوا يا رسول الله أفي كل عام،  
فسكت فقالوا أفي كل عام قال ﷺ لا، ولو قلت، نعم، لوجبت فأنزل الله  
تعالى الآية.

وقال الحسن البصري سألو النبي عن أمور الجاهلية التي عفا الله عنها  
فنزلت اذ لا وجه للسؤال عنها.

و عن مجاهد وابن عباس أنها نزلت في قوم سألوا رسول الله عن البحيرة و السائبة و الوصيلة و أمثال ذلك من الأقوال.

و الحق أن الآية نزلت لبيان حكم كلّي و هو عدم السؤال عن الأمور التي توجب الفضاحة بعد ما ظهرت فالتهي في الآية في الحقيقة تعلق بما يظهر من السؤال من الفضيحة المترتبة على الجواب، و قد ورد في الحديث، أسكتوا عما سكت الله عنه إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم أي وأن تسألوا عن شيء أو أشياء بعد نزول القرآن لفهموه فلا إشكال فيه، و حاصل الكلام هو أن السؤال على قسمين:

أحدهما: السؤال عن شيء أو أشياء سكت الله ورسوله عنه لعدم ذكره في الكتاب والسنة بوجه من الوجوه فهذا السؤال منهي عنه و هو المراد بقوله: لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم.

ثانيهما: أن السؤال عن شيء نزل به القرآن لكن السامع لم يفهمه كما ينبغي فها هنا السؤال لازم بل واجب لقوله: فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون<sup>(١)</sup> و هذا القسم من السؤال هو المراد بقوله و أن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد أي تظهر لكم عفا الله عنها و الله غفورٌ حلِيمٌ أي عفى الله عن السؤالات التي وقعت منكم قبل نزول القرآن و صارت سبباً لإغضاب الرسول فلا تعودوا إلى مثلها ثانياً، والله غفورٌ حلِيمٌ ثم قال تعالى: قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين كأنه تعليل للنهي عن السؤال الأول.

قال المفسرون يعني قوم صالح سألوا الناقة ثم عقرها و قوم موسى قالوا أرنا جهرةً فصار ذلك و بالاً عليهم و بني إسرائيل قالوا لنبي لهم أبعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال تعالى: فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم<sup>(٢)</sup> و قوم عيسى سألوا المائدة ثم كفروا بها، ذكر هذه الوجوه الرّازي في تفسيره انتهى.

و أنا أقول والمسلمون سألوا رسول الله ﷺ عن خليفته بعده ثم كفروا بها بعد موته ونظائرها كثيرة والأمر واضح.

### مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ

قيل، جعل هنا، بمعنى، سمى كما قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا<sup>(١)</sup> أي سمّيناه والمعنى ما سمى الله ولا سنّ ذلك حكماً ولا تعبد به شرعاً بيد أنه قضى به علماً وأوجده بقدرته وإرادته خلقاً فإن الله خالق كل شيء من خير أو شرٍّ ونفع وضرٍّ وطاعة ومعصية، قاله القرطبي.

أقول ما ذكره لا يصح لأنه تعالى لم يخلق الشرور والمعاصي والقبائح والكفر وأمثال ذلك لتزوّجه وتقدّسه مضافاً إلى أنها أمور عدمية لا يتعلّق الخلق بها وللبحث في هذه المسائل مقام آخر.

ومعنى الآية أنّ الله تبارك وتعالى ما حرّمها على ما حرّمها أهل الجاهلية ولا أمر بها فالمراد بالجعل هنا هو التشريع أي ما شرّعها الله ومحضّ الكلام في المقام هو أنّ أهل الجاهلية على ما قال صاحب الكشف إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنّها أي شقّوها وحرّموا ركوبها ولا تطرد عن ماء ولا مرعى وإذا لقيها المعبي لم يركبها وإسمها البحيرة وكان يقول رجل إذا قدمت من سفري أو برأت من مرضي فناقتي سائبة وجعلها كالبحيرة في تحريم الإنتفاع بها وقيل كان الرجل إذا أعتق عبداً قال هو سائبة فلا عقل بينهما ولا ميراث، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإذا ولدت ذكراً فهو لألّهم فأن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبخوا الذكر لألّهم. وإذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره فلا يركب يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى، ومعنى، ما جعل، ما شرّع ذلك و

بنياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

الأمر بالتَّبَحِيرِ والتَّسْيِبِ وغير ذلك وَلَكِنَّهُمْ بِتَحْرِيمِهِمْ مَا حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ  
كَانُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ  
الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ أَيَّ أَنْ الْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ مِنْ شُئُونِ الْكَفَّارِ وَ  
الْمُؤْمِنِ الَّذِي أَمِنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا يَفْتَرِي عَلَى النَّاسِ فَضْلاً عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَ  
فِي قَوْلِهِ: أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ أَيَّ أَكْثَرِهِمْ لَا يَنْسَوْنَ التَّحْرِيمَ إِلَى حَتَّى يَفْتَرُوا وَ  
لَكِنَّهُمْ يَقْلُدُونَ فِي تَحْرِيمِهَا كِبَارَهُمْ قَالَهُ صَاحِبُ الْكَشَافِ.

وَنَقَلَ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذَا الْكَلَامِ عَنِ الْمَفْسَّرِينَ أَنَّ عَمْرُو بْنَ لَحْيٍ  
الْخَزَاعِي كَانَ قَدْ مَلَكَ مَكَّةَ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ فَأَتَاخَذَ الْأَصْنَامَ وَ  
نَصَبَ الْأَوْثَانَ وَشَرَعَ الْبَحِيرَةَ وَالسَّائِبَةَ وَالْوَصِيلَةَ وَالْحَامَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَقَدْ  
رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ يُؤْذِي أَهْلَ النَّارِ بِرِيحِ قُصْبِهِ وَالْقُصْبُ الْمَعْيِ وَجَمْعُهُ الْأَقْصَابُ وَ  
يُرْوَى يَجْرُ قُصْبُهُ فِي النَّارِ.

ثُمَّ نَقَلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ قَوْلُهُ: وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا الْخ... يَرِيدُ عَمْرُو  
بْنَ لَحْيٍ وَأَصْحَابَهُ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْأَكَاذِبَ وَالْأَبَاطِيلَ فِي تَحْرِيمِهِمْ هَذِهِ  
الْأَنْعَامَ وَعَلَيْهِ فَالْمَعْنَى أَنَّ الرُّؤُوسَاءَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ فَأَمَّا الْأَتْبَاعُ الْعَوَامُ  
فَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ فَلَا جَرَمَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ أَوَّلِكَ الرُّؤُوسَاءِ انْتَهَى.  
أَقُولُ وَكَيْفَ كَانَ فَالَّذِي يَظْهَرُ لَنَا مِنَ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ هُوَ أَنَّهُمْ إِخْتَرَعُوا مِنْ عِنْدِ  
أَنْفُسِهِمْ أَشْيَاءَ ثُمَّ نَسَبُوهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَهَذَا هُوَ الْكَذِبُ عَلَى اللَّهِ الْمُسَمَّى  
بِالْإِفْتِرَاءِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَمِّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا كَذَلِكَ وَلَكِنْ  
خُصُوصِيَّةُ الْمُرُودِ لَا يَنَافِي عَمُومَ الْحُكْمِ وَشُمُولِهِ وَالْقُرْآنُ لَمْ يَنْزِلْ لَزَمَانٍ  
خَاصٍّ أَوْ لَطَائِفٍ خَاصَّةٍ بَلْ نَزَلَ لِإِرشَادِ النَّاسِ وَهَدَايَتِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْإِ  
هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ<sup>(١)</sup>.

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ <sup>(١)</sup> والمقصود هو أن كل ما أخبر به الله عن الناس من أقوالهم وأفعالهم في القرآن إنما الغرض منه ليس إلا إيقاظ الغافلين عن نوم الغفلة وأن يعتبروا بما قالوا في الأمم السالفة والقرون الخالية وبعبارة أخرى ليس الغرض إلا الموعظة وإذا كان كذلك فمن تبع من هذه الأمة الأباء والأسلاف في إعتقاداتهم وأعمالهم وأقوالهم من غير علم من دين الله، أليس هو من مصاديق الآية وهكذا من أدخل ما ليس من الدين في الدين ونسبه إلى الله ورسوله تبعاً لأسلافه، وكم له من نظير في علماء الأمة فضلاً عن الجهال نعوذ بالله من شرور أنفسنا.

والى هذه الدققة أشار الله تعالى بقوله: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن الذين جعلوا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، والذين يفترون على الله الكذب من كفار قريش وغيرهم من العرب بأنه إذا قيل لهم تعالوا، أي هلموا، إلى ما أنزل الله من القرآن وإلى تصديق الرسول بنبوته والإقتداء به.

قالوا في الجواب عن ذلك، حسبنا، أي كفانا ما وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا من المذهب والإعتقاد فرد الله عليهم بقوله: أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ أي أنهم يتبعون آباءهم فيما كانوا عليه من الشرك وعبادة الأوثان وأن كان آباءهم لا يعلمون شيئاً من الدين ولا يهتدون إليه أي لا يهتدون إلى طريق العلم والحق ففي الآية دلالة على فساد التقليد إلا بحجة وذلك لأن الله أنكر عليهم تقليد الأباء في أمر الدين من غير حجة ولا برهان ولا شك أنه مذموم عقلاً وشرعاً فلا ينبغي للعاقل أن يكون في أمر دينه كذلك:

قال الله تعالى: وَإِذَا فَعَلُوا فَاجِسَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ  
أَمَرَنَا بِهَا<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا غَابِظِينَ<sup>(٥)</sup>.

فهذه الآيات كما ترى تنادي بأعلى صوتها أنَّ تقليد الأباء في أمر الدين  
بغير حجة مذمومٌ والعقل السليم أيضاً يحكم به.

قال الرّازي في المقام، وإعلم أنَّ الإقتداء أنما يجوز بالعالم المهتدي وأنما  
يكون عالماً مهتدياً إذا بني قوله على الحجة والدليل فاذا لم يكن كذلك لم  
يكن عالماً مهتدياً فوجب أن لا يجوز الإقتداء به انتهى كلامه.

ولقائل أن يقول له أنت إقتديت في الأصول بأبي الحسن الأشعري فقلت  
بالجبر وفي الفروع بالشافعي الذي كان يحكم في دين الله بغير حجة و  
للبرهان فضّيعت دينك أصلاً وفرعاً وأي فرق بين من يقول في الإسلام، أنا  
وجدنا آبائنا على أمةٍ وإنّا على آثارهم مهتدون، وبين من قال أو يقول من  
المشركين كذلك والمفروض أنَّ ملاك الدّم والقبح وهو المتابعة من غير برهان  
موجود في الموردين، أترى بينك وبين الله أنَّ أبا بكر ثمّ عمر ثمّ عثمان كانوا  
في تصديقهم للخلافة والإمارة على حجةٍ وبرهان من الله ورسوله بعد ما قال  
رسول الله ﷺ في غدير خمّ وسائر الموارد في عليّ عليه السلام ما قال، فإن كنت  
ترى ذلك فأنت على حجةٍ بين يدي ربك وإلا فأنت من مصاديق الآية فأقض ما  
نت قاض.

٢- لقمان = ٢١

٤- الزخرف = ٢٣

١- الأعراف = ٢٨

٣- الزخرف = ٢٢

٥- الأنبياء = ٥٣

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ  
لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى حُكْمَ الْكَفَّارِ الَّذِينَ قَلَّدُوا أَبَاءَهُمْ وَأَسْلَفَهُمْ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ  
بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْمَكْلَفَ يُلْزِمُهُ حُكْمُ نَفْسِهِ أَوَّلًا وَلَا يَضُرُّهُ ضَلَالُ مَنْ ضَلَّ،  
إِذَا لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَقَوْلُهُ: أَنْفُسُكُمْ نَصَبَ عَلَى الْإِغْرَاءِ كَأَنَّهُ قَالَ،  
أَحْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ أَنْ تَزُولُوا كَمَا زَلَّ غَيْرُكُمْ، أَوْ أَحْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ، أَنْ تَكُونُوا فِي  
الضَّلَالَةِ تَابِعِينَ لغيرِكُمْ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى سَقُوطِ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ وَ  
النَّهْيِ عَنْهُ كَمَا قِيلَ بَلْ يَسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْاقِبُ أَحَدًا عَلَى فِعْلٍ  
غَيْرِهِ وَأَنَّهُ يَجُوزُ الْإِقْتِصَارُ عَلَى الْإِهْتِدَاءِ بِاتِّبَاعِ أَمْرِ اللَّهِ فِي حَالِ التَّقِيَّةِ عَلَى أَنَّ  
الْإِنْسَانَ أَمَّا يَكُونُ مُهْتَدِيًّا إِذَا اتَّبَعَ أَمْرَ اللَّهِ فِي نَفْسِهِ وَفِي غَيْرِهِ بِالْإِنْكَارِ عَلَيْهِ  
قِيلَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى فُسَادِ مَذْهَبِ الْمَجْبُرَةِ فِي تَعْذِيبِ الْأَطْفَالِ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ  
الْأَمْرُ عَلَى مَا قَالُوهُ لَمْ يَأْمَنْ الْمُؤْمِنُونَ أَنْ يُؤْخَذُوا بِذُنُوبِ آبَائِهِمْ وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ  
تَعَالَى أَنَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِهِ مُؤَكَّدٌ لَمَّا فِي الْعَقْلِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ  
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَعْنِي مَا لَكُمْ وَمَرْجِعُكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَى اللَّهِ الَّذِي يَحْكُمُ  
فِيكُمْ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْخُذُ أَحَدًا بِذَنْبِ غَيْرِهِ لِأَنَّهُ ظَلَمَ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ  
فَيُنَبِّئُكُمْ أَيُّ فَيُخَبِّرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ عِلِمْتُمْ بِهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالطَّاعَةِ  
وَالْمَعْصِيَةِ وَيَجَازِيكُمْ بِحَسَبِهَا وَلَمَثَلُ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ إِنَّ اللَّهَ وَإِنَّا إِلَيْهِ  
رَاجِعُونَ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ  
 أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ  
 مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي  
 الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا  
 مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا  
 نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ  
 شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عَثَرَ  
 عَلَى أَنَّهُمَا أَسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ  
 مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيَانِ  
 فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَ  
 مَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ  
 أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا  
 أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَ  
 أَسْمِعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)  
 يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ فَأَلَوْا  
 لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩)

### ◀ اللغة

الْوَصِيَّةُ بفتح الواو وكسر الصاد إسمٌ من الإيصاء الذي هو مصدر أَوْصَى  
 يُوصِي إِيصَاءً، وَرَبَّمَا سَمِّيَ بِهَا الْمَوْصَى بِهِ يُقَالُ هَذِهِ وَصِيَّتُهُ أَيِ الْمَوْصَى بِهِ.  
 ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ، الضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ السَّيْرُ فِيهَا.  
 أَرْتَبْتُمْ، الْإِرْتِيَابُ التَّرْدِيدُ وَالشَّكُّ.



الْأَثْمِينَ وَاحِدَهُمَا أَثْمٌ بِكسر النّاء وهو الفاعل من أَثْمَ يَأْثُمُ فهو أَثْمٌ، والِإِثْمُ الذَّنْبُ والعَصِيَانُ.

عُثْرُ الْعُثُورِ الإِطْلَاعُ عَلَى السَّرِّ يقال عُثِرَ عَلَيْهِ أَيِ إِطْلُعَ عَلَيْهِ.

## ◁ الإِعْرَابُ

شَهَادَةٌ بَيْنَكُمُ يقرأ برفع الشّهادة وإضافتها الى بينكم والرفع على الإبتداء والخبر أثنان، والتقدير شهادة أثنين إِذَا حَضَرَ ظَرْفُ لِلشَّهَادَةِ حِينَ الْوُصِيَّةِ ظَرْفُ لِلْمَوْتِ أَوْ لِحَضَرٍ، ويجوز أن يكون بدلاً من إِذَا، وقيل شهادة بينكم مبتدأ وخبره، اذا حضر ذَوَا عَدْلٍ صفة لأثنين وكذلك مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ معطوف على، أثنان، وَمِنْ غَيْرِكُمْ صفة لآخرانِ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ معترض بين آخران وبين صفته وهو تحبسونهما، أي وأخران من غيركم محبوسان إِنْ آرَبْتُمْ معترض بين يقسمان وجوابه وهو لَا نَشْتَرِي وجواب الشرط محذوف في الموضعين والتقدير، إِنْ إِرْتَبْتُمْ فَأَحْبِسُوهُمَا أَوْ فَخَلَّفُوهُمَا وَثَمَنًا مَفْعُولُ نَشْتَرِي وَلَا نَكْتُمُ معطوف على، لَا نَشْتَرِي فَإِنْ عُثِرَ مصدره العُثُورُ ومعناه إِطْلُعَ عَلَى أَنَّهُمَا فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ لِقِيَامِهِ مَقَامَ الْفَاعِلِ فَأَخْرَانِ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ أَيِ فَالشَّاهِدَانِ أَخْرَانِ وَقِيلَ هُوَ مُبْتَدَأٌ وَيَقُومَانِ الْخَبَرُ وَجَازَ الْإِبْتِدَاءُ بِالنِّكَرَةِ لِحُصُولِ الْفَائِدَةِ بِهِ مِنَ الَّذِينَ صِفَةُ أُخْرَى لِأَخْرَانِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي يَقُومَانِ، الْأَوَّلَانِ ثَنِيَّةٌ أُولَى وَهُوَ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ أَيِ هُمَا الْأَوَّلَانِ عَلَى وَجْهَيْهَا فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الشَّهَادَةِ أَيِ مُحَقَّقَةً وَيَخَافُوا مَعْطُوفٌ عَلَى، يَأْتُوا بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ صِفَةُ الْإِيمَانِ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْعَامِلَ فِي، يَوْمٍ، هُوَ، يَهْدِي مَاذَا فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ وَ، مَا، وَ، ذَا، هُنَا بِمَنْزِلَةِ إِسْمٍ وَاحِدٍ وَالتَّعْدِيرُ، يَمَاذَا أَجَبْتُمْ، وَالْبَاقِي وَاضِحٌ.

## ﴿التفسير﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَتِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ

الخطاب للمؤمنين أو كل من يصلح له الخطاب و أن كان غير مكلف فيدخل فيه من بلغ عشرين من الصبيان وكان مميزاً وكانت وصيته بالمعروف لما قد ورد في بعض الأخبار من جواز وصيته والمراد بحضور الموت حضور أسبابه وإماراته لكن يقيد بمن كان عنده رشده وعقله و أن اعتقل لسانه.

ثم أن الوصية عبارة عن تملك عين أو منفعة أو تسليط على تصرف أو بفك ملك بعد الوفاة وقد تطلق على ما يشمل الإقرار والإعتراف بما هو عليه من الدين القويم وبالحقوق اللازمة عليه كالدين والزكاة والحج ونحو ذلك وإستحبابها مؤكداً بل قد تكون واجبة والآيات والأخبار الواردة بها كثيرة ونحن نفسر الآية أولاً ونشير إلى شطر مما ورد فيها من الآيات والآثار ثانياً.

فنقول يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قلنا أن الخطاب للمؤمنين أو كل من يصلح للخطاب و أن كان غير مكلف فيدخل فيه من بلغ عشرين و كان مميزاً وكانت وصيته بالمعروف قبل أنها نزلت في تميم بت أويس الداري وأخيه عدي و هما نصرانيان وابن أبي مارية مولى عمرو بن العاص السهمي و كان مسلماً حتى إذا كان ببعض الطريق مرض ابن أبي مارية فكتب وصيته بيده ودسها في متاعه و أوصى اليهما و دفع المال اليهما و قال أبلغاه أهلي فلما مات فتحا المتاع وأخذما ما أعجبهما منه ثم رجعا المال إلى الورثة فلما فتش القوم المتاع فقدوا بعضه ونظروا إلى الوصية فوجدوا المال فيها تاماً روي ذلك الواقدي عن أسامة بن زيد عن أبيه وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام ونحوه نقل في كنز العرفان.

وروي القرطبي في تفسيره عن ابن عباس أنه قال كان تميم الداري وعدي بن بداء يختلفان إلى مكة فخرج معهما فتى من بني سهم فتوفي بأرض ليس

بها مسلم فأوصى اليهما فدفعاً تركته الى أهله وحبساً جاماً من فضةٍ مخصوصاً بالذهب فإستحلفهما رسول الله ﷺ ما كتمتما ولا إطلعتما ثم وجد الجام بمكة فقالوا إشتريناه من عدّي وتميم فجاء رجلان من ورثة السهمي فحلفا أنّ هذا الجام للسهمي ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما إعتدنا فأخذوا الجام وفيهم نزلت الآية شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَثْنَانِ قوله: شَهَادَةُ مبتدأ وأثنان خبره والمعنى أيها المؤمنون ينبغي أن تكون الشَّهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية، أثْنين، وقيل جاءت الشَّهادة في الآية بمعنى، وصّى، وقيل، معناها الحضور للوصية يقال شهدت وصية فلان حضرتها وذهب الطبري الى أنّ الشَّهادة بمعنى اليمين فيكون المعنى يمين ما بينكم أن يحلف أثنان وإستدل على أنّ ذلك غير الشَّهادة التي تؤدى للمشهود له بأنّه لا يعلم لله حكم يجب فيه على الشاهدين يمين وإختار هذا القول القفال وسمّى اليمين شهادة لأنّه يثبت بها الحكم كما يثبت بالشَّهادة. ونقل عن الماتريدي أنّ التّقدير في قوله: شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ شهادة ما بينكم فحذف، ما، وبه قال الرّازي في تفسيره يعني شهادة ما بينكم، وبينكم، كناية عن التّنازع لأنّ الشَّهود أنما يحتاج اليهم عند وقوع التّنازع وحذف، ما، من قوله ما بينكم، جائز لظهوره ونظيره هذا فراق بيني وبينكم، أي ما بيني وبينك، وقوله لقد تقطّع بينكم، في قراءة من نصب انتهى.

وردّ هذا القول بأنّ ما، الموصولة لا يجوز حذفها عند البصريين ومع الإضافة لا يصحّ تقدير، ما، البتّة وليس قوله هذا فراق بيني وبينك نظيره.

وقال ابن جنّي التّقدير، ليقم شهادة بينكم أثنان، وردّ بأنّه لا يجوز حذف الفعل وإبقاء فاعله إلا أن أشعر بالفعل ما قبله كقوله، يسبح له فيها بالغدو والأصاال رجال، على قراءة من فتح الباء في يسبح.

فيه القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

الجلد السادس

ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ

ذوا عدلٍ صفة لقوله: **أَثْنَانٍ** و منكم، صفة بعد صفة و من، غيركم، صفة لاخران، وقوله: **مِنْكُمْ** أي من أقاربكم، و من غيركم، أي و من الأجانب إن أنتم ضربتم في الأرض والمراد بالضرب في الأرض السفر، والمعنى أن الشاهدين لابد من كونهما عدلين من أقاربكم أو شاهدان أخران من غير أقاربكم من الأجانب.

و عليه فالمقصود أن وقع الموت في السفر ولم يكن معكم أحد من عشيرتكم فاستشهدوا أجنبيين على الوصية وجعل الأقارب أولى لأنهم أعلم بأحوال الميت وبما هو أصلح وهم له أنصح.

وقيل: **مِنْكُمْ** أي من المسلمين و، من غيركم، أي من الكفار، أي إستشهدوا شاهدين من المسلمين أو من الكفار إذا لم يكن هناك مسلم و على هذا فالآية تدل على أن شهادة أهل الكتاب على المسلمين جائزة في السفر إذا كانت وصية قالوا وأتما جازت في أول الإسلام لقلّة المسلمين وتعذر وجودهم في حال السفر.

**فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ** أي إذا أوصيتم الى اثنين عدلين في ظنكم و دفعتم اليهما ما معكم من المال ثم وقع بكم الموت و ذهبا الى و رثتكم بالتركة فارتابوا في أمرهما و إدعوا عليهما خيانة فالحكم أن تحبسوهما من بعد الصلاة، أي تستوثقوا منهما، و قيل، تحبسونهما، أي تقفونهما، من بعد الصلاة، قيل المراد بها صلاة العصر و قيل صلاة الظهر و قيل أي صلاة كانت، فيقسمان بالله، أي الآخرين **إِنْ أَرْتَبْتُمْ** أي إرتاب الوارث منكم **لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ** و أي يقولان في يمينهما لا نشترى بالقسم أو بالله ثمنًا، عوضاً عن الدنيا ولو كان المقسم له ذا قربى منا **وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِإِقَامَتِهَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثَمِينَ** في صورة الكتمان فإن عثر أي فأطلع و حصل العلم على أنهما

أَيِ الْآخِرِينَ أَسْتَحَقَّ إِثْمًا أَيِ إِسْتَوْجِبَا عِقُوبَةً بِسَبَبِ تَحْرِيفِ بِالشَّهَادَةِ أَوْ خِيَانَةِ فَأَخْرَانِ أَيِ فَشَاهِدَانِ أَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ أَسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْثَانِ أَيِ مِنَ الَّذِينَ إِسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْإِيصَاءُ.

وقيل المراد بالأوثان الأحقان بالشهادة لقربتهما ومعرفتتهما فيقسمان بالله أي يحلفان الأخران اللذان يقومان مقام الشاهدين، إن الذي قال صاحبا في وصية حق وأن المال الذي وصى به اليكما كان أكثر مما أتيتمانا به لشهادتنا أحق من شهادتهما أي يميننا أصدق من يمينهما سمى اليمين شهادة لوقوعها كما في اللعان وما اعتدنا فيها إننا إذا لمن الظالمين أي في صورة الاعتداء.

ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا أَيِ الْحُكْمِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ أَوْ تَحْلِيفِ الشَّاهِدِينَ، أَذْنَى وَأَقْرَبُ، أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا، أَيِ عَلَى نَحْوِ مَا تَحْمِلُونَهَا مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا خِيَانَةٍ فِيهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ أَيِ تَرَدُّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعِيَيْنِ، بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ فَيَتَضَحَّوْا بِظُهُورِ الْيَمِينَ الْكَاذِبَةِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا سَمْعَ إِجَابَةٍ وَقَبُولٍ.

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ الْكَاتِمِينَ لِلشَّهَادَةِ الْخَائِنِينَ فِيهَا إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ إجمالاً.

فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ إِسْتَفِيدَ مِنَ الْآيَةِ أَحْكَامٌ:

الأول: رجحان الوصية والإشهاد عليها وكون أقل الشهود اثنين عدلين، أما رجحان الوصية فهو من المسلمات عند الفريقين.

روي في الوسائل بأسناده عن محمد بن مسلم قال قال أبو جعفر عليه السلام الوصية حق وقد أوصى رسول الله ﷺ فينبغي للمسلم أن يوصي وفي رواية الصدوق فينبغي للمؤمن انتهى.

وبأسناده عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله عليه السلام قال عليه السلام هي حق على كل مسلم.

وعنه عليه السلام قال ما ينبغي لامرؤ مسلم أن يبيت ليلة إلا ووصيته تحت رأسه. وبأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله من لم يحسن وصيته عند الموت كان نقصاً في مروته وعقله. وبأسناده عن السكوني عن جعفر بن محمد عن أبيه قال عليه السلام من لم يوص عند موته لذوي قرابته ممن لا يرثه فقد ختم عمله بمعصية. وأما الإشهاد عليها:

بأسناده عن ضريس الكناسي قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن شهادة أهل الملل هل تجوز على رجل مسلم من غير أهل ملتهم فقال عليه السلام لا إلا أن لا يوجد في تلك الحال غيرهم وأن لم يوجد غيرهم جازت شهادتهم في الوصية لأنه لا يصلح ذهاب حق امرؤ ولا تبطل وصيته انتهى. وبأسناده عن أبي الصباح الكناني عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألت عن قول الله عز وجل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ قلت ما خران من غيركم قال عليه السلام هما كافران قلت ذوا عدل منكم قال مسلمان انتهى.

وبأسناده عنه عليه السلام في قول الله عز وجل أو آخران من غيركم، قال عليه السلام إذا كان الرجل في بلد ليس فيه مسلم جازت شهادة من ليس بمسلم على الوصية. وفي رواية أخرى عنه عليه السلام قال إذا كان الرجل في أرض غربة لا يوجد فيها مسلم إنهي.

وبأسناده، عن يحيى بن محمد قال سألت أبا عبد الله عن قول الله عز وجل: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ قال اللذان منكم، مسلمان، واللذان من غيركم، من أهل الكتاب، فإن لم تجدوا من أهل الكتاب فمن المجوس لأن رسول الله صلى الله عليه وآله سنَّ فيهم سنة أهل الكتاب في الجزية وذلك إذا مات الرجل في أرض غربة فلم يوجد مسلمان، أشهد رجلين

من أهل الكتاب يحبسان بعد صلاة العصر، فيقسمان بالله لا نشترى به ثمنًا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين قال عليه السلام وذلك إذا إرتاب ولي الميت في شهادتهما فأن عثر على أنهما من الآثمين شهدا بالباطل فليس له أن ينقض شهادتهما حتى يجيئ شاهدان يقومان مقام الشاهدين الأولين فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذاً لمن الظالمين فإذا فعل ذلك نقضت شهادة الأولين و جازت شهادة الآخرين يقول الله عز وجل: ذَلِكَ أَذْنِي أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ انتهى.

و الأخبار بهذا المضمون كثيرة فقد ظهر لك ممّا ذكرناه رجحان الوصية و الأَشهاد عليها و أنّ أقلّ الشُّهور إثنان عدلان أن كانا من المسلمين و إلاً فمن الكُفّار و عليه فشهادة أهل الكتاب على الوصية مختصة بالسّفر حيث لا يوجد هناك مسلم.

الثاني، قد يفهم من إعتبار الأثنية أنّه لا يكفي الواحد، و قد ورد في باب الأَشهاد على الوصية قبول شهادة المرأة الواحدة في ربع الوصية و الثلثين في النصف و الثلاث في ثلاثة أرباع و الأربع في الكل فهي كالمختصة للآية الشريفة و عليها العمل بين الأصحاب و هل تكون شهادة الرجل الواحد كذلك أم لا فيه خلاف ف قيل يثبت بها نصف الوصية و قيل لا يثبت بها شيء.

أمّا المرأة فقد روي صاحب الوسائل بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام في شهادة امرأة حضرت رجلاً يوصي ليس معها رجل فقال عليه السلام يجوز رفع ما أوصى بحساب شهادتها.

و بأسناده، عنه عليه السلام أنّه قال في وصية لم يشهد بها إلا امرأة فأجاز شهادتها في الربع من الوصية بحساب شهادتها.

و بأسناده، عن محمد بن قيس قال قال أبو جعفر عليه السلام قضى أمير المؤمنين عليه السلام في وصية لم يشهدا إلا امرأة أن تجوز شهادة المرأة في ربع الوصية إذا كانت مسلمة غير مربية في دينها وأمثالها من الأخبار كثيرة.

قال العلامة في القواعد تثبت الوصية بالمال بشهادة عدلين ومع عدم عدول المسلمين تقبل شهادة أهل الذمة خاصة وشهادة واحد من اليمين ومع امرأتين وتقبل شهادة المرأة في ربع ما شهدت به وهل تغتفر إلى اليمين فيه إشكال وشهادة إثنين في النصف وثلاث في ثلاثة أرباع وأربع في الجميع وهل يثبت النصف أو الربع بشهادة الرجل من غير يمين الأقرب ثبوت الربع إن لم يوجب اليمين في طرف المرأة، والأقرب وجوب اليمين لو شهد عدل و دمي انتهى كلامه عليه السلام.

أن ثبوت الربع في شهادة المرأة الواحدة مما لا كلام فيه عندهم وأما في الرجل الواحد فعلقه على عدم وجوب اليمين في طرف المرأة وحيث أن الأشهر بل الاتفاق من الفقهاء عدم وجوب اليمين في طرف المرأة فهو كذلك في حق الرجل لأن الرجل لا يكون أقل قدرًا من المرأة فإذا ثبت الربع بشهادتها فيثبت بشهادته أيضاً وهو كما ترى لا يثبت به الحكم.

**الثالث:** ظاهر الآية التخيير في الأشهاد على الوصية بين المسلمين والكفار مطلقاً وإحتمال أن يراد بضمير منكم الأقارب، و(غيركم) الأجانب كما ذكره بعض المفسرين بعيد عن الصواب بل المراد بضمير، منكم، المسلمون، و بضمير غيركم، غيرهم من الكفار، وقد يظهر هذا من رواية الكناني قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِلَى أَنْ قَالَ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ قَالَ عليه السلام هما كافران قلت ذوي عدل منكم، قال هما مسلمان انتهى. وغيرها من الأخبار.



**الرابع:** قد يظهر منها إشتراط السّفر في قبول شهادة الذّمي في الوصية الظاهر من كثير من الأخبار و اليه ذهب بعض الأصحاب لكنّ الأكثر على عدم الإشتراط وهو الأقوى.

**الخامس:** يظهر من الآية ومن الأخبار أنّ الشّاهد، الذي يحلف مع حصول الرّيبة في التّهمة لا بدون ذلك و أنّه إذا حصلت أمانة أوجب الظنّ بخيانتها يحلف الوارث أو من يقوم مقامه من الأولياء المطّلعين على ذلك على بطلان دعواهما أو نفي العلم بذلك فينقض شهادتهما و يأخذ منهما المال و هذا حكمٌ مختصّ بالوصية بدلالة هذه الآية و هو المخصّص لقوله **عَلَيْهِ** من حلف له فليصدق ونحوه من الأخبار الدّالة على أنّه بعد الأحلاف و الحكم فلا تسمع الدّعوى هكذا قرّره بعض المحقّقين في كتابه و لا بأس في الخاتمة بذكر بعض الأحكام في الوصية تكميلاً للبحث و تميماً للفائدة (يا فنقول قال العلامة في القواعد).

### الفصل الرابع: في الوصية و أركانها أربعة:

**الأوّل:** الموصى فيه، الوصية بالولاية إستنابة بعد الموت في التّصرف فيما كان له التّصرف فيه من قضاء ديونه، و إستيفاءها وردّ الدوائع و إسترجاعها و الولاية على أولاده الذين له الولاية عليهم من الصّبيان و المجانين و النّظر في أموالهم و التّصرف فيها لما لهم الحظّ فيه و تفريق الحقوق الواجبة و المتبرّع بها و بناء المساجد و لا يصحّ في تزويج الأصاغر لعدم الغبطة على إشكالٍ و تصحّ في تزويج من بلغ فاسد العقل مع الصّرورة إلى النّكاح.

**الثّاني:** الصّيغة و هي قوله وصيّت إليك أو فوصّت إليك أمور أولادي أو نصبتك وصيّاً لهم أو في حفظ مالي و لا بدّ له من القبول في حياة الموصي أو بعد موته.

**الثالث:** الموصي وهو كل من له ولاية على مالي أو أطفالي أو مجانيين شرعاً كالأب والجدّ أمّا الوصي فليس له الإيصاء إلا أن يأذن له الموصي فإن لم يأذن كان النظر إلى الحاكم بعد موت الوصي وكذا لو مات إنسان ولا وصي له كان للحاكم النظر في تركته وأن لم يكن حاكم جاز أن يتولاه من المؤمنين من يوثق به على إشكال الخ.

**الرابع:** الوصي وشروطه ستة.

**الأول:** العقل فلا تصح الوصية إلى المجنون منضماً ومنفرداً.

**الثاني:** البلوغ فلا يصح التفويض إلى الطفل منفرداً مميزاً كان أو لا ويصح منضماً إلى البالغ لكن لا يتصرف حال صغره بل يتصرف الكبير إلى أن يبلغ. لا يجوز للبالغ التفرد ولو بلغ الصبي فاسد العقل أو مات جاز للكبير الإنفراد يداخله الحاكم.

**الثالث:** الإسلام فلا تصح وصية المسلم إلى الكافر وأن كان رحماً ويصح أن يوصي إليه مثله وتصح وصية الكافر إلى المسلم إلا أن تكون تركته خمرأ أو خنزيراً.

**الرابع:** العدالة وفي اعتبارها خلاف والأقرب ذلك ويشكل الأمر في الأب الفاسق نعم لو أوصى إلى العدل ففسق بعد موته عزله الحاكم ونصب غيره فإن عاد أميناً لم يعد ولايته وفي الأب تعود بالتوبة.

**الخامس:** الحرية فلا تصح الوصية إلى المملوك إلا بإذن مولاه وتجوز الوصية إلى المرأة والأعمى والوارث.

**السادس:** كفاية الوصي وإهتدائه إلى ما فوض إليه فلو قصر عن ذلك نصب الحاكم معه أميناً وكذا لو تجدد العجز بعد الموت ولا ينعزل بخلاف العدل إذا فسق وهل تعتبر الشروط حالة الوصية أو الوفاة خلاف أقرب به الأول فلو أوصى

الى طفلٍ أو مجنونٍ أو كافرٍ ثم مات الموصي بعد زوال المانع عن الوصي  
فالأقرب البطلان انتهى.

ولنختم البحث حول الآية والحمد لله رب العالمين.

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ  
عَلَّامُ الْغُيُوبِ

قيل في وجه إتصال الآية بما قبلها أنه لما أخبر الله تعالى بالحكم في  
شاهدي الوصية وأمر بتقوى الله والسمع والطاعة ذكر بهذا اليوم المهور  
المخوف وهو يوم القيامة فجمع بذلك الدنيا وعقوبة الآخرة لمن حرّف  
الشهادة ولمن لم يتق الله ولم يسمع وذكروا في نصب يوم وجوهاً.  
أحدها: أنه منصوب بإضمار إذكروا.

الثاني: بإضمار إحدروا.

الثالث: إتقوا.

الرابع: باسمعوا.

الخامس: بلا يهدي.

السادس: أن ينتصب على البدل من المنصوب في قوله وإتقوا الله وهو  
بدل الإشتغال.

السابع: أن ينتصب على الظرف والعامل فيه مؤخر تقديره يوم يجمع الله  
الرسل كان كيت وكيت قاله الزمخشري والمراد باليوم هو يوم القيامة بالاتفاق  
والرسل جمع رسول ويظهر من الكلام أن الله يجمع جميع الرسل، فيقول الله  
لهم ماذَا أُجِبْتُمْ بضم الالف على أنه مجهول أي ماذَا أُجِبْتُمْ من الناس في  
الدنيا، قال ابن عطية معناه ماذَا أجابت به الأمم ولم يجعل، ما، مصدرية بل  
جعلها كناية عن الجواب وهو الشئ المجاب به لا المصدر، ورد هذا القول  
بأنه لو أريد الجواب لقليل، بماذَا أُجِبْتُمْ.

و قال الحوفي، ما، للإستفهام وهو مبتدأ بمعنى الذي وأجبتكم، خبرها و التقدير ماذا أجبتكم به.

و قال أبوالبقاء، ماذا، في موضع نصب بأجبتكم و حرف الجر محذوف أي بماذا أجبتكم وما، و ذا، هنا بمنزلة إسم واحد.

و قال بعض المفسرين ماذا أجبتكم تقرير للرسل في صورة الإستفهام على وجه التوبيخ للمنافقين عند إظهار فضيحتهم و هتك أستارهم على رؤوس الأشهاد قالوا لا علم لنا أي أنّ الرسل قالوا كذلك و أنّما أتى بصيغة الماضي و لم يقل فيقولون مثلاً لتتحقق وقوعه و قد ثبت أنّ المستقبل إذا كان محقق الوقوع فهو في حكم الماضي و لذلك قال تعالى: (قالوا فكأنه وقع هذا فيما مضى).

إن قلت كيف قالوا لا علم لنا.

قلت أجابوا عنه بوجوه:

أحدها: أنهم قالوا ذلك لذهولهم من هول ذلك المقام.

ثانيها: معناه لا علم لنا إلا ما علمتّنا، فحذف لدلالة الكلام عليه.

ثالثها: معناه لا علم لنا بباطن ما أجاب به أقمنّا لأنّ ذلك هو الذي يقع عليه

الجزاء.

وابعها: معناه لا علم لنا مع علمك أي ليس عندنا شيء مما نعلمه إلا وأنت عالم به و بكلّ ما غاب و حضر بدلالة قوله أنّك أنت علام الغيوب قالوا، علام للمبالغة لا للتكثير المعلوم.



إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرُ نِعْمَتِي  
 عَلَيْكَ وَ عَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ  
 تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ  
 الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرِيَّةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ إِذْ  
 تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا  
 فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَ الْأَبْرَصَ  
 بِإِذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَ إِذْ كَفَفْتُ  
 بَنِي إِسْرَآئِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠)  
 وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ  
 بِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (١١١)  
 إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ  
 يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ  
 قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ  
 أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ  
 صَدَقْتَنَا وَ نَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)  
 قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا  
 مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَ  
 آخِرِنَا وَ آيَةً مِنْكَ وَ آرْزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ  
 (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ  
 مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنْ  
 الْعَالَمِينَ (١١٥) وَ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

مَرِّمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ  
 مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ  
 أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ  
 تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ  
 أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا  
 أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ  
 عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ  
 أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ  
 (١١٧) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ  
 فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَذَا  
 يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي  
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ  
 عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ  
 مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى  
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)

### ◀ اللغة

بِرُوحِ أَتْقُدْسِ المراد به جبرائيل.

كَهْلًا، الكَهْلُ مصدر، وهو من وخطه الشَّيب والكهل النَّبات إذا شارف  
 اليبوسة، مشاركة الكهل الشَّيب.

أَطْيَنَ بكسر الطاء التراب والماء المختلط وقد يسمَّى به وإن زال عنه قوَّة  
 الماء.

فَتَنْفُخُ، النَّفْخُ بفتح النُّون وسكون الفاء والخاء ونفخ الرِّيح في الشَّيْءِ.  
تُبْرِيءُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ أَبْرءُ يُبْرِئُ إِبراءاً، أصل البرء التَّفْصِي مِمَّا  
يكره مجاورته ومنه برأت من المرض، والأكمه هو الذي يولد مظموس العين  
وقد يقال لمن تذهب عينه، والأبرص من به البرص وهو معروف.  
كَفَفْتُ، الكَفُّ المنع.

إِلَى الْحَوَارِثِ جَمْع حَوَارِي وَهُمْ أَنْصَارُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قِيلَ فِي وَجْهِ  
تَسْمِيَتِهِمْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَطْهَرُونَ نَفُوسَ النَّاسِ بِإِفَادَتِهِمُ الدِّينَ.  
الرَّقِيبُ الحافظ.

### ◀ الأعراب

إِذْ قَالَ اللَّهُ بَدَلٌ مِنْ يَوْمٍ إِذْ أَيْدَتَكَ الْعَامِلُ فِي، إِذْ، هُوَ، نَعْمَتِي، وَبِجُوزِ أَنْ  
يَكُونَ حَالاً مِنْهُ، وَأَنْ يَكُونَ مَفْعُولاً بِهِ عَلَى السَّعَةِ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي مَوْضِعِ  
الْحَالِ مِنَ الْكَافِ فِي، أَيْدَتَكَ فِي الْمَهْدِ ظَرْفُ تَكَلَّمَ أَوْ حَالٍ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ  
فِي تَكَلَّمَ وَكَهَلًا حَالٌ مِنْهُ أَيْضاً مِنَ الطَّيْنِ مُتَعَلِّقٌ بِتَخْلُقِ فَتَكُونُ، مِنْ، لِابْتِدَاءِ  
غَايَةِ الْخَلْقِ يَكُونُ حَالاً طَيِّراً مُصَدَّرٌ فِي الْفَاعِلِ إِذْ جَنَّتْهُمْ ظَرْفُ لَكَفَفْتُ وَإِذْ  
أَوْحَيْتُ مَعْطُوفٌ عَلَى، إِذْ أَيْدَتَكَ أَنْ أَمِنُوا أَنْ مُصَدَّرِيَّةٌ فَتَكُونُ فِي مَوْضِعِ  
نَصَبٍ، بِأَوْحَيْتُ، وَقِيلَ بِمَعْنَى، أَيْ أَنْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَإِسْمُهَا مُحذُوفٌ وَ  
قِيلَ أَنَّهَا مُصَدَّرِيَّةٌ تَكُونُ صِفَةً لِمَائِدَةٍ وَلَنَا خَبَرٌ كَانَ عِيدًا حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي  
الظَّرْفِ مِنْكُمْ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي، يَكْفُرُ عَذَابًا بِإِسْمِ  
لِلْمُصَدَّرِ الَّذِي هُوَ التَّعْذِيبُ اتَّخَذُونِي هَذِهِ تَعَدَّى إِلَى مَفْعُولِينَ لِأَنَّهَا صَيَّرُونِي  
مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي مَوْضِعِ صِفَةِ إِلَهَيْنِ أَنْ أَقُولَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ، فَاعِلٌ، يَكُونُ،  
وَلِي، الْخَبَرُ مَا لَيْسَ مَا، بِمَعْنَى الَّذِي أَوْ نَكْرَةٌ مَوْصُوفَةٌ وَهُوَ مَفْعُولٌ، أَقُولُ،  
إِسْمٌ، لَيْسَ مُضْمَرٌ فِيهَا وَخَبَرُهَا، لِي بِحَقِّ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي  
الْجَارِ وَالْعَامِلِ فِيهِ الْجَارِ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ كُنْتُ لَفْظُهَا مَاضٍ وَالْمُرَادُ الْمُسْتَقْبَلُ أَنْ

أَعْبُدُوا اللَّهَ أَنْ، مصدرية و الأمر صلة لها رَبِّي صفة له أو بدل منه مَا دُمْتُ مَا، هنا مصدرية و الزمان معها محذوف أي مدة ما دمت الرقيب خبر كان هذا يَوْمٌ مبتدأ و خبر صَدَقْتُهُمْ فاعل ينتفع و قد قرء شاذاً صدقهم بالنصب على أن يكون الفاعل ضمير إسم، لله.

### ◀ التفسير

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَوْضِع، إذ يجوز أن يكون رفعاً بالإبتداء على معنى، ذاك إذا قال الله، و يجوز أن يكون المعنى إذ ذكر إذ قال الله و عليه فموضعها النصب على المفعولية و إنما خرج قوله: إِذْ قَالَ اللَّهُ عَلَى، لفظ الماضي دون المستقبل مع أن المراد به القيامة للدلالة على أن القيامة كأنها قد قامت و وقعت و كل آت قريب أو لأن المستقبل المحقق الوقوع في حكم الماضي قال تعالى: اقتربت الساعة و أنشَق القمر، و قيل أنه ورد على حكاية الحال كقوله تعالى: وَ لَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ<sup>(١)</sup> ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة الآية و لو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم و الوجه في كل هذه الآيات ما ذكرناه من أنه خرج على سبيل الحكاية عن الحال ذكره الرازي في تفسيره و أمّا قوله: يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَعِيسَى في محل الرفع لأنه منادي مفرد وصف بمضاف أو في محل النصب لأنه في نيّة الإضافة و الإين توكيد له، و أمّا قال عيسى ابن مريم فنسبه الى أمه لأنه لم يكن له أب من جنس البشر على ما مرّ ذكره مراراً و قد مضى في سابق القول كيفية ولادته أَدْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلَىٰ وَالِدَتِكَ قيل أراد بالنعمة الجمع كقوله: وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا<sup>(٢)</sup> و أمّا جاز ذلك لأنه مضاف يصلح للجنس و المراد بوالدته هو أمه، مريم ثم عدّ الله تعالى نعمته عليه فقال: إِذْ أَيْدَتِكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ قيل الرّوح جبرئيل و القدس هو الله فالإضافة تشريفيه، و قيل أقدس صفة



لجبرئيل لأنّ الأرواح مختلفة فمنها مشرقة ومنها كدرة، المقام قول ثالث وهو أن يكون، الروح القدس صفة لعيسى عليه السلام أي جعلنا روحك قدسية نورانية و التأييد التقوية أي قوّيناك بروح القدس وهو كناية عن عصمته وأما جعلنا من النعمة لأنّ كون المخلوق مؤيداً بروح القدس بأيّ معنى كان دليل على تقربه بالخالق وأنه شملت أطفاه الخاصة وعناياته الوافرة وأي نعمة أفضل وأعلى منه (تكلم الناس في المهد وكهلاً) هذه نعمة ثانية وذلك لأنّ التكلم في المهد على خلاف العادة ولذلك يعدّ من المعجزات وفيه إشارة الى قوله: **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَيْنِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**<sup>(١)</sup> وقوله: **كَهْلاً** في موضع الحال والمعنى يكلمهم طفلاً وكهلاً من غير تفاوتٍ في كلامه في الوقتين وهذه نعمة. قال الرّازي في المقام وهذه خاصية شريفة كانت حاصلة له وما حصلت لأحد من الأنبياء قبله ولا بعده انتهى كلامه.

**أقول** أما أنّ التكلم في المهد خاصية شريفة فلا كلام لأحد فيه وأما قوله و ما حصلت لأحد من الأنبياء قبله ولا بعده، فليس كذلك فإنّ نبينا محمّداً قد تكلم حين ولادته وهكذا أوصيائه الأثنى عشر كلّهم تكلموا حين الولادة وإذ **عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرِيَةَ وَالْإِنْجِيلَ** هذه نعمة ثالثة

قال بعض المفسرين المراد بالكتاب الكتابة وهي الخطّ، وهذا خلاف ظاهر اللفظ اذ لم يطلق الكتاب على الكتابة فيما نعلم فالحق أنّ المراد بالكتاب جنسه الشامل لجميع الكتب السماوية التي نزلت على الأنبياء قبله.

والمراد بالحكمة العلوم النظرية والعملية، أو العلم بحقائق الموجودات على ما هي عليه بقدر الإمكان ومن المعلوم أنّ النبي المرسل يكون عالماً بجميع ما يحتاج اليه البشر وأما ذكر التّوراة والإنجيل بعد ذكر الكتاب الشامل لهما ولغيرهما فمن قبيل ذكر الخاصّ بعد العام على سبيل التّشريف:

قال الله تعالى: **خَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى**<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ<sup>(١)</sup>.  
قال الله تعالى: وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا  
فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي<sup>(٢)</sup>.

الخلق بفتح الخاء و سكون اللام والقاف مصدر قولك خلق خلقاً وهو في الأصل التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا إحتذاء ومنه قوله خلق السموات والأرض الآية، أي أبدعهما بدلالة قوله: بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وأيضاً يستعمل في إيجاد الشيء من الشيء ومنه:  
قال الله تعالى: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ<sup>(٣)</sup>.  
قال الله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ<sup>(٤)</sup>.  
قال الله تعالى: خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ<sup>(٥)</sup>.

وهكذا ثم أن الخلق بمعنى الإبداع ليس إلا لله تعالى ولهذا قال في الفصل بينه تعالى وبين غيره أَفَمَنْ أَفْهَمَ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ<sup>(٦)</sup> وأما الذي بالإستحالة فقد جعله الله تعالى لغيره وما نحن فيه من هذا القبيل لأن عيسى عليه السلام خلق شيئاً من شيء وأن شئت قلت خلق طيراً من الطين لأنه أبدع وأوجد الطير من غير أصل إذا عرفت هذا فنقول:

المعنى، واذ تخلق يا عيسى، من الطين، وهو الماء المختلط بالماء، كهيئة الطير، أي أنه ليس طيراً واقعاً لأن الطير الحقيقي له لحم ودم وعظم وغيرها من الأعضاء والجوارح فلا يكون من الطين وإنما هو كهيئة الطير في الشكل والصورة وفي قوله: بِإِذْنِي إشارة إلى أن الخلق من الطين كهيئة الطير إنما هو بأذن الله، فتنفخ فيها، أي فتنفخ فيها الروح فتكون طيراً بأذني، وفيه إشارة إلى أن النفخ فيها أيضاً بأذن الله وَتَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي لَا بِأَذْنِكَ وَإِذْ

**تُخْرِجُ أَلَمْوَتِي بِإِذْنِي** أي تحي الموتى بأذني، فقلوه: **بِإِذْنِي** في جميع الموارد إشارة الى أَنَّ الأحياء في الحقيقة بيد الله وَأَمَّا نسبته الى عيسى لَأَنَّهُ كان بدعائه ولو قال عيسى بدل قوله: **بِأَذْنِ اللَّهِ**، بأذني، لم يفده وهو ظاهر لا خفاء فيه فَأَنَّ المخلوق كائنًا من كان في وجود قائم بخالقه و موجوده ومن كان كذلك لا يقدر على شيء إِلَّا بقدرته تعالى وبعبارة أخرى هو موجود بوجوده قادر بقدرته حيّ بحياته وهكذا فكيف يقدر على شيء بنفسه والمفروض أَنَّ العبد وما في يده كان لمولاه ولا فرق بين عيسى وغيره من هذه الجهة أي من جهة عدم القدرة على شيء مع قطع النظر عن قدرة الله كما لا فرق بينه وبين غيره من جهة القدرة على الأحياء اذا شاء الله فالملك كل الملك في الإحياء والإبراء وغيرهما أَمَّا هو إذن الله ومشيئته وأَمَّا عيسى وغير عيسى فمن الوسائط.

### وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَآئِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ

أي منعت بني إسرائيل اذ همؤا بقتلك مع كفرهم و عتوهم فلولا دفعهم الله عن قصدهم لقتلوك وفي قوله: **إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ** إشارة الى أَنَّ سبب عداوة بني إسرائيل لعيسى عليه السلام لم يكن إِلَّا لرسالته وَأَنَّهُ جاءهم بالبيّنات الدّالات على صدق دعواه وهو كذلك لِأَنَّ الحقَّ مرّ وأمرّ منه العمل به وفي الكلام إشعار بأنّ بني إسرائيل همؤا بقتل عيسى بعد أن جاءهم بالبيّنات لا قبله وذلك لِأَنَّهُ قبل البيّنة التي ثبت بها الحكم يمكن للمنكر تكذيب المدّعي و أمّا بعدها فلا وجه للإلّكار اذ لا يسمع منه فلا محالة يهتّم بقتله و حيث أَنَّ بني إسرائيل كانوا كذلك قال الله تعالى ما قال.

جاء القرآن في تفسيره

جزء ٧

المجلد السادس

**فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ** أي فقال: **الَّذِينَ كَفَرُوا**

أي جحدوا نبوة عيسى بعد ما جاءهم بالبيّنات، إِنَّ هذا، أي ليس هذا الذي أتى به عيسى إِلَّا سحرٌ مبين، نسبوا الى عيسى أَنَّهُ ساحرٌ كما نسبوا الى غيره

السَّحَرُ فَأَنْ كَفَرُوا لَا جَوَابَ لَهُمْ فِي مَقَابِلِ الْحَقِّ إِلَّا التَّمَسُّكُ بِهَذِهِ الْأَبْطَالِ أَلَا تَرَى أَنَّ كَفَرًا قَرِيشَ أَيْضًا نَسَبُوا السَّحَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ تَارَةً وَالْجَنُونَ أُخْرَى وَ هَذِهِ سِيرَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ لِلْمُعَانِدِينَ فِي كُلِّ عَصْرِ وَ زَمَانٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَ الْأَوْصِيَاءِ وَ الْعُلَمَاءِ وَ هَذَا دَاءٌ لَا دَوَاءَ لَهُ.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ.

لوحى الإشارة السريعة و لتضمن السرعة قيل أمر وحي و ذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز و التعريض و قد يكون بصوت مجرد عن التركيب و بإشارة ببعض الجوارح و بالكتابة و قد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمَخْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُحْرَةً وَعَشِيًّا<sup>(١)</sup>.

فقد قيل رمز و قيل إعتبار و قيل كتب و على هذا الوجوه:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَ أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا<sup>(٢)</sup>.

و الحواريين جمع حواري و هم أنصار عيسى و أنما سموا به لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بإفادتهم الدين و العلم:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ<sup>(٣)</sup>.

و معنى الآية و إذا أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي و برسلي، فإن الإيمان عبارة عن الإعتقاد بوحداية الله و صدق رسوله في القلب عند القوم. و أما عندنا معاصر الإمامية فهو عبارة عن الإعتقاد في القلب و الإقرار باللسان و العمل بالأركان و كيف كان يستفاد من الآية أن العبودية لا تتحقق إلا

به و قد مضى البحث في ماهية الإيمان وكيفيته ومدحه غير مرّة فلا نعيد الكلام بذكره في المقام، قالوا، أي قال الحواريون، أمنا، أي أمنا بك و برسولك، و أشهد بأننا مسلمون، أي مطيعون منقادون لأوامرك و نواهيك فالمسلمون هنا معناه المؤمنون بقرنية السياق و أن كان الإسلام أعم من الإيمان في الإصطلاح.

قال بعض المفسرين معنى الآية أذكر يا عيسى نعمتي عليك إذ أوحيت الى الحواريين الذين هم أنصارك.

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ

أي أذكر أيضاً يا عيسى إذ قال الحواريون، لك، يا عيسى ابن مريم هل يستطيع أي هل يقدر، ربك على إنزال المائدة علينا و المائدة لفظها فاعلة و معناها، مفعولة كقوله عيشة راضية أي مرضية و أصل المائدة الحركة من قولهم ماد يמיד ميداً إذا تحرك و المائدة الخوان لأنها تميد بما عليها أي تحركه قاله أبو عبيدة قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أي قال عيسى في جواب الحواريين لما سألوه أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ أي لا تسئلوا ذلك ان كنتم مؤمنين أن قلت.

في الآية إشكال و هو أن الله تعالى حكى عنهم أنهم قالوا آمنا و أشهد بأننا مسلمون فكيف يجوز أن يقال أنهم بقوا شاكين في اعتقادهم حيث قالوا هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ فَأَنْ تَرِيدَ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ يَنَافِي الْإِيمَانَ بِهِ وَأَجِيبْ عَنْهُ بوجوه.

أحدها: أنه تعالى حكى عنهم قولهم بالإيمان فقال أنهم أدعوا ذلك و أما وصفهم بالإيمان فلا و بعبارة أخرى أن الله تعالى ما وصفهم به بل حكى الله عنهم و لذلك قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أي أن كنتم صادقين في دعواكم فكيف تقولون ذلك.

**ثانيهما:** أنهم كانوا مؤمنين واقعاً إلا أنهم طلبوا المائدة لزيادة الإطمئنان كما قال إبراهيم عليه السلام لما قال الله تعالى: **أَوْ لَمْ تُؤْمِنُ قَال بَلَىٰ وَ لَكِن يَظُنُّ قُلُوبِي<sup>(١)</sup>**.  
**ثالثها:** أن المراد إستفهام أن ذلك جائز في الحكمة أم لا.  
**رابعها:** معناه هل يطيعك ربك إن سألته بناءً على أن الاستطاع بمعنى أطاع والسبب زائدة.

**خامسها:** أن المراد بالرب في الآية هو جبرئيل لأنه كان يربيه ويخصه بأنواع الإعانة ذكر هذه الوجوه الرّازي في تفسيره و أحسن الوجوه هو الوجه الثاني و عليه أكثر المفسرين و ذلك لوجهين:  
**أحدهما:** أن قوله تعالى: **قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا يَدُل** عليه لأتهم صرّحوا بأن الغرض من طلب المائدة هو حصول الإطمئنان.  
**ثانيهما:** أن عيسى عليه السلام طلب المائدة من الله فلو كان الطلب من الحواريين عاطلاً باطلاً منافياً للتقوى لما طلبها عيسى من الله تعالى.  
**أمّا الأول:** فلقوله تعالى: **قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَ نَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشّٰهِدِينَ** أي قال الحواريون نريد من إنزال المائدة علينا أن نأكل منها فإن المائدة السماوية مطلوبة لكل عاقل مؤمن و مع ذلك هي دليل على تقرب العبد عند الله هذا أولاً:

ثانياً: أنها توجب إطمئنان القلب و أن ما قاله الرسول حق لا مرية فيه وأنه في دعواه صادق و لأجل ذلك طلبنا المائدة و عليه فقله: **وَ نَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشّٰهِدِينَ** أي نكون على المائدة شاهدين، لله بتوحيده بالدليل الذي نراه في المائدة و الشّٰهادة لك بالنبوة من جهة ذلك الدليل.

**أمّا الوجه الثاني:** فلقوله تعالى: **قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اَللّٰهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عَيْدًا لِأَوَّلِنَا وَ آخِرِنَا وَ آيَةً مِنْكَ وَ آرْزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** أخبر الله تعالى عن عيسى عليه السلام أنه سأل ربه أن

يَنْزِلُ عَلَيْهِ مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ عِيداً لَهُمْ لِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، أَيِ نَتَّخِذُ الْيَوْمَ الَّذِي تَنْزِلُ الْمَائِدَةُ فِيهِ عِيداً، لِأَوَّلِنَا، وَهُوَ النَّسْلُ الْحَاضِرُ وَآخِرُنَا أَيِ وَمَنْ يَأْتِي بَعْدَنَا فِي طَيِّ الْقُرُونِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ مَعْنَاهُ، يَكُونُ ذَلِكَ عَائِدَةً فَضَّلِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَنِعْمَةً مِنْهُ.

**وَالْوَجْهَ الْأَوَّلُ:** أَحْسَنَ وَأَوْفَقَ بِنَظْمِ الْكَلَامِ قِيلَ أَنَّهَا نَزَلَتْ يَوْمَ الْأَحَدِ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ إِنْ تَخَذُوهُ عِيداً وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَآيَةً مِنْكَ** فَالآيَةُ الْعَلَامَةُ وَالِدَّلَالَةُ فِي إِزْعَاجِ قُلُوبِ الْعِبَادِ إِلَى الْإِقْرَارِ بِمَدْلُولِهَا وَالْإِعْتِرَافِ بِالْحَقِّ الَّذِي يَشْهَدُ بِهِ ظَاهِرُهَا فِي دَلَالَةِ عَلَى تَوْحِيدِكَ وَصَحَّةِ نَبْوَةِ نَبِيِّكَ وَسَمِّيَ الْعِيدَ لِعَوْدِهِ وَإِخْتِلَفُوا فِي طَعَامِ الْمَائِدَةِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ هُوَ خَبْزٌ وَسَمَكٌ، وَقِيلَ ثَمَرٌ مِنْ أَثْمَارِ الْجَنَّةِ.

**وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ:** كَانَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ طَعَامٍ إِلَّا اللَّحْمَ، وَقَوْلُهُ: **وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** أَيِ وَأَجْعَلْ ذَلِكَ رِزْقاً لَنَا.

وَقِيلَ أَوْ أَرْزُقْنَا الشُّكْرَ عَلَيْهَا قَالُوا وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْعِبَادَ يَرْزُقُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِدَلَالَةِ قَوْلِهِ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَصَحَّ ذَلِكَ لَمْ يَجْزِ، خَيْرِ الرَّازِقِينَ وَمَحْصَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ الْحَوَازِيينَ طَلَبُوا الْمَائِدَةَ وَاللَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَهَا عَلَيْهِمْ فَلَوْ كَانُوا مُسْتَحَقِّينَ لِلذِّمِّ لَمَا أَنْزَلَهَا فَتُبِتَ أَنَّ الْحَوَازِيينَ كَانُوا مُؤْمِنِينَ وَكَانَ غَرَضُهُمْ مِنْ هَذَا الطَّلَبِ مَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي الْآيَتَيْنِ مِنْ إِطْمِئْنَانِ الْقَلْبِ وَالْعِلْمِ بِصَدَقِ النَّبِيِّ وَكَوْنِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَيْهَا بَعْدَ نَزُولِهَا وَلِأَجْلِ ذَلِكَ أَيِ لِكَوْنِهِمْ صَادِقِينَ فِي نِيَّاتِهِمْ قَالَ عِيسَى اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْآيَةَ.

**قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْزُلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ**

أَيِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُجِيباً لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنِّي مَرْزُلُهَا، أَيِ إِنِّي مَنَزَّلُ الْمَائِدَةَ عَلَيْكُمْ، فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ، يَعْنِي بَعْدَ إِزَالِهَا، مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ كَذَا وَكَذَا وَقِيلَ فِي مَعْنَاهُ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالُ:

فِي الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٧

المجلد السادس

**أحدها:** المسخ و ذلك لأنهم مسخوا قردة و خنازير بعد كفرهم لم يمسخ أحد خنازير سواهم و لذلك قال فأتى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين.

**ثانيها:** أنه أراد به من عالمي زمانهم.

**ثالثها:** أنه أراد به جنساً من العذاب لا يعذب به أحداً غيرهم وكيف كان

أتما إستحقوا هذا النوع من العذاب بعد نزول المائدة لأنهم كفروا بعد ما رأوا الآية التي هي من أزجر الآيات عن الكفر و لنذكر بعض ما ورد من الأخبار.

فعن عيسى العلوي عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام المائدة التي نزلت على بني إسرائيل مدلاة بسلاسل من ذهب عليها تسعة ألوان و تسعة أرغفة انتهت.

و عن الفضيل بن يسار عن أبي الحسن قال عليه السلام أن الخنازير من قوم عيسى سألو أنزل المائدة فلم يؤمنوا بها فمسخهم الله خنازير انتهى.

و عن عبد الصمد بن بNDAR قال سمعت أبا الحسن يقول كانت الخنازير قوماً من القصارين كذبوا بالمائدة فمسخوا خنازير.

و عن كتاب التوحيد في باب مجلس الرضا عليه السلام مع أصحاب المقالات والأديان قال الرضا للجاثليق سل عما بدا لك قال الجاثليق أخبرني عن حوار عيسى بن مريم كم كان عدتهم و عن علماء الإنجيل كم كانوا قال الرضا عليه السلام على الخير سقطت.

أما الحواريون فكانوا اثني عشر رجلاً و كان أفضلهم و أعلمهم ألوقا و أما علماء النصراني فكانوا ثلاثة رجال، يوحنا الأكبر بأج و يوحنا بقرقيسا و يوحنا الديلمي بزجار و عنده كان ذكر النبي و ذكر أهل بيته و أمته و هو الذي بشر أمة عيسى و بني إسرائيل به انتهى.

و روي عن عمّار بن ياسر عن النبي صلوات الله عليه وآله قال نزلت المائدة خبزاً و لحماً و ذلك إنهم سألو عيسى طعاماً لا ينفذ يأكلون منها فقيل لهم فأنها مقيمة لكم ما لم تخونوا أو تخبأوا أو ترفعوا، فأن فعلوا ذلك عذبتكم قال فما مضي يومهم حتى خبأوا و رفعوا و خانوا.



وعن أبي الحسن موسى عليه السلام أنهم مسحوا خنازير وفي تفسير أهل البيت كانت المائدة تنزل عليهم فيجتمعون عليها و يأكلون منها فرفع الله المائدة بغيهم و مسحوا قرده و خنازير.

وعن كتاب الخصال بأسناده عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسوخ فقال هي ثلاثة عشر، الفيل، و الخنزير الى قوله و أما الخنازير فقوم نصارى سألوا ربهم تعالى إنزال المائدة عليهم فلمّا نزلت عليهم كانوا أشدّ ما كانوا كفراً و أشدّ تكذيباً انتهى و الأحاديث نقلناها عن تفسير نور الثقلين<sup>(١)</sup>.

ونقل القرطبي في تفسيره لها، و قيل وعدهم بالإجابة فلمّا قال لهم، فمن يكفر بعد منكم الآية إستعفوا منها و إستغفروا الله و قالوا لا نريد هذا قاله الحسن ثمّ قال هذا القول خطأ و الصواب أنّها نزلت قال ابن عباس أنّ عيسى ابن مريم قال لبني إسرائيل صوموا ثلاثين يوماً ثمّ سلوا الله ما شئتم يعطيكم، فصاموا ثلاثين يوماً و قالوا يا عيسى لو عملنا لأحدٍ قضيّنا عملنا لأطعمنا، و إنّنا صمنا و جعنا فأدع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة و سبعة أحوات فوضعوا بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم.

**أقول** ذكر القرطبي في تفسيره و السيوطي في الدر المنثور حديثاً في المقام مرفوعاً عن سلمان الفارسي لا بأس بنقله لما فيه من النفع قال في الدر المنثور ما هذا لفظه.

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ في العظمة و أبو بكر الشافعي في فوائده المعروفة بالغيلانيات عن سلمان الفارسي قال لما سأل الحواريّون عيسى ابن مريم كره ذلك جدّاً و قال أقنعوا بما رزقكم الله في الأرض و لا تسألوا المائدة من السماء فإنّها إن نزلت عليكم

كانت آية من ربكم وأتما هلكت ثمود حين سألوها نبئهم آية فإبتلوا بها حتى كان بوارهم فيها فأبوا إلا أن يأتيهم بها فلذلك قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعوا لهم بها قام فألقى عنه الصوف ولبس الشعر الأسود وجبة من شعر وعباءة من شعر ثم توضأ وإغتسل ودخل مصلاه فصلّى ما شاء الله فلما قضى صلاته قام قائماً مستقبلاً القبلة وصّف قدميه حتى إستويا فألصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع بالأصابع ووضع يده اليمنى على يده اليسرى فوق صدره وغضّ بصره وطأطأ رأسه خشوعاً ثم أرسل عينيه بالبكاء فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى إبتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه فلما رأى ذلك دعى الله فقال اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا تكون غطّة منك لنا وآية منك أي علامة منك تكون بيننا وبينك وأرزقنا عليها طعاماً نأكله وأنت خير الرّازقين فأنزل الله عليهم سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وغمامة تحتها وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من فلك السماء تهوى اليهم وعيسى يبكي خوفاً للشروط التي إتخذ الله فيها عليهم أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذاباً لم يعذب به أحد من العالمين وهو يدعو الله في مكانه ويقول إلهي إجعلها رحمة إلهي لا تجعلها عذاباً إلهي كم من عجيبة سألتك فأعطيتني إلهي إجعلنا لك شاكرين إلهي أعوذ بك أن تكون أنزلتها غضباً ورجزاً إلهي إجعلها سلامة وعافية ولا تجعلها فتنة ومثلة.

فما زال يدعو حتى إستقرت السفرة بين يدي عيسى والحواريون وأصحابه حوله يجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها وخرّ عيسى والحواريون لله سجداً شكراً له بما رزقهم من حيث لم يحتسبوا وأراههم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة وأقبلت اليهود ينظرون فرأوا أمراً عجيباً أورثهم كمداً وغماً ثم إنصرفوا بغضب شديد وأقبل عيسى والحواريون وأصحابه حتى جلسوا

حول السُّفرة فإذا عليها منديل مغطًى قال عيسى من أجرؤنا على كشف المنديل عن هذه السُّفرة وأوثقنا بنفسه وأحسننا بلاءً عند ربّه، فليكشف عن هذه الآية حتّى نراها ونحمد ربّنا ونذكر باسمه ونأكل من رزقه الَّذي رزقنا فقال الحواريّون يا روح الله وكلمته أنت أولانا بذلك واحقّ بالكشف منها فقام عيسى فاستانف وضوء جديداً ثمّ دخل مصلاةً فصلّى بذاك ركعات ثمّ بلى طويلاً ودعى الله أن يأذن له في الكشف عنها ويجعل له ولقومه.

فيها بركة ورزقاً ثمّ إنصرف وجلس إلى السُّفرة وتناول المنديل وقال بسم الله خير الزّاقين وكشف عن السُّفرة وإذا عليها سمكة ضخمة مشوية ليس عليها بواسير وليس في جوفها شوك يسيل منه السّمن سيلاً قد نضد حولها بقول من كلّ صنفٍ غير الكراث وعند رأسها خلّ وعند ذنبها ملح وحول البقول خمسة أرغفة على واحدٍ منها زيتون وعلى الآخر ثمرات وعلى الآخر خمس رمانات فقال شمعون رأس الحواريّين لعيسى يا روح الله وكلمته أمن طعام الدّينا هذا أم من طعام الجنّة فقال أما أن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات وتنتهوا عن تنقيير المسائل ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا في سبب هذه الآية فقال شمعون لا والله إسرائيل ما أردت بها سوءاً يا بن الصّديقة فقال عيسى ليس شيء ممّا ترون عليها من طعام الجنّة ولا من طعام الدّنيا إنّما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقدرة الغالبة القاهرة فقال له كن فكان أسرع من طرفه عينٍ فكلوا ممّا سألتهم بسم الله وأحمدوا عليه ربّكم يمدّكم منه ويزدكم فأنّه بديع قادر شاكر فقالوا يا روح الله وكلمته إنّنا نحب أن تربنا آية في هذه الآية فقال عيسى سبحان الله أما إكتفيتم بما رأيتم من هذه الآية حتّى تسئلوا فيها آية أخرى ثمّ أقبل عيسى على السمكة فقال يا سمكة عودي بإذن الله حيّاً كما كنت فأحيّاها الله بقدرته فأضطربت وعادت بإذن الله حيّة طرية كما يتلمّظ الأسد تدور عيناها لها بعيص وعادت عليها بواسير ففزع القوم منها و أنحاسوا فلما رأى عيسى ذلك منهم فقال ما لكم تسألون الآية فإذا أراكموها

رَبِّكُمْ كَرِهْتُمُوهَا مَا أَخَوْفُنِي عَلَيْكُمْ أَنْ تَعَاقِبُوا بِمَا تَصْنَعُوا يَا سَمَكَةَ عَوْدِي بِإِذْنِ اللَّهِ كَمَا كُنْتَ فَعَادْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ مَشْوِيَةً كَمَا كَانَتْ فِي خَلْقَتِهَا الْأُولَى فَقَالُوا لَعِيسَى كُنْ أَنْتَ يَا رُوحَ اللَّهِ الَّذِي تَبْدَأُ بِالْأَكْلِ مِنْهَا ثُمَّ نَحْنُ بَعْدَ فَقَالَ مُعَاذُ اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ يَبْدَأُ بِالْأَكْلِ مَنْ طَلَبَهَا فَلَمَّا رَأَى الْخَوَارِيُونَ وَأَصْحَابَهُمْ إِمْتِنَاعَ نَبِيِّهِمْ مِنْهَا خَافُوا أَنْ يَكُونَ نَزُولُهَا سَخِطَةً وَفِي أَكْلِهَا مِثْلَةُ فَتْحَامِوهَا فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عِيسَى دَعَى لَهَا الْفُقَرَاءَ وَالزَّمَنِي وَقَالَ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَدَعْوَةُ نَبِيِّكُمْ وَاحْمَدُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْزَلَهَا لَكُمْ يَكُونُ مَهْنَأُهَا لَكُمْ وَعَقُوبَتُهَا عَلَى غَيْرِكُمْ وَأَفْتَتَحُوا كُلَّكُمْ بِسَمِ اللَّهِ وَأَخْتَمُوهُ بِحَمْدِ اللَّهِ فَفَعَلُوا فَأَكَلَ مِنْهَا أَلْفٌ وَثَلَاثُمِائَةٌ إِنْسَانٌ بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ يَصْدُرُونَ عَنْهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ شَبْعَانٌ يَتَجَشَّئِي وَنَظَرَ عِيسَى وَالْحَوَارِيُّونَ فَإِذَا مَا عَلَيْهَا كَهَيْئَةِ إِذْ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ لَمْ يَنْتَقِصْ مِنْهُ شَيْءٌ ثُمَّ أَنَّهُا رَفَعَتْ إِلَى السَّمَاءِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ فَأَسْتَغْنَى كُلُّ فَقِيرٍ أَكَلَ مِنْهَا وَبَرِي كُلُّ زَمَنٍ مِنْهُمْ أَكَلَ مِنْهَا فَلَمْ يَزَالُوا أَغْنِيَاءَ صَمَاحًا حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَبَذَمَ الْخَوَارِيُونَ وَأَصْحَابَهُمُ الَّذِينَ أَبَوْا أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا نَذَامَةً سَالَتْ مِنْهَا أَشْفَارُهُمْ وَبَقِيَتْ حَسْرَتُهَا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْمَمَاتِ قَالَ فَكَانَتْ الْمَائِدَةُ إِذَا نَزَلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ أَقْبَلَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ يَسْعَوْنَ يَزَاحِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا الْأَغْنِيَاءَ وَالْفُقَرَاءَ وَالنِّسَاءَ وَالصِّغَارَ وَالْكِبَارَ وَالْأَصْمَاءَ وَالْمَرْضَى يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَلَمَّا رَأَى عِيسَى ذَلِكَ جَعَلَهَا نَوْبًا بَيْنَهُمْ فَكَانَتْ تَنْزِلُ يَوْمًا وَلَا تَنْزِلُ يَوْمًا فَلَبِثُوا فِي ذَلِكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ عَنَّا عِنْدَ إِرْتِفَاعِ الصُّحَى فَلَا تَزَالُ مَوْضُوعَةٌ يُؤْكَلُ مِنْهَا حَتَّى إِذَا قَالُوا إِرْتَفَعَتْ عَنْهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ إِلَى جَوْ السَّمَاءِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى ظِلِّهَا فِي الْأَرْضِ حَتَّى تَوَارَى عَنْهُمْ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى أَنْ إِجْعَلْ رِزْقِي فِي الْمَائِدَةِ لِلْيَتَامَى وَالْفُقَرَاءَ وَالزَّمَنِي دُونَ الْأَغْنِيَاءِ مِنَ النَّاسِ فَلَمَّا فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ إِرْتَابَ بِهَا الْأَغْنِيَاءَ وَغَمَصُوا ذَلِكَ حَتَّى شَكُّوا فِيهَا فِي أَنْفُسِهِمْ وَشَكُّوا فِيهَا النَّاسُ وَأَذَاعُوا فِي أَمْرِهَا الْقَبِيحِ وَالْمُنْكَرِ وَأَدْرَكَ الشَّيْطَانُ مِنْهُمْ حَاجَتَهُ وَقَذَفَ وَسْوَاسَهُ فِي قُلُوبِ الْمَرْتَابِينَ حَتَّى قَالُوا لِعِيسَى أَخْبَرْنَا عَنْ الْمَائِدَةِ

ونزولها من السماء حقّ فأثّنه قد أرتاب بها بشر منّا كثير قال عيسى كذبتم والله المسيح طلبتم المائدة الى نبيكم أن يطلبها لكم الى ربكم فلمّا أن فعل وأنزلها الله عليكم رحمةً ورزقاً وأراكم فيها الآيات والعبر كذبتم بها وشككتم فيها فأبشروا بالعذاب فأثّنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله وأوحى الله الى عيسى إني أخذ المكذّبين بشرطي فأني معذبّ منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين فلمّا أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع (واذ نسائهم آمنين فلمّا كان من آخر الليل مسخّهم الله خنازير وأصبحوا يتتبعون الأقدار في الكناسات إنتهى ما ذكره في الدر المنثور.

وقال القرطبي بعد نقله ما نقلناه مع أدنى تعبير في الألفاظ فأصبح منهم ثلاثة وثلاثون خنزيراً يأكلون العذرة يطلبونها بالأكباء وهي الكناسة بعد ما كانوا يأكلون الطّعام الطّيب ويناو من على الفرش اللينة فلمّا رأى النّاس ذلك إجتمعوا على عيسى يبيكون وجئت الخنازير فجنّوا على ركبهم قدام عيسى فجعلوا يبيكون وتقطر دموعهم فعرفهم عيسى فجعل يقول الست بفلان فيؤتى برأسه ولا يستطيع الكلام فلبثوا كذلك سبعة أيّام ومنهم من يقول أربعة أيّام ثمّ دعى الله عيسى أن يقبض أرواحهم فأصبحوا لا يدري أين ذهبوا، الأرض إبتلعتهم، أو ما صنعوا إنتهى.

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَآمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قِيلَ هَذِهِ آيَةٌ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا كَأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ<sup>(١)</sup> ثمّ قال، وذلك، يقول يا عيسى إذكر نعمتي، وإذ يقول له ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ.

**الثاني:** يمكن أن يكون لمّارفع الله عيسى اليه قال له ذلك فيكون المقال ماضياً.

**الثالث:** أن، إذ، استعملت بمعنى، إذا، فيصح أن يكون القول من الله يوم

القيامة، و أما لفظ، قال، فكثيراً ما يستعمل في معنى، يقول، مجازاً قال الله تعالى: **وَ نَادَىٰ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ** والمراد، ينادي، و عليه فالمعنى و إذ يقول الله يا عيسى وكيف كان فهو تقرير في صورة الإستفهام و المراد بذلك تقرير و تهديد من إدعى ذلك لأنه تعالى كان عالماً بذلك هل كان أو لم يكن فهو إستفهام على سبيل الإنكار.

إن قلت إذا كان الله تعالى عالماً بأن عيسى لم يقل ذلك فلم خاطبه به فإن كان الغرض توبيخ النصارى و تقريرهم فلقابل أن يقول أن أحداً من النصارى لم يذهب الى القول بالهية عيسى و مريم من دون الله و أنما قالوا بالأب و الأبن و الروح، و معلوم أن المراد بالأب هو الله.

و الجواب أن النصارى يعتقدون أن خالق المعجزات التي ظهرت على يد عيسى و مريم، هو عيسى و مريم دون الله تعالى و إذا كان كذلك فصح ما حكاه الله تعالى عنهم من القول بنفي آلهية الخالق و هو الله. أن قلت أن النصارى لم يتخذوا مريم إلهاً فيما نعلم و أنما قالوا بالهية عيسى فقط فكيف قال الله ذلك فيهم.

قلت أنما هو من الأخذ بالآزم و ذلك لقولهم أنها أي، مريم، لم تلد بشراً و أنما ولدت إلهاً و من ولدت إلهاً فهو أحق بأن يكون إلهاً فلازم القول بأنها ولدت إلهاً هو القول بأنها إلهة و هو المطلوب.

**قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ**

أي قال عيسى في الجواب سبحانك، أي أنك منزّه عن الشريك و عن كل نقيص و شين، **مَا يَكُونُ لِي** أي ليس كذلك أن أقول ما ليس لي بحقّ و المقصود أن الألوهية مختصة بك و حقّ لك لا لغيرك كائناً من كان و المخلوق فقير ضعيف و إذا كان كذلك فلا ينبغي أن ادعى ما ليس لي بحقّ: **إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ** والمعنى إن كنت قلت بهذه المقالة فقد علمته لا محالة و ذلك أنك تعلم ما في نفسي ولا

يخفى عليك شيء مما فيها وأما أنا فلا أعلم ما في نفسك، وذلك إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ لَا غَيْرَكَ فَأَنْ تَقْدِيمِ الْمَسْنَدِ إِلَيْهِ يَفِيدُ الْحَصْرَ: مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ أَيُّ مَا قُلْتُ لِلنَّصَارَى إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنْ تَبْلِيغِ أَمْرِ الرِّسَالَةِ وَأَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَلَا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ فَهَذَا هُوَ الَّذِي قَتَلَهُ لَهُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ عَلَى النَّصَارَى شَهِيداً شَاهِداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ حَيًّا فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ وَالْحَافِظَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ لَا فِي هَذَا الْمورد فقط بل في جميع الموارد والمشاهد ظاهرها وباطنها سرها وعلايتها فَأَنَّ الْعَلَّةَ حَاوِيَةً لَجَمِيعِ مَرَاتِبِ الْمَعْلُولِ ظاهراً وباطناً وهو ظاهر لا خفاء فيه.

إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ  
والمعنى إن تعذب هؤلاء الكفار على سوء عقيدتهم وقبح مقالتهم فهو حق لك لأنك خلقتهم وأوجدتهم والخالق يحكم في مخلوقه بما يشاء والعبد وما في يده كان لمولاه.

قال الرّازي في المقام معنى الآية ظاهر وفيه سؤال وهو أنه كيف جاز لعيسى عليه السلام أن يقول وإن تغفر لهم، والله لا يغفر الشّرك.

ثم قال والجواب عنه من وجوه:  
الأول: أنه تعالى: أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ علم أنّ قوماً من النصارى حكوا هذا الكلام عنه والحاكي لهذا الكفر عنه لا يكون كافراً بل يكون مذنباً حيث كذب في هذه الحكاية وغفران الذنب جائز فلهذا المعنى طلب المغفرة من الله تعالى انتهى.

ولقائل أن يقول ليست الآية دالة على الحكاية عنهم ولا على أنّ عيسى طلب المغفرة من الله لهم، بل قال، إن تغفر لهم على سبيل التعليل والشرط وهو غير الطلب فلو قال قائل إن تضرب زيداً أو ترحم زيداً كذا وكذا ليس معناه طلب الضرب أو طلب الرحمة وهو واضح، ثم قال.

**الثاني:** أنه يجوز على مذهبنا من الله تعالى أن يدخل الكفار الجنة وأن يدخل الزهاد والعباد النار لأن الملك ملكه ولا إعتراض لأحد عليه فذكر عيسى هذا الكلام ومقصوده منه تفويض الأمور كلها إلى الله وترك التعرض والإعتراض بالكلية ولذلك ختم الكلام بقوله: **فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** يعني أنت قادر على ما تريد حكيم في كل ما تفعل لا إعتراض لأحد عليك فمن أنا والخوض في أحوال الرّبوبية وقوله أن الله لا يغفر الشرك فنقول أن غفرانه جائز عندنا وعند جمهور البصريين من المعتزلة قالوا لأن العقاب حقّ الله على المذنب وفي إسقاطه منفعة للمذنب وليس في إسقاطه على الله مضرة فوجب أن يكون حسناً بل دلّ الدليل السّمعي في شرعنا على أنه لا يقع فلعل هذا الدليل السّمعي ما كان موجوداً في شرع عيسى عليه السلام انتهى.

نقول في جوابه أما قوله أنه يجوز على مذهبنا كذا وكذا لأن الملك ملكه إعتراض لأحد عليه، فهو أشبه شيء بالسفسطة أو المغالطة إذ لا كلام لأحد في أن الملك ملكه ولكن الكلام في أنه هل يجوز عقلاً أن يظلم على عباده أو لا يجوز فإن قلنا يجوز فهو كفر لأن الظلم قبيح والظالم ملعون مطرود فمن نسب الظلم إليه تعالى كافراً ملحدّاً بلا كلام ومن المعلوم أن ادخال الزهاد والعباد النار، فهو من أقبح الظلم وأشنعه لأنه يوجب تضييع حقهم ومن ضيّع حق غيره فقد ظلم عليه.

وأما قوله فذكر عيسى هذا الكلام ومقصوده منه تفويض الأمور كلها إلى الله، فهو أيضاً مغالطة وسفسطة لأن تفويض الأمور إلى الله ليس معناه تجويز الظلم في حقه وبعبارة أخرى ليس معناه أن شاء ظلم وأن شاء عدل بل معناه أنه تعالى عالم بمصالح العباد فلو فوّض العبد أمره إليه تعالى بأن قال أفوّض أمري إلى الله أن الله بصير بالعباد، فهو أولى وأحسن وأنفع للعبد في الدارين وهذا أمر معقول لا كلام لأحد فيه وأين هذا مما ذهب إليه القائلون بالجبر أن المراد بتفويض الأمر إليه تجويز الظلم والقبيح في حقه.



وَأَمَّا قَوْلُهُ وَلِذَلِكَ خَتَمَ الْكَلَامَ بِقَوْلِهِ: فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَعْنِي أَنْتَ قَادِرٌ عَلَى مَا تَرِيدُ إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ.

فنقول في جوابه ليس لنا بحث في القدرة فإنه تعالى قادر على كل شيء بل البحث في متعلق القدرة بمعنى أنه هل يجوز أن تتعلّق القدرة بالظلم أو لا يجوز وهو أمر آخر فإن القدرة شيء وتعلّقها بالأشياء شيء آخر وأن شئت قلت أنه قادر على كل شيء لكن لا يريد كل ما يقدر عليه بل يريد الخيرات والحسنات ولا يريد القبائح ألا ترى أنه تعالى قادر على الكذب بمقتضى عموم قدرته ولكنه لا يكذب ولا يريده أصلاً.

وَأَمَّا قَوْلُهُ فَمَنْ أَنَا وَالْخَوْضُ فِي أَحْوَالِ الرِّبَوِيَّةِ، فالجواب عنه أنّ ما نحن فيه ليس من الخوض في أحوال الربوية بل هو من قبيل الخوض في صفاته و أنه تعالى هل يتّصف بالظلم أم لا والممنوع هو الخوض في ذاته تعالى لا في فهم صفاته.

وَأَمَّا جَوَابُهُ الثَّالِثُ والرَّابِعُ فَقَدْ أَعْرَضْنَا عَنِ التَّعَرُّضِ لَهُ لَوْ هُنَا مَضَافاً إِلَى أَنَّهُ يَعْلَمُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أَنْ قُلْتُ: فَمَا مَعْنَى الْآيَةِ.

قلت: معنى الآية واضح وهو إن تعذبهم على كفرهم فأنهم عبادك المستحقون له وإن تغفر لهم فأنهم محتاجون إلى عفوك فإنك أنت العزيز الحكيم وعليه فالتعذيب على الاستحقاق والمغفرة على العفو دون الاستحقاق وكلاهما في محله والله تعالى مختار فيهما فقول الرازي وأمثاله كيف جاز لعيسى أن يقول تغفر لهم والله لا يغفر الشّرك، كلام باطل لا يساعده العقل ولا النقل.

أَمَّا الْعَقْلُ فَلَا تَهْ أَيْ دَلِيلٌ قَامَ مِنَ الْعَقْلِ عِنْدَهُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ الشُّرْكَ بَلِ الْعَقْلُ يَحْكُمُ بِأَنَّ اللَّهَ مُخْتَارٌ فِي الْمَغْفِرَةِ وَعَدَمُهَا فَانْ عَفَى فَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ وَأَنْ عَذَبَ فَلَا اسْتِحْقَاقَ الْعَبْدِ ذَلِكَ وَلَيْسَ رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ.

أَمَّا النَّقْلُ وَهُوَ قَوْلُهُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ<sup>(١)</sup> وغيرها من الآيات فهو يدل على أَنَّ الشَّرْكَ ذَنْبٌ عَظِيمٌ بَحِثْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ عَنْهُ وَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْعَفْوِ عَنْهُ أَوْ إِنْ عَفَى عَنْهُ فَهُوَ قَبِيحٌ وَظَلَمٌ هَذَا مَا خَطَرَ بِبَالِي فِي تَفْسِيرِ آيَةِ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ:

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

المراد باليوم هو يوم القيامة والمعنى أَنَّ صدقهم في الدُّنْيَا يَنْفَعُهُمْ فِي الْقِيَامَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُوَ يَوْمُ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالصَّدْقِ هُوَ الصَّدْقُ مُقَابِلَ الْكَذْبِ فَقَطْ بَلْ هُوَ أَعَمُّ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ فَمَنْ صَدَقَ فِي قَوْلِهِ وَطَابِقَ عَمَلُهُ قَوْلَهُ فَهُوَ الصَّادِقُ حَقًّا وَذَهَبَ الْمُفَسِّرُونَ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالصَّدْقِ هُوَ الصَّدْقُ فِي الْقَوْلِ وَأَمَّا الْعَمَلُ فَهُوَ شَيْءٌ آخَرُ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ قَرَأَ جَمَاهُورُ الْقُرَّاءِ، يَوْمَ، بِالرَّفْعِ وَقَرَأَ نَافِعٌ، بِالنَّصْبِ فَمَنْ قَرَأَ بِالرَّفْعِ جَعَلَهُ خَبَرَ الْمَبْتَدَأِ الَّذِي هُوَ، هَذَا، وَأَضَافَ يَوْمًا، إِلَى يَنْفَعُ وَالْجُمْلَةُ هِيَ مِنَ الْمَبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ بِأَنَّهُ مَفْعُولُ الْقَوْلِ كَمَا تَقُولُ قَالَ زَيْدٌ عَمْرٌ أَخُوكَ، وَمِنْ نَصَّبَ عَلَى أَنَّهُ ظَرْفٌ، لِقَالِ وَالتَّقْدِيرُ قَالَ اللَّهُ هَذَا الْقَوْلُ لِعِيسَى يَوْمَ يَنْفَعُ، وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى عَلَى الْحِكَايَةِ وَتَقْدِيرُهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ أَيُّ هَذَا الَّذِي إِقْتَصْنَا بِهِ يَقَعُ أَوْ يَحْدُثُ يَوْمَ يَنْفَعُ، قَالَ الْقُرَّاءُ، يَوْمَ، مَنْصُوبٌ لِأَنَّهُ مَضَافٌ إِلَى الْفِعْلِ وَهُوَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِمَنْزِلَةِ، يَوْمَئِذٍ، مَبْنِيٌّ عَلَى الْفَتْحِ فِي كُلِّ حَالٍ. قَالَ الشَّاعِرُ:

على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت أَلَمْ أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعْ

لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ صَدَقَ الصَّادِقِينَ فِي الدُّنْيَا يَنْفَعُهُمْ فِي الْقِيَامَةِ شَرَحَ كَيْفِيَّةَ ذَلِكَ النَّفْعِ وَهُوَ الثَّوَابُ فَقَالَ، لَهُمْ أَيْ لِلصَّادِقِينَ فِي الدُّنْيَا، جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا فَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى النَّفْعِ الْخَالِصِ عَنِ الْغُيُومِ وَالْهَمُومِ عَلَى سَبِيلِ الدَّوَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أَيِ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الصَّادِقِينَ لَصَدَقَهُمْ وَرَضُوا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى لَمَّا أَتَاهُمْ مِنَ الثَّوَابِ الْجَمِيلِ عَلَى صَدَقَتِهِمْ وَأَيِ فَوْزٍ أَعْظَمَ وَأَحْسَنَ مِنْ هَذَا لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ قَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذَا جَوَابٌ عَنْ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ مِنْ يَعْطِيهِمْ ذَلِكَ الْفَوْزَ الْعَظِيمَ، فَقِيلَ لَهُ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْآيَةُ.

**أقول في الآية مسائل:**

**الأولى:** قَالَ: لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَقُلْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَهُ مِثْلًا فَقَدَّمَ الْمَسْنَدَ إِلَيْهِ وَهُوَ، اللَّهُ، لِإِفَادَةِ الْحَصْرِ وَذَلِكَ لِأَنَّ تَقْدِيمَ الْمَسْنَدِ إِلَيْهِ يُفِيدُ الْحَصْرَ، قَالَ تَعَالَى: **إِنَّكَ نَعْبُدُكَ وَلَمْ يَقُلْ نَعْبُدُكَ، وَقَالَ: وَإِنَّكَ نَسْتَعِينُكَ وَلَمْ يَقُلْ نَسْتَعِينُكَ** لَمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ إِفَادَةِ الْحَصْرِ فَالْمَعْنَى أَنَّ مَلِكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِلَّهِ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْحِصَارِ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْمَلِكِ.

**ثانيها:** قَوْلُهُ **وَمَا فِيهِنَّ** أَتَى بِكَلِمَةِ، مَا، وَلَمْ يَقُلْ وَمِنْ فِيهِنَّ، لِأَنَّ كَلِمَةَ، مَنْ، لِدَوِي الْعُقُولِ، وَمَا، أَعْمٌ، فَغَلَبَ غَيْرَ الْعُقَلَاءِ عَلَى الْعُقَلَاءِ مُشْعَرًا بِأَنَّ الْمَخْلُوقَ كَائِنًا مَا كَانَ مُسَخَّرٌ فِي قَبْضَةِ قُدْرَتِهِ سِوَاكَانٍ مِنْ دَوِي الْعُقُولِ مِنْ غَيْرِهِمْ.

**ثالثها:** قَوْلُهُ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى عُمُومِ قُدْرَتِهِ وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَقَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِيهَا مَضَى فِي إِثْبَاتِ عُمُومِ الْقُدْرَةِ لَهُ تَعَالَى وَقُلْنَا أَنَّهُ تَعَالَى لَوْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى بَعْضِ الْأَشْيَاءِ مِثْلًا فَهُوَ عَاجِزٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ وَكُلُّ عَاجِزٍ ضَعِيفٌ وَكُلُّ ضَعِيفٍ مُمْكِنٌ الْوُجُودِ وَالْوَاجِبُ لَا يَكُونُ مُمْكِنًا فَثَبَّتَ الْمَطْلُوبَ.

## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ  
جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ  
يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ  
أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَ  
هُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ  
سِرِّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا  
تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا  
مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ  
فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٥)

◀ اللغة

يَعْدِلُونَ أي يشركون.

طين، الطين التراب المختلط بالماء.

قَضَى، القضاء الحكم.

أَجَلًا بفتح الجيم المدّة المضروبة للشئ.  
تَمْتَرُونَ، الإِمْتِراء الشك.  
أَيَّة، الآية العلامة.

## ◀ الإعراب

بِرَبِّهِمْ الباء تتعلّق بيعدلون أي الذين كفروا يعدلون برّبهم غيره و الذين كفروا مبتدأ و يعدلون، الخبر، والمفعول محذوف خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ من طينٍ متعلّق، بخلقٍ و، من، هنا لإبتداء الغاية ويجوز أن تكون حالاً أي خلقي أصلكم كائناً من طينٍ وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى، مبتدأ موصوف و عِنْدَهُ الخبر هُوَ اللَّهُ مبتدأ و خبر في السَّمَوَاتِ فيه وجهان:

أحدهما: يتعلّق بيعلم، أي يعلم سرّكم و جهركم في السَّمَوَاتِ و الأرض فهما طرفان للعلم، فيعلم على هذا خبر ثانٍ.  
ثانيهما: أن يتعلّق، في، بإسم الله لأنّه بمعنى المعبود أي وهو المعبود في السَّمَوَاتِ و الأرض.

مِنْ أَيَّةٍ موضعه رفع، بتأتى مِنْ أَيْنَاتٍ في موضع جرّ صفة لأيةٍ أو في موضع رفع على موضع أية لَمَّا جَاءَهُمْ لَمَّا ظرف لكذبوا.

## ◀ التفسير

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَ النُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ في الآية مسائل:

الأولى: قوله أَلْحَمْدُ لِلَّهِ قد مرّ الكلام في معنى الحمد في أوّل الفاتحة عند قوله: أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ و قلنا هناك أنّ الحمد هو الثناء بالجميل على قصد التعظيم و التبجيل للممدوح سواء فيه النعمة و غيرها و المدح أعمّ منه لأنّه يحصل للعاقل و لغير العاقل كما يقال مدحت اللؤلؤ على صفاته و لا يقال

حمدته كذلك فالحمد أخص من المدح، وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيم المنعم لكونه منعماً سواء كان باللسان أو بالجوارح وبالأركان فهو أخص من الحمد فالحمد أعم من الشكر من جهة المتعلق وأخص من جهة المورد والشكر بالعكس وفي الحديث، الحمد رأس الشكر، وأما جعله رأس الشكر لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على موليتها شأبع لها وأدل على مكانها من الاعتقاد لخفاء عمل القلب وما في عمل الجوارح من الإحتمال بخلاف عمل اللسان الذي هو النطق المفصح عن كل خفي كذا قيل وكيف كان أنما إختار الله تعالى الحمد على غيره من المدح والشكر لأن جميع أقسام الحمد والثناء والتعظيم ليس إلا لله سبحانه على ما مرّ الكلام فيه مفصلاً في سورة الفاتحة وفي تقديم الحمد على الله حيث قال الحمد لله ولم يقل لله الحمد إشعار باختصاصه له تعالى كما تقول الدار لزيد أي أن الدار مخصوص به.

وقال بعضهم أن اللام في لله، للإختصاص وفي الحمد للجنس أي جنس الحمد مخصوص به تعالى وقيل للإستغراق أي كل الحمد مخصوص به.

**الثانية:** قوله **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ** الخلق أصله التقدير المستقيم يستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا إحتذاء وقد يستعمل في إيجاد الشيء من شيء.

**فَمِنَ الْأَوَّلِ** قوله: **بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** أي أبدءهما من غير أصل ولا إحتذاء.

من الثاني: قوله **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ** (١) وقوله: **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ** إذا عرفت هذا فنقول قوله: **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ** من قبيل الأول بدليل قوله في موضع آخر: **بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**.

**فَالثَّانِي:** يفسر الأول.

**الثالثة:** قوله: **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**.

إعلم أن، جعل لفظ عام في الأفعال كلها وهو أعم من فعل و صنع و سائر أخواتها و يتصرف على خمسة أوجه.

**الأول:** يجري مجرى صار و طفق فلا يتعدى نحو جعل زيد يقول كذا.

**الثاني:** يجري مجرى أوجد فيتعدى الى مفعول واحد و منه هذه الآية.

**الثالث:** في ايجاد شيء من شيء و تكوينه منه.

قال الله تعالى: **جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا** <sup>(٣)</sup>.

**الرابع:** في تصيير الشيء على حالة دون حالة.

قال الله تعالى: **الَّذِي جَعَلَ لَكُم الْأَرْضَ فَرَاشًا** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا** <sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** <sup>(٦)</sup>.

**الخامس:** الحكم بالشيء على الشيء حقاً كان أو باطلاً.

**أما الحق** فنحو قوله تعالى: **إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** <sup>(٧)</sup>.

**أما الباطل** فنحو قوله تعالى: **وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعَامِ**

**نَصِيبًا** <sup>(٨)</sup>.

قال الله تعالى: **وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ** <sup>(٩)</sup>.

قال الله تعالى: **الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ** <sup>(١٠)</sup>.

اذعرفت هذه الأقسام من الجعل.

١- النحل = ٨١

٢- البقرة = ٢٢

٣- الزخرف = ٣

٤- الانعام = ١٣٦

٥- الحجر = ٩١

١- النحل = ٧١

٢- الزخرف = ١٠

٣- النحل = ٨١

٤- القصص = ٧

٥- النحل = ٥٧

فَاعْلَمْ أَنْ قَوْلَهُ: **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ** في هذه الآية دخل في القسم الثاني وهو الذي يتعدى الى مفعول واحد.

ثم أن الجعل في اصطلاح الفلاسفة على قسمين: بسيط ومركب. فالجعل البسيط ما كان متعلقة الوجود بالنفس والجعل المركب أو المؤلف ما كان متعلقة الوجود بالرباط فالأول جعل الشئ وإفاضة نفس الشئ وبلسان الأدباء الجعل المتعدي لواحد.

**الثاني:** جعل الشئ شيئاً والجعل المتعدي لأثنين والى هذا المعنى يشير كلام ابن سينا حيث قال ما جعل الله المشرق مشمساً بل أوجده، يعني أنه مجعول بالجعل البسيط دون المركب.

إذا عرفت هذا فقولهُ: **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ** داخل في البسيط لأن الله تعالى لم يجعل النور نوراً والظلمة ظلمة بل أوجدهما وذلك لأن ثبوت الشئ لنفسه ضروري هذا أن قلنا أن الظلمة أمر وجودي مجعول وأما أن قلنا أنها عدمية أي أنها عبارة عن عدم النور فلا يتعلق الجعل بها مستقلاً لأن عدم لا يحتاج الى العلة، ثم أن النور على ما عرفوه هو الظاهر بالذات والمظهر للغير كما أن الوجود أيضاً كذلك ولذلك عبّر الإشرافيون عن واجب الوجود بنور الأنوار، والظلمة ضد النور ولذلك لا يجتمعان معاً وكل واحد منهما حسبي وعقلي فالنور الحسبي كنور الشمس مثلاً والعقلي كنور العلم والإيمان، والظلمة الحسية كظلمة الليل والعقلية كظلمة الجهل والكفر وقد وردت الآيات بالمعنيين فقولهُ تعالى: **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** <sup>(١)</sup> إشارة الى القسم العقلي أي من الجهل الى العلم أو من الكفر الى الإيمان وقوله في المقام جعل الظلمات والنور.

من الثاني أعني به المحسوس منهما بقرينة قوله: **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ** فالمعنى جعل الظلمات والنور فيهما كما هو محسوس لجميع



الخلق، وقَدَّم الظُّلْمة على النُّور لأنَّ الظُّلْمة قبل النُّور كما أنَّ العدم قبل الوجود وكلٌّ ممكنٌ مسبوق بالعدم لا محالة ولذلك عبَّروا عن عالم الإمكان بالمحدثات وقالوا كلٌّ ممكنٌ حادث وبالعكس.

فقوله: **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ** إشارة إلى أنَّه تعالى يستحق المدح على ما أنعم عليكم وقد ثبت أنَّ نعم الله غير متناهية قال الله تعالى: **وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا** <sup>(١)</sup> و تخصيص السموات والأرض والنور والظُّلْمة، بالذِّكر من بين النعم لأنَّها من النعم المحسوسة التي يراها كلُّ أحد النَّاس، فمن لم يحمد الله على هذه النعم التي يراها ويشاهدها بالحواس والعيان فكيف يحمد الله على النعم العقلية الخفية على أكثر النَّاس ولأجل هذه الدِّقِقة قال تعالى: **ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** أي يشركون به تعالى وذلك لأنَّ الكفار لم يتفكروا في خلق السموات والأرض والنور والظُّلْمة حقَّ التفكر.

وتوضيحه أنَّ هذه النعم قد حدثت بعد أن كانت معدومة وهذا ممَّا لاشكَّ فيه وكلُّ حادث لا بدَّ له من محدث وذا أيضاً مسلّم لا خلاف فيه، ثمَّ أنَّ المحدث لها موجودٌ لا محالة لأنَّ المعدوم لا يؤثِّر وإذا كان موجوداً فهو أمَّا واجب أو ممكن، لإنحصار الموجود فيهما.

لا سبيل إلى الثاني وهو أن يكون المحدث ممكناً لأنَّه أي المحدث الممكن أيضاً محتاج إلى المؤثِّر في وجوده، لأنَّ ملاك الحاجة هو الإمكان وهو حاصل على الفرض ويتسلسل فلا محالة ينتهي الأمر إلى محدث لا يكون ممكناً الواجب لا غير فثبت وتحقَّق أنَّ المحدث في الحوادث هو واجب الوجود وهو المطلوب.

وحيث أنَّ الكفار لم يتفكروا في هذه النعم عدلوا عن الحقِّ وأشركوا به وما أقبح بالإنسان الذي يدَّعي العلم والعقل أن يكون كذلك ومعنى قوله:

يَعْدِلُونَ أَيِ يَجْعَلُونَ لَهُ عَدِيلاً، فصار كقوله، هم به مشركون، وقيل يعدلون بأفعاله عنه وينسبونها إلى غيره، وقيل يعدلون بعبادتهم عنه تعالى قال الله تعالى: بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ.

أقول ويصح أن يكون من قولهم عدل عن الحق إذا جار عدولاً فالمعنى أنهم يعدلون به جماداً لا يقدر على شيء أصلاً وهو واضح.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ في الآية مسائل:

الأولى: قوله هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ والمقصود خلق أباكم آدم من طين وأنتم من ذريته فهو بمنزلة الأصل لكم فلما كان الأصل خلق من طين جاز أن يقول خلقكم من طين وأنما قلنا ذلك لأن أولاد آدم خلقوا من نطفة أمشاج: قال الله تعالى: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ<sup>(٣)</sup>.

وأمثال ذلك من الآيات الدالة بظاهرها على أن الإنسان خلق من نطفة فهذه الآيات ناظرة إلى الفروع وقوله: خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ناظر إلى الأصل وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ<sup>(٤)</sup> حيث قدم التراب على النطفة لأن الأصل مقدم على الفرع فقوله هو الذي خلقكم من تراب ناظر إلى الأصل أي خلق آبائكم من التراب وقوله: ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ناظر إلى الفرع وهو أولاد آدم، ثم أن الطين قد مر تفسيره سابقاً وقلنا أنه عبارة عن التراب المختلط بالماء وهذه الكيفية في الخلقة ناظرة إلى جسد آدم أعني به بدنه العنصري وأما روح آدم فشيء آخر وسيأتي الكلام فيه. المسئلة

**الثانية:** قوله **ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا** الأجل المدّة المضروبة للعمر وفي قوله: **قَضَىٰ** إشارة الى أن تعيين الأجل بقضاء الله وقدره قال الرّاعب الأجل المدّة المضروبة للشئ ومنه قولهم دينه مؤجل إنتهى.  
وأما أنّه بقضاء الله وقدره:

قال الله تعالى: **وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا** <sup>(٣)</sup>.

وفي الآيتان بكلمة، ثم، التي تفيد التراضي إشعار بأن تعيين الأجل بعد الخلق.

**المسئلة الثالثة:** قوله **وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى** عنده اختلفوا في معناه، كتب للمرء أجلاً في الدنيا وحكم بأنه أجل لنا وهو الأجل الذي يحيى فيه أهل الدنيا الى أن يموتوا وهو أوقات حياتهم لأنّ أجل الحياة هو وقت الحياة وأجل الموت هو وقت الموت **وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى** عنده يعني أجالكم في الآخرة وذلك أجل دائم ممدود لا أخر له وأما قال له، مسمّى عنده، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ في السماء وهو الموضع الذي لا يملك فيه الحكم على الخلق سواء، وقال الزجاج، أحد الأجلين أجل الحياة وهو الوقت الذي تحدث فيه الحياة ويحيون فيه **وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى** عنده يعني أمر الساعة والبعث وبه قال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة.

وفي المقام قول ثالث وهو أنّ قوله: **قَضَىٰ أَجَلًا** يعني أجل من مضى من الخلق **وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى** عنده أجل الباقيين.

قال في التبيان بعد نقله الأقوال المذكورة ما هذا لفظه:

وَالَّذِي نَقُولُهُ أَنَّ الْأَجَلَ هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي تَحْدُثُ فِيهِ الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ وَلَا يَكُونُ الْمَقْدَارُ أَجْلاً كَمَا لَا يَجُورُ أَنْ يَكُونَ مُلْكاً فَأَنْ سَمَّيَ مَا يَعْلَمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَقْتُلْ فِيهِ لِعَاشَ إِلَيْهِ، أَجْلاً، كَانَ ذَلِكَ مُجَازاً لِأَنَّ الْحَيَّ لَا يَعِيشُ إِلَيْهِ وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ حَالِ الْمَقْتُولِ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَقْتُلْهُ الْقَاتِلُ لِعَاشَ إِلَى وَقْتٍ آخَرَ وَكَذَلِكَ مَا رَوَى أَنَّ الصَّدَقَةَ وَصَلَةَ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْأَجْلِ وَمَا رَوَى فِي قِصَّةِ قَوْمِ يُونُسَ وَأَنَّ اللَّهَ صَرَفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَزَادَ فِي أَجَالِهِمْ لَا يَمْنَعُ مِنْهُ مَانِعٌ وَأَمَّا مَنْعُ مِنَ التَّسْمِيَةِ لَمَّا قُلْنَا هِيَ كَلَامُهُ.

أَقُولُ نَقْلَ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ مِضَافاً إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ أَقْوَالاً لَا بِأَسْ بِذِكْرِهَا.

مِنْهَا، أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَجْلِ الْأَوَّلُ هُوَ النَّوْمُ، وَبِالثَّانِي الْمَوْتُ. مِنْهَا، أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَوَّلِ مَا يَنْقُضُ مِنْ عَمَرٍ كُلِّ أَحَدٍ وَبِالثَّانِي مَقْدَارُ مَا بَقِيَ مِنْ عَمَرٍ كُلِّ أَحَدٍ.

مِنْهَا، مَا حَكَاهُ عَنْ حُكَمَاءِ الْإِسْلَامِ وَهُوَ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَجْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الْأَجَالُ الطَّيِّبَةُ.

الثَّانِي: الْأَجَالُ الْإِخْتِرَامِيَّةُ.

أَمَّا الطَّيِّبَةُ فَهِيَ الَّتِي لَوْ بَقِيَ ذَلِكَ الْمَزَاجُ مَصُوناً مِنَ الْعَوَارِضِ الْخَارِجَةِ لَإِنْتَهَتْ مَدَّةُ بَقَاةِ إِلَى الْوَقْتِ الْفَلَائِي.

وَأَمَّا الْأَجَالُ الْإِخْتِرَامِيَّةُ فَهِيَ الَّتِي تَحْصُلُ بِسَبَبِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْخَارِجَةِ كَالْعَرَقِ وَالْحَرَقِ وَلَدَغِ الْحَشَرَاتِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُعْضَلَةِ وَقَوْلُهُ: مُسَمِّي عَنْدَهُ أَيُّ مَعْلُومٍ عَنْدَهُ أَوْ مَذْكُورٍ إِسْمُهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَنْتَهَى كَلَامُهُ.

أَقُولُ هَذِهِ الْأَقْوَالُ الْمَذْكُورَةُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ لَا يُمْكِنُ الْإِعْتِمَادُ عَلَيْهَا فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ اللَّهِ لِأَنَّهَا مِمَّا إِخْتَرَعُوهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ وَالْمَعْتَمَدُ هُوَ تَفْسِيرُ أَهْلِ الْبَيْتِ الَّذِينَ هُمْ أَدْرَى بِمَا فِي الْبَيْتِ فِي تَفْسِيرِ الْقَمِيِّ.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عَنْدَهُ

فأنه حَدَّثَنِي أَبِي عن النَّضْرِ بن سويد عن الحلبي عن عبد الله بن سakan عن أبي عبد الله عليه السلام قال الأجل المَقْضَى هو المحتوم الذي قضاه الله وحتمه و المسمّى هو الذي فيه البداء يقدّم ما يشاء ويؤخّر ما يشاء والمحتوم ليس فيه تقديم ولا تأخير انتهى.

و عن تفسير العياشي بأسناده عن مسعد بن صدقة عن أبي عبد الله في قوله: **ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى** عِنْدَهُ عليه السلام قال الأجل الذي غير مسمّى موقوف يقدّم منه ما شاء ويؤخّر منه ما شاء وأما الأجل المسمّى فهو الذي ينزل ممّا يريد أن يكون من ليلة القدر الى مثلها من قابل فذلك قول الله: **فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** انتهى.

و بأسناده عن عمران عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله: **ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى** عِنْدَهُ عليه السلام المسمّى ما سمّى لملك الموت في تلك الليلة وهو الذي قال الله: **فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** وهو الذي سمّى لملك الموت في ليلة القدر والأخر له فيه المشيئة إن شاء قدّمه وإن يشاء أخرّه انتهى.

و بأسناده عن حصين عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: **قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى** عِنْدَهُ.

قال: ثم قال أبو عبد الله عليه السلام الأجل الأول ما نبذه الى الملائكة والرسل والأنبياء، والأجل المسمّى عنده هو الذي ستره الله عن الخلاق انتهى.

و عن أصول الكافي بأسناده عن حمran عن أبي جعفر عليه السلام قال سألته عن قول الله عزّ وجل: **قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى** عِنْدَهُ عليه السلام هما أجلان، محتوم، وأجل موقوف انتهى.

و أما قوله: **ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ** قلنا الإمتراء الشكّ والمعنى ثم أنتم تشكّون أيها الكفّار في البعث والنشور، هذا أن قلنا المقصود من ذكر هذا الكلام الاستدلال على المعاد.

وَأَمَّا أَنْ قُلْنَا الْمَقْصُودُ مِنْهُ الْإِسْتِدْلَالُ عَلَى التَّوْحِيدِ فَالْمَعْنَى أَنَّكُمْ تَشْكُونُ فِي وَجُودِ الصَّانِعِ الْحَكِيمِ بَعْدَ مَا بَيَّنَّاهُ لَكُمْ مِنَ الْحُجَّةِ الْبَاهِرَةِ.  
وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ إِحْتِجَّ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الَّذِينَ عَدَلُوا بِهِ غَيْرِهِ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ مِنْ طِينٍ وَنَقَلَهمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ وَقَضَى عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ فَهُمْ يَشَاهِدُونَ ذَلِكَ وَيَقْرُونَ بِأَنَّهُ لَا مَحِيصَ عَنْهُ ثُمَّ عَجِبَهُمْ مِنْ إِمْتِرَاءِهِمْ وَشَكَّاهُمْ فِي اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ عَلَى مَا يَشَاءُ وَمِثْلُهُ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبَيِّنَ لَكُمْ<sup>(١)</sup>.

أَنَّ الَّذِي قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَبْعَثَكُمْ بَعْدَ أَنْ تَكُونُوا أَتْرَابًا وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ والمعنى هو المدبر في السموات والأرض.

وَعَنْ أَبِي عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ اللَّهُ، قَدْ تَمَّ بِهِ الْكَلَامُ وَقَوْلُهُ: فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ قَالَ لِأَنَّ الْخَلْقَ أَمَّا أَنْ يَكُونُوا مَلَائِكَةً فَهُمْ فِي السَّمَاءِ أَوْ الْبَشَرِ وَالْجَنِّ فَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ تَعَالَى بِجَمِيعِ ذَلِكَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ وَتَقْوِيَةٌ قَوْلُهُ: يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ أَيَّ يَعْلَمُ جَمِيعَ مَا تَعْمَلُونَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَيَجَازِيكُمْ عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِكُمْ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا.

فَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى فُسَادِ قَوْلِ مَنْ قَالَ أَنَّهُ تَعَالَى فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ تَعَالَى اللَّهُ عَنْهُ.

أَقُولُ مَا ذَكَرَهُ أَبُو عَلِيٍّ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بَلْ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْأَكْلِ مِنَ الْقَفَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْكَلَامَ بِدُونِ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ الْبَارِدَةِ مُسْتَقِيمٌ لَا عِوَجَ فِيهِ وَالْمَعْنَى أَنَّ

المعبود المُدَبِّر لَخَلَقَ الموجودات ليس إلا الله أعني به الذات الوجود  
المُستجمع الصفات الكَمالية.

ومن المعلوم أنَّ الخالق يعلم سِرَّ المخلوق و جهره وما يكسبه لأنَّ علمه  
بذاته مستلزم لعلمه بجميع ما سواه من معلولاته كما هو مقتضى القاعدة وهو  
أن العلم بالعلّة مستلزم للعلم بالمعلول تفصيلاً والعلم بالشئ علمٌ بلوازمه و  
أثاره فقوله: وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ إشارة الى إحصاء  
الخالقية والتدبير بالنسبة الى السموات والأرض و جميع الموجودات فيهما  
كائناً ما كان وقوله: يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ إشارة الى أنَّه  
تعالى عالم بجميع ما خلق ظاهراً و باطناً اذ لو لم يكن عالماً كذلك لزم أن لا  
يكون خالقاً للجميع وهو خلاف الفرض وفي قوله: وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ  
إشارة الى علمه تعالى بأفعالهم و أثارهم لأنَّ العلم بالشئ على وجه التمام و  
الكمال لا يتفك عن العلم بلوازمه و أثاره.

إن قلت قوله: وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ أن كان المراد به الأفعال والأعمال  
الصادرة عن العبد فهو مستدرك لأنَّ قوله يعلم سركم و جهركم، يدل عليه و  
ذلك لأنَّ المراد بالسّر صفات القلوب و هى الدواعي و الصّوارف و المراد  
بالجهر أعمال الجوارح، فالأفعال أمّا أفعال القلوب و هى المسمّاة بالسّر و أمّا  
أعمال الجوارح المسمّاة بالجهر فالأفعال لا تخرج عن السّر و الجهر فقوله: وَ  
يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ لا موضع له لأنّه من قبيل عطف الشئ على نفسه.

قلت يمكن الجواب عنه بأنَّ قوله: مَا تَكْسِبُونَ محمولٌ على ما يستحقّه  
الإنسان على فعله من ثواب و عقاب و بعبارة أخرى أنّه محمول على  
المكتسب و عليه فالمعنى أنَّ الله تعالى يعلم ما تكسبون، من الثواب و  
العقاب، فذكر الملزوم و أراد اللازم.

في القرآن تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ

قالوا المراد بالآية و الآيات المعجزات التي يظهرها على رسوله و آيات القرآن التي كان ينزلها على نبيه.

**أقول** الأحسن أن يراد بالآيات معناها العام الشامل للمعجزات و الآيات القرآنية و التكوينية و الأفاقية و الأنفسية و بالجملة كل آية ترشدكم إلى المعبود و أنما قلنا ذلك لأن الغرض الأصلي من جعل الأديان و الشرائع و إرسال الرسل و إنزال الكتب السماوية و المعجزات الظاهرة على أيدي الأنبياء و الأوصياء ليس إلا معرفة الخالق فكل ما يرشد الخلق إلى خالقه فهو آية من آياته فإن الآية هي العلامة و إلى هذا المعنى أشار الشاعر بقوله:

و في كل شيء له آية تدل على آتاه واحد  
قال الله تعالى: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: كَذَلِكَ يُخَيِّئُ اللَّهُ الْمَوْزِي وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَ يُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: وَ كُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ<sup>(٤)</sup>.

و الآيات في الباب كثيرة جداً بعضها ناظر إلى التكوينية و بعضها إلى التشريعات و بعضها إلى الأفاق و بعضها إلى الأنفس فمعنى الآية أن هؤلاء الكفار لكفرهم و عنادهم كانوا معرضين عنها فلم يستدلوا بها على وجود مؤثرها و موجدتها و في التعبير بالإعراض إشارة إلى أنهم كانوا متعمدين في هذه الرؤية الرديئة إذ لا يصدق الإعراض في غير العمد فيستفاد من الآية أن الكافر المعرض عن آيات ربه قادر على التفكير فيها و الإيمان بها إلا أنه يعرض عنه بسوء سريرته و خبث ذاته و متابعة هواه و قد ثبت أن الإمتناع بالإختيار لا



ينافي الاختيار وليس هذا مخصوصاً بالكفار في صدر الإسلام بل هو عام بالنسبة الى جميع الأزمنة واضح.

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ.

الفاء في قوله: فَقَدْ كَذَّبُوا للتفريع والمعنى أنّ تكذيبهم الحقّ، هو نتيجة إعراضهم عن آيات الله و ذلك لأنّهم لو لم يعرضوا عن آيات ربّهم لعرفوه عرفوا الحقّ تبعوه وأخذوا به، وحيث أنّ الله تعالى أخبر عنهم في الآية السابقة أنّهم كانوا معرضين عن آيات ربّهم، أخبر في هذه الآية تكذيبهم بالحقّ، مشعراً بأنّ تكذيب الحقّ فرعٌ على الإعراض عنه و عدم التفكير فيه، سواء كان المراد بالحقّ مايقابل الباطل أو الحقّ.

وهو الله تعالى و ذلك لأنّ تكذيب الحقّ بأيّ معنى كان يرجع الى تكذيب الحقّ المطلق و هو الله تعالى ألا ترى أنّ من كذب الرّسول فقد كذب الله و هكذا من كذب القرآن و المعاد و الحشر و النّشر و أمثال ذلك من الأحكام الثابتة في الشّرع فقد كذب الله فإنّ تكذيب الحقّ هو تكذيب الله تعالى بعينه كما أنّ تكذيب الباطل هو تصديق الحقّ، و أمّا قوله: فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ فهو إشارة الى ما يترتب من العقاب على تكذيب الحقّ يوم القيامة و في قوله: يَسْتَهْزِءُونَ إشارة الى أنّهم عرفوا الحقّ أو كانوا قادرين على معرفة الحقّ و مع ذلك أعرضوا عنه و لا نعني بالاستهزاء إلّا هذا و قد غفلوا عن أنّ: اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمْدُهُمْ فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ اسْتَرْزَأُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ<sup>(١)</sup>.

في القرآن  
في قوله  
يَسْتَهْزِءُونَ

جزء ٧

الجلد السادس

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ  
 فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ  
 عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ  
 تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ  
 قَرْنًا آخَرِينَ (٦) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي  
 قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ  
 هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ  
 مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا  
 يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَ  
 لَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ  
 بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا  
 كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ  
 ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (١١)

### ◀ اللغة

قَرْنٍ بفتح القاف وسكون الراء و التّون، القوم المقترنون في زمنٍ واحدٍ و  
 جمعه قرون.

مِدْرَارًا أصله من الدَّرَّ والدَّرَّةُ أي اللُّبن و يستعار ذلك للمطر.  
 وَأَنْشَأْنَا، الإنشاء الإيجاد.

قِرْطَاسٍ، القِرطاس بكسر القاف و سكون الراء ما يكتب فيه.  
 فَحَاقَ، حاقَ يَحِيقُ إذا نزل وأصاب قيل أصله، حقّ، فقلب نحو زَلَّ وزال.

## ◀ الإعراب

كَمْ أَهْلَكْنَاكُمْ، إستفهام بمعنى التَّعْظِيمِ وَ هِيَ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ بِأَهْلَكْنَا  
 فيجوز أن نكون كم، مفعولاً به ويكون، من قرنٍ، تبييناً، لكم، ويجوز أن يكون  
 ظرفاً و من قرنٍ، مفعول أهْلَكْنَا، مَكْنَاهُمْ فِي مَوْضِعِ جَرِّ صِفَةِ الْقَرْنِ وَ جَمْعِ  
 عَلَى الْمَعْنَى مَا لَمْ نُمْكِّنْ مَا، نَكْرَةً مَوْصُوفَةً وَالْعَائِدُ مَحْذُوفٌ أَي شَيْئاً لَمْ  
 نُمْكِّنْ لَكُمْ وَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَا، مَصْدَرِيَّةٌ وَالزَّمَانُ مَحْذُوفٌ أَي مَدَّةٌ مَا لَمْ  
 نُمْكِّنْ لَكُمْ مَذَرَأً حَالٍ مِنَ السَّمَاءِ تَجْرِي الْمَفْعُولُ الثَّانِي لَجْعَلْنَا أَوْ حَالٍ مِنَ  
 الْأَنْهَارِ إِذَا جَعَلْتَ، جَعَلَ، مُتَعَدِيَةٌ إِلَى وَاحِدٍ مِنْ تَحْتِهِمْ يَتَعَلَّقُ بِتَجْرِي، أَوْ حَالٍ  
 مِنَ الضَّمِيرِ فِيهِ أَي وَ هِيَ مِنْ تَحْتِهِمْ وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تَحْتِهِمْ مَفْعُولاً ثَانِياً  
 لَجَعَلَ، أَوْ حَالاً مِنَ الْأَنْهَارِ وَ تَجْرِي فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الْجَارِ أَي وَ  
 جَعَلْنَا الْأَنْهَارَ مِنْ تَحْتِهِمْ جَارِيَةً مِنْ بَعْدِهِمْ يَتَعَلَّقُ بِأَنْشَأْنَا وَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ  
 حَالاً مِنْ قَرْنٍ، لِأَنَّهُ ظَرْفُ زَمَانٍ (فِي قِرطاسٍ) نَعْتَ لِكِتَابِ مَا يَلْبَسُونَ مَا،  
 بِمَعْنَى الَّذِي وَ هِيَ مَفْعُولٌ، لِبَسْنَا كَيْفَ كَانَ كَيْفَ خَبَرَ كَانٍ وَ عَاقِبَةُ إِسْمِهَا وَلَمْ  
 يُؤْنِثِ الْفِعْلُ أَنَّ الْعَاقِبَةَ بِمَعْنَى الْمَعَادِ فَهُوَ فِي مَعْنَى الْمَذْكَرِ وَلِأَنَّ التَّائِيثَ غَيْرَ  
 حَقِيقِي.

## ◀ التفسير

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ  
 نُمْكِّنْ لَكُمْ

الخطاب للغائبين أي ألم يروا هؤلاء الكفار والمنافقين والمعنى ألم يعلموا  
 لأنَّ الرُّؤْيَا فِي الْمَقَامِ لَيْسَتْ مِنَ الرُّؤْيَا بِالْعَيْنِ وَ الْبَصَرِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ الْكُفَّارَ فِي  
 عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ كَانُوا مُتَأَخِّرِينَ زَمَاناً وَ هُوَ مَعْلُومٌ نَعَمْ أَتَاهُمْ عِلْمُوا ذَلِكَ مِنْ  
 أَسْلَافِهِمْ مِنْ طَرِيقِ السَّمْعِ أَوْ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهِمْ وَ عَلَيْهِ فَلَا إِسْتِفْهَامَ

لِلْإِنكَارِ أَيِ أَنَّهُمْ عَلِمُوا كَيْمَ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ، أَيِ مِنْ أُمَّةٍ وَجَمَاعَةٍ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ أَيِ جَعَلْنَاهُمْ مَلُوكًا وَأَغْنَيْنَا، مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ أَيِ أَعْطَيْنَاهُمْ مِنَ الْمَالِ وَالْقُدْرَةِ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَيْنَاكُمْ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمَخْلُوقَ لَا قُدْرَةَ لَهُ وَاقِعًا وَهُوَ كَذَلِكَ وَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارُ مِنْ قَبْلِكُمْ مَعَ كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَالْمَكْنَةِ أَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى دَفْعِ الْعَذَابِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَانْتُمْ لَا تَقْدِرُونَ أَيْضًا بِطَرِيقٍ أَوْلَى ثُمَّ أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى كَيْفِيَّةِ عَذَابِهِمْ فَقَالَ: وَارْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا مَعْنَاهُ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا كَثِيرًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَوْلُهُ: مِذْرَارًا يَعْنِي غَزِيرًا دَائِمًا كَثِيرًا، وَذَلِكَ لِأَنَّ مِفْعَالَ بِكَسْرِ الْمِيمِ مَبَالِغَةٌ مِنَ الذَّرِّ كَمَا يَقَالُ إِمْرَأَةٌ مَذْكَارٌ، إِذَا كَانَتْ كَثِيرَةً الْوِلَادَةُ لِلذَّكَورِ وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آتَاهُمُ اللَّهُ هَذِهِ الْمَنَافِعَ مِنَ الْمَالِ وَالْمَكْنَةِ وَأَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارَ وَوَسَّعَ عَلَيْهِمْ وَمَكَّنَهُمْ فِي الْأَرْضِ لِمَا كَفَرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ وَارْتَكَبُوا مَعَاصِيَهُ وَكَذَّبُوا أَنْبِيََاءَهُ وَرَسَلَهُ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ أَيِ أَوْجَدْنَا وَخَلَقْنَا بَعْدَ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ الَّذِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ، قَرْنًا وَجَمَاعَةً آخَرِينَ مَكَانَهُمْ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى قُبْحِ الْعَصْيَانِ وَالْمُخَالَفَةِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ وَأَنَّ مَالَ ذَلِكَ إِلَى خُسْرَانِ الدَّارَيْنِ وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا الْمَنَوَالِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْتَبَرَ الْعَاقِلُ وَكَمْ مِنْ آيَةٍ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ كِتَابًا أَيِ مَكْتُوبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ قِيلَ أَنَّهُمْ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِكِتَابٍ يَقْرُونَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى فَلَانِ بْنِ فَلَانٍ، أَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَوْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا كَذَلِكَ حَتَّى يَلْمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيَدْرِكُوهُ بِحَوَاسِهِمْ لَمَّا آمَنُوا بِكَ وَنَسَبُوهُ إِلَى السَّحْرِ لَعِظَمَ عِنَادِهِمْ وَقَسَاوَةِ قُلُوبِهِمْ وَأَنَّهُمْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ لَا يُؤْمِنُوا عَلَى كُلِّ حَالٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أَيِ لَيْسَ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ.

ثم أشار الله تعالى الى قصّة أخرى لهم وهى أنّهم أي الكفّار قالوا، هلاً أنزل على محمدٍ ملكٌ يشاهدونه فيصدّقه أي يصدّق الملك النّبى في نبوّته كما قال تعالى: **وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ** أي على محمد ﷺ فقال تعالى: **وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَكَامَا قَالُوا لَقُضِيَ الْأَمْرُ** أي أتمّ إهلاكهم قاله الرّجّاج وعن مجاهد أنّه قال، معنى قوله: **وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ** يريدون في صورته قال الله تعالى: **وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَامَا فِي صورته لَقُضِيَ الْأَمْرُ** أي لقامت السّاعة أو وجب إستئصالهم ثم قال: **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَامَا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا** أي في صورة رجل لأنّ أبصار البشر لا تقدّر على النّظر الى صورة ملك على هيئته للطف الملك وقلة شعاع أبصارنا **وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يُلْبَسُونَ** اللّبس الشّبهة الكفّار يلبسون، أي يشتهبون على ضعفاءهم أمر النّبى فيقولون هو بشرٌ مثلكم، فقال الله تعالى: **وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَامَا** فأروه رجلاً ولم يعلمهم أنّه ملك لكان يلحقهم من اللّبس ما يلحق ضعفاءهم منهم.

**وَأَعْلَمُ أَنَّ** الآية لا تدلّ على أنّ له تعالى أن يلبس بالإضلال والتلبس لأنّه لم يخبر أنّه لبس عليهم، وأنما قال لو جعلته ملكاً للبيست ولم يجعله ملكاً فإذا ما لبس فهي من قبيل قوله تعالى: **لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ** <sup>(١)</sup> وليس يجوز عليه إتخاذ الولد ولا الإصطفاء له بحالٍ فسقط الإحتمال والإشكال **وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** هذه الآية نزلت تسليةً للنّبى ﷺ وذلك لأنّه تعالى لمّا أخبر نبيّه بما أخبر من أنّه لو أنزل الآيات التي إقترحوها وإمتنعوا عند ذلك من الإقرار بالله والتّصديق بنبيّه إقتضت المصلحة إستئصالهم كما إقتضت المصلحة من تقدّم منهم من الأمم الماضية عند نزول الآيات المقترحة كما فعل بقوم صالح وقوم هود وغيرهم من الأمم قال تسلّيته لنبيّه ﷺ من

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

الجلد السادس

إستمرارهم على الكفر أنّه ليس هذا مختص بك بل كان هذا دأب الكفار و سيرتهم المستمرة في القرون الماضية مع غيرك من الأنبياء والرسل والى هذا المعنى أشار بقوله: **وَلَقَدْ أَهْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ** ومعنى الحيق ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله كما قال: **وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ** <sup>(١)</sup> والمعنى شملهم العذاب في الدنيا بسبب إستهزاؤهم أنبياء الله وأحكام دينه كما فعل الله بقوم عاد و ثمود و أمّا الآخرة.

فأن عذابها أشد وأبقى ثم قال تعالى: **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا** **كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار إن كنتم لا تعقلون ذلك فسيروا في الأرض ثم أنظروا الى آثار تلك الأمم فأنها مشهورة متواترة بل محسوسة لتعلموا كيف كان عاقبة المكذبين ففي هذه الآية تحذير لهؤلاء الكفار من أن ينزل بهم العذاب كم نزل بالمكذبين للرسل من قبلهم فأن حكم الأمثال واحد.



قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ  
كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ  
الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ  
لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ  
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذَ  
وَلِيًّا فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا  
يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا  
تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ  
عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ  
يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ  
الْمُبِينُ (١٦) وَإِنْ يَمَسْسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ  
لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسْسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ  
شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ  
الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً  
قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا  
الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْتُكُمْ لَتَشْهَدُونَ  
أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ  
إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)  
الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ  
أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا  
يُؤْمِنُونَ (٢٠)

## ◀ اللغة

يُصْرَفُ، الصَّرْفُ رَدُّ الشَّيْءِ مِنْ حَالَةٍ أَوْ إِبْدَالُهُ بِغَيْرِهِ.  
الْفَوْزُ الفلاح.

## ◀ الإعراب

لِمَنْ مِنْ إِسْتِفْهَامٍ وَ (مَا) فِي مَا فِي السَّمَوَاتِ بِمَعْنَى، الَّذِي فِي مَوْضِعٍ مُبْتَدَأٍ وَلَمَنْ، خَبْرُهُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ مَوْضِعُهُ نَصْبٌ بَدَلًا مِنَ الرَّحْمَةِ وَقِيلَ لَا مَوْضِعَ لَهُ بَلْ هُوَ مُسْتَأْنَفٌ وَاللَّامُ فِيهِ جَوَابٌ لِقِسْمٍ مَحْذُوفٍ الَّذِينَ خَسِرُوا مُبْتَدَأٌ فَهُمْ مُبْتَدَأُ ثَانٍ وَلَا يُؤْمِنُونَ خَبْرُهُ وَالثَّانِي وَخَبْرُهُ خَيْرُ الْأَوَّلِ أَعْيَرَ اللَّهُ مَفْعُولٌ أَوَّلُ اتَّخَذُوا وَوَلِيًّا الثَّانِي وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ، غَيْرَ، هُنَا، إِسْتِنَاءٌ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ بِالْجَرِّ بَدَلٍ مِنْ إِسْمِ، اللَّهُ، وَلَا تَكُونَنَّ أَيَّ وَقِيلَ لِي لَا تَكُونَنَّ مَنْ يُصْرَفُ عَنْهُ بِضَمِّ الْيَاءِ وَفَتْحِ الرَّاءِ عَلَى مَا يَسْمُ فَاعِلُهُ وَفِي الْقَائِمِ مَقَامُ الْفَاعِلِ وَجِهَانِ:

أَحَدُهُمَا: يَوْمِيذٍ أَيَّ مِنْ يَصْرَفُ عَنْهُ عَذَابُ يَوْمِيذٍ، مَحْذُوفُ الْمُضَافِ وَ يَوْمِيذٍ مَبْنِيٌّ عَلَى الْفَتْحِ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مَضْمُرًا فِي، يَصْرَفُ، يَرْجِعُ إِلَى الْعَذَابِ فَيَكُونُ يَوْمِيذٍ، ضَرْفًا، لِيَصْرَفَ أَوْ لِلْعَذَابِ أَوْ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فَلَا كَاشِفَ لَهُ، خَيْرَ، كَاشِفُ إِلَّا هُوَ بَدَلٌ مِنْ مَوْضِعٍ، لَا كَاشِفَ، أَوْ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الظَّرْفِ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ هُوَ، مُبْتَدَأٌ، وَالْقَاهِرُ، خَبْرُهُ وَفَوْقَ فِي مَوْضِعٍ نَصْبٌ عَلَى الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الْقَاهِرِ أَيَّ وَهُوَ الْقَاهِرُ مُسْتَعْلِيًّا أَوْ غَالِبًا، وَقِيلَ فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ عَلَى أَنَّهُ بَدَلٌ مِنَ الْقَاهِرِ أَوْ خَيْرُ ثَانٍ أَيُّ شَيْءٍ مُبْتَدَأٌ وَأَكْبَرُ خَبْرُهُ شَهَادَةٌ تَمِيزُ قُلَّ اللَّهِ اللَّهُ مُبْتَدَأُ الْخَبَرِ مَحْذُوفٌ أَيَّ أَكْبَرُ شَهَادَةٌ وَقَوْلُهُ شَهِيدٌ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ، اللَّهُ، مُبْتَدَأٌ وَشَهِيدُ خَبْرِهِ بَيِّنَتُكُمْ تَكْرِيرٌ لِلتَّأَكِيدِ وَالْأَصْلُ شَهِيدٌ بَيْنَنَا وَمَنْ بَلَغَ فِي مَوْضِعٍ نَصْبٌ عَطْفًا عَلَى الْمَفْعُولِ فِي لَا تُنْذِرُكُمْ وَهُوَ بِمَعْنَى،



الَّذِي، والعائد محذوف والفاعل ضمير القرآن أى وأنذر من بلغه القرآن قُلْ  
إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فِي، ط، وجهان:

أحدهما: كافة (لأنَّ) عن العمل فعلى هذا هو مبتدأ وإله خبر و واحد صفة  
مبيّنة، الثانى: أنّها بمعنى، الذى، في موضع نصب، بأنّ، وهو مبتدأ وإله خبره  
والجملة صلة، الذى، و واحد، خبر، إنّ وهذا أليق بما قبله الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ  
الْكِتَابَ في موضع رفع بالابتداء وَيَعْرِفُونَهُ الخبر، والهاء ضمير الكتاب وقيل  
ضمير النبي ﷺ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ مثل الأولى.

### ◀ التفسير

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ  
إِعلم أنّ الله تعالى بيّن في الآيات السابقة وجود الصّانع القادر الحكيم أولاً  
والنّبوة ثانياً والمعاد ثالثاً على ما مرّ الكلام فيه ذكر هذه الآية مقرّرة لمجموع  
تلك المطالب فقال تعالى: قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ  
سؤال وجواب أمّا السؤال فهو قوله: قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار الذين أنكروا التّوحيد والمعاد والنّبوة لمن ما  
في السّموات والأرض، أي قل لهم من المالك لما فيها من الموجودات أو من  
يملك السّموات والأرض وما فيهما من الموجودات، والجواب قُلْ لِلَّهِ أي  
قل أنّ السّموات والأرض وما فيهما لله، فقط فاللّام لملك أو الإختصاص فأمر  
الله نبيّه بالسّؤال أولاً وبالجواب ثانياً، قال بعض المفسّرين وهذا إنّما يحسن  
في الموضع الذي يكون الجواب قد بلغ في الظهور الى حيث لا يقدر على  
إنكاره منكر ولا على دفعه دافع ولما كانت آثار الحدوث والإمكان ظاهرة في  
جميع الخلق كان الإعتراف بأنّها بأسرها ملك لله تعالى ظاهراً لا خفاء فيه و  
لأجل ذلك أمر الله نبيّه بالسّؤال أولاً وبالجواب ثانياً ليبدّل ذلك على أنّ الإقرار  
بهذا المعنى ممّا لا سبيل الى دفعه البتّة إنتهى.

أقول الآيات الواردة في الباب كثيرة وذلك لوضوح الأمر حتّى بالنسبة الى الكفّار:

قال الله تعالى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ  
اللَّهُ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ  
خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَابِرٍ عَلَى أَنْ  
يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ<sup>(٤)</sup>.

والآيات بهذا المضمون كثيرة والدليل عليه من العقل هو أنّ السموات والأرض وما فيهما من الموجودات كلّها حوادث وكلّ حادث فهو محتاج الى محدث وموجد فالعالم محتاج الى محدث لا محالة، أمّا أنّ كلّ حادث محتاج الى محدث فلاّ أنّ الحادث مسبوق بالعدم إذ لم يكن ثمّ كان والخروج من عدم الى الوجود لا يخلو أمّا السبب نفس الحادث أو بسبب غيره لا يمكن أن يكون بسبب نفسه لأنّه يلزم أن يكون الحادث علّة ومعلولاً معاً وهو محال للزومه تقدّم الشّيء على نفسه وذلك لأنّه من حيث أنّه علّة يقتضي التّقدم ومن حيث أنّه معلول يقتضي التّأخر وكيف يعقل أن يكون الشّيء مقدّماً ومؤخّراً وتقدّم الشّيء على نفسه محال فثبت أنّ الحادث نفسه لا يكون علّة لوجوده هذا إذا كان الموجد نفس الحادث الذي وجد وأمّا أن كان الموجد حادث آخر غيره فننقل الكلام اليه ونقول من أخرجه من عدم الى الوجود وهكذا ويتسلسل، وأمّا إذا كان السبب والعلّة غير الحادث فهو لا محالة قديم لإنحصار

الموجود في القديم والحادث ولا قديم سوى الله تعالى فثبت أن المحدث المخرج من العدم إلى الوجود ليس إلا الله تعالى وهو المطلوب هذا إذا قلنا بالحدوث الزماني بأن نقول أن العالم حادث زماناً كما هو الحق عند المتكلمين وأما أن قلنا بالحدوث الذاتي بمعنى أن العالم مسبوق بالعلّة فقط لئلا يلزم إنقطاع الفيض كما عليه جمهور الفلاسفة فالأمر أوضح لأنّ العلة لا تكون إلا واجباً والواجب هو الله تعالى وهو المطلوب.

فتحقّق أن العالم مخلوق له تعالى وكلّ مخلوق فهو ملك لخالقه فالعالم ملك لخالقه وهو الله وهذا معنى قوله: **قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ الرَّحْمَةُ** بفتح الراء وسكون الحاء مصدر قولك **رَحِمَهُ رَحْمَةً** و **مَرَحَمَةً** و **رُحْمًا**.

قال الراغب في المفردات **الرَّحْمَةُ رَقَّةٌ** تقتضي الإحسان إلى المرحوم، تستعمل تارة في الرقة المجردة وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة نحو رحم الله فلاناً، وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف إنتهى موضع الحاجة من كلامه إذا عرفت هذا المعنى فنقول

قوله: **كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ** معناه كتب على نفسه الإحسان إلى غيره من غير رقة فإنها من لوازم الطبع ولذلك قالوا أن الرحمة منطوية على معنيين الرقة والإحسان، فركز الله تعالى في طبائع الناس الرقة وتفرد بالإحسان، وقد وصف الله نفسه بالإحسان في كثير من الآيات وبالرحمة كذلك والمعنى فيهما واحد:

قال الله تعالى: **أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** (١).

قال الله تعالى: **أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ** (٢).

في آيات القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

قال الله تعالى: فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ<sup>(٣)</sup>.

والآيات كثيرة في الباب وفي قوله كتب على نفسه الرحمة، أقوال:

**أحدها:** معناه قضى وقدر على نفسه الرحمة.

**ثانيها:** معناه فرض وأوجب على نفسه الرحمة ومن المعلوم أن الوجوب عقلي أي أن العقل يحكم بأن الله تعالى ذو الرحمة الواسعة والإحسان الباسطة وذلك لأنه تعالى محسن إلى خلقه لجوده وكرمه.

**ثالثها:** أن رحمته سبقت غضبه كما ورد في الدعاء يا من سبقت رحمته غضبه فهو محسن قبل أن يكون متقماً وحيث أنه تعالى قديم فهو قديم الإحسان.

**رابعها:** أن يكون كتب، بمعنى اليمين وعليه فاللآم في قوله: لَيَجْمَعَنَّكُمْ لام القسم وتقديره والله ليجمعنكم.

**خامسها:** معناه كتب على نفسه ان إلا يستأصلكم ولا يعجل عقوبتكم بل يعذر لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ قيل هذا الكلام بدل من الرحمة مفسر لها لأنه تعالى لما قال كتب على نفسه الرحمة فسّر رحمته بأن يمهّلهم إلى يوم القيامة ولولا ذلك لم يمهّلهم بل استأصلهم وعذبهم في الدنيا أيضاً قبل الآخرة.

وأما قوله: لَا رَيْبَ فِيهِ أي لا ريب في يوم القيامة.

إن قلت كيف قال لا ريب فيه مع أن المرتابين فيه كثير بل أنكره كثير من الناس في كل عصر وزمان.

قُلْتُ قد أجبنا عنه عند قوله: ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ<sup>(١)</sup> وقلنا أَنَّ وجود الرِّيب والإنكار في ظاهر الأمر لا ينافي عدم وجود الرِّيب واقعاً وذلك لأنَّ منشأ الرِّيب والإنكار في أكثر الأوقات وبالنسبة إلى أكثر النَّاس هو عدم التأمل أو وجود العناد والتَّعصب أو حبِّ الدُّنيا وأمثال ذلك من الدَّواعي التي توجب الإرتياب والإنكار بحسب الظَّاهر وهذا لا ينافي أن يكون في الواقع صدقاً وحقاً.

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الخسر والخسران بضَم الخاء إنتقاص رأس المال وينسب ذلك إلى الإنسان فيقال خسر فلان، وإلى الفعل فيقال خسرت تجارتَه، ثمَّ أَنَّ الخسران يستعمل تارةً في المقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدُّنيا وهو الأكثر، وأخرى في المقتنيات النَّفيسة كالصَّحة والسَّلامة والعقل والإيمان والثَّواب وهو الَّذي جعله الله تعالى الخسران المبين إذا عرفت هذا فنقول:

المراد بالخسران في الآية هو معناه الثَّاني أعني به المقتنيات النَّفيسة بدليل قوله: أَنفُسَهُمْ فهو الخسران المبين.

قال الرَّازي، فأن قيل ظاهر اللَّفظ يدلُّ على أَنَّ خسرانهم سبب لعدم إيمانهم والأمر على العكس.

قلنا هذا يدلُّ على أَنَّ سبق القضاء بالخسران والخذلان هو الَّذي حملهم على الإمتناع من الإيمان وذلك عين مذهب أهل السَّنة انتهى كلامه.

أقول لو كان الأمر على ما ذكره من أَنَّ سبق القضاء بالخسران هو الَّذي حملهم على عدم الإيمان فأَيُّ ذنبٍ لهم في عدم إيمانهم بالله ورسوله وإذا لم يكن لهم ذنب فلم يعدِّبهم الله يوم القيامة على عدم إيمانهم والمفروض أَنَّ القضاء قد سبق به وأتَمَّا قلنا لا ذنب لهم لأنَّهم لا يقدرُونَ على الإيمان بعد

سبق القضاء بعدهم وقد قال الله تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا<sup>(١)</sup> فَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ لَا يُوَاقِذْ بِتَرْكِهِ عَقْلًا.

نعم هذا الذي ذكره أنما هو على مسلكتهم ومذهبهم من القول بالجبر أعاذنا الله منه هذا مضافاً إلى أن الآية نفسها تدل على خلاف ما ذهبوا إليه لأن الله تعالى يقول الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ فَأَنْ قَوْلُهُ: خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَدُلُّ عَلَى الْخِسْرَانِ وَعَدَمُهُ بِإِخْتِيَارِهِمْ وَلَوْ كَانَ مُسَبَّوqًا بِالْقَضَاءِ خَارِجاً عَنْ قَدَرَتِهِمْ كَانَ حَقَّ الْكَلَامِ أَنَّ يُقَالُ الَّذِينَ خَسِرُوا بِصِغَةِ الْمَجْهُولِ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَحَيْثُ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ بَلْ نَسَبَ الْخِسْرَانَ إِلَيْهِمْ لَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِسْتَفَدْنَا مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْخِسْرَانَ وَعَدَمُهُ تَحْتَ قُدْرَةِ الْعَبْدِ وَلِذَلِكَ يُعَاقَبُ الْعَبْدُ عَلَى الْخِسْرَانِ وَيُنَابِذُ عَلَى الْإِيمَانِ.

وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ قال بعض المفسرين في معنى الآية ما لفظه:

لأن في الحيوان ما يسكن في الليل وفيه ما يسكن بالنهار وخص السكون بالذكر لأن الساكن أكثر من المتحرك ولأن الآية العجيبة في قيام الساكن بلا عمدٍ أعظم انتهى.

وقال الرازي، المسألة الثالثة في تفسير هذا السكون قولان:

**الأول:** أن المراد منه الشيء الذي سكن بعد أن تحرك فعلى هذا المراد كل ما استقر في الليل والنهار من الدواب وجملة الحيوانات في البر والبحر وعلى هذا التقدير قالوا في الآية محذوف والتقدير وله سكن وتحرك في الليل والنهار كقوله تعالى: سَوَابِيلُ تَقَبُّحُ الْحَرِّ<sup>(٢)</sup> أراد الحر والبرد فإكتفى بذكر أحدهما عن الآخر لأنه يعرف ذلك بالقرينة المذكورة كذلك هنا حذف ذكر الحركة لأن ذكر السكون يدل عليه.

**والقول الثانی:** أنه ليس المراد من هذا السكون ما هو ضد الحركة بل المراد منه السكون بمعنى الحلول كما يقال فلان يسكن بلد كذا، اذا كان محلّه فيه و منه قوله تعالى: **وَ سَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** <sup>(١)</sup>.

و على هذا التقدير كان المراد وله كلّ ما حصل في الليل والنهار والتقدير كلّ ما حصل في الوقت والزمان سواء كان متحرّكاً أو ساكناً وهذا التفسير أولى وأكمل والسبب فيه أنّ كلّ ما دخل تحت الليل والنهار حصل في الزمان فقد صدق عليه أنّه إنقضى الماضي وسيجي المستقبل وذلك مشعراً بالتغير الحدوث ينافي الأزلية والدوام فكلّ ما مرّ به الوقت ودخل تحت الزمان فهو محدث وكلّ حادث فلا بدّ له من محدث وفاعل ذلك الفعل يجب أن يكون مقدّماً عليه والمتقدم على الزمان يجب أن يكون مقدّماً على الوقت والزمان فلا تجري عليه الأوقات ولا تمرّ به الساعات ولا يصدق عليه أنّه كان وسيكون انتهى كلامه.

وقال الطبري وله ما سكن في الليل والنهار، يقول وله ملك كلّ شيء لأنّه لا شيء من خلق الله إلّا وهو ساكن في الليل والنهار فمعلومٌ بذلك أنّ معناه ما وصفنا انتهى كلامه.

**أقول** السكون عبارة عن ثبوت الشيء بعد تحرّكه وقد يستعمل في الاستيطان نحو سكن فلان مكان كذا أي إستوطنه وإسم المكان، مسكن:

قال الله تعالى: **لَا يُزَيَّ إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ** <sup>(٢)</sup>.

وأيضاً السّكن والسكون وما يسكن اليه:

قال الله تعالى: **وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا** <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **إِنَّ صَلَوتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا** <sup>(٥)</sup>.

فصل القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

٢- الاحقاف = ٢٥

٤- التوبة = ١٠٣

١- ابراهيم = ٤٥

٣- النحل = ٨٠

٥- الانعام = ٩٦

أي ما يسكن اليه اذا عرفت هذا فاعلم أنَّ المراد بقوله تعالى وله ما سكن في الليل والنهار، هو أنَّ ما سكن أي استقر وثبت في الليل والنهار وهما كنيان عن الزمان، فهو لله تعالى أي أنَّ الله تعالى مالكة وخالقه فيصير المعنى أنَّ الله تعالى مالك الزمانيات وخالقها وحيث أنَّ الزمان والزمانى حادث وكل حادث محتاج الى محدث وموجد لا يكون حادثاً فلا محالة خالقها أي خالق الحوادث يكون واجباً وهو المطلوب.

وَأَمَّا عَبْرُ السَّكُونِ دُونَ الْإِسْتِقْرَارِ مَثَلًا فَقَالَ: وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَلَمْ يَقُلْ وَلَهُ مَا ثَبَتَ وَإِسْتَقَرَّ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِنَكْتَتِهِ خَفِيَّةٍ وَهِيَ أَنَّ السَّكُونِ لَيْسَ بِمَعْنَى الثَّبُوتِ الْمَطْلُوقِ بَلْ هُوَ بِمَعْنَى الثَّبُوتِ بَعْدَ تَحَرُّكِ أَيْ الثَّبُوتِ الْمَسْبُوقِ بِالْحَرَكَةِ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَا فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مَتَّحَرِّكٌ وَأَنَّ كَانَ فِي الظَّاهِرِ سَاكِنًا وَإِذَا كَانَ مَتَّحَرِّكًا أَوْ مَسْبُوقًا بِهِ فَهُوَ حَادِثٌ مَخْلُوقٌ هَذَا أَوَّلًا.

ثانيًا: نقول اذا كان السكون معناه ثبوت الشيء بعد تحركه فليس في عالم الخلق موجوداً ساكناً بقولٍ مطلق لأن المفروض أنَّ كل ساكنٍ مسبوق بالحركة فالأصل في المخلوق الحركة والسكون عارض عليها وحيث أنَّ الحركة ملازمة للحدوث بل هي نفسه فالمخلوق كائناً ما كان حادث وهو المطلوب. أن قلت اذا كان السكون ثبوت الشيء بعد تحركه فلم لم يقل، ولم ما تحرك في الليل والنهار.

قلتُ أمَّا لم يقل ذلك لتعلم أنَّ في عالم الخلقة لا يوجد موجوداً ساكناً لا حركة فيه وأن ما تراه ساكناً في الظاهر فهو متحرك في الواقع فلو قال وله ما تحرك في الليل والنهار لم يفد هذا المعنى لأنَّ المتحرك لا يكون مسبوقاً بالسكون و اذا كان كذلك فالموجود الذي يرى ساكناً في الظاهر لا يدخل تحت الآية وبعبارة أخرى تخصيص الحكم بالمتحرك يوجب خروج الساكن عن مصداق الحكم وأمَّا تخصيصه بالساكن فليس كذلك لأنَّ السكون مسبوق



بها وملازم له فاذا قيل وله ما سكن في الليل والنهار معناه وله ما سكن وتحرك في الليل والنهار والمخلوق لا يكون خالياً عنهما في ظاهر الأمر فينتج أنّ كلّ ما في الليل والنهار فهو له تعالى وهو المطلوب.

إن قلت لم كان الأصل في المخلوق الحركة حتّى يقال كلّ ساكنٍ فهو مسبوق بها.

قلت لأنّ الحركة توجب إرتقاء المخلوق من النقص إلى الكمال بخلاف السكون اذ لا إرتقاء فيه وحيث أنّ المخلوق في حدّ ذاته ناقص في بدو الخلقة جسماً وروحاً فلولا الحركة فيه كيف يصل إلى كماله المطلوب وهذا هو السر في كونه متحركاً من بدو وجوده إلى آخر عمره ولذلك قالوا ليس في المخلوق موجوداً ساكناً أصلاً.

نعم اذا كان الموجود كاملاً في ذاته وصفاته بريئاً عن النقص بالكلية فهو غير متحركٍ لأنّه لا يحتاج إلى الحركة وهذا الموجود منحصراً في عالم الوجود بذاته تعالى فهو تعالى ليس بمتحركٍ لما قلناه ولأنّ الحركة مساوقة للحدوث وهو ينافي الوجود، ونيس بساكنٍ أيضاً لأنّ السكون هو ثبوت الشئ بعد تحركٍ وحيث لا تحركٍ هناك فلا سكون فهو منزّه عن الحركة أو السكون ولذلك لا يوصف بهما. وأما قوله: وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فهو إشارة إلى صفتين من صفاته الثبوتية وقد قيل معنى كونه سميعاً أي أنّه عالم بالمسموعات وعليه فالسمع يرجع إلى العلم وقيل هما صفتان مستقلتان لا يرجع أحدهما إلى الآخر فمعنى قوله: وَهُوَ السَّمِيعُ أنّه يسمع، وقوله: الْعَلِيمُ أنّه يعلم أمّا كيف يسمع وكيف يعلم فلا نعلم كيفيتهما وفي باب الصفات كلامٌ ليس هذا موضع ذكره هذا ما فهمناه من الآية الشريفة والله أعلم بحقائق الأمور.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

الجلد السادس

قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَلَيْتُمْ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ يَطْعَمُ

الإستفهام للإبكار أي لا أتخذ و الفاطر فاعل من فطر فطراً وهو في الأصل الشَّق طولاً و فطر الله الخلق أوجده و أبدعه على هيئة مترشحة بفعل من الأفعال.

قال بعضهم، فطر أي خلق و ابتدع من غير مثالٍ و عن ابن عباس أنه قال ما كنت أعرف معنى فطر حتى أتاني إعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما أنا أفطرتها أي اخترعتها و أنشأتها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام فطر الخلاق بقدرته و نشر الرياح برحمته، أي ابتدعها على غير مثالٍ سبق و معنى الآية قل، يا محمد لهؤلاء الكفار، أغير الله أتخذ ولياً، دخلت همزة الإستفهام على الإسم دون الفعل لأنَّ الإبنكار في إتخاذ غير الله ولياً، لا في إتخاذ الولي اذ لا إشكال في إتخاذ الولي اذا كان هو الله تعالى قال: **أَللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا** و أنما المنع في إتخاذ غير الله ولياً ثم وصف الله بأنه فاطر السموات والأرض أي أنه ابتدعها على غير مثالٍ سبق. و قوله: **وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ** أي أن الله الذي هو فاطر السموات والأرض يطعم الخلق و لا يطعم، أما أنه يطعم غيره لأنه الرزاق أو لأنه خالق الرزق فهو في الحقيقة مطعمٌ لخلقه.

و أما أنه لا يطعم بصيغة المجهول لأنه تعالى ليس بجسم و لا جسماني بل هو بسيط الحقيقة مجرد عن المادّة و لواحقها فلا يحتاج الى طعام و شراب و أمثالهما ممّا هو من شئون المادّة و الجسم ففي الكلام إشارة الى أن الولي الذي ينبغي له الولاية هو من كان متّصفاً بهاتين الصّفتين.

**أُحْدَاهُمَا:** أن يكون فاطراً خالقاً.

**الثانية:** أن يكون منزهاً عن الجسميّة و لوازمها و حيث أن الموجود المتّصف بهما لا يكون إلا الله تعالى فهو الولي حقّاً بحسب ذاته و لذلك قال على سبيل الإنكار أغير الله أتخذ ولياً الى آخر الكلام.

قُلْ إِنِّي أَمِرتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ  
أَيُّ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارُ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَأَنْ لَا  
أَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

قال بعض المفسرين معناه أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ خَضَعَ وَأَمِنَ وَعَرَفَ الْحَقَّ مِنْ  
قَوْمِي وَأَنْ أَتَرَكَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرْكِ، ومثله قوله: قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا  
أَوَّلُ الْعَابِدِينَ<sup>(١)</sup> بآته لم يكن لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ، قالوا يعني من هذه الأمة لآته قد  
عبد الله النَّبِيُّونَ والمؤمنون قبله ومثله قوله: سُبْحَانَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ  
الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٢)</sup>.

و محصّل الكلام هو أَنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِالْأَمْرَيْنِ معاً وهما أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ  
هذه الأمة وَأَنْ لَا أَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ أَنَّهُ تَعَالَى لِمَا بَيَّنَّ كَوْنَ رَسُولِهِ مَأْمُوراً  
بِالْإِسْلَامِ ثُمَّ عَقَبَهُ بِكَوْنِهِ مَتَّهِيّاً عَنِ الشَّرْكِ فَقَالَ بَعْدَهُ قُلْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ  
عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ أَمْرُ نَبِيِّهِ أَنْ يَقُولَ لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارُ أَنَّهُ يَخَافُ أَنْ  
عصاه عذابه وعقوبته فِي يَوْمٍ عَظِيمٍ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

أَنْ قُلْتُ دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعَصْيَانِ  
وَلَوْلَا أَنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ عَلَيْهِ لَمَا كَانَ خَائِفاً.

قلت ليس الأمر كذلك لِأَنَّ الْخَوْفَ مَعْلَقٌ عَلَى الشَّرْطِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ  
يَتَحَقَّقَ وَهُوَ الْعَصْيَانُ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مَعْصُوماً وَالْمَعْصُومُ لَا يَعْصِي اللَّهَ  
تَعَالَى فَهُوَ مُسْتَحِيلٌ فِي حَقِّهِ وَالْمَعْلَقُ عَلَى مَا لَا يَقَعُ لَا يَقَعُ فَالْخَوْفُ لَمْ يَقَعْ وَ  
بِعِبَارَةٍ أُخْرَى دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْخَوْفَ مِنَ الْعِذَابِ بِسَبَبِ الْمَعْصِيَةِ فَفِي  
صُورَةِ عَدَمِ الْعَصْيَانِ لَا خَوْفَ مِنَ الْعِذَابِ وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِنَا أَنَّ كَانَتْ الْخَمْسَةُ  
زَوْجاً كَانَتْ مُنْقَسِمةً بِمُتَسَاوِينَ وَإِذَا لَيْسَ فَلَيْسَ فَلَا يَدُلُّ الْكَلَامُ عَلَى كَوْنِهَا  
مُنْقَسِمةً بِمُتَسَاوِينَ وَلَا شَكَّ فِي تَحَقُّقِ الْخَوْفِ مِنَ الْعِقَابِ فِي صُورَةِ الْعَصْيَانِ  
ظَاهِرٌ.

## مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمٌ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ

المشهور بين القراء ضم الياء وقد قرئ بالفتح أيضاً بصيغة المعلوم وعليه فالفاعل هو الضمير العائد الى (ربّي) من قوله: إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي وَ التّقدير من يصرف هو عنه يومئذ العذاب و حجة هذه القراءة قوله: فَقَدْ رَحِمَهُ فَلَمَّا كَانَ هَذَا فِعْلاً مُسْنِداً إِلَى ضَمِيرِ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَ جَبَّ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ فِي تِلْكَ اللَّفْظَةِ الْأُخْرَى أَيْضاً عَلَى هَذَا الْوَجْهِ لِيَتَّفِقَ الْفِعْلَانِ وَ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فَصَرَفَ الْعَذَابَ مُسْنِداً إِلَيْهِ تَعَالَى وَ هَكَذَا الرَّحْمَةُ بَعْدَهُ أَيْضاً مُسْنَدَةٌ إِلَيْهِ وَ أَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ الضَّمِّ عَلَى مَا لَا يَسْمُ فَاعِلُهُ فَالتَّقْدِيرُ مِنْ يَصْرِفُ عَنْهُ عَذَابَ يَوْمٍ، وَ وَجْهٌ حَسَنٌ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ هُوَ إِضَافَةُ الْعَذَابِ إِلَى الْيَوْمِ فِي قَوْلِهِ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ فَلِذَلِكَ أَضَافَ الصَّرْفَ إِلَيْهِ وَ التَّقْدِيرُ مِنْ يَصْرِفُ عَنْهُ عَذَابَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ أَشْهَرُ وَ أَعْرَفُ وَ عَلَيْهَا الْمَصَاحِفُ وَ حَاصِلُ مَعْنَى آيَةِ الْعَلِّ عَلَى هَذَا هُوَ أَنَّ مَنْ يَصْرِفُ أَيَّ يَمْنَعُ وَ يَرْفَعُ عَنْهُ الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَدْ رَحِمَهُ اللَّهُ وَ ذَلِكَ أَيَّ شَمُولِ الرَّحْمَةِ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ هَذَا مَا قَالُوهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ وَ الَّذِي يَقْوَى فِي نَفْسِي فِي تَفْسِيرِهَا شَيْءٌ آخَرُ وَ هُوَ أَنَّهُ يَسْتَفَادُ مِنَ آيَةِ أَنَّ الْخَلَاصَ مِنَ الْعَذَابِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا يَكُونُ بَلَّ لَا يُمْكِنُ إِلَّا بِلَطْفِهِ وَ رَحْمَتِهِ بِمَعْنَى أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِدَاءِ وَظِيفَةِ الْعِبَادَةِ اللَّائِقَةِ بِحَالٍ مَعْبُودِهِ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ فِرْعَ الْمَعْرِفَةِ كَمَالاً وَ نَقْصاً وَ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْمَعْرِفَةَ الْكَامِلَةَ خَارِجَةٌ عَنْ قُدْرَةِ الْعَبْدِ وَ لِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ، وَ إِذَا لَمْ تَحْصِلِ الْمَعْرِفَةَ الْكَامِلَةَ كَيْفَ تَحْصِلُ الْعِبَادَةَ الْكَامِلَةَ فَالْمَخْلُوقُ مُقَصِّرٌ أَوْ قَاصِرٌ فِي عِبَادَتِهِ فَلَوْلَا رَحْمَتُهُ وَ فَضْلُهُ لَا يُمْكِنُ التَّخَلُّصُ مِنْ سَخَطِهِ كَمَا وَرَدَ فِي الدَّعَاءِ إِلَهِنَا عَامِلِنَا بِفَضْلِكَ وَ لَا تَعَامِلُنَا بِعَدْلِكَ، وَ لِأَجْلِ هَذِهِ الدَّقِيقَةِ قَالَ تَعَالَى: وَ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَأَيُّ فَوْزٍ أَحْسَنَ وَ أَعْظَمَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ لِمَنْ لَا يَكُونُ مُسْتَحَقّاً لَهَا حَقّاً وَ لَنَعْمَ مَا قَالَهُ السَّعْدِيُّ بِالْفَارَسِيَّةِ:

بر سايان حُسن عَمَلٍ إِعْتِمَادٍ نِست سَعْدِي مَگر بَسَايَةِ لَطفِ خِدا رَوَد

وَإِنْ يَمَسُّنَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّنَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

المَسُّ كَاللَّمَسِ لَكِنِ اللَّمَسُ قَدْ يَقَالُ لَطْلُبُ الشَّيْءِ وَأَنْ لَمْ يَوْجَدْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:  
وَأَلْمَسَهُ فَلَا أَجْدَهُ، وَأَمَّا أَلْمَسَ فَأَنَّهُ يَقَالُ لَمَّا يَكُونُ مَعَهُ إِدْرَاكٌ بِحَاسَّةِ  
اللَّمَسِ وَكُنِّي بِهِ عَنِ النِّكَاحِ فَقِيلَ مَسَّهَا وَمَاسَّهَا قَالَهُ الرَّاغِبُ فِي الْمِفْرَادِ وَ  
قَالَ فِي الضَّرِّ.

الضَّرُّ سُوءُ الْحَالِ أَمَّا فِي نَفْسِهِ لِقَلَّةِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَالْعَقَّةِ.  
وَأَمَّا فِي بَدْنِهِ لِعَدَمِ جَارِحَةٍ وَنَقِصٍ وَأَمَّا فِي حَالَةٍ ظَاهِرَةٍ مِنْ قَلَّةِ مَالٍ وَجَاهٍ  
أَنْتَهَى.

إِذَا عُرِفَتْ مَعْنَى الْمَسِّ وَالضَّرِّ فَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ النَّفْعَ وَالضَّرَّ إِلَّا اللَّهُ  
تَعَالَى عَقْلًا وَسَمْعًا أَمَّا السَّمْعُ فَظَاهِرُ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ وَمِنْهَا هَذِهِ الْآيَةُ وَأَمَّا  
الْعَقْلُ فَلَأَنَّ الْمَوْجُودَ أَمَّا وَاجِبٌ لِدَاتِهِ أَوْ مُمْكِنٌ كَذَلِكَ أَمَّا الْوَاجِبُ فَوَاحِدُ اللَّهِ  
تَعَالَى.

وَأَمَّا الْمُمْكِنُ فَكُلُّ مَا سِوَاهُ وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمُمْكِنَ لَا يَوْجُدُ إِلَّا بِإِيجَادِ  
الْوَاجِبِ أَيَّاهُ فَالْعَبْدُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَهُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى  
كُلِّ شَيْءٍ بِغَيْرِ إِرَادَةِ الْعَبْدِ وَمَشِيئَتِهِ فَهُوَ تَعَالَى لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ وَ  
هَذَا أَصْلُ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ فَأَنَّ الْعَبْدَ وَمَا فِي يَدِهِ كَانَ لِمَوْلَاهُ وَ  
عَلَيْهِ فَالضَّرُّ وَالنَّفْعُ بِيَدِهِ: قَالَ تَعَالَى: لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا<sup>(١)</sup>  
وَالْفَرْقُ بَيْنَ الضَّرِّ بِضَمِّ الضَّادِ وَالضَّرِّ بِفَتْحِهَا هُوَ أَنَّ الضَّرَّ بِالضَّمِّ الضَّرَرُ فِي النَّفْسِ  
مِنْ مَرَضٍ وَهَزَالٍ وَبِالْفَتْحِ الضَّرَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ هَكَذَا نَقَلَ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ.

و قد وردت الآيات فيهما فمن الضّر بالفتح:

قال الله تعالى: قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: قُلْ لَا أَفْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ<sup>(٢)</sup>.

وأمثالها من الآيات

ومن الضّر بالضم:

قال الله تعالى: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا<sup>(٤)</sup>.

وهكذا سيأتي الكلام في الضّر بالفتح في محله فقوله تعالى: فَلَا كَاشِفَ

لَهُ إِلَّا هُوَ معناه لا كاشف أي لا دافع ولا رافع له إلا هو والوجه فيه ظاهر

أما أولاً: فلأن الله تعالى هو الواضع للضر فهو الرفع أيضاً:

قال الله تعالى: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ<sup>(٥)</sup>.

وفي قصة أيوب:

قال الله تعالى: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ<sup>(٦)</sup>.

و أما العقل: فلما ثبت أن الله قادر على كل شيء والمخلوق لا يقدر على

شيء إلا بقدرته فقدرته الخلق من قدرته تعالى اذا ظهر هذا لك فاعلم أن كشف

الضر يتصور على قسمين:

أحدهما: أن يكون كشف الضر على سبيل الإعجاز من غير واسطة.

ثانيهما: كشفه بالواسطة ولا ثالث في البين وكلاهما في الحقيقة من الله

تعالى.

أَمَّا الْأَوَّلُ فَوَاضِحٌ وَأَمَّا الثَّانِي فَلَأَنَّ الْعَبْدَ وَمَا فِي يَدِهِ كَانَ لِمَوْلَاهُ وَإِنْ يَمْسَسُكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَيُّ كَمَا أَنَّ كَشْفَ الضَّرِّ بِيَدِهِ كَذَلِكَ إعطاء الخير تحت قدرته وحاصل الكلام في الآية الشريفة هو أَنَّ جميع الأمور بيده، فينبغي أَنْ لا يعتمد على غيره وإلى هذا المعنى أشار بقوله: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ والقاهر الغالب، والمعنى أَنَّ الله تعالى غالب على كُلِّ ما سواه عالم بجميع الأشياء.

**فالأول:** إشارة إلى كمال القدرة.

**الثاني:** إلى كمال العلم هكذا قيل والحقُّ أَنَّ قوله: وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ إشارة إلى أَنَّ فعله وإرادته على أساس الحكمة والمصلحة فكلُّ ما يصل منه إلى الخلق لا يكون إلا على وجه الحكمة والمصلحة ضرراً كان أو خيراً فَأَنَّ الدُّنْيَا دارُ بَلَاءٍ وإختبار فتارة يكون الإختبار بالضَّرِّ وتارة بالخير وَأَنَّ شئت قلت تارة بالمرض وتارة بالصحة وتارة بالفقر وتارة بالمال وهكذا والذي ينبغي للعبد في جميع أحواله هو التَّوَكُّلُ عليه تعالى والتَّسْلِيمُ لقضائه وقدره.

**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**

قال بعض المفسرين سألت قريش شاهداً على صحة نبوة محمد فقالوا أي دليل يشهد بأنَّ الله يشهد لك فقال ﷺ هذا القرآن تحديتكم به فعجزتم عن الإتيان بمثله أو بمثل بعضه.

وعن الكلبي أَنَّهُ قال أَنَّ رؤوساء مكة قالوا يا محمد ما نرى أحداً يصدِّقك فيما تقول في أمر الرسالة ولقد سألنا اليهود والنصارى عنك فزعموا أن ليس لك عندهم ذكرٌ ولا صفة فأرنا من يشهد لك أَنَّك رسول الله كما تزعم فنزل الله هذه الآية.

وقيل سأل المشركون لما نزل وأن يمسسك الله بضرِّ الآية، فقالوا من يشهد لك أَنَّ هذا القرآن منزل من عند الله عليك وَأَنَّهُ لا يضر ولا ينفع إلا الله

فَقَالَ ﷻ اللَّهُ وَهَذَا الْقُرْآنُ الْمَعْجَزُ، وَأَيُّ لِلِاسْتِفْهَامِ وَالْمَعْنَى قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْكَفَّارُ أَيُّ قُلْ لَهُمْ لِمَا سَأَلُوكَ عَنِ الشَّهَادَةِ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً (لَأَتِّهِمُ كَانُوا مُقَرَّرِينَ بِأَنَّهُ لَا شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً مِنَ اللَّهِ) وَإِذَا أَقْرَأُوا بِأَنَّهُ اللَّهُ حِينَئِذٍ أَمْرُهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ هُوَ الشَّهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ عَلَى مَا بَلَّغْتَكُمْ وَنَصَحْتَكُمْ وَقَرَّرْتَ عِنْدَكُمْ مِنْ أَنَّ إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ وَعَلَى بَرَاءَتِي مِنْ شُرَكَكُمْ وَالْوَقُوفُ عَلَى قَوْلِهِ: قُلِ اللَّهُ وَقَفَ تَامٌ، هَكَذَا قَرَّرَهُ فِي التَّبَيَّنِ.

وَقَالَ الطَّبْرَسِيُّ فِي الْمَجْمَعِ، قُلْ، يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْكَفَّارُ، أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ، أَيُّ أَعْظَمُ شَهَادَةً، وَأَصْدَقُ حَتَّى أَتِيَكُمْ بِهِ وَأَدْلَكُمْ بِذَلِكَ عَلَى أَنِّي صَادِقٌ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً حَتَّى يَشْهَدَ لِي بِالْبَلَاغِ وَعَلَيْكُمْ بِالتَّكْذِيبِ عَنِ الْجَبَائِثِ.

وَقِيلَ مَعْنَاهُ أَيُّ شَيْءٍ أَعْظَمُ حُجَّةً وَأَصْدَقُ شَهَادَةً عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فَإِنْ قَالُوا، اللَّهُ، وَإِلَّا فَقُلْ لَهُمُ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، يَشْهَدُ لِي بِالرَّسَالَةِ وَالنَّبُوءَةِ. وَقِيلَ مَعْنَاهُ لِيَشْهَدَ لِي بِتَبْلِغِ الرِّسَالَةِ إِلَيْكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ إِيَّايَ أَنْتَهَى كَلَامَهُ. وَقَالَ الطَّبْرِيُّ مِنَ الْعَامَّةِ مَعْنَاهُ قُلْ، يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ وَيَجْحَدُونَ نَبُوتَكَ مِنْ قَوْمِكَ، أَيُّ شَيْءٍ أَعْظَمُ شَهَادَةً وَأَكْبَرُ، ثُمَّ أَخْبِرْهُمْ بِأَنَّ أَكْبَرَ الْأَشْيَاءِ شَهَادَةُ اللَّهِ الَّذِي لَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ فِي شَهَادَتِهِ مَا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ فِي غَيْرِهِ مِنْ خَلْقِهِ مِنَ السَّهْوِ وَالْخَطَا وَالْغُلْطِ وَالْكَذِبِ ثُمَّ قُلْ لَهُمْ أَنَّ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ الْأَشْيَاءِ شَهَادَةً، شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ بِالْمَحَقِّ مَنَا مِنَ الْمَبْطَلِ وَالرَّشِيدِ مَنَا فِي فَعْلِهِ وَقَوْلِهِ مِنَ السَّفِيهِ رَضِينَا بِهِ حُكْمًا بَيْنَنَا أَنْتَهَى كَلَامَهُ.

وَأَنَا أَقُولُ مَنْشَأَ هَذَا الْإِخْتِلَافِ فِي نِظْمِ الْآيَةِ وَتَفْسِيرِهَا هُوَ أَنَّهُ هَلْ يُطْلَقُ الشَّيْءُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَوْ لَا يُطْلَقُ فَالْجَمْهُورُ مِنْهُمْ عَلَى صَحَّةِ إِطْلَاقِهِ عَلَيْهِ تَعَالَى لَفْظًا إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ كَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ مَعْنَى وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى الشَّيْئِيَّةِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ الَّتِي تُطْلَقُ عَلَى كُلِّ مَوْجُودٍ فَكُلُّ مَوْجُودٍ هُوَ شَيْءٌ وَكُلُّ شَيْءٍ هُوَ مَوْجُودٌ.



قال السبزواري في منظومته:

ما ليس موجوداً يكون كَيْساً      قد ساوَقَ الشَّيْءُ لَدِينَا الْبِيسَا  
والأيس الوجود عندهم والألف للإطلاق، فاذا كان الوجود مساوفاً للشَّيْءِ و  
مساوياً له فالله تعالى شَيْءٌ لَأَنَّهُ موجود.

و صورة القيلس هكذا، الله تعالى موجود، وكلّ موجودٍ فهو شَيْءٌ فالله تعالى  
شَيْءٌ، وخالفهم في ذلك الجهم ومن تبعه فَأَنَّهُمْ قالوا لا يطلق على الله شَيْءٌ ويجوز  
أن يسمّى ذاتاً وموجوداً قالوا وأنما لم يطلق عليه شَيْءٌ لقوله خالق كلِّ شَيْءٍ،  
فيلزم من إطلاق الشَّيْءِ عليه أن يكون خالقاً لنفسه وهو محال، ولقوله تعالى: **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** <sup>(١)</sup> والإسم أنّما يحسن لحسن مسمّاه وهو أن يدلّ على  
صفة كمالٍ ونعت جلالٍ ولفظ الشَّيْءِ أعمّ الأشياء فيكون حاصلاً في أخصّ الأشياء  
وأرذلها فلا يدلّ على صفة كمالٍ ولا نعت جلالٍ فوجب أن لا يجوز دعوة الله به  
لما لم يكن من الأسماء الحسنى ولتناوله المعدوم لقوله تعالى: **وَلَا تَقُولُوا**  
**لِبَشَائِرٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا** <sup>(٢)</sup> فلا يفيد إطلاق شَيْءٍ عليه إمتياز ذاته على سائر  
الذّوات بصفة معلومة ولا بخاصّةٍ مميّزة ولا يفيد كونه مطلقاً فوجب أن لا يجوز  
إطلاقه على الله ولقوله تعالى: **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** وذات كلّ شَيْءٍ مثل نفسه  
فهذا تصريح بأنّه تعالى لا يسمّى بإسم الشَّيْءِ ولا يقال الكاف زائدة لأنّ جعل  
كلمة من القرآن عبثاً باطلاً لا يليق ولا يصار اليه عند الصّرورة الشّديد انتهى.  
وأجاب الجمهور عنه بأنّ لفظ الشَّيْءِ أعمّ الألفاظ ومتى صدق العام و  
صدق كونه ذاتاً حقيقةً وجب أن يصدق كونه شيئاً.

وأما النّقل فاحتجّوا بهذه الآية وتقريره أنّ المعنى أيّ الأشياء أكبر شهادةً  
ثمّ جاء في الجواب قل الله، وهذا يوجب إطلاق الشَّيْءِ عليه وإنّدرجه في  
لفظ شَيْءٍ المراد به العموم ولو قلت أيّ النّاس أفضل فقل جبريل لم يصحّ لأنّه  
يندرج في لفظ النّاس.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

وبقوله تعالى: **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** والمراد بوجهه ذاته والمُستثنى يجب أن يكون داخلاً تحت المستثنى منه فدل على أنه يطلق عليه شيء هذا ملخص استدلال الطرفين عقلاً ونقلًا على المدعى ونحن نقول، كلمة، الشيء تارة يقال ويعني بها معناها المصدري وهو الذي لا يكون الذات مأخوذاً فيه فهو يطلق على كل موجود واجباً كان أو ممكناً فيدخل في الحكم واجب الوجود لأن الشيء بهذا المعنى مساوٍ للوجود وحيث ثبت له تعالى الوجود فقد ثبت له أنه شيء إذ نفي الشيئية عنه نفي الوجود عنه وهو كما ترى.

وتارة يقال هذا شيء ويعني به غير معناه المصدري لأن المصدر قد يكون بمعنى إسم الفاعل كما قد يكون بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق وعلى هذا المعنى يكون الذات مأخوذاً فيه فالشيء معناه المشي أي ذات ثبت له الشيء وإذا اعتبر كذلك لا يطلق على الله تعالى قطعاً لأن الله تعالى شيء لا ذات ثبت أو عرض له الشيء إذ لو كان كذلك فهو مركب من الذات والشيء وأن شئت قلت من العارض والمعرض ولا نعني بالتركيب إلا هذا ولذلك نقول أن الواجب تعالى حقيقة الوجود وصرفه لا أنه ذات ثبت له الوجود حتى إذا قلنا أنه تعالى موجود لا نعني بالموجود هناك إلا صرف الوجود لا ذات ثبت له الوجود كما في غير الواجب من الممكنات إذا عرفت هذا.

**فأعلم** أن هذا اللفظ كلما يطلق على الله فهو بمعناه المصدري أي نفس الوجود من غير إعتبار الذات فيه وأما إذا أطلق على غير من الموجودات فهو بمعنى المشي أي ذات ثبت و عرض له الشيء وأن شئت قلت ذات ثبت له الوجود إذ لا نعني بالشيء إلا الوجود فما ذهب اليه المشهور من المفسرين وغيرهم من أن الشيء يطلق عليه تعالى أن أردوا به معناه المصدري البسيط فهو حق لا إشكال فيه أرادوا معناه الآخر وهو المشي أي ذات ثبت له الشيء فهو باطل إذ الشيء بهذا المعنى مركب من الماهية والوجود والعارض والمعرض تعالى منزّه عن التركيب سواء كان التركيب خارجياً كالمادة والصورة أو عقلياً

كالجنس والفصل حتّى نقول أنّ الصّفات هناك عين الذات حذراً عن التّركيب و أمّا قول الجهم ومن ومن تبعه من أنّ اللفظ لا يطلق على الله مطلقاً فهو أيضاً باطل لما ذكرناه من أنّ الشّيء بالمعنى البسيط المصدرى يطلق عليه كما أن الوجود والموجود يطلق عليه فقولهم لا يطلق عليه لأنّه خالق كلّ شيء، شطط من الكلام و ذلك لأنّ المراد بقوله: **خالق كلّ شيء** أي خالق كلّ موجودٍ فإنّ الشّيء المخلوق هو المشي لا نفس الشّيء وبعبارة أخرى معنى خالق كلّ شيء، أنّه خالق كلّ من يتّصف بأنّه شيء لا أنّه خالق نفس الشّيء الذي هو الوجود و الوجود لا يكون مخلوقاً وإلا يلزم سلب الشّيء عن نفسه أو إتصافه بنقيضه و هو محال و بذلك ظهر لك بطلان قوله فيلزم من إطلاق شيء عليه أن يكون خالقاً لنفسه و هو محال.

وجه البطلان أنّه خالق الشّيء بمعنى المشي لا خالق الشّيء بمعناها البسيط. و أمّا قوله: **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** <sup>(١)</sup> و الإسم أنّما يحسن لحسن مسماه الى قوله فيكون حاصله في أحسن الأشياء فهو أعجب لأنّ الشّيء الذي يطلق على أحسن الأشياء غير الشّيء الذي يطلق عليه تعالى لما ذكرناه من الفرق من أنّ الذات معتبر فيما يطلق على المخلوق و غير معتبر فيما يطلق على الله فهو شيء لا كالأشياء معنأ الى أنّ لفظ الموجود يطلق على الله و على أحسن الأشياء ظاهر فهل يجوز لقائل أن يقول أنّ لفظ الموجود لا يطلق عليه تعالى أو لا يصح أن يطلق و محصل الكلام هو أنّ الملاك في المعنى لا في اللفظ فإنّ اللفظ حالك عن المعنى و لا عبرة به مع قطع النّظر عن الحكاية و حيث أنّ لفظ الموجود أو الشّيء في حقّه تعالى حالك عن بساطته و بعبارة أخرى لانعني بهما ذات ثبت له الوجود أو ذات ثبت له الشّيء حتّى يلزم التّركيب بل المراد نفس الوجود و الشّيء فلا إشكال فيه.

فبدأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

وأما إطلاق الشّيء على المعدوم فهو مجاز لا حقيقة، إذ ما ليس موجوداً يكون ليساً، أو باعتبار وجوده الذّهني وأن لم يوجد في الخارج فمعنى العبارة أنّ الشّيء يطلق على المعدوم في الخارج.

وأما على المعدوم المطلق فلا ثبت و تحقّق ممّا ذكرناه أنّ الشّيء بمعناه المصدرى يطلق على الله ولا إشكال فيه عقلاً و شرعاً فكلّمًا أطلق أو يطلق الشّيء عليه فهو بهذا المعنى و أمّا بالمعنى الثّاني و هو ذات ثبت أو عرض له الشّيء فلا و بهذا التّحقيق يندفع الإشكال بل يقع الصّلح بين الطّرفين فأفهم و أغنم.

والى ما ذكرناه وحقّقناه أشار أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة حيث قال في وصفه تعالى مع كلّ شيء لا بمقارنة و غير كلّ شيء لا بمزايلة. و قال سبق في العلوّ فلا شيء أعلى منه و قرب في الدنوّ فلا شيء أقرب منه فلا يستعلاؤه باعده عن شيء من خلقه الخ.

و قال: وله الإحاطة بكلّ شيء و الغلبة لكلّ شيء و القوّة على كلّ شيء الخ. و قال الأوّل الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله و الآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده و نظائرها كثيرة و المقصود أنّ إطلاق الشّيء عليه تعالى بحسب الآيات و الأخبار فوق الإحصاء فكيف يمكن أن يقال أنّه ليس بشيء و أمّا القوم حيث لم يعلموا الفرق بين المعنيين المذكورين فيه فوقوا فيما وقعوا من الخبط و الاشتباه.

نعم أنّه تعالى شيء لا كالأشياء أي كالأشياء التي كانت الشّيئية عارضة لوجودها و بعد ذلك فلنرجع الى تفسير الآية.

و نقول في نظم الآية من حيث التّركيب و الإعراب احتمالان. أحدهما: أنّ قوله: **أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً** مبتدأ و خبره، الله، و هذا معنى قولهم، و الوقوف على قوله: **قُلْ لِلَّهِ وَ قَفْ تَامَ**، و عليه ف قوله شهيد بيني و بينكم خبر مبتدأ محذوف تقديره هو شهيد بيني و بينكم.

ثانيهما: أن يكون الجواب محذوفاً، وقوله: **قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** مبتدأ وخبر ذي جملة مستقلة بنفسها لا تعلق لها بما قبلها من جهة الصنعة الإعرابية بل قوله: **قُلِ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً** هو إستفهام على جهة التقرير و التوقيف ثم أخبر بأن خالق الأشياء و الشهود هو الشهيد بيني وبينكم فانتظم الكلام وكيف كان فالمعنى هو أن الله شهيد بيني وبينكم أيها الكافرون وأي شيء أكبر شهادة منه تعالى: **وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ** وقتاً تاماً أي ومن بلغه القرآن الذي أنذرتكم به، وفيه إشارة بل دلالة على أن القرآن لم ينزل لزمانٍ خاصٍّ أو لقومٍ خاصٍّ بل لحاله إلى يوم القيامة و حرامه كذلك و أيضاً إشارة إلى الإشتراك في التكليف لأن قوله: **لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ** يدل على أن الإنذار لا يختص بقوم دون قوم وزمانٍ دون زمان بل هو عام لجميع المكلفين الحاضرين منهم حين الخطاب و الغائبين إلى يوم القيامة نعني بالإشتراك إلا هذا: **إِن كُنْتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ.**

قالوا معنى الإستفهام التّقرير لهؤلاء الكفار و التّوبيخ و الإنكار عليهم فإن الخطاب لأهل مكة و المراد بالآلهة الأصنام فأنهم كانوا أصحاب أوثان. و قيل الخطاب لجميع المشركين و المراد بالآلهة كلّ ما عبد غير الله تعالى من وثنٍ أو كوكبٍ أو نارٍ أو غيرهما.

وقوله، أخرى صفة الآلهة و صفة جمع ما لا يعقل كصفة الواحدة المؤنثة كقوله تعالى: **وَلَيْ فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَىٰ** <sup>(١)</sup> و الأسماء الحسنی و لما كانت الآلهة حجارة و خشباً أجريت هذا المجزئ ثم أمر نبيّه فقال له، يا محمد لا أشهد، بما تشهدون به من أن مع الله آلهة أخرى بل قل لهم أي لهؤلاء الكفار إنما هو إله واحد و إني برىء مما تشركون كلمة، إنما تفيد الحصر و المعنى أن الإله الذي ينبغي أن يعبد و يستعان به منحصر في واحد لا شريك له في

الملك و اذا كان كذلك وَ اِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ أَي مِمَّا تجعلونه شريكاً له تعالى من الأوثان والأصنام والكواكب وغير ذلك.

وإعلم أَنَّ الواحد له أقسام حَقِيقِي، وغير حَقِيقِي، فالواحد الحقيقي ما لا يحتاج في الإِتِّصاف بالوحدة إلى الوسطة في العروض وعبارة أخرى ما هي وصفه بحال لا بحال متعلفه، وغير الحقيقي بخلافه لأنه في الإِتِّصاف بالوحدة يحتاج إلى الوسطة في العروض.

ثمَّ الحقيقي أمَّا هو ذات له الوحدة أو لا بل هو نفس الوحدة العينية لا مفهومه الدّهني العنواني وهذه أي نفس الوحدة هي المعبر عنه بالوحدة الحقّة التي هي حقّ الوحدة كالحقّ الواحد فاذا قلنا أنّه تعالى واحد نعني به هو نفس الوحدة لا ذات ثبت له الوحدة بمعنى أن تكون الوحدة عارضة عليه اذ مقتضى العروض معلوليته.

و أمّا الواحد بالمعنى الأول أعني به ذات له الوحدة فهو على أقسام لأنّ الواحد بهذا المعنى أمّا واحد بالخصوص، و أمّا واحد بالعموم المفهومي وهو إمّا نوعي أو جنسي أو عرّضي على مراتبها والواحد بالخصوص أمّا غير منقسم و أمّا منقسم إلى آخر ما قالوا في أقسامها والدليل على أنّه تعالى واحد بالوحدة الحقّة هو أنّه تعالى صرف الوجود و حقيقته و قد يعبر عنه بالوجود بشرط لا.

و قد ثبت في العلوم العقلية أنّ صرف الوجود لا يكون معروضاً للكثرة بمعنى أنّ الكثرة لا تعرض عليه أبداً، وذلك لأنّه أي صرف الوجود لا يخلو أمّا يقتضي الوحدة أولاً واولاً على الثاني أمّا أن يقتضي الكثرة أولاً يقتضي الكثرة الوحدة.

على الأول: أعني به إقتضاء الوحدة فالمطلوب حاصل.

على الثاني: فإن إقتضى الكثرة فالواحد لا يحصل أبداً اذ المفروض أن صرف الوجود يقتضي الكثرة لا الوحدة فمن أين يحصل الواحد و اذا لم يوجد

الواحد فكيف يقتضي الكثرة والمفروض أنَّ الكثير مبدؤه الواحد وأما أنه لا يقتضي الكثرة ولا الوحدة فهو غير معقول لأنَّ الشَّيْءَ أَمَّا واحد أو كثير فثبت و تحقق أنَّ صرف الوجود يقتضي الوحدة وهو المطلوب و عليه فصورة القياس، أنَّ الواجب تعالى هو صرف الوجود و حقيقته، و صرف الوجود يقتضي الوحدة ينتج أنَّ الواجب يقتضي الوحدة بحسب ذاته و حقيقته وهو المطلوب فثبت عقلاً أنَّ الإله واحد.

دليل آخر أنَّ الكثرة أَمَّا نوعية، و أَمَّا عدَّدية.

### والأول: تحصل بالمهيات.

الثاني: أعني به العدَّدية فإن كانت في الجواهر فبالمادة و لواحقها و أن كانت في الأعراض فبالموضوعات، و حيث أنَّ صرف الوجود لا مهية له فلا يدخل تحت الكثرة النوعية و حيث أنه لا موضوع و لا مادة له فلا يدخل تحت العدَّدية فاذاً لا كثرة فيه و هو المطلوب.

و أتما قلنا لا مهية له و لا موضوع له و لا مادة له لأنَّ المفروض أنه بسيط فلو كان متصفاً بهذه الأمور لصار مركباً و كلَّ مركب محتاج معلول لغيره و هو كما ترى خلاف الفرض.

و أما الأدلة العقلية فهي كثيرة لا نحتاج الى ذكرها لوضوحها.

قال الله تعالى: **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ**<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ**<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ**<sup>(٤)</sup> و غيرها من الآيات.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ فَمَعْنَاهُ وَاضِحٌ لِأَنَّ الْعَقْلَ يَحْكُمُ  
بِهَذِهِ الْبَرَاءَةِ قَطْعاً.

الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا  
أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمْ الْكِتَابَ المراد بهم اليهود والنصارى، يعرفونه، أي  
يعرفون الكتاب وما فيه من الأحكام وقيل مرجع الضمير النبي ﷺ والمعنى  
أنهم يعرفون الرسول بالأوصاف التي هي مذكورة في كتابهم كما يعرفون  
أبنائهم مرّ الكلام فيها في سورة البقرة آية ١٤٦.

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ قد مرّ الكلام فيه من قريب<sup>(١)</sup> فلا نعيد  
الكلام بذكر ما مضى ثانياً حذراً من الإطناب





وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ  
بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَيَوْمَ  
نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ  
شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ  
فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ  
(٢٣) أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ  
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ  
الَيْنِكَ وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي  
أَذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا  
حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَ هُمْ يَنْهَوْنَ  
عَنْهُ وَيَتَأَوَّنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا  
يَشْعُرُونَ (٢٦) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ  
قَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبَّنَا وَ  
نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا  
يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ  
وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَ قَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا  
الدُّنْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ  
وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا  
بَلَىٰ وَ رَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ  
تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ  
حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا

عَلَى مَا قَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ  
عَلَى ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١)

### ◀ اللغة

آفَرَى، افترى إفتراء عليه الكذب، إختلقه.  
أَكَنَّهُ بفتح الألف وكسر الكاف وفتح النون المشددة جمع، كنان، بكسر  
الكاف وهو كالغطاء والأغطية.  
وَقَرَّأ، الوقر بفتح الواو وسكون القاف الثقل.  
أَسَاطِيرُ جمع أسطورة وإسطارة مأخوذة من سطر الكتاب وقال  
الأخفش، أساطير جمع لا واحد له.  
يَنَآوُنْ عَنْهُ يُقال أنأى عنه أي أبعد.

### ◀ الإعراب

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ في موضع رفع بالإبتداء ويعرفونه الخبر الَّذِينَ  
خَيْرٌ وَأَمْثَلُ الأولى وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ هو مفعول به والتقدير وأذكر يوم  
نحشرهم وجميعاً حال من ضمير المفعول ومفعولاً تَزْعُمُونَ محذوفان أي  
تزعمونهم شركاءكم ودل على المحذوف ما تقدم فتنهتهم رفع الفتنة على أنها  
إسم كان وأن قالوا الخبر رَبَّنَا يقرأ بالجر صفة لإسم، الله وبالنصب على  
النداء أو على إضمار أعني وهو معترض بين القسم والمقسم عليه والجواب  
مَا كُنَّا.

أَنْ يَقْفَهُوه مفعول لأجله أي كراهة أن يفقهوه وَقَرَّأَ معطوف على أَكَنَّهُ،  
وحذ الوقر هنا لأنه مصدر حتَّى إذا في موضع نصب بجوابها وليس،  
لحتَّى، هنا عمل ويُجَادِلُونَكَ حال من ضمير الفاعل في جاؤكَ يَنَآوُنْ بفتح

الباء وسكون النون وتحقيق الهمزة، وبالقاء حركة الهمزة على النون وحذفها فيصير اللفظ بها، ينون، بفتح النون وواو ساكنة بعدها و أنفُسُهُمْ مفعول، يهلكون، وَلَوْ تَرَىْ جِواب لو محذوف تقديره لشهادت أمرًا عظيمًا وَلَا نُكْذِبُ وَ نَكُونُ يَقْرَأ بالرفع وفيه وجهان:

أحدهما: هو معطوف على، نردُّ، فيكون عدم التّكذيب والكون من المؤمنين متمنين أيضاً كالرّد.

الثاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي ونحن لا نكذب.

### ◁ التفسير

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

لما حكم في الآية السابقة على هؤلاء المنكرين بالخسران حيث قال: الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بَيَّن في هذه الآية سبب ذلك الخسران أمران: أحدهما: إفتراءهم الكذب على الله والى هذا أشار بقوله: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا.

الثاني: من أسباب خسرانهم تكذيبهم بآيات الله.

أما السبب الأول أعني به إفتراءهم على الله فقد ذكروا فيه وجوهاً. أحدها: ما ذهب اليه الطبري وهو أن المراد بقوله: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يعني مِمَّنِ إختلق على الله قيل باطل وإخترق من نفسه عليه كذباً فزعم أن له شريكاً من خلقه وإلهاً يعبد من دونه كما قاله المشركون من عبدة الأوثان، أو ادعى له ولداً أو صاحبة كما قالته النصرى أو كذب بآياته بقول أو كذب بحججه وأعلامه وأدلتها التي أعطاها رسله على حقيقة نبوتهم كذبت بها اليهود.

**الثاني:** ما نقله الرّازي في تفسيره وهو أنّ كفّار مكّة كانوا يقولون هذه الأصنام شركاء الله والله تعالى أمرهم بعبادتها والتّقرب إليها وكانوا أيضاً يقولون أنّ الملائكة بنات الله ثمّ نسبوا إلى الله تحريم البحائر والسّوائب. وقيل أنّ اليهود والنّصارى كانوا يقولون حصل في التّوراة والإنجيل أنّ هاتين الشّريعتين لا يتطّرق إليهما النّسخ والتّغيير وأنهما لا يجيئ بعدهما نبى. ونقل قولاً ثالثاً، وهو أنّ ما ذكره الله تعالى في قوله: **وَإِذَا فَعَلُوا فَاجِسَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا**<sup>(١)</sup>.

وقيل أنّ اليهود كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباءه وأيضاً كانوا يقولون: **لَنْ نَمْسَسَ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**<sup>(٢)</sup>.

وقيل أنّ بعض الجهال منهم كان يقول أنّ الله فقير ونحن أغنياء وأمثال هذه الأباطيل التي كانوا ينسبونها إلى الله كثيرة وكلّها إفتراء منهم على الله انتهى ما نقله الرّازي من الوجوه.

**أقول** ما ذكروه في معنى الإفتراء لا بأس به إلا أنّ الآية محمولة على العموم والمعنى أنّ المفترى على الله ظالم سواء كان من الكفّار أو من غيرهم حتّى من المسلم في صدر الإسلام أو في زماننا هذا وذلك لأنّ الله تعالى حكم حكماً عاماً بأنّه **مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا** ولم يقيد بزمان دون زمان أو بفرقة دون فرقة وخصوص المورد فيها لا ينافي عموم الحكم كما بيّناه مراراً فيدخل في الحكم تفسير الآيات بالرأي كما تراه في التفاسير التي لم يؤخذ تفسير الآيات فيها عن أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهرهم تطهيراً.

وأما السّبب الثّاني، وهو تكذيبهم بآيات الله، فقليل أنّ المراد بها المعجزات والقرآن أي تكذيبهم بمعجزات النّبي وعلّمهم أيّاها على السّحر وتكذيبهم القرآن أي إنكارهم أنّه كلام الله، والحقّ أنّ الآيات أيضاً محمولة على

الأعم من التكوينية والتشريعية وذلك لأن الآية في الأصل هي العلامة وهي على قسمين.

**أحدهما:** الآيات الموجودة في الكتب السماوية ويعبر عنها بالآيات التشريعية وذلك لأنها متكلفة لبيان الأحكام الشرعية.

**ثانيها:** الآيات الموجودة في عالم التكوين أي عالم الخلق فمن أنكر كونها مخلوقاً مصنوعاً لله تعالى فقد كذب بآيات الله وفي رأسها الأنبياء والأوصياء بل الحق أنهم من أعظم الآيات وأرفعها فمنكر النبي والوصي مكذب بآيات الله قطعاً: إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ أي لا يظفرون بمقاصدهم في الدنيا والآخرة بل يبقون في الحرمان والخذلان وإذا كان الظالم لا يفلح فالأظلم بطريق أولى:

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ

قرأ يعقوب، يحشرهم ثم يقول، بالياء فيهما والباقون بالنون فمن قرأ بالياء ردّه إلى الله في قوله: عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وتقديره يوم يحشرهم الله فيقول ومن قرأ بالنون ابتدأ وتقدير الآية أذكر يوم نحشرهم جميعاً يعني يوم القيامة والجمهور قرأوا هكذا وعليها المصاحف فعلاً والمراد باليوم هو يوم القيامة لأنهم يحشرون فيه جميعاً من قبورهم إلى موضع الحساب بأمر من الله تعالى ولذلك قال نحشرهم ثم أَدَّ الله تعالى يقول لهؤلاء المشركين الذين عبدوا الأصنام والأوثان وغيرهما في دار الدنيا، أين شركاءكم الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي في زعمكم وأما يقول هذا تويخألهم وتكبيتاً على ما كانوا عليه وكانوا يعتقدون أنهم شركاء الله وأنها تشفع لهم يوم القيامة فاذالم يجدوا شيئاً يعلمون أنهم كانوا كاذبين في أقوالهم.

في القرآن  
في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ

والمعنى ثم لم يكن حبهم الأصنام وإعجابهم وإتباعهم لها لما سئلوا عنها ووقفوا على عجزها إلا التبرء فيها والإنكار لها وفي هذا توبيخ لهم، وقال الزمخشري المراد بالفتنة الكفر والمعنى ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزمه إعمارهم وقاتلوا عليه وإفتخروا به وقالوا دين أبائنا لا جحوده والتبرء منه والحلف على الإنتفاء من التدين به ويجوز أن يراد، ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا كذا فسمي فتنة لأنه كذب انتهى كلامه.

وقال الحسن هذا خاص بالمنافقين جروا على عاداتهم في الدنيا، وقيل هم قوم كانوا مشركين ولم يعلموا أنهم مشركون فيحلفون على إعتقادهم في الدنيا وقرأ الجمهور ثم لم تكن بالتاء وقرأ حمزة والكسائي لم يكن، بالياء إختلفوا في إعراب ربنا، فقرأ حمزة والكسائي وخلف، وَ اللَّهِ رَبِّنا بنصب الياء والباقون بكسرها، فمن نصبها قال تقدير الكلام أعني ربنا، أو يا ربنا.

ومن قال بالكسر فعلى جعل الإسم المضاف وصفاً للمفرد لأن قوله: وَ اللَّهِ جَرَّ بَواو القسم، فمعنى الآية أنه تعالى لما ذكر قصص المشركين الذين كانوا مفتنين بشركهم أعلم النبي ﷺ أن إفتنانهم به وإقامتهم عليه لم يكن إلا أن تبرأوا منه وقالوا أنهم ما كانوا مشركين.

فإن قيل كيف قالوا ذلك وحلفوا على أنهم ما كانوا مشركين وهل هذا إلا كذب والكذب قبيح ولا يجوز من أهل الآخرة أن يفعلوا قبيحاً. قلت أجابوا عنه بوجوه:

أحدها: ما نقل عن البلخي وهو أن القوم كذبوا على الحقيقة لأنهم كانوا يعتقدون أنهم على الحق ولا يرون أنهم مشركون كالنصارى ومن أشبههم فقالوا في الموقف ذلك.

ثانيها: قال الجبائي قولهم: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ أخبار منهم أنهم لم يكونوا مشركين، عند أنفسهم في دار الدنيا لأنهم كانوا يظنون أنهم على

الحقَّ فقال الله تعالى: **أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** أي أنظر يا محمد، كيف كذبوا على أنفسهم، في دار الدنيا، لا أنهم كذبوا في الآخرة، و ضلَّ عنهم ما كانوا يفترون أي ضلَّت عنهم أوثانهم التي كانوا يعبدونها و يفترون الكذب بقولهم أنهم شفعاءنا عند الله غداً فذهبت عنهم في الآخرة فلم يجدوها ولم ينتفعوا بها.

**ثالثها:** أنه يجوز أن يكذبوا يوم القيامة للذهول و الدهش لأنهم يصيرون كالصبيان الذين لا تمييز لهم ولا تحصيل معهم.

**رابعها:** أنهم أملوا أملاً فخاب أملهم ولم يقع الأمر على ما أرادوا لأن من عادة الناس أنهم اذا عوقبوا بعقوبة فتكلموا و إستعانوا و صاحوا فأَنَّ العذاب يسهل عليهم بعض السهولة و ظنُّوا أَنَّ عذاب الآخرة كذلك فقالوا ربنا ما كنا مشركين:

قال الله تعالى: **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا** <sup>(٢)</sup>.

وهكذا فأملوا أن يخف عنهم العذاب بمثل هذا الكلام على عادة الدنيا فلم يخف ولم يكن لهم فيه راحة فقال الله، أنظر كيف كذبوا على أنفسهم، أي خابوا فيما أملوا من سهولة العذاب وذلك مشهور في كلام العرب قال الشاعر:

كذبتُم وبَّيت الله لا تأخذونها مُراغمة ما دام للسيف قائم

وقال آخر:

كذبتُم وبَّيت الله لا تُنكحونها بني شاب قرناها تُصّر وتَحلب

أي كذبكم أملككم و منهم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا أي و من أهل الكتاب و المشركين و قيل يعني قريشاً، من يستمع اليك أي يجالسك للإستماع و الإصغاء منك و لكن جعلنا

على قلوبهم أكنةً أغطية لأتتهم لا يفقهوه لا لفهم الكفر وشدّة عداوتهم وفي أذانهم وأسماعهم وقرأ، أي ثقلاً مانعاً عن الإستماع، وهما أي الأكنة والوقر كناية عن عدم تفقّهم بعد الإستماع وذلك لأنّ الإستماع اذا لم يكن فيه تفقّة وتدبّر فهو كالعدم لأنّه أي التفقّه ثمره الإستماع ونتيجته:

قال الله تعالى: **لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ<sup>(١)</sup>**.

لم يقل الله تعالى ليس لهم قلوب أو ليس لهم أعين أو أذان، بل أثبت لهم الثلاثة ثم نفى عنهم التفقّه والتبصّر والإستماع إشارة الى أنّ هذه الشجرة لا ثمرة لها فهي كالعدم ولذلك ترى التعابير بالنسبة الى هؤلاء في كتاب الله مختلفة فتارة يعبر بالطبع على قلوبهم:

قال الله تعالى: **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ<sup>(٢)</sup>**.  
وتارة يعبر بالعمى:

قال الله تعالى: **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ<sup>(٣)</sup>**.  
وتارة بالقفل عليها:

قال الله تعالى: **أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا<sup>(٤)</sup>**.  
وتارة بالختم:

قال الله تعالى: **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً<sup>(٥)</sup>**.

وتارة بالمرض:

قال الله تعالى: **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا<sup>(٦)</sup>**.



والآيات بهذه المضامين كثيرة والمآل واحد.

عبارتنا شَتَّى وَحُسْنِكْ واحِدٌ وَكُلُّ النِّى ذاك الجمال يُشير

والمقصود من الكل هو ما ذكرناه ولا يذهب عليك أَنَّ الله تعالى خلقهم كذلك ثُمَّ يعاقبهم عليه فَأَنَّ الله أَجَلٌ شَأْنًا وَأَعْظَمُ قَدْرًا من أن يخلق العبد كذلك ثُمَّ يعاقبه عَلَى ما خلقه عليه لَأَنَّهُ من أَعْظَمِ الظُّلْمِ، بل المراد أَنَّهُم أي الكفَّار والعصاة كانوا قادرين عَلَى متابعة الأنبياء والإِتِّعَاضَ بمواعظهم ومع ذلك خالفوهم في أوامرهم ونواهيهم وإِتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَأَمْيَالَهُمْ وقد ثبت أَنَّ المعصية توجب قساوة القلب وإذا قَسَى القلب لا يَتَّقُهُ وكذلك السَّمْعُ والبصر إِلَّا أَنَّ وظيفتهما الإدراك فقط والحاكم في البدن هو القلب ومحصل الكلام هو أَنَّ الباعث عَلَى الشَّقَاوَةِ والخسران ليس إِلَّا الإنسان نفسه لَأَنَّهُ تعالى جعله مختاراً في دار الدُّنْيَا فمن شاء فليؤْمِنْ ومن شاء فليَكْفِرْ وما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ للعبيد.

إِنْ قُلْتَ أَنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتَ فَلَمْ لَمْ يَقُلْ، وَجَعَلُوا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً غَيْرَهَا مِنَ الْآيَاتِ بَلْ قَالَ وَجَعَلْنَا أَلَيْسَ هَذَا دَلِيلًا وَاضِحًا عَلَى أَنَّ الْجَاعِلَ وَالْخَالِقَ هُوَ اللَّهُ.

قُلْتُ إِنَّمَا قَالَ وَجَعَلْنَا وَلَمْ يَقُلْ وَجَعَلُوا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَوْفَقْهُمْ لِلإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ أَوْ لَمْ يَهَيِّئْ لَهُمْ سَبَابَ الصَّلَاحِ وَالسَّدَادِ لِأَجْلِ مَعَاصِيهِمْ وَاسْتِمْرَارِهِمْ عَلَيْهَا مَعَ قُدْرَتِهِمْ عَلَى تَرْكِهَا فَهُمْ بِإِخْتِيَارِهِمْ سَلَبُوا التَّوْفِيقَ وَالْقَابِلِيَّةَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَنْ شِئْتَ قُلْتَ التَّوْفِيقَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ وَجُودِ الْقَابِلِيَّةِ فِي الْعَبْدِ وَهِيَ لَا تَحْصُلُ لَهُ إِلَّا بَعْدَ الْإِيمَانِ وَتَرْكِ الْمَعَاصِي فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ لَمْ يَكُنْ قَابِلًا لِعَصِيَانِهِ لِذَاتِهِ فَنَسَبَ الْجَعْلَ إِلَيْهِ تَعَالَى إِنَّمَا كَاشَفَهُ عَنْ أَنَّ اللَّهَ تَرَكَهُ وَكَلَهُ إِلَى نَفْسِهِ لِمُتَمَرِّدِهِ وَعَصِيَانِهِ وَمَنْ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ يَصِيرُ لِلشَّيْطَانِ وَأَسِيرًا تَحْتَ قُدْرَتِهِ وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ صَحَّ أَنْ يَقَالَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً، أَيْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَقَلْنَا ذَرِهِمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ، لَأَنَّهُمْ تَابَعُوا

الشَّيْطَانُ وَتَرَكُوا الْحَقَّ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ وَتَمَرَّدُوا عِنْدَ أَنْهُمْ أَلْطَافُهُ عَقُوبَةُ لَهُمْ حَيْثُ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِذَلِكَ أَشَارَ فِي الْكَلَامِ إِلَى عِلَّةٍ مَنَعَ اللَّطْفَ عَنْهُمْ فَقَالَ: وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا لِعِنَادِهِمْ وَالْمُعَانَدُ لَا يَقْبَلُ الْحَقَّ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ كَانُوا إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ مِنَ النَّبِيِّ آذَوْهُ وَرَجَمُوهُ وَشَغَلُوهُ عَنْ صَلَاتِهِ فَحَالَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِسْتِمَاعِ ذَلِكَ فِي تِلْكَ الْحَالِ بِأَنْ أَلْقَى عَلَيْهِمُ النَّوْمَ إِذَا قَعَدُوا يَرْصُدُونَهُ فَكَانُوا يَنَاقِشُونَ فَلَا يَسْمَعُونَ قِرَائَتَهُ وَلَا يَفْقَهُونَ أَنَّهُ قُرْآنٌ حَتَّى أَنَّهُمْ إِذَا دَخَلُوا إِلَيْهِ كَانَ غَرَضُهُمُ الْجِدَالَ وَالْمُخَاصَمَةَ وَالِاسْتِهْزَاءَ ثُمَّ الْإِنْكَارَ لَا الرَّشَادَ وَالنَّظَرَ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَنُبُوَّةِ نَبِيِّهِ وَكَانُوا يَرِيدُونَ ذَلِكَ بِأَنْ يَقُولُوا هَذَا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ يَعْنُونَ أَنَّهُ أَيْ الْقُرْآنُ مِنْ كَلَامِ الْأَوَّلِينَ وَحَوَادِثِهِمْ وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا<sup>(١)</sup>.

قال بعض المفسرين قوله وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، بمنزلة التعليل لجعله قلوبهم في أكِنَّة، والوقر في آذانهم، فكأنه قال أنما فعلت ذلك لعلمي بأنهم لا يؤمنون وأنه ليس في سماعهم ذلك إلا تطرق الأذى بك وقولهم، إن هذا إلا أساطير الأولين وقد احتمل في الآية بعضهم وجهاً آخر وهو أنه تعالى يعاقب الكفار الذين لا يؤمنون بعقوبات يجعلها في قلوبهم من نحو الضيق الذي ذكر أنه يخلقه فيها ويجعل هذه العقوبات دلالة لمن شاهد قلوبهم وإستماعهم من الملائكة وشاهد منها هذه العقوبات على أنهم لا يؤمنون من غير أن يكون ذلك حائلاً بينهم وبين الإيمان ثم أخبر أنها بمنزلة الأكِنَّة على قلوبهم عن فقه القرآن وبمنزلة الوقر في الأذان على وجه التمثيل له بذلك

تَجَوَّزاً وإِستعارةً و وجه الشَّبه بينهما أنَّ من كانت في نفسه هذه العقوبات معلوم أنه لا يؤمن كما أنَّ من على قلبه أَكْنَة لا يؤمن وكما سَمَّى الكافر عمى سَمَّاه بِاسم العمى على وجه التَّشبيه انتهى كلامه.

وزاد بعضهم إحتمالاً آخر في معنى الآية وهو أنَّ الكفر الَّذي في قلوبهم من جحد توحيد الله و جحد نبوته الرُّسول، سَمَّاه كُنَّا تشبيهاً ومجازاً و إعراضهم عن تَقَّه القرآن والإصغاء اليه على وجه الإِستعارة و قرأ، تَوَسَّعاً لأنَّ مع الكفر والإعراض لا يحصل الإيمان والفهم كما أنَّ مع الكنِّ والوقر لا يحصلان ونسب الله تعالى هذا الجعل الى نفسه لأنَّه الَّذي شَبَّه أحدهما بالأخر وذلك سائغ في اللُّغة كما يقول القائل لغيره اذا أَثْنى على إنسانٍ وذكر فضائله ومناقبه، جعلته فاضلاً خيراً عدلاً، وأن كان لم يفعل به ذلك و بالعكس من ذلك اذا ذكر مقابحه ومخازيه وفسقه يحسن أن يقال له جعلته فاسقاً شريراً وإن لم يفعل في الحالين شيئاً من ذلك وكلَّ ذلك مجاز ومنه قولهم جعل القاضي فلاناً عدلاً، وجعله ثقةً وجعله فاسقاً ساقطاً، كلَّ ذلك يراد به الحكيم عليه بذلك.

قال الرَّاзи في تفسيره لهذه الآية إحتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى قد يصرف عن الإيمان ويمنع منه ويحول بين الرِّجل وبينه وذلك لأنَّ هذه الآية تدلُّ على أنه جعل القلب في الكنان الَّذي يمنعه من الإيمان وذلك هو المطلوب.

ثمَّ أنه نقل أدلة المعتزلة على أنه لا يمكن إجراء هذه الآية على ظاهرها فقال والجواب عن الوجه التي تَمَسَّكوا بها في بيان أنه لا يمكن حمل الكنان والوقر على أنَّ الله تعالى منعهم عن الإيمان.

هو أن نقول بل البرهان العقلي القاطع قائم على صحَّة هذا المعنى وذلك لأنَّ العبد الَّذي أتى بالكفران لم يقدر على الإتيان بالإيمان فقد صحَّ قولنا أنه تعالى هو الَّذي حملة على الكفر وصدَّه عن الإيمان.

و أمّا أن قلنا أنّ القادر على الكفر قادر على الإيمان فنقول يمتنع صيرورة تلك القدرة مصدراً للكفر دون الإيمان إلا عند إنضمام تلك الدّاعية وقد عرفت في هذا الكتاب أنّ مجموع القدرة مع الدّاعي يوجب الفعل فيكون الكفر على هذا التّقدير من الله تعالى و تكون تلك الدّاعية الجارّة الى الكفر كنناً للقلب عن الإيمان ووقراً للسّمع عن إستماع دلائل الإيمان فثبت بما ذكرناه أنّ البرهان العقلي مطابق لما دلّ عليه ظاهر هذه الآية وإذا ثبت بالدّليل العقلي صحّة ما دلّ عليه ظاهر هذه الآية وجب حملها عليه عملاً بالبرهان و بظاهر القرآن انتهى كلامه.

**والجواب** عنه أنّا نختار الشّق الثّاني وهو أنّ العبد قادر على الكفر والإيمان، قوله يمتنع صيرورة القدرة مصدراً للكفر دون الإيمان إلا عند إنضمام تلك الدّاعية، لا كلام لنا فيه لأنّ الدّاعي لا بدّ له في أعمال القدرة اذ لا تتعلّق القدرة بشي إلا بعد وجود الدّاعي في القادر، قوله أنّ مجموع القدرة مع الدّاعي يوجب الفعل أيضاً صحيحٌ.

و أمّا قوله فيكون الكفر على هذا التّقدير من الله تعالى و تكون الدّاعية الجارّة الى الكفر كنناً للقلب عن الإيمان ووقراً للسّمع عن إستماع دلائل الإيمان، فغير صحيح لأنّه أن أراد بالدّاعية الإرادة فهي ليست من الله قطعاً اذ العبد هو الذي أراد الكفر أو الإيمان و أن أراد بها ميله الى الكفر أو الإيمان فهو أيضاً من العبد و أن أراد بها مقدّمات الفعل كالشّوق المؤكّد و تصوّر المطلوب ثمّ حركة العضلات و أمثال ذلك فكلّها للعبد وليست الدّاعية بأيّ معنى كان كنناً للقلب عن الإيمان ووقراً للسّمع عن إستماع الدلائل بل الدّاعية توجب إيجاد الفعل لا أنّها كنناً له، و لعلّه أراد بالدّاعية الإرادة و زعم أنّ الإرادة في العبد هي فعل الله لا فعل العبد بمعنى أنّ الله أوجد في العبد هذه الإرادة و لذلك صارت كنناً للقلب.

فَأَن أَرَادَ بِكَلَامِهِ ذَلِكَ فَعَلِيهِ بِالْإِثْبَاتِ فَأَتَانَا نَقُولُ أَنَّ الْعَبْدَ هُوَ الَّذِي يَرِيدُ وَ  
يَخْتَارُ وَإِلَّا يَلْزَمُ الْجَبَرُ وَهُوَ أَيْ الرَّازِي مِمَّنْ يَقُولُ بِهِ وَ أَمَّا نَحْنُ فَلَا.

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ  
قوله: وَهُمْ كناية عن الكفار الذين تقدم ذكرهم عند أكثر المفسرين وقال  
قوم نزلت في أبي لهب لأنه كان يتبعه في المواسم فينهى الناس وينهاهم عن  
إتباعه.

و قال مجاهد نزلت في قريش وكيف كان فقد بين الله تعالى أن هؤلاء  
الكفار كانوا ينهون الناس عن إتباع القرآن و قبوله و التصديق بنبوة نبيه و  
يبعدون عنه الى حيث لا يسمعون خوفًا من أن يسبق الى قلوبهم الإيمان به و  
العلم بصحته و قوله: وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ معناه ليس يهلكون إلا  
أنفسهم، فأل كلمة إن، نافية، وَمَا يَشْعُرُونَ أي أنهم ما يشعرون أنهم بنهيم  
عن قبوله و بعدهم عنه، ما يهلكون، إلا أنفسهم فيستحقون بذلك العذاب  
الأبدى في النار هلاك أعظم منه فلو كانوا مشعرين به لما فعلوا ذلك لأن العاقل  
لا يفعل ما يضر دينه و دنياه و فى هذه الآية إشارة الى سرّ لطيف و هو أن الله  
تعالى غنى بالذات عن طاعتهم و عبادتهم و معرفتهم و غير ذلك. قال الله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ <sup>(١)</sup>.

و الغنى المطلق لا يحتاج الى شيء لأن الإحتياج من لوازم الإمكان و كل  
ممكن مخلوق فاذا ثبت أنه تعالى غنى بالذات عن جميع ما سواه كائنًا ما كان  
ثبت أن العاصي لا يهلك إلا نفسه و أن عصيانه لا يضر بخالقه و هو المطلوب.

وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا  
وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

قرأ حمزة ويعقوب وحفص، نكذب.... ونكون، بالنصب فيهما وافقهم ابن عامر في وَتَكُونُ والباقون بالرفع فيهما، فمن قال بالنصب فيهما أدخلهما في التمني لأنه غير موجب فهو كالإستفهام والأمر والنهي في إنتصاب ما بعد ذلك كله من الأفعال اذا دخلت عليها الفاء أو الواو على تقدير ذكر المصدر من الفعل الأول كأنه قال يا ليتنا يكون لنا ردّ وإنتفاء للتكذيب وكون من المؤمنين. وأما من قال بالرفع ففيه احتمالان:

أحدهما: أن يكون معطوفاً على، نردّ، فيكون قوله: نُرَدُّ وَلَا نُكْذِبُ.... وَتَكُونُ داخلاً في التمني ويكون قد تمّنّى الردّ وإلا يكذب وأن يكون من المؤمنين.

ثانيهما: أن يكون مقطوعاً عن الأول ويكون تقديره يا ليتنا نردّ ولا نكذب كما يقول القائل دعني ولا أعوذ، أي فأني ممّن لا يعود هكذا ما قرّره الشّيخ في التّبيان.

والمعنى، ولو ترى يا محمّد، اذ وقفوا، أي اذ حبسوا، على النار وقيل اذ دخلوا عليها فعرفوا مقدار عذابها كما يقول القائل، قد وقفت على ما عند فلان، أي فهمته وتبيّنته.

قال الكسائي وقفت الدابة وغيرها اذا حبستها بغير ألف، فقالوا، أي قال الكفار، يا ليتنا نردّ ولا نكذب، أي يا ليتنا نردّ الى الدنيا ولا نكذب بأيات ربنا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الظاهر أن الردّ الى الدنيا وعدم التكذيب وكونهم من المؤمنين كلّها داخل في التمني أي تمّنوا الردّ وإلا يكذبوا وأن يكونوا من المؤمنين وإختار سيبويه القطع في وَلَا نُكْذِبُ فيكون غير داخل في التمني، أي لا نكذب رددنا أو لم نردّ قال وهو مثل قولهم، دعني ولا أعوذ على كلّ حال تركتني أو لم تتركني وإستدل أبو عمر على خروجه من التمني بقوله: وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَأَنَّ الكذب لا يكون في التمني وأما يكون في الخبر.

وقيل أُن التَّمَنى، تَمَّ عند قوله: يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ.

وأما قوله: وَلَا تُكَذِّبْ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فهو مبتدأ و قوله في آخر الآية إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ عائد اليه و تقدير الكلام يا ليتنا نُرَدُّ ثم قالوا ولو رُدِدنا لم نَكُذِّبْ بالدين وكُنَّا من المؤمنين، ثم أَنَّهُ تعالى كَذَّبَهُمْ وَبَيَّن أَنَّهُمْ لَو رُدُّوا لَكَذَّبُوا ولأعرضوا عن الإيمان.

**أقول** الحقُّ أَنَّ الكلَّ داخل في التَّمَنى وذلك لأنَّ المفهوم منه الرَّدُّ إلى الحالة الأولى و هى حالة التَّكليف في دار الدُّنيا ليسعى المَكْلَف في إزالة جميع وجوه التَّقصيرات و تدارك ما فات منه في الدُّنيا وذلك لا يحصل بالعود فقط بل يحصل بجميع الأمور من العود و ترك التَّكذيب و العمل الصَّالح بمقتضى الإيمان فوجب إدخال هذه الثلاثة تحت التَّمَنى والله أعلم بمراده.

بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

كلمة، بل للإضراب فهي إضرابٌ عن تَمَنِّيهم وإدعاءهم الإيمان لو رُدُّوا إلى الدُّنيا و اختلفوا في تعيين المراد في قوله: بَدَأَ لَهُمْ فَقِيلَ المراد بهم أهل التَّفَاق و قيل الكَفَّار والمعنى بل بدالهم، أي ظهر لهم بعد الموت ما كانوا يخفون، في دار الدُّنيا بعضهم لبعضٍ و قيل معناه بل ظهر لهم ما كانوا يجحدونه من الشُّرك بقولهم: وَ أَلِلَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ فينطق الله جوارحهم فتشهد عليهم بالكفر.

ولورُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه، أي ولورُدُّوا إلى الدُّنيا بعد معاينة العذاب أو قبلها لصاروا ورجعوا إلى ما نهوا عنه من الشُّرك أو التَّفَاق لعلم الله تعالى فيهم أَنَّهُمْ لا يؤمنون و إلى هذا المعنى أشار بقوله: وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ إخباراً عنهم و حكايةً عن الحال التي كانوا عليها في الدُّنيا من تكذيبهم الرِّسل و إنكارهم البعث و قد حكى الله تعالى عنهم في موضع آخر بقوله: رَبِّ أَرْجِعُونِي لَعَلِّي

أَعْمَلْ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ<sup>(١)</sup> فَأَجَابَهُمْ بقوله: كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا<sup>(٢)</sup> أَي أَنَّهُمْ لَوْ عَادُوا لَرَجَعُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الشُّرْكِ وَالتَّفَاقِ وَالعَصِيَانِ صَدَقَ اللَّهُ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ وَنَحْنُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ.

قال بعض المفسرين في قوله: وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ مِنَ الشُّرْكِ وَالكُفْرِ وَالتَّفَاقِ وَالكَيْدِ وَالمَكْرِ وَالمَعَاصِي لِأَنَّ مقتضى ذلك ثابت فيها وما دامت العلة ثابتة فَأُثِرَها وَهُوَ المعلول لَا يَتَخَلَفُ عنها انتهى كلامه.

ولقائل أن يقول أَنَّ المقتضى ليس من العلة التامة التي لَا يَتَخَلَفُ المعلول عنها كما ثبت في محله فالْحَقُّ أن يقال لَوْ رُدُّوا إِلَى الدُّنْيَا أَوْ إِلَى حَالِ التَّكْلِيفِ وَإِلَى مِثْلِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ المَهْلَةِ وَالتَّمَكُّينِ مِنَ الإِيمَانِ وَالتَّوْبَةِ وَالْقُدْرَةِ لَعَادُوا لِمِثْلِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ الَّذِي نُهُوا عَنْهُ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مِنْهُمْ ذَلِكَ وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَ بقوله: وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَالعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ قِيلَ هُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ أَي أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا إِلَى الدُّنْيَا لَعَادُوا إِلَى مَا نُهُوا عَنْهُ مِنَ الكُفْرِ وَالعَصِيَانِ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ، وَالَّذِي أَخْتَارَهُ المَشْهُورُ مِنَ المَفْسِّرِينَ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ فِي هَذِهِ آيَةِ عَنِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ فِي آيَةِ الْأُولَى وَبَيَّنَّ أَنَّهُمْ قَالُوا وَمَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا آيَةِ وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ بَعْدَ دَعْوَةِ النَّبِيِّ إِيَّاهُمْ إِلَى الإِيمَانِ وَالإِقْرَارِ بِالْبَعْثِ وَالتَّنَشُّورِ وَخَوْفَهُمْ مِنَ الْعِقَابِ فِي خِلَافِهِ فَأَنْكَرُوا الْحَيَاةَ فِي الْآخِرَةِ وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ هَذِهِ حَيَاتُنَا الَّتِي حَيِينَا بِهَا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا لَسْنَا بِمَبْعُوثِينَ فِي الْآخِرَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ ثُمَّ خَاطَبَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ فَقَالَ: وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ أَي وَلَوْ تَرَى يَا مُحَمَّدُ، إِذْ وَقَفُوا، هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ، عَلَى رَبِّهِمْ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ أَي قَالَ اللَّهُ لَهُمْ، أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى



و رَبَّنَا، أَنَّهُ حَقٌّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَهُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ فِي دَارِ الدُّنْيَا فَالْبَاءُ فِي قَوْلِهِ: بِمَا لِلْسَّبَبِ أَيْ أَنَّ الْعَذَابَ مَسَبَّبٌ عَنْ إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ فِي دَارِ الدُّنْيَا وَالْمَرَادُ بِوَقُوفِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَقُوفِهِمْ عَلَى عَذَابِ رَبِّهِمْ وَثَوَابِهِ وَعِلْمُهُمْ بِصَدَقِ مَا أَخْبَرَهُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا دُونَ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِهِ رُؤْيَتُهُ تَعَالَى وَ مَشَاهِدَتُهُ كَمَا ظَنَّهُ قَوْمٌ مِنَ الْمَشْبَهَةِ ضَرُورَةٌ أَنَّ الْمَشَاهِدَةَ بِالْعَيْنِ لَا تَجُوزُ إِلَّا عَلَى الْأَجْسَامِ أَوْ عَلَى مَا هُوَ حَالٌّ فِيهَا وَقَدْ ثَبَتَ حَدُوثُ ذَلِكَ أَجْمَعَ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى بِصِفَةِ مَا هُوَ مُحَدَّثٌ كَمَا ثَبَتَ فِي مُحَلِّهِ.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتُنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ

أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَنْ هَؤُلَاءِ الْكَافَرِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ، يَعْنِي كَذَّبُوا بِمَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فَجَعَلَ لِقَاءَهُمْ لَذَلِكَ لِقَاءَ لَهُ تَعَالَى مَجَازًا كَمَا يُقَالُ لِمَنْ مَاتَ أَنَّهُ لَقِيَ اللَّهَ وَ صَارَ إِلَيْهِ أُنْمَا يَعْنِي بِهِ أَنَّهُ لَقِيَ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَالْمَرَادُ بِالْخَسْرَانِ فِي الْآيَةِ هُوَ فُوتُ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ وَ حَصُولُ الْعِقَابِ الْعَظِيمِ.

قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ الْمَرَادُ مِنَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ: بِلِقَاءِ اللَّهِ كِنَايَةٌ عَنِ الْبَعْثِ.

قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ فِي الْمَقَامِ أَنَّهُ تَعَالَى بَعَثَ جَوْهَرَ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ الْقَدْسِيَّةَ إِلَى هَذَا الْعَالَمِ الْجِسْمَانِيِّ وَأَعْطَاهُ هَذِهِ الْأَلَاتِ الْجِسْمَانِيَّةَ وَالْأَدَوَاتِ الْجِسْمَانِيَّةَ وَأَعْطَاهُ الْعَقْلَ وَالتَّفَكُّرَ لِأَجْلِ أَنْ يَتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى تَحْصِيلِ الْمَعَارِفِ الْحَقِيقِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي يَعِظُمُ مَنَافِعُهَا بَعْدَ الْمَوْتِ فَإِذَا اسْتَعْمَلَ الْإِنْسَانُ هَذِهِ الْأَلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ وَالْقُوَّةَ الْعَقْلِيَّةَ وَ الْفِكْرِيَّةَ فِي تَحْصِيلِ اللَّذَاتِ الْفَانِيَةِ الدَّائِرَةِ وَ الْحَطَامِ الدُّنْيَوِيَّةِ إِلَى آخِرِ عَمَرِهِ فَقَدْ خَسِرَ خَسْرَانًا مُبِينًا لِأَنَّ

رأس المال قد فنى والَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ المطلوب قد فنى أيضاً وإنقطع، فلم يبق في يده لا من رأس المال أثر ولا من الرِّبح شيء فكان هذا هو الخسران المبين ولا شك أن هذا الخسران أنما يحصل لمن كان منكراً للبعث والقيامة لأنه يعتقد أن منتهى السَّعادات ونهاية الكمالات هو هذه اللذات الفانية. وأما من كان مؤمناً بالبعث والقيامة فإنه لا يغير بهذه الأمور التي لا بقاء لها انتهى ما أفاده وحققه.

حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا لَا شَكَّ أَنَّ المراد بالسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا لا شك أن الحساب فيه كأنه قيل ما هي إلا ساعة الحساب، وقيل السَّاعَةُ هي الوقت الَّذِي تقوم فيه القيامة سَمِيَتْ ساعة لأنها تفجأ النَّاسَ في ساعة لا يعلمها أحد إلا الله تعالى ألا ترى أَنَّهُ تعالى قال بَغْتَةً والبغت والبغته هي الفجأة والمعنى أَنَّ السَّاعَةَ لا تجي إلا دفعةً والمعنى أَنَّهُم يعيشون في الدُّنيا على غفلةٍ من الموت والقيامة والحساب حَتَّى يأتِيهم الموت بَغْتَةً ثُمَّ يَرُدُّهم إلى عالم الغيب والشَّهادة فينبئهم بما كانوا يعملون ولذلك قالوا يا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا، أي في الدُّنيا ومن المعلوم أَن نتيجة الغفلة والعصيان ليست إلا الحسرة والنَّدامة في القيامة ولنعم ما قيل:

هو الموت لا منجي من الموت والَّذي

نحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

وقال الآخر:

إعمل وأنت صحيحٌ مطلق فرحٌ ما دمت ويحك يا مغرور في مهل  
يرجو الحياة صحيحٌ ربما كمنت له المنيّة بين الزَّبد والعسل

وحيث أن الحسرة لا تنفع في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم قال الله تعالى: وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا

سَاءَ مَا يَزِرُونَ الْوِزْرَ بِكسر الواو الثقل تشبيهاً بوزر الجبل و يعبر عن ذلك بالاثم كما يعبر عنه بالثقل:

قال الله تعالى: مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ<sup>(٣)</sup> وأمثال ذلك من الآيات كثيرة.

قال رسول الله ﷺ من سنَّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجره شيء ومن سنَّ سنة سيئة كان له وزرها وزر من عمل بها، فقوله وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم، معناه يحملون أثقال ذنوبهم وجزاء أعمالهم التي عملوا بها في الدنيا فجعل ما ينالهم من العذاب بمنزلة أثقل ما يتحمل وذلك لأنَّ الثقل كما يستعمل في الوزن كذلك يستعمل في الحال تقول قد ثقل عليَّ خطاب فلان، أو مجالسته أي آتني أكره ذلك. و يحتمل أن يكون المراد بالأوزار العقوبات التي إستحقوها بالذنوب فأَنَّ العقوبات قد تسمَّى أوزاراً فبيَّن أنه ثقلها عليهم يحملونها على ظهورهم وذلك يدلُّ على عظمها وكيف كان فقد خرج الكلام مخرج الإستعارة حيث شبه حمال الخطايا بحمال الأثقال على ظهورهم وهو واضح.

و أمَّا قوله: أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ أي بئس الشيء الذي يزرونه و يحملونه و قال بعضهم معنى الكلام هو وصف إفتضاحهم في الموقف بما يشاهدونه من حالهم وعجزهم عن عبور الصراط كما يعبره المخلصون من المؤمنين ومعنى، أَلَا ساء، ما ينالهم جزاءً لذنوبهم وأعمالهم الرديئة اذ كان ذلك عذاباً ونكالاً ثم أشار الله تعالى إلى خساسة الدنيا وركاكتها وأنه لا ينبغي الإعتماد عليها فقال:

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ  
 الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢) قَدْ  
 نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا  
 يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ  
 يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ  
 فَصَبِّرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ اتِّبَهُمُ  
 نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِّكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ  
 نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبِيرَ عَلَيْكَ  
 ائْغِرْهُمْ فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي  
 الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَايَةٌ وَلَوْ  
 شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ  
 الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ  
 الْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) وَ  
 قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ  
 قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا  
 يَعْلَمُونَ (٣٧)

### ◀ اللغة

لَعِبٌ وَلَهُوَ يقال لعب فلان اذا كان فعله غير قاصدٍ به مقصداً صحيحاً و  
 اللّهُ، ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمّه يقال لهوت بكذا و لهيت عن كذا  
 اشتغلت عنه بهوٍ.

يَجْحَدُونَ، الجحد الإنكار.

تَبْتَغِي، الإبتغاء الطلب.

## ◀ الإعراب

وَلَدَّارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مَبْتَدَأُ وَخَبْرٌ مِنْ قَبْلِكَ مَتَعَلَقٌ بِكَذَّبْتَ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً لِرُسُلٍ لِأَنَّهُ زَمَانٌ وَالْجَنَّةُ لَا تُوصَفُ بِالزَّمَانِ وَأَوْدُوا مَعْطُوفٌ عَلَى كَذَّبُوا فَتَكُونُ حَتَّى، مَتَعَلَقَةٌ بِصَبَرُوا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْوَقْفُ، تَمْ، عَلَى كَذَّبُوا ثُمَّ إِسْتَأْنَفَ فَقَالَ، وَأَوْدُوا، فَتَعَلَقَ، حَتَّى، بِهِ وَالْأَوَّلُ أَقْوَى لَقَدْ جَاءَكَ فاعِلٌ، جَاءَكَ مَضْمَرٌ فِيهِ قِيلَ الْمَضْمَرُ، الْمَجِيءُ، وَقِيلَ النَّبَأُ وَدَلَّ عَلَيْهِ ذِكْرُ الرُّسُلِ لِأَنَّ مِنْ ضَرُورَةِ الرُّسُولِ الرِّسَالَةَ وَهِيَ النَّبَأُ وَعَلَى الْوَجْهِينِ يَكُونُ، مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ، حَالًا مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ وَالتَّقْدِيرُ مِنْ جِنْسِ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ.

وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ جَوَابُ إِنْ، هَذِهِ فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ فَالشَّرْطُ الثَّانِي جَوَابُ الْأَوَّلِ وَجَوَابُ الشَّرْطِ الثَّانِي مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ، فَإِفْعَلْ، حَذَفَ لظُهُورَ مَعْنَاهُ وَطُولَ الْكَلَامِ فِي الْأَرْضِ صِفَةً لِنَفَقٍ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ ضَمِيرِ الْفَاعِلِ أَيْ وَأَنْتَ فِي الْأَرْضِ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ فِي الْمَوْتَى، وَجِهَانُ: أَحَدُهُمَا: هُوَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ بِفَعْلٍ مَحْذُوفٍ أَيْ وَيَبْعَثُ اللَّهُ الْمَوْتَى.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مَبْتَدَأً وَمَا بَعْدَهُ الْخَبَرُ وَيَسْتَجِيبُ بِمَعْنَى يَجِيبُ. مِنْ رَبِّهِ صِفَةً لِأَيَّةٍ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَتَعَلَقًا، بَنَزَلَ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَقْوَى لِأَنَّهُ إِسْمٌ عَطْفٌ عَلَى إِسْمٍ عَمَلٍ فِيهِ الْفِعْلُ.

## ◀ التفسير

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَّارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَقْلًا تَعْقِلُونَ

أَيُّ لَيْسَتْ حَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ، قَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى حَيَاةَ الدُّنْيَا بِأَنَّهَا لَعِبٌ وَلَهُوَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَلَعِبٌ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ<sup>(٢)</sup>.

و أما الدار الآخرة فقد وصفها بكونها خيراً للمتقين وفي التقييد بالمتقين إشارة الى أنها ليست خيراً للكافرين والفاستين وقد أشار الله تعالى بهذا الوصف للآخرة في كثير من الآيات أيضاً:

قال الله تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَ لِدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: وَ لِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ<sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: وَ لِدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ<sup>(٧)</sup> وغيرها

من الآيات

فالبحت يقع في مقامين:

المقام الأول: في الحياة الدنيا و أنها لعب و لهو.

والمقام الثاني: في الآخرة و أنها خير للمتقين فنقول.

أما المقام الأول: فأعلم أن الدنيا بضم الدال مأخوذ من الدنو بضم الدال و النون وهو القرب سواء كان بالذات أو بالحكم سميت بها لأنها عبارة عن الحياة الحاضرة نقيض الآخرة و أن شئت قلت الحياة على قسمين.

حاضرة و آتية:

فالأولى: هي الدنيا.

٢- الحديد = ٢٠

٤- الضحى = ٤

٦- الأعراف = ١٦٩

١- محمد = ٣٦

٣- النحل = ٣٠

٥- النساء = ٧٧

٧- يوسف = ١٠٩

**الثانية:** هي العقبي و الآخرة بها لتأخرها عن الحياة الحاضرة هذا هو المشهور.

وأما ما قيل من أن الدنيا مأخوذة من الدنائة بكسر الدال وهي الحقارة فلم نظفر على مأخذه وأن كانت الدنيا كذلك حقاً وكيف كان لا شك أنها مذمومة عقلاً و شرعاً.

**أما العقل** فلاّنها فانية دائرة لا بقاء لها ولما فيها من النعيم وهو واضح محسوس وكلما كان كذلك فالعقل يحكم بدمه و عدم الإعتماد عليه لأن ما لا بقاء لا قيمة له.

**أما النقل** فمن الآيات:

قال الله تعالى: **وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوةَانُ<sup>(١)</sup>**.

قال الله تعالى: **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ<sup>(٢)</sup>**.

قال الله تعالى: **فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللّهِ الْغُرُورُ<sup>(٣)</sup>**.  
قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا<sup>(٤)</sup>**.

و الآيات كثيرة و من الأخبار.

قال رسول الله ﷺ من أحبّ دنياه أضربّ بآخريته.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام الدنيا دول فأطلب حظك منها بإجمال المطلب.  
وقال عليه السلام من آمن الزمان خانته ومن غلبه أهانه وقال علي عليه السلام حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة و الأخبار كثيرة جداً.

قال بعض العارفين ليست الدُّنيا عبارة عن الجاه والمال فقط بل هما حظان من حظوظها و أنَّما الدُّنيا عبارة عن حالتك قبل الموت كما أنَّ الأخرة عبارة عن حالتك بعد الموت وكلَّمَا لك فيه حظٌّ قبل الموت فهو دنياك وليعلم الناظر أنَّ الدُّنيا أنَّما خلقت للمرور منها إلى الأخرة و أنَّها مزرعة الأخرة في حقِّ من عرفها إذ يعرف أنَّها منزل من منازل السَّائرين إلى الله وهي كرباط بني على الطريق أَعَدَّ فيها العلف والزَّاد وأسباب السَّفر فمن تزوَّد لأخرفته وإقتصر منها على قدر الضَّرورة من المطعم والملبس والمنكح وسائر الضَّروريات فقد حرث وبذر وسيحصل في الأخرة ما زرع ومن عرج عليها وإشتغل ببلداتها وحظوظها هلك قال الله تعالى: **رُئِيَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ<sup>(١)</sup>** عَبْرَ الْعَرِيزِ عَنْ حَظِّكَ مِنْهَا بِالْهَوَى فَقَالَ: **وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى<sup>(٢)</sup>** انتهى كلامه

قال الشَّاعر:

وإنَّ امرؤاً دُنِباهُ أَكْثَرُ هَمِّهِ      لَمْ يُمْسِكْ مِنْهَا بِحَبْلِ غُرُورٍ  
وقال بعضهم:

إِيَّاكَ وَالْإِغْتِرَارَ بِالدُّنْيَا وَالرُّكُونَ إِلَيْهَا  
فَإِنَّ أَمَانَتَهَا كَاذِبَةٌ وَأَمَالُهَا خَائِبَةٌ  
وَعَاشِهَا نَكِيدٌ وَصَفْوُهَا كَدِيرٌ  
وَأَنْتَ مِنْهَا عَلَى خَطَرٍ  
أَمَّا نِعْمَةٌ زَائِلَةٌ وَأَمَّا بَلِيَّةٌ نَازِلَةٌ  
وَأَمَّا مُصِيبَةٌ مُوجِعَةٌ وَأَمَّا مَنِيَّةٌ مُفْجِعَةٌ

قال آخر:

صاحب الدُّنيا في حربٍ يكابد الأهواء لتتقدح والجهالة لتتقمع والأرداع



لَتَنْدَفِعَ وَالْأَمَالَ لَتَنَالَ وَالْمَكْرُوهَ لِيَزَالَ وَبَعْضُ ذَلِكَ عَنْ بَعْضٍ شَاغِلٌ وَالشَّغْلُ عَنْهُ ضَائِعٌ فَلَمَّا رَأَى الْحُكَمَاءُ ذَلِكَ تَرَكَوْا مَا يَفْنِي لِيُحْرَزُوا مَا يَبْقَى.  
وَلَنَعَمْ مَا قِيلَ:

نَرَاعُ لَذِكْرَ الْمَوْتِ سَاعَةَ ذِكْرِهِ فَنَعْتَرِضُ الدُّنْيَا فَنَلْهَوْا وَنَلْعَبُ  
وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ<sup>(١)</sup>.

قوله ﷺ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا خُلُوعُ خَصِرَةٍ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَرَافَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْأَمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ، لَا تَلُومُ خَبَرَتُهَا، وَلَا تُؤْمِنُ فَجَعَتُهَا، غَرَارَةُ ضَرَارَةٍ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِذَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَالُهُ غَوَا لَهُ إِلَى أَنْ قَالَ ﷺ: لَا يَنَالُ أَمْرٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغْبًا إِلَّا أَزْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعْبًا، وَلَا يُمَسِّي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ، غَرَارَةُ غُرُورٍ مَا فِيهَا، فَإِنَّهُ فَإِنْ مَنْ عَلَيْهَا، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى إِلَى أَنْ قَالَ ﷺ: سُلْطَانُهَا ثَوْلٌ، وَعَيْشُهَا رَيْقٌ، وَغَدْبُهَا أَجَاجٌ، وَخُلُوعُهَا صَبِرٌ، وَغَدَاؤُهَا سِمَامٌ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ، خِيَّتُهَا بَعْرَضُ مَوْتٍ، وَصَحِيحُهَا بَعْرَضُ سَقَمٍ، مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيرُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا مَنكُوبٌ، وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ، أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِينِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَارًا، وَأَبْقَى أَثَارًا، وَأَبْعَدَ أَمَالًا، وَأَعَدَّ عَدِيدًا، وَأَكْتَفَ جُنُودًا، تَعْبُدُوا لِلدُّنْيَا أَيْ تَعْبُدُوا، وَأَتَرَوْهَا أَيْ ائْتَارُوا، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ ﷺ.

وفيه كفاية للمتدبر:<sup>(٢)</sup>

قوله ﷺ: وَأُحَذِّرُكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلٌ قُلْعَةٌ، وَلَيْسَتْ بِدَارٍ نُجْعَةٍ، قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا، ذَارَهَا هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا: فَخَلَطَ خِلَالَهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتُهَا بِمَوْتِهَا، وَخُلُوعُهَا بِمُرِّهَا، لَمْ يُصْفِهَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا وَلِيَانِيَةً، وَلَمْ يُضِنَّ بِهَا عَلَى أَغْدَائِهِ، خَيْرَهَا زَهِيدٌ، وَشَرُّهَا عَتِيدٌ، وَجَمْعُهَا يُنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ، وَغَايَرُهَا يَخْرَبُ إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ ﷺ.

في تفسير القرآن

جزء ٧

الجلد السادس

و أمثال هذه الكلمات في سائر الخطب كثيرة و لا أظن أحداً كان أعرف بالدنيا من أمير المؤمنين عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فقد ظهر معنى الآية بحمد الله تعالى وإنكشف سرّ قوله تعالى: **وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ** أمّا المقام الثاني: وهو أنّ الدار الآخرة خير، فهو أيضاً مؤيد بالعقل والنقل أمّا العقل فلأنّ الآخرة لا فناء فيها ولا زوال لها بل الحياة فيها باقية أبداً وما كان كذلك فهو خير ممّا يزول ويفنى وهو واضح.

أمّا النقل فلأنّ الآيات الواردة في المقام كثيرة و من أصدق من الله قیلاً:

قال الله تعالى: **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ لَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **ثُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ** <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **أَرْضِيبَتْكُمْ بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ لَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ** <sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: **وَ لِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلاً** <sup>(٦)</sup> وهكذا وأنما

قيّد الآخرة.

بقوله: **لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ** ولم يقيد الدنيا بشيء لأنّ الدار الآخرة لمن لم يتق في الدنيا و مات على كفره و نفاقه و فسقه ليست بخير له من الدنيا و الى هذا المعنى أشار الرسول صلى الله عليه وآله بقوله الدنيا سجن المؤمن و جنة الكافر. و قد عرفت هذا المعنى من الآيات و قوله: **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** في الحقيقة تنبيه على أنّ العاقل لا يختار الحياة الزائلة الفانية على الحياة الباقية الدائمة.

**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**

قرأ نافع والكسائي والأعشى ولا يكذبوك بسكون الكاف وتخفيف الذال وهو المروى عن عليّ عليه السلام وعن أبي عبد الله عليه السلام والباقون بفتح الكاف وتشديد الذال من التكذيب، وقرأ نافع إنه ليحزونك بضم الياء وكسر الزاي والباقون بفتحها وضم الزاي وأما كسرت الهَمْزة في إنه لأن في خبرها لاماً للتأكيد ولو لا ذلك لكان حقها الفتح لأنها بعد العلم.

ثم أن الله تعالى لما علم أن النبي يحزنه تكذيب الكفار له وجحدهم نبوته قال ذلك تسلياً لرسوله بأن قال: فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَجْعَدُونَ فَمَنْ قَرَأَ بِالتَّخْفِيفِ قَالَ معناه، لا يلفونك كاذباً، كما يقولون سألته فما أبخلته وقاتلته فما أجبتني أي ما وجدته بخيلاً ولا جباناً، وعن أبي عبد الله عليه السلام معنى لَا يُكَذِّبُونَكَ لَا يَأْتُونَ بِحَقٍّ يَبْطُلُونَ بِهِ حَقًّا. وعن القراء معنى لَا يُكَذِّبُونَكَ بِالتَّخْفِيفِ لَا يَجْعَلُونَكَ كَذَّاباً، وَأَمَّا يريدون أَنْ مَا جِئْتَ بِهِ بَاطِلٌ لَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْتَرُوا عَلَيْكَ كَذِباً فَيَكْذِبُوا، لَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوهُ وَأَمَّا قَالُوا أَنْ مَا جِئْتَ بِهِ بَاطِلٌ لَا نَعْرِفُهُ مِنَ النَّبِوةِ وَعَنْ بَعْضِ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى لَا يَجُوزُ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَصْدَقُوا وَيَكْذِبُوا مَا جَاءَ بِهِ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَأَنْزَلَ عَلَيَّ هَذَا الْكِتَابَ وَهُوَ كَلَامُ رَبِّي هَذَا كُلَّهُ عَلَى التَّخْفِيفِ وَأَمَّا عَلَى الْقِرَاءَةِ بِالتَّشْدِيدِ فَاحْتَمَلُوا وَجُوهاً تُشِيرُ إِلَيْهَا:

أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ بِحُجَّةٍ يَأْتُونَ بِهَا أَوْ بَرَهَانٍ يَدُلُّ عَلَى كَذِبِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ إِذَا كَانَ صَادِقاً فَمَحَالٌّ أَنْ يَقُومَ عَلَى كَذِبِهِ حُجَّةٌ وَلَمْ يَرِدْ أَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَهُ سَفْهاً وَجَهْلًا بِهِ.

ثَانِيهَا: أَنَّهُ أَرَادَ فَاتَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ بَلْ يَكْذِبُونِي لِأَنَّ مِنْ كَذَبِ النَّبِيِّ فَقَدْ كَذَّبَ اللَّهُ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَنَّ تَكْذِيبَهُمْ إِيَّاكَ رَاجِعٌ إِلَى تَكْذِيبِي لِأَنِّي أَنَا الْمُخْبِرُ لَكَ وَأَنْتَ حَاكِمِي عَنِّي.

ثَالِثُهَا: أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ لَا يَنْسُبُونَكَ إِلَى الْكَذْبِ لِأَنَّكَ كُنْتَ مَعْرُوفاً عَنْدهُمْ بِالْأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ لَكُنْهُمْ لَمَّا آتَيْتَهُمْ بِالْآيَاتِ جَعَدُوا بِقَصْدِ التَّكْذِيبِ بآيَاتِ

اللَّهِ وَجَحَدَهَا لَا لِتَكْذِيبِكَ قَالَ أَبُو طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ ابْنَ أَمْنَةَ الْأَمِينِ مُحَمَّدًا. وابعها: أن تكون الآية مخصوصة بقوم معاندين كانوا عارفين بصدقه و لكنهم يجحدونه عناداً وتمرداً، وعن الحسن معناه نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ أَنَّكَ ساحر وأنت مجنون فأنهم لا يكذبونك، لأن معرفة الله في قلوبهم بأنه واحد ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون.

خامسها: قال الزجاج لَا يُكْذِبُونَكَ معناه لا يقدر أن يقولوا لك فيما أنبأت به بما في كتبهم كذبت ذكر هذه الوجوه صاحب التبيان في تفسيره لهذه الآية، قال بعض المفسرين أن رسول الله ﷺ مرَّ بأبي جهل وأصحابه فقالوا يا محمد ما نكذبك وأنتك عندنا لصادق، ولكن نكذب ما جئت به فنزلت الآية و عن النقاش أنه قال نزلت الآية في الحرث بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف فأنه كان يكذب في العلية ويصدق في السر ويقول نخاف أن تتخطفنا العرب و نحن آكلة رأس، وقيل أن الأخنس بن شريف قال لأبي جهل يا أبا الحكم إخبارني عن محمد أصادق هو أم كاذب فأنه ليس عندنا أحد غيرنا فقال له و الله أن محمدًا لصادق وما كاذب قط ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابه والنُّبوة فماذا يكون لسائر قريش فنزلت الآية.

وأعلم أن كلمة، قد حرف توقع فإذا دخلت على المستقبل كان التوقع من المتكلم كقولك قد ينزل المطر في شهر كذا و يوم كذا و أما إذا دخلت على الماضي أو فعل حال بمعنى الماضي فالتوقع كان عند السامع و أما المتكلم فهو موجب ما أخبر به و قال بعضهم إذا دخلت على الماضي تفيد التحقيق دخلت على المستقبل تفيد التعليل وإنما عبر هنا بالمضارع فقال قد نعلم و لم يقل قد علمنا لأن المراد الإتيان بالعلم وإستمراره و لم يلحظ فيه الزمان كقولهم هو يعطي و يمنع و قال صاحب الكشف، قد نعلم، بمعنى، ربما، الذي تجيء لزيادة الفعل وكثرته نحو قوله ولكنه قد يهلك المال نائله، ورد هذا القول بأن التكثر والزيادة وأمثال ذلك لم يفهم من، قد.

وإنما يفهم من سياق الكلام مضافاً إلى أنّ علمه تعالى لا يمكن فيه الزيادة والتكثير وأما المراد بالآيات في قوله تعالى ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون، فالظاهر أنّ الآيات المنزلة على نبيه في الكتاب المعبر عنها بالآيات التدوينية كما عليه المفسرون ولو قلنا أنّ المراد بها مطلق الآيات الشاملة للتكوينيات والتدوينيات لكان أشمل وأفيد وذلك لأنهم كما أنكروا نزول الآيات من الله تعالى على رسوله أنكروا نبوته ورسالته أيضاً بل نقول إنّ إنكار أحدهما هو إنكار الآخر بعينه.

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ اتَّيَهُمْ  
نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَايَ الْمُرْسَلِينَ  
سَلَّى اللَّهُ تَعَالَىٰ بِهَذِهِ الْآيَةِ نَبِيَّهُ ثَانِيًا فَأَخْبِرَهُ بِأَنَّ الْكَفَّارَ قَدْ كَذَّبُوا رَسُولًا مِنْ  
قَبْلِهِ وَأَنَّهُمْ صَبَرُوا عَلَىٰ تَكْذِيبِهِمْ وَعَلَىٰ مَا نَالَهُمْ مِنْ آذَاهُمْ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ نَصْرُ  
اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَلَى الْمَكْذِبِينَ فَمِنْهُمْ مَنْ نَصَرَهُمْ عَلَيْهِم بِالْحَرْبِ وَمِنْهُمْ مَنْ نَصَرَهُمْ  
بِأَنَّهُمْ أَهْلُكُهُمْ وَأَسْتَأْصَلُهُمْ كَمَا أَهْلَكَ عَادًا وَثَمُودَ وَقَوْمَ نُوحٍ وَلُوطَ وَغَيْرَهُمْ وَ  
الْمَقْصُودُ أَنَّ عَادَةَ اتِّبَاعِ الرُّسُلِ قَبْلَكَ تَكْذِيبَ رُسُلِهِمْ وَحَيْثُ أَتَاهُمْ صَبَرُوا عَلَى  
التَّكْذِيبِ وَالْأَذَى فَنَاسَ بِهِمْ فِي الصَّبْرِ وَ، مَا، فِي قَوْلِهِ: مَا كُذِّبُوا مُصَدِّرَةٌ أَيْ  
فَصَبَرُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ  
أَيَّ لِمَوَاعِيدِ اللَّهِ مِنْ قَوْلِهِ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ أَنَّهُمْ لَهُمْ  
الْمَنْصُورُونَ) وَقَالَ الزَّجَّاجُ الْمُرَادُ بِالْكَلِمَاتِ هُوَ الْأَخْبَارُ وَالْأَمْرُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى  
وَالْمَعْنَى لَا مُبَدِّلَ لِمَا أَخْبَرْتُكَ وَأَمَرْتُكَ بِهِ، وَقِيلَ الْمَعْنَى لِحُكُومَاتِهِ وَأَقْضَيْتِهِ  
كَقَوْلِهِ وَلَقَدْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ أَيْ وَجِبَ مَا قَضَاهُ عَلَيْهِمْ لَقَدْ  
جَاءَكَ مِنْ نَبَايَ الْمُرْسَلِينَ فِيهِ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ تَكْذِيبِ اتِّبَاعِ الرُّسُلِ وَ  
إِيْذَانِهِمْ وَصَبْرِهِمْ إِلَى أَنْ جَاءَ النَّصْرُ عَلَيْهِمْ، قَالَ الْفَارَسِيُّ، مَنْ، زَائِدَةٌ أَيْ وَلَقَدْ  
جَاءَكَ الْمُرْسَلِينَ، وَرَدَّ هَذَا الْقَوْلُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ

مَنْ لَمْ يَقْضُ عَلَيْكَ<sup>(١)</sup> و قال الرّمانى فاعل جاءك مضمّر تقديره و لقد جاءك نبأ من نبأ المرسلين.

أقول معنى الآية واضح فيه لا خفاء فيه وهو أنّ تكذيب الرّسل كان شائعاً سارياً في النّاس في جميع الأزمنة و من المعلوم أنّ الرّسل قد صبروا على التّكذيب و الأذى حتّى آتاهم نصر الله و فى هذا الكلام إشارة الى أنّ إرشاد النّاس و إصلاحهم لا يخلو من الإنكار و التّكذيب من أيّ شخص صدر و لا دواء له إلا الصّبر لأنّه و هذا ممّا لا محيص عنه، و حيث أنّ الله تعالى وعد المصلحين و المرشدين الى الحقّ بالنّصر و الظّفّر و هو قادر على كلّ شيء فلا محالة لا مرد لقضائه و لا راد لحكمه و لا مبدل لكلماته:

قال الله تعالى: **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا<sup>(٢)</sup>.**

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ<sup>(٣)</sup>.**

قال الله تعالى: **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ<sup>(٤)</sup>.**

و الأيات في الباب كثيرة و قد ثبت عقلاً و نقلاً أنّه لا تبدل لخبر الله و لا خلف لوعده لأنّ الله لا يخلف الميعاد فما أخبر الله به أن ينزله بالكفّار فأنّه سيفعل بهم كما فعل بالأُمم السّابقة و هذا معنى قوله، و لقد جئتكم من نبأ المرسلين ثمّ أنّ الله لما أمر نبيّه بالصبر على أذى المشركين و وعده النّصر و الغلبته عليهم قال:

**وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ  
أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى  
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**

المخاطب بهذه الآية أيضاً هو النبي ﷺ فقال تعالى تعليماً وتأديباً له ﷺ: **وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ** أي كان إعراضك عن هؤلاء الكفار الذين كذبوك و أمتنعوا من إتباعك فيما آتيتهم به من القرآن والمعجزات عظيماً عندك وكنت حزيناً لذلك **فَإِنْ أَسْطَغَتْ** وقدرت **أَنْ تَبْتَغِيَ** أي تطلب وتتخذ نفقاً في الأرض أي مسكناً في جوفها إذا كان له منفذ أو سُلماً في السماء بأن تصعد الى السماء بسببه **فَتَأْتِيَهُمْ بَآيَةٌ** أي تأتيتهم بآية و علامة تلجئهم الى الإيمان وتجمعهم عليه وعلى ترك الكفر والعناد فأفعل ذلك، و إنما حذف، فأفعل لدلالة الكلام عليه كما تقول إن رأيت أن تقوم، ومعناه فقم وإن أراد غير ذلك لم يجز أن يسكت إلا بعد أن يأتي بالجواب **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى** أي لو أراد الله و شاء أن يجمع الكفار على الهدى و الإستقامة لفعل ذلك ولكنه شاء أن يكونوا مختارين في أفعالهم وأقوالهم **فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ** نهى الله تعالى نبيه عن الجهل ولا يدل ذلك على أن الجهل كان جائزاً منه بل يفيد كونه قادراً عليه هكذا قيل في تفسير الكلام بحسب ألفاظ الآية.

قال صاحب الكشاف في تفسير الآية ما هذا لفظه، والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه وأنه لو أستطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم قال، وقيل كانوا يقترحون الآيات فكان يؤد أن يجابوا اليها لتمادى حرصه على إيمانهم فقبل له أن إستطعت ذلك فأفعل دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو إستطاع ذلك لفعله حتى يأتيهم بما إقترحوا من الآيات لعلهم يؤمنون يجوز أن يكون إبتغاء النفوذ في الأرض أو السلم في السماء وهو الإتيان بالآية كأنه قيل لو إستطعت النفوذ الى ما تحت الأرض أو الرقي الى السماء لفعلت لعل ذلك يكون لك آية يؤمنون عندها و حذف جواب إن كما تقول إن شئت أن تقوم بنا الى فلان نزوره إنتهى كلامه.

وقال الرّازي المروّي عن ابن عبّاس أنّ الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف أتى النّبي ﷺ في نفرٍ من قريش فقالوا يا محمّد أثنتنا بآية من عند الله كما كانت الأنبياء تفعل فإنّا نصدّق بك فأبى الله أن يأتيهم بها فأعرضوا عن رسول الله ﷺ فشقّ ذلك عليه فنزلت الآية إنتهى كلامه.

ولقائل أن يقول لو كان الأمر كذلك فأَيّ تقصيرٍ لهم في عدم إيمانهم بالرسول وإعراضهم عنه و ذلك لأنّ من شأن الرّسول الذي يدعو النّاس إلى الإيمان بالله ورسوله أن يأتي بالآيات الدّالات على صدق دعوته:

قال الله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ <sup>(٣)</sup>.

و أمثال ذلك من الآيات التي دلّت على أنّ الله تعالى ما أرسل رسولاَ إلاّ بالبينات ليميّز الصادق في الدّعوة عن الكاذب بها فكيف يصح أن يقال أنّ المشركين طلبوا من الرّسول آية من الآيات ليؤمنوا بالله و الله تعالى أبى أن يأتيهم بها فالحق في المقام و أمثاله هو أنّ الرّسول دعاهم إلى الإيمان و أعطاهم ما طلبوا منه من الآيات والمعجزات و مع ذلك لم يؤمنوا به و أعرضوا عنه و لذلك صار محزوناً و كبر عليهم إعراضهم عن الحقّ و هذا ظاهر لا مرية فيه نعم في الآية مسألة أخرى و هي التي ينبغي التكلّم فيها و كشف القناع عنها و هي قوله: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ.

قال الرّازي، تقديره و لو شاء الله هداهم لجمعهم على الهدى و حيث ما جمعهم على الهدى و جب أن يقال أنّه ما شاء هداهم و ذلك يدلّ على أنّه



تعالى لا يريد الإيمان من الكافر بل يريد إقاؤه على الكفر، ثم استدل على ذلك فقال ما هذا لفظه والذي يقرب هذا الظاهر أن قدرة الكافر على الكفر أما أن تكون صالحة للإيمان أو غير صالحة له فإن لم تكن صالحة له فالقدرة على الكفر مستلزمة للكفر و غير صالحة للإيمان فخالق هذه القدرة قد أراد الكفر منه لا محالة و أما أن كانت هذه القدرة كما أنها صلت للكفر فهي أيضاً صالحة للإيمان فلما أستوت نسبة القدرة الى الطرفين إمتنع رجحان أحد الطرفين على الآخر إلا لداعية مرجحة و حصول تلك الداعية ليس من العبد و إلا وقع التسلسل فثبت أن خالق تلك الداعية هو الله و ثبت أن مجموع القدرة مع الداعية الحاصلة موجب للفعل فثبت أن خالق مجموع تلك القدرة مع تلك الداعية المستلزمة لذلك الكفر يريد لذلك الكفر و غير يريد لذلك الإيمان فهذا البرهان اليقين قوي ظاهر بهذه الآية و لا بيان أقوى من أن يتطابق البرهان مع ظاهر القرآن إنتهى كلامه بألفاظه و عباراته.

و أنت ترى أن ما ذكره لا يساعده العقل و النقل لأنه مستلزم للجبر و قد حكم العقل بطلانه و حكم الشرع بكفر قائله و للبحث فيه مقام آخر و الذي نقول في جوابه إجمالاً هو إننا نختار تساوي نسبة القدرة الى الطرفين بمعنى أن العبد قادر على الفعل كما أنه قادر على الترك قوله إمتنع رجحان أحد الطرفين على الآخر إلا لداعية مرجحة نحن أيضاً نقول به و أما قوله و حصول تلك الداعية ليس من العبد و إلا وقع التسلسل الى آخر ما قال فهو باطل عاطل و ذلك لأن إرادة العبد في إختيار أحد الطرفين كافية لترجيح أحد الجانبين على الآخر و به ينقطع التسلسل و أن شئت قلت خالق القدرة و الإرادة في العبد هو الله و هذا ممّا لا كلام فيه و أما خالق الداعية المراجعة فهو العبد لأنه يختار ما أراد هذا أولاً، و أما ثانياً فنقول كيف يمكن أن يقال أن خالق القدرة يريد للكفر نعوذ بالله من هذه الأراجيف ثبت عقلاً أن كلّ يريد فهو راضٍ بما أراد لا محالة

إذ العاقل لا يريد ما يكره وإذا كان راضياً به بحسب الإرادة فكيف ينهى عنه و يتّوعد عليه إذا عرفت هذا فنقول.

إذا كان خالق القدرة مريداً للكفر ومع ذلك ينهي العبد عن الإتيان به فلا يخلو حال العبد عن أحد أمرين:  
أحدهما: أن يتّصف بالكفر.

ثانيهما: أن لا يتّصف به فإن اتّصف به خالف النهي و صار عاصياً مخالفاً لمولاه وإن لم يتّصف به و اتّصف بالإيمان فهو أيضاً عاصٍ لأن الإيمان على خلاف إرادة المولى إذ المفروض أنه أراد الكفر وأن اتّصف بهما معاً يلزم اجتماع التقيضين وهو محال وإن لم يتّصف بأحدهما ولا بهما يلزم إرتفاع التقيضين فالقول بأن الله مريد للكفر من هفوات الكلام هذا أولاً.

ثانياً: إذا كان المولى القادر مريداً للكفر ومع ذلك ينهي العبد الضعيف عن الإتيان به ويأمره بالإيمان يلزم التّكليف بما لا يطاق ضرورة عدم قدرة العبد على الإيمان والمولى مريد للكفر ولا نعني بالتّكليف بما لا يطاق إلا هذا وقد قال الله تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: نقول أنّ الله تعالى عادلٌ وهذا ممّا لا كلام فيه.

فنقول في الصّورة المفروضة، وهى كون المولى مريداً للكفر إن بقى العبد على كفره ولم يتّصف بالإيمان فإمّا أن يعذّبه الله على الكفر يوم القيامة أو لا يعذّبه، فإن عذّبه كما هو صريح الآيات يلزم الظلم على العبد والله تعالى منزّه عنه إذ أيّ ظلم أفحش وأقبح ممّن عذّب عبده على فعل كان المولى مريداً له، وإن لم يعذّبه على كفره يلزم تساوي الكفر والإيمان، في عدم العذاب وهو كما ترى مضافاً إلى أنّه يوجب تكذيب الآيات والمحاذير وفيما ذكرناه كفاية لأولي الدّراية إذا عرفت هذا فنقول:

معنى قوله: **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى** هو أنه لو شاء أن يجمعهم على الإيمان على وجه الإلجاء لكان قادراً عليه ولكنه لم يفعله لأنه ينافي الغرض بالتكليف فهو نظير قوله تعالى: **إِنْ شِئْنَا نَنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**<sup>(١)</sup> وأن شئت قلت أن الله تعالى أخبر عن قدرته ولا يدل هذا الكلام على أنه لم يشاء منهم الإيمان على وجه الاختيار فاختيار العبد في الحقيقة واسطة بين الإرادة التشريعية وفعل العبد ألا ترى أن الله أمر المكلفين بالصلاة والزكاة والجهاد وغيرها وكثير من المكلفين لا يصلون يزكون وهكذا فهل يجوز للعاقل أن يقول أنه تعالى أمر بها ولم يشاء أو شاء خلافها وكيف يعقل أن يقال أن الله أمر عبده بالصلاة فقال أقم الصلاة مثلاً ولكنه لم يشاء أن يصلي المكلف أو شاء أن لا يصلي، نعم شاء وأمر العبد على أساس الاختيار بمعنى أنه تعالى جعل العبد مختاراً في فعله وأن شئت قلت أنه تعالى قد شاء منهم الإيمان على هذا الوجه أي على وجه الاختيار لا على وجه الإلجاء لأنه متى ألجأهم عليه لم يكن ذلك إيماناً يستحق الثواب عليه فالغرض من الآية هو بيان أن الكفار لم يغلبوا ولم يقهروا على كفرهم وأنه تعالى لو أراد أن يحول بينهم وبينه أو يقهرهم على الفعل، لفعل ذلك لأنه أراد أن يكون إيمانهم على وجه يستحقون به الثواب ولا ينافي التكليف.

وأما قوله: **فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ** فبقل هو نفي محض عن الجهل يدل ذلك على أن الجهل كان جائزاً منه بل يفيد كونه قادراً عليه وذلك لأنه تعالى لا يأمر ولا ينهي إلا بما يقدر المكلف عليه فهو مثل قوله: **لَعَنَ أَشْرَكْتُ لِيَخْبِطَنَّ عَمَلُكَ**<sup>(٢)</sup>.

ومن المعلوم أن الشرك لا يجوز عليه لكن لما كان قادراً عليه جاز أن ينهاه عنه وبعبارة أخرى لا تجزعه ولا تحزن لكفرهم وإعراضهم عن الإيمان وأنهم

في القرآن  
الآيات ٣٢ الى ٣٧

جزء ٧

الجلد السادس

لم يجمعوا على التصديق بك والإيمان بنبوتك فتكون في ذلك بمنزلة الجاهلين الذين لا يصبرون على المصائب ويأثمون لشدة الجزع قاله الشيخ في التبيان.

وقال الرّازي هذا التّهي لا يقتضي إقدامه على مثل هذه الحالة كما أنّ قوله تطع الكافرين والمنافقين لا يدلّ على أنّه ﷺ أطاعهم وقبل دينهم والمقصود أنّه لا ينبغي أن يشتدّ تحسُّرك على تكذيبهم ولا يجوز أن تجزع من إعراضهم عنك فإنّك لو فعلت ذلك قرب حالك من حال الجاهل والمقصود من تغليظ الخطاب التّبعد والرّجر له عن مثل هذه الحالة والله أعلم انتهى كلامه.

وقيل الخطاب له ﷺ والمراد الأمة فإنّ قلوب المسلمين كانت تضيق من كفرهم وأذيتهم.

وقال الطّبري معناه فلا تكونن ممّن لا يعلم أنّ الله لو شاء لجمعهم على الهدى بلطفه وأنّ من يكفر به من خلقه أنما يكفر به لسابق علم الله فيه ونافذ قضاءه بأنّه كائن من الكافرين به إختياراً لا إضطراراً فإنّك اذا علمت صحّة ذلك لم يكبر عليك إعراض من أعرض من المشركين عمّا تدعوه اليه من الحقّ و تكذيب من كذّبك منهم فهذه كلمات رؤوس المفسّرين من العامة في تفسير كلام الله والحقّ أنّ الكلام لا يحتاج الى هذه التّأويلات الباردة التي هي من قبيل الأكل من القفا بل الكلام يحمل على ظاهره وذلك لأنّ الخطاب من الله تعالى الى عبده ورسوله ومن الواضح أنّ الله تعالى هو المعلّم لرسوله في جميع العلوم والمؤدّب له بأحسن الأداب فلو خاطب عبده بما خاطب به لا إشكال فيه عقلاً وشرعاً فمعنى قوله فلا تكونن من الجاهلين.

إعلم ذلك حتّى لا تكون من الجاهلين به فالكلام يدلّ على أنّه تعالى هو الذي أخرج رسوله من الجهل والحيرة والشكّ الى العلم واليقين.

قال الله تعالى: وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرِيَةَ وَالْإِنْجِيلَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: فَإِذَا أَمِنتُمْ فَأذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: وَإِنَّهُ لَكُوْ عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ<sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: اتَّيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا<sup>(٧)</sup>.

قال الله تعالى: وَآتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ<sup>(٨)</sup>.

قال الله تعالى: تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ<sup>(٩)</sup>.

و غير ذلك من الآيات الدالات على أَنَّ الله تعالى علَّم أنبياءه ما لم يكونوا يعلمون كما أَنَّ الأنبياء علَّموا أممهم كذلك فالعلم بكلِّ الأشياء ظاهرها و باطنها مختص بالله تعالى لأنه قد أحاط بكلِّ شيء علماً.

و أمَّا أفاضه الله على خلقه بقدر لياقتهم وإستعدادهم وحيث أَنَّ الأنبياء كانوا أقرب النَّاس إلى خالقهم أخذوا الفيض من الفيض على مراتبهم و تقربهم إليه ثم أخذ سائر النَّاس منهم وحيث كان الأمر على هذا المنوال فالنبي أو الرسول يعلم ما علَّمه الله و لا يعلم من العلم ما هو مخزون عند الله تعالى و على هذا فأَيَّ إشكالٍ في قوله تعالى مخاطباً لنبيه فلا تكونن من الجاهلين، و الله أعلم.

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

٢- العَلَق = ٥

٤- النَّسَاء = ١١٣

٦- يوسف = ٦٨

٨- البقرة = ٢٥١

١- المائدة = ١١٠

٣- البقرة = ٣٢

٥- البقرة = ٢٣٩

٧- الكهف = ٦٥

٩- المائدة = ٤

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ  
قالوا الوقف عند قوله: الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ومعنى الآية أنما يستجيب إلى  
الإيمان بالله ورسوله من يسمع كلامك ويصغي إليك وإلى ما تقرأ عليه من  
القرآن وأما الموتى وهم الذين لا يصغون إليك من هؤلاء الكفار ولا يسمعون  
كلامك وينفرون عنك إذا كلمتهم فيبعثهم الله ثم إليه يرجعون.

أقول كلمة، أنما تفيد الحصر فقوله تعالى يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الإِسْتِجَابَةَ إِلَى  
الإِيمَانِ مَنْحَصِرَةٌ بِالسَّامِعِينَ وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَلَا وَالْمُرَادُ بِالْمَوْتَى فِي الْآيَةِ كُلِّ مَنْ  
لَمْ يَسْمَعْ مِنَ الْمَشْرِكِينَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ وَكُلِّ مَنْ لَا يَسْمَعُ الْحَقَّ فِي زَمَانِنَا هَذَا  
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْبَحْثُ حَوْلَ الْآيَةِ يَقَعُ فِي مَقَامَاتٍ:

المقام الأول: قوله: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ إِيْلَهُمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ:  
يَسْمَعُونَ لَيْسَ كُلُّ مَنْ لَا يَسْمَعُ بِأَذَنِهِ أَوْ يَسْمَعُ بِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَشْرِكِينَ كَانُوا  
يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ بِوَسْطَةِ الرَّسُولِ كَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ بَلِ  
الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: يَسْمَعُونَ هُوَ تَرْتِيبُ الْأَثَرِ عَلَى الْإِسْتِمَاعِ وَذَلِكَ لِأَنَّ السَّامِعَ إِذَا  
سَمِعَ وَلَمْ يَتَرْتَّبِ الْأَثَرُ عَلَى الْإِسْتِمَاعِ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ أَصْلًا وَآيَ فَرْقٍ بَيْنَ مَنْ  
سَمِعَ وَمَضَى مِنْ غَيْرِ تَفَهُُّمٍ وَتَدَبُّرٍ وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِسْتِمَاعِ أَوْ كَانَ قَادِرًا  
عَلَيْهِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ وَالْإِثْبَاتُ هَذِهِ الدَّقِيقَةُ أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ  
لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ (١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٣).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٤).

قال الله تعالى: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ<sup>(٢)</sup>.

و الآيات في الباب كثيرة و السّر في ذلك هو أنّ تمييز الحقّ من الباطل لا يحصل إلا بعد التّفكر و التدبر في المسموع.

و أمّا مجرد الإستماع من غير تدبّر لا يكفي و لا يفيد و لذلك جعل الله تعالى من لم يتّفكر و لم ينتفع بالآيات بمنزلة من لم يستمع في كثير من الآيات و الى هذا المعنى أشار الشّاعر بقوله:

لَقَدْ أَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي  
و قال الآخر:

أَصَمَّ عَمَّا سَاءَ سَمِيعٌ

وفي هذا الكلام دلالة على بطلان قول من زعم أنّهم لا يستطيعون سماعاً على الحقيقة لأنه لا خلاف في أنّ المشركين لم يكونوا صمّاء لم يسمعوا الأصوات بل سمعوا و إستمعوا و لم يتدبروا أو تدبروا و فهموا ثمّ أنكروا عناداً منهم و كيف كانوا لم يترتبوا الآثار المفيدة على إستماعهم فكأنّهم لم يسمعوا أصلاً

المقام الثّاني: قوله وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ الْمَوْتَى، بفتح الميم الأموات واحداً ميّت و هو يطلق في الأصل على كلّ من فارقت روحه جسده هذا بحسب اللّغة و أمّا في الإصطلاح عند المحقّقين فهو يقع بحسب أنواع الحياة. فمنها ما هو بإزاء القوّة النّامية الموجودة في الحيوان أو النبات:

قال الله تعالى: فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا<sup>(٤)</sup>.

و منها، زوال القوّة الحسيّة:

٢- فَصَلَتْ = ٤

٤- الرّوم = ٢٤

١- الفرقان = ٤٤

٣- البقرة = ١٦٤

قال الله تعالى: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا<sup>(١)</sup>.

ومنها، زوال القوة العاقلة وهي الجهالة:

قال الله تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ<sup>(٣)</sup>.

ومنها، الحزن والخوف المكدر للحياة:

قال الله تعالى: وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ<sup>(٤)</sup>.

وقد يستعار للأحوال الشاقة كالفقر والذل والسؤال والهزم وغير ذلك إذا

عرفت هذا فنقول قوله تعالى: وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ يَحْتَمِلُ معنيين

أحدهما: أن يكون المراد أن الله تعالى يبعث الأموات يوم البعث.

قال الله تعالى: وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي

الْقُبُورِ<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا<sup>(٦)</sup>.

وهذا المعنى هو الظاهر من الآية وعليه فمعنى الكلام لا تحزن على أنهم

لا يسمعون كلامك في الدنيا وذلك لأنهم يموتون على كفرهم والله تعالى

يبعث الموتى واليه يرجعون للسؤال والثواب والعقاب، ويمكن أن تكون

الموتى في الآية المشركين الذين لا يستجيبون ولا يسمعون لأن من سمع

الحق ولم يترتب الآثار عليه فهو بمنزلة الميت وعليه فالمعنى لا تحزن عليهم

لأنهم بمنزلة الأموات فكما أن الموتى لا يستجيبون لمن يدعوهم إلى الحق و

الإيمان كذلك هؤلاء الكفار لا يستجيبون لك إذا دعوتهم إلى الإيمان وكما

أيست أن يسمع الموتى كلامك إلى أن يبعثهم الله.

١- ٢٢٢ = الأنعام

٢- ١٧ = إبراهيم

٣- ٦ = المجادلة

١- مريم ٢٣

٢- الزوم ٥٢

٣- الحج ٧



و الى أن يرجعوا اليه فكَذَلِكَ آيس من هؤلاء أن يسمعوا كلامك و أن يستجيبوا لك و الى هذا المعنى أشار الشاعر بقوله:

ليس مَنْ مات فإِسْتَرَحَ بِمَيِّتٍ      أَنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ  
المقام الثالث: قوله ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ والمعنى أَنَّ الموتى إذا بعثهم الله و أحياهم أَنَّهُمْ يرجعون بعد الحشر و البعث الى الموضع الَّذي لا يملك الحكم فيهم غير الله تعالى لا غيره فجعل رجوعهم الى موضع الحساب رجوعاً الى الله و ذلك مستعمل في اللغة و العرف، و نقل عن مجاهد أَنَّهُ قال: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ يعني المؤمنين الَّذِينَ يسمعون الذِّكْرَ وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ يعني المشركين الصُّمَّ يبعثهم الله فيحييهم من شركهم حتَّى يؤمنوا ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ يوم القيامة.

قال الرّازي، و أمّا قوله، وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ففيه قولان.

الأول: أَنَّهُ مثل لقدرته على إلباءهم الى الإستجابة و المراد أَنَّهُ تعالى قادر على أن يبعث الموتى من القبور يوم القيامة ثُمَّ اليه يرجعون للجزاء فكَذَلِكَ ها هنا أَنَّهُ تعالى هو القادر على إحياء قلوب هؤلاء الكفّار بحياة الإيمان و أنت لا تقدر عليه.

القول الثاني: أَنَّ المعنى هؤلاء الموتى يعني الكفرة يبعثهم الله ثُمَّ اليه يرجعون فحينئذٍ يسمعون و أمّا قبل ذلك فلا سبيل الى إستماعهم انتهى.

إن قلت لم وصف الله الكفّار بالموتى و ما الوجه فيه.

قلت قال بعض المحققين أَنَّ العقل بالنسبة الى الرُّوح كالرُّوح بالنسبة الى الجسد فكما أَنَّ الجسد الخالي من الرُّوح يدفن تحت التراب لئلا يظهر منه النتن و الصديد و القبيح و أنواع العفونات فكَذَلِكَ الرُّوح الخالية من العقل يكون صاحبها مجنوناً يستوجب القيد و الحبس و المكان في دار المجانين لئلا يظهر من صاحبها القتل و الهتك و أنواع الأذى بالنسبة الى النَّاسِ ثُمَّ أَنَّ العقل الَّذي هو بمنزلة الرُّوح للزُّوح، بدون معرفة الله تعالى و صفاته و طاعته ضائع

باطل فنسبة المعرفة الى العقل كنسبة العقل الى الروح ونسبة الروح الى الجسد فمعرفة الله روح روح الروح فالتنفس الخالية عن هذه المعرفة تكون بصفة الأموات فلهذا السبب وصف الله أولئك الكفار المصيرين بأنهم الموتى هذا محصل الكلام.

و أنا أقول الحق في الجواب هو أن يقال أن المعرفة هي العلة الغائية في خلق الإنسان قال الله تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ<sup>(١)</sup> أي ليعرفون لأن العباد لا تكون إلا بعد المعرفة بل لا عبادة بدونها، والعلة الغائية التي خلق الشيء لأجلها تكون بمنزلة الروح فكما أن حياة الجسد العنصري بالروح كذلك حياة الروح بالمعرفة ومن المعلوم أن الجسد الخالي عن الروح ميت فالروح الخالية عن المعرفة أيضاً ميت وهذا هو السر في التعبير عنهم بالموتى وأما الرجوع الى الله بعد الحشر والبعث فسيأتي الكلام فيه مفصلاً إن شاء الله تعالى.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

قرأ ابن كثير، ينزل بالتخفيف، والباقون بالتشديد، وفي هذه الآية أخبار عما قاله الكفار من أنهم قالوا، لولا، أي هلا، نزل عليه.

أي على الرسول، آية، والمقصود الآية التي سألوها أن يأتيهم الرسول بها من جنس ما شاؤوا وأرادوا كما قال الله تعالى حكاية عنهم: فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ<sup>(٢)</sup>.

يعنون فلق البحر وإحياء الموتى وأما قالو ذلك بعد عجزهم عن معارضة القرآن فإلتمسوا مثل آيات الأولين فقال الله تعالى في جوابهم: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا

أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ<sup>(١)</sup> وقال تعالى في المقام قل لهم يا محمد، أُنَّ الله قادر على أن ينزل أية ولكن أكثرهم لا يعلمون، أي لا يعلمون ما في إنزالها من وجوب الإستئصال لهم اذا لم يؤمنوا عند نزولها كما هلك وإستأصل من كان قبلهم بعد تمامية الحجة مضافاً الى أنهم لو أنزل عليهم ما طلبوه لم يؤمنوا كما:

قال الله تعالى: **وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَّا فِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ<sup>(٢)</sup>.**  
وقال في موضع آخر، **وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ<sup>(٣)</sup>.**

قال بعض المفسرين والمقصود أن الآيات التي إقترحوها أنما لم نأتهم بها لأننا لو أتيناهم بها ولم يؤمنوا وجب إستئصالهم كما وجب إستئصال من تقدم ممن كذب بآيات الله بعد نزولها.

قيل قد طعن قوم من الملحدين فقالوا لو كان محمد ﷺ قد أتى بآياته لما قالوا له، لولا أنزل عليه أية، ولما قال، أُنَّ الله قادر على أن ينزل أية.

**والجواب** أنا قد بينا أنهم إلتمسوا أية مخصوصة وتلك لم يؤتوها وأن كان الله قادراً عليها لأن المصلحة منعت من إنزالها وأنما أتى بالآيات الأخر التي دلّت على نبوته من القرآن وغيره على ما إقتضته المصلحة ولذلك قال تعالى: **أَوْ لَمْ يَخَفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ فَبَيَّنَّ أَنْ فِي إِنْزَالِ الْكِتَابِ كَفَايَةٌ وَدَلَالَةٌ عَلَى صِدْقِهِ وَأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ مَا قَالُوهُ، قَالَهُ فِي التَّبْيَانِ.**

**أقول** قال ابن عباس نزلت الآية في رؤساء قريش لما سألوا تعنتاً منهم وإلا فقد جاءهم بآيات كثيرة فيها مقنع انتهى.

وَالضَّمِيرُ فِي، وَقَالُوا، عَائِدٌ إِلَى الْكُفَّارِ وَلَوْلَا تَحْضِيضٌ بِمَعْنَى، أَيْ هَلَّا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ وَفِي قَوْلِهِ: **قُلْ إِنْ أَلَّهِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً** إشارة إلى قُدْرَتِهِ الْكَامِلَةِ الشَّامِلَةِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى بَعْضِ الْأَشْيَاءِ لَزِمَ فِيهِ الضَّعْفُ وَالْعَجْزُ فَلَا يَكُونُ قَادِرًا بِقَوْلٍ مُطْلَقٍ وَهُوَ خِلَافُ الْفَرْضِ.

**ثَانِيًا:** حُكْمُ الْأَمْثَالِ وَاحِدٌ فَإِذَا ثَبِتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَنْزَلَ الْآيَاتِ السَّابِقَةَ فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ فَقَدْ ثَبِتَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى مِثْلِهَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَيْضًا إِذْ لَا فَرْقَ فِي تَعَلُّقِ الْقُدْرَةِ بِالْآيَاتِ الْمَقْتَرَحَةِ عَلَى سَبِيلِ التَّعْنَتِ وَالتِّي لَمْ تَقْتَرَحْ وَقَدْ اقْتَرَحُوا آيَاتٍ كَانَتْ شِقَاقَ الْقَمَرِ وَلَمْ تَوْثِّرْ فِيهِمْ وَقَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُسْتَمَرٌّ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ دَابَهُمُ الْعِنَادُ فِي آيَاتِ اللَّهِ.

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ أَنَّهُمْ طَلَبُوا أَنْ يُنْزَلَ آيَةٌ تَضْطَرُّهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ كَشَقِّ الْجَبَلِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْ يُحْجِدُوهَا جَاءَهُمُ الْعَذَابُ، وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزَلَ تِلْكَ الْآيَةُ إِلَّا أَنَّ الْمَصْلَحَةَ لَا تَقْتَضِيهِ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنَّمَا جَعَلَ الْمَصْلَحَةَ فِي آيَاتٍ مَعْرِفَتِهَا تَحْتَاجُ لِلنَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ لِيَهْتَدِيَ قَوْمٌ وَيَضِلُّ آخَرُونَ، وَلَمْ يَجْعَلِ الْمَصْلَحَةَ فِي انْتِزَالِ آيَاتٍ أَلْجَأَتْهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَسَلَبَتْ عَنْهُمْ الْإِخْتِيَارَ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْهَا وَأَنَّمَا نَفَى الْعِلْمَ عَنْ أَكْثَرِهِمْ فَقَالَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَلَمْ يَقُلْ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلًا، لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ كُلَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا جَاهِلِينَ، بَلْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ عِلْمَ بِقُدْرَتِهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا أَنَّهُمْ أَنْكَرُوهَا تَعَنَّتًا وَعِنَادًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ.

وَمَا مِنْ ذَاتَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ  
بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ  
مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ  
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ  
اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ  
مُسْتَقِيمٍ (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْكُمْ عَذَابُ اللَّهِ  
أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ  
صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِلَٰهَ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا  
تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)

### ◀ اللغة

ذَاتِيَّة، الدَّب والدَّبِيب مشي خفيف ويستعمل ذلك في  
الحيوان الحشرات أكثر قاله في المفردات.

طَائِر، الطائر كل ذي جناح يسبح في الهواء.

أُمَمٌ جمع أمة وهي على ما قاله الرَّاغِب تطلق على كل جماعة يجمعهم  
أمر ما، أما دينٌ واحد، أو زمانٌ واحد أو مكانٌ واحد سواء أكان ذلك الأمر  
الجامع تسخييراً أو إختياراً وجمعها أُمَم انتهى كلامه.

فَرَّطْنَا التَّفْرِيط أن يقصّر في الفرط وباقي اللغات واضح.

### ◀ الإعراب

فِي الْأَرْضِ يجوز أن يكون في موضع جرّ صفة لدابة وفي موضع رفع  
صفة لها أيضاً على الموضع بناءً على كون (مِنْ) زائدة وَلَا طَائِرٍ معطوف على  
لفظ دَابَّةٍ وبالرفع على الموضع بِجَنَاحَيْهِ الباء تتعلّق بيطير ويجوز أن تكون

حالاتوكيد وفيه رفع مجاز لأن غير الطائر قد يقال فيه، طار، اذا أسرع من شيء قيل، من، زائدة وشي هنا واقع موقع المصدر أي تفريطاً والذين كذبوا مبتدأ ضمٌ وبكم الخبر ويجوز أن يكون ضمٌ، خبر مبتدأ محذوف تقديره بعضهم ضمٌ وبعضهم بكم في الظلمات يجوز أن يكون خبراً ثانياً وأن يكون حالاً من الضمير المقدّر في الخبر والتقدير، ضالون في الظلمات، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف أي هم في الظلمات وأن يكون صفة، لبكم أي كائنون في الظلمات من يشاء الله من في موضع الابتداء والجواب الخبر قل رأيتكم يقرأ بالقاء حركة الهمزة على اللام فتفتح اللام وتحذف الهمزة ويقرأ بالتحقيق وهو الأصل بل إياه هو مفعول تدعون الذي بعده (ما) بمعنى الذي أو نكرة موصوفة وليست مصدرية إلا أن تجعلها مصدرأ بمعنى المفعول.

### ◀ التفسير

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ قَالَ الرّازي في وجه النّظم أنّه تعالى بيّن في الآية الأولى أنّه لو كان إنزال سائر المعجزات مصلحة لهم لفعلها ولأظهرها إلا أنّه لما لم يكن في إظهارها مصلحة للمكّلفين لا جرم ما أظهرها وهذا الجواب أنّما يتم اذا ثبت أنّه تعالى يراعي مصالح المكّلفين ويتّفضل عليهم بذلك فبيّن أنّ الأمر لذلك وقرّره بأن قال وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمّ أمثالكم في وصول فضل الله وعنايته ورحمته وإحسانه اليهم وذلك كالأمر المشاهد المحسوس فاذا كانت أثار عنايته واصله الى جميع الحيوانات فلو كان في إظهار هذه المعجزات القاهرة مصلحة للمكّلفين لفعلها ولأبتمتع أن يبخل بها مع ما ظهر أنّه لم يبخل على شيء من الحيوانات بمصالحها ومنافعها وذلك يدل على أنّه تعالى أنّما لم يظهر تلك المعجزات لأنّ إظهارها يخلّ بمصالح المكّلفين فهذا هو وجه النّظم والمناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها انتهى كلامه.

**أقول** أنما نقلنا كلامه بألفاظه و عباراته ليعلم القارئ أنه أي الرّازي كثيراً ما كان دأبه تلفيق الكلمات التي لا طائل تحتها و ما نحن فيه من هذا القبيل، و ذلك لأنّ الآيات لا تحتاج الى وجه النّظم بعد إتفاق المفسّرين على أنّ ترتيب الآيات ليس على ترتيب نزولها لأنّ القرآن الموجود ممّا جمعه عثمان و لم يكن هذا التّرتيب في الآيات في عهد رسول الله ﷺ ظاهر لا خلاف فيه.

**ثانياً:** على فرض أن يكون التّرتيب مطابقاً للنزول أيضاً لا يحتاج الى وجه النّظم لأنّ الأبحاث مختلفة و مضامين الآيات بحسب المعنى متفاوتة ربّما يكون المراد في أية مخالفاً لما قبلها و ذلك لتكثر الموضوعات فكلّ شيء له حكم خاصّ اذا عرفت هذا فنقول:

لا ربط لهذه الآية بما قبلها أصلاً فإنّ الآية السابقة قد دلّت على أنّ الكفّار سألوا ما لم تكن في إظهاره مصلحة و هذه الآية قد دلّت على أنّ الله خلق ما خلق من الموجودات كما خلق الإنسان فهو خالق الجميع و رازقهم و بين المعنيين بولّ بعيد. نعم وجه النّظم في جميع الآيات هو أنّ الله على كلّ شيء قدير و هذا ممّا لا كلام فيه.

و الذي نقول في المقام هو أن الله تعالى أخبرنا في هذه الآية بشأن سائر الخلق فقال: **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ فِجْمَع** بهذين اللفظين جميع أقسام الحيوانات و أصنافها و ذلك لأن الحيوان لا يخلو من أن يكون ممّا يطير بجناحيه أو يدبّ في الأرض و لا ثالث لهما. قال الرّازي و في الآية سوالات:

**السؤال الأول:** فمن الحيوان ما لا يدخل في هذين القسمين مثل حيتان البحر و سائر ما يسبح في الماء و يعيش فيه.

**والجواب** لا يبعد أن يوصف بأنّها دابة من حيث أنّها تدبّ في الماء أو هي كالطير يسبح في الهواء إلا أنّ وصفها بالدبيب أقرب الى اللّغة من وصفها بالطيران انتهى كلامه.

وَأَنَا أَقُولُ هَذَا السَّوْأَلُ بَاطِلٌ فَاسِدٌ مِنْ أَصْلِهِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى الْجَوَابِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْبَحْرَ دَاخِلٌ فِي الْأَرْضِ فَقَوْلُهُ: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ يَدَّبُ فِي الْأَرْضِ، يَشْمَلُ الْبُحُورَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ كَمَا يَشْمَلُ الْبَرَارِي وَمَا فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ فَقَوْلُ الرَّازِي أَوْ هِيَ كَالطَّيْرِ لِأَنَّهَا تَسْبِجُ فِي الْمَاءِ كَمَا أَنَّ الطَّيْرَ يَسْبِجُ فِي الْهَوَاءِ كَلَامٌ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ وَذَلِكَ لِعَدَمِ صَدَقِ الطَّائِرِ عَلَى حَيَاتَانِ الْبَحْرِ لَا فِي اللُّغَةِ وَلَا فِي الْعَرَفِ وَبِذَلِكَ ظَهَرَ لَكَ فِسَادُ قَوْلِهِ إِلَّا أَنَّ وَصْفَهَا بِالذَّبِيبِ أَقْرَبُ إِلَى اللُّغَةِ مِنْ وَصْفِهَا بِالطَّيْرَانِ، قَالَ.

**السَّوْأَلُ الثَّانِي:** مَا الْفَائِدَةُ فِي تَقْيِيدِ الدَّابَّةِ بِكُونِهَا فِي الْأَرْضِ.

**والجواب من وجهين:**

**الأول:** أَنَّهُ خَصَّ مَا فِي الْأَرْضِ بِالذِّكْرِ دُونَ مَا فِي السَّمَاءِ إِحْتِجَاجاً بِالْأَظْهَرِ لِأَنَّ مَا فِي السَّمَاءِ وَأَنْ كَانَ مَخْلُوقاً مِثْلَنَا فَغَيْرُ ظَاهِرٍ.

**الثاني:** أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذِكْرِ هَذَا الْكَلَامِ أَنَّ عَنَايَةَ اللَّهِ لِمَا كَانَتْ حَاصِلَةً فِي هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ فَلَوْ كَانَ إِظْهَارُ الْمَعْجَزَاتِ الْقَاهِرَةِ مُصْلِحَةً لِمَا مَنَعَ اللَّهُ مِنْ إِظْهَارِهَا وَهَذَا الْمَقْصُودُ أَمَّا يَتِمُّ بِذِكْرِ مَنْ كَانَ أَدُونِ مَرْتَبَةٍ مِنَ الْإِنْسَانِ لَا بِذِكْرِ مَنْ كَانَ أَعْلَى حَالاً مِنْهُ فَلِهَذَا الْمَعْنَى قَيَّدَ الدَّابَّةَ بِكُونِهَا فِي الْأَرْضِ انْتَهَى.

**أقول في كلا الجوابين نظر.**

**أما الأول:** فَلَأَنَّ مَا فِي السَّمَاءِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ لَيْسَ مِمَّا يَدَّبُ حَتَّى يَحْتَاجَ إِلَى الْخُرُوجِ بِقَوْلِهِ: فِي الْأَرْضِ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى تَقْيِيدُ الدَّابَّةِ بِقَوْلِهِ فِي الْأَرْضِ لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الْإِحْتِجَاجِ بِالْأَظْهَرِ كَمَا زَعَمَهُ بَلِ الْوَجْهُ فِيهِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ بِصَدَدِ بَيَانِ مَا يَدَّبُ وَهُوَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْأَرْضِ فَالْقَيْدُ تَوْضِيحِي بِحَيْثُ لَوْ لَمْ يَذْكُرْ هَذَا الْقَيْدَ أَيْضاً لَمْ يَشْمَلِ الْكَلَامُ مَا فِي السَّمَاءِ لِعَدَمِ صَدَقِ الدَّابَّةِ عَلَى مَا فِيهَا.

**أما الثاني:** فَقَدْ ذَكَرْنَا فِي مَا مَضَى أَنَّ الْآيَةَ لَا رِبْطَ لَهَا بِمَا قَبْلُهَا وَأَمَّا قَوْلُهُ وَ هَذَا الْمَقْصُودُ أَمَّا يَتِمُّ الْخُ فَقَوْلُ بَأَيِّ دَلِيلٍ ظَهَرَ لَكَ أَنَّ مَا فِي السَّمَاءِ أَعْلَى



حالاً من الإنسان وفي الإنسان الأنبياء والأوصياء والصُّلحاء أليس الله تعالى قال لنبيّه ليلة المعراج لولاك لما خلقت الأفلاك.

وقال خلقت الخلق لأجلك وخلقتك لأجلي وقال: **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ** <sup>(١)</sup> وقد ثبت عقلاً ونقلاً أنَّ الإنسان أشرف وأفضل من الملائكة وإذا كان أفضل منهم فهو أفضل من غيرهم بطريق أولى فقد تحسّل ممّا ذكرناه إنَّ ما ذكره الرّازي في الجواب لا يساعده العقل ولا النّقل و بما ذكرناه ظهر لك أنَّ قوله تعالى ولا طائرٍ بجناحيه، القيد فيه أيضاً توضيحي كما أنَّ قوله في الأرض توضيحي، فما ذكره الرّازي من أنّه قد يقول الرّجل لعبده طرفي حاجتي والمراد الإسراع وعلى هذا فقد يحصل الطّيران لا بالجناح.

لا وجه له لأنّ الطّيران لا يطلق على ما ليس له جناح، بالحقيقة وأمّا المجاز فلا كلام لنا فيه وإلاّ يمكن أن يقال المراد بجناحيه جناح العلم وجناح العمل اذ قد يطلق الجناح على كلّ واحدٍ منهما مجازاً وهو معلوم الفساد في المقام. قال الرّازي في المقام أنّه تعالى في صفة الملائكة، **جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعٍ** <sup>(٢)</sup> فذكرها هنا قوله: **وَلَا طَائِرٍ يَظِيرُ بِجَنَاحَيْهِ** ليخرج عنه الملائكة فأثّنا بيّنا أنَّ المقصود من هذا الكلام أنّما يتّم بذكر من كان أدون حالاً من الإنسان لا بذكر من كان أعلى منه انتهى.

ونحن نقول ليس الأمر كذلك بل قوله يطير بجناحيه توضيح وتبيين للطائر وأمّا الملائكة فهم خارجون عن الحكم قطعاً خروجاً تخصّصياً لا تخصّصياً لأنّ الآية بصدد بيان ما يدب في الأرض وما يطير في الهواء من أنواع الحيوانات والملائكة نوعٌ آخر من الموجودات خارجون عن أقسام الحيوان وهو معلوم وعليه فلو لم يقل، يطير بجناحيه، مثلاً لم يشمل الملائكة لأنّ الطائر في اللّغة لا يطلق إلّا على الحيوان ولا يطلق على الملك.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: **إِلَّا أُمَّةٌ أَمْثَالُكُمْ** فَقَالُوا فِي مَعْنَاهُ أَيُّ هُمْ أَجْنَسٌ وَ أَصْنَافٌ كُلُّ صَنْفٍ يَشْتَمِلُ عَلَى الْعَدَدِ الْكَثِيرِ وَالْأَنْوَاعِ الْمَخْتَلِفَةِ وَأَنَا اللَّهُ خَالِقُهَا وَرَازِقُهَا كَمَا أَنَّ تَعَالَى خَالِقُكُمْ وَرَازِقُكُمْ وَأَنَّهُ يَعْدِلُ عَلَيْهَا فِيمَا يَفْعَلُهُ كَمَا يَعْدِلُ عَلَيْكُمْ.

وَنَقَلَ عَنِ الْفَرَاءِ أَنَّهُ قَالَ فِي مَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ صَنْفٍ مِنَ الْبَهَائِمِ أُمَّةٌ وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ لَوْلَا أَنَّ الْكَلَابَ أُمَّةٌ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا فَجَعَلَ الْكَلَابَ أُمَّةً.

قَالَ الرَّازِي بَعْدَ نَقْلِهِ مَا نَقَلْنَاهُ عَنْهُ أَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الدَّوَابَّ وَ الطَّيُورَ أَمْثَالُنَا وَلَيْسَ فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمِمَّاثِلَةَ فِي أَيِّ الْمَعَانِي حَصَلَتْ ثُمَّ ذَكَرَ فِي وَجْهِ الْمِمَّاثِلَةِ وَجُوهًا كَثِيرَةً إِنْ أُرِدَتْ الْإِطْلَاعُ عَلَيْهَا فَعَلَيْكَ بِتَفْسِيرِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ فَائِدَةٌ لِأَنَّ الْمِمَّاثِلَةَ لَيْسَتْ إِلَّا فِي كَوْنِهَا مَخْلُوقَةٌ كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ مَخْلُوقٌ أَوْ فِي كَوْنِهَا أَصْنَافًا وَأَنْوَاعًا كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ أَيْضًا كَذَلِكَ وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: **مَا فَطَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ فَقِيلَ** أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ وَقِيلَ الْمُرَادُ بِهِ الْقُرْآنَ، فَمَنْ قَالَ بِالْأَوَّلِ فَسَّرَ الْكَلَامَ بَيِّنًا مَا فَطَرْنَا أَيُّ مَا تَرَكْنَا أَوْ مَا قَصَرْنَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ شَيْئًا مِنْ أَجَالِ الْحَيَوَانِ وَأَرْزَاقِهِ وَآثَارِهِ لِيَعْلَمَ ابْنُ آدَمَ أَنَّ عَمَلَهُ أَوْلَى بِالْإِحْصَاءِ وَالْإِسْتِقْصَاءِ.

وَمَنْ قَالَ بِالثَّانِي قَالَ مَا تَرَكْنَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا إِلَّا وَقَدْ بَيَّنَّاهُ أَمَّا مُجْمَلًا أَوْ مُفَصَّلًا فَمَا هُوَ صَرِيحٌ يَفِيدُ لَفْظًا وَمَا هُوَ مُجْمَلٌ يَبَيِّنُهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ وَأَوْصِيَاءِهِ فَقَالَ: **وَمَا أَنْتِكُمْ إِلَّا رُسُلٌ فَخُذُوا وَ مَا نَهَيْكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا** <sup>(١)</sup>.

وَدَلَّ بِالْقُرْآنِ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ وَوَجُوبِ إِتِّبَاعِهِ فَإِذَا لَا يَبْقَى أَمْرٌ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا إِلَّا وَهُوَ فِي الْقُرْآنِ إِخْتَارُهُ الْجَبَائِي وَ قَالَ الْبَلْخِي، مَا فَطَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ، أَيُّ لَمْ نَدْعِ الْإِحْتِجَاجَ بِمَا يُوْضِحُ الْحَقَّ وَيَدْعُو إِلَى الطَّاعَةِ وَ الْمَعْرِفَةِ وَيُزْجِرُ عَنِ الْجَهْلِ وَالْمَعْصِيَةِ وَتَصْرِيفِ الْأَمْثَالِ وَذَكَرَ أَهْوَالَ الْمَلَائِكَةِ

وبني آدم وسائر الخلق من أصناف الحيوان قال الرّازي وفي المراد بالكتاب قولان:

**الأوّل:** المراد به اللّوح المحفوظ في العرش و عالم السّماوات المشتمل على جميع أحوال المخلوقات على التّفصيل الثّام كما قال **عَلَيْهِ جَفَّ الْقَلَمُ** بما هو كائن الى يوم القيامة.

**والقول الثّاني:** المراد منه القرآن وهذا ظهر لأنّ الألف واللام إذا دخلا على الإسم المفرد إنصرف الى المعهود السّابق، والمعهود السّابق من الكتاب عند المسلمين هو القرآن فوجب أن يكون المراد منه في هذه الآية القرآن ثمّ قال إذا ثبت هذا فلنقتل.

أن يقول كيف قال تعالى: **مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ** مع أنّه ليس فيه تفاصيل علم الطّب و تفاصيل علم الحساب ولا تفاصيل كثير من المباحث و العلوم وليس فيه أيضاً تفاصيل مذاهب النّاس ودلائلهم في علم الأصول والفروع قال.

والجواب، أنّ قوله: **مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ** يجب أن يكون مخصوصاً ببيان الأشياء التي يجب معرفتها والإحاطة بها و بيانه من وجهين: **الأوّل:** أنّ لفظ التّقریط لا يستعمل نفيّاً ولا إثباتاً إلّا فيما يجب أن يبيّن لأنّ أحداً لا ينسب الى التّقریط والتّقصير في أن لا يفعل ما لا حاجة اليه و أنّما يذكر هذا اللفظ فيما إذا قصّر فيما يحتاج اليه.

**الثّاني:** أنّ جميع آيات القرآن أو الكثير منها دالة بالمطابقة أو التّضمن أو الإلتزام على أنّ المقصود من إنزال هذا الكتاب بيان الدّين ومعرفة أحكام الله وإذا كان هذا التّقييد معلوماً من كلّ القرآن كان المطلق هاهنا محمولاً على ذلك المقيّد.

أمّا قوله، أنّ هذا الكتاب غير مشتمل على جميع علوم الأصول والفروع فنقول.

أما علم الأصول فإنه بتمامه حاصل فيه لأن الدلائل الأصلية مذكورة فيه على أبلغ الوجوه فأما روايات المذاهب وتفاصيل الأقاويل فلا حاجة إليها. وأما تفاصيل علم الفروع فنقول للعلماء هاهنا قولان:

**الأول:** أنهم قالوا أن القرآن دلّ على أن الإجماع وخبر الواحد والقياس حجة في الشريعة فكّل ما دلّ عليه أحد هذه الأصول الثلاثة كان ذلك في الحقيقة موجوداً في القرآن وذكر الواحدي لهذا المعنى أمثلة ثلاثة انتهى موضع الحاجة من كلامه ثم أن الرازي ذكر الأمثلة وأطال الكلام في هذا الباب بما لا فائدة فيه فمن أراد الإطلاع على كلماته فليراجع إلى كتابه وأنا أقول جميع المفسرين من العامة والخاصة حملوا الكتاب على هذين المعنيين أعني اللوح المحفوظ، والقرآن وأكثرهم إختاروا المعنى الثاني وهو القرآن ثم أضافوا إليه السنة فقالوا معنى قوله ما فرطنا في الكتاب من شيء، كلمة، من، زائدة والمعنى ما فرطنا في الكتاب شيئاً من أمور الدين والدنيا إما مفصلاً كالأيات الموجودة بين الدفتين.

وأما مجملًا فقد بيّنه الرسول فما بيّنه الرسول فهو في الحقيقة ممّا بيّنه الله في كتابه بدليل قوله: **وَمَا آتَيْكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** <sup>(١)</sup>.

هذا ملخص كلماتهم في تفسير الآية قال بعض المحققين أن الألفاظ موضوعة للمعاني العامة فالكتاب موضوع لما ينتقش فيه سواء كان مادياً أو مجرداً أو سواء كان نفسه معقولاً أو محسوساً أو متخيلاً أو موهوماً فعلى هذا الكتاب كتابان، تدويني وهو ما بين الدفتين المسمى بالقرآن من قرأ إذا جمع بإعتبار وجوده الجمعي وبالفرقان بإعتبار وجوده الفرقي المنزل من الله على نبيه المرسل، وتكويني وهو على أقسام.

**أحدها:** الكتاب الآفاق وهو الكتاب المبين وأم الكتاب وكتاب المحو و

الإِثْبَاتِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَخُحُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ<sup>(۱)</sup>.

وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ<sup>(۲)</sup>.

ثانیهما: النَّفْسُ وَهُوَ عَلَى قَسْمَیْنِ:

عَلِیَّیْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَرِ لَفِي عِلِّيَّیْنِ<sup>(۳)</sup>.

سَجَنَیْنِی قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجَنٍ<sup>(۴)</sup> فهذه أقسام الكتاب

ثُمَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ الْكَامِلَ كَالنَّبِيِّ وَالْوَصِيِّ قَارَنَهُ اللَّهُ لِلْكِتَابِ التَّكْوِينِيِّ الْآفَاقِيِّ الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كَلِيَّةِ الْعَالَمِ وَلِذَلِكَ قِيلَ الْعَالَمُ كُلُّهُ تَصْنِيفُ اللَّهِ وَالْإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ فِي الْفَارْسَةِ:

بنزد آنکه روحش در تجلی است

همه عالم کتاب حقتعالی است

عرض أعراب و جوهر چون حروفست

مراتب هم چو آیات وقوفست

از آن هر ذره‌ای یک سوره‌ای خاص

یکی زان فاتحه و آن دیگر اخلاص

و المراد بالمقارنة أي مقارنة الإنسان الكامل للكتاب التكويني الآفاقي الَّذِي هُوَ كَلِيَّةُ الْعَالَمِ الْإِنْطَوَاءِ إِذِ النَّوعِ الْأَخِيرِ كُلِّ الْأَنْوَاعِ كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

دوآنک فیک و لا تبصر و دوائک منک و لا تشعر

و أنت الكتاب المبین الَّذِي بِأَحْرَفِهِ تَظْهَرُ الْمَغْمَرُ

أَتَزْعَمُ أَنَّكَ جَرْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ إِنْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ

صَدَقَ وَلِيُّ اللَّهِ وَلِذَا إِكْتَفَى النَّبِيُّ ﷺ بِالْكِتَابِ الْإِنْفَسِيِّ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ بِقَوْلِهِ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ لِأَنَّ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَلَى مَا يَنْبَغِي وَجُوداً وَ

فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ۷

المجلد السادس

صفةً و فعلاً و طالع كتابه كذلك يعرف ربّه كذلك و اليه الإشارة بقوله تعالى:  
**اقْرَأْ حَتَّىٰ تَبْكَ كَفَىٰ بِفَيْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** <sup>(١)</sup> انتهى كلامه رفع مقامه.

وَأنا أقول ما ذكره و حققه لا بأس به بل هو الحقّ الحقيق بالإتباع فأَنَّ الإنسان الكامل مقارن للكتاب التكويني الآفاقي الَّذي هو جميع العالم بل هو قلبه و روحه إذ بوجوده ثبتت الأرض و السَّماء و بيمنه رزق الورى و الّٰى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام يوم صَفَيْن بعد رفع المصاحف على الأُسنة أنا كتاب الله الناطق و هذا كتاب الله الصّامت، و فى هذا الكلام إشارة الى مقارنة الإنسان الكامل للكتاب التّدويني أيضاً فكما أَنَّ الإنسان الكامل نفس العالم و روحه كذلك هو نفس القرآن و روحه فالمقارنة ثابتة له للكتاب نفسه سواء كان تكوينياً أو تّدوينياً، أمّا التكويني فلقلوله عليه السلام لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها.

و أمّا التّدويني فلقلوله عليه السلام: أَنّي تارك فيكم الثّقلين كتاب الله و عترتي أهل بيتي ما إِن تَمَسَّكُمْ بهما لَن تَضَلُّوا أَبَدًا لَّن يَفْتَرَقَا حَتَّى يَرْدَا عَلَيَّ الحَوْض.

فقلوه: لَن يَفْتَرَقَا دليل على المقارنة بل العينية و الوحدة اذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير الآية و نقول:

قوله تعالى: **مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ** المراد بالكتاب معناه العامّ الشّامل التّكويني و التّدويني و حيث أَنَّ الإنسان الكامل مقارن لهما على ما مرّ بيانه فالمعنى ما تركنا و ما قَصَرْنَا في الكتاب بمعناه العامّ شيئاً، و عليه فأن حملنا الشّيء على الأشياء الخارجية و الموجودات العينية يصير المعنى ما تركنا في الكتاب التّكويني شيئاً أي موجوداً إلا أكملناه في وجوده و رزقناه و إن شئت قلت ما تركنا أو ما قَصَرْنَا في عالم التّكوين شيئاً إقتضته المصلحة إلاّ أوجدناه.

و أن حملنا الشّي على الأحكام الشرعية أو الأعم منها والأحكام الدنيوية معنى الكلام ما تركنا أو ما قصّرنا شيئاً ممّا له نفع في الدين والدنيا إلاّ بيّناه تفصيلاً أو إجمالاً في الكتاب التدويني الذي هو القرآن والإنسان الكامل المقارن له لا القرآن وحده ألا ترى أنّ الله يقول: وَمَا أُنْيِكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا<sup>(١)</sup>.

فهذا دليل على أنّ الرسول في حياته مفسّر ومبيّن للقرآن وكلامه حجة كما أنّ القرآن حجة وبعد الرسول وصيّته كذلك فالإنسان الكامل الذي هو عبارة عن الرسول وأوصيائه المعصومين الذين قرنهم الله ورسوله بالكتاب وقال ﷺ فيهم، لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، حقيقة الكتاب بل نفسه وروحه فما أمروا به أمر به الكتاب وما نهوا عنه نهى عنه الكتاب وبالعكس وبهذا المعنى ثبت وتحقّق أنّ الله ما فرط في الكتاب من شيء هذا ما فهمناه من الآية والله تعالى أعلم بحقيقة كلامه وأما قوله تعالى: ثُمَّ إِلَيَّ رِيّهُمْ يُحْشَرُونَ فجمهور المفسّرين على أنّ الجميع يحشرون ويبعثون حتّى الذّباب ويقتصّ لبعضهما من بعض فيقتصّ للجماة من القرناء وأستدلوا على ذلك بأنّ البهيمة تعرف النّفع والضّرر وتنفر من العصاء وتقبل إلى العلف وينزجر الكلب إذا إنزجر، والطّير والوحش ينفر من الجوارح إستدفاعاً لشّرها والقرآن الكريم يذلّ على الإعادة وكذلك كثير من الأخبار من الفريقين قالوا ويشهد لذلك أنّ كلّ واحد من الحيوانات يعرف أربعة أشياء، يعرف من خلقه و يعرف ما يضرّه وينفعه و يعرف الذّكر والأنثى و يعرف الموت.

فقد روى الطّبري في تفسيره لهذه الآية عن أبي هريرة أنّه قال يحشر الله الخلق كلّهم يوم القيامة البهائم والذّواب والطّير وكلّ شيء فيبلغ من عدل الله يومئذٍ أن يأخذ للجماة من القرناء ثمّ يقول كوني تراباً فلذلك يقول الكافر يا

بَابُ التَّوْقَاتِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٧

الجلد السادس

ليتني كنت تراباً وقال الألوسي في تفسيره ومن الناس من جعلها دليلاً على أنَّ للحيوانات بأسرها نفوساً ناطقة كما لأفراد الإنسان واليه ذهب الصوفية وبعض الحكماء الإسلاميين ثم نقل بعد أسطرٍ عن ابن عباس أنه قال جميع ما في الأمم فينا حتى أنَّ فيهم ابن عباس مثلي و ذكر في الأجوبة المرضية أنَّ فيهم أنبياء ثم حكى عن بعضهم أنه قال تشبيه الله من ضلَّ من عباده بالأنعام في قوله سبحانه: **إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ** <sup>(١)</sup> ليس لنقص فيها وإنما هو لبيان كمال مرتبتها في العلم بالله تعالى حتى حارت فيه فالتشبيه في الحقيقة واقع في الحياة لا في المحار فيه إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

**وأنا أقول** لا يمكن تفسير كلام الله المنزه عن كل نقص وشين بهذه الأراجيف والأباطيل التي لا يقبلها العقل السليم بل لا يقول بها إلا المجانين ولم يقل أحد من الحكماء الإسلاميين وأيَّ حكيم قال أو يقول أنَّ للبهائم نفوساً ناطقة كما لأفراد الإنسان ولو كان الألوسي صادقاً فيما قال فيما نسبته الى بعض الحكماء لكان اللازم عليه التصريح بأسمائهم أو إسم واحد منهم وإذ ليس فليس ومجرد الإنتساب لا يكفي في إثبات المدعى فأنَّ الحكيم أجل شأنًا وأرفع مقاماً من أن يقول بهذه المزخرفات والخزعبلات وهكذا ما نقله عن ابن عباس وأفطع من الكلَّ ما نقله عن بعضهم أنَّ فيهم أي في البهائم والوحوش أنبياء فلو كان هذا الثقل حقاً ينبغي أن يكون نبّيهم شخص الناقل أو القائل إذ نبّي الوحوش والبهائم لا يكون إلا من جنسها كما أنَّ نبّي الإنسان من جنس الإنسان وأما قوله نقلاً عن بعضهم أنَّ تشبيه الله من ضلَّ من عباده بالأنعام ليس لنقص فيها وإنما هو لبيان كمال مرتبتها في العلم بالله تعالى حتى حارت فيه فالتشبيه في الحقيقة في الحيرة لا في المحار فيه، فهو طريف من الكلام إذ لا نعلم آية مرتبة لها في العلم فكأنه لم يقرأ قوله تعالى أولئك كالأنعام بل هم



أضلل الآية، فاعتبروا يا أولي الأبصار ومحصل الكلام في المقام هو أن ما ذكروه ليس من التفسير بشئ وإنما هو من مستخرجات ظنونهم الفاسدة وأرائهم الكاسدة الباطلة وقد قال رسول الله ﷺ من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار، والذي يقتضيه ظاهر الكلام هو أن الدواب والطيور وجميع أصناف الحيوان يحشرون يوم الحشر وأما كيفية الحشر وما يترتب عليه فهو مما لا يعلمه إلا الله وليس كل حشر للثواب والعقاب وذلك لأن مدار الثواب والعقاب والقصاص وأمثالها على التكليف ومداره على العقل وقد ثبت أن الحيوانات فاقدة للعقل الذي هو مدرك للكميات وما لا عقل له لا تكليف له فالحشر بالمعنى الذي ذكروه لا معنى له فالمراد به الخروج.

قال الزاغبي في المفردات، الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب وغيرها.

وروي أن النساء لا يحشرن، أي لا يخرجن إلى الغزو ويقال ذلك في الإنسان وفي غيره ولا يقال الحشر إلا في الجماعة انتهى كلامه.

أقول فعلى هذا معنى الكلام أن الدواب والطيور والإنسان جميعاً يحشرون أي يخرجون عن مقرهم وهو الدنيا ويزعجون إلى الموت أي أنهم لا يبقون في دار الدنيا بل ينقلون من الحياة إلى الموت ويدل عليه العقل والنقل. أما العقل فمعلوم بل محسوس.

أما النقل قال الله تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهٌ ذُو الْإِكْرَامِ<sup>(١)</sup> وأمثالها من الآيات هذا إذا قلنا أن الحشر بمعنى الإخراج وأما أن قلنا أن الحشر بمعنى الجمع فهو أيضاً لا يدل على مدعاهم وهو ظاهر:

قال الله تعالى: وَإِذَا أُلُوْخُوشٌ حُشِرَتْ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ<sup>(٢)</sup>.

وأما في غير الإنسان من أصناف الحيوانات فهو يحتاج الى دليل فإن ثبت فهو وإلا فلا، نعم لو قال تعالى يحشرون لأجل كذا وكذا مثلاً، كان المدعى ثابتاً وبالجملة نحن في المقام من المتوقفين فيما زاد على الحشر وعلى المدعى بالنسبة الى غير الإنسان الإثبات قال الله تعالى: وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ أَلْعَلِمِ إِلَّا قَلِيلًا (٣).

و قال قوم المراد أنهم صمُّ و بكم في الظُّلمات في الدنيا و أنما شبَّههم بالصُّم و البكم الذين في الظُّلمات لأنَّ المكذِّبين بأيات الله لا يهتمدون الى شيء

مِمَّا نَالَهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ مَنَافِعِ الدِّينِ وَلَا يَصِلُونَ إِلَى ذَلِكَ كَمَا أَنَّ الصُّمَّ الْبِكَمِ  
الَّذِينَ فِي الظُّلُمَاتِ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَنَافِعِ الدُّنْيَا وَلَا يَصِلُونَ إِلَيْهَا فَهَذَا  
هُوَ الْوَجْهُ فِي التَّشْبِيهِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْكَلَامَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ لَيْسَ عَلَى الْحَقِيقَةِ بَلْ يَكُونُ مُجَازاً  
الْبَلَخِي صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَعْنَاهُ فِي الْجَهْلِ وَالشُّرْكِ وَالْكَفْرِ أَقُولُ، كَلَا  
الْمَعْنِيَيْنِ مِمَّا لَا بَأْسَ بِهِ فَأَنَّ الْكَفَّازَ الْمَكْذِبِينَ بآيَاتِ اللَّهِ لَا شَكَّ أَنَّهُمْ فِي  
ظُلُمَاتٍ غَيٍّ وَالشُّرْكَ فِي الدُّنْيَا وَفِي ظُلُمَاتِ الْعِقَابِ وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ  
كَمَا أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعَكْسِ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ  
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** <sup>(١)</sup>.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ** <sup>(٢)</sup>.  
وَالسَّرْفِيهِ هُوَ أَنَّ الْإِيمَانَ نُورٌ وَالْكَفْرَ ظِلْمَةٌ فَالْمُؤْمِنُ دَائِمًا فِي النُّورِ وَالْكَافِرُ  
فِي الظُّلْمَةِ.

**مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**  
فَقَالُوا، مَفْعُولٌ، يَشَاءُ، مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ، مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ إِضْلَالَهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ  
يَشَاءُ هِدَايَتَهُ يُجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَاسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ، مَنْ، فِي  
الْمَوْضِعَيْنِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولاً، لِلتَّعَانُدِ الْحَاصِلِ بَيْنَ الْمَشِيتَتَيْنِ، ثُمَّ أَنَّ  
ظَاهِرَ الْآيَةِ أَنَّ الْإِضْلَالَ وَالْهِدَايَةَ بِيَدِ اللَّهِ وَأَنْ شِئْتَ قُلْتَ أَنَّهُمَا مَخْلُوقَانِ لِلَّهِ فِي  
حَقِّ الْعِبَادَةِ لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الضَّلَالَةِ عَنْ نَفْسِهِ كَمَا أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى جَلْبِ  
الْهِدَايَةِ إِلَيْهَا وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا الْمَنَوَالِ فَمَا ذَنْبُ الْعَبْدِ فِي كَفَرِهِ وَمَعْصِيَتِهِ  
كَمَا لَا مَدْحَ لَهُ فِي إِيْمَانِهِ وَطَاعَتِهِ وَهَذَا هُوَ الْجَبَرُ.

بِجَاءِ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٧

المجلد السادس

قال الرّازي في المقام، إحتج أصحابنا بهذه الآية على أنّ الهدى والضلال ليسا إلا من الله تعالى وتقريره أنّه تعالى وصفهم بكونهم صمّا وبكمّا وبكونهم في الظلمات وهو إشارة الى كونه عمياء فهو بعينه نظير قوله في سورة البقرة، صُمٌّ بُعِمُ عَنْهُمْ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ<sup>(١)</sup> ثم قال تعالى: مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وهو صريح في أنّ الهدى والضلال ليسا إلا من الله انتهى كلامه.

**أقول** هذا الذي ذكره الرّازي هو مسلك الأشاعرة القائلين بالجبر كما عرفت مذهبهم في خلال الآيات في سورة البقرة وغيرها فأتهم ذهبوا الى أنّ العبد لا إختيار له في هذا الباب وفي جميع الأمور ولذلك يحملون الآيات على ظواهرها. وقالت المعتزلة أنّ المراد من قوله: مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ محمول على منع الألطاف فصاروا عندها كلاصمّ والبكم.

و قال بعضهم، مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ يوم القيامة عن طريق الجنة عن وجدان الثواب ومن يشاء أن يهديه الى الجنة يجعله على صراط مستقيم وهو الصراط الذي يسلكه المؤمنون الى الجنة وقد ثبت بالدليل أنّه تعالى لا يشاء هذا الإضلال إلا لمن يستحق عقوبة كما لا يشاء الهدى إلا للمؤمنين.

نقل هذا القول الرّازي عنهم في تفسيره ثم أورد الرّازي عليهم بما حاصله أنّ هذا الكلام أنما يحسن المصير اليه لو ثبت في العقل أنّه لا يمكن حمل كلام الله على ظاهره فلما ثبت بالدليل العقلي القاطع أنّه لا يمكن حمل هذا الكلام إلا على ظاهره كان العدول الى هذه الوجوه المتكلفة بعيداً جداً ثم قال وقد دللنا على أنّ الفعل لا يحصل إلا عند حصول الداعي وبينا أنّ خالق الداعي هو الله وبينا أنّ عند حصوله يجب الفعل فهذه المقدمات الثلاثة توجب القطع بأنّ الكفر والإيمان من الله وبتخليقه وتقديره وتكوينه ومتى ثبت بهذا البرهان القاطع صحته هذا الظاهر كان الذهاب الى هذه التكاليف فاسداً قطعاً.

**أقول** ما ذكره الرّازي فاسد قطعاً وإستدلّاه على مدّعه أفسد من أصل الدّعوئ وذلك لأنّ الفعل لا يحصل إلّا عند حصول الدّاعي فهو ممّا لا كلام لنا فيه وأمّا قوله أنّ خالق ذلك الدّاعي هو الله فإن كان مراده بالدّاعي الإرادة في العبد مخلوقة لله بمعنى أنّها ليست تحت قدرة العبد فهو أوّل الكلام وأن كان مراده بالدّاعي ترجيح العبد أحد الطّرفين على الآخر فهو مخلوق للعبد اذ العبد يختار أو لا يختار وأن شئت توضيح المعنى.

**فنقول** قد ثبت في العلوم العقليّة أنّ معيار الاختيار في كلّ فعلٍ من الأفعال هو أن يكون مسبقاً بالمبادئي الأربعة أعني بها، الحياة، والعلم، والمشيتة والقدرة وهذا ممّا لا كلام فيه ولا شك أنّ هذه المبادئي موجودة في العبد بإعطائها الله إياه فاذا علم الإنسان مصلحة الفعل شاء وإذا شاء أراد وإذا أراد فعل لأنّه قادر على الفعل كما أنّه قادر على التّرك في صورة عدم العلم بالمصلحة وهذا الذي ذكرناه معقول بل محسوس لكلّ أحدٍ فقول القائل أنّ الفعل لا يحصل إلّا عند حصول الدّاعي أن كان مراده بالدّاعي الحياة فهو معقول اذ لا يصدر الفعل من المعدوم وأن كان مراده بالدّاعي العلم والمشيتة والقدرة وأنّها ممّا أعطاه الله فهو أيضاً لا كلام فيه لأنّها من توابع الوجود ولا وجود إلّا من الله تعالى وإن كان مراده بالدّاعي هذه الثلاثة إلّا أنّها ليست تحت إختيار العبد ففي هذه الصّورة لا يكون العبد متّصفاً بها واقعاً وهو خلاف الفرض.

أن قلت فما معنى قوله تعالى من يشاء يجعله على صراطٍ مستقيم.

قلت وقيل معنى الآية من يشاء الله يضلّله أي يخذله ويمنعه أطافه و فوائده وقيل من يشاء الله إضلاله عن طريق الجنّة ونيل ثوابها يضلّله على وجه العقوبة ومن يشاء يجعله على صراطٍ مستقيم معناه من يشاء أن يرحمه و يهديه إلى الجنّة ونيل الثّواب يجعله على الصّراط الذي يسلكه المؤمنون إلى الجنّة و يعدل الكافرين عنه إلى النّار ولا يلحق الإضلال إلّا الكفّار و الفسّاق

المستحقين للعقاب وكذلك لا يفعل الثواب والخلود في الجنة إلا بالمؤمنين لأنه ثواب لا يستحقه سواهم ذكر هذين الوجهين في التبيان.

وأنا أقول ما ذكره <sup>(١)</sup> في معنى الكلام لا بأس به إلا أن التعبير بمنع اللطف لا يصح والأحسن التعبير بمنع التوفيق وذلك لوجهين:

**أحدهما:** أن اللطف منه تعالى عام بالنسبة إلى جميع الخلق لأن منشأ اللطف الرحمة وقد ثبت عقلاً ونقلاً أن رحمته وسعت كل شيء ألا ترى أنه قد سبقت رحمته غضبه فاللطف منه تعالى عام ولأجل ذلك قال المتكلمون أن بعث الرسل وإنزال الكتب من الله تعالى واجب عقلاً على قاعدة اللطف فالقول بأن الله يمنع عباده ألطافه لا يساعده العقل لأنه يلزم منه البخل وأن النبي مبعوث إلى من يشمله اللطف وهو كما ترى قال الله تعالى: **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** <sup>(١)</sup> فإذا كان النبي مبعوثاً إلى جميع الخلق والمفروض أن منشاء البعث هو اللطف بالنسبة إلى العباد فمنع بعضهم عن اللطف دون بعض غير معقول.

**ثانيهما:** أن اللطف يصل إلى العبد شاء العبد أم لم يشاء سأل أم لم يسأل لما ذكرناه بخلاف التوفيق فإنه منوط بسؤال العبد ومشئته فمن لا يطلب التوفيق من الله بالإستمداد منه والإستعانة به لا يوفق قطعاً سواء كان الطلب حالياً أو متعالياً ولذلك أمرنا الله تعالى به قال: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** وقد ورد في الدعاء، اللهم وفقنا لما تحب وترضى، ومحصل الكلام هو أن التوفيق من الله تعالى للعبد يتوقف على قابليته وإستعداده وإستمداده وإستعانته منه تعالى وأما اللطف منه فلا يتوقف على شيء إذا عرفت هذا فنقول معنى الآية من يشاء الله يضلله، أي يمنع التوفيق فيه لأنه لم يشاء ومن يشاء يجعله على صراط مستقيم، معناه يوفقه للسلوك على الطريق المستقيم، والسرف فيه هو أن النفس كما قال تعالى: **لَأَمَّا زَكَاةً يَأْتِيهِ إِلَّا مَا رَحِمَ** <sup>(٢)</sup> فلو لا رحمة الله وتوفيقه

للعبد يكون ضالاً قطعاً فالضلالة من نفسه والهداية من الله ولازم ذلك أن الله تعالى إذ وكل العبد الى نفسه أن يكون منغمراً في الضلالة التي دعتة نفسه اليها وهذا معنى الإضلال من الله تعالى لا ما ظنّه قوم من الأشاعرة القائلين بالجبر من أن معنى الإضلال في حقّه تعالى أنّه بتخليقه وتقديره كما أنّ الإيمان أيضاً كذلك و ذلك لأنّ الله تعالى لو خلق الكفر والإيمان في العبد بمعنى لا يقدر على دفعه عن نفسه فبأيّ ذنب يعاقب على الكفر والمفروض أنّه خارج عن قدرته وبأيّ سبب يثاب على الإيمان ويمدح به وتحصيله لا يكون تحت إختياره وقدرته أليس العقاب على الكفر والعصيان ظلماً منه تعالى على العبد نعوذ بالله منه أليس للعبد أن يقول لم خلقتني كافراً ثمّ عذبتني على الكفر الذي هو فعلك أليس هذا تكليفاً بما لا يطاق أليس بعث الرّسل وإنزال الكتب وجعل التكاليف لغواً و عبثاً بالنسبة الى العبد الذي خلق الله الكفر فيه وسلب عنه الإختيار.

ثمّ لقائل أن يقول لم جعل الله الكفر في زيد مثلاً وجعل الإيمان في عمرو والمفروض أنّ كلّ واحد منهما مخلوق له أليس هذا من التّرجيح بلا مرّجح الذي يحكم العقل ببطلانه وإذا ثبت المحاذير على هذا المسلك فكيف يقول به العاقل الذي يدعي الإيمان بالله ومن لوازم الإيمان تنزيهه تعالى عن القبائح فالحقّ أنّ الله تعالى خلق العباد وبعث الأنبياء والرّسل وأنزل الكتب وجعلهم مكلفين بعد أن أعطاهم العقل وجعل فيهم القدرة على الفعل وعلى التّرك ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عنها هذا:

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَيْكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قال الفراء للعرب في، أرايت لغتان ومعنيان:

أحدهما: أن تسأل الرجل أرايت زيدا، أي بعينك فهذه مهموزة.

ثانيهما: أن تقول أرايت، وأنت تقول أخبرني فها هنا تترك الهمزة إن شئت أكثر كلام العرب تومي الى ترك الهمزة للفرق بين المعنيين انتهى كلامه.

**أقول** فعلى الأول يثني و يجمع فتقول للرجلين أرايتما كما و للجمع أرايتموكم وللنسوة أرايتكن و للمرأة، أرايتك بخفض التاء و لا يجوز إلا ذلك. و أما على الثاني فتترك التاء مفتوحة للواحد و للجمع مؤنثة و مذكرة تقول للمرأة أرايتك زيدا و للنساء أرايتكن بفتح التاء في الموضعين ثم أنهم إختلفوا في هذا الكاف فقال القراء موضعها، نصب و تأويلها رفع مثل قولك دونك زيدا، فموضع الكاف خفض بالإضافة و معناه الرفع لأن المعنى خذ زيدا و مانحن فيه من هذا القبيل لأن موضع الكاف النصب على المفعولية و قال الزجاج هذا خطأ و لم يقله أحد قبله لأن قولك، أرايتك زيدا ما شأنه، يصير أرايت قد تعدت الى الكاف و الى ريد، فنصب أرايت إسمين، فيصير المعنى أرايت نفسك زيدا ما حاله، و هذا محال ثم قال و الصحيح الذي عليه النحويون أن الكاف لا موضع لها و المعنى أرايت زيدا ما حاله و الكاف زيادة في بيان الخطاب و لذلك تكون التاء مفتوحة في خطاب المذكر و المؤنث و الواحد و الجمع فتقول:

للرجل أرايتك زيدا ما حاله بفتح التاء و الكاف و تقول للمرأة بكسر الكاف و للأثنين أرايتكما فتوح التاء فكما و جب أن توحداهما في التثنية و الجمع كذلك و جب أن تذكرها مع المؤنث انتهى.

نقله الشيخ في التبيان و في المقام ذكر و أقوالاً كثيرة أعرضنا عنها لقلة الفائدة فيها و لنرجع الى تفسير الكلام فنقول قوله: **أَرَأَيْتَكُمْ** في تأويل أرايتم أنفسكم و المعنى قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام و يشركون بالله، أرايتكم أن أتاكم عذاب الله، كما أتى على الكافرين أمثال عاد و ثمود من قبلكم، أو أتاكم الساعة، و هى القيامة التي وعدتم فيها بالبعث و الغناء، لأن قبل البعث يموت الخلق كلهم، **أَغْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ** الكشف الضر عنكم، أن كنتم صادقين، الهمزة في، أغير الله، للإستفهام الإنكاري و قوله: **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** معناه أن كنتم صادقين في الدعوة يعني في أن هذه الأوثان ألهة لكم، فبين الله بذلك أنها ليست ألهة و أنهم في هذا القول غير صادقين.



قال صاحب الكشف قوله: **أَغْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ** معناه **أَتَخْصُونُ** ألهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضرر أم تدعون الله دونها انتهى.

**أقول** أنما قال ذلك لأن تقديم المفعول عنده مؤذن بالتخصيص والحصص وليس كذلك فالمعنى ما ذكرناه نعم هذه الآية عند علماء البيان من باب استدراج المخاطب وهو أن يلين الخطاب ويمزجه بنوع من التلطف والتعطف حتى يوقع المخاطب في أمر يعترف به فتقوم الحجّة عليه والله تعالى خاطب هؤلاء الكفار بلين من القول وذكر لهم أمراً لا ينازعون فيه أنهم كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله لا غيره وجواب أن كنتم صادقين محذوف وتقديره أن كنتم صادقين في دعواكم أن غير الله إله فهل تدعونه لكشف ما يحلّ بكم من العذاب ولذلك قال بعد هذا الكلام.

**بَلْ إِثْمُهُمْ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُهُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ** والمعنى بل تدعون الله لا يغره وأنما قال ذلك ولم يقل بل تدعونه ليفيد الكلام الحصر لأن، إثمهم نصب منفصل وتقديمه على الفعل ليفيد الحصر كما في قوله تعالى: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** وقد تقدّم الكلام فيه هناك ولذلك.

قال الزمخشري معناه بل تخصّصونه بالدعاء دون الألهة وقال بعضهم الاختصاص والحصص فهم من سياق الكلام لا من تقديم المفعول على العامل. وأما كلمة، بل، فهي للإضراب والانتقال من شيء إلى شيء من غير إبطال لما تضمّنه الكلام السابق من معنى النفي لأن معنى الجملة السابقة النفي وتقديرها ما تدعون أصنامكم لكشف العذاب وهذا كلام حق لا يمكن فيه الإضراب يعني الإبطال، وما، من قوله: **مَا تَدْعُونَ** أظهر أنها موصولة أي فيكشف الذي تدعون وقيل أنها ظرفية، والمعنى بل تخصّصونه بالدعاء فيكشف ما تدعون إليه، أن شاء، علّق الله تعالى الكشف بمشيئته مشعراً بأنّه

لا يجب عليه شيء، فأن شاء أن يتفضل بالكشف فعل وأن لم يشاء لم يفعل و  
 بعبارة أخرى أن لم تترتب المفسدة على الكشف يكشف وإلا فلا، وأما قوله:  
 وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ قيل معناه وتنسون ما تشركون بالله، وقيل معناه أنكم  
 في ترككم دعاءهم بمنزلة من نسيهم وذلك لأن الإنسان إذا دهمه ما لا طاقة له  
 بدفعه تجرد خاطره من كل شيء إلا من الله كاشف لذلك الداهم فيكاد يصير  
 كالمُلجأ إلى التعلق بالله والذي هو عمّن سواه فلا يذكر غير الله القادر على  
 كشف ما دهم.

وقال الزمخشري معناه تنسون ما تشركون وتكرهون ألهمتكم، وقال ابن  
 عطية أي تتركونهم لعلمكم أنهم في الحقيقة لا يضرون ولا ينفعون.



وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ  
بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾  
فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ  
قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ  
﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم  
أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا  
أَخَذْنَاهُمْ بِغَتَّةٍ فَأَذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ  
دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ  
أَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ  
يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ  
يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِن أَتَيْكُمْ عَذَابٌ  
مِّنَ اللَّهِ بِغَتَّةٍ أَوْ جَهْرَةً هَلَ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ  
الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾

### ◀ اللغة

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

أُمَّم بِضَمِّ الْأَلْفِ جَمْعُ أُمَّةٍ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ.

بِأَسْنَاءٍ، الْبَأْسُ الشَّدَّةُ فِي الْحَرْبِ وَالْبَأْسُ الْعَذَابُ وَهُوَ الْمَرَادُ فِي الْمَقَامِ.  
بَغَتَّةٌ أَيُّ مَفْجَاءَةٍ.

مُبْلِسُونَ، الْمُبْلَسُ النَّادِمُ، وَالسَّائِكُ الْمَنْقُوعُ الْحِجَّةِ، وَالْأَيْسُ مِنَ النَّجَاةِ.  
دَابِرُ، الدَّابِرُ الْآخِرُ مِنْ دَبَرٍ إِذَا أَدْبَرَ.

## ◀ الإعراب

فَلَوْلَا إِذْ إِذْ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ ظَرْفٌ لِّتَضَرَّعُوا، وَلَكِنْ إِسْتِدْرَاكٌ عَلَى الْمَعْنَى أَيْ مَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ، بَعْتَهُ مَصْدَرِيَّةٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الْفَاعِلِ أَيْ مَبَاغِتَيْنِ أَوْ مِنَ الْمَفْعُولَيْنِ أَيْ مَبْعُوثَيْنِ فَإِذَا هُمْ إِذَا هُنَا لِلْمُفَاجَأَةِ وَهِيَ ظَرْفٌ مَكَانٌ وَ، هَمْ، مَبْتَدَأٌ وَمُبْتَلِسُونَ خَبْرُهُ وَهُوَ الْعَامِلُ فِي، إِذَا، مَنِ اسْتِفْهَامٌ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ إِلَهُ خَبْرُهُ غَيْرَ اللَّهِ صِفَةُ الْخَبَرِ يَأْتِيكُمْ فِي مَوْضِعِ الصِّفَةِ وَالِاسْتِفْهَامِ هُنَا بِمَعْنَى الْإِنْكَارِ وَالْهَاءُ فِي يِهِ تَعُودُ عَلَى السَّمْعِ لِأَنَّهُ الْمَذْكُورُ أَوَّلًا كَيْفَ حَالٌ وَالْعَامِلُ فِيهَا نَصْرَفٌ.

هَلْ يَهْلِكُ الْإِسْتِفْهَامُ هُنَا لِلتَّقْرِيرِ وَلِذَلِكَ نَابَ عَنْ جَوَابِ الشَّرْطِ أَيْ إِنْ أَتَاكُمْ هَلِكْتُمْ.

## ◀ التفسير

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ أَعْلَمَ اللَّهُ نَبِيَّهَ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ الرُّسُلَ قَبْلَهُ إِلَى أَقْوَامٍ فَكَذَّبُوهُمْ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ بَلْ بَلَّغُوا مِنَ الْقِسْوَةِ إِلَى أَنْ أَخَذُوا بِالْبُلَايَا وَالْمَصَائِبِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ لِيَخْضَعُوا وَيَتَذَلَّلُوا لِأَنَّ الْقُلُوبَ تَخْشَعُ وَالنَّفُوسَ تَضَرَّعُ عِنْدَ الْبُأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ عَادَةً وَلَكِنَّهُمْ لَمْ تَخْشَعْ قُلُوبُهُمْ لَشِدَّةِ قِسْوَاتِهَا وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ بِقَوْلِهِ: فَأَخَذْنَا هُمْ بِالْبُأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ وَمَعْنَاهُ لَكِي يَتَضَرَّعُوا، وَقِيلَ مَعْنَاهَا التَّرْجِي لِّلْعِبَادِ كَمَا قَالَ: لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى<sup>(١)</sup>.

قَالَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ إَعْلَمَ أَنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَّ فِي الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّ الْكُفَّارَ عِنْدَ نَزُولِ الشَّدَائِدِ يَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ كُلِّ مَا كَانَ مِنْ جِنْسِ الشَّدَائِدِ بَلْ قَدْ يَبْقُونَ مُضْرِبِينَ عَلَى

الكفر غير راجعين الى الله و ذلك يدل على مذهبنا من أن الله تعالى اذا لم يهده لم يهتد سواء شاهد الآيات الهائلة أو لم يشاهدها انتهت كلامه.

ولقائل أن يقول أن الأمر بالعكس و ذلك لأن المستفاد من الأيتين هو أن الإنسان مختار في فعله و مشاهدة الآيات الهائلة ليست علّة تامّة للإيمان فمنهم من يؤمن عند مشاهدتها ومنهم من لا يؤمن و لا يعني بالإختيار إلا هذا و لو كان الأمر كما ذكره الرّازي من أن الكفر و الإيمان في العبد بيد الله و لا إختيار له فيهما فلقائل أن يقول لم خلق الله الإيمان في قوم و لم يخلقه في قوم آخر أو لم أبق الله قوماً على الكفر دون قوم.

فأن قال أن الله تعالى يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد فهو يسأل و لا يسأل عما يفعل و أمثال ذلك من النصوص الواردة الدّالة على أن الله يفعل ما يشاء. يقال له نحن أيضاً نقول بأن الله يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد إلا أن الفعل منه تعالى يدور مدار المصلحة و الحكمة و إذا كان الأمر على هذا المنوال فأيّ مصلحة في الظلم في حق قوم و الرّحمة و اللّطف في حق آخرين فثبت و تحقّق أن الله تعالى إبتلاهم بالبأساء و الضراء على أساس الحكمة و هى الإختيار و الإمتحان إلا أنهم لم يتضرعوا لكشف الضر عنهم لقسوة قلوبهم و شدة عنادهم و لجاههم و إبتلى قوماً آخرين كذلك و هم رجعوا الى الله و تابوا إنكشف الله عنهم العذاب و هذه سيرة مستمرة في النّاس في كلّ عصر و زمان لأن الإنسان مختار في فعله أن شاء فعل و أن لم يشاء لم يفعل و أمّا إرسال الرّسل و إنزال الكتب و نزول البليّات و أمثال ذلك فليست إلا الإختيار و إتمام الحجّة على العبد لئلا يكون للنّاس على الله حجّة بل له الحجّة البالغة على خلقه ليهلك من هلك عن بينة و يحيى من حيى عنها.

ذلك تقدير العزيز العليم فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

لولا، هنا حرف تحضيض يليها الفعل ظاهراً أو مضمرأً ويفصل بينهما بمعمول الفعل من مفعول به وظرف كهذه الآية حيث فصل بين لولا وتضرعوا (بإذ) وهى معمولة لتضرعوا والتحضيض يدل على أنه لم يقع تضرعهم حين جاءهم البأس فمعناه، هلاً اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ففيه معاتبه مذنب غائب و إظهار سوء فعله ليتحسر عليه المخاطب ويتعظ به المعلوم أن إسناده المجيئ الى البأس مجاز عن وصوله اليهم فالمراد أوائل البأس و علاماته ثم بين الله تعالى أن عدم تضرعهم له وجهان:

أحدهما: أن قلوبهم كانت قاسية والى هذا أشار بقوله: وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ.

ثانيهما: أن الشيطان زين لهم أعمالهم كما قال: وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

وإعلم أن القسوة غلظ القلب وأصله من حجر فاس قال المفسرون أنما قست قلوبهم لأنهم أقاموا على كفرهم والقسوة ضد الرحمة وقد ورد في الأخبار أن البقاء على الكفر والذنوب يوجب القسوة في القلب احتجت الأشاعرة على القول بالجبر بهذه الآية أيضاً.

فقال الرّازي تلك القسوة أن حصلت بفعلهم إحتاجوا في إيجادها الى سبب آخر ولزم التسلسل وأن حصلت بفعل الله فالقول قولنا وأيضاً هب أن الكفار أنما أقدموا على هذا الفعل القبيح بسبب تزيين الشيطان إلا أننا نقول ولم بقي الشيطان مضراً على هذا الفعل القبيح فأن كان ذلك لأجل شيطان آخر تسلسل الى غير النهاية وأن بطلت هذه المقادير إنتهت بالأخرة الى أن كل أحد أنما يقدم على الخير أو الشر لأجل الدواعي التي تحصل في قلبه ثم ثبت أن تلك الدواعي لا تحصل إلا بإيجاد الله فحينئذ يصح قولنا ويفسد بالكلية قولهم انتهى كلامه.

أقول تلك القسوة حصلت بفعلهم و هو إقامتهم على الكفر و العصيان يحتاجون الى سببٍ آخر و بعبارةٍ أخرى السبب في القسوة الكفر و العصيان و الإقامة عليهما و يمكن لهم الخروج عن الكفر و التوبة عن الذنب لأن الإقامة عدما تحت قدرة العبد و بإختيار فلا نحتاج الى سببٍ آخر ليتسلسل بل السبب فيها هو نفسه بسوء إختياره.

و أمّا الشيطان فهو أيضاً بقي مصراً على هذا الفعل لأجل شرارته و خباثته و حسده أو ما شئت فسمه لا لأجل شيطانٍ آخر حتى تسلسل و ذلك لأن الشيطان أيضاً في فعله مختار كما أن الإنسان في فعله مختار إلا أنه أي الشيطان إختار الإغواء و الإضلال في أولاد آدم بسوء سريته و خبث طينته ألا ترى أنه: قال الله تعالى: **قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَوِّنَهُمْ أَجْمَعِينَ**<sup>(٢)</sup>.  
فلو كان مجبوراً في فعله مخلوقاً للدعوة الى الشرور لما قال فأنظرني معلوم.

و أيضاً لو كان مجبوراً في فعله كيف صار مستحقاً للذم و الطرد بعد مخالفته لأمر الله و تمرده عن السجود و لم قال تعالى: **فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَنْتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ**<sup>(٣)</sup> فلو كان الشيطان مجبوراً في فعله مخلوقاً كذلك ما صار مورداً للعقاب في الدنيا و العقاب في الآخرة.

و العجب من الرّازي و أمثاله من الأشاعرة في إنتسابهم أفعالهم القبيحة الرديئة الى الله تعالى و لم يقنعوا بذلك حتى نسبوا أفعال الشيطان أيضاً الى الله دفعاً للتسلسل و زعموا أنهم بذلك قد أخلصوا التوحيد و خرجوا من الشرك و لم يعلموا أن الله تعالى منزّه عن فعل القبيح و أي فعلٍ أقبح من خلق القبيح ثم أقبح منه العقاب عليه يوم القيامة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا  
أَوْتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ

بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارَ لَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ مِنْ  
الْإِنْتِفَاعِ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ عَلَى مَا اقْتَضَتْ مَصْلَحَتُهُمْ وَالْمَقْصُودُ أَنَّ تَرْكَهُمْ مَا  
ذُكِّرُوا بِهِ فِي حُكْمِ الْمُنْسِي، فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ أَيْ إِبْتِلَيْنَاهُمْ بِالتَّوَسُّعَةِ  
فِي الرِّزْقِ لِيَرْغَبُوا بِذَلِكَ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَيَنْبَهُوا عَلَيْهِ وَيَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ  
فَلَمَّا لَمْ يَنْفَعْ ذَلِكَ فِيهِمْ وَلَمْ يَرْتَدَّ عُوا وَلَمْ يَتَّعْظُوا وَلَمْ يَنْفَعَهُمُ الزَّجْرُ بِالضَّرَاءِ وَ  
السَّرَاءِ وَلَا التَّرْغِيبُ بِالتَّوَسُّعَةِ وَالرَّخَاءِ أَحْلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ بَغْتَةً أَيْ مَفْجَاءَةً  
مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ أَيْ شَدِيدِ الْحَسْرَةِ.

وَقِيلَ يَعْنِي أَدْلَةً خَاضِعِينَ، وَقِيلَ أَيْسُونَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَقِيلَ الْمُنْقَطِعِ  
الْحِجَّةِ وَالْمَالِ وَاحِدٌ.

أَقُولُ الْمُسْتَفَادُ مِنَ الْآيَةِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يِعَاقِبُ الْعَبْدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
إِلَّا بَعْدَ إِتِمَامِ الْحِجَّةِ عَلَيْهِ كَمَا هُوَ مُقْتَضَى الْعَدْلِ وَاللِّطْفِ.

ثُمَّ أَنَّ الْحِجَّةَ قَدْ تَتَحَقَّقُ بِالتَّخْوِيفِ وَالتَّهْدِيدِ وَالنَّهْيِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَأُخْرَى  
بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّحْرِيصِ وَالْأَمْرِ وَأَمْثَالَهُمَا وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّفْسَ مُتَفَاوِتَةً وَالدَّوَاعِيَ  
وَالْأَغْرَاضَ مُخْتَلِفَةً وَمَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ فَكُلُّ مَا يَرُدُّ عَلَى النَّفْسِ مِنَ الْحَوَادِثِ  
الْخَارِجِيَّةِ لَا يَخْلُو حَالَهُ إِمَّا مَلَائِمٌ لَهَا وَإِمَّا مُنَافٍ لَهَا وَلَا ثَالِثَ فِي الْبَيْنِ فَإِنْ كَانَ  
الْوَارِدُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَلَائِمَاتِ تَجَذَّبَهُ النَّفْسُ وَأَنْ كَانَ مِنَ الْمُنَافِيَّاتِ تَدَفَّعَهُ فَكُلُّ  
نَفْسٍ تَطْلُبُ مَا تَشْتَهِيهِ وَتَعْرِضُ عَمَّا لَا تَشْتَهِيهِ مِنَ الْمُنَافِيَّاتِ وَالْمَضَارِّ هَذَا إِذَا  
كَانَتِ النَّفْسُ سَلِيمَةً مِنَ الْآفَاتِ وَأَمَّا النَّفْسُ الْمَرِيضَةُ الْمُتَصَفَّةُ بِالْكِبَرِ وَالْحَسَدِ  
وَالْعِنَادِ وَالبَخْلِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

فَهِيَ خَارِجَةٌ عَمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْقَاعِدَةِ وَلِذَلِكَ تَرَى كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَوْلَا  
أَكْثَرُهُمْ مُعْرِضِينَ عَنِ الْخَيْرَاتِ مُقْبِلِينَ إِلَى الشَّرِّ وَالْآفَاتِ وَإِنَّمَا مِثْلُهُمْ مِثْلُ



المرضى الذي أمره الطبيب بشرب الدواء وهو يعلم أن شرب الدواء ينفعه و هو مع ذلك لا يشربه عناداً ولجاجاً ثم يموت ففي هذه الصورة وأمثالها لا يلوم المريض إلا نفسه لأنه أقدم على إهلاك نفسه عالماً عامداً وما نحن فيه من هذا القبيل فإن الكافر إذا سلمت نفسه من العناد فهو يقبل الإيمان وأما إذا كان معانداً فلا وحيث أن الرسول بمنزلة الطبيب والناس بمنزلة المرضى فينبغي لهم الطاعة والإنقياد له كما.

قال الله تعالى: **وَمَا آتَيْكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** <sup>(١)</sup>.

ثم أن الرسول في كل عصرٍ وزمانٍ تارةً يهدد الناس ويخوفهم من عذاب الله في الدارين وأخرى يرغبهم ويحرصهم ويذكرهم النعم الإلهية وها هنا يصير الناس على ثلاث أصناف:

صنفٌ منهم يؤثر فيه التخويف والتهديد من عذاب الله فهو يؤمن للخوف من العذاب، وصنفٌ يؤثر فيه الترغيب والتحرّيص على الخيرات والثواب في الآخرة فهو يؤمن لذلك وصنف لا يؤثر فيه لا هذا ولا ذاك وهو المسمى بالمعاند والمنافق فهو لا يؤمن وأن كان الرسول حريصاً على إيمانه.

قال الله تعالى: **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** <sup>(٢)</sup>.

وحيث أن الحجّة قد تمت على هذا الصنف أيضاً فالعذاب حقٌ موافق للعدل إذا عرفت هذه المقدمة فنقول.

قوله تعالى: **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ** إشارة إلى ما ذكروا به من البأساء والضراء وأنواع المصائب والابتلاء التي فيها تهديد وتخويف لو كانوا يعقلون وقوله: **فَتَحْنَأُ عَلَيْهِمُ أَبْوَابُ كُلِّ شَيْءٍ** فيه إشارة إلى الترغيب والمماشة لهم وفي قوله: **حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً** إشارة إلى أن الاختبار وإتمام الحجّة قد يكون بإعطاء النعم في الدنيا ولا شك أن الإنسان يفرح بهما

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

في الدنيا إلا أن هذا الفرح أن كان مقروناً بالشكر لساناً و حالاً فهو يوجب بقاء النعمة وأن كان مقروناً بالكفران والغفلة عن معطيها فهو يوجب زوال النعمة وفي بعض الأحيان فناء النعم على، وإلى هذا المعنى أشار بقوله: أَخَذْنَا هُمْ بِغَتَّةٍ أَيْ مَفْجَأَةٍ وَفِي قَوْلِهِ: فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ إشارة إلى اليأس، والحسرة والندامة بعد وقوع الحادثة المعلوم أنه لا ينفع ففي الآية إشارة بل دلالة على أن الإنسان على كل حال يكون في معرض الإبتلاء والاختبار فينبغي له أن لا يغفل عن ربه ولا سيما أرباب النعم في دار الدنيا فأنهم كثيراً ما يعتبرون بها ويهملون في الشهوات المعلوم أن الإنغمار في الشهوات يوجب الغفلة عن العقليات فيفرحون بها ولم يعلموا أن الله تعالى إنما أعطاهم ذلك ليزدادوا إثماً.

قال الله تعالى: وَلَا يَخْسِرَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُفُلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُفُلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ<sup>(١)</sup>.

فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

ففيه إشارة إلى أن هذا الصنف من الكفار الذين يعاندون الحق لا دواء لمرضهم إلا الموت والفناء بالكلية والحمد لله رب العالمين، على هذه النعمة التي هي فنائهم فأنه نعمة لهم ولغيرهم لأن المعاند لا خير في وجوده لا لنفسه ولا لغيره ومن المعلوم أن الحمد يكون على النعمة ولأجل ذلك قال الله تعالى فيهم: كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ، وَ نَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ، كَذَلِكَ وَ أَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ، فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ وَ مَا كَانُوا مُنْظَرِينَ<sup>(٢)</sup>، ونحن نقول ألا لعنة الله على الظالمين.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ

روي عن، ورش، بِهِ أَنْظُرُ بَضْمَ الهاء والباقون بكسرها، والمعنى أرايتم أيها الكفار إن أخذ الله سمعكم، أي أصمكم (وأبصاركم) أي أعماكم تقول العرب أخذ الله سمع فلان وبصره أي أصمّه وأعماه (وختم على قلوبكم) بأن سلب ما فيها من العقول التي بها يتهيأ لكم أن تؤمنوا بربكم وتوبوا من ذنوبكم ووسمها بسمه من يكون خاتمة أمره المصير إلى عذاب النار فلو فعل بكم هذا، من إله غيره تعالى يأتيكم بهذا الذي سلبكم الله إياه وهل يقدر على ذلك غيره تعالى فبين بذلك أنه كما لا يقدر على ذلك غير الله فكذلك يجب أن لا تعبدوا سواه قاله الشيخ في التبيان.

وقال الرازي المقصود من هذا الكلام ذكر ما يدل على وجود الصانع الحكيم المختار وتقريره أن أشرف أعضاء الإنسان هو السمع والبصر والقلب فالأذن محل القوة السامعة والعين محل الباصرة والقلب محل الحياة والعقل والعلم فلو زالت هذه الصفات عن هذه الأعضاء إختل أمر الإنسان وبطلت مصالحه في الدنيا والدين ومن المعلوم بالضرورة أن القادر على تحصيل هذه القوى فيها وصونها عن الأفات والمخافات ليس إلا الله وإذا كان الأمر كذلك كان المنعم بهذه النعم العالية والخيرات الرفيعة هو الله سبحانه وتعالى فوجب أن يقال المستحق للتعظيم والثناء والعبودية ليس إلا الله وذلك يدل على أن عبادة الأصنام طريقة باطلة فاسدة إنتهى كلامه.

وأنا أقول أما تفسير الألفاظ فلا خفاء فيه وأما الكلام في وجه التخصيص بهذه الأعضاء أعني بها السمع والبصر والقلب والذي يختلج بالبال في المقام هو أن السمع للإستماع والبصر للإستبصار والقلب للتعقل والتفهم، ثم ترتيب الأثار على كل واحد منها إذ لو لا ترتيب الأثار عليها فهي كالعدم والسر فيه هو أن قيمة كل موجود إنما هي بالأثار المترتبة عليه وإلا فالموجود بما هو مع قطع النظر عما يترتب عليه لا نفع فيه وعلى هذا فالسمع للإستماع ثم القبول

إِنْ كَانَ السَّمُوعُ حَقًّا، أَوْ الْإِنْكَارُ إِنْ كَانَ بَاطِلًا وَهَكَذَا الْعَيْنُ لِلرُّؤْيَا ثُمَّ الْإِعْتِبَارُ بِهَا وَالْقَلْبُ لِلتَّفَعُّلِ وَالتَّفْهَمِ وَتَشْخِصِ الْحَقِّ وَإِنْكَارِ الْبَاطِلِ فَهَذِهِ الْأُمُورُ هِيَ الْأَثَارُ الْمَتَرْتِبَةُ عَلَى هَذِهِ الْأَعْضَاءِ وَقَدْ يَعْبَرُ عَنْ هَذِهِ الْأَثَارِ بِالشُّكْرِ الْعَمَلِيِّ الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ صَرْفِ الْعَبْدِ جَمِيعَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ فِيهَا خَلْقَ لِأَجَلِهِ وَحَيْثُ أَنَّ الْكَفَّارَ كَانُوا عَلَى خِلَافِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ.

وَتَوْضِيحُ ذَلِكَ إجمالاً هُوَ أَنَّهُمْ أَنْكَرُوا التَّوْحِيدَ وَالنَّبُوَّةَ وَالْمَعَادَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مَعَ أَنَّهُمْ سَمِعُوا آيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ بِأَسْمَاعِهِمْ وَرَأَوْا آيَاتِ التَّكْوِينِيَّةَ بِأَبْصَارِهِمْ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَذِهِ النِّعَمِ الْجَلِيلَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ مَا قَالَ تَوْبِيخًا وَتَوْعِيدًا وَفِي قَوْلِهِ: **أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ** إِنْشَارَةً إِلَى عِنَادِ الْكَفَّارِ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ وَفِي هَذَا الْكَلَامِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَكْنَهُمْ مِنَ الْفَهْمِ وَلَمْ يَخْلُقْ فِيهِمُ الْإِعْرَاضَ وَالصَّدَّ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْجَبْرِيُّ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَوْ كَانَ هُوَ الْخَالِقُ فِيهِمُ الْكَفْرَ وَالْعِنَادَ لَمْ يَكُنْ لِهَذَا الْكَلَامِ مَعْنَى وَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا أَنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى الْإِيمَانِ، فَلَا وَجْهَ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّهْدِيدِ.

**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ** قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِي قَوْلِهِ: **أَرَأَيْتُمْ سَابِقًا**<sup>(١)</sup> وَنَقَلْنَا أَقْوَالَ الْمَفْسِّرِينَ فِيهِ فَلَا نَعِيدُ الْكَلَامَ بِذِكْرِهَا ثَانِيًا.

وَأَمَّا الْبَغْتَةُ فَهِيَ الْمَفْجَأَةُ وَالْجَهْرَةُ بِخِلَافِهَا وَالْمَعْنَى قُلْ لِهَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ أَنْ أَتَاكَمُ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً وَهُوَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ غَافِلُونَ غَيْرَ مَتَّوِّعِينَ لَهُ، أَوْ جَهْرَةً وَهُوَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ وَهُمْ شَاهِدُونَ لَهُ وَمُعَايِنُونَ نَزْوِلَهُ وَقِيلَ الْبَغْتَةُ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ لَيْلًا وَالْجَهْرَةُ، أَنْ يَأْتِيَهُمْ نَهَارًا ثُمَّ قَالَ هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ، الْإِسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَالْمَعْنَى لَا يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ، الْكَافِرُونَ الَّذِينَ

بِسْمِ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٧

العبد  
السادس

يكفرون بالله ويكنزون الثُّبوة والدين ويفسدون في الأرض ويعاندون الحق ومفهوم الكلام أَنَّ التَّاجين فيه هم المؤمنون بالله ورسوله فتقدير الكلام هل ينجوا منه إلا القوم المؤمنون وإنما قلنا ذلك لأنَّ الله تعالى خصَّ الظَّالِمين بالهلاك لا غيرهم وهو واضح.

أَنْ قُلْتُ ما المراد بهذا الكلام ونحن نرى أَنَّ العذاب إذا نزل لم يحصل التَّمييز بين النَّاس.

قُلْتُ قد أجاب المفسِّرون عن الإشكال بأنَّه متى هلك فيهم أطفال أو قوم مؤمنون فإنَّما يهلكون إمتحاناً ويعوّضهم الله على ذلك إعواضاً كثيرة يصغر ذلك في جنبها فجعل ذلك تحذيراً من المقام على الكفر وترغيباً في الإيمان والنَّجاة من العذاب.

قاله الشَّيخ في التَّبيان، وقال الرَّازي في تفسيره لهذا الكلام في الجواب عن الإشكال ما هذا لفظه،، قلنا أَنَّ الهلاك وإن عمَّ الأبرار والأشرار في الظَّاهر إلاَّ أَنَّ الهلاك في الحقيقة مختص بالظَّالِمين الشريرين لأنَّ الأخيار، يستوجبون بسبب نزول تلك المضار بهم أنواعاً عظيمة من الثَّواب والدَّرجات الرَّفِيعَة عند الله فذاك وأن كان بلاءً في الظَّاهر إلاَّ أنَّه يوجب سعادات عظيمة.

أمَّا الظَّالِّمون فاذا نزل البلاء بهم فقد خسروا الدُّنيا والآخرة معاً فلذلك وصفهم الله بكونهم هالكين وذلك تنبيه على أَنَّ المؤمن التَّقِي النَّقِي هو السَّعيد سواء كان في البلاء أو في الألاء والنَّعماء وَأَنَّ الفاسق الكافر هو الشَّقِي كيف دارت قضيَّته انتهى كلامه.

نحن نقول هذا الَّذي ذكره في الجواب لا يرفع الإشكال وأن كان هو كذلك وبعبارة أخرى ما ذكره من أَنَّ المؤمن وأن وقع في العذاب ظاهراً إلاَّ أنَّه مثابَّ مأجور عند ربِّه وَأَنَّ الله يعوّضه على ذلك أعواضاً كثيرة ممَّا لا كلام لأحد فيه وأنَّما الكلام في إطلاق الهلاك بشمول العذاب على المؤمن كإطلاقه

على الكافر فما ذكروه أجنبّي عنه اذا عرفت هذا فاعلم أنّ الهلاك على أربعة أوجه:

**الأول:** إفتقاد الشّي عنك و هو عند غيرك موجود و منه قوله تعالى: هَلَكَ عِبَتِي سُلْطَانِيَّة<sup>(١)</sup>.

**الثاني:** هلاك الشّي بإستحالة و فساد و منه قوله تعالى: وَ يُهْلِكُ الْخَرْتَ وَ النَّسْلَ<sup>(٢)</sup>.

**الثالث:** الموت و منه قوله تعالى: إِنْ أَمْرُوا هَلَكَ<sup>(٣)</sup> و قوله: وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ<sup>(٤)</sup>.

**الرابع:** بطلان الشّي من العالم و عدمه رأساً و ذلك المسمّى فناء المشار اليه بقوله: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ<sup>(٥)</sup>.

و قد يقال للعذاب و الخوف و الفقر الهلاك و على هذا:

قال الله تعالى: وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ<sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ<sup>(٧)</sup>.

والآيات كثيرة فقوله تعالى هل يهلك إلا الظالمون، معناه هل يعذب إلا القوم الظالمون و من المعلوم أنّ العذاب لا يكون إلا في الآخرة و المؤمن لا يعذب فيها و أمّا الموت عند نزول الحادثة فهو ليس بعذاب.



وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ  
فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ  
يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمْ  
الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ  
عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ  
لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ  
يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَ  
أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ  
رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ  
يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ  
بِالْعُدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ  
حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ  
شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَ  
كَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ  
اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ  
بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

◁ اللغة

يَمَسُّهُمْ، المَسَّ يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس.  
وَلَا تَطْرُدِ، الطَّرْدُ المنع، والباقي واضح.

## ◀ الإعراب

مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ حالان من المرسلين فَمَنْ أَمَنَ شرط ويجوز أن يكون بمعنى، الذي، وهى مبتدأ فى الحالين بما كانوا يَفْسُقُونَ ما مصدرية أى بفسقهم بِالْعُدَاةِ أصله غدوة فقلبت ألفها لتحركها وإنفباع ما قبلها وهى نكرة وَالْعَشِيِّ بفتح العين وكسر الشين فقيـل هو مفرد وقيل هو جمع، عشية يُرِيدُونَ حال من شَيْءٍ قِيلَ، من، زائدة وموضعها رفع بالابتداء وَعَلَيْكَ الخبر فَتَطْرُدَهُمْ جواب لما النَّافِية فلذلك نصب فَتَكُونُ جواب النّهي وهو لا تَطْرُدُ لِيَقُولُوا اللَّامُ متعلقة، بفتننا، أى إختبرناهم ليقولوا وَأَهُؤْلاءِ مبتدأ وَمَنْ آلَهُ عَلَيْهِمُ الخبر والجملة فى موضع نصب بالقول.

## ◀ التفسير

وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ لَمَّا حَكَى اللَّهُ فيما تقدّم عن الكفار أنهم قالوا لولا أنزل عليه أية من ربّه الآية، ذكر فى هذه الآية ما هو فى الحقيقة جواب عنهم بعد الأجوبة التى تقدّم ذكرها.

ومحصّل الكلام فى المقام هو أنّ الأنبياء والرّسل بعثوا مبشرين للنّاس برحمة الله ومنذرين لهم من عذابه وسطوته ولا قدرة لهم على إظهار الآيات وإنزال المعجزات كيف شاء وابل ذاك مفوّض الى قدرة الله ومشيئته ومنوط بحكمته ومصلحته والى هذا المعنى أشار بقوله: وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ ثم قال: فَمَنْ أَمَنَ أى فمن آمن بهم من النّاس، وأصلح أمره من حيث المتابعة علماً وعملاً، فَمَنْ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أى فلا خوف عليهم، من العذاب يوم القيامة ولا هم يحزنون، فيه وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا التى أنزلناها على الأنبياء بان كذبوهم وأنكروهم. يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ يوم القيامة بما كانوا يَفْسُقُونَ أى بفسقهم التعبير



بالنَّس إشارة الى أَنَّهُمْ سيدركون العذاب بحواسِّهم يوم القيامة فمن قال أو يقول أَنَّ العذاب غداً يوم القيامة يكون روحياً لا جسمياً فالآية حجة عليه و سنتكلم في هذا المعنى في موضعه إن شاء الله.

**وإعلم** أَنَّ في هاتين الآيتين نكتته أخرى لا بأس بالإشارة إليها وهي أَنَّ الله تعالى صرَّح في المقام بأنَّ ما نرسل بالمرسلين إلَّا للتبشير والإندار ثم قال فمن أمن كذا ومن كذَّب كذا فلولاً أَنَّ الإيمان وعدم الإيمان بقدرة العبد فما معنى الآية ولا سيما قوله: **يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**.

وأما أَنَّ التبشير والإندار وظيفة النبي في كلِّ عصرٍ وزمان فهو ممَّا لا كلام فيه بل يستفاد من الآية وغيرها أَنَّ الأنبياء لم يرسلوا إلَّا لهما:

قال الله تعالى: **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا حَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** <sup>(٣)</sup> و

الآيات كثيرة

**قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** أمر الله نبيه أن يقول لعباده أَنَّ خزائن الله ليست عندي حتَّى أغنيكم منها ولا أعلم الغيب الذي يختص علمه به تعالى، ولا أتَّى ملك من الملائكة بل أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليّ وأنا أتَّبِع الوحي ففي الآية مسائل:

**الأولى:** أَنَّ خزائن الله عند الله لا عند غيره.

**إعلم** أَنَّ الخزن بسكون الزاء حفظ الشيء ومنه الخزينة سميت بها لأنَّها مكان الحفظ ومحلَّة الوحي نوعاً تطلق على محلِّ حفظ الأموال ولا سيما

النَّفَاسِ مِنْهَا إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَعْبُرُ بِهِ عَنْ كُلِّ حِفْظٍ مَالًا كَانَ أَوْ سِرًّا فَيَقَالُ خَزِينَتُهُ الْأَسْرَارُ كَمَا يُقَالُ خَزِينَةُ الْأَمْوَالِ وَحَيْثُ أَنَّ الْآيَةَ عَلَى عَمومِهَا فَالْمُرَادُ بِخَزَائِنِ اللَّهِ فِيهَا مَعْنَاهَا الْعَامُ الشَّامِلُ لِهَمَا،

وَأَمَّا قُلْنَا ذَلِكَ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَطَقَ بِهِمَا فَقَالَ حِكَايَةً عَنْ يُوسُفَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا** <sup>(١)</sup>.

وَالْمُرَادُ بِهَا خَزَائِنُ الْأَمْوَالِ قِطْعًا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ أَلَعَزِيزٌ لِّتُؤْهَبَ** <sup>(٢)</sup>.

وَمِمَّا وَرَدَ فِي الْجَمِيعِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدُنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** <sup>(٣)</sup>.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْخَزَائِنَ كُلَّهَا لِلَّهِ تَعَالَى كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** <sup>(٤)</sup>.

وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ خَالِقُ الْكُلِّ وَكُلِّ مَخْلُوقٍ فَهُوَ لِمَالِكِهِ ذَاتًا وَأَصَالَةً وَحَيْثُ أَنَّ الْخَزَائِنَ بِأَيِّ مَعْنَى كَانَتْ دَاخِلَةٌ تَحْتَ الْخَلْقَةِ فَهِيَ لَهُ بِالذَّاتِ وَلِغَيْرِهِ بِالْإِعتِبَارِ لِأَنَّ الْعَبْدَ وَمَا فِي يَدِهِ كَانَ لِمَوْلَاهُ وَفِي هَذَا الْكَلَامِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَعَ جَلَالَةِ قَدْرِهِمْ وَعَظَمِ شَأْنِهِمْ كَانُوا مَخْلُوقِينَ لَهُ مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ بَلْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا.

**الثَّانِيَّةُ:** قَوْلُهُ **وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ الْغَيْبِ** بَفَتْحِ الْغَيْنِ وَسُكُونِ الْبَاءِ وَالْبَاءِ مَصْدَرٌ

غَابَتِ الشَّمْسُ وَغَيْرُهَا إِذَا اسْتَتَرَتْ عَنِ الْعَيْنِ يُقَالُ غَابَ عَنِّي كَذَا ثُمَّ اسْتَعْمَلَ فِي كُلِّ غَائِبٍ عَنِ الْحَاسَةِ وَعَمَّا يَغِيبُ عَنْ عِلْمِ الْإِنْسَانِ بِمَعْنَى الْغَائِبِ وَيُقَالُ لِلشَّيْءِ غَيْبٌ وَغَائِبٌ بِإِعتِبَارِهِ بِالنَّاسِ لَا بِاللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ.

قال بعض المفسرين معناه أَنَّ القوم كانوا يقولون للرَّسُولِ إِنْ كُنْتَ رَسُولاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَلَا بَدَّ وَأَنْ تَخْبِرَنَا عَمَّا يَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَضَارِّ حَتَّى نَسْتَعِدَّ لِتَحْصِيلِ تِلْكَ الْمَصَالِحِ وَلِدْفَعِ تِلْكَ الْمَضَارِّ فَقَالَ تَعَالَى: قُلْ أَنِّي لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ حَتَّى أَخْبِرَكُمْ بِمَا تَشَاوُرُونَ وَتَطْلُبُونَ فَنَفَى ﷺ عَنْ نَفْسِهِ عِلْمَ الْغَيْبِ كَمَا نَفَى عَنْ نَفْسِهِ أَنَّ الْخَزَائِنَ عِنْدَهُ، وَفِي هَذَا الْكَلَامِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ خَزَائِنَ اللَّهِ عِنْدَهُ تَعَالَى لَا عِنْدَ غَيْرِهِ كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ بِالْغَيْبِ مَخْتَصٌّ بِهِ فَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا هُوَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ** <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ** <sup>(٤)</sup>.

و أمثال ذلك من الآيات كثيرة.

**أقول** قال الشيخ رحمته في التبيان ما هذا لفظه **وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ** الَّذِي يَخْتَصُّ بِعِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَأَعَرَفَكُمْ مَصَالِحَ دُنْيَاكُمْ وَأَمَّا أَعْلَمُ قَدْرَ مَا يَعْلَمُنِي اللَّهُ مِنْ أَمْرِ الْبَعْثِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ أَنْتَهَى كَلَامَهُ.

و هذا هو الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْمَذْهَبُ فَإِنْ إِعْتَقَدْنَا أَنَّ النَّبِيَّ وَهَكَذَا أَوْصِيَاءَهُ أَمَّا كَانُوا يَعْلَمُونَ مَا عَلَّمَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْغَيْبِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ وَأَصْيَاءَهُ قَدْ أَخْبَرُوا بِأَشْيَاءَ مِنَ الْمَغْيِبَاتِ وَ طَابَقَتْ مَا أَخْبَرُوا بِهِ وَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ أَخْبَارُ الْمَلَاحِمِ وَلِنُشِرَ إِلَى بَعْضِ مَا وَرَدَ فِي الْبَابِ مِنْ طَرِيقِ أَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام.

ما رواه في البحار بأسناده عن سماعة بن سعد الحنظلي أَنَّهُ كَانَ مَعَ الْمُفَضَّلِ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَقَالَ لَهُ الْمُفَضَّلُ جُعِلَتْ فِدَاكَ

يفرض الله طاعة عبدٍ على العباد ثمَّ يَحْبُبُ عنه خبر السَّماء قال ﷺ الله أَكْرَمَ وأَرَأَفَ بعباده من أن يفرض عليهم طاعة عبدٍ يُحِبُّ عنه خبر السَّماء صباحاً أو مساءً انتهى.

وبأسناده عن محمد بن فضل عن الثَّمالي قال سمعتُ أبا جعفر ﷺ يقول لا والله لا يكون عالم جاهلاً أبداً عالمٌ بشيٍ جاهلٌ بشيٍ ثمَّ قال ﷺ الله أَجَلٌ وَأَعَزٌّ وَأَعْظَمُ وَأَكْرَمُ من أن يفرض طاعة عبدٍ يُحِبُّ عنه علم سماءه وأرضه ثمَّ قال ﷺ لا يُحِبُّ ذلك عنه انتهى.

وبأسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر ﷺ قال سأل عليّ ﷺ عن علم النبي ﷺ فقال ﷺ علم النبي علم جميع النَّبِيِّينَ وعِلْمُ ما كان وعلم ما هو كائن إلى قيام السَّاعَةِ ثمَّ قال ﷺ والذي نفسي بيده أنِّي لأَعْلَمُ علم النبي وعلم ما كان وعلم ما هو كائن فيما بيني وبين قيام السَّاعَةِ انتهى.

وبأسناده عن عُبيدة بن بشير قال قال أبو عبد الله ﷺ إبتداءً منه، والله أنِّي لأَعْلَمُ ما في السَّمَوَاتِ وما في الأَرْضِ وما في الجَنَّةِ وما في النَّارِ وما كان وما يكون إلى أن تقوم السَّاعَةُ قال ﷺ أَعْلَمُهُ من كتاب الله أَنْظَرُوا إِلَيْهِ هَكَذَا ثمَّ بَسَطَ كَفِّهِ ثمَّ قال أَنَّ الله يقول: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ انتهى.

وبأسناده عن سيف الثَّمَار قال كُنَّا مع أبي عبد الله وجماعة من الشَّيْعَةِ فِي الْحَجَرِ فَقَالَ ﷺ عَلَيْنَا عَيْنٌ فَأَلْتَقَتْنَا يُمْنَةً وَيُسْرَةً فَلَمْ نَرِ أَحَدًا فَقُلْنَا لَيْسَ عَلَيْنَا عَيْنٌ قَالَ ﷺ وَرَبُّ الْبَيْتِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَوْ كُنْتُ بَيْنَ مُوسَى وَالْخَضِرِ لَأَخْبَرْتُهُمَا أَنِّي أَعْلَمُ مِنْهُمَا وَلَأُبْنَاتُهُمَا بِمَا لَيْسَ فِي أَيْدِيهِمَا لِأَنَّ مُوسَى وَالْخَضِرَ أُعْطِيَا عِلْمَ مَا كَانَ وَلَمْ يُعْطِيََا عِلْمَ مَا هُوَ كَائِنٌ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُعْطِيَ عِلْمَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَوَرَّثَاهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرِاثَةً انتهى.

وبأسناده عن معاوية بن وهب قال إِسْتَأْذَنْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَأَذِنَ لِي فَمَسَعْتُهُ يَقُولُ فِي كَلَامٍ لَهُ، يَا مَنْ خَصَّنَا بِالْوَصِيَّةِ وَأَعْطَانَا عِلْمَ مَا مَضَىٰ وَ عِلْمَ مَا بَقِيَ وَجَعَلَ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْنَا وَ جَعَلَنَا وَرَثَةَ الْأَنْبِيَاءِ انْتَهَى <sup>(١)</sup>.

والأخبار في الباب كثيرة جداً وإذا كان الوصي عالماً بعلم ما كان وما يكون فالتبني أولى به لأن الوصي ورثه منه عليه السلام ولا نعني بالغيب إلا هذا بل يظهر من بعض الأخبار أن معرفتهم عليهم السلام تتوقف على الاعتقاد بأنهم يعلمون الغيب.

فقد روي في البحار عن كتاب مصباح الأنوار بأسناده إلى المفضل قال دخلت على الصادق عليه السلام ذات يوم فقال لي يا مفضل هل عرفت محمداً و علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم كنه معرفتهم قلت يا سيدي وما كنه معرفتهم قال عليه السلام يا مفضل من عرفهم كنه معرفتهم كان مؤمناً في السنام الأعلى قال قلت عرفني ذلك يا سيدي قال عليه السلام يا مفضل تعلم أنهم علموا ما خلق الله عز وجل و ذراه و برآه و أنهم كلمة التقوى و خزان السموات والأرضين والجبال والرمال والبحار وأنهارها و عيونها و ما تسقط من ورقة إلا علموها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا ريب ولا يابس إلا في كتاب مبين و هو في علمهم و قد علموا ذلك فقلت يا سيدي قد علمت ذلك و أقررت به وأمنت قال عليه السلام: نعم يا مفضل نعم يا مكرم نعم يا محبوب نعم يا طيب طبت وطابت لك الجنة ولكل مؤمن بها انتهى <sup>(٢)</sup>.

أن قلت إذا كان الأمر على هذا المنوال وأنهم عليهم السلام يعلمون الغيب فما معنى قوله تعالى في الآية وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وما المراد بالغيب الذي أمر الله نبيه بنفيه عن نفسه.

١- بحار الأنوار ج ٧ ص ٣٠١ و ص ٣٠٢ ط كمباني

٢- ج ٧ ص ٣٠٣ ط كمباني

قلت فيه إحتمالان:

أحدهما: أن يكون المعنى لا أعلم الغيب من عند نفسي ومن غير إعلام الله.

ثانيهما: أن يكون المراد بالغيب ما خصّه الله بنفسه كالعلم بقيام الساعة و نزول الغيث و ما في الأرحام وغير ذلك ويدل عليه ما روي عن الصادق في تفسير قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** <sup>(١)</sup> قال **عليه السلام** هذه الخمسة أشياء لم يطلع عليها ملك مقرب ولا نبي مرسل وهي من صفات الله عز وجل.

وروي أبو أسامة عن أبي عبد الله **عليه السلام** قال قال لي أبي ألا أخبرك بخمسة لم يطلع الله عليها أحداً من خلقه قلت بلى قال **عليه السلام** أن الله عنده علم الساعة و ينزل الغيث و يعلم ما في الأرحام الآية.

و عن الأصبغ بن نباته قال سمعت أمير المؤمنين **عليه السلام** يقول أن لله علمين علمٌ إستأثر به في غيبه فلم يطلع عليه نبياً من أنبياءه ولا ملكاً من ملائكته و ذلك قول الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ** <sup>(٢)</sup> وله علمٌ قد إطلع عليه ملائكته فقد إطلع عليه محمداً وآله و ما إطلع عليه محمد وآله فقد إطلعني عليه يعلمه الكبير منا والصغير إلى أن تقوم الساعة انتهى <sup>(٣)</sup>.

قال المفيد **رحمته** في كتاب المسائل أقول أن الأئمة عليهم السلام من آل محمد قد كانوا يعرفون ضمائر بعض العباد و يعرفون ما يكون قبل كونه و ليس ذلك بواجب في صفاتهم ولا شرطاً في إمامتهم و أنما أكرمهم الله تعالى به و أعلمهم إياه للطف في طاعتهم و التبجيل بإمامتهم و ليس ذلك بواجب عقلاً و لكنّه وجب لهم من جهة السماع فأما إطلاق القول عليهم بأنهم يعلمون الغيب

فهو منكرٌ بينَ الفساد لأنَّ الوصف بذلك أن ما يستحقه من علم الأشياء بنفسه لا يعلم استفاد وهذا لا يكون إلاَّ لله انتهى موضع الحاجة من كلامه هذا تمام الكلام في قوله: **وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ**.

وأما قوله تعالى: **وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ** لأنِّي بشر تعرفون حسبي و نسبي، إستدل الجبائي والبلخي وغيرهما بهذه الآية على أن الملائكة أفضل من الأنبياء لأنه ﷺ قال، ولا أقول لكم أنني ملك، فلو لا أن الملائكة أفضل و أعلى منزلة ما جاز ذلك وبه قال المفسرون من العامة قاطبة.

والحق أن الآية لا دلالة لها على ما قالوه وذلك لأنه ﷺ نفى عن نفسه كونه من جنس الملك وأما أن الملك أفضل منه أو لا فلا استفاد منها وأما قال ﷺ ذلك لأنهم كانوا يقولون كيف يكون رسولاً وهو يأكل ويمشي كغيره من الناس كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: **وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا** (١) فلما قالوا ذلك أمر الله نبيه أن يقول لهم أنني لست من الملائكة حتى لا أكل الطعام ولا أمشي في الأسواق بل أنا بشر مثلكم كما قال:

قال الله تعالى: **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ** (٢).

قال الله تعالى: **قَالَتْ لَهُمْ وَسَلُّهُمْ إِنَّ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** (٣).

وسياتي الكلام في هذا الموضوع هناك إن شاء الله.

ومحصل الكلام هو أن ما ذكره من أن الآية تدل على أفضلية الملائكة على الأنبياء لا وجه له وأما قوله: **إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** فكلمة، إن، نافية والمعنى ما أتبع إلا الوحي ولا أقول لكم من عند نفسي شيئاً من الأحكام والى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله.

قال الله تعالى: وَمَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ<sup>(١)</sup>.  
 قال الله تعالى: وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ<sup>(٢)</sup>.  
 قال الله تعالى: إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ<sup>(٣)</sup>.  
 قال الله تعالى: وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْضَعَ اللَّهُ لَهُ وَهُوَ  
 خَيْرُ الْخَاضِعِينَ<sup>(٤)</sup>.

**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ الْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ** فيه أقوال:

**أحدها:** ما قاله الحسن والجبائي وهو أن معناه هل يستوي العارف بالله تعالى به مع الجاهل به وبدينه فجعل الأعمى مثلاً للجاهل، والبصير مثلاً للعارف بالله ونبه.

**ثانيها:** ما ذهب إليه البلخي قال معناه هل يستوي من صدق على نفسه و اعترف بحاله التي هو عليها من الحاجة والعبودية لخالقه ومن ذهب عن البيان وعمى عن الحق أفلا تتفكرون، فتصرفوا من أنفسكم وتعملوا بالواجب عليكم من الإقرار بواحدانيته تعالى ونفي الشركاء والتشبيه منه وهذا وأن كان لفظه الإستفهام فالمراد به الإخبار أي أنهما لا يستويان.

**ثالثها:** قال المجاهد الأعمى الضال والبصير المهتدي ثم قال أفلا تتفكرون تنبيهاً لهم على التفكير في ما يدعوهم إلى معرفته ويدلهم عليه من آياته و أمثاله التي بينها في كتابه للفرق بين الحق والباطل والكافر والمؤمن.

**رابعها:** ما ذهب إليه الرازي في تفسيره لهذه الآية قال أن نفاة القياس قالوا ثبت بهذا النص أنه ﷺ ما كان يعمل إلا بالوحي النازل عليه فوجب أن لا يجوز لأحد من أمته أن يعملوا إلا بالوحي النازل عليه لقوله: **فَاتَّبِعُوهُ** وذلك ينفي جواز العمل بالقياس ثم أكد هذا الكلام بقوله: **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى**



وَالْبَصِيرُ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَمَلَ بِغَيْرِ الْوَحْيِ يَجْرِي مَجْرَى عَمَلِ الْأَعْمَى وَالْعَمَلَ يَقْتَضِي نَزُولَ الْوَحْيِ يَجْرِي مَجْرَى عَمَلِ الْبَصِيرِ ثُمَّ قَالَ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ وَالْمُرَادُ مِنْهُ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَعْرِفَ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْبَابَيْنِ وَأَنْ لَا يَكُونَ غَافِلًا عَنْ مَعْرِفَتِهِ انْتَهَى.

وَأَنَا أَقُولُ مَا ذَكَرُوهُ لَا بِأَسْ بِهِ إِلَّا أَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ الْأَكْلِ مِنَ الْقَفَا، مُضَافًا إِلَى أَنَّ بَعْضَهَا بَعِيدٌ عَنْ سِيَاقِ الْآيَةِ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ وَالَّذِي يَخْتَلِجُ بِالْبَالِ هُوَ أَنَّ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرَ فِي الْآيَةِ نَاطِرَانِ إِلَى صَدْرِهَا فَالْمُرَادُ بِالْأَعْمَى مِنْ ظَنٍّ أَنَّ خَزَائِنَ اللَّهِ عِنْدَ الرَّسُولِ وَأَنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ وَأَنَّ النَّبِيَّ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسِ الْمَلِكِ لَا مِنْ جِنْسِ الْبَشَرِ، وَالْمُرَادُ بِالْبَصِيرِ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ خَزَائِنَ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا هُوَ وَالنَّبِيُّ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسِ الْبَشَرِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ إِمَارَةً إِلَى هَذِهِ النِّكْتَةِ وَأَمَّا قُلْنَا ذَلِكَ لِأَنَّ الْعَاقِلَ الْبَصِيرَ لَا يَقُولُ أَنَّ خَزَائِنَ اللَّهِ عِنْدَ خَلْقِهِ وَهَكَذَا.

وَأَمَّا الْجَاهِلُ فَهُوَ يَقُولُ وَلَا يَعْلَمُ مَا يَقُولُ فَالْعَاقِلُ بِمَنْزِلَةِ الْبَصِيرِ وَالْجَاهِلُ بِمَنْزِلَةِ الْأَعْمَى.

وَلِذَلِكَ قَالَ: أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ أَيَّ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ فِيمَا تَقُولُونَ وَتَطْلُبُونَ مِنَ الرَّسُولِ فَالْهَمْزَةُ لِلِإِكْرَارِ وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْعَاقِلَ إِذَا تَفَكَّرَ وَتَدَبَّرَ يَعْلَمُ أَنَّ خَزَائِنَ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا هُوَ وَالرَّسُولُ لَا يَكُونَ مِنْ جِنْسِ الْمَلِكِ لِعَدَمِ السَّنَخِيَةِ، وَلَا يَقُولُ إِلَّا بَعْدَ الْوَحْيِ وَأَمَّا الْأَفْضَلِيَّةُ فَقَدْ قُلْنَا أَنَّ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ عَلَيْهَا أَصْلًا.

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيُّ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَتَّقُونَ

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهٖ أَنْ يَنْذِرَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ مَنْ هُوَ مَقَرٌّ بِالْبَعْثِ وَالنَّشُورِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَذَلِكَ لِأَنَّ بَعْضَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ ذَلِكَ وَ

أَتَمَّا خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى هَؤُلَاءِ الْمُقَرِّينَ بِالْإِنذَارِ لِأَنَّ الْحِجَّةَ لَهُمْ أَلَزَمَ وَأَنَّ كَانَتْ لَازِمَةً لِلْجَمِيعِ هَكَذَا قِيلَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْآيَةَ مُخْتَصَّةٌ بِتَخْوِيفِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ الْبَعْثَ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنََّّهُمْ يَحْشَرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ وَالْعِلْمُ خِلَافُ الْخَوْفِ وَالظَّنِّ، وَالْحَقُّ حَمْلُ الْكَلَامِ عَلَى الْعُمومِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ نَبِيِّهِ أَنْ يَنْذِرَ بِالْقُرْآنِ كُلَّ مَنْ يَخَافُ الْحَشَرَ وَهُوَ يَعْصِي الْكَافِرَ وَالْمُؤْمِنَ فَأَنَّ النَّبِيَّ مَبْعُوثٌ إِلَى الْكُلِّ وَلاَزِمَ ذَلِكَ أَنْ يَنْذِرَ الْكُلَّ.

لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيُّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

فَمَعْنَاهُ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ يَدْفَعُ عَنْهُمْ مَا يَرِيدُ اللَّهُ إِنْزَالَهُ بِهِمْ مِنْ عَذَابِهِ، وَلَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ عَنْهُمْ فَيَدْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ عَلَى مَا قَالَتِ النَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْوَلَايَةَ وَالشَّفَاعَةَ لِلَّهِ تَعَالَى فَقَطْ لَا لِغَيْرِهِ وَهُوَ كَذَلِكَ لِأَنَّ شَفَاعَةَ الشَّافِعِينَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِأَذْنِهِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالشَّفِيعُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ وَفِي قَوْلِهِ: لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرِيدُ التَّقْوَى مِنْ عِبَادِهِ وَالْمَعْنَى لِكَيْ يَتَّقُوا مَعَاصِيَ اللَّهِ فَكَلِمَةُ، لَعَلَّ، لَمْ يَرِدْ بِهَا مَعْنَى التَّرَجُّيِّ فِي حَقِّهِ تَعَالَى فِي الْمَقَامِ بَلْ وَفَى جَمِيعِ الْمَوَارِدِ كَمَا مَرَّرْنَا.

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ

قَالُوا سَبَبَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ قَوْمًا مِنْ قَرِيشٍ وَقِيلَ مِنَ الْكَفَّارِ دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعِنْدَهُ بِلَالٌ وَسَلْمَانٌ وَصَهيبٌ وَعَمَارٌ وَغَيْرُهُمْ فَقَالَ عَيْنِيَّةُ بْنُ حَصِينٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ نَحَيْتَ هَؤُلَاءِ عَنْكَ لَأَتَاكَ أَشْرَافُ قَوْمِكَ وَأَسْلَمُوا وَكَانَ ذَلِكَ خَدِيعَةً مِنْهُمْ لَهُ وَكَانَ اللَّهُ عَالِمًا بِبَوَاطِنِهِمْ فَأَمَرَ نَبِيِّهِ وَقَالَ وَلَا تَطْرُدْ

الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، قِيلَ يَعْنِي بِذَلِكَ الصَّلَاةُ الْمَفْرُوضَةُ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ وَقِيلَ هُمْ أَهْلُ الذِّكْرِ وَقَالَ قَوْمٌ الدَّعَاءُ هَاهُنَا هُوَ التَّحْمِيدُ وَالتَّسْبِيحُ وَالْأَحْسَنُ حَمْلُ الدَّعَاءِ عَلَى مَعْنَاهُ الْعَامَّ الشَّامِلَ لِلصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا وَقَوْلُهُ: يُرِيدُونَ وَجْهَهُ أَيُ أَتَاهُمْ يَرِيدُونَ بِعِبَادَتِهِمْ اللَّهُ خَالِصاً وَكَلِمَةً، مَا، فِي الْمُرِيدِينَ لِلنَّفْيِ أَيُ لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ حَسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَيْسَ مِنْ حَسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ حَسَابَهُمْ عَلَى اللَّهِ فَلَا وَجْهَ لَطَرْدِهِمْ وَمَنْعِهِمْ. وَقَوْلُهُ: فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ الْغَاءُ لِلتَّفْرِيعِ وَالْمَعْنَى أَنَّ فَعَلْتَ ذَلِكَ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَهُوَ إِخْبَارٌ مِنْهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ طَرَدَ كُلَّ هَؤُلَاءِ أَوْ بَعْضَهُمْ تَقَرُّباً إِلَى الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ كَانَ بِذَلِكَ ظَالِماً وَأَمَّا أَنَّهُ ﷺ فَعَلَّ ذَلِكَ فَلَمْ يَثْبِتْ بِلِ الْحَقِّ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَقْدَمْ عَلَيْهِ وَأَتَمَّ نَهْيَ عَنْهُ لِأَنَّهُ كَانَ قَادِراً عَلَى الْفِعْلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخَاطَباً لِنَبِيِّهِ لَعَنَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَأَنَّ كَانَ الشَّرْكَ مَأْمُوناً مِنْهُ

قال الرازي في تفسيره لهذه الآية روي عن عبد الله بن مسعود أَنَّهُ قَالَ مَرَّ الْمَلَأُ مِنْ قَرِيشٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ صَهِيبٌ وَخَبَابٌ وَبِلَالٌ وَعَمَّارٌ مِنْ ضَعْفَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالُوا يَا مُحَمَّدُ أَرْضَيْتَ بِهِؤُلَاءِ عَنْ قَوْمِكَ أَفَنَحْنُ نَكُونُ تَبَعاً لَهُؤُلَاءِ أَطَرَدُهُمْ عَنْ نَفْسِكَ فَلَعَلَّكَ إِنْ طَرَدْتَهُمْ إِيْتَبَعْنَاكَ فَقَالَ ﷺ مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالُوا فَأَقْمَهُمْ عِنَّا إِذَا جِئْنَا فَاذًا قَمْنَا فَأَقْعُدَهُمْ مَعَكَ إِنْ شِئْتَ فَقَالَ ﷺ نَعَمْ طَمَعاً فِي إِيْمَانِهِمْ.

وروي أَنَّ عُمَرَ قَالَ لَهُ لَوْ فَعَلْتَ حَتَّى تَنْظُرَ إِلَى مَاذَا يَصِيرُونَ ثُمَّ أَلْحُوْا وَقَالُوا لِلرَّسُولِ ﷺ أَكُتِبَ لَنَا بِذَلِكَ كِتَاباً فَدَعَى ﷺ الصَّحِيفَةَ وَبَعَثَ إِلَيْهَا لِيَكْتُبَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَرَمَى الصَّحِيفَةَ وَاعْتَذَرَ عُمَرُ عَنْ مَقَالَتِهِ انْتَهَى.

ثُمَّ قَالَ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ: إِحْتِجَّ الطَّاعِنُونَ فِي عَصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ بِهَذِهِ الْآيَةِ مِنْ وَجْهِهِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ ﷺ طَرَدَهُمْ وَاللَّهُ تَعَالَى نَهَاهُ عَنْ ذَلِكَ الطَّرْدِ فَكَانَ ذَلِكَ الطَّرْدُ ذَنْباً.

**الثاني:** أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: فَطَرَدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ وقد ثبت أَنَّهُ طردهم فيلزم أَن يُقال أَنَّهُ كان من الظَّالِمِينَ.

**الثالث:** أَنَّهُ تَعَالَى حكى عن نوح عَلَيْهِ السَّلَام أَنَّهُ قال: وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا<sup>(١)</sup> ثمَّ أمر الله تعالى محمداً ﷺ بمتابعة الأنبياء عليهم السَّلام في جميع الأعمال الحسنة حيث قال أولئك الَّذِينَ هَدَاهُم الله فبهذا الطريق وجب على محمداً ﷺ أَن لا يطردهم فلما طردهم كان ذلك ذنباً.

**الرابع:** أَنَّهُ تَعَالَى ذكر هذه الآية في سورة الكهف فزاد منها فقال: تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا<sup>(٢)</sup> ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى نهاه عن الإلتفات الى زينة الحياة الدُّنيا في آية أخرى فقال: وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْتُم بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا<sup>(٣)</sup> فَلَمَّا نهى عن الإلتفات الى زينة الدُّنيا ثمَّ ذكر في تلك الآية أَنَّهُ يريد زينة الحياة الدُّنيا كان ذلك ذنباً منه.

**الخامس:** نقل أَن أولئك الفقراء كلَّما دخلوا على رسول الله ﷺ بعد هذه الواقعة كان عَلَيْهِ السَّلَام يقول مرحباً بمن عاتبني ربِّي فيهم أو لفظاً هذا معناه و ذلك أيضاً يدل على الذنب ثمَّ أجاب الرازي عن الأول بأنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَام ما طردهم لأجل الإستخفاف بهم الإستنكاف من فقرهم وأنما عَيَّن لجلوسهم وقتاً معيناً فكان غرضه ﷺ منه التَّلطف في إدخالهم في الإسلام ولعلَّهُ عَلَيْهِ السَّلَام كان يقول هؤلاء الفقراء من المسلمين لا يفوتهم بسبب هذه المعاملة أمرٌ مهمٌ في الدُّنيا الدِّين و هؤلاء الكفار فأنَّهُ يفوتهم الدِّين و الإسلام فكان ترجيح هذا الجانب أولى فأقصى ما يقال أَن هذا الإجتهد وقع خطأ إلا أَن الخطأ في الإجتهد مغفور.

وأما قولهم ثانياً أَن طردهم يوجب كونه عَلَيْهِ السَّلَام من الظَّالِمِينَ، فجوابه أَن الظلم عبارة عن وضع الشَّيْء في غير موضعه والمعنى أَن أولئك الضعفاء الفقراء كانوا يَسْتَحِقُّونَ التَّعْظِيمَ من الرِّسُولِ ﷺ فإذا طردهم عن ذلك المجلس كان ذلك

ظلماً إلا أنه من باب ترك الأولى و الأفضل لا من باب ترك الواجبات وكذا  
الجواب عن سائر الوجوه فإننا نحمل كل هذه الوجوه على ترك الأفضل و  
الأكمل و الأحرى انتهى كلام الرّازي و أنت ترى أن أصل الاحتجاج لا محل له  
إذ لم يثبت الطرد كما مرّ الكلام فيه و أنما نهى الله تعالى عن وقوعه و إذا كان  
كذلك فلا نحتاج الى الجواب و السّر فيه هو أن الذنب لا يكون إلا بعد وجود  
الفعل المنهي عنه في الخارج و أمّا قبله فلا و الآية لا تدل على وقوعه  
منه ﷺ بل تدل على أنه لو وقع لكان ظالماً و لكنّه لم يقع فلا يكون ظالماً.  
و أمّا قول الرّازي، فأقصى ما يقال أن هذا الاجتهاد وقع خطأ الخ.

فطريف جداً و ذلك لأنّ النبي ﷺ معصومٌ بالإجماع بعد البعثة و معنى  
العصمة هو أن الله قد عصمه عن الخطأ فكيف يقع في الخطأ ألم يعلم أن  
جواز الخطأ في حقّ النبي ينافي العصمة و بذلك يظهر لك أن حكم النبي لا  
يكون من طريق الاجتهاد فتأمل في المقام فأنّه من مزال الأقدام و أعلم أن ابن  
عامر قرأ (بالغدوة) هنا و في الكهف بضمّ الغين و إسكان الدال و إثبات واو  
بعدها، و الباقر بفتح الغين و الدال و إثبات ألف بعد الدال و هو الحقّ الحقيقي  
بالإتباع لأنّ الغداة تستعمل نكرة و تتعرف باللام فأما، غدوة، فمعرفة دائماً علم  
صينغ له و وجه قراءة ابن عامر ما نقله سيبويه عن الخليل أنه قال يجوز أن تقول  
أتيتك اليوم غدوة و بكرة فجعلها بمنزلة، ضحوة.

وَ كَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا  
أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ

الفتنة الإختبار، أخبر الله تعالى أنه يمتحن و يختبر الفقراء بالأغنياء و  
الأغنياء بالفقراء فالمعنى عاملناهم معاملة المختبرين، فيختبر صبر الفقراء  
على ما يرون من حال الأغنياء و إعراضهم عنهم الى طاعة الرّسل و يختبر  
شكر الأغنياء و إقراءهم لمن يسبقهم من الفقراء و الموالي و العبيد الى الإيمان

بالرئاسة في الدين والتقدم فيه قاله الشيخ في التبيان وقال بعض المفسرين أنَّ الكفار الأغنياء كانوا يحسدون فقراء الصحابة على كونهم سابقين في الإسلام مسارعين إلى قبوله فقالوا لو دخلنا في الإسلام لوجب علينا أن نقاد لهؤلاء الفقراء وتبعهم فكان ذلك يشق عليهم.

وأما فقراء الصحابة فكانوا يرون أولئك الكفار في الراحات والمسرات والطيبات والخصب والسعة فكانوا يقولون كيف حصلت هذه الأموال لهؤلاء الكفار مع إنا بقينا في هذه الشدة والضيق فقال تعالى وكذلك فتنا بعضهم ببعض.

فأحد الفريقين يرى الفريق الآخر متقدماً عليه في المناصب الدينية أو الدنيوية فلا جرم كانوا يقولون، أهذا هو الذي فضله الله علينا انتهى موضع الحاجة من كلامه.

ونحن نقول أما قوله تعالى: **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ** فلا خلاف فيه من حيث المعنى وذلك لأنَّ صفات الكمال مختلفة متفاوتة لا تجتمع في إنسان واحد بل هي موزعة على الخلق بحسب المصالح التي لا يعلمها إلا الله تعالى وحيث أنها محبوبة لذاتها مطلوبة لكل إنسان فلا محالة يحسد كل واحد صاحبه على ما أتاه الله منها وهكذا النعم الدنيوية من المال والمقام والصحة وأمثالها وهذا مما لا كلام فيه ومعنى الاختبار في هذه الأمور هو أنَّ المؤمن العارف بأسرار الله في القضاء والقدر لا يعترض والجاهل يعترض وأما قوله: **لَيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا** فهذا هو محل الكلام بين المفسرين فقال بعضهم، اللام في قوله: **لَيَقُولُوا** لام، لي، والقائلون، هم الأغنياء والأشراف والمراد بهؤلاء الضعفاء والفقراء والمراد بقوله تعالى: **مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** أي من الله عليهم بالإيمان والرئاسة والتقدم في الدين.

والمعنى إنا نختبرهم ليقول الغني هكذا قال النحس وهذا من المشكل لأنه يقال كيف فتنا ليقولوا هذه الآية لأنه أن كان إنكاراً فهو كفر منهم وأجابوا عنه.

**أما أولاً:** فبأن المعنى أختبر الأغنياء بالفقراء أن تكون مرتبتهم واحدة عند النبي ﷺ ليقولوا **أَهْوَ لَاءِ مَنْ أَلَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِفْهَامِ لَا عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ فَلَا كُفْرَ فِيهِ.**

**ثانياً:** أنهم لما إختبروا بهذا فآل عاقبته الى أن قالوا هذا على سبيل الإنكار و صار مثل قوله تعالى: **فَالنَّقْطَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا** <sup>(١)</sup> إذ من المعلوم أن آل فرعون لم يلتقطوه لذلك بل إلتقطوه ليكون لهم إبناً إلا أن عاقبة الأمر صار لهم عدوًّا وحزناً فاللآم في قوله: **لِيَكُونَ لَامِ الْعَاقِبَةِ لَا لَامِ التَّعْلِيلِ** وما نحن فيه من هذا القبيل أي لم نختبرهم ليقولوا هكذا بل عاقبة أمرهم صارت الى هذا القول و أتما قلنا ذلك لأنه تعالى لو قصد بالإختبار ذلك لكان قد قصد بفعله أن يقولوا هذا القول فيكفروا به ويعصوا ويتعالى الله عن ذلك فكيف يقصده و قد عابه من قولهم وهو يعاقبهم عليه و عابهم به فاللآم لَامِ الْعَاقِبَةِ وهو المطلوب.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية.

**المسألة الثانية:** إحتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة خلق الأفعال من

وجهين:

**الأول:** أن قوله: **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ** تصريح بأن إلقاء تلك الفتنة من الله تعالى والمراد من تلك الفتنة ليس إلا إعتراضهم على الله في أن جعل أولئك الفقراء رؤوساء في الدين والإعتراض على الله كفر وذلك يدل على أنه تعالى هو الخالق للكفر.

**الثاني:** أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: **مَنْ أَلَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا** والمراد من قوله: **مَنْ أَلَّهُ عَلَيْهِمْ** هو أنه من عليهم بالإيمان بالله ومتابعة الرسول و ذلك يدل على أن هذه المعاني أتما تحصل من الله تعالى لأنه لو كان الموجد للإيمان هو العبد فالله ما من عليه بهذا الإيمان بل العبد هو الذي من على

في آيات القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

نفسه بهذا الإيمان فصارت هذه الآية دليلاً على قولنا من هذين الوجهين انتهى كلامه.

نقول في الجواب، أما قوله: أن إلقاء تلك الفتنة من الله، فهو ممّا لا كلام فيه لأن الله تعالى هو المختبر لا غيره وأما قوله أن المراد من تلك الفتنة ليس إلاّ اعتراضهم على الله، فليس الأمر كذلك لأنّ الإعتراض على الله بإختيار العبد فكما أنّه قادر على الإعتراض قادر على عدمه ألا ترى أن المؤمن لا يعترض و الفاسق يعترض فالفتنة كما تكون منشأ للإعتراض كذلك تكون منشأ لعدمه و التسليم بقضائه وقدره فالقول بأن المراد من الفتنة ليس إلاّ الإعتراض على الله على وجهه الحصر لا معنى له هذا أولاً وثانياً، نقول ما ذكره الرّازي يتم بناءً على كون اللّام في قوله (ليقولوا) للتعليل أي أن الفتنة علّة لهذا القول وقد قلنا أن اللّام ليست للتعليل بل هي لام الغاية لأنّ الله تعالى أجل وأعظم من أن قصد بفعله أن يكفروا به ويعصوه ثمّ عاقبهم عليه وبذلك قد ظهر لك الجواب عن قوله، و الإعتراض على الله كفر وذلك يدلّ على أنّه تعالى هو الخالق للكفر، وذلك لأنّ الإعتراض على الله من فعل العبد لا من فعل الله فلو كان كفراً فالعبد هو الخالق له لا غيره فقوله أن الله تعالى هو الخالق للكفر كلام لا طائل تحته نعم أن الله خالق للكافر فكأنّ الرّازي لم يميّز بين خالق الكافر و خالق الكفر.

و أما الجواب عن دليله الثّاني فنقول لا شك أن الله تعالى قد منّ عليهم بالإيمان ومتابعة الرّسول وأما قوله أن هذه المعاني أنما تحصل من الله لا من العبد فإن كان المراد من الحصول الإيجاد بمعنى أن الله تعالى أوجد في قلب العبد الإيمان أو الكفر من غير إختيار للعبد فيه فنحن لا نقول به لأنّه مستلزم لظلم و الله تعالى منزّه عنه إذ كيف يخلق الكفر والإيمان في قلب العبد و العبد لا إختيار له في تعيين أحدهما ثمّ يسأل عنه، و أن كان المراد من الحصول وجود الإيمان في قلب العبد بتوفيقه و تسديده فهو صحيح إلاّ أن



القائل لا يقول به إذ لا يدل على مطلوبه ومحصل الكلام هو أن المنة من الله تعالى على العبد ليست على إيجاد الله الإيمان في قلب العبد بل على توفيقه أتياه عليه وهو واضح.

وأما قوله: أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ فهذا إستفهام تقرير وهو جواب لقولهم أَهَؤُلَاءِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا والمعنى أن الله تعالى أعلم بالشاكرين له فيجازيهم على ذلك بما يستحقونه من الثواب والمراد بالشاكرين في الآية هم هؤلاء الضعفاء ويدخل معهم سائر المؤمنين.

إن قلت أليست الآية قد دلت على أن الكفار قالوا ما أَرَادَهُ اللَّهُ فيجب أن يكونوا مطيعين، قلنا ليس في الآية ما يدل على أنهم على أي وجه قالوه على وجه الإنكار أو على وجه الإستفهام فلما علمنا أن الله تعالى ذمهم بهذا القول علمنا أنهم لم يقولوه على وجه المراد وهو الإستفهام بل قالوه على وجه الإنكار خلاف ما أريد منهم فكانوا غير مطيعين والله أعلم.



وَ إِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ  
 عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ  
 عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ  
 أَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤) وَ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ  
 الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَ لَتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥)  
 قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ  
 اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَ  
 مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ  
 رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ  
 الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ  
 الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ  
 بِهِ لَقَضَيْتُ الْأَمْرَ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ  
 بِالظَّالِمِينَ (٥٨) وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا  
 إِلَّا هُوَ وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَا تَنْسُقُ  
 مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَ لَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ  
 الْأَرْضِ وَ لَا رَطْبٍ وَ لَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ  
 مُبِينٍ (٥٩)

### ◀ اللغة

تَسْتَبِينَ: الإِسْتِبَانَةُ: الوُضُوحُ وَ الظُّهُورُ يُقَالُ إِسْتَبَانَ الشَّيْءُ وَضَحَ.  
 يَقْضُ أَي يَقْضُ الْقَصَصَ الْحَقَّ.

## ◀ الإعراب

وَ إِذَا جَاءَكَ الْعَامِلُ فِي، إِذَا، معنَى الجواب أي إذا جاءك سلمٌ عليهم  
 سلامٌ مبتدأ وأن كان نكرة وذلك لأن فيه معنَى الفعل مِنْكُمْ في موضع الحال  
 من ضمير الفاعل بجهالة حال أيضاً أي جاهلاً ويجوز أن يكون مفعولاً به أي  
 بسبب الجهل وَ كَذَلِكَ الكاف وصف لمصدر محذوف أي نفصل الأيات  
 تفصيلاً مثل ذلك وَ كَذَّبْتُمْ يجوز أن يكون مستأنفاً وأن يكون حالاً مَفَاتِحُ  
 جمع مفتاح وهو الخزانة لَا يَعْلَمُهَا حال من مفاتيح والعامل فيه ما تعلّق به و  
 الظرف أو نفس الظرف أن رفعت به مفاتيح مِنْ وَرَقَةٍ فاعل والباقي واضح.

## ◀ التفسير

وَ إِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ هذه الآية مرتبطة بالأولى وهى قوله: وَلَا  
 تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ حيث نهى الله تعالى في الأولى أن يطردهم ثم أمره  
 في هذه الآية أن يقول لمن ورد عليه منهم، سلامٌ عَلَيْكُمْ فيبدأهم بالتحية و  
 يبشرهم بالرحمة ويقوّي قلوبهم بقبول التوبة ففي الآية مسائل:

الأولى: أَنَّ اللَّهَ تعالى أمر نبيّه بالسلام على المؤمنين فقال: وَإِذَا جَاءَكَ  
 الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ

قال المبرد السلام في اللغة إسم من أسماء الله تعالى وقيل هو مصدر  
 يقال، سلم، سلامةً، وسلاماً.

وقال الزجاج هو مصدر، لسلّم تسليمًا وسلاماً، كالسراح من سرح والأدّى  
 من أدّى، وقال عكرمة والحسن أمر بإبتداء السلام عليهم تشریفاً لهم وقال ابن  
 زيد أمر بإبلاغ السلام عليهم من الله وقيل معنى السلام هنا الدعاء من الأفات  
 وقيل السلام والتحية بمعنى واحد ومعنى السلام عليكم حيّاكم الله، والذي  
 يحصل لنا من جميع هذه الأقوال هو أَنَّ اللَّهَ تعالى أمر نبيّه بتبليغ سلام الله  
 إليهم أو أمره بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطيباً لقلوبهم وهو حسن.

**الثانية:** قوله **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** الرَّحْمَةُ رَقَّةٌ تقتضي الإحسان الى المرحوم وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة نحو رحم الله فلاناً وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة وعلى هذا روي أن الرَّحْمَةَ من الله إنعام وإفضال ومن الأدميين رقةً وتعطف فركز تعالى في طبائع الناس الرقة وتفرّد بالإحسان قال الله تعالى: **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ<sup>(١)</sup> تَنبِيهاً** على أنها في الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين وفي الآخرة خاصة بالمؤمنين ومعنى قوله كتب، أي وجب والباري تعالى لا يجب عليه شيء عقلاً إلا إذا علمنا أنه حتم بشيء فذلك الشيء واجب هكذا قيل.

و المراد بالنفس في حقّه تعالى هو الذات والحقيقة لا النفس بمعنى الجسم والدم لتنزّهه عن النقائص الإمكانية.

**الثالثة:** قوله **أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**.

قال الراغب في المفردات، السوء بضم السين كل ما يعم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجة من فوات مالٍ وجاهٍ وفقد حميم إنتهى.

وقيل السوء عبارة عن كل ما يقبح ولذلك قول بالحسنى وكيف كان فالمعنى من عمل منكم، أيها المؤمنون سوءاً أي عملاً قبيحاً ومعصيةً **بِجَهَالَةٍ** أي بسبب الجهل، ثم تاب، ورجع عما فعله وأصلح عمله بعد التوبة **فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**.

قال الله تعالى: **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَ لَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ<sup>(٢)</sup>**.

وقد مرّ الكلام في معنى التَّوْبَةِ وشرائطها هناك مَقْصَلاً فلا نعيد الكلام بذكرها ثانياً و أما قوله تعالى: **وَأَصْلَحَ** فقال بعضهم معناه أصلح أعماله في المستقبل بعد التَّوْبَةِ، ولا يبعد أن يكون المراد، أصلح ما أفسده عصيانياً بالقضاء مثلاً أن كان من قبيل ترك الواجبات كالصَّلَاةِ والصَّوْمِ وغيرهما، و بالتَّأْدِيَةِ والرَّد الى صاحبه حتَّى الإمكان أن كان من الحقوق المالية و بالاستحلال و الإسترضاء إن كان من الغيبة و الإساءة و هكذا و هذا المعنى أوفق بسياق الكلام و الحمل على العموم أشمل و أفيد و الله أعلم بمراده و قوله تعالى: **فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** فقد مرّ الكلام في معناهما غير مرّة و قلنا إنهما من الأسماء الحسنی لله تعالى و فيهما معنى المبالغة أي أنه تعالى كثير المغفرة و الرَّحمة على عباده.

**وَكَذَلِكَ نَقْصِلُ الْآيَاتِ** الكاف للتشبيه و ذلك إشارة الى التفصيل الواقع في هذه السُّورَةِ أي و مثل ذلك التفصيل البين فنصّل آيات القرآن و نلخصها في صفة أحوال المجرمين من هو مطبوع على قلبه لا يرجئ إسلامه و من ترى فيه إمارة القبول و هو الذي يخاف إذا سمع ذكر القيامة و من دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده قاله بعض المفسرين.

و قيل المعنى كما فصلنا في هذه السُّورَةِ دليل على صِحَّة التَّوْحِيدِ و النُّبُوَةِ و القضاء و القدر فنصّل لك دليلنا في تقرير كلِّ حقٍّ ينكره أهل الباطل، المقام قول ثالث:

و هو أنه إشارة الى التفصيل للأُمِّ السَّابِقَةِ و مثل ذلك التفصيل لمن كان قبلكم فنصّل لكم، أقول الفصل بون ما بين الشَّيْئِينَ و التَّفْصِيلِ التَّيْبِينَ يبين المعاني الملتبسة و عليه فتفصيل الآيات تبينها و شرحها و إظهارها بوجهٍ أبسط. **وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ** قرأ أهل الكوفة بالياء و الباقون، بالتاء فعلى الأوّل يكون السَّبِيلُ مرفوعاً على الفاعلية و على الثَّانِي منصوباً على المفعولية، و يمكن رفع السَّبِيلِ على قراءة التَّاء أيضاً لأنَّ السَّبِيلَ يذَّكَّرُ و يؤنَّثُ

فالتذكير لغة تميم والتأنيث لغة أهل الحجاز وك يف كان فالمعنى إِنَّا نَفْضِلُ  
الْأَيَّاتِ، ولتستبين، أي ولتظهر سبيل المجرمين، لم يقل سبيل المؤمنين مع  
أَنَّهَا أيضاً قد إستبانَت بسبب التَّفْصِيلِ لأنَّ سبيل المجرمين اذا بانَت فقد بان  
معها سبيل المؤمنين أيضاً لأنَّها خلافها، ويجوز أن يكون المراد ولتستبين  
سبيل المجرمين، ولتستبين سبيل المؤمنين، فحذف إحدى الجملتين لدلالة  
الكلام عليه على حذو قوله تعالى: سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ<sup>(١)</sup> ولم يقل تقيكم البرد  
لأنَّ السَّاتِرِيسْتَر من الحرِّ والبرد لكن جرى ذكر الحرِّ لأنَّهم كانوا في مكانهم أكثر  
معاناة له من البرد، وكذلك سبيل المجرمين خصَّ بالذكر لأنَّ الكلام في  
وصفهم وترك ذكر المؤمنين لدلالة الكلام عليه ولما كانت الآية معطوفة على  
الآيات التي إحتجَّ الله بها على مشركي العرب وغيرهم.

قال تعالى وكذلك أي كما قدَّمنا، نفصل الآيات لتلزمهم الحجَّة والتظهر  
سبيل المعاند بعد البيان ثم خاطبه نبيّه فقال: قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ  
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

روي أنَّ النَّبِيَّ قرأ هذه الآية عند الكعبة وأظهر لهم المفارقة وحاصل  
الكلام فيها هو أنَّ الله تعالى قد نهاني أن أعبد هذه الأوثان التي تعبدونها من  
دون الله وتدعونها ألهة وأنها تقرِّبكم إلى الله زلفى وأن يقول لهم أني لا أتبع  
أهواءكم كما قال: قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ  
الْمُهْتَدِينَ أي أني لا أتبع أهواءكم في عبادة الأوثان اذ لو فعلت ذلك لكنت  
قد ضللت عن الصَّواب ولم أكن من المهتدين إلى الخير والصَّلاح فمعناه  
معنى الشَّرط وتقديره قد ضللت إن عبادتها، ففي قوله: أَهْوَاءَكُمْ إشارة إلى أنَّ  
الكفَّار في عبادتهم الأوثان إتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ولما كانت أصنامهم مختلفة كان  
لكلِّ عابِدٍ صنم هوئِ يختصه فلذلك جمع، ففي ذكر الهوى تنبيه على السَّبب  
الذي حصل منه الضَّلال وأنَّ أفة العقل الهوى كما قيل:

وأفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجى  
ولذلك ورد كثير من الآيات في ذم الهوى ومتابعته:

قال الله تعالى: أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوِيَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَحِيدًا<sup>(١)</sup>.  
قال الله تعالى: وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا  
كَثِيرًا<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ  
إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ<sup>(٣)</sup>.

والآيات في الباب كثيرة جداً والدليل على ذلك من العقل هو أنها  
جمادات وأحجار والجماد أخس مرتبة من النباتات والنبات أخس مرتبة من  
الحيوان والحيوان أخس مرتبة من الإنسان فالجماد أخس مرتبة من الإنسان  
بكثير وكون الأشرف مشغلاً بعبادة الأخس أمر يدفعه العقل السليم هذا أولاً.  
ثانياً: نقول أن الكفار كانوا ينحتون تلك الأصنام ثم يعبدونها ومعنى العبادة  
خضوع العابد للمعبود وأي شيء أقبح من خضوع الإنسان لمصنوعه ومخلوقه  
ثالثاً: أنها أي عبادة الأصنام لا تنفع لعدم الشعور لها فضلاً عن العلم و  
الإرادة وتشخيص المصلحة وما كان كذلك فوجوده كالعدم فثبت وتحقق بما  
ذكرناه عقلاً ونقلاً أن عبادة الأصنام بل كل ما يعبد من يغر الله لا تكون إلا  
بمتابعة الهوى والميل من غير حجة ولا برهان وهو دليل على جهل العابد و  
التابع وهو المطلوب.

ولما نبه الله تعالى على قبح متابعة الهوى وذمها وأنها لا تليق بمقام  
الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات لو عرف قدره.  
نبه ثانياً على ما يجب إتباعه بقوله:

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ  
الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ

أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين يعبدون غير الله من غير بينة ولا برهان بل بمقتضى الهوى ومتابعة النفس الأمارة بالسوء، إني لا أتبعكم فيما تعبدون، وذلك لأنني على بينة من ربي، من معرفة الله وصحة نبوته فلا أتبع الهوى وكذبتُم بِهِ أي وكذبتُم بالبيان الذي هو القرآن.

وقيل، الهاء راجعة إلى الله أي وكذبتُم بالله هكذا قيل والحق أنه لا فرق بين القولين لأن المكذب للقرآن مكذب لله في الحقيقة وبالعكس لوجود الملازمة بينهما.

وأما قوله: مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ فما بمعنى، ليس، أي ليس عندي ما تستعجلون به وقد ذكروا في معناه أمرين:

أحدهما: أن المراد به العذاب كما قال تعالى: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ<sup>(١)</sup>.

الثاني: أن يكونوا يستعجلوا الآيات التي إقترحوها عليه فأعلمهم الله أن ذلك عند الله وأن الحكم له تعالى كما قال: إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أي ليس الحكم إلا لله تعالى: يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ أي أنه تعالى يَقْضُ الْحَقَّ بناءً على قراءة الضاد من القصص وأما على قراءة الضاد فهو من القضاء أي أنه تعالى يقضي الحق.

أن قلت بناءً على قراءة الضاد فالحق أن تكتب الكلمة بالياء في آخرها فتكتب (يقضي) ولم تكتب كذلك في مصحف أصلاً.

قلنا من قرأ بالضاد يقول أن الياء أسقطت في اللفظ لإلتقاء الساكنين كما حذفت الواو من قوله: سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ<sup>(٢)</sup> والأصل سندعوا، ولم تكتب بالواو.



إِعلم أَنَّ بعضَ المفسرين رجَّح قراءة الضَّادِ فقراً، يقضِ الحقَّ، وإسْتَدَلَّ على مدَّعاه بقوله: وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ فقال أَنَّ الفصل في القضاء لا في القصص ويقوِّي ذلك قوله تعالى: وَ اللَّهُ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ وأنت ترى أَنَّ هذا الَّذي ذكره في إثبات مدَّعاه لا يرجع إلى محضِّل وذلك لأنَّ الفصل كما جاء في القضاء كذلك جاء في القول قال الله تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ<sup>(١)</sup> أُخْصِمَتْ أَيْانُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ<sup>(٢)</sup> وهكذا غيرها من الموارد التي جاء الفصل في القول والسِّر فيه هو أَنَّ الفصل في الأصل وهو كما يكون في الحكم كذلك يكون في القول وعليه فالمتَّبِع هو قول المشهور.

قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ

أمر الله تعالى نبيّه أن يقول للكفّار لو أَنَّ عندي ما تستعجلون به، من العذاب وإنزاله بكم أي لو كان ذلك بإرادتي لفعلت ذلك بكم ولقضي الأمر بيني وبينكم، بذلك ولا نفصل ولا نقطع ولكن الأمر بيد الله هو أعلم بالظالمين، في الإمهال والعقوبة لأنّه يدبّر ذلك بحسب ما يعلم من وجه الحكمة والصواب.

وقال الزمخشري في الكشّاف في قوله تعالى: (لو أَنَّ عندي ما تستعجلون به من العذاب لأهلككنكم عاجلاً غضباً لرّبي وإمتعاضاً من تكذيبكم به و لتخلّصت منكم سريعاً إنتهى).

وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ

المِفْتَاح جمع مِفْتَح بكسر الميم و هي الآية التي بفتح بها ما أغلق وقال بعضهم هي جمع مَفْتَح، بفتح الميم ويكون للمكان كما أنّه على الأوّل يكون

إِسْمَ آله، وقال الآخرون يحتمل أن يكون جمع مفتاح لأنه يجوز في مثل هذا أن لا يؤتى فيه بالياء كما قالوا، مصابح ومحارب و قراقير في جمع مصباح و محراب و قرقور و قرأ شاذاً مفاتيح بالياء في الآية، وكيف كان فقد روي عن ابن عباس أنها خزائن المطر و الثبات و نزول العذاب و قال السدي وغيره خزائن الغيب و روي ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله.

أن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث و يعلم ما في الأرحام، و ما تدري نفس ماذا تكسب غداً و ما تدري نفس بأي أرض تموت، و قيل مفاتيح الغيب الأمور التي يستدل بها على الغائب فتعلم حقيقته يقال فتحت على الرجل أي عرفته أولاً و يستدل به على آخر و جملة يعرف بها التفصيل و منه قولهم، افتح علي أي عرفني و نقل عن الفراء أنه قال معناه.

و عنده الوصلة إلى علم الغيب و كل ما لا يعلم إذا استعلم، أقول ما ذكره لا بأس به فإن الله تعالى عالم بكل شيء محسوسه و معقوله و لا يخفى عليه ظاهراً و باطناً فهو عالم بمبتدئات الأمور و عواقبها فيعجل ما تأجيله أصلح و أصوب و يؤخر ما تأخيره كذلك و هو الذي يفتح باب العلم لمن يريد من أنبيائه و عبادِهِ فلا يعلم الغيب إلا هو عقلاً و نقلاً، أما العقل فلاه تعالى لو لم يعلم الغيب الذي هو خارج عن الحواس، فلا محالة جاهل به لعدم الوساطة بين العلم و الجهل، و قد ثبت أن الجهل نقص، كما أن العلم كمال، و كل ناقص فهو محتاج إلى رفع نقصه و كل محتاج ممكن و كل مخلوق فيلزم أن يكون الله تعالى ممكناً مخلوقاً و هو كما ترى.

ثانياً: أنه تعالى ليس زمانياً لأنه لا يكون في الزمان اذكر كان حادثاً بحدوث الزمان من حيث المبدأ و المنتهى و كل حادث ممكن و قد ثبت أنه واجب الوجود، ثم أنه تعالى إذا لم يكن في الزمان فكل آتات الزمان بالنسبة إليه على حِدٍ سواء فهو عالم بما مضى كما أنه عالم بما يأتي فلا يغيب عن علمه شيء.

**ثالثاً:** أنه تعالى علّة لوجود ما سواه كائناً ما كان وقد ثبت في العلوم العقلية أن العلّة حاوية لجميع مراتب المعلول وحيث أن الحوادث الواقعة في عالم الوجود سواء كانت من سنخ المحسوسات أم كانت من سنخ المعقولات بل المتحيلات والأوهام كلّها ماضيها ومستقبلها وحالها، داخله في سلسلة المعلولات فالعلّة محيطة بها أحاطت العلّة بالمعلول ولا نعني بالعلم إلا إحاطة المدرك بالمدرك فهو عالم بالكل وهو المطلوب وأما الأدلة النّقلية من الآيات والآثار فكثيرة جداً:

قال الله تعالى: لَا جَزَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُغْلِبُونَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَإِنْ تَجَهَّزْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: غَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ<sup>(٦)</sup>.

قال الله تعالى: غَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ<sup>(٧)</sup>.

والآيات في الباب كثيرة.

**يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**

قال المفسّرون معناه أنه تعالى يعلم ما في البرّ والبحر من الحيوان والجماد يعلم ما تسقط من ورقة من شجرة وكلّ حبة في جوف الأرض وفي ظلماتها

بناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

- |                 |               |
|-----------------|---------------|
| ١- النحل = ٢٣   | ٢- طه = ٧     |
| ٣- النور = ٢٩   | ٤- التمل = ٦٥ |
| ٥- الانعام = ٧٣ | ٦- هود = ١٢٣  |
| ٧- الرعد = ٩    |               |

رطبٍ ولا يابس من جميع أصناف الأجسام إلّا وهو داخل في علمه وقوله: فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ قيل معناه في علم الله مبين، وقيل المراد به اللّوح المحفوظ، وبما ذكرناه قد ظهر لك أنّ هذه المذكورات في الآية من قبيل التفصيل بعد الإجمال.

أَنْ قُلْتَ سَلَمْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ عَقْلًا وَنَقْلًا. وَأَمَّا قَوْلُهُ: لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، فَيَسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ غَيْرَهُ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ مَفَاتِحَ الْغَيْبِ وَأَنَّ الْعِلْمَ بِهَا مَخْتَصٌّ بِهِ تَعَالَى وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى مَا الدَّلِيلُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ. قُلْنَا الدَّلِيلُ عَلَى الْإِنْحِصَارِ هُوَ أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِذَاتِهِ لِدَاوَتِهِ وَأَمَّا غَيْرُهُ كَائِنًا مِنْ كَانَ فَأَنَّ عِلْمَهُ لَيْسَ بِذَاتِهِ لِدَاوَتِهِ وَكُلٌّ مِنْ كَانَ عَالِمًا بِذَاتِهِ لِدَاوَتِهِ فَهُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ حَاضِرًا وَغَائِبًا فَهُوَ تَعَالَى عَالِمٌ كَذَلِكَ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

أَمَّا الْمَقْدَمَةُ الْأُولَى: فَلَا أَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى بِذَاتِهِ عَيْنَ ذَاتِهِ لَا زَائِدَ عَلَى الذَّاتِ كَمَا ثَبَتَ فِي مَحَلِّهِ وَأَنْ شُئْتَ قُلْتَ عِلْمُهُ ذَاتَهُ وَذَاتَهُ عِلْمُهُ وَحَيْثُ أَنَّ ذَاتَهُ عِلَّةٌ تَامَّةٌ لَوْجُودِ مَا سِوَاهُ وَالْعِلْمُ بِالْعِلَّةِ مُسْتَلْزَمٌ لِلْعِلْمِ بِالْمَعْلُولِ عَلَى وَجْهِ التَّمَامِ وَالْكَمَالِ فَالْمَطْلُوبُ ثَابِتٌ.

أَمَّا الْمَقْدَمَةُ الثَّانِيَّةُ: فَلَا أَنَّ الْمَخْلُوقَ أَخَذَ عِلْمَهُ عَنْ غَيْرِهِ وَلَيْسَ هُوَ لِدَاوَتِهِ، فَلَا مُحَالَةَ عِلْمَهُ مَحْدُودٍ مَتْنَاهُ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.



وَهُوَ الَّذِي يَتَوَقَّيْكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ  
 بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ  
 إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَ  
 هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً  
 حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ  
 لَا يُفِرُّونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ  
 أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) قُلْ مَنْ  
 يُنَجِّيْكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ  
 تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنْ  
 الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيْكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ  
 كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ  
 أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ  
 أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ  
 بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ  
 يَفْقَهُونَ (٦٥)

### ◀ اللغة

جَرَحْتُمْ: الجرح بفتح الجيم وسكون الراء والحاء الكسب يقال فلان جارحة  
 أهله أي كاسبهم ومنه قيل للإعضاء جوارح.  
 يُنَبِّئُكُمْ: الإنباء الإخبار.  
 الْقَاهِرُ: الغالب على سبيل القهر والغلبة.  
 حَفَظَةً: جمع حافظ.

كَرْبٍ بَفَتْحِ الْكَافِ وَسُكُونِ الرَّاءِ الْغَمِّ.  
شَيْعًا بِكَسْرِ الشَّيْنِ وَفَتْحِ الْبَاءِ التَّفْرِقِ وَالْإِخْتِلَافِ وَالْبَاقِي وَاضِحٌ.

### ◀ الإعراب

بِاللَّيْلِ الْبَاءُ هُنَا بِمَعْنَى، فِي، لِيَقْضَى أَجَلٌ عَلَى مَا لَمْ يَسْمُ فَاعِلُهُ وَيَقْرَأُ عَلَى تَسْمِيَةِ الْفَاعِلِ، وَأَجَلًا نَصَبَ لَا يُفَرِّطُونَ بِالتَّشْدِيدِ أَيْ يَنْقُصُونَ مِمَّا أَمَرُوا تَدْعُوْنَهُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ الْمَفْعُولِ فِي يَنْجِيكُمْ تَضَرُّعًا مُصَدِّرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ وَكَذَلِكَ خُفِيَّةٌ.

مِنْ فَوْقَكُمْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَصْفًا لِلْعَذَابِ وَأَنْ يَتَعَلَّقَ بِبَيْعَتِهِ وَكَذَلِكَ مِنْ تَحْتِ.

### ◀ التفسير

لَمَّا ذَكَرَ فِي آيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّهُ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ لَا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ذَكَرَ فِي هَذِهِ آيَةِ إِحَاطَةِ قُدْرَتِهِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ تَنْبِيْهُاً عَلَى مَا تَخْتَصُّ بِهِ الْإِلَهِيَّةُ فَذَكَرَ شَيْئاً مُحَسَّساً قَاهراً لِلْأَنَامِ وَذَلِكَ لِأَنَّ ذَكَرَ الْمُحَسَّسَاتِ مِمَّا يَتَوَسَّلُ بِهِ إِلَى الْمَعْقُولَاتِ فَقَالَ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفِّيكُمْ بِاللَّيْلِ التَّوْفِيَّ عِبَارَةٌ فِي الْعَرَفِ عَنِ الْمَوْتِ وَلَكِنْ الْمُرَادُ بِهِ فِي الْمَقَامِ هُوَ النَّوْمُ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ لِلْعَلَاقَةِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَوْتِ وَهِيَ زَوَالُ إِحْسَاسِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَفِكَرِهِ وَلَمَّا كَانَ التَّوْفِيَّ سَبَباً لِلرَّاحَةِ أَسْنَدَهُ تَعَالَى إِلَيْهِ وَلَمَّا كَانَ بِمَعْنَى الْمَوْتِ مُؤَلِّماً قِيلَ يَتَوَفَّاكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ، وَتَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا، وَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْخُطَابَ عَامٌّ لِكُلِّ سَامِعٍ، وَقَالَ الْجَبَائِي فِي قَوْلِهِ: يَتَوَفِّيكُمْ بِاللَّيْلِ أَيْ يَقْبِضُكُمْ.

قال الزّجاج، بنيمكم بالليل فيقبضكم الله اليه كما قال: **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا** <sup>(١)</sup> وقال البلخي والمغربي، يتوفاكم، بمعنى يحصيكم عند منامكم وإستقراركم.

**أقول** أصل التّوفية بذل الشّيء وافيّاً، وإستيفائه تناوله وافيّاً:  
قال الله تعالى: **وَوَفَيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** <sup>(٢)</sup>.  
قال الله تعالى: **ثُمَّ تَوَفَّى كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** <sup>(٣)</sup>.  
قال الله تعالى: **يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** <sup>(٥)</sup>.  
وأمثالها من الآيات كثيرة والمقصود من ذكرها هو بيان مناسبة لفظ التّوفي مكان الموت مع وجود الفرق بينهما وذلك لأنّ النّائم لا شك أنّه حيّ ومتى كان حيّاً لم تكن روحه مقبوضة البتّة وإذا كان كذلك فكيف يقال أنّ الله توفاه وهذا بخلاف الموت فإنّ الميّت لا يكون حيّاً قطعاً لأنّ روحه مقبوضة بالكلية فظهر الفرق، وقد أجيب عن الإشكال بما حاصله أنّ حال النّوم تغور الأرواح الحساسة من الظّاهر في الباطن فصارت الحواسّ الظّاهرة معطّلة عن أعمالها وأمّا عند الموت صارت جملة البدن معطّلة عن كلّ الأعمال فحصل بين النّوم والموت مشابهة بهذا الاعتبار فصّح إطلاق لفظ الوفاة والموت على النّوم من هذا الوجه انتهى.

والحقّ في الجواب، هو أنّ وجه التشابه بينهما أي بين الموت والنّوم سلب القدرة عن العبد بمعنى أنّ الله تعالى هو الذي يسلّط النّوم على الإنسان كما يسلّط الموت عليه فالموت والنّوم خارجان عن قدرة العبد فالعبد مقهور مغلوب تحت قدرته أمّا بالنسبة الى الموت فلا كلام فيه.

٢- آل عمران = ٢٥

٤- النحل = ١١١

١- الزمر = ٤٢

٣- آل عمران = ١٦١ البقرة = ٢٨١

٥- الزمر = ١٠

وَأَمَّا فِي النُّومِ فَالدَّلِيلُ عَلَى الْمَدْعَى هُوَ قَوْلُهُ: وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ لَا غَيْرَهُ فَالْكَلَامُ مُفِيدٌ لِلْحَصْرِ وَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ أَنَّ اللَّهَ يَتَوَفَّاكُم مَثَلًا وَمَعَ ذَلِكَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى نَقْطَةٍ أُخْرَى وَهِيَ التَّوَجُّهُ إِلَى الْمَوْتِ أَيْ كَمَا تَنَامُونَ تَمُوتُونَ (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) أَيْ أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِمَا كَسَبْتُمْ بِالنَّهَارِ بِسَبَبِ الْجَوَارِحِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا، وَالْجَرَحُ فِي الْأَصْلِ أَثَرُ دَاءٍ فِي الْجِلْدِ يُقَالُ جَرَحَهُ جَرَحًا فَهُوَ جَرِيحٌ وَمَجْرُوحٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ.

وَتَسَمَّى الصَّائِدَةُ مِنَ الْكِلَابِ وَالْفُهُودُ وَالطُّيُورُ جَارِحَةً وَجَمَعَهَا جَوَارِحٌ أَمَّا لِأَنَّهَا تَجْرَحُ وَأَمَّا لِأَنَّهَا تَكْسِبُ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ<sup>(١)</sup> أَيْ مِنَ الْكَوَاسِبِ الَّتِي تَكْسِبُ عَلَى أَهْلِهَا وَمِنْهُ قِيلَ لِلْأَعْضَاءِ جَوَارِحٌ. قَالَ بَعْضُهُمْ أَصْلُ الْإِجْتِرَاحِ عَمَلُ الرَّجُلِ بِجَارِحَةٍ مِنْ جَوَارِحِهِ يَدُهُ أَوْ رِجْلُهُ ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى قِيلَ لِكُلِّ مَكْتَسِبٍ مُجْتَرِحٌ وَجَارِحٌ وَظَاهِرُ قَوْلِهِ: مَا جَرَحْتُمْ الْعُمُومُ فِي الْمَكْتَسَبِ خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا انْتَهَى. وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ مَعْنَاهُ مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الْأَثَامِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ مَعْنَاهُ مَا عَمِلْتُمْ بِالنَّهَارِ وَقَالَ مُجَاهِدٌ، مَا كَسَبْتُمْ.

وَأَنَا أَقُولُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ التَّعْبِيرُ بِالْجَرَحِ دُونَ الْكَسْبِ حَيْثُ قَالَ مَا جَرَحْتُمْ، وَلَمْ يَقُلْ مَا كَسَبْتُمْ أَوْ مَا عَمِلْتُمْ، لِنَكْتَتِهِ أُخْرَى وَهِيَ أَنَّ الْجَرَحَ فِي الْأَصْلِ الْأَثَرُ فِي الْجِلْدِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ، يَعْلَمُ أَثَارَكُمْ بِالنَّهَارِ وَالْأَثَرُ أَعَمُّ مِنَ الْكَسْبِ وَالْعَمَلِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَمَلَ أَوْ الْكَسْبَ لَا يُطْلَقَانِ إِلَّا عَلَى مَا وَجَدَ فِي الْخَارِجِ وَأَمَّا قَبْلَ الْوُجُودِ الْخَارِجِيِّ لَا يُقَالُ أَنَّهُ عَمِلَ أَوْ كَسَبَ، وَهَذَا بِخِلَافِ الْأَثَرِ فَاتَّهَى يَطْلُقُ عَلَى النَّبَةِ وَكُلِّ مَا خَطَرَ بِالْبَالِ أَيْضًا وَعَلَى هَذَا فَمَعْنَى قَوْلِهِ: يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ أَيْ مَا قَصَدْتُمْ وَعَمِلْتُمْ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِكُلِّ الْأَعْمَالِ وَالنِّيَّاتِ وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ أَثَرٌ مِنَ الْأَثَارِ ظَاهِرُهَا وَ



باطنها ولأجل هذا عبّر بالجرح فإن العام يشمل الخاص ولا عكس ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمى قالوا البعث هنا هو التنبيه من النوم والضمير في، فيه، عائد إلى النهار.

وقال ابن كثير يعود على التوفي أي يوقظكم في التوفي أي في خلاله و تضاعفه، وقيل يعود على الليل، والحق أنه يعود على النهار لأن الأقرب يمنع الأبعد وعليه فجعل إنباههم من النوم بعثاً وذلك لأن أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه يقال بعثته فإنبعث وحيث أن النوم من جنس الموت فجعل التوفي فيهما والبعث منهما سواء وعليه فالمعنى ثم بعد النوم يبعثكم أي يوقظكم فيه أي في النهار ليُقضى أجل مسمى، أي أن النوم والبعث لأجل أن يقضي أي يستوفي ما قدر لكم من الأجل والأعمار المكتوبة في اللوح المحفوظ وقضاء الأجل فصل مدة العمر من غيرها ومسمى في علم الله على ما ثبت في اللوح.

وقال صاحب الكشاف هو الأصل الذي سمّاه وضربه لبعث الموتى وجزاء هم على أعمالهم انتهى.

والحاصل أن المراد بالأجل المسمى هو الأجل الذي ضرب لكل مخلوق يعلمه إلا الله ومن المعلوم أن الخلق لا يصل إليه إلا بمضي الزمان قل أوكثر و الزمان لا يتصرم إلا بتعاقب الليل والنهار فاللأم في قوله: ليُقضى للغاية فإن غاية الحياة الموت ثم إليه مرجعكم ثم ينسبكم بما كنتم تعملون أي ثم مرجعكم بعد الموت إلى الله يعني يوم القيامة فيحشركم الله إلى حيث لا يملك فيه الأمر سواه فيخبركم ويعلمكم بما كنتم تعملون في دار الدنيا فيجازيكم على أعمالكم أن خيراً فخيئراً وأن شراً فشرّاً.

وإعلم أنه تعالى لما ذكر أنه منيهم أولاً ويوقظهم ويبعثهم ثانياً فكان ذلك جازياً مجزئ الإحياء بعد الإماتة لا جرم استدلال بذلك على صحة البعث والقيامة فقال ثم إلى ربكم مرجعكم الآية.

والى هذا المعنى أشير في الحديث حيث قال ﷺ كما تنامون تموتون و  
سيأتي الكلام في الموت والبعث والقيامة في محله.

وَهُوَ أَتْقَاهُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ  
الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ، ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ  
أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ في الآية مسائل:

الأولى: وَهُوَ أَتْقَاهُ فَوْقَ عِبَادِهِ الْقَهْرُ بفتح القاف وسكون الهاء والراء  
مصدر قولك قهر قهراً.

قال الرَّاغِبُ القهر والتدليل معاً ويستعمل في كل واحد منهما، انتهى.

أقول فمن الأول:

قوله تعالى: وَهُوَ أَتْقَاهُ فَوْقَ عِبَادِهِ.

قال الله تعالى: وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ<sup>(٢)</sup>.

من الثاني:

قال الله تعالى: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ<sup>(٣)</sup>.

أي لا تدلل يقال أقهره اذا سلط عليه من يقهره اذا عرفت هذا فنقول:

قوله: وَهُوَ أَتْقَاهُ فَوْقَ عِبَادِهِ معناه هو القاهر الغالب فوق عباده وليس

المراد بالفوقية الفوقية بالمكان والجهة كما يقال السَّقْفُ فوق التَّحْتِ بل المراد

بها الفوقية بالقهر والغلبة كما يقال أمر فلان بمعنى أَنَّهُ أعلى وأنفذ ومنه قوله

تعالى: يَذَّ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ<sup>(٤)</sup> وذلك لأنَّ المكان والجهة من لوازم الجسم والله

تعالى منزَّه عنه.

**ثانياً:** أنَّ الفائق بالمكان والجهة لا يكون غالباً قاهراً دائماً بل قد يكون مقهوراً وذلك لأنَّ الضَّعيف مقهورٌ مغلوبٌ وأن كان أعلى مكاناً والقوي غالبٌ وأن كان أدون مكاناً بخلاف الفائق بحسب الرتبة والمقام فأنه يكون قاهراً غالباً دائماً وحيث أنَّ الله تعالى هو الخالق الموجد بالتكوين والإيجاد والإبقاء والإهلاك وإبلاج الليل في النهار والنهار في الليل وبالجمله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فلا رادَّ لقضاءه ولا مانع لحكمه فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون فلا جرم هو القاهر فوق عباده على سبيل الحصر ولذلك قال القاهر فوق عباده ولم يقل أنَّ الله قاهر فوق عباده مثلاً وإستدل الرّازي على قهاريته تعالى بوجوه:

**أحدها:** أنه قهّار للعدم بالتكوين والإيجاد.

**الثاني:** أنه قهّارٌ للوجود بالإفناء والإفساد فأنه تعالى هو الذي ينقل الممكن من العدم الى الوجود تارةً ومن الوجود الى العدم أخرى فلا وجود إلا بإيجاده عدم إلا بإعدامه في الممكنات.

**الثالث:** أنه قهّار لكلِّ ضدٍّ بضدّه فيقهر النور بالظلمة والظلمة بالنور والنهار بالليل والليل بالنهار وتمام تقريره في قوله: **اللَّهُمَّ مَا لِكَ أَلْمُكُ تُوْتِي أَلْمُكُ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ أَلْمُكُ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ**<sup>(١)</sup> الى أن قال

**الرابع:** أنَّ هذا البدن مؤلّف من الطبائع الأربع وهي متنافرة متباعدة بالطبع والخاصّة فاجتماعها لا بدّ وأن يكون بقسر قاسرٍ وأخطأ من قال أنَّ القاسر هو النفس الإنسانية وهو الذي ذكره ابن سينا في الإشارات، لأنَّ تعلق النفس بالبدن أنما يكون بعد حصول المزاج وإعتدال الأمشاج والقاهر لهذه الطبائع على الاجتماع والسابق على حصول الاجتماع مغاير للمتأخّر عن حصول الاجتماع فثبت أنَّ القاهر لهذه الطبائع على الاجتماع ليس إلاّ الله كما قال: **وَهُوَ أَلْقَاهُ فَوْقَ عِبَادِهِ** الى آخر ما قال انتهى موضع الحاجة من كلامه.

وَأَنَا أَقُولُ مَا ذَكَرَهُ مِنَ الوجوه لا بأس به إلا أَنَّ ما أورده على ابن سينا غير وارد عليه وذلك لأنه لا منافاة بين أن يكون القاسر هو النَّفس الإنسانية والقاهر هو الله تعالى بمعنى أَنَّ الله تعالى جعل النَّفس قاسراً في إجتماعها من حيث السَّببية إذ أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها ولا إشكال فيه إذا قلنا أَنَّ خالق الأسباب هو الله ومن المعلوم أَنَّ ابن سينا لم ينكر أَنَّ الله تعالى هو خالق النَّفس.

ومحصل الكلام هو أَنَّ القول بالسبب لا ينافي قهاريته تعالى وَأَنَّ أزمة الأمور طرأً بيده، ولكن الرّازي دأبه الإشكال والتشكيك في المسائل ولذلك سمّي بإمام المشككين.

**الثانية:** قوله: وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً الظاهر أنه معطوف على قوله القاهر فوق عباده، عطف جملة فعلية على جملة إسمية وحى من أثار القهر.

قال الزّمخشري أي ملائكة حافظين لأعمالكم وهم الكلام الكاتبون.

وقال ابن عطية هم الملائكة المؤكلون بكتب الأعمال، وعن ابن عبّس ملكان مع كلّ إنسان أحدهما عن يمينه للحساب والآخر عن شماله للسّيئات وإذا عمل سيئة قال من على اليمين إنتظره لعله يتوب منها فإن لم يتب كتبت عليه. وقيل ملكان بالليل وملكان بالنّهار أحدهما يكتب الخير والآخر يكتب الشرّ فإذا مشى كان أحدهما بين يديه والآخر وراءه وإذا جلس فأحدهما عن يمينه والآخر عن شماله.

وقيل خمسة من الملائكة أثنان بالليل وأثنان بالنّهار وواحد لا يفارقه ليلاً نهاراً والمكتوب الحسنة والسّيئة وقيل الطّاعات والمعاصي والمباحات، وقيل غير ذلك من الأقوال.

وقال الفيض رحمته في الصّافي، في المقام أي يحفظونكم ويحفظون أعمالكم ويذبّون عنكم مردة الشّياطين وهو امّ الأرض وسائر الأفات و يكتبون ما تفعلون قيل الحكمة في كتابة الأعمال أَنَّ العباد إذا علموا أَنَّ

أعمالهم يكتب عليهم و تعرض على رؤوس الأشهاد كانوا أزجر من القبائح و  
أنَّ العبد اذا وثق بلطف سيده و اعتمد على عطفه و سره لم يحتشم منه  
احتشامه من خدمة المطلعين عليه انتهى كلامه.

**أقول** أما إثبات وجود الحفظة فلا كلام لنا و لغيرنا فيه لدلالة الآية و غيرها  
عليه:

قال الله تعالى: **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ  
اللَّهِ** <sup>(٢)</sup>.

و أما كيفية وجود الحفظة، و أنها كم هي فلا علم لنا به فالبحت فيه بلا فائدة  
ولذلك نقول ترك البحث فيه أولى من الخوض فيه و أقوالهم في المقام ترجع  
الى إستخراجاتهم الظنية التي صدرت من أنفسهم فلا تليق بتفسير كلام الله.  
**الثالثة: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفْرِطُونَ**  
أي حَتَّى اذا جاء أحدكم الأجل المُسمّى و قيل اذا جاء أحدكم أسباب  
الموت، و قيل وقت الموت، و المأل واحد، تَوَفَّتْهُ رسلنا، أي قبضت الملائكة  
روح المتوفي و هم رسل الله الذين عناهم الله بهذه الآية.

و قيل المراد بالرسل هو ملك الموت و أعوانه و أنهم لا يعلمون أجال  
العباد حَتَّى يأتيهم علم ذلك من قبل الله بقبض أرواح العباد و التوفي هو،  
القبض، ثم أَنَّ هؤلاء الرُّسل لا يفرطون، أي لا يقصرون، و لا يغفلون و لا  
يتوانون.

و قال الجبائي لا يأخذون روحه قبل أجله و يبادرون الى ما أمروا به عن  
غير تقصير و لا تفريط، هذا بناءً على قراءة، يفرطون، بالتشديد كما هو  
المشهور الثابت في المصاحف.

في تفسير القرآن

جزء ٧

الجلد السادس

وَأَمَّا بِنَاء عَلَى التَّخْفِيفِ كَمَا إِخْتَارَهُ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ فَمَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَا يَجَاوِزُونَ الْحَدَّ فِيمَا أَمَرُوا بِهِ لِأَنَّ الْإِفْرَاطَ التَّجَاوُزَ عَنِ الْحَدِّ أَيَّ لَا يَنْقُصُونَ مِمَّا أَمَرُوا بِهِ وَلَا يَزِيدُونَ فِيهِ.

**الزَّايِعَةُ:** ثُمَّ رَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ، الظَّاهِرُ عَوْدِ الضَّمِيرِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَجَاءَ، عَلَيْكُمْ، عَلَى سَبِيلِ الْإِتْلَافَاتِ لِمَا فِي الْخُطَابِ مِنْ تَقْرِيبِ الْمَوْعِظَةِ مِنَ السَّامِعِينَ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ فِي، رَدُّوا، عَلَى أَحَدِكُمْ عَلَى الْمَعْنَى لِأَنَّهُ لَا يَرِيدُ بِأَحَدِكُمْ ظَاهِرَهُ مِنَ الْأَفْرَادِ أَمَّا مَعْنَاهُ الْجَمْعُ وَكَأَنَّهُ قِيلَ: حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ وَقِيلَ أَنْ الضَّمِيرُ فِي، رَدُّوا، يَعُودُ عَلَى رُسُلِنَا أَيَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَمُوتُونَ كَمَا يَمُوتُ بَنُو آدَمَ وَيَرُدُّونَ إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً وَأَمَّا قَوْلُهُ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ، فَالْمُرَادُ بِالْمَوْلَى هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ لَفْظُ عَامٍ لِأَنْوَاعِ الْوَلَايَةِ الَّتِي بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِبِيدِهِ مِنَ الْمَلِكِ وَالتَّصَرُّفِ وَالرِّزْقِ وَالْمَحَاسِبَةِ وَغَيْرِهَا وَفِي الْإِضَافَةِ إِشْعَارُ بِرَحْمَتِهِ لَهُمْ وَالْمُرَادُ بِالرَّدِّ إِلَى اللَّهِ الرُّجُوعُ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَجَزَاءِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ آخِرُ الْآيَةِ هَكَذَا قِيلَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

**الخامسة:** أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْخَاسِبِينَ أَلَا، مِنْ حُرُوفِ التَّنْبِيهِ نَبَّهَ بِذَلِكَ عِبَادَهُ بِأَنَّ جَمِيعَ أَنْوَاعِ التَّصَرُّفَاتِ لَهُ وَالْمَعْنَى أَلَا يَعْلَمُونَ أَوْ أَلَا يَقْرَءُونَ أَنَّ الْحُكْمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُوَ لَهُ وَحْدَهُ وَلَا يَمْلِكُهُ سِوَاهُ كَمَا قَدْ يَمْلِكُ الْحُكْمُ فِي الدُّنْيَا غَيْرُهُ بِتَمْلِكِ اللَّهِ آيَاهُ وَفِي قَوْلِهِ: وَهُوَ أَسْرَعُ الْخَاسِبِينَ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحَاسِبُ الْخَلْقَ بِسُرْعَةٍ رَوَى أَنَّهُ يَحَاسِبُ عِبَادَهُ عَلَى مَقْدَارِ حَلَبِ شَاةٍ، فَلَا يَحْتَاجُ أَنْ يَكْلِفَهُمْ مَشَقَّةً عَلَى مَا يَقُولُهُ الْمَشَبِّهَةُ إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَأَحْتَاجُ أَنْ يَتَطَاوَلَ زَمَانُ مُحَاسِبَتِهِ أَوْ أَنَّهُ يَشْغَلُهُ مُحَاسِبَتُهُ عَنْ غَيْرِهِ.

وَرُوي عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ، كَيْفَ يَحَاسِبُ اللَّهُ الْخَلْقَ وَهُمْ لَا يَرُونَهُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا يَرِزُقُهُمْ وَلَا يَرُونَهُ قَالَ الشَّيْخُ فِي التَّبْيَانِ. أَقُولُ وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِوَجْهِ أَبْسَطٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ

لما ذكر في الآيات السابقة ما دلّ على ألوهية تعالى من العلم التام والقدرة الكاملة على الأحياء والإماتة وأن رجوع الخلق اليه وحسابهم عليه وهو أسرع الحاسبين ذكر في هذه الآية والتي بعدها ما يؤيد الأحكام السابقة فقال مخاطباً لنبيه، قل لهؤلاء الناس، من ينجيكم من ظلمات البر والبحر، وهو إستفهام يراد به التقرير والإنكار والتوبيخ على سواء معتقدهم عند عبادة الأصنام وتركهم الذي ينجي من الشدائد ويلجأ اليه في كشفها، قالوا المراد بالظلمات في الآية شدائد البر والبحر.

تقول العرب لليوم الذي يلقي فيه الشدة يوم مظلم حتى أنهم يقولون يوم ذوكواكب أي قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل قال الشاعر:

أبني أسد هل تعلمون بلاءنا إذا كان يوم ذوكواكب أشهب  
وعليه فمعنى ظلمات البر والبحر شدائدهما.

وقال بعضهم أريد حقيقة الظلمة وجمعت بإعتبار موادها ففي البر والبحر ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الصواعق وفي البر أيضاً ظلمة الغبار وظلمة الغيم وظلمة الريح وفي البحر ظلمة الأمواج ويكون ذلك على حذف المضاف والتقدير مهالك ظلمة البر والبحر ومخاوفها هذا ولكن أكثر المفسرين على أن الظلمات مجاز عن شدائد البر والبحر كما مر ذكره.

قال الزمخشري بعد نقله القول بالمجاز ما هذا لفظه ويجوز أن يراد به ما يشفون عليه من الخسف في البر والغرق في البحر بذنوبهم فإذا دعوا وتضرعوا كشف الله عنهم الخسف والغرق فنجوا من ظلماتها انتهى.

وكيف كان لا شك أن الإنسان عند إجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع إلا إلى الله تعالى وذلك لعلمه بقطع جميع الأسباب المادية و

إنقطاع رجاؤه عن كل ما سوى الله ولذلك يقال أنَّ هذا الرجوع يحصل للإنسان ظاهراً وباطناً قهراً إذ لا يجد ملجأً آخر يعتمد عليه ولعله لأجل هذه الدقيقة قال تعالى: تَضَرَّعًا وَخُفْيَةً أَي ظاهراً وباطناً فَأَنَّ التَّضَرُّعَ بِاللِّسَانِ والمراد بقوله: خُفْيَةً هو توجه القلب باطناً وإذا كان الأمر على هذا المنوال وصلت النوبة إلى هذا المقام فقد شهدت الفطرة السليمة والخلقة الأصلية بأن لا ملجأ إلا هو تعالى ولا ينبغي الإعتماد إلا عليه وهذا مخ التوحيد وحقيقة الرؤية في حقه تعالى.

رَوَى الْمَجْلِسِيُّ رحمته الله فِي الْبَحَارِ بِأَسْنَادِهِ عَنِ الْعَسْكَرِيِّ رحمته الله فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: بِسْمِ اللَّهِ أَلْزَحْمَنِ الرَّحِيمِ فَقَالَ رحمته الله اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَتَأَلَّهُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْحَوَائِجِ وَالشَّدَائِدِ كُلِّ مَخْلُوقٍ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَاءِ مِنْ كُلِّ مَنْ دُونِهِ وَتَقَطُّعِ الْأَسْبَابِ مِنْ جَمِيعٍ مِنْ سِوَاهُ تَقُولُ، بِسْمِ اللَّهِ أَي أَسْتَعِينُ عَلَى أُمُورِي كُلِّهَا بِاللَّهِ الَّذِي لَا تَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ، الْمُفْغِثُ إِذَا اسْتَغِيثَ وَالْمُجِيبُ إِذَا دُعِيَ وَهُوَ مَا قَالَ رَجُلٌ لِلصَّادِقِ رحمته الله يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ ذُلَّنِي عَلَى اللَّهِ مَا هُوَ فَقَدْ أَكْثَرَ الْمَجَادِلُونَ وَخَيَّرُونِي فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً قَطُّ قَالَ نَعَمْ قَالَ رحمته الله فَهَلْ كَسَّرْتَ حَيْثُ لَا سَفِينَةَ تُنْجِيكَ وَلَا سَحَابَةَ تُغْشِيكَ قَالَ نَعَمْ، فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَاكَ أَنَّ شَيْئاً مِنَ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُصَكَ مِنْ وَرَطَّتِكَ قَالَ نَعَمْ قَالَ الصَّادِقُ رحمته الله فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْجَاءِ حَيْثُ لَا مُنْجِيٍّ وَعَلَى الْإِغَاثَةِ حَيْثُ لَا مُغِيثٍ إِنَّتَهَى

بَابُ الْقُرْآنِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٧

المجلد السادس

لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ أَي يَقُولُ الَّذِي وَقَعَ فِي وَرْطَةِ الْهَلَاكَةِ وَالشَّدَةِ، لَئِنْ أَنْجَانَا اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْوَرْطَةِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ لَهُ تَعَالَى وَلَكِنْ مَعَ الْأَسْفِ أَنَّ الْإِنْسَانَ بَعْدَ الْفَوْزِ بِالسَّلَامَةِ وَالنَّجَاةِ كَثِيراً مَا يَحِيلُ تِلْكَ السَّلَامَةُ وَالْخُلَاصُ إِلَى الْأَسْبَابِ الْجَسَمَانِيَّةِ وَيَبْقَى عَلَى الشَّرْكِ بَدَلاً عَنْ



الشُّكْر قال الله تعالى: **وَقَلْبِلْ مِنْ عِبَادِي الشُّكُورُ** <sup>(١)</sup> والى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله: **قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ** وأعلم أن قراءة الكسائي وعاصم وحزمة يُنَجِّيكُمْ بالتشديد في الكلمتين والباقون بالتخفيف وهما لغتان وأيضاً قراءة عاصم، خفية بكسر الخاء والباقون بالضم وهما أيضاً لغتان وأيضاً قرأ الكسائي وحزمة وعاصم، لئن أنجانا، على المغاية والباقون لئن أنجيتنا على الخطاب ولكل من هذه الوجوه وجهٌ وجيه.

**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ.**

هذه الآية أيضاً من أدلة التوحيد إلا أنها ممزوجة بالتهديد وذلك لأن الله تعالى أمر نبيه أن يقول لهم هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من لا غيره، من فوقكم، كما أمطر الحجارة على قوم لوط والطوفان الذي غرق به قوم نوح بسبب المطر، أو من تحت أرجلكم، نحو الخسف الذي نال قارون أو يلبسكم شِيْعًا أي يخلطكم فرقاً مختلفين، أو يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط إتفاق وإذا كانوا كذلك فلا محالة صحّ قوله: يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ كما هو شأن الاختلاف، بالقتل والضرب والإهانة والإساءة وأمثالها (أنظر) يامحمد كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ أي لكي يفقهوا لأن معنى الشك لا يجوز عليه تعالى أعلم أن المفسرين اختلفوا في متعلق الخطاب بهذه الآية.

فقال الطبري ومن تبعه أن الخطاب للكفار بدليل نسق الآيات وقال أبي و أبو العالية و جماعة هي خطاب للمؤمنين قال أبي هن أربع عذاب قيل يوم

في القرآن  
في قوله  
لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ

جزء ٧

الجزء  
السادس

القيامة مضيت أثنان قبل وفاة الرسول بخمس و عشرين سنة وهما، لبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض، و ثنتان واقعتان لا محالة الخسف والرجم. وقال الحسن بعضها للكفار بعث العذاب من فوق ومن تحت، و سائرهما للمؤمنين و حين نزلت إستعاذ الرسول وقال في الثالثة هذه أهون أو هذه أيسر وإحتج بهذا من قال هي للمؤمنين قال رسول الله ﷺ سألت ربي أن لا يظهر على أمتي أهل دين غيرهم فأعطاني، و سألت ألا يهلكهم جوعاً فأعطاني و سألت أن لا يجمعهم على ضلالة فأعطاني و سألت أن لا يلبسهم شيعاً فمنعني ذلك انتهى.

والذي يختلج بالبال في المقام هو أن الخطاب عام يشمل الكافر والمؤمن وتخصيصها بأحدهما لا دليل عليه و قول الطبري أن الخطاب للكفار بدليل نسق الآيات بعيد عن الصواب بل نقول نسق الآيات يدل على عمومية الخطاب ألا ترى أن قوله تعالى<sup>(١)</sup>: **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ بِاللَّيْلِ** يشمل الكافر والمؤمن وهكذا:

وقاله تعالى: **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ.**

وقاله تعالى: **ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ.**

وقاله تعالى: **قُلْ مَنْ يُنَجِّبُكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَ النَّجْرِ.**

وقاله تعالى: **قُلْ اللَّهُ يُنَجِّبُكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ.**

فهذه هي الآيات التي قبل هذه الآية وأني نسق فيها يدل على أن الخطاب في قوله **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا** للكفار بل الأمر بالعكس فإن الأصول التي ذكرها الله تعالى في هذه الآيات تشمل الكل فالخطاب أيضاً إلى الكل ومحصل الكلام هو أن ظاهر هذه الآيات ومفاهيمها يأبى عن إرادة خصوص الكفار اذا عرفت هذا فنقول:

نَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِوَاسِطَةِ نَبِيِّهِ عَلَى أُمُورِ كُلِّهَا يَدُلُّ عَلَى قَاهِرَتِهِ وَقَادِرَتِهِ  
وَعِلْمِهِ وَبِالْجُمْلَةِ عَلَى أَنَّهُ الْمُتَّفَرِّدُ بِالرَّأْيِ لَا غَيْرَهُ وَأَنَّهُ هُوَ اللَّهُ الْقَاهِرُ الْقَادِرُ  
الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَقَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ الْكَلَامِ، قُلْ  
هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا ثُمَّ أَشَارَ إِلَى أَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَأَقْسَامِهِ  
عَلَى قَاعِدَةِ التَّفْصِيلِ بَعْدَ الْإِجْمَالِ وَعَدَّ مِنْهَا ثَلَاثَةً:

أَحَدُهَا: قَوْلُهُ: مِنْ فَوْقِكُمْ.

ثَانِيهَا: قَوْلُهُ: وَمِنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ.

ثَالِثُهَا: قَوْلُهُ: أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَجَمِيعَ أَقْسَامِ الْعَذَابِ يَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ  
الثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَذَابَ إِمَّا سَمَاوِيًّا، وَإِمَّا أَرْضِيًّا، وَإِمَّا  
اجْتِمَاعِيًّا، فَعَبَّرَ عَنِ الْأَوَّلِ بِقَوْلِهِ: مِنْ فَوْقِكُمْ وَعَنِ الثَّانِي بِقَوْلِهِ: وَمِنْ تَحْتَ  
أَرْجُلِكُمْ وَعَنِ الثَّلَاثِ بِقَوْلِهِ: أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا فَالْمُبَاحِثُ ثَلَاثَةً:

أَحَدُهَا: قَوْلُهُ: مِنْ فَوْقِكُمْ وَهُوَ الَّذِي عَبَّرْنَا عَنْهُ بِالْعَذَابِ السَّمَاوِيِّ وَيَدْخُلُ  
فِيهِ جَمِيعُ مَا ذَكَرَهُ الْمَفْسَّرُونَ مِثْلَ الْحِجَارَةِ الَّتِي أَمْطَرَهَا اللَّهُ عَلَى قَوْمِ لُوطَ وَ  
الطُّوفَانِ الَّذِي غَرَقَ بِهِ نُوحَ وَالزَّلْزَالَ وَالصَّوَاعِقَ وَأَمْثَالَهَا مِنَ الْآفَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَ  
يَدْخُلُ فِيهِ السَّلْطَانُ الْجَائِرُ أَيْضًا وَهَكَذَا الطَّاعُونَ وَالْوَبَاءُ وَالْأَمْرَاضُ الْمُهْلِكَةُ.  
ثَانِيهَا: قَوْلُهُ: وَمِنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمُ الْمَعْبَرُ عَنْهُ بِالْعَذَابِ الْأَرْضِيِّ كَالْخَسْفِ  
وَسَفَلَةِ السَّوَاءِ وَخِدْمَتِهِ وَجَمِيعِ الْآفَاتِ الْأَرْضِيَّةِ.

ثَالِثُهَا: الْعَذَابُ الْاجْتِمَاعِيُّ وَالْيَهْ إِشَارَةٌ بِقَوْلِهِ: أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا أَيِ  
يَجْعَلُكُمْ فِرْقًا لَا تَكُونُونَ شِيعَةً وَاحِدَةً إِذَا كُنْتُمْ مُخْتَلِفِينَ قَاتِلِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَ  
هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: وَيَذْبِقَ بَعْضُكُمْ بِأَسِّ بَعْضٍ وَهَذَا الْقِسْمُ مِنَ الْعَذَابِ هُوَ  
الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَلْبِسَهُمْ شِيْعًا  
فَمَنْعَنِي ذَلِكَ، وَلَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ ذَهَبَ الطَّبْرِيُّ وَمَنْ تَبَّعَهُ إِلَى أَنَّ الْآيَةَ خُطَابٌ  
لِلْكَافِرِ فَقَطْ مَعَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَيْضًا دَاخِلُونَ فِيهِ أَلَا تَرَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِفْتَرَقُوا

بعد تبئهم على ثلاثة وسبعين فرقة كلَّها في النَّارِ إلا فرقة واحدة هي في الجنَّة و  
مع ذلك يذيق بعضهم بأس بعض في الدُّنيا بالقتل والضَّرْب والهلاك يشهد  
بذلك التَّاريخ ونراه بالعين في زماننا هذا وهكذا الكلام في القسم الأوَّل و  
الثَّاني من العذاب المذكور في الآية فَإِنَّ الْآفَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ قَدْ شَمِلَتْ  
جَمِيعَ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ وَفِي الْمُسْلِمِينَ أَكْثَرَ وَالْإِنِّ هَذَا أَشَارَ بِقَوْلِهِ: **أَنْظُرْ  
كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ** أَي لِكَيْ يَفْقَهُوا وَيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى  
لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ وَالَّذِي وَقَعُوا فِيهِ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ كَمَا قَالَ: **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ  
الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا  
فَأَخَذْنَا مِنْهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**<sup>(١)</sup> وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ فِي هَذَا الْبَابِ فِي سُورَةِ  
الْأَعْرَافِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.



وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ  
 بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ  
 (٦٧) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا  
 فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ  
 وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى  
 مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ  
 مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ  
 يَتَّقُونَ (٦٩) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ  
 لَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ  
 نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ  
 لَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا  
 أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ  
 حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

### ◁ اللّٰغَةُ

يَخُوضُونَ، الخَوْضُ التَّخْلِيطُ فِي المَعَاوِضَةِ عَلَى سَبِيلِ اللَّعِبِ وَ  
 تَرَكَ التَّهْمَ وَالْيَقِينَ يُقَالُ تَرَكَ الْقَوْمَ يَخُوضُونَ أَي لَيْسُوا عَلَى سَدَادٍ فَهَمْ  
 يَذْهَبُونَ وَيَجِثُونَ مِنْ غَيْرِ تَحْقِيقٍ.

تُبْسَلُ بِضَمِّ التَّاءِ وَسُكُونِ البَاءِ وَفَتْحِ السَّيْنِ عَلَى مَا لَمْ يَسْمُ فَاعِلُهُ وَالمَصْدَرُ  
 مِنْهُ الْإِبْسَالُ وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَبْسَلُ أَي تَرَهَنَ وَيَسْلَمُ لِعَمَلِهِ وَقِيلَ مَعْنَاهُ، تَجَاوَزَ،  
 مِنْ أُبْسَلَ إِسْلَالًا.

## ﴿الإعراب﴾

كَسْتُ عَلَيْكُمْ عَلَى، متعلق بقوله، وكيل ويجز على هذا أن يكون حالاً عنه على قول من أجاز تقديم الحال على حرف الجر مُسْتَقَرًّا مبتدأ والخبر الظرف قبله أو فاعل والعامل فيه الظرف وهو مصدر بمعنى الاستقرار ويجوز أن يكون بمعنى المكان مِنْ شَيْءٍ قِيلَ، من زائدة وَمِنْ حِسَابِهِمْ حال والتقدير شيء من حسابهم وَلَكِنْ ذِكْرِي فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ أَي وَلَكِنْ نَذَرَهُمْ ويجوز أن يكون في موضع رفع، أي هذا ذكرى، أو عليهم ذكرى أَنْ تُبْشَلَ مفعول له أي مخافة أن تبسل لَيْسَ لَهَا فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ صفة لنفس ويجوز أن تكون الجملة في موضع حالٍ مِنَ الضمير في، كسبت، وأن تكون مستأنفة مِنْ دُونِ اللَّهِ في موضع الحال أي ليس لها ولي من دون الله كُلُّ عَذَلٍ إِنْصَابٌ، كل على المصدر لأنها في حكم ما تضاف إليه وَأُولَئِكَ مُبْتَدَأٌ جُمِعَ عَلَى الْمَعْنَى والخبر، الَّذِينَ أَسْلَمُوا فَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ لَهُمْ شَرَابٌ فِيهِ وَجْهَانِ: أحدهما: هو حال مِنَ الضمير في أسلموا.

الثاني: هو مستأنف والوجه الآخر أن يكون الخبر، لهم شراب، والذين أسلموا، بدل من أولئك أو نعت أو يكون خبراً أيضاً، لهم شراب، خبراً ثانياً.

## ﴿التفسير﴾

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ اإِخْتَلَفُوا فِي مَرْجِعِ الضَّمِيرِ فَقَالَ السُّدِّيُّ عَائِدٌ عَلَى الْقُرْآنِ الَّذِي فِيهِ جَاءَ تَعْرِيفُ الْآيَاتِ وَالْمَعْنَى كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ قَوْمُكَ وَالحال أنه أي المكذَّب وهو القرآن حق.

وقال الزمخشري أنه عائد إلى العذاب وهو الحق أي لا بد أن ينزل بهم. وقال ابن عطية يعود على الوعيد الذي تضمنته الآية ومال إليه الطبري. وقيل يعود على النبي ﷺ وهذا القرب مخاطبته بعد ذلك بالكاف قُلْ

لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ أَي لست بقائم عليكم لإكراهكم على التوحيد، وقيل معناه لا أقدر على منعكم من التكذيب إجباراً أتأنا منذر.

وقيل معناه لا أقدر على دفع الضرر عنكم بأن أحفظكم من ذلك وأن أحول بينكم وبينه لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٍّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ قيل هذه الآية نزلت بمكة قبل أن يؤمر رسول الله بالقتال ثم أمر فيما بعد ذلك ولأجل هذا أمره الله أن يخبرهم أن لكل نبأ، وخبر يخبرهم به مستقر أي وقته الذي يعلمون فيه صحة ما وعدهم به وحقيقته إما في الدنيا وإما في الآخرة، وسوف تعلمون صحة الخبر من العذاب، فوقت كون هذا العذاب هو مستقر الخبر.

قال السدي استقر نبأ القرآن بما كان يعدهم من العذاب يوم بدر وقال مقاتل منه في الدنيا يوم بدر وفي الآخرة جهنم، وفي قوله: سَوْفَ تَعْلَمُونَ مبالغة في التهديد والوعيد فيجوز أن يكون تهديداً بعذاب الآخرة وأن يكون تهديداً بالحرب وأخذهم بالإيمان على سبيل القهر والإستيلاء.

وإعلم أن قوله: وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ المراد به الخصوص وذلك لأن في قومه جماعة صدقوا به فالحكم باعتبار الأغلب.

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ

الخطاب في الآية للنبي ﷺ ويدخل فيه المؤمنون أيضاً قيل لأن علّة النهي وهو سماع الخوض في آيات الله يشملهم وإياهم، وقيل هو خاص بتوحيده لأن قيامه عنهم كان يشق عليهم وفراقه على مغاضبه والمؤمنون عندهم ليسوا كهو، وقيل خطاب للسامع.

وأما قوله: الَّذِينَ يَخُوضُونَ فالمراد به المشركون أو اليهود، أو أصحاب الأهواء، والمراد بالرؤية هنا بالبصر ولذلك تعدت إلى واجد ولا بد من تقدير

حالٍ محذوفة، أي وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا وهم خائضون فيها و بعبارة أخرى وإذا رأيتهم متلبسين بهذه الحالة.

وقال بعضهم، الرؤية علمية لأن الخوض في الآيات ليس مما يدرك بحاسة البصر وهذا بعيد لأنه يلزم منه حذف المفعول الثاني من باب علمت فيكون التقدير وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا خائضين فيها، وحذفه إقتصاراً لا يجوز وإختصاراً عزيز جداً حتى أن بعض النحويين منعه، ثم أن الخوض في الآيات كناية عن الإستهزاء بها والطعن فيها.

وقيل المراد به تكذيب الآيات وأصل الخوض التخليط في المفاوضة على سبيل العبث واللعب وترك التفهم واليقين يقال تركت القوم يخوضون، أي ليسوا على سداد فهم يذهبون ويجيئون من غير تحقيق ولا قصد للواجب، أمره الله حينئذ أن يعرض عنهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره لأن من حاج من هذه حاله وأراد التبيين له فقد وضع الشئ في غير موضعه و حط من قدر الدعاء والبيان والحجاج.

نقل الواحدي أن المشركين كانوا إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في رسول الله ﷺ والقرآن فشمئزوا وإستهزؤا فأمرهم أن لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره.

وَأِمَّا يُنَسِّئَكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

قرأ ابن عامر بتشديد السين والباقون بالتخفيف والمعنى وأن شغلك الشيطان بوسوسته حتى تنسي النهي عن مجالستهم فلا تقعد معهم بعد الذكر أي بعد ذكرك النهي.

قال الزمخشري ويجوز أن يراد، وأن كان الشيطان ينسينك قبل النهي قبح مجالسة المستهزين لأنها مما تنكره العقول فلا تقعد بعد الذكر أي بعد أن ذكرناك قبحها ونبهاك عليه معهم انتهى.



وقال الطبرسي رحمته الله المعنى، وأن أنساك الشيطان نهينا إياك عن الجلوس معهم ثم قال ويسأل على هذا فيقال كيف أضاف النسيان إلى الشيطان وهو فعل الله تعالى والجواب أنما أضافه إليه لأنه تعالى أجرى العادة بفعل النسيان عند الإعراض عن الفكر وتراكم الخواطر الرديئة والوساوس الفاسدة من الشيطان فجاز إضافة النسيان إليه لما حصل عند فعله كما من ألقى غيره في البرد حتى مات فإنه يضاف الموت إليه لأنه عرضه لذلك وكان كالسبب فيه انتهى كلامه.

قال الراغب في المفردات، النسيان ترك الإنسان ضبط ما إستودع، إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره انتهى.

إذا عرفت معنى النسيان فنقول في المقام سؤال، وهو أنه قد ثبت عندنا عقلاً ونقلاً عدم جواز السهو والنسيان والخطأ وأمثالها على النبي والإمام لمكان العصمة فيهم وذلك لأن المعصوم من عصمه الله من الزلل والخطأ، وظاهر الآية يدل على جواز النسيان على النبي صلوات الله عليه وآله حيث قال تعالى، وإما ينسيك الشيطان.

ثانياً: يلزم تسلط الشيطان على النبي كما هو مسلط على غيره وهو كما ترى ينافي العصمة، وقد أجابوا عنه بوجه:

أحدها: ما ذهب إليه الطبرسي في تفسيره لهذه الآية قال رحمته الله وأما النسيان والسهو فلم يجزّهما عليهم فيما يؤدّونه عن الله فأما ما سواه فقد جوزوا عليهم أن ينسوه أو يسهوا عنه ما لم يؤد ذلك إلى إخلال بالعقل وكيف لا يكون كذلك وقد جوزوا عليهم النوم والإغماء وهما من قبيل السهو انتهى كلامه.

أقول الظاهر من مذهب الإمامية عدم جواز السهو والنسيان والخطأ عنهم مطلقاً فإن المعصوم لا يكون ساهياً ولا ناسياً فالتفصيل بين ما يؤدّونه عن الله وما لا يؤدّونه عنه لا دليل عليه اللهم إلا أن يقول القائل بعصمتهم فيما يؤدّونه

عن الله وبعدهما في غيره ولم يقل به أحد من الإمامية فَأَنَّ المعصوم معصوم من حين ولادته الى وفاته نعم ذهب كثير من العامة الى أَنَّ النَّبِيَّ كان معصوماً بعد البعثة وأما قبلها فلا.

وقال بعضهم بعصمته بعد البعثة فيما يؤدّيه عن الله من الأحكام وأما في غيره فلا واستدلوا على ما ذهبوا اليه بحديث نسيان الرسول ﷺ في الصلاة و أمثاله من الأحاديث التي رووه في كتبهم عن أبي هريرة و أمثاله.

وأما العصمة في حقّ الأوصياء فهم لا يقولون بها مطلقاً، وهذا بخلاف الإمامية فأنا نعتقد عصمة النبي والأئمة الاثني عشر في جميع الموارد في الأحكام وغيرها اذا عرفت هذا فنقول:

قول الطبرسي رحمه الله بتجوز السهو والنسيان عليهم ما لم يؤدّ ذلك الى إخلال العقل لا نفهم معناه ضرورة أَنَّ السهو والنسيان لا يجتمعان مع وجود العقل وحضوره وهكذا قوله وقد جَوَّزوا عليهم النوم والإغماء وهما من قبيل السهو، وذلك لأنّ النوم يجوز عليهم كما أَنَّ الموت يجوز عليهم و قياس السهو على النوم والموت قياس مع الفارق ألا ترى أَنَّ النائم ما دام كونه نائماً لا تكليف له. وأما الإغماء في حقّ المعصوم فهو أول الكلام ولا نعلم من جَوَّز الإغماء على النبي والإمام والمغمى عليه في حال الإغماء لا عقل له ولا شعور ومحصل الكلام هو عدم جواز السهو والنسيان والخطأ و أمثالها عليهم لمنافاتها مع العصمة وللبحث فيه مقام آخر.

**ثانيها:** ما ذهب اليه بعض المفسرين وحاصله أَنَّ الخطاب للنبي و المقصود غيره من الأمة وقد تقدّم في البحث عن عصمة الأنبياء عليهم السلام ما ينفي وقوع هذا النوع من النسيان ثم قال ويؤيد ذلك عطف الكلام في الآية التالية على المتقين من الأمة حيث يقول وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء، الى آخر ما قال انتهى كلامه.

**أقول** ما ذكره تفسير من الوجه في الآية ليس فيه كثير إشكال لوجود نظائره في كثير من الآيات وعليه فهو من قبيل إياك أعني وأسمعي يا جارة إلا أنه يوجب المجاز وحيث يمكن حمل الكلام على معناه الحقيقي فترك المجاز أولى.

فالأحسن في الجواب هو أن يقال أن الآية خطاب للسامع لا للرَسُول والمعنى اذا رأيت أيها السامع أن المشركين أو اليهود أو أصحاب الأهواء خاضوا في آياتنا فأعرض عنهم ولا تقعد معهم حتى يخوضوا في حديث غيره فإن أنساك الشيطان ذلك، **فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** وذلك لأن المكلف معذور في حالتي السهو والنسيان.

ولقول الرسول ﷺ رفع عن أمتي تسعة، وعد منها السهو والنسيان.

**وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**

كلمة، ما، نافية، والمعنى ليس على المتقين من حسابهم أي من حساب الكافرين والمشركين الخائفين في آيات الله بطريق الاستهزاء والتكذيب، من شيء من المكروه اذ لا تزر وازرة وزر اخرى.

وقيل معناه ليس على المتقين من الحساب يوم القيامة مكروه ولا تبعة ولكن الله أعلمهم بأنهم محاسبون وحكم بذلك عليهم لكي يعلموا أن الله محاسبهم فيتقوا فعلى الأول الهاء والميم في، حسابهم، كناية عن الكفار وعلى الثاني عن المؤمنين وقوله ولكن ذكرى، أي نهوا عن مجالستهم ليزدادوا تقى وأمروا أن يذكروا الكفار والمشركين لكي يتقوا اذا رأوا إعراض هؤلاء المؤمنين عنهم.

فعن الباقر عليه السلام قال، لما نزلت **فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** قال المسلمون كيف نصنع فلا ندخل اذ المسجد الحرام ولا نطوف بالبيت الحرام فأنزل الله، **وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ** وأمرهم

بتذكيرهم وتبصيرهم ما استطاعوا فإن الله تعالى لا يكف الله نفساً إلا وسعها ولما أمر الله تعالى نبيه أو السامع بالإعراض عن هؤلاء الكفار بقوله: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ أمره ثانياً بترك مجالستهم و معاشرتهم بالكلية فقال: وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوَاً وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا أي دع هؤلاء الكفار الذين إتخذوا دين الله لعباً ولهواً، فلا معنى لمحااجة من كانت هذه سبيله لأنه لا عبّ عابث فلا يصغي لما يقول ولا يصغي هو لما يقال له وقد قطع الله عذرهم بقوله: وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا يقال غررت فلاناً أصبت غرته و نلت منه ما أريده والغرة غفلة في اليقظة و الغرار غفلة مع غفوة وأصل ذلك من الغر وهو الأثر الظاهر من الشيء ومنه غرة الفرس و غرار السيف أي حدّه فالغرور ما يغرّ الإنسان من مالٍ و جاء وشهوة و شيطانٍ و قد فسّر بالشيطان اذ هو أخبث الغارين.

وبالدنيا لما قيل، الدنيا تغرّ و تضرّ و تمرّ:

قال الله تعالى: وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللّهِ الْغُرُورُ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: يَعِدُهُمْ وَيُمَبِّتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا<sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا<sup>(٤)</sup>.

و غيرها من الآيات ولأجل ذلك لا يتّصف به المؤمن لأن إيمانه وبصيرته في الدّين يمنعه منه و أمّا الكافر فهو موصوف به دائماً لأن منشأ الكفر الغرور قال الله تعالى: إِنَّ الْكَافِرِينَ فِي غُرُورٍ<sup>(٥)</sup> ففي قوله: وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إشارة الى إستيلاء حبّ الدنيا عليهم بحيث أعرضوا عن الدّين و إستغلوا بها ليتّوصلوا الى حطامها و زخارفها ولم يعلموا أنّ الحياة الدّنيا لا بقاء لها زخارفها

٢- لقمان = ٣٣ و فاطر = ٥

٤- الإسراء = ٤٤

١- آل عمران = ١٨٥ والحديد = ٣٠

٣- النساء = ١٢٠

٥- الملك = ٢٠

من المال والجاء والصحة والعزة وأمثالها وما كان كذلك كيف يعتمد العاقل عليه أليست الدنيا وما فيها في معرض الزوال والفناء قال الشاعر:

أنا الدنيا كظِّل زائلٍ أو كضيفٍ بات فيها وإرتحل  
قال أمير المؤمنين عليه السلام فإن الدنيا رنق مشربها، ردغ مشرعها، يونق مخبرها، غرور حائل، وضوء أفل، وظل زائل، وسناد مائل الخ<sup>(١)</sup>.

وقال عليه السلام ولأفئتم دنياكم هذه أزهدي عندي من عطفة عنز<sup>(٢)</sup>.  
وقال عليه السلام والله لدنياكم هذه أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجزوم<sup>(٣)</sup>.

وقال عليه السلام الركون إلى الدنيا مع ما تعاني منها جهل<sup>(٤)</sup>.  
ثم أمر الله نبيه فقال: وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعَ الْهَاءِ فِي قَوْلِهِ: بِهِ يرجع إلى القرآن وقيل إلى الحساب أي ذكرهم بالقرآن أو بالحساب لكي لا تبسل نفس بما كسبت أي تدفع إلى الهلكة على وجه الغفلة وتسلم لعملها غير قادرة على التخلص يقال: استبسل للموت أي رأى ما لا يقدر على دفعه وإتفقوا على أن تبسل في موضع المفعول من أجله وقدرُوا كراهة أن تبسل ومخافة أن تبسل ولئلا تبسل.

وقيل معنى تبسل، ترهن، وتسلم لعمله وأما قوله: لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعَ ففيه إشارة إلى أن الأمور كلها بيد الله أن شاء غفر وأن شاء عذب فهو الحكم العدل لا غيره يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا قَالُوا أَيْ وَإِنْ تَدْكُلْ فداء والعدل الفدية لأن الفادي يعدل الفداء بمثله ونقل عن أبي عبيدة أن المعنى بالعدل

فناء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

هنا ضدّ الجور وهو القسط أي وإن تقسط كلّ قسطٍ بالتّوحيد والإنقياد بعد العناد، وضَعَفَ هذا القول الطّبري بالإجماع على أنّ توبة الكافر مقبولة، وفيه أنّ التّوبة مقبولة في الحياة الدّنيا وأما في الآخرة فلا والمعنى لا يقبل منها في ذلك اليوم الَّذي ليس لهؤلاء الكفّار ولي ولا شفيع.

**أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ**

أي أنّ هؤلاء الكفّار يجازون بما كسبوا بأيديهم في دار الدّنيا وإنّ لهم شراباً من حميمٍ وعقاباً أليماً، بما كانوا يكفرون.

قال بعض المفسّرين أي لهم شراب من حميم وهو الشّديد الحرارة ويطلق على الشّديد البرودة أيضاً وعذابٌ شديد الألم بسبب كفرهم الَّذي ظلّوا مستمرّين عليه طول حياتهم، أو التّقدير، أولئك المبلسون بكسبهم لهم شرابٌ من حميمٍ وعذاب أليم بإستمرارهم على كفرهم وبهذا ظهر الفرق بين التّعليل الأوّل بالكسب والتّعليل الثّاني بالكفر فالأوّل ذكر بصيغة الماضي والثّاني بصيغة المستقبل الدّال على الإستمرار فلولا رسوخهم بالكفر الَّذي أفسد فطرتهم حتّى أصرّوا عليه إصراراً دائماً دلّ على أنّه لم يبق فيهم إستعداد للحقّ والخير لما كان مجرّد كسب بعض السيّئات المنقطعة ينهض سبباً لهلاكهم وقوعهم في العذاب كلّهُ وفي الآية أكبر العبر لمن يفقه الكلام ولا يغترّ بلقب الإسلام فإنّ المسلم لا يغترّ بالأمانى والأوهام انتهى.



قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا  
وَنُردُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي  
اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ  
أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتُنَبِّئُكُمْ إِنَّ هُدَىٰ  
اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ  
(٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي  
إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ  
الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ  
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)

### ◀ اللغة

اسْتَهْوَتْهُ أي إستمالت به، ذهبت به يقال أهوته وإستهوته فهو من قولهم  
هوى من حالي إذا تردى منه أي زلَّ عن الطريق المستقيم.

### ◀ الإعراب

أَدْعُوا الإِسْتِفْهَام بمعنى التَّوْبِيخِ و (ما) بمعنى الَّذِي أو نكرة موصوفة و  
مِنْ دُونِ اللَّهِ متعلق بَدْعُوا ولا يجوز أن يكون حالاً من الضَّمير في، يَنْفَعُنَا  
مفعولاً لينفعنا لَتَقْدِمَهُ عَلَى، ما، والصَّلَاةُ والصَّفَّةُ لا تعمل فيما قبل الموصوف  
والموصول و نُردُّ معطوف على، ندعوا و عَلَىٰ أَعْقَابِنَا حال من الضَّمير في،  
نُردُّ، أي نُردُّ منقلبين أو متأخرين كَالَّذِي الكاف حال من الضَّمير في، نُردُّ، أو  
بدل من، على أعقابنا، أي مشبهين للذي إستهوته ويجوز أن تكون صفة  
لمصدر محذوف أي ردَّ الذي إستهوته في الْأَرْضِ متعلقة بإستهوته أو حال

من حَيْرَانٍ أَي حيران كائناً في الأرض و يجوز أن يكون حالاً من الضمير في حيران، وأن يكون حالاً من الهاء في إستهوته، و حيران، حال من الهاء أو من الضمير في الظرف لَهُ أَصْحَابٌ يجوز أن تكون مستأنفة و أن تكون حالاً من الضمير في حيران، أو من الضمير في الظرف أو بدلاً من الحال التي قبلها آتَيْنَا أَي يقولون، آتينا، لنسلم، أي أمرنا بذلك لنسلم أَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ أَنْ مَصْدَرِيَّة و هي معطوفة على لنسلم، و التقدير و قل أن أقيموا، وَيَوْمَ يَقُولُ معطوف على الهاء في إَتَقَوْهُ أَي و إَتَقُوا عذاب يوم يقول و قيل هو معطوف على السَّمَوَاتِ أَي خلق يوم يقول، و قيل هو خبر قَوْلُهُ الْحَقُّ أَي و قوله الحقَّ يوم يقول و الحقَّ، صفة لقوله و قيل هو ظرف لمعنى الجملة التي هي قوله الْحَقُّ يَوْمَ يَنْفُخُ جِوْزُ أَنْ يكون خبر قوله على ما ذكرنا و أن يكون ظرفاً للملك أو حالاً منه عَالِمُ الْغَيْبِ يجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف و أن يكون فاعل يقول، كن، و أن يكون صفة للذي.

### ◀ التفسير

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا قلنا أَنَّ الهمزة الإستفهامية للتوبيخ و الإنكار أي لا يقع شيء من هذا، قال الله تعالى مخاطباً لنبيه، قل، يا محمد، أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ، المبدع للأشياء القادر على كل شيء، ما لا يقدر على النفع و الضر، لا يكون ذلك أبداً، لَأَنَّ الأصنام التي كانوا يعبدونها كانت من خشبٍ أو حجارةٍ و من المعلوم أنَّ الجماد لا شعور لها و ما لا شعور له كيف يقدر على الضرر و النفع و ما كان كذلك فوجوده كالعدم و العاقل لا يعبد ما لا نفع فيه.

أَنْ قُلْتُ سَلَّمْنَا أَنَّ الأصنام لا تنفعنا و أمَّا أَنَّهُ لَا تَضُرُّنَا فليس كذلك اذ لا شك أَنَّ عبادة الأصنام تَضُرُّنَا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ، و لذلك نهينا عنها فحقَّ العبارة أن يقال ما لا ينفعنا بل يَضُرُّنَا.



قلنا ليس معنى الكلام، ما لا تنفعنا ولا تضرنا عبادته كما ظننت بل المعنى ما لا تنفعنا عبادته ولا تضرنا ترك عبادته ويظهر من كلمات المفسرين أنَّ معنى الكلام ما لا يقدر على إيصال النفع والضرر بالنسبة إلى العابد أي كما أنه لا يقدر على النفع لا يقدر على الضرر.

قال الزمخشري في المقام قل أندعوا، العبد من دُونِ اللَّهِ الضار النافع ما لا يقدر على نفعنا ولا مضرنا انتهى.

و ظاهر هذه العبارة أنَّ الله تعالى هو الضار النافع فهو قادر على نفعنا و مضرنا.

و أمَّا غيره كائنًا ما كان فلا يقدر على نفعنا و مضرنا و لذلك لا ندعوه و كيف كان فالمقصود من الآية هو أنَّ العاقل لا يعبد شيئاً وجوده كعدمه من حيث الضرر و النفع و ذلك لأنَّ كلَّ فعلٍ يصدر من الفاعل العاقل لا يخلو حاله من قسمين.

جلب المنفعة، أو دفع المضرّة فما كان خارجاً منهما يعدّ من العبث و اللغو و ما نحن فيه من هذا القبيل إذ عبادة الأصنام لا تجلب منفعةً و لا تدفع مضرّة فهي داخلة في اللعب و اللغو و فاعلها بالمجانين أشبه و قد ثبت أنَّ الجنون فنون.

و تَرُدُّ عَلَيَّ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ و ذلك لأنَّ النَّاس كانوا في عهد الجاهلية يعبدون الأصنام ثم صاروا موحدين بعد ظهور الإسلام و معنى التوحيد هو العبودية لله تعالى و ترك العبودية لجميع ما سواه كما هو معنى كلمة، لا إله إلا الله ففي، لا إله، نفى الآلهة جميعاً و في قوله إلا الله إثبات الألوهية له تعالى فقط أي لا معبود في عالم الوجود إلا الله تعالى و إن شئت قلت معناه لا ندعوا إلا الله فمن دعى غيره بالعبودية.

بعد إسلامه فقد رجع إلى وراءه أي إلى عهد الجاهلية و هذا هو المراد بالرّد على الأعقاب في قوله: و تَرُدُّ عَلَيَّ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ إلى الإسلام:

قال الله تعالى: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ  
أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ  
شَيْئًا وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: إِلَّا يَنْغَلِمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ<sup>(٢)</sup>.

كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ  
إِلَى الْهُدَى آتَيْنَا

إن جعلنا الكاف في قوله: كَالَّذِي حالاً من الضمير في، نَرَد، أو بدل من  
أعقابنا صار المعنى، مشبهين للذي استهوته الشياطين، و أن جعلناها صفة  
لمصدرٍ محذوفٍ وهو الرَد.

فالمعنى نَرَد على أعقابنا أي ردّاً مثل ردّ الذي استهوته الشياطين في  
الأرض حيران وعلى أيّ تقديرٍ فالذي ردّ على عقبه صار في الحيرة كالذي  
استهوته الشياطين في الأرض حيران، لا يهتدي إلى طريق ولا معرفة تائهاً  
ضالاً عن الجادة لا تدري كيف يصنع، وله، أي لهذا المستهوي أصحاب رفقه،  
يدعوناه إلى الهدى والطريق المستقيم، إئتنا، أي يقولون له إئتنا، وهو لا يقبل  
منهم يصير اليهم، قال ابن عباس مثل عابد الصنم مثل من دعاه الغول فيتبعه  
فيصبح وقد ألقته في مهمةٍ ومهلكة فهو حائر في تلك المهمة انتهى.

وأعلم أنّ قوله: اسْتَهْوَتْهُ فِيهِ قَوْلَان:

أحدهما: أنّه من الهوى الذي هو المودة والميل و عليه فكأنّه قيل كالذي  
أمالته الشياطين عن الطريق الواضح إلى المهمة القفر وهذا هو الذي إختاره  
صاحب الكشف.

ثانيهما: ما إختاره أبو عليّ وهو أنّه من الهوى وهو السقوط من علو إلى  
سفلٍ و عليه فالمعنى ألقته الشياطين في هوةٍ أي في الضلالة والسقوط قُلْ إِنَّ

هُدًى إِلَهُ هُوَ الْهُدَى وَ أَمَرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ آلْعَالَمِينَ ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَقُولَ لَهُؤَلَاءَ الْكَفَّارُ، أَنْ هُدًى إِلَهُ هُوَ الْهُدَى، أَي دَلَالَةُ اللَّهِ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَأَمْرٍ دِينِهِ وَأَرَاتِهِ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ الَّذِي يُؤَدِّي الْمُسْتَدَلَّ بِهِ إِلَى الْفَلَاحِ وَالرُّشَادِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَعْمَلَ عَلَيْهِ وَيَسْتَدَلَّ بِهِ هَكَذَا قِيلَ وَقَوْلُهُ: أَمَرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ آلْعَالَمِينَ.

قالوا أمرنا أن نسلم أمورنا لله رب العالمين وأن نفوضها إليه ونَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ لَا عَلَى غَيْرِهِ مِمَّا يَعْبُدُهُ الْمُشْرِكُونَ.

قال الزَّمَخْشَرِيُّ قِيلَ نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ حِينَ دَعَاهُ ابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ كَلَامِهِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ فَأَنْ قُلْتَ فَإِذَا كَانَ هَذَا وَارِدًا فِي شَأْنِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ فَكَيْفَ قِيلَ لِلرَّسُولِ ﷺ قُلْ أُنَدِّعُوا. قُلْتَ لِلِاتِّحَادِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ خُصُوصًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّدِيقِ أَبِي بَكْرٍ انْتَهَى كَلَامُهُ.

أَقُولُ أَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ أَبِي بَكْرٍ وَابْنِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ حِينَ دَعَاهُ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فَهُوَ لَا يَصَحُّ بِشَهَادَةِ جَمِيعِ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ. وَأَمَّا الْخُصُوصِيَّةُ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا فِي كَلَامِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ فَلَمْ يَوْضَحْهَا لَنَا لَنَعْلَمَ مَا هِيَ وَلَعَلَّهُ أَرَادَ بِهَا كَوْنَهُ فِي الْغَارِ مَعَهُ إِذْ لَا فَضِيلَةَ لِأَبِي بَكْرٍ سِوَى مُصَاحَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَارِ وَأَعْجَبَ مِنْهُ مَا ذَكَرَهُ أَبُو حَيَّانَ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ قَالَ مَا هَذَا لَفْظُهُ.

وَحَكَى مَكِّي وَغَيْرُهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالَّذِي إِسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ وَبِالْأَصْحَابِ أَبُوهُ وَأُمُّهُ وَذَكَرَ أَهْلُ السَّيَرِ أَنَّهُ فِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ دَعَى أَبَاهُ أَبَا بَكْرٍ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَكَانَ أَكْبَرَ وَلَدِ أَبِي بَكْرٍ وَشَقِيقُ عَائِشَةَ أُمُّهُمَا أُمُّ رُومَانَ بِنْتِ الْحَرِثِ بْنِ غَنَمِ الْكِنَانِيَّةِ وَشَهِدَ بَدْرًا وَأَحَدَ مَعَ قَوْمِهِ كَافِرًا وَدَعَى إِلَى الْبِرَازِ فَقَامَ إِلَيْهِ أَبُوهُ أَبُو بَكْرٍ لِيَبَارِزَهُ فَذَكَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ مَتَّعْنِي بِنَفْسِكَ انْتَهَى مَوْضِعُ الْحَاجَةِ مِنْ كَلَامِهِ.

فِيهِ الْقُرْآنُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٧

المجلد السادس

**أقول** قد ذكرنا أن المفسرين أنكروا نزول الآية في أبي بكر والوجه فيه ظاهر إذ كيف يمكن حمل الأصحاب في الآية على الأب والأم كما ذكره القائل و أظن أن غرض الناقل من نقل هذه القضية المختلفة المجعولة هو إثبات فضيلة لأبي بكر وأنه كان من أهل المبارزة ولو كان الكافر ابنه لصلايته في دينه وشدة إيمانه إلا أنه ذكر قول رسول الله ﷺ متعني بنفسك، فقدّم قول الرسول على البراز ولم يعلم القائل أن هذه القصّة التي ألقاها الشيطان في ذهن القائل تنافي العقل والشرع.

**أما العقل** فواضح لأن الرسول مؤيد من عند الله فلا يعتمد على الخلق كائناً من كان وبعبارة أخرى إعماده على الخلق ينافي توكله على الله وقد قال الله تعالى: **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** <sup>(١)</sup>.

**أما الشرع** فلأن الجهاد في زمانه حضور الإمام واجب قطعاً ولم يخالف فيه أحد من المسلمين فنقول:

أما أن يكون الجهاد واجباً على أبي بكر في عهد الرسول لوجود الشرائط فيه.

وأما غير واجب عليه لعدم وجود الشرائط فيه لا سبيل إلى الثاني لأن الناقل لا يقول به.

**على الأول:** يلزم أن يكون الرسول أمراً بترك الجهاد الواجب على المكلف كما ترى ومحصل الكلام هو أن أبا بكر أن كان قادراً على الجهاد واجداً لشرائطه فكيف نهى الرسول ﷺ عن فعل الواجب ثم كيف رجّح أبو بكر أمر النبي على أمر الله، وأن لم يكن قادراً فلا معنى لقوله ﷺ متعني بنفسك لأن الجهاد على غير القادر عليه مثل المريض والمجنون والصغير والشيوخ حرام فلا يحتاج إلى قوله ﷺ متعني بنفسك وأن قال له الرسول متعني بنفسك في غير الجهاد مثلاً فهو أمر آخر فكان أبو بكر عاصياً بتركه

الجهاد لأن المفروض أن الرسول ﷺ قال له متعني بنفسك، في غير الجهاد فلا شيء ترك أبو بكر الجهاد، والمقصود أن بهذه المجعولات لا يمكن إثبات فضيلة لأبي بكر لغيره فأفهم وأغتنم.

فإن الغريق يتشبث بكل حشيش أعاذنا الله من العناد وأن أقيموا الصلوة وآتقوه وهو الذي إليه تحشرون أن هنا مصدرية بلا خلاف والواو عاطفة إلا أنهم اختلفوا فيما عطف عليه قال الزجاج هو معطوف على قوله: لنُسَلِّمَ تقديره، لأن نسلم ولأن أقيموا.

وقال ابن عطية اللفظ يمانعه لأن، نسلم معرب وأقيموا مبني وعطف المبني على المعرب لا يجوز لأن العطف يقتضي التشريك في العامل انتهى كلامه. وقد أجابوا عنه بأنه لا دليل على عدم الجواز بل الأمر بالعكس لقولهم قام زيد وهذا وقال تعالى: يَفْقَدُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ<sup>(١)</sup> غاية ما في الباب أن العامل إذا وجد المعرب أثر فيه وإذا وجد المبني لا يؤثر فيه، وقد أجازوا أن قام زيد ويقصدني أحسن إليه، بجزم يقصدني مع أن (أن) لم تؤثر في مقام لأنه مبني وأثرت في يقصدني لأنه معرب وقال بعضهم وأن أقيموا بمعنى (وليقيم) ثم خرجت بلفظ الأمر لما في ذلك من جزالة اللفظ فجاز العطف على أن نلغي حكم اللفظ ونعول على المعنى هذا محصل كلماتهم في الباب وأنت ترى أنهم وقعوا في الإشكال لأنهم أرادوا بقاء، أن أقيموا، على معناها من موضوع الأمر ولم يعلموا أن (أن) إذا دخلت على فعل الأمر وكانت مصدرية انسبك منها ومن الأمر مصدر وإذا انسبك منهما مصدر زال منها معنى الأمر قال سيبويه تقول كتبت إليه بأن قم، أي بالقيام وعليه فقوله: لنُسَلِّمَ وأن أقيموا في تقدير، للإسلام ولأقامة الصلاة أي أمرنا بهما وهذا مما لا إشكال فيه وكيف كان فالمعنى إننا أمرنا بعد الإسلام بالصلاة والتقوى والمراد بإقامتها.

الإتيان بها مع شرائطها و الهاء في قوله: وَ أَتَّقُوا رَاجِعَةً إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أي و اتقوا رب العالمين و هو الذي اليه تحشرون، أي تجتمعون اليه يوم القيامة فيجازي كل عامل منكم بعمله و أنما أمر بالتقوى بعد الصلاة لأن الصلاة لا يقبل إلا بالتقوى لقوله تعالى: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ<sup>(١)</sup> و التقوى عبارة عن فعل الواجبات و ترك المحرمات فقوله إتقوه أي إجتنبوا معاصيه و أعملوا بما أمرتم به:

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ الظاهر أن هذا الكلام معطوف على قوله: هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ و عليه فالمعنى إتقوا رب العالمين و هو الذي اليه تحشرون و هو الذي خلق السموات و الأرض بالحق، أي خلقهما حقاً و صواباً لا باطلاً و خطأً، و يدل عليه قوله: وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا<sup>(٢)</sup> و قال قوم معنى ذلك أنه خلقهما بكلامه و هو قوله: أَنْتِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا<sup>(٣)</sup> قالوا فالحق هو كلامه و إستشهدوا عليه بقوله: وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ<sup>(٤)</sup> أن الحق هو قوله و كلامه قالوا و الله خالق الأشياء بكلامه و ذلك يوجب أن يكون كلامه قديماً غير مخلوق.

أقول المعتمد هو قول الأول فأن الحق يقال في مقابل الباطل و أما قولهم يوجب أن يكون كلامه قديماً غير مخلوق، فقد بينا فساده في محله و قلنا أن كلامه حادث قطعاً.

قال بعض المفسرين لما ذكر تعالى أنه هو الذي اليه تحشرون و هو منتهى ما يؤل اليه أمرهم ذكر في هذه الآية مبتدأ وجود العالم و إختراعه له بالحق أي بما هو حق لا عبث فيه و لا هو باطل بل صدر عن حكمة و صواب و ليستدل

بهما على وجود الصانع إذ هذه المخلوقات العظيمة الظاهر عليها سمات الحدود لا بدّ لهما من محدث واحدٍ عالمٍ قادرٍ يريد انتهى.

وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ

قوله: لَهُ الْمُلْكُ يفيد الحصر والمعنى أنّه لا ملك في يوم ينفخ في الصور إلّا للحقّ سبحانه و تعالى فالمراد بهذا الكلام هو تقرير القدرة التامة الكاملة التي لا دافع لها كما أنّ المراد بقوله هو الذي خلق السموات والأرض تقرير الحكم المبرأ عن الباطل والعبث وقوله عالم الغيب والشهادة يدلّ على كمال علمه و أنّه بكلّ شيءٍ عليم وقوله: وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ يدلّ على أنّه تعالى مصيب في أفعاله خبيرٌ بحقائقها من غير اشتباه وإلتباس وأعلم أنّه يستفاد من الآية نكات لا بأس بالإشارة إليها إجمالاً.

إحداها: قوله: وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ فقال أهل السنة معناه أنّه مالك لجميع المحدثات والكائنات و حيث أنّ مالكيّة لها حقيقتة على أساس الإيجاد والخلقة فلا جرم جميع تصرفاته في ملكه حسن و صواب ولا نعني بالحقّ إلّا هذا.

الثانية: أنّ معنى كونه حقّاً أنّه خلق الخلق على وفق المصلحة وكلّمّا كان كذلك فهو حقّ وهذا مذهب المعتزلة.

الثالثة: أنّ في هذه الأجرام العظيمة الفلكية وغيرها قوى و خواص يصدر بسببها عنها آثار و حركات مطابقة لمصالح هذا العالم ذهب اليه بعض الحكماء.

الرابعة: قوله تعالى: وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ فَأَنْزَلْنَاهُ نَارِ الْوَاقِعَةِ وَ الْجَمَلَةُ معطوفة على الجملة السابقة و هي قوله: وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فالمعنى أنّ اليوم مخلوق له تعالى كما هو مقتضى العطف فيصير

المعنى هو الذي خلق السموات والأرض وهو الذي خلق اليوم الذي يقول فيه كن فيكون وعليه فالمراد باليوم هو يوم القيامة أو هو ويوم الإيجاد ولا بعد فيه لأن اليوم بأي معنى كان فهو مخلوق له تعالى سواء أريد به يوم الإيجاد أم يوم البعث والقيامة.

ويمكن أن يكون اليوم معمولاً بفعل محذوف أي وأذكر يا محمد يوم كذا أو معمولاً لمفعول محذوف أي وأذكر الإعادة يوم كذا أي يوم يقول للأجساد، كن، وعليه فيتم الكلام عند قوله: كُنْ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا إِخْبَاراً بِالْإِعَادَةِ فَيَكُونُ، قوله: فاعلاً، لقوله: فَيَكُونُ وَهنا احتمال آخر وهو أن يتم الكلام عند قوله فيكون، ثُمَّ قَوْلُهُ الْحَقُّ مَبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ، وقال الزَّجَّاجُ وَ يَوْمَ يَقُولُ مَعْطُوفٌ عَلَى الضَّمِيرِ مِنْ قَوْلِهِ: وَ أَتَقْوُهُ أَيِ وَأَتَّقُوا عِقَابَهُ وَ الشَّدَائِدَ، وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ وَ عَلَى هَذَا فَإِنْ تَصَابَهَ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ لَا ظَرْفَ.

وقال الزمخشري أن قوله الحق مبتدأ والحق صفة له، ويوم يقول، خبر المبتدأ فيتعلق بمستقر كما تقول يوم الجمعة القتال واليوم بمعنى الحين والمعنى أنه خلق السموات والأرض قائماً بالحق والحكمة وحين يقول لشيء من الأشياء، كن فيكون ذلك الشيء قوله الحق والحكمة أي لا يكون شيء من السموات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب فهذه هي الوجوه التي ذكروها في المقام وعندني وجه آخر وهو أن يكون الواو للإستئناف و، يوم يقول مبتدأ قوله الحق خبره أو بالعكس أي يوم يقول كذا، قوله الحق والله أعلم.

**الخامسة: وَلَهُ أَلْمَلِكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ** يستفاد من تقديم الظرف الحصر كما في قولك في الدار زيد أي ليس فيها غيره وهذا مما لا كلام فيه عقلاً ونقلاً فالمعنى أنه لا ملك في يوم ينفخ في الصور إلا له تعالى سبحانه، و الصُّور بضم الصاد وسكون الواو والرءاء.



قال الرَّاغِب في المفردات هو مثل قرن ينفخ فيه فيجعل الله ذلك سبباً لعود الصُّور والأرواح الى أجسامها وروي في الخبر أنَّ الصُّور فيه صورة النَّاس إنتهى كلامه.

**أقول** روي صاحب كتاب مجمع البحرين في مادة (نفخ) عن علي بن إبراهيم بأسناده الى فاخنه عن علي بن الحسين قال سئل عن النَّفختين كم بينهما قال عليه السلام ما شاء الله فقيل له أخبرني يا بن رسول الله كيف ينفخ فيه فقال عليه السلام أمَّا النَّفخة الأولى فَأَنَّ الله يأمر بإسرافيل فيهبط الى الدُّنيا ومعه الصُّور وللصُّور رأس واحد وله طرفان وبين طرف كلِّ رأسٍ منهما ما بين السَّماء والأرض قال عليه السلام فإذا رأى الملائكة إسرافيل وقد هبط الى الأرض ومعه الصُّور قالوا قد أذن الله في موت أهل الأرض وفي موت أهل السَّماء قال عليه السلام فيهبط إسرافيل بحفرة بيت المقدس ويستقبل الكعبة فينفخ نفخة فيخرج الصَّوت من الطَّرَف الَّذِي يلي الأرض فلا يبقى في الأرض روحٌ إلَّا صعق ومات ويخرج الصَّوت من الطَّرَف الَّذِي يلي السَّماء فلا يبقى في السَّموات روح إلَّا صعق ومات إلَّا إسرافيل فيقول الله له يا إسرافيل مت فيموت إسرافيل فيمكنون في ذلك ما شاء الله وساق الحديث الى أن قال فعند ذلك ينادي الجِّبار بصوت من قبله جهزوي يسمع أقطار السَّموات والأرض لمن الملك اليوم فلا يجيبه مجيب فعند ذلك يقول تعالى مجيباً لنفسه (لله الواحد القَّهار أنا قهرت الخلاق كلَّهم وأمتهم لا إله إلَّا أنا وحدي لا شريك لي ولا وزير وأنا خلقت خلقي وأنا أمتهم بمشيئتي وأنا أحييهم بقدرتي) فينفخ الجِّبار نفخة في الصُّور من احد الطَّرفين الَّذِي يلي السَّموات فلا يبقى في السَّموات أحدٌ إلَّا حيٍّ وقام كما كان ويعودن حملة العرش وتحفر الجنَّة والنَّار وتحشر الخلاق للحساب إنتهى.

**أقول** ومن هذا الحديث يعلم الصُّور وكيفيَّة نفخه ولا طريق لنا في أمثال هذه الأمور إلَّا التَّمسك بالآثار وذلك لأنَّ العقل لا حكم له فيما وراء المحسوسات وهو ظاهر.

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ فواضح لا خفاء فيه.  
وأما ما نقل عن أبي عبيدة من أن الصور جمع صورة مثل قولهم سور و  
سورة وصوف وصوفة وثوم وثومة فيكون المعنى يوم ينفخ في الأموات أو  
في صور الأموات فكلام لا محصل له أما أولاً فلأن النّفخ في الصّورة لا معنى له  
عقلاً وثانياً أن الله تعالى يقول وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ  
فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى<sup>(١)</sup> ولم يقل فيه، أخرى، أو فيهن و  
ذلك يدل على أنه واحد.

قال الرّازي لو كان المراد نفخ الرّوح في تلك الصّور لأضاف تعالى ذلك  
النّفخ الى نفسه لأنّ نفخ الأرواح في الصّور يضيفه الى نفسه.  
قال الله تعالى: فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا<sup>(٣)</sup>.  
وأما نفخ الصّور بمعنى النّفخ في القرآن فأنه تعالى يضيفه لا الى نفسه كما.  
قال الله تعالى: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي  
الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ<sup>(٥)</sup>  
إنتهى كلامه.

أقول من قرأ في الشاذ في الصّور بفتح الواو فذلك يقوي ما قاله أبو عبيدة.



٢- الحجر = ٢٩

٤- المدثر = ٩

١- الزمر = ٦٨

٣- الانبيا = ٩١

٥- الزمر = ٦٨

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهَةً  
 إِنِّي أَرِيكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَ  
 كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَ  
 الْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ  
 عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ  
 لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ  
 هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي  
 لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى  
 الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا  
 أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)  
 إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَ  
 الْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)

### △ اللغة

أَصْنَامًا، الصَّنَمُ جَنَّةٌ مَتَّخَذَةٌ مِنْ فِضَّةٍ أَوْ نَحَاسٍ أَوْ خَشَبٍ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا  
 مَتَّقِرِينَ بِهِ إِلَى اللَّهِ وَجَمَعَهُ أَصْنَامٌ.

مَلَكُوتٌ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَاللَّامِ وَضَمِّ الْكَافِ مَصْدَرُ مَلَكٌ، أَدْخَلَتْ فِيهِ التَّاءَ نَحْوَ  
 رَحْمَتٍ وَرَهْبَتٍ وَالْمَلَكُوتُ مَخْتَصٌّ بِاللَّهِ تَعَالَى.

جَنَّ أَصْلُ الْجَنِّ سِتْرُ الشَّيْءِ عَنِ الْحَاسَةِ يُقَالُ جَنَّ اللَّيْلُ وَأَجَنَّهُ وَجَنَّ عَلَيْهِ  
 فَجَنَّهُ، سِتْرُهُ وَمِنْهُ الْجَنَّةُ فَأَنَّهُ تَطْلُقُ عَلَى كُلِّ بَسْتَانٍ ذِي شَجَرٍ يَسْتَرُ بِأَشْجَارِهِ  
 الْأَرْضِ.

كَوْكَبًا، الْكَوْكَبُ بِفَتْحِ الْكَافِ، النَّجْمُ.

أَفَلَتْ أَي غَاب.

بَارِغًا يُقَالُ بَزَغَتِ الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ.

جَنَفًا، الْجَنَفُ هُوَ مِيلٌ عَنِ الظَّلَالِ إِلَى الْإِسْتِقَامَةِ الْهَدَى كَمَا أَنَّ الْجَنَفَ،

بِالْجِيمِ مِيلٌ عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ إِلَى الظَّلَالِ.

### ◀ الإعراب

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ إِذْ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ عَلَى فِعْلٍ مَحْذُوفٍ أَي وَ أَذْكَرُوا  
مَعْطُوفٌ عَلَى، أَقِيمُوا، أَزَرَ يَقْرَأُ بِالْمَدِّ وَوزنه أَفْعَلٌ وَهُوَ لَمْ يَنْصَرَفْ لِلْعَجْمَةِ وَ  
التَّعْرِيفِ عَلَى قَوْلٍ مِنْ لَمْ يَشْتَقْهُ مِنَ الْأَزَرِ أَوْ الْوَزَرِ وَ مِنْ أَشْتَقَّهِ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهُمَا  
قَالَ هُوَ لَفْظٌ عَرَبِيٌّ وَلَكِنْ لَمْ يَصْرِفْهُ لِلتَّعْرِيفِ وَوزن الفعل وَهُوَ بَفَتْحِ الرَّاءِ عَلَى  
أَنَّهُ بَدَلَ مِنْ أَبِيهِ وَبِالضَّمِّ عَلَى النَّدَاءِ وَقَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ قِيلَ كَانَ إِسْمُ  
أَبِيهِ، تَارِخٌ، فَعَرَّبَ وَجَعَلَ أَذَرَ وَ قِيلَ أَذَرَ مَعْنَاهُ الضَّلَالُ فِي كَلَامِهِمْ انْتَهَى.

أَصْنَامًا مَفْعُولٌ أَوَّلٌ وَإِلَهَةً مَفْعُولٌ ثَانٍ وَجَازٌ أَنْ يَجْعَلَ الْمَفْعُولَ الْأَوَّلَ نَكْرَةً  
لِحَصُولِ الْفَائِدَةِ مِنَ الْجُمْلَةِ وَكَذَلِكَ مَنْصُوبٌ عَلَى إِضْمَارٍ، وَارْتِنَاةٍ) وَ يَجُوزُ  
أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا بِنَرِيٍّ الَّتِي بَعْدَهُ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ نَرِيهِ  
مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ رُؤْيَا كَرُؤَيْتِهِ ضَلَالٌ أَبِيهِ وَ قِيلَ، الْكَافُ بِمَعْنَى اللَّامِ  
أَي وَلِذَلِكَ، نَرِيهِ هَذَا رَبِّي مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ تَقْدِيرُهُ، أَهَذَا رَبِّي بَارِغَةً حَالٌ مِنْ  
الشَّمْسِ وَ أَمَّا قَالَ لِلشَّمْسِ، هَذَا، وَلَمْ يَقُلْ، هَذِهِ، لِأَنَّهُ أَرَادَ هَذَا الْكَوْكَبَ أَوْ  
الطَّالِعَ أَوْ لِأَنَّ التَّأْنِيثَ فِي الشَّمْسِ غَيْرُ حَقِيقِي.

### ◀ التفسير

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزَرَ اتَّخَذْ أَصْنَامًا إِلَهَةً إِنِّي أَرَىكَ وَ قَوْمَكَ  
فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

أَي وَ أَذْكَرِيَا مُحَمَّدًا أَوْ أَذْكَرُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ، وَهُوَ إِسْمُ

أعجمي قال الجوهري فيه لغات، إبراهيم وإبراهم وإبراهيم بحذف الياء وفي معاني الأخبار أنَّ معنى إبراهيم أنَّه همَّ فبرَّ وكيف كان فهو إسم لإبراهيم الخليل الذي كان من أنبياء العظام قال بعض المفسرين لما ذكر قوله تعالى: قُلْ أَتَدْعُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا ناسب ذكر هذه الآية هنا، وكان التذكار بقصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه أنسب لرجوع العرب إليه إذ هو جدُّهم الأعلى فذكروا بأنَّ أبانَّ إنكار هذا النسي محمد صلى الله عليه وآله عليكم عبادة الأصنام هو مثل إنكار جدكم إبراهيم على أبيه وقومه عبادتها ففي ذلك تنبيه على لزوم إقتضاء من سلف من صالحى الآباء والأجداد وذلك لأنهم وسائر الطوائف كانوا معظمين لإبراهيم عليه السلام ثم قال والظاهر أنَّ إسم أبيه كان أذر قاله ابن عباس والحسن والسدي وابن إسحاق وغيرهم وفي كتب التواريخ أنَّ إسمه بالسريانية، تارخ، والأقرب أنَّ وزنه، فاعل مثل تارخ وعابر ولازب وعلى هذا يكون له إسمان كيعقوب وإسرائيل وهو عطف بيان أو بدل وقال مجاهد هو إسم صنم فيكون أطلق على أبي إبراهيم لملازمته عبادته كما أطلق على عبيد الله بن قيس، الرقيات، لحبه نساء كل واحدة منهن رقية ف قيل ابن قيس الرقيات وكما قال الشاعر:

أدعي بأسماء تترى في قبائلها كأن أسماء أضحت بعض أسمائي  
وعليه فيكون، أذر، عطف بيان أو على حذف مضاف أي عابد أذر انتهت  
موضع الحاجة من كلامه.

ونقل الشيخ في التبيان عن الزجاج أنَّه قال لا خلاف بين أهل النسب أنَّ إسم أبي إبراهيم، تارخ، والذي في القرآن يدل على أنَّ إسمه، أذر.  
ثم قال الشيخ بعد نقله ما نقلناه عنه والذي قاله الزجاج يقوي ما قاله أصحابنا أنَّ، أذر، كان جدَّه لإمه أو كان عمه لأنَّ أباه كان مؤمناً من حيث ثبت عندهم أنَّ آباء النبي إلى آدم كلهم كانوا موحدين لم يكن فيهم كافر وحجَّتهم

في ذلك إجماع الفرقة المحقة وقد ثبت أن إجماعها حجة لدخول المعصوم فيها خلاف بينهم في هذه المسألة.

وأيضاً روي عن النبي ﷺ أنه قال نقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات لم يدنسني بدنس الجاهلية وهذا خبر لا خلاف في صحته فبين النبي ﷺ أن الله نقله من أصلاب الطاهرين فلو كان فيه كافر لما جاز وصفهم بأنهم طاهرون لأن الله وصف المشركين بأنهم أنجاس فقال: **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** <sup>(١)</sup>.

انتهى كلام الشيخ رحمه الله وهو حق لا مرية فيه عندنا فإننا نقول في الزيارة، أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسك من مدلهجات ثيابها الخ.

وأية نجاسة أخبت من الشرك والكفر والعجب من الرّازي حيث أنه قال و أما قوله عليه السلام لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات، فذلك محمول على أنه ما وقع في نسبه ما كان سفاحاً انتهى.

**أقول السّفاح** بكسر السين مصدر يقال بينهم سفاح، أي سفك دماء الزنى يقال تزوّج المرأة سفاحاً أي بغير سنّة و لا كتاب وهذا هو المراد من قول الرّازي، ما كان سفاحاً و عليه فمعنى الحديث (نقلني الله من أصلاب الطاهرين الخ)، لم يجعل الله في نسبي سفاحاً أي أن أبائي جميعاً ولدوا من نكاح لا من سفاح. و أما الإحتمال الآخر و هو أن يراد بالسّفاح سفك الدماء و معنى الحديث أن أبائي لم يكونوا سفّاكين للدماء فهو بعيد جداً و لم نرم من حمل اللفظ على هذا المعنى اذا عرفت هذا فنقول:

وجه التعجب في كلام الرّازي أنه من حمل الكلام على ما لا يرضى به صاحبه و لا نعلم من أين وجد الرّازي هذا اللفظ و ليس في الحديث منه عين و لا أثر هذا أولاً.

ثانياً: أن كان مراده بالسَّفاح النِّكاح بغير سنّة ولا كتاب، إلّٰه نزل من الله على أنبياءه في كلّ عهدٍ وزمانٍ، فهو لا يلائم الشُّرك والكفر إذ من كان نكاحه كذلك فهو مؤمن قطعاً وهو المطلوب.

وأن كان مراده بالسَّفاح النِّكاح بغير سنّة ولا كتاب، من غير تقيدهما بالشَّرع بأن يكون المراد بالسنّة السنّة الجارية في كلّ قوم وبالكتاب، مسمّاة حقّاً كان كالنُّوراة والإنجيل والقرآن وأمثالها أو باطلاً كالكتب التي ادَّعوا أنّها من قبل الله وليست كذلك فيلزم أن يكون كلّ نكاح وقع في العالم غير سفاح ولا يختصّ بنسب الرّسول ومحصّل الكلام أنّ الحديث يابئ هذا التفسير الذي لا دليل عليه من العقل أو النّقل قال الألوسي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

والذي عوّل عليه الجمّ الغفير من أهل السنّة أنّ أذر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام وإدّعوا أنّه ليس في أباء النبي صلى الله عليه وآله كافراً أصلاً لقوله صلى الله عليه وآله لم أزل أنقل من أصلاب الطّاهرين إلى أرحام الطّاهرات والمشركون نجس، و تخصيص الطّهارة بالطّهارة من السّفاح لا دليل له يعوّل عليه والعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السّبب وقد ألّفوا في هذا المطلب الرّسائل وإسْتدلّوا به بما إسْتدلّوا والقول بأنّ ذلك قول الشيعة كما إدّعاه الإمام الرّازي فاش من قلة التّابع وأكثر هؤلاء على أنّ أذر إسم لعم إبراهيم عليه السلام وجاء إطلاق الأب على العمّ في قوله تعالى: أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ <sup>(١)</sup> وفيه إطلاق الأب على الجدّ أيضاً انتهى.

أقول ثمّ أنّ الألوسي قد أطال الكلام بما لا مزيد عليه وذكر أحاديث كثيرة من طريق العامة على أنّ أذر، لم يكن أباً إبراهيم بل كان عمّه أو جدّه لأمه و المقصود أنّ القول بأنّ أذر لم يكن أباً لإبراهيم لا يختصّ بالشيعة بل قال به غير

نبأ القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

الجلد السادس

واحد من العامة أيضاً و دليل الكل أَنَّهُ ليس في أباء النبي كافراً أصلاً المطلوب.  
و حيث إنجر الكلام الى هنا فلا بأس بإيراد ما ذكره صاحب كتاب المنار في  
تفسيره لهذه الآية بعد نقله عن الألوسي ما نقلناه عنه قال ما هذا لفظه:

ثم ذكر السيد الألوسي آثاراً استدلوا بها على ما ذكر أخذها فيما يظهر من  
بعض رسائل السيوطي التي ألّفها في نجاة الأبوين الشريفيين و جمع فيها الذرة  
و أذن الجرؤة كما يقال و رجّح الآثار الواهية و المنكرة على الأحاديث  
الصحيحة المؤيدة بالآيات التصريحية و هي التي أشار اليها الألوسي بقوله، و  
ألّفوا في هذا المطلب الرسائل، و إعتد عليها فيما إدّعى أَنَّهُ هو الذي عوّل  
عليه أهل السنة و من الغريب وقوع هذه الهفوة من مثل هذا النقاد و أنّما أوقعه  
فيها هوى صادفته في الفؤاد و هو الميل الى ما يدل على نجاة جميع أولئك  
الأبء و الأجداد الذين أنجبوا أفضل الأبناء و الأحفاد محمّد و إبراهيم  
الخليلين عليهما السلام فإنّ من حبّهما هو من آيات الإيمان بهما أن يحبّ المؤمن نجاة  
أصولهما و لكن اذا ثبت أنّ بعضهم أصّر على الكفر و قضت حكمة الله أن  
يبيّنه لنا في محكم الذكر و أن يطّلع رسوله على عافيته في النار فيخبر أمته به  
لكمال التوحيد و الإعتبار، أفيكون مقتضى حبّ الله و رسوله هو الإيمان  
بذلك و بيانه كما بيّناه، أم يكون حبّهما تحريفه و تأويله مبالغه في تعظيم نسب  
الرّسل و إستعظاماً لهلاك أقرب الناس نسباً مع كرامتهم عند الله و تأثراً بأقوال  
أهل الملل الذي جعلوا نجاة الخلق و سعادتهم في الآخرة بجاء أنبيائهم و  
تأثيرهم الشخص عند الله لا بإتباعهم و الإهتمام بما جاءوا به من أصول  
الإيمان و فضائل الأعمال رَبَّنَا أَمَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ  
الشَّاهِدِينَ<sup>(١)</sup> نعم أَنّ ممّا يصدع الفؤاد و يكاد يفتت أصلب الجماد أن يرى  
المؤمن والد خليل الرّحمن قد أثبت عليه في كتاب الله تعالى عبادة الأوثان و  
إطّلع الله و رسوله على أَنّ ماله أن يمسح حيواناً فتناً و يلقى في سعي النيران.



كما روي البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء وكتاب التفسير من صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال ﷺ يلقى إبراهيم أباه أذر يوم القيامة و على وجه أذر فترة و غبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصني فيقول أبوه اليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يارب أنك وعدتني أن لا تخزني يوم يُبعثون فأني خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله أني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال يا إبراهيم أنظر ما تحت رجلك فينظر فاذا بذبح متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقي في النار قال الحافظ ابن حجر في شرحه و في رواية إبراهيم بن طهمان فيؤخذ منه فيقول يا إبراهيم أين أبوك، قال أنت أخذته مني قال، أنظر أسفل فينظر فاذا ذبح يتمرع في نتنه،

و في رواية أيوب فيمسح الله أباه ضبعاً فيأخذ بأنفه أي يأخذ إبراهيم أنفه بأصابعه كراهة لرائحة نتنه، فيقول يا عبدي أبوك، هو، فيقول لا و عزتك.

و في حديث سعيد، فتحول في صورة قبيحة و ربح نتنه في صورة ضبعان زاد ابن المنذر من هذا الوجه، فاذا رآه كذا تبرأ منه، و قال لست أبي ثم قال بعد أسطر، و قال الحافظ قيل الحكمة في مسخه لتنفّر نفس إبراهيم منه و لئلا يبقى في النار على صورته فيكون غضاضة على إبراهيم و قيل الحكمة في مسخه ضبعاً أن الضبع من أحمق الحيوان و أذر كان من أحمق البشر لأنه بعد أن أظهر له من ولده ما ظهر من الآيات البينات أصرّ على الكفر حتى مات ثم أطال الكلام بنقل هذه الأراجيف الى أن قال و أما استدلال الألوسي تبعاً لغيره بحديث، لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين الى أرحام الطاهرات، على إيمان أباء النبي من عبد الله أولهم الى آدم ﷺ فهو معارضة لظاهر القرآن و الأحاديث الصحيحة بحديث رواه أبو نعيم في الدلائل من حديث ابن عباس بلفظ، لم يلتق أبوي في سفاح لم يزل الله عز وجل ينقلني من أصلاب طيبة الى أرحام طاهرة صافياً مهذباً لا تنشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما هكذا

في نسخة الدلائل التي بأيدينا وذكره السيوطي عنه بلفظ، من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة بالتعريف ولا نعرفه باللفظ الذي ذكره الألوسي عن أحد من المحدثين وإنما يذكره بهذا اللفظ من لا تحرون نقل الأحاديث بضبط مخرجها بل يتساهلون بنقلها حيث وجدوها لكثير من المفسرين والمتكلمين.

وقد سبق الفخر الرازي الألوسي الى ذكره بهذا اللفظ من غير غرور ولا ذكر لإسم الصحابي الذي رفعه كعادته واللفظ المرؤي لا معنى له إلا كون أباه ولدوا من نكاح لا من سفاح وهو معنى صحيح وردت فيه أحاديث أخرى. ولو فرضنا أنه روي باللفظ الذي ذكره لأحتمل هذا المعنى أيضاً حملة عليه جمعاً بينه وبين القرآن والأحاديث الصحيحة أولى من جعله أصلاً و إرجاعها اليه بالتأويل والتكلف والذي خرجه أنما جعله في دلائل طهارة نسبه لا إيمان أصوله.

ثم ساق الكلام الى أن قال فأهمها (أي أهم الأحاديث الصحيحة) ما ورد في أبي الرَسُول ﷺ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن ثابت أن رجلاً قال يا رسول الله أين أبي، قال في النار، قال فلماً قفا الرجل دعاه فقال ﷺ أن أبي وأباك في النار.

قال النووي في شرحه، فيه أن من مات على الكفر فهو في النار ولا تنفعه قرابة المقرين، وفيه من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار الى أن قال.

وروي مسلم من طريق ووان بن معاوية عن زيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ إستأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي وإستأذنت أن أزر قبرها فأذن لي وأطال الكلام في هذا الباب أيضاً ثم شرع في بيان حكمة النصوص في كُفر بعض أرحام الرسل الأقربين ولَفَق ألفاظاً لا طائل تحتها بل

عِقَّة الْقَلَم تَأْتِي عَنْ نَقْلِهَا وَتَحْرِيرِهَا ثَانِيًا فَضْلًا عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ  
وَرَسُولِهِ وَ مَنْ أَرَادَ الْإِطْلَاعَ عَلَى تَفْصِيلِ مَا ذَكَرَهُ فَقَلْبُهُ بِكِتَابِهِ  
الْمُسَمَّى بِتَفْسِيرِ الْمَنَارِ<sup>(١)</sup>.

و نحن نقول ليس غرضنا من نقل كلمات صاحب المنار الاعتناء بشأنه وأنه  
من المحققين أو المفسرين الذين ينقل كلامهم ثم يذكر وجه النظر فيه لأنه  
ليس من فرسان هذا الميدان لا علماً ولا إيماناً وإنما الغرض من نقل كلماته  
بيان ما هو الحق والمنصف المؤمن يعلم أن الرسول المعصوم عن الخطأ في  
أقواله وأعماله لا يوجد من نطفة المشرك النجس العابد للصنم.

و أما الذي لا يعرف الله فضلاً عن رسوله و يزعم أن الرسول كسائر أفراد  
الناس ولا فرق بينه وبينهم إنما هو بالإسم لا بالمسمى فلا كلام لنا معه و  
سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون إننا لله و إنا إليه راجعون.

و أتني أتعجب وكيف لا أتعجب ممن يقول، نعم أن مما يصدع الفؤاد و  
يكاد يفتت أصلب الجماد أن يرى المؤمن والد خليل الرحمن قد أثبت عليه  
في كتاب الله عبادة الأوثان وأطلع الله ورسوله على أن ماله أن يمسح حيواناً  
منتناً و يلقى في سعي النيران كما روي البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء و  
كتاب التفسير من صحيحه عن أبي هريرة إلى آخر ما قال و قد نقلناه عنه.

وجه التعجب ظاهر وهو أن من يدعي الإسلام والإيمان و يجعل نفسه في  
سلك العلماء و المفسرين لكلام الله تعالى كيف يرى تنزيه الأنبياء عن  
النقائص والأرجاس و إنعقاد ذواتهم المقدسة عن نطفة المشرك، مما يصدع  
الفؤاد و يكاد يفتت أصلب الجماد و لا يرى كون أباءهم ممسوخين بصورة  
الحيوان المنتن و إلقائهم في سعي النيران، مما يصدع الفؤاد.

في كتاب التفسير من صحيحه عن أبي هريرة إلى آخر ما قال و قد نقلناه عنه.

جزء ٧

الجلد السادس

و أعجب منه إستدلّاه على إثبات مدّعه برواية البخاري عن أبي هريرة الكذاب الوّضاع للأحاديث، مع أنّ هذا القائل وغيره من أهل السنّة نقلوا في كتبهم أنّ عمر بن الخطّاب ضرب أبا هريرة بالدّرة ومنعه عن نقل الحديث لكونه من المفترين ومن كان كذلك كيف يؤخذ بحديثه وكتاب البخاري وغيره من صحاحهم مملؤ من هذه المجعولات التي لا يقبلها العقل السليم ولا النقل الصحيح.

وهذا هو الدّاء المعضّل الذي لا دواء له لأنّهم يفتون في أحكام الله و يفسّرون كلامه بأمثال هذه الأحاديث المجعولة المنقولة عن أبي هريرة وأنس بن مالك و سمرة بن جندب و الشّعبي و الزّهري و مالك و أمثالهم فضّلوا و أضلّوا كثيرًا يضلّل الله فما له من هادٍ و للبحث في هذه الأمور مقام آخر و الله تعالى لبالمرصاد و الأحسن أن نتّبع قول الله تعالى و هو أصدق القائلين، حيث قال:

قال الله تعالى: **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَغْلُمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عَظِّمْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا<sup>(١)</sup>.**

**أَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهَةً إِنِّي أَرِيكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**

الهمزة في، أتّخذ، للإبكار و الخطاب لاذر أي اذ قال إبراهيم لاذر كذلك قلنا في شرح اللغات أنّ الصنم جمّة متّخذة من فضة أو نحاس أو خشب. و قال بعض الحكماء، كلّ ما عبد من دون الله بل كلّ ما يشغل عن الله يقال له صنم و على هذا الوجه قال إبراهيم عليه السلام على ما حكى الله تعالى عنه **أَجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ<sup>(٢)</sup>** و ذلك لأنّ إبراهيم عليه السلام مع تحقّقه بمعرفة الله و إطلاعه على حكمته و رسوخه في التّوحيد لم يكن ممّن يخاف أن يعود الى عبادة تلك الجثث التي كانوا يعبدونها فكأنّه قال أجنبني عن الإشتغال بما

يصرفني عنك، وأما الأصنام في هذه الآية التي نبحث فيها فالمراد بها الجثث المتخذة من فضة أو نحاس أو غيرهما وذلك لأنهم أي آذر وقومه كانوا كذلك وفي قوله: **أَصْنَامًا إِلَهَةً** بالجمع تقييح عظيم لفعلهم وإتخاذهم جمعاً آلهة من أي مادة كانت وبأي صورة وجدت ولذلك قال: **إِنِّي أُرِيكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** أي ضلال ظاهر لا خفاء فيه وأي ضلال أبين وأظهر من إتخاذ المنحوت والمصنوع إلهاً يعبد قالوا الغرض من الآية هو حث النبي على محاجة قومه الذين يدعون إلى عبادة الأصنام والإزدراء على فعلهم والإقتداء في ذلك بأبيه إبراهيم وصبره على محاجة قومه العابدين للأصنام ليتسلى بذلك ويقوى دواعيه إليه.

**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ.**

قيل معناه، إنا أريناه أن قومه في عبادة الأصنام ضالون، كذلك نريه ملكوت السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وأختلفوا في معنى الملكوت فقال قوم أن الملكوت بمنزلة الملك غير أن هذه اللفظ أبلغ من الملك لأن الواو والتاء يزدان للمبالغة، وقال مجاهد **مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** ملكها بالنبطية، وقال الضحاك يعني خلقهما، وقال بعضهم معناه، آيات السموات والأرض، وقيل ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الأرض الجبال والأجر والبحار وغير ذلك من الأقوال، والحق أن ملكوت كل شيء باطنه أعني به الآيات والأسرار المودعة فيه فقوله تعالى: **وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** معناه أريناه باطنهما وذلك لأن ظاهرهما يرى بالبصر لأنه محسوس وأما حقيقتهما وباطنهما وما جعل الله من الآيات والأسرار عجائب الخلقة التي لا يعلمها إلا هو فالعلم بها والإطلاع عليها لا يمكن إلا بإرادة الله تعالى من شاء وأراد من المقربين من عباده وكان إبراهيم عليه السلام منهم

وَلْيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِّنِينَ أَيِ إِنَّمَا أَرَيْنَاهُ مَلَكُوتَهُمَا لِيَكُونَ إِبْرَاهِيمَ بِسَبَبِ رُؤْيَيْهَا مِنَ الْمُوقِنِينَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ ذَلِكَ وَالْمَالِكُ لَهُ وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ الْخَالِقُ الْمَعْبُودُ لَا غَيْرُهُ، وَالْمُوقِنُ هُوَ الْعَالِمُ الَّذِي يَتَيَقَّنُ الشَّيْءَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُن مَثْبُتًا وَلِهَذَا لَا يُوصَفُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ مُوقِنٌ كَمَا يُوصَفُ بِأَنَّهُ عَالِمٌ.

وَقَدْ رَوَى عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ، كَشَطَ اللَّهُ لَهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَتَّى رَأَاهُنَّ وَما عَلَيْهِنَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَحَمَلَةِ الْعَرْشِ.

قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ إِرَاءَةَ مَلَكَوَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِبَصَرِ الْعَيْنِ بِأَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى قَوِيَّ بَصَرِهِ وَرَفَعَ لَهُ كُلَّ مَنْخَضٍ وَكَشَطَ لَهُ عَنْ أَطْبَاقِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ حَتَّى رَأَى مَا فِيهِمَا بِبَصَرِهِ، وَأَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ رُؤْيَا الْقَلْبِ بِأَنْ أَنْارَ قَلْبَهُ حَتَّى أَحَاطَ بِهَا عِلْمًا وَالْأَوَّلُ أَظْهَرَ نَقْلًا وَالثَّانِي عَقْلًا وَالظَّاهِرُ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ أَنَّهُ أَحَاطَ عِلْمًا بِكُلِّ مَا فِيهِمَا مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْكَائِنَاتِ وَامَّا حَمَلُهُ عَلَى أَنَّهُ رَأَى الْكَوَاكِبَ وَما خَلَقَهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ عَلَى وَجْهِ الْإِعْتِبَارِ وَالِاسْتِبْصَارِ وَاسْتَدَّلَ بِهَا عَلَى إِثْبَاتِ الصَّانِعِ فَلَا يَخْفَى بَعْدَهُ عَمَّا يَظْهَرُ مِنَ الْأَخْبَارِ انْتَهَى كَلَامُهُ.

أَقُولُ رَوَى فِي الْبَحَارِ بِالْإِسْنَادِ إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ الْعَسْكَرِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ لَمَّا رَفَعَ فِي الْمَلَكَوَتِ وَذَلِكَ قَوْلُ رَبِّي، وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكَوَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ، قَوِيَّ اللَّهُ بَصَرَهُ لَمَّا رَفَعَهُ دُونَ السَّمَاءِ حَتَّى بَصَرَ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ظَاهِرِينَ وَمُسْتَتَرِينَ فَرَأَى رَجُلًا وَإِمْرَأَةً عَلَى فَاحِشَةٍ فَدَعَا عَلَيْهِمَا بِالْهَلَاكِ فَهَلَكَا ثُمَّ رَأَى أُخْرَيْنِ فَدَعَا عَلَيْهِمَا بِالْهَلَاكِ ثُمَّ رَأَى أُخْرَيْنِ فَهَمَّ بِالْدَّعَاءِ عَلَيْهِمَا بِالْهَلَاكِ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ يَا إِبْرَاهِيمُ أَكْفَفَ دَعْوَتَكَ عَنْ عِبَادِي وَإِمَائِي فَأَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ الْجَبَّارُ الْحَلِيمُ لَا تُصْرِنِي ذُنُوبَ عِبَادِي كَمَا لَا تُنْفَعُنِي طَاعَتُهُمْ وَلَسْتُ أَسْوَ سَهُمْ بِشَفَاءِ الْغِيظِ كَسِيَاسَتِكَ فَأَكْفَفَ دَعْوَتَكَ عَنْ عِبَادِي فَأَنَّمَا أَنْتَ عَبْدٌ نَذِيرٌ لَا شَرِيكَ فِي الْمُلْكِ وَالْمَمْلَكَةِ وَلَا فِيهِ مِنْ عَلِيٍّ وَلَا عَلَى عِبَادِي مَعِيَ بَيْنَ خِلَالٍ ثَلَاثَ:

أَمَا تَابُوا إِلَيَّ فَتَبْتُ عَلَيْهِمْ وَغَفَرْتُ ذُنُوبَهُمْ وَ سَتَرْتُ عِيوبَهُمْ.  
وإِذَا كَفَفْتُ عَنْهُمْ عَذَابِي لَعَلَّمِي بِأَنَّهُ سَيُخْرَجُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ ذُرِّيَّاتٌ مُؤْمِنُونَ  
فَأَرْفُقُ بِالْأَبَاءِ الْكَافِرِينَ وَأَتَأْتِي بِالْأُمَّهَاتِ الْكَافِرَاتِ وَأَرْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابِي لِيُخْرَجَ  
أُولَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ فَإِذَا تَزَايَلُوا حَقَّ بِهِمْ عَذَابِي وَ حَقَّ بِهِمْ بِلَاثِي  
(حَاقَّ ٥٠ خ ل) وَأَنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَلَا هَذَا فَأَنَّ الَّذِي أَعَدَدْتَهُ لَهُمْ مِنْ عَذَابِي  
أَعْظَمُ مِمَّا تَرِيدُهُمْ بِهِ فَأَنَّ عَذَابِي لِعِبَادِي عَلَى حَسَبِ جَلَالِي وَكِبَرِيَّائِي يَا  
إِبْرَاهِيمَ فَخَلَّ بَيْنِي وَبَيْنَ عِبَادِي فَأَتَيْتُ أَرْحَمَ بِهِمْ مِنْكَ وَخَلَّ بَيْنِي وَبَيْنَ عِبَادِي  
فَأَتَيْتُ أَنَا الْجَبَّارَ الْحَلِيمَ الْعَلَّامَ الْحَكِيمَ أَدْبَرْتُهُمْ بِعِلْمِي وَأَنْفَذْتُ فِيهِمْ قَضَائِي وَ  
قَدَرِي انْتَهَى<sup>(١)</sup>.

أَنْ قُلْتَ مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ أَلَيْسَ إِبْرَاهِيمَ مُوقِنًا قَبْلَ  
ذَلِكَ.

قُلْنَا كَانَ مُوقِنًا أَذْ لَوْ لَمْ يَكُن مُوقِنًا بِاللَّهِ تَعَالَى لَمْ يَكُن صَالِحًا لِعَنَايَةِ اللَّهِ حَتَّى  
أَرَاهُ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ، إِلَّا أَنَّ الْيَقِينَ لَهُ مَرَاتِبٌ وَهُوَ مَقُولٌ عَلَيْهَا  
بِالتَّشْكِيكِ.

**فَأَوَّلُ:** عِلْمُ الْيَقِينَ.

**ثَانِيهَا:** عَيْنُ الْيَقِينَ.

**ثَالِثُهَا:** حَقُّ الْيَقِينَ.

وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي مَقَامِ عِلْمِ الْيَقِينَ ثُمَّ بَعْدَ إِرَاءَةِ اللَّهِ إِلَيْهِ مَلَكُوتَ  
السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ صَارَ فِي مَقَامِ عَيْنِ الْيَقِينَ، ثُمَّ حَصَلَ لَهُ مَقَامُ حَقِّ الْيَقِينَ وَ  
هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي لَا مَقَامَ فَوْقَهُ فِي التَّوْحِيدِ.

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ  
الْأَفْلَاقَ

جَاءَ الْقُرْآنُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

جزء ٧

المجلد السادس

قال بعض المفسرين هذه الجملة معطوفة على قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ  
 إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرْزَاخَ... وعليه فقوله: وَكَذَلِكَ نُرِيّ إِبْرَاهِيمَ جملة  
 معترضة، وقال ابن عطية الفاء في قوله: فَلَمَّا رابطة جملة ما بعدها بما قبلها و  
 هي ترجح أن المراد بالملكوت هو هذا التفصيل الذي في هذه الآية.  
 قال صاحب الكشف كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر و  
 الكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم الى طريق النظر  
 والاستدلال ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن  
 يكون إلهاً لقيام دليل الحدوث فيها وأن وراءها محدثاً أحدثها وصانعاً صنعها  
 ومدبراً دبّر طلوعها وأفولها وإنتقالها ومسيرها وسائر أحوالها، والكوكب  
 الزهرة انتهى.

أقول قوله: جَنَّ أَي أَظْلَم وقوله: أَقَلَّ أَي غَاب يقال أين أقلت عنا، وأين  
 غبت عنا، قال ذو الرمة:

مصاييح لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَفُودُهَا نَجُومٌ وَلَا بِالْأَفَلَاتِ الدَّوَالِكِ  
 وقال الآخر:

فَلَمَّا أَجَنَّ اللَّيْلُ بَتْنَا كَأَنَّا عَلَى كَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ مُحْتَاسِنَ

قال الرّازي أن أكثر المفسرين ذكروا أن ملك ذلك الزمان رأى رؤيا وعبرها  
 المعبرون بأنه يولد غلام ينازعه في ملكه فأمر ذلك الملك بذبح كل غلام يولد  
 فحبلت أم إبراهيم وما أظهرت حملها للناس فلما جاءها الطلق ذهبت الى  
 كهف في جبل ووضعت إبراهيم وسدت الباب بحجر فجاء جبرائيل ووضع  
 إصبعه في فمه فمضه فخرج منه رزقه وكان يتعهده جبرئيل عليه السلام فكانت الأم  
 تأتيه أحياناً وترضعه وبقي على هذه الصفة حتى كبر وعقل وعرف أن له رباً  
 فسأل الأم فقال لها من ربي فقالت أنا فقال ومن ربك قالت أبوك فقال للأب و  
 من ربك فقال ملك البلاد فعرف إبراهيم جهلها وبربها فنظر من باب ذلك  
 الغار ليرى شيئاً يستدل به على وجوب الرب سبحانه فأرى النجم الذي هو



أَضْثُوا النّجُوم فِي السَّمَاء فَقَالَ هَذَا رَبِّي إِلَىٰ أُخِر القِصَّة ثُمَّ القَائِلُونَ بِهَذَا القَوْل  
إِخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ أَنَّ هَذَا كَانَ قَبْلَ الْبُلُوغِ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ أَنَّ هَذَا كَانَ بَعْدَ  
الْبُلُوغِ وَجَرِيَان قَلَم التَّكْلِيف عَلَيْهِ وَإِنَّمَق أَكْثَر المَحْقَقِينَ عَلَىٰ فَسَاد أَن يَكُونَ  
هَذَا بَعْدَ الْبُلُوغِ وَإِحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِوُجُوه:

**الحجة الأولى:** أَنَّ القَوْل بَرَبُوبِيَّة النّجْم كُفْر بِالْإِجْمَاع وَالكُفْر غَيْر جَائِز  
بِالْإِجْمَاع عَلَى الْأَنْبِيَاء.

**الثانية:** أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ قَدْ عَرَف رَبَّهُ قَبْلَ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ بِالذَّلِيلِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ  
تَعَالَىٰ أَخْبَرَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ لِأَبِيهِ أَذْر، أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً أَنِّي أُرِيكَ  
وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ.

**الثالثة:** أَنَّ هَذِهِ الْوَاقِعَةُ أَتَمَّا وَقَعَتْ بَعْدَ أَن أَرَاهُ اللَّهُ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَ  
الْأَرْضِ حَتَّىٰ رَأَىٰ مِنْ فَوْقِ الْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ وَمَا تَحْتَهُمَا إِلَىٰ مَا تَحْتَ الثَّرَىٰ وَ  
مَنْ كَانَ مَنْصِبُهُ فِي الدِّينِ كَذَلِكَ وَ عِلْمُهُ بِاللَّهِ كَذَلِكَ كَيْفَ يَلِيْقُ بِهِ أَن يَعْتَقِدَ إِلَهِيَّةَ  
الْكَوَاكِبِ.

**أقول** ثُمَّ ذَكَرَ الرَّازِي وَجُوهًا كَثِيرَةً تَبْلُغُ أَثْنَيْ عَشَرَ عَلَىٰ إِثْبَاتِ مَدْعَاهُ وَهُوَ أَنَّ  
هَذِهِ الْقِصَّةَ كَانَتْ قَبْلَ الْبُلُوغِ لَا بَعْدَهُ وَمَنْ أَرَادَ الْإِطْلَاعَ عَلَىٰ جَمِيعِ الْوُجُوهِ  
الْمَذْكُورَةِ فَعَلِيْهِ بِمِرَاجَعَةِ كِتَابِهِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ.

وَالْحَقُّ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ الرَّازِي وَنَسَبَهُ إِلَىٰ أَكْثَرِ الْمَفْسَّرِينَ لَيْسَ فِي مَحَلِّهِ بَلْ  
الْحَقُّ أَن يُقَالَ بَعْضُ الْمَفْسَّرِينَ فَأَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَمْ يَذْكُرُوا ذَلِكَ، ثُمَّ أَنَّ الَّذِي ذَكَرُوهُ  
لَمْ يَذْكُرُوهُ كَمَا ذَكَرَهُ الرَّازِي بَلْ ذَكَرُوا الْقِصَّةَ إِلَىٰ قَوْلِهِ فَكَانَتْ الْإِمَامُ تَأْتِيهِ أحيانًا وَ  
تَرْضَعُهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ حَتَّىٰ كَبُرَ وَعَقْلٌ وَأَنَّ لَهُ رَبًّا الْخَ فَلَمْ نَرَهُ إِلَّا فِي هَذَا الْمَقَامِ  
نَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ نَقَلَهُ الرَّازِي وَكَيْفَ كَانَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ عَلَىٰ مَا نَقَلَهُ الرَّازِي نَظَرَ  
مِنْ وَجُوهٍ:

أحدها: أَنْ قوله حتَّى كبر و عقل و عرف أَنَّ له ربّاً، مناقض لقوله فسأل الأمّ فقال من ربّي و ذلك لأنّه لو عرف أَنَّ له ربّاً فكيف سأل أمّه عنه أليس سؤاله عم أمّه دليلاً على عدم معرفته بربّه.

ثانياً: أَنَّ الأنبياء و لا سيّما أولوا العظم منهم معصومون قبل البعثة و بعدها على التّحقيق و المعصوم من عصمه الله عن الذّنوب و الخطأ و النّسيان و أمثال ذلك فكيف قال إبراهيم لأمه كذا و كذا.

و قد ذكر الطّبري هذه القصّة في تفسيره بوجه آخر من أراد الوقوف عليها فعليه بمراجعة تفسيره في الآية هذا كلّه مع أَنَّ القصّة من أصلها مخدوشة تاريخية لا يمكن الإحتجاج بها و الذي نقطع به في المقام هو أَنَّ إبراهيم لما جنّ عليه اللّيل رأى كوكباً قال هذا ربّي الخ فهذا القدر ممّا لا كلام لنا فيه و أمّا تعيين زمان هذا القول و أنّه كان قبل البلوغ أو بعده و غير ذلك ممّا ذكره فلا دليل عليه في الآثار الصّحيحة اذا عرفت هذا فنقول:

ظاهر الآية أنّه عليه السلام بعد ما جنّ عليه اللّيل رأى كوكباً من الكواكب فقال هذا ربّي و أمّا أَنَّ الكوكب كان كوكب الزّهرة فلا دليل عليه و لا غرض في الكلام يتعلّق بتعيينه بل مدار البحث أنّما هو في الطّلوغ و الغروب من حيث الإستدلال على المدّعى و هما ثابتان لجميع الكواكب بل لجميع ما سوى الله من الخلق لثبوت الحدوث في الكلّ و أمّا قوله: فَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ معناه لا أحبّ المتغيّرين المتقلّبين من حالٍ إلى حالٍ و من مكانٍ إلى مكانٍ و ذلك لأنّ التّغير من صفات الأجرام و أنّما إحتجّ بالأفول دون البزوغ و كلاهما إنتقال من حالٍ إلى حالٍ لأنّ الإحتجاج بالأفول أظهر لكونه إنتقالاً مع خفاءٍ و إحتجابٍ هكذا قيل.

قال الرّازي بعد تفسيره الأفول بغيوبة الشّيء بعد ظهوره فلسائل أن يسأل فيقول الأفول أنّما يدلّ على الحدوث من حيث أنّه حركة و على هذا التقدير

فيكون الطلوع أيضاً دليلاً على الحدوث فلم ترك إبراهيم الاستدلال على حدوثها بالطلوع و عوّل على إثبات المطلوب على الأفل.

**والجواب** لا شك أن الطلوع والغروب يشتركان في الدلالة على الحدوث إلا أن الدليل الذي يحتج به الأنبياء في معرض دعوة الخلق كلهم الى الله لا بدّ و أن يكون ظاهراً جلياً بحيث يشترك في فهمه الذكي والغبي والعاقل ودلالة الحركة على الحدوث و أن كانت يقينية إلا أنها دقيقة لا يعرفها إلا الأفاضل من الخلق أما دلالة الأفل فأنها دلالة ظاهرة يعرفها كل أحد فأن الكوكب يزول سلطانه وقت الأفل فكانت دلالة الأفل على هذا المقصود أتم وأيضاً.

قال بعض المحققين الهوى في خطرة الإيمان أفل و أحسن الكلام ما يحصل فيه حصّة الخواصّ و حصّة الأوساط و حصّة العوام الى آخر ما قال انتهى موضع الحاجة من كلامه.

**وأنا أقول** قد أتعب الرّازي نفسه في المقام و أطال الكلام بما لا نفع فيه و ذلك لأن إبراهيم عليه السلام لما جنّ عليه الليل رأى الكوكب و كان طالعاً منيراً ولم ير طلوعه ليحتج به و أما أقوله فقد رآه هو و غيره لأنه كان محسوساً فلو قال أتني لا أحبّ الطالعين البازغين مثلاً بدل قوله لا أحبّ الأفلين، لم يكن صحيحاً عنده و لا عند غيره اذ لم يروا طلوعه و بزوغه ليبدل على الحدوث عند الخصم فكان للمدعي أن يدعي عدم حدوثه في الطلوع لأنّ طلوع الكوكب غير محسوس، و هذا بخلاف الأفل فأنه محسوس مشاهد للكل.

و اذا ثبت الأفل ثبت الطلوع بالملازمة العقلية اذ قد ثبت في العلوم العقلية أن كلّ موجود كان لوجوده آخر فله أوّل لا محالة و أن شئت قلت كلّ ما له نهاية فله بداية و بالعكس فإثبات أحدهما بعينه إثبات للآخر و حيث أن إثبات بدو الطلوع كان مشكلاً أثبت الأفل فتأمل.

و أما قوله: **قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ** حيث لم يقل لا أعبد الأفلين مثلاً، فلعل الوجه فيه هو أن المعبود لا بدّ أن يكون محبوباً فما ليس بمحبوب ليس بمعبود.

ثُمَّ أَنَّ الْأَفْلَ كائناً ما كان لا ينبغي أن يكون محبوباً وذلك لعدم بقاءه وثباته كيف وينقطع الحبّ بعدمه وبعبارة أخرى أقول الشّيء غيبوبته يوجب قطع الحبّ وإنقطاعه وكلّما كان كذلك فهو مبغوض لا محبوب فالأقول ليس بمحبوب وإذا كان كذلك فليس بمعبود وهو المطلوب.

ثُمَّ أَنَّ الْأَفْوَ يَدُلُّ عَلَى الْحُدُوثِ وَكُلِّ حَادِثٍ يَحْتَاجُ إِلَى فَاعِلٍ وَخَالِقٍ فَإِنْ كَانَ الْفَاعِلُ أَيْضاً حَادِثًا يَتَسَلَّلُ وَأَنْ كَانَ قَدِيمًا فَهُوَ الْمَطْلُوبُ إِذَا وَاسَطَةُ بَيْنِ الْحُدُوثِ وَالْقَدَمِ.

وَالسَّرُّ فِيهِ هُوَ أَنَّ الْمُمْكِنَ الْبَاقِيَّ مُحْتَاجٌ إِلَى الْمُؤَثَّرِ فِي بَقَاءِهِ كَمَا أَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ فِي حَدُوثِهِ فَلَوْ فَرضْنَا الْأَفْوَ فِي الْمُؤَثَّرِ يَلْزَمُ إِمَّا فَنَاءَ الْمَخْلُوقِ بِالْكَلْبِيَّةِ، وَ إِمَّا بَقَاءَهُ بِذَاتِهِ مِنْ غَيْرِ مُؤَثَّرٍ وَهُوَ كَمَا تَرَى فَتُبَيَّنَ وَ تَحَقَّقَ أَنَّ الْخَالِقَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْعَدَمُ وَلِذَلِكَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنِّي لَا أَحَبُّ الْأَفْلِينَ، هَذَا مَا فَهَمْنَاهُ مِنَ الْآيَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِكَلَامِهِ.

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ.

أَيُّ فَلَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمَ الْقَمَرَ بَازِغًا، أَيُّ طَالِعًا فَتَنَشَرَ الضُّوءُ وَأَنَّمَا لَمْ يَقُلْ فِي الْكُوكَبِ، بَازِغًا، لِأَنَّهُ أَوَّلًا مَا ارْتَقَبَ حَتَّى بَزَغَ الْكُوكَبُ بَلْ رَأَاهُ بَعْدَ طُلُوعِهِ وَ ظُهُورِهِ بِخِلَافِ الْقَمَرِ وَالشَّمْسِ فَإِنَّهُ كَانَ مُرْتَقِبًا لِهَمَا أَوْ رَأَى بَدُو طُلُوعَهُمَا وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمَّا أَوْضَحَ لَهُمْ أَنَّ الْكُوكَبَ لِأَجْلِ أَفُولِهِ لَا يَصْلَحُ أَنْ يَكُونَ رَبًّا ارْتَقَبَ مَا هُوَ أُنُورٌ وَأَضْوَاءُ مِنْهُ عَلَى سَبِيلِ إِحْقَاقِهِ بِالْكَوكَبِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى عَدَمِ صِلَاحِيَّتِهِ لِلْعِبَادَةِ فَلَمَّا رَأَى أَفُولَهُمَا أَيْضًا قَالَ فِيهِمَا مَا قَالَ فِي الْكُوكَبِ وَلِذَلِكَ قَالَ لِأَنَّهُ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي، إِلَى مَعْبُودِي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ أَيُّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ قَالُوا الْمُرَادُ بِهِمْ هُنَا عِبْدَةُ الْمَخْلُوقَاتِ كَالْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا.

قال الزّمخشري، لأن لم يهدني ربّي، تنبيه لقومه على من إتخذ القمر  
إلهًا نظير الكوكب في الأفل فهو ضال فأَنَّ الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه  
انتهى.

و محصل الكلام في المقام هو أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ استدل على عدم صلاحية القمر  
بالأفل كما استدل على عدم صلاحية الكوكب به أيضاً وقد تكلمنا في الأفول  
وأنه كيف يدل على الحدوث والتغير وما كان كذلك لا يكون رباً والفرق بين  
المقامين هو أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قد رأى بزوغ القمر وأفوله معاً وأما في الكوكب فلم ير  
بزوغه بل رأى أفوله فقط والأفل يدل على البزوغ بالإلتزام كما مرّ تحقيقه.

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ  
إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ

قال تعالى: بازغة ولم يقل بازغاً باعتبار تأنيث الشمس معنى ثم قال هذا و  
لم يقل، هذه، باعتبار اللفظ وقيل هذا الشيء الطالع، وقال بعضهم أَنَّ الشمس  
تذكر وتؤنث فأنثت أولاً على المشهور وذكّرت في الإشارة على اللغة القليلة  
مراعاةً ومناسبة للخبر فرجحت لغة التذكير التي هي أقل على لغة التأنيث وأما  
من لم ير فيها إلا التأنيث فقال: هَذَا لكونه إشارة إلى المرئي أو النير وقدره  
الأخفش، هذا الطالع، والمعنى قد علم مما ذكرناه سابقاً في الكوكب والقمر  
فأن الملاك في الكل الأفول وقد ثبت أَنَّ حكم الأمثال واحد فإذا كان الأفول  
دليلاً على عدم صلاحية الإفل للربوبية لحدوثه وتغيره فهو كذلك أينما وجد  
فنقول مثلاً، هذا آفل، وكل آفل لا يصلح للربوبية فهذا لا يصلح لها سواء كان  
الأفل كوكباً أو قمرًا أو شمساً أو غير ذلك من الأفلين.

وفي قوله: مِمَّا تُشْرِكُونَ إشارة إلى الأجرام التي كانوا يجعلونها شركاء  
لخالقها.

قال بعض المفسرين، الإعتبار في عدم الصّلاحية أنّما هو بوجود الملاك الأفلو ولا خصوصيّة للكوكب والقمر والشمس في عدم صلاحيتها للآلهيّة بل جميع الحوادث كذلك إلا أنّ تخصيصها بالذكر لنكتته وهي أنّ هذه الأجرام النيرة الرّفيعة إذا لا تصلح للرّبوبية فأصنامكم التي من خشب وحجارة أولى وأحرى بعدم صلاحيتها لها.

أعلم أنّ الرّازي نقل في تفسيره في المقام عن الغزالي في بعض كتبه ما هذا لفظه.

قال، المسألة السادسة، تفلسف الغزالي في بعض كتبه وحمل الكوكب على النّفس النّاطقة الحيوانية التي لكل كوكب، والقمر على النّفس النّاطقة التي لكل فللك، والشمس على العقل المجرد الذي لكل ذلك وكان أبو علي بن سينا يفسّر الأفلو بالإمكان فزعم الغزالي أنّ المراد بأفلوها إمكانها في نفسها وزعم أنّ المراد من قوله، لا أحبّ الأفلين أنّ هذه الأشياء بأسرها ممكنة الوجود لذواتها وكلّ ممكن فلا بدّ له من مؤثّر ولا بدّ له من الإنتهاء الى واجب الوجود.

وأعلم أنّ الكلام لا بأس به إلاّ أنّه يبعد حمل لفظ الآية عليه، ومن النّاس من حمل الكوكب على الحسّ والقمر على الخيال والوهم، والشمس على العقل والمراد أنّ هذه القوى المدركة الثلاثة قاصرة متناهية ومدبر العالم مسؤول عليها قاهر لها انتهى كلامه.

وأنا أقول أمّا ما ذكره الغزالي من حمل الكوكب على النّفس النّاطقة التي لكل كوكب، والقمر على النّفس النّاطقة التي لكل فللك والشمس على العقل المجرد الذي لكل ذلك، فهو أشبه شيء بالخرافات التي كانوا عليها في علم الهيئة والفلسفة في القديم قبل ظهور العلم وأمّا بعده فلا قيمة لها، ومن أعظم

المصائب حمل كلام الله على هذه الأباطيل و الموهومات التي لفّقها بطليموس اليوناني و أمثاله بظّنه الفاسد و العجب من الرّازي في قوله و إعلم أنّ هذا الكلام لا بأس به إلاّ أنّه يبعد حمل لفظ الآية عليه.

وجه التّعجب أنّه يظهر من كلامه قبول أصل الحكم إلاّ أنّه يبعد حمل لفظ الآية عليه خوفاً من التّكفير أو عدم مناسبة اللفظ لهذه المحامل و ليس هذا أوّل قارورة كسرت في الإسلام، وليت شعري من أثبت النّفس النّاطقة الحيوانية لكلّ كوكبٍ و هو جرمٌ لا شعور له ثمّ من أثبت النّفس النّاطقة لكلّ فلکٍ و الفلك لا وجود له في الخارج إلاّ فرضاً لأنّه عبارة عن مدار الكوكب فكلّ كوكبٍ له مدار يسمّى بالفلك فكيف يكون للموجود الفرضي الوهمي نفس ناطقة ثمّ من أثبت العقل المجرد لكلّ ذلك و للبحث في هذه الأمور مقام آخر.

والَّذِي نقول في المقام هو أنّ هذه الخرافات لا تليق بالذّكر في تفسير كلام الله تعالى و من هذا القبيل ما نقل عن القشيري أنّه قال: لَمَّا جَنَّ عليه اللَّيْلُ، أحاط به سجوف الطلب و لم يَتَجَلَّ له بعد صباح الوجود فطلع له نجم العقول فشاهد الحقّ بسرّه بنور البرهان فقالَ هَذَا رَبِّي ثمّ زيد في ضياءه فطلع قمر العلم و طالعه بسرّ البيان فقال هذا ربّي ثمّ أسفر الصّبح و متع النّهار و طلعت شمس العرفان من برج شرفها فلم يبق للطلّاب مكان و لا للتّجويز حكم و لا للثّهمة قرار فقال: إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ اذ ليس بعد البعث ريب و لا بعد الظّهور ستر انتهى.

قال النّاقل لهذه الكلمات و العجب كلّ العجب من قوم يزعمون أنّ هؤلاء المنسويين إلى المتصوّفة هم خواصّ الله و كلامهم في كتاب الله هذا الكلام انتهى.

بقي في المقام شيء لا بد لنا من التَّعرض له وهو أنَّ إبراهيمَ عليه السلام كان من الأنبياء وقد ثبت أنَّ النَّبي يكون معصوماً قبل البعثة وبعدها على مذهب الإمامية ومن كان كذلك فكيف يكون شاكاً في ربِّه فتارة يقول هذا ربِّي وتارة يقول هذا ربِّي الخ أليس هذا دليلاً على شكِّه في معبوده ومن كان كذلك فكيف تقولون فيه بالعصمة.

فنقول في الجواب عنه من وجهين:

**أحدهما:** أن يكون الغرض من هذا الإستدلال هو تعليمه قومه أو كلَّ العباد في معرفة الخالق، فجعل نفسه منهم ليكون أوقع في القلوب وأقرب إلى القبول فكأنَّه عليه السلام عرَّف بذلك كَيْفِيَّةَ الإستدلال من الحدوث على الواجب.

**ثانيهما:** أن يكون ذلك على سبيل الإنكار على قومه والنَّبيه لهم على أنَّ ما يغيب و ينتقل من حالٍ إلى حالٍ لا يجوز أن يكون إلهاً معبوداً، لا أنَّه كان على شكٍّ في معرفة ربِّه و عليه فتقدير الكلام أهذا ربِّي، ثمَّ أسقط حرف الإستفهام للإستغناء عنه كقول الشَّاعر:

كذبتك عينك أم رأيت بواسطٍ      غلَس الظلام من الزباب خيالاً  
وقال آخر:

لعمرك ما أدري وأن كنتُ دارياً      بسبعِ رمين الجمر أم بثمانٍ  
والتقدير، أكذبتك، وأبسع، وقال آخر:

ثمَّ قالوا نُحبُّها قلْتُ بهراً      عدد النجم والحصى والثراب  
والتقدير أُنحبُّها، والأشعار من فصحاء العرب في الباب كثيرة جداً، و عليه فمعنى قوله أهذا ربِّي، ليس هذا ربِّي كما هو مقتضى الإنكار.

وقال بعض المحققين معناه، هو كذلك عندكم وعلى مذهبكم، وهو لا ينافي أن يكون إبراهيم عالماً بفساد ذلك كما يقال هذا ربِّي وهو جسمٌ يتحرك



ويسكن، أي أنتم تقولون كذلك، فبهذه الوجوه قد ظهر أن إبراهيم، ما كان شاكاً في توحيده وأما قال عليه السلام ما قال على سبيل الإنكار، أو التعليم أو غير ذلك من الوجوه المحتملة والله تعالى أعلم بما قال.

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا أنكر إبراهيم عليه السلام أن يكون ربه الكوكب أو القمر أو الشمس بدليل حدوثها وأقولها قال أني وجَّهْتُ وجهي، وهذا من التجنيس المغاير. الأول فعل والثاني إسم والمعنى قصدي وعبادتي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ السَّمَوَاتِ ظرف للكواكب والشمس والقمر معبوداتهم من دون الله إكتفى به عن المظروف لعمومه اذ هذه النيران مظروف السموات والأرض معطوف على السموات لكونها ظرفاً للخشب والحجارة حَنِيفًا أي مائلاً عن كل دين الى دين الحق وهو عبادة الله مُسْلِماً أي مستسلاً ومنتقاداً اليه وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أي أني لست منكم ولا من يدين بدينكم ويتبع ملتكم

قال بعض المفسرين وأما قوله: لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ففيه دققة أنه لم يقل وجَّهْتُ وجهي الى الذي فطر السموات والأرض بل ترك هذا اللفظ وذكر قوله وجَّهْتُ وجهي للذي، والمعنى أن توجيه وجه القلب ليس اليه لأنه متعالٍ عن الحيّز والجهة بل توجيه وجه القلب الى خدمته وطاعته لأجل عبوديته فترك كلمة، الي، هنا، والإكتفاء بحرف اللام دليل ظاهر على كون المعبود متعالياً عن الحيّز والجهة ومعنى فطر أخرجهما الى الوجود وأصله من الشق انتهى كلامه ولا بأس به.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

وَ حَاجَّةٌ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ  
 هَدَيْتَنِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ  
 رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا  
 تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا  
 تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ  
 عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ  
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا  
 إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ يُهْتَدُونَ  
 (٨٢) وَ تِلْكَ حُجَّتُنَا إِنْرَاهِمُ عَلَى قَوْمِهِ  
 نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ  
 عَلِيمٌ (٨٣)

### ◀ اللغة

حَاجَّةٌ بتشديد الجيم من المحاجة وهى أن يطلب كل واحد أن يرُد الآخر  
 عن حجته وحجته.  
 لَمْ يَلْبِسُوا، اللبس الإلتباس، يقال لابست الأمر أي زاولته ولا بست فلائاً  
 خالطته والباقي واضح.

### ◀ الإعراب

أَتُحَاجُّونِي يقرأ بتشديد التّون على إدغام نون الرفع في نون الوقاية و  
 الأصل تحاجونني، ويقرأ بالتخفيف على حذف إحدى النونين المحذوفة  
 وجهان.

أحدهما: هي نون الوقاية لأنها الزائدة التي حصل بها الإستقبال.

الثاني: المحذوفة نون الرفع لأن الحاجة دعت الى نون مكسورة من أجل الياء ونون الرفع لا تكسر.

مَا تُشْرِكُونَ مَا، بمعنى الذي أي ولا أخاف الصنم الذي تشركون به، أي بالله، فالهاء في، ضمير إسم، الله ويجوز أن تكون عائدة على، ما، أي ولا أخاف الذي تشركون بسببه، ويجوز أن تكون، ما، نكرة موصوفة وأن تكون مصدرية إِلَّا أَنْ يَشَاءَ إِسْتِثْنَاءٌ مِنْ جِنْسِ الْأَوَّلِ تَقْدِيرُهُ أَي فِي حَالِ مَشِيئَةِ رَبِّي أَي لَا أَخَافُهَا فِي كُلِّ حَالٍ إِلَّا فِي هَذِهِ الْحَالِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ غَيْرِ الْأَوَّلِ أَي لَكِنْ أَخَافُ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي خَوْفِي مَا أَشْرَكْتُمْ وَشَيْئًا نَائِبٌ عَنِ الْمَصْدَرِ أَي مَشِيئَتِهِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا بِهِ أَي إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي أَمْرًا غَيْرَ مَا قُلْتُ وَعِلْمًا تَمْيِيرَ وَكُلِّ شَيْءٍ مَفْعُولٍ، وَسِعَ، أَي عِلْمُ كُلِّ شَيْءٍ وَكَيْفَ أَخَافُ كَيْفَ، حَالٍ، وَالْعَامِلُ فِيهَا وَمَا أَشْرَكْتُمْ مَا، بِمَعْنَى، الَّذِي أَوْ نَكْرَةً مَوْصُوفَةً وَالْعَائِدُ مَحْذُوفٌ، وَقِيلَ مَصْدَرِيَّةٌ مَا لَمْ، بِمَعْنَى الَّذِي أَوْ نَكْرَةً مَوْصُوفَةً وَهِيَ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ بِأَشْرَكْتُمْ وَعَلَيْكُمْ مَتَّعَلِقٌ بَيْنَزَلُ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ سُلْطَانَا أَي مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ حُجَّةٌ عَلَيْكُمْ الَّذِينَ آمَنُوا هُوَ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ بِمَحْذُوفٍ أَي هُمُ الَّذِينَ، وَقِيلَ هُوَ مُبْتَدَأٌ وَأُولَئِكَ بَدَلٌ مِنْهُ أَوْ مُبْتَدَأُ ثَانٍ لَهُمْ أَلَا مَنُ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرُ وَالْجُمْلَةُ خَبَرٌ لَهَا قَبْلُهَا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْنُ مَرْفُوعًا بِالْجَارِ لِأَنَّهُ مُعْتَمِدٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ وَتِلْكَ مُبْتَدَأٌ وَحُجَّتُنَا فِيهِ وَجْهَانُ:

أحدهما: هو بدل من تلك.

وفي آتيناها وجهان:

أحدهما: هو خبر عن المبتدأ وعلى قومه متعلق بمحذوف أي آتيناها إبراهيم حجة على قومه أو دليلاً.

الثَّانِي: أن تكون حَجَّتَنَا خبر، تلك، و آتيناها في موضع الحال من الحَجَّة و العامل معنى الإشارة نَرَفَعُ في موضع الحال من آتيناها ويجوز أن يكون مستأنفاً و يقرأ بالتَّوْن و الياء وكذلك في، نشاء، والمعنى ظاهر دَرَجَاتٍ يقرأ بالإضافة و هو مفعول، نرفع و درجات ظرف أو حرف الجر محذوف منها أي الى درجاتٍ.

### ◀ التفسير

وَ حَاجَّهُ قَوْمُهُ أَي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ قومه في وجوب عبادة الله و ترك عبادة  
آلهتهم و خوفه على ذلك فقال لهم إِبْرَاهِيمُ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْتَنِي  
الِإِسْتِهَام لِلْإِكْرَارِ أَي لَا تَحَاجُّونِي فِيهِ وَ الْحَالُ أَنَّهُ تَعَالَى قَدْ هَدَانِي، بَأَن وَفَّقَنِي  
لِمَعْرِفَتِهِ وَ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ أَي لَا أَخَافُ مِنْهُ  
ضَرراً عَلَيْهِ تَعَالَى كَمَا لَا أَرْجُوا نَفْعاً لَهُ إِنْ عِبَدْتُمُوهُ إِذْ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاهُ  
كَمَا لَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مِنْ أَطَاعِهِ، وَ قِيلَ عَدَمُ الْخَوْفِ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ وَ الْمَعْنَى أَنِّي لَا  
أَخَافُ عَلَيْكُمْ ضَرَاراً إِنْ كَفَرْتُمْ بِالْأَصْنَامِ كَمَا لَا أَرْجُوا لَكُمْ نَفْعاً إِنْ عِبَدْتُمُوهُا  
فَكَيْفَ تَحَاجُّونِي وَ تَدْعُونَنِي إِلَى عِبَادَةِ مَنْ لَا يَخَافُ ضَرْرَهُ يَرْجِي نَفْعَهُ إِلَّا أَنْ  
يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً قَالَ الْمَفْسِّرُونَ فِيهِ قَوْلَانِ.  
ذَكَرَهُمَا الشَّيْخُ فِي التَّبْيَانِ.

أحدهما: معناه إِلَّا أَنْ يَقْلِبَهَا اللَّهُ فِيحْيِيهَا وَيَقْدِرُهَا فَتَضُرَّ وَ تَنْفَعُ فَيَكُونُ  
ضَرَرُهَا وَ نَفْعُهَا إِذْ ذَاكَ دَلِيلاً عَلَى حَدُوثِهَا أَيْضاً وَ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَ أَنَّهُ  
الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ دُونَ غَيْرِهِ وَ أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِ تَعَالَى  
فَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَ أَمْرُهُمْ بِالْتَّذْكِيرِ وَ التَّدْبِيرِ لَمَّا أوردَهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا لَا  
يُدْفَعُونَهُ يَقْدِرُونَ عَلَى إِنْكَارِهِ أَنْ أَنْصَفُوا.

الثَّانِي: قَالَ الْحَسَنُ قَوْلُهُ: وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ أَي لَا أَخَافُ الْأَوْثَانَ  
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي إِسْتَوْجِبَهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَوْ يَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْخُلَنِي فِي  
مِلَّتِكُمْ بِالْكَفَرِ وَ الْأَوَّلُ هُوَ الْأَجُودُ انْتَهَى مَا ذَكَرَهُ فِي التَّبْيَانِ.

وقال الرّازي في قوله: **وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ** بِهِ أَنَّهُ جَوَابٌ عَنْ حُجَّتِهِمُ الثَّانِيَةِ وَهِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا خَوْفُوهُ بِالْأَصْنَامِ وَحَاصِلُ الْجَوَابِ أَنَّ الْخَوْفَ أَنَّمَا يَحْصُلُ مِمَّنْ يَقْدِرُ عَلَى النَّفْعِ وَالضَّرِّ وَالْأَصْنَامُ جِمَادَاتُ لَا تَقْدِرُ وَلَا قُدْرَةَ لَهَا عَلَى النَّفْعِ وَالضَّرِّ فَكَيْفَ يَحْصُلُ الْخَوْفُ مِنْهَا.

وقال في قوله: **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي** فِيهِ وَجْهُ:

**أَحَدُهَا:** إِلَّا أَنْ أَذْنِبَ فَيَشَاءُ إِنْزَالَ الْعُقُوبَةِ بِي.

**ثَانِيهَا:** إِلَّا أَنْ يَشَاءَ أَنْ يَبْتَلِيَنِي بِمَحْنِ الدُّنْيَا فَيَقْطَعَ عَنِّي بَعْضَ عَادَاتِ نِعَمِهِ.

**ثَالِثُهَا:** إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي فَأَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ بِأَنْ يَحْيِيَهَا وَيُمْكِنَهَا مِنْ ضَرَرِي وَنَفْعِي وَيَقْدَرُهَا عَلَى إِيصَالِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ إِلَيَّ وَاللَّفْظُ يَحْتَمِلُ كُلَّ هَذِهِ الْوُجُوهِ أَنْتَهَى.

**أَقُولُ** الْمَحَاجَّةُ الْمَجَادِلَةُ وَالْمَغَالِبَةُ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ، وَالْحُجَّةُ الدَّلَالَةُ الْمُبَيِّنَةُ لِلْمَحُجَّةِ أَيْ الْمَقْصِدُ الْمُسْتَقِيمُ وَأَصْلُ الْمَحُجَّةِ وَسَطُ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ وَتَطْلُقُ الْحُجَّةُ عَلَى كُلِّ مَا يَدُلُّ بِهِ أَحَدُ الْخَصْمَيْنِ فِي إِثْبَاتِ دَعْوَاهُ أَوْ رَدِّ دَعْوَى خَصْمِهِ فَتَقْسَمُ إِلَى حُجَّةٍ نَاهِضَةٍ يَثْبِتُ بِهَا الْحَقَّ وَحُجَّةٍ دَاهِضَةٍ يَمُوهُ بِهَا الْبَاطِلُ وَأَمَّا يَسْمَى مَا لَا يَثْبِتُ بِهَا الْحَقَّ حُجَّةً عَلَى سَبِيلِ إِدْعَاءِ الْخَصْمِ حِكَايَةً لِقَوْلِهِ وَاصْطَلَحُوا عَلَى تَسْمِيَّتِهَا شَبْهَةً إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَقَوْلُ يَظْهَرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْمَحَاجَّةَ كَانَتْ مِنَ الطَّرَفَيْنِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى، وَحَاجَّهُ قَوْمَهُ، يَدُلُّ عَلَى إِحْتِجَاجِ الْقَوْمِ آيَاهُ، وَقَوْلُهُ: **أَتَحَاجُّونَنِي** دَلِيلٌ عَلَى إِحْتِجَاجِ إِبْرَاهِيمَ وَهَذَا ظَاهِرٌ إِلَّا أَنَّ أَحَدَهُمَا، حَقٌّ وَالْآخَرُ بَاطِلٌ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ إِحْتَجَّجُوا بِمَا حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ بقوله: **قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**<sup>(١)</sup> وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذَا الْإِحْتِجَاجَ بَاطِلٌ عَقْلًا لِأَنَّهُ أَوْقَعَهُمْ فِي الضَّلَالَةِ قَطْعًا وَالْوَجْهُ فِيهِ وَهُوَ أَنَّ التَّقْلِيدَ فِي الْإِعْتِقَادَاتِ لَا وَجْهَ لَهُ وَلِذَلِكَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فِي جَوَابِهِمْ، أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ، عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ أَيْ لَا تَحَاجُّونِي فَأَنِّي عَلَى هِدَايَةٍ مِنْ رَبِّي وَلَسْتُ مَقْلُدًا فِي تَوْحِيدِي

في تفسير القرآن

جزء ٧

الجلد السادس

آيَاهُ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا تَخَوْفُونِي مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالْأَصْنَامِ أَنْ تَصِيَّبَنِي بِسَوْءٍ فَأَنْتَ أَعْلَمُ أَنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَبْصُرُ وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تَقْرُبُ وَلَا تَشْفَعُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا الْإِسْتِثْنَاءُ مِنْ عَمُومِ الْخَوْفِ فِي عَمُومِ الْأَوْقَاتِ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا أَرَادَ شَيْئًا لَا مَرَدَّ لَهُ فَلَا تَأْثِيرَ لَشَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي جَنْبِ مَشِئَتِهِ وَلَا قُدْرَةَ لِلخَلْقِ فِي جَنْبِ قُدْرَتِهِ وَوَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَيُّ أَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ وَأَحَاطَ بِهِ فَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاءِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَشِئَتُهُ نَاشِئَةٌ عَنْ عِلْمِهِ الْمَحِيطِ بِكُلِّ الْأَشْيَاءِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ أَيُّهَا الْغَافِلُونَ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لِلْعَالَمِ رَبًّا خَالِقًا غَيْرَ هَذِهِ الْأَلَةِ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْقِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ أَنَّ نِسْبَةَ جَمِيعِ الْخَلْقِ إِلَى الْخَالِقِ وَاحِدَةٌ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَأَنَّ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ وَالْأَصْنَامَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا فَكَيْفَ غَفَلُوا عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَسَلَكُوا مَسْلَكًا آخَرَ وَلِذَلِكَ عَبَّرَ بَعْدَ التَّذَكُّرِ فَتَعَالَى.

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَأْكِيدٌ لِمَا قَدَّمَ مِنَ الْحِجَاجِ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ، كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ بِهِ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ الْمَخْلُوقَةِ الَّتِي قَدْ بَيَّنَّ أَنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَالْحَالُ أَنَّكُمْ لَا تَخَافُونَ مِنَ اللَّهِ الْقَادِرِ عَلَى الضَّرِّ وَالنَّفْعِ بَلْ تَجْعَلُونَ لَهُ شُرَكَاءَ فِي مَلِكِهِ وَتَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِهِ بِغَيْرِ حُجَّةٍ سُلْطَانٍ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَنَا وَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ مِنَ الْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا تَقُولُونَ وَتَعْتَقِدُونَ وَقِيلَ أَنْ كُنْتُمْ تَسْتَعْمِلُونَ عُقُولَكُمْ وَعُلُومَكُمْ وَتَجْتَنِبُونَ الْهَوَى وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ الْأَحَقَّ بِالْأَمْنِ هُوَ الْمُؤْمِنُ الْمُوَحِّدُ الْمُعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَا الْأَحْجَارَ وَالْأَصْنَامَ وَالْكَوَاكِبَ وَمَا شَابَهَهَا مِمَّا لَا يَضُرُّ

ولا ينفع والى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله بعد هذه الآية فقال: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَالظُّلْمُ فِي الْآيَةِ هُوَ الشَّرْكُ عِنْدَ أَكْثَرِ الْمَفْسِّرِينَ لقوله تعالى حكاية عن لقمان: يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ<sup>(١)</sup>.

قال بعض المفسرين أَنَّ الْآيَةَ اخْبَارٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّ مِنْ عَرَفَ اللَّهَ وَصَدَّقَ بِهِ وَبِمَا أَوْجَبَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَخْلُطْ ذَلِكَ بِالظُّلْمِ وَالشَّرْكَ فَأَنَّ لَهُ الْأَمْنَ مِنَ اللَّهِ بِحَصُولِ الثَّوَابِ وَالْأَمَانِ مِنَ الْعِقَابِ وَهُوَ الْمَحْكُومُ لَهُ بِالْإِهْتِدَاءِ وَقَالَ الْآخَرُونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنَّهُ لَمَّا قَطَعَ خَصْمَهُ وَأَلْزَمَهُ الْحُجَّةَ أَخْبَرَهُ فَقَالَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ فَاتَّهَمُوا الْآمِنُونَ الْمُهْتَدُونَ قَالُوا وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ مَنْ وَضَحَتْ حُجَّتُهُ وَانْقَطَعَ بَعْدَ الْبَيَانِ خَصْمُهُ وَقَدْ رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ شَقَّ عَلَى النَّاسِ وَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَآيُنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ<sup>(٢)</sup> إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ.

الْحَقُّ أَنَّ الْآيَةَ بِصَدَدِ بَيَانِ مَا هُوَ الْحَقُّ فِي الْمَقَامِ وَهُوَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا اسْتَمَرَّ عَلَى إِيمَانِهِ إِعْتِقَادًا وَعَمَلًا فَهُوَ آمِنٌ مِنَ الْفِرْعِ يَوْمَ الْأَكْبَرِ وَالْأَفْلَا وَهَذَا لَا يَنَافِي إِحْتِمَالِ الْعَفْوِ وَلَا فَرْقٍ فِيهِ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِالظُّلْمِ فِي الْآيَةِ الشَّرْكُ أَوْ غَيْرُهُ مِنْ أَقْسَامِ الظُّلْمِ بِحَسَبِ اللَّفْظِ فَتَخْصِيصُ الظُّلْمِ فِيهَا بِالشَّرْكَ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ.

نَعَمْ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ مَصَادِيقِ الظُّلْمِ وَهَذَا مِمَّا لَا كَلَامَ فِيهِ وَمَجْرَدُ إِطْلَاقِ الظُّلْمِ عَلَى الشَّرْكَ فِي قَوْلِهِ أَنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ، لَا يَكْفِي فِي حَمْلِ الظُّلْمِ عَلَى الشَّرْكَ أَيْنَمَا وَجَدَ أَوْ يَذْكَرُ وَعَلَيْهِ فَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ وَاسْتَمَرَّ عَلَى إِيمَانِهِ وَمَاتَ عَلَيْهِ فَلَهُ الْأَمْنُ وَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ فَلَا يَأْمَنُ مِنَ الْعَذَابِ وَهُوَ كَذَلِكَ وَأَمَّا الْمَشْرُوكُ فَقَدْ خَرَجَ عَنِ الْإِيمَانِ وَدَخَلَ فِي الْكُفْرِ

فخروجه عن الآية تخصص لا تخصيص ولو كان الأمر كما ذكروه فيصير معنى الآية أنَّ المشرك ليس له الأمن وأما غيره كائناً من كان فله الأمن وبعبارة أخرى من لم يشرك فهو في الأمن أتى بجميع أقسام الظلم غير الشرك، وإثباته يحتاج إلى الدليل.

ومحصل الكلام هو أنَّ المؤمن الظالم أن تاب قبل موته منه فهو مغفور له طبقاً للآيات والأخبار وأن لم يتب ومات وهو ظالم فأمره إلى الله إن شاء عفى عنه وأن شاء عذبه ومن المعلوم أنَّ احتمال العفو لا ينافي الآية فأنَّ مفهوم الآية أنَّ المؤمن إذا لبس إيمانه بظلم فليس له الأمن إلا أن يتوب عنه والله أعلم بمراحده وبما ذكرناه يظهر لك أنه لا فرق بين أن تكون الآية حكاية عن قول إبراهيم عليه السلام أو لم تكن وقيل أنها مختصة بالمهاجرين وهو أيضاً كما ترى لا دليل عليه.

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا إِنِّيْنَاهَا إِِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ

الدَّرَجَاتِ المراتب فأنَّ الدَّرَجَةَ هي المرتبة وهي في أصل اللغة المراقي فشبه غلو المنازل بها ومعنى الآية هو أنَّ الحجج التي ذكرها إبراهيم لقومه أتاه الله آياتها وأعطاها آياته للاحتجاج بها على الكفار ولهذا جعلها حجة عليهم. وأما قوله: نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ فقال المفسرون المراد بهم المؤمنون الذين يؤمنون بالله ويطيعونه ويبلغون من الإيمان والدعاء إلى الله منزلة عظيمة وأعلى درجة ممن لم يبلغ من الإيمان مثل منزلتهم وبين أنَّه حكيم فيما يذبره من أمور عباده عليهم بهم وبأعمالهم قالوا وفي ذلك دلالة على صحة المحاجة والمناظرة في الدين والدعاء إلى توحيد الله والاحتجاج على الكافرين لأنه تعالى مدح ذلك واستصوبه ومن حرَّم الحجج فقد ردَّ صريح القرآن قاله في التبيان.



أقول ما ذكره رحمته لا بأس به إلا أنّ حمل الآية على العموم لتشمل الأنبياء و  
الأوصياء أيضاً أولى من حملها على خصوص المؤمنين المطيعين:  
قال الله تعالى: تِلْكَ أَلْرُسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ  
اللَّهُ <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَ لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَ اتَيْنَا دَاوُودَ  
زَبُورًا <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا  
يَعْمَلُونَ <sup>(٣)</sup>.

وعلى هذا لا يبعد أن يكون المراد في المقام هو إبراهيم عليه السلام حيث فضله  
الله تعالى على أكثر الأنبياء وكيف كان فالمعنى واضح لا خفاء فيه.



وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا  
 هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَ  
 أَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ  
 نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَ  
 عِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَ  
 إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا  
 فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَ  
 ذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ  
 إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي  
 بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ  
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ  
 اتَّخَذْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا  
 هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُو بِهَا بِكَافِرِينَ  
 (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيِهِمْ أَقْتَدِهِ قُلْ  
 لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرِي  
 لِلْعَالَمِينَ (٩٠)

## ◀ اللغة

وَهَبْنَا الهبة في الأصل أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض ويوصف الله تعالى بالواهب بمعنى أنه يعطي كلاً على استحقاقه.  
 وَاجْتَبَيْنَاهُمْ إجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي يتحصل منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء.

لَحَبِطَ أَصْلَ الحَبِطِ وَهُوَ أَنْ تَكْثُرَ الدَّابَّةُ أَكْلًا حَتَّى يَنْتَفِخَ بَطْنُهَا، قَالَه الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ وَ الْمَرَادُ هُنَا حَبِطَ الْعَمَلِ.

### ◁ الإعراب

كُلًّا هَدَيْنَا كَلًّا مَنْصُوبٌ بِهَدَيْنَا وَ التَّقْدِيرُ كَلًّا مِنْهُمَا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْكَافَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبَ نَعْتًا لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ أَيْ وَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ جَزَاءً مِثْلَ ذَلِكَ ذَلِكَ مُبْتَدَأٌ وَ هُدًى إِلَهُ خَبْرُهُ وَ يَهْدِي بِهِ حَالٌ مِنَ الْهَدْيِ وَ الْعَامِلُ فِيهِ لِلْإِشَارَةِ وَ مِنْ عِبَادِهِ حَالٌ مِنْ (مَنْ) أَوْ مِنَ الْعَائِدِ الْمَحْذُوفِ.

### ◁ التفسير

وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ الْهَاءُ فِي قَوْلِهِ: لَهُ كُنَايَةٌ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِإِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ، وَ أُمُّهُ سَارَةُ وَ أَمَّا يَعْقُوبُ فَهُوَ مِنْ أَوْلَادِ إِسْحَاقَ كُلًّا هَدَيْنَا وَ التَّقْدِيرُ هَدَيْنَا كَلًّا مِنْهُمَا وَ نُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَيْ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّ نُوحًا كَانَ قَبْلَهُ زَمَانًا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَ سُلَيْمَانَ أَيْ وَ هَدَيْنَا أَيْضًا دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ نَسَقًا عَلَى نُوحٍ هَذَا إِذَا قُلْنَا أَنَّ الْهَاءَ فِي، ذُرِّيَّتِهِ رَاجِعَةٌ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ رَاجِعَةٌ إِلَى نُوحٍ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْمَذْكُورِينَ كُلَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ. قَالَ الْجَبَائِي الْهَاءُ لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ كُنَايَةً عَنْ إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّ لُوطًا لَمْ يَكُنْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ بَلْ كَانَ ابْنُ أُخْتِهِ أَوْ ابْنُ أَخِيهِ.

وَ قَالَ الْمَفْسَّرُونَ مَا قَالَه الْجَبَائِي لَيْسَ بِشَيْءٍ لِأَنَّهُ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ غَلَبَ الْأَكْثَرُ أَلَا تَرَى أَنَّ الْيَاسَ هُوَ إِدْرِيسُ النَّبِيِّ وَ هُوَ جَدُّ نُوحٍ عَلَى قَوْلِ بَعْضِهِمْ وَ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ هُوَ ابْنُ أَخِي مُوسَى وَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْهَاءُ كُنَايَةً عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَ يَكُونُ مِنْ سَمَاهُمْ إِلَى قَوْلِهِ: كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ثُمَّ قَالَ: وَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطًا فَعَطَفَهُمْ عَلَى قَوْلِهِ: وَ نُوحًا هَدَيْنَا إِلَى وَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ أَيْ اخْتَرْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ الَّتِي لَا إِعْوَاجَ فِيهَا ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلِذَلِكَ نَقُولُ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وفيه إشارة الى أَنَّ الهداية من الله والطلب من العبد وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يحتمل أن يكون المراد الأباء والدُّريات والأخوان، أي لو أشركوا، هؤلاء المذكورين لحبط عنهم ما كانوا يعملون في دار الدنيا.

وأن يكون المراد هم والأنبياء جميعاً كما قال الله تعالى مخاطباً لنبيه لَنُؤْتِيَنَّكَ لِيَخْبِطَنَّ عَنْكَ وَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ<sup>(١)</sup> وستكلم في معنى الآية هناك إن شاء الله.

### أُولَئِكَ الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ

أي أولئك الأنبياء أتيناهم الكتاب والحكم والنُّبوة فهو إشارة الى من تقدّم ذكره منهم فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ أَي فَن يَكْفُرُ بِالنُّبوة هؤلاء الكفار في ذلك الوقت فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا أَي وَكَّلْنَا بِمِرَاعَةِ أَمْرِ النُّبوة وتعظيمها والأخذ بهدي الأنبياء وتصديقهم قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا أَي بِالنُّبوة وما يتَّبِعُهَا بِكَافِرِينَ ففي الآية دلالة على أَنَّ الله تعالى يَتَّوَعِدُ من يعلم أنه لا يُشْرِكُ ولا يضيق كالنبي و الوصي وَأَنَّ الوعد والوعيد قد يكونان بشرطٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ أَي حكم لهم بالهداية والرِّشاد وزادهم هدى حين إهتدوا والمراد بهم الأنبياء الَّذِينَ تقدّم ذكرهم ثُمَّ أَمْرُ نَبِيِّهِ بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ فَقَالَ فَبِهَدْيِهِمْ أَقْتَدِهْ فِي الْأَخْذِ بِهِدَاهُمْ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى وَالْمَحْنِ وَقِلْ لَهُمْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَي عَلَى الْأَدَاءِ وَالْإِبْلَاحِ أَجْرًا وَأَمَّا أَجْرِي عَلَى اللَّهِ تعالى.

إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ كلمة (أَنْ) نافية والمعنى ليس بالإبلاغ وأداء الرِّسالة إِلَّا لَتَنْبِيهِ الْعَالَمِينَ عَلَى مَا يَلْزَمُهُمْ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَالْقِيَامِ بِشُكْرِهِ.

وإعلم أنّ في الآية دلالة على أنّ الحسن والحسين عليهما السلام من ولد رسول الله ﷺ لأنّ عيسى عليه السلام جعله الله فيها من ذرية إبراهيم أو نوح وأتما كانت أمّه من ذريتهما.

قال الرّازي في تفسير لهذه الآية، الآية تدلّ على أنّ الحسن والحسين من ذرية رسول الله ﷺ لأنّ الله جعل عيسى من ذرية إبراهيم عليه السلام مع أنّه لا ينتسب الى إبراهيم إلاّ بالأُم فكذلك الحسن والحسين عليهما السلام من ذرية رسول الله وأنّ إنتسبنا الى رسول الله ﷺ بالأُم وجب كونهما من ذريته ويقال أنّ أبا جعفر الباقر إستدلّ بهذه الآية عند الحجّاج بن يوسف انتهى كلامه.

أقول ما ذكره من أنّ الحسن والحسين من ذرية رسول الله لا كلام فيه وأما قوله يقال أنّ أبا جعفر الباقر الخ ليس بصّحيح وأتما إستدلّ بها عند الحجّاج سعيد بن جبير.

نعم إستدلّ بها موسى بن جعفر عند هارون الرّشيد لعنه الله حيث قال للإمام عليّ عليه السلام أتني أريد أن أسألك عن مسألة فإنّ أحببتي أعلم أنّك صدقتني خلّيت عنك ووصلتك ولم أصدّق ما قيل فيك فقلت ما كان علمه عندي أحببتك فيه فقال الخبيث لم لا تنهون شيعتكم عن قولهم لكم يابن رسول الله ﷺ وأنتم ولد عليّ وفاطمة أتما هي وعاء والولد ينسب الى الأب لا الى الأم فقلت أنّ رأي أمير المؤمنين أنّ يعضيني عن هذه المسألة فعل فقال لست أفعل أو أحببت فقلت فأنا في أمانك أن لا يصيبني من أفة السّلطان شيء فقال لك الأمان.

قُلْتُ أَعُوذُ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

وَهَئِنَا لَهُ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

وزَكَرْيَا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ، فَمِنْ أَبُو عِيسَى فَقَالَ هَارُونَ لَيْسَ لَهُ أَبٌ أَمَّا خَلْقُ  
 مِنْ كَلَامِ اللَّهِ وَرُوحِ الْقُدُسِ فَقُلْتُ أَمَّا الْحَقُّ عِيسَى بِذُرَارِي الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِ  
 مَرْيَمَ وَالْحَقُّنَا بِذُرَارِي الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِ فَاطِمَةَ لَا مِنْ قَبْلِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ هَارُونَ  
 أَحْسَنْتَ يَا مُوسَىٰ زِدْنِي مِنْ مِثْلِهِ فَقُلْتُ اجْتَمَعَتِ الْأُمَّةُ بِرَّهَا وَفَاجَرَهَا أَنَّ  
 حَدِيثَ النَّجْرَانِيِّ حِينَ دَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَبَاهِلَةِ لَمْ يَكُنْ فِي الْكِسَاءِ إِلَّا  
 النَّبِيُّ وَفَاطِمَةُ وَعَلِيٌّ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **فَمَنْ خَاجَكَ**  
**فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَابْنَاتَنَا وَنِسَاءَنَا وَ**  
**نِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ**<sup>(١)</sup> فَكَانَ تَأْوِيلُ أَبْنَانَا الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَنِسَانَا  
 فَاطِمَةُ وَأَنْفُسَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ هَارُونَ أَحْسَنْتَ.

أَقُولُ أَمَّا الشَّيْعَةُ فَقَدْ إِتَّفَقَتْ عَلَى أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَالْأَنْثَمَةَ الْمَعْصُومِينَ  
 مِنْ ذُرِّيَةِ الْحُسَيْنِ كُلَّهُمْ ذُرَارِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَقِيقَةً بِنَصِّ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا مِمَّا  
 وَرَدَ فِي الْبَابِ مِنَ الْأَثَارِ.

وَأَمَّا الْعَامَّةُ فَلَا خِلَافَ عَنْدهُمْ أَيْضاً فِي ذَلِكَ فِيمَا نَعْلَمُ إِلَّا مَا قَدْ نَقَلَ عَنْ  
 بَعْضِ مَعَانِدِهِمْ فِي إِنْكَارِهِمْ ذَلِكَ وَالْمَعَانِدَ لَا كَلَامَ لَنَا مَعَهُ كَيْفَ وَقَدْ رَوَى  
 الْبُخَارِيُّ مَرْفُوعاً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِلْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ إِبْنِي هَذَا سَيِّدَا  
 الْحَدِيثِ الْمَعْلُومِ أَنَّ لَفْظَ الْإِبْنِ لَا يَجْرِي عِنْدَ الْعَرَبِ عَلَى أَوْلَادِ الْبَنَاتِ.

وَحَدِيثُ عُمَرَ فِي كِتَابِ مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ لِأَبِي نَعِيمٍ مَرْفُوعاً، قَالَ ﷺ وَكَلَّ  
 وَلَدَ أَدَمَ فَإِنَّ عَصَبَتَهُمْ لِأَبِيهِمْ خَلَا وَلَدَ فَاطِمَةَ فَأَنِّي أَنَا أَبُوهُمْ وَعَصَبَتُهُمْ نَقَلَهُ فِي  
 تَفْسِيرِ الْمَنَارِ ثُمَّ قَالَ وَقَدْ جَرَى النَّاسُ عَلَى هَذَا فَيَقُولُونَ فِي أَوْلَادِ فَاطِمَةَ  
 عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَوْلَادَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبْنَاءَهُ وَعَتَرَتَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ انْتَهَى كَلَامُهُ.  
 وَلِلْبَحْثِ فِي هَذَا الْبَابِ مَقَامٌ آخَرٌ، وَلِنَخْتِمَ الْكَلَامَ حَوْلَ الْآيَاتِ بِذِكْرِ بَعْضِ  
 الْفَوَائِدِ وَهُوَ أَنَّ إِسْحَاقَ كَانَ وَلَدَهُ مِنْ سَارَةَ عَاشَ مِائَةً وَثَمَانِينَ سَنَةً وَقَبْلَ مَعْنَاهُ  
 بِالْعَرَبِيَّةِ الضَّحَّاكُ.

وَيَعْقُوبُ: وهو ابن إسحاق عاش مائة وأربعين سنة.

نُوحًا: قيل أنه إسم أعجمي معرّب ومعناه بالسريانية الساكن وقيل سمّي به لكثرة بكاءه على نفسه وإسمه عبد الغفار وذكر التّسابون أنه ابن لملك بفتح الّامّ و سكّون الميم بعدها كاف ابن متوشلخ بفتح الميم و تشديد المثناة المضمومة بعدها واو ساكنة وفتح الثّنين المعجمة والّلام والخاء المعجمة، ابن أخنوخ، بفتح المعجمة وضمّ التّون الخفيفة و بعدها واو ساكنة ثمّ معجمة إدريس فيما يقال.

داود: يقال أنه ابن إيشا بكسر الهمزة و سكّون الياء، ابن عوبر على وزن جعفر ابن عابر ابن سلمون بن يخشيون بن عمي ين يارب بن رام بن حضر موت بن فارص بن بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السّلام عاش مائة سنة و مدّة ملكه منها أربعون سنة وله اثنا عشر ابنًا هكذا قيل.

سليمان: بضمّ السّين وفتح الّلام بن داود قيل ملك هو ابن ثلاث عشرة سنة وتوفّي وله ثلاث وخمسون سنة.

أيّوب: بفتح الّلف وضمّ الياء المشددة قيل هو ابن موص بن روم بن عيص بن إسحاق وأمّه بنت لوط قيل هو كان قبل موسى وقيل كان بعد شعيب وقيل بعد سليمان وكانت مدّة عمره ثلاث وتسعين سنة.

يُوسُف: بضمّ الياء و سكّون الواو و ضمّ السّين بعدها هو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عاش مائة وعشرين سنة والصّواب أنه أعجمي لا إشتقاق له. مُوسَى: وهو ابن عمران بن يصهر بن ماهيث بن لاوي بن يعقوب ولا خلاف في نسبه وهو سرياني قيل أنما سمّي به لأنّه ألقي بين شجرٍ وماءٍ فالماء بالقبطية، مو، والشّجر، شا، قيل عاش مائة وعشرين سنة.

هارون: أخوه شقيقه قيل لأمّه وقيل لأبيه فقط مات قبل موسى وكان ولد قبله بسنة قيل معناه بالعبرانية المحبب.

ذَكْرِيَا: هو ابن بركيا كام من ذرية سليمان وقتل بعد قتل ولده وكان له يوم بشر به اثنتان وتسعون سنة وقيل تسع وتسعون وقيل مائة وعشرون وهو إسم أعجمي.

يحيى: ابنه وهو إسم أعجمي وقيل عربي.

عيسى: ابن مريم وهو إسم عبراني أو سرياني.

إلياس: بكسر الألف قيل هو ابن، يس بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخي موسى ابن عمران وقيل أنه من سبط يوشع وقيل من ولد إسماعيل وعن ابن مسعود أنه إدريس.

إسماعيل: قال النووي أنه أكبر ولد إبراهيم وأمّه هاجر وهو جد نبينا ﷺ. أقول الحق أن المراد به غيره وأنه كان من الأنبياء.

اليسع: هو ابن أخطوب بن العجوز وهو إسم أعجمي دخلت عليه اللام على خلاف القياس وقيل أنه معرب، يوشع وقيل عربي فقول من يسع مضارع وسع.

يونس: بضم الياء هو ابن متى، بفتح الميم وتشديد التاء وهو صاحب الحوت.

لوطاً: بضم اللام وهو ابن هاران بن آزر وقيل أنه ابن أخي إبراهيم ولم يصرح بإسم أبيه غير ذلك واللّه أعلم.

■



وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ  
 عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي  
 جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ  
 قُرْآنًا يَتَذَكَّرُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا  
 لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي  
 خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ  
 مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ  
 الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ  
 يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)  
 وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ  
 أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ  
 سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ  
 فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ  
 أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ  
 بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ  
 آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى  
 كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ  
 وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ  
 الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ  
 بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

## ◀ اللّٰغَة

قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، الْقَدَرُ بفتح القاف و سكون الدّال والراء الشّرف و الخطر و عظم الشّأن يقال هو رجل له قدر عند النّاس أي منزلة و شرف.  
قَرَأَ طَيْسَ بفتح القاف جمع قِرطاس بكسرهما مثل مصابيح جمع مصباح و القرطاس ما يكتب فيه.

فِي خَوْضِهِمْ، الْخَوْضُ بفتح الخاء مصدر خاض يَخْضُ خَوْضاً و الخوض في الأصل الشّروع في الماء و المرور فيه و قد يستعار في الأمور و أكثر ما ورد في القرآن وورد فيما يذمّ الشّروع فيه.

يَكْفُرُونَ يقال لعب فلان اذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً.  
أَفْتَرَى أصل الفري قطع الجلد للخز و الإصلاح، و الإفراء للإفساد و الإفتراء فيهما و في الإفساد أكثر و كذلك أستعمل في القرآن في الكذب و الشّرك و الظلم.

عَمَرَاتِ الْمَوْتِ بفتح الغين والميم جمع عَمَرَة بفتح الغين و سكون الميم و فتح الراء وهي الشّدة مأخوذة من الغمر و هو إزالة أثر الشّيء.

أَلْهُونَ بضمّ الهاء مصدر، الخزي و قيل الشّدة.  
خَوَّلْنَاكُمْ، التّخويل في الأصل إعطاء الخول و قيل إعطاء ما يصير له خولاً من قولهم فلان خالّ مالٍ و خايل مالٍ أي حسن القيام به و الباقي واضح.

## ◀ الإعراب

حَقَّ قَدْرِهِ حَقَّ منصوب نصب المصدر و هو في الأصل وصف قدره الحقّ و وصف المصدر اذا أضيف اليه ينتصب نصب المصدر و هو يقرأ بسكون الدّال وفتحها واذ ظرف لقدروا و مِنْ شَيْءٍ مفعول أنزل نُورًا حال من الهاء في، به، أو من الكتاب و به يجوز أن تكون مفعولاً به و أن تكون حالاً و تَجْعَلُونَهُ مستأنف لا موضع له و قَرَأَ طَيْسَ أي في قرطيس أو ذا قرطيس و قيل ليس فيه

تقدير والمعنى، أنزلوه منزلة القراطيس وتُبدونَهَا وصف للقراطيس وتُحْفُونَ  
كذلك وعِلِّمْتُمْ أي وقد علِّمتم والجملة في موضع الحال من ضمير الفاعل  
في، تجعلونه، على قراءة التاء وأما على قراءة الياء فيجوز أن يكون، وعلِّمتم،  
مستأنفاً وَقُلِ اللَّهُ جَوَاب، قل من أنزل الكتاب، وإرتفاعه بفعل محذوف أي  
أنزله الله في خَوْضِهِمْ متعلق، بذرهم، على أنه ظرف له ويجوز أن يكون حالاً  
من ضمير المفعول أي ذرهم خائضين ويكْبَعُونَ في موضع الحال من ضمير  
المفعول في، ذرهم، اذالم تجعل، في خوضهم، حالاً منه وإن جعلته حالاً منه  
كان الحال الثانية من ضمير الإستقرار في الحال الأولى أَنْزَلْنَاهُ في موضع رفع  
صفة لكتاب ومُبَارَكُ صفة أخرى وقد قَدَّمَ الوصف بالجملة على الوصف  
بالمفرد مُصَدِّقُ الَّذِي التَّنْوِين في تقدير الثبوت لأن الإضافة غير محضة لِتُنْذَرَ  
بالتاء على خطاب النبي ﷺ وبالياء على أن الفاعل الكتاب وَمَنْ في موضع  
نصب عطفاً على، أم، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ مبتدأ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ الخبر كذِباً مفعول،  
إفترى ويجوز أن يكون مصدراً على المعنى أي إفترأ وأن يكون مفعولاً من  
أجله وأن يكون مصدراً في موضع الحال أَوْ قَالَ عطف على إفترى وإِلَى في  
موضع رفع على أنه قام مقام الفاعل ويجوز أن يكون في موضع نصب و  
التقدير أوحى الوحي أو الإيحاء لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ في موضع الحال من ضمير  
الفاعل في، قال، أو الياء في، إِي، وَمَنْ قَالَ في موضع جر عطفاً على، من  
إفترى، ومِثْلَ مَا يجوز أن يكون مفعول سأنزل و، ما، بمعنى الذي أو نكرة  
موصوفة ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف وتكون، ما، مصدرية وإِذْ  
ظرف ل ترى والمفعول محذوف يا ولو ترى الكفار وَالظَّالِمُونَ مبتدأ والظرف  
بعده خبر عنه وَالْمَلَائِكَةُ مبتدأ وما بعده الخبر والجملة حال من الضمير في  
الخبر قبله وَبَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ في تقدير التَّوْن أي باسطون أيديهم وَالْيَوْمَ  
ظرف لأخرجوا فيتم الوقف عليه ويجوز أن يكون ظرفاً.

غَيْرَ الْحَقِّ مفعول، تقولون أو وصف لمصدر محذوف أي قولاً غير الحق  
فَرَادَى جمع فرد والألف للتأنيث مثل كسالى وهو حال من ضمير الفاعل كما  
خَلَقْنَاكُمْ الكاف في موضع الحال وهو بدل من فرادى وقيل هي صفة مصدر  
محذوف أي مجيئاً كمجيئكم يوم خلقناكم ويجوز أن يكون حالاً من الضمير  
في فرادى وأَوَّلَ ظرف لخلقناكم وَتَرَكْتُمْ يجوز أن يكون حالاً أي وقد تركتم  
يكون مستأنفاً وَمَا نَرَى لفظ المستقبل وحكاية حال وَمَعَكُمْ معمول، نرى و  
لا يجوز أن يكون حالاً من الشفعاء اذ المعنى يصير أن شفعاءهم معهم ولا  
نراهم يَبْتَنِكُمْ بالنصب وهو ظرف، لَتَقْطَع والفاعل مضمّر أي تَقْطَع الوصل  
بينكم ودَلَّ عليه شركاء أو هو وصف محذوف، أي لقد تَقْطَع شيء بينكم أو أن  
المنصوب في موضع رفع وهو معرب على قول الأخفش قيل، البين، هنا  
الوصل وهو من الأضداد.

### ◀ التفسير

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ أي ما عرفوه حق معرفته وقيل معناه ما  
وصفوه بما هو أهل أن يوصف به إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ  
اختلفوا في القائلين بهذا الكلام ف قيل هم مشركوا قريش وقيل قاله أحد اليهود  
قال لم يَنْزِلْ كتاباً من السماء.

قال السدي اسمه فنحاص وقال سعيد بن جبير هو مالك بن الصيف جاء  
يخاصم النبي ﷺ فقال له النبي أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أما  
تجد في التوراة أن الله يبغيض الحبر السمين، وكان حبراً سميناً، فغضب وقال،  
والله ما أنزل الله على بشرٍ من شيء فقال له أصحابه الذين معه، ويحك ولا  
على موسى فقال والله ما أنزل الله على بشرٍ من شيء فنزلت الآية ثم قال الله  
تعالى نقضاً لقولهم ورداً عليهم.

قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَالْحَقَّ أَنَّ الآية متوجهة الى مشركي قريش وذلك

لأنَّ الله تعالى ذكر من أوَّل السُّورة الى ها هنا أوصاف المشركين و أحوالهم  
فكذلك أوَّل الآية و هو قوله: **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** أي أنَّ هؤلاء  
المشركين ما قدروا الله حقَّ قدره لأنَّهم كانوا لا يعتقدون التَّوحيد و يعبدون  
الأصنام.

وأمَّا أهل الكتاب لم يكونوا كذلك لأنَّهم كانوا معتقدين بالتَّوحيد فلا يليق  
بهم هذا الكلام مضافاً الى أنَّ قوله: **إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ**  
**شَيْءٍ** يدلُّ على ما إختارناه لأنَّ اليهود كانوا معتقدين بالتَّوراة و أنَّها نزلت على  
موسى و أن كانوا غير معتقدين بالقرآن و أنَّه نزل على محمد ﷺ

و أمَّا قوله تعالى: **قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَ**  
**هُدًى لِلنَّاسِ** فهو متَّوجه الى اليهود و النَّصارى و المعنى قل لهؤلاء الذين  
ينكرون القرآن و أنَّه نزل من عند الله على عبده و رسوله لم تنكرون هذا أليس  
الله قد أنزل التَّوراة على موسى و أنتم تقرُّون به أليس حكم الأمثال واحد فأن  
جاز إنزال الكتاب على بشرٍ و هو موسى فقد جاز إنزال الكتاب على  
محمد ﷺ أيضاً و لا يبعد تناوله للمشركين أيضاً غاية الأمر أنَّه على وجه  
الإحتجاج عليهم و التَّنبيه لهم على ما ظهر من معجزات موسى و ظهور نبوِّته.  
**تَجْعَلُونَهُ قَرَأَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَ تُخْفُونَ كَثِيرًا** هذا دليل واضح على أنَّ  
المراد لليهود، فمن قرأ، يجعلونه بالياء حمل الكلام على الغيبة لأنَّ ما قبله  
غيبة و من قرأ بالتاء حملة على الخطاب يعني قل لهم يا محمد تجعلون  
الكتاب الَّذي أنزل على موسى، قراطيس، أى تقطعونّه فتجعلونه كتباً متفرقة  
تبدون بعضها و تخفون بعضها و ذلك مثل أوصاف النَّبي و البشارة به.

**وَ عَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لَا آبَاؤُكُمْ** للمسلمين و هذا يصح على  
قراءة الياء و أمَّا على قراءة التاء فقليل أنَّ الخطاب كلّه لليهود و عليه فالمعنى و  
علِّم بإنزال التَّوراة عليكم ما لم تكونوا تعلمونه من قبل ثمَّ خاطب النَّبي فقال:  
**قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرُهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** أي قل يا محمد الله الَّذي أنزل ذلك

الكتاب على موسى وهذا الكتاب عليّ، أو قل الله علّمكم الكتاب ثمّ ذرهم، أي دعهم، في حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ وتقديره ذرهم لاعبين في حوضهم. و أنما يقال هذا الكلام لمن قامت عليه الحجّة الواضحة التي لا يمكنه دفعها فهو على ضرب من الوعيد والتّهديد وليس على إباحة ترك الدّعاء والإندار فكأنّه قال تعالى دعهم فسيعلمون عاقبة أمرهم وقيل المراد منه دعهم فلا تقاتلهم ثمّ نسخ بالقتال وقيل أنّ هذه الآية مدّنية مع الأيتين اللّتين ذكرناهما في أوّل السّورة، ويجوز أن يكون بمكّة أيضاً.

تنبيه

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

**المسألة الثالثة:** في هذه الآية بحثٌ صعبٌ وهو أن يقال هؤلاء الذين حكى الله عنهم أنّهم قالوا: مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ إِمَّا أَنْ يُقَالَ أنّهم كفّار قريش، أو يقال أنّهم أهل الكتاب اليهود والنّصارى فإن كان الأوّل فكيف يمكن إبطال قولهم بقوله تعالى: قُلْ مَنْ أُنْزِلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى وذلك لأنّ كفّار قريش والبراهمة كما ينكرون رسالة محمّد فكذلك ينكرون رسالة سائر الأنبياء فكيف يحسن إيراد هذا الإلزام عليهم

وأما أن كان الثّاني وهو أنّ قائل هذا القول قوم من اليهود والنّصارى فهذا أيضاً صعبٌ مشكل لا أنّهم لا يقولون هذا القول وكيف يقولونه مع أنّ مذهبهم أنّ التّوراة كتاب أنزله الله على موسى والإنجيل كتاب أنزله الله على عيسى و أيضاً فهذه السّورة مكّية والمناظرات التي

وقعت بين رسول الله وبين اليهود والنّصارى كلّها مدنيّة فكيف يمكن حمل هذه الآية عليها فهذا تقرير الإشكال القائم في هذه الآية انتهى كلامه.

ثمّ ذكر بعد نقل الأقوال في شأن نزولها ما هذا لفظه والأقرب عندي أن يقال لعلّ مالك بن الصّيف لما تأذّى من هذا الكلام طعن في نبوة الرّسول وقال: مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ أي ما أنزل الله عليك شيئاً ألبتّة و

لست رسولاً من قبل الله ألبتة فعند هذا الكلام نزلت هذه الآية والمقصود منها أنك لما سلمت أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام فعند هذا لا يمكنك الإصرار على أنه تعالى ما أنزل علي شيئاً لأني بشر وموسى بشر أيضاً فلما سلمت أن الله أنزل الوحي والتنزيل على بشر أفنع عليك أن تقطع وتجزم بأنه ما أنزل الله علي شيئاً فكان المقصود بيان أن الذي إدّعاء محمد ﷺ ليس من قبيل الممتنعات وأنه ليس للخصم اليهودي أن يصّر على إنكاره بل أقصى ما في الباب أن يطالب بالمعجزة فأن أتى به فهو المقصود والأفلا فأمّا أن يصّر اليهودي على أنه تعالى ما أنزل على محمد شيئاً ألبتة مع أنه معترف بأن الله تعالى أنزل الكتاب على موسى فذاك محض الجهالة والتقليد وبهذا التقرير يظهر الجواب عن السؤالين الأولين انتهى كلامه.

**وأنا أقول** هذا الذي ذكره الرّازي من أن اليهودي طعن في نبوة الرسول أي ما أنزل الله عليك شيئاً ألبتة ولست رسولاً من قبل الله الخ.

لا دليل عليه إذ ليس في الآية إشارة إليه فضلاً من الدلالة والتّصريح به و أنّما هو كلام أوردته من قبل نفسه بل هو مخالف لصريح الآية فأَنْ الله تعالى ذكر فيها أن قائلاً قال بهذه المقالة وهي أن الله ما أنزل على بشرٍ من شيءٍ سواء كان موسى أو عيسى أو محمد أو غيرهم من الأنبياء.

فالقائل أنكر الإنزال على جنس البشر والتّخصيص لا دليل عليه والحق أن الكلام باقٍ على عمومته والقائلون به هم قريش واليهود جميعاً وقوله: **قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ إِلَى قَوْلِهِ: وَتُخْفُونَ كَثِيرًا** إلزام لهم بما لا بدّ لهم من الإقرار به، والمقصود أنكم تقولون ما أنزل الله على بشرٍ من شيءٍ، فأن كنتم صادقين في قولكم هذا فلم تقرأون بأنّ التوراة أنزلت على موسى ثمّ تقطعونها وتجعلونها قراطيس وأوراق متفرقة تبدون للناس بعضها وتخفون بعضها وعبارة أخرى إستدلالكم بما في أيديكم منها منافي لإنكاركم الإنزال بقولٍ مطلق وهذا واضح لا خفاء فيه.

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ

هذا، إشارة إلى القرآن بإجماع المفسرين والواو للعطف فعطف هذه الآية على ذكره الكتاب الذي جاء به موسى فلما وصفه قال: وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ أي في خير وبركة لأنه العمل بما فيه يوجب الفلاح وسعادة الدارين و آية بركة أعظم منها ثم وصفه بقوله: مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ التَّنوِين في تقدير الثبوت لأن الأضافة غير محضة والمراد بالذي بين يديه التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية يعني أن القرآن مُصَدِّقٌ بِصَحَّةِ الكُتُبِ السَّماوية وأنها نزلت من عند الله هذا إن قرأناه بكسر الدال على صيغة الفاعل كما هو المشهور الثابت في المصاحف.

وأما على القول بفتح الدال على صيغة المفعول فالمعنى أن الكتب السماوية قد حكمت بصحته وأنه نزل من عند الله وعليه فالقرآن مُصَدِّقٌ والمشهور هو القول الأول والوجه فيه هو أن حكم الأمثال واحد فإذا كان القرآن حقاً لا ريب فيه لأنه نزل من عند الله على بشرٍ وهو الرَسُولُ فسائر الكتب أيضاً كذلك.

وأما قوله: وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا فالخطاب للرَسُولِ أي أنزلنا القرآن عليك لتنذر أم، قالوا أم القرى مكة ومن حولها، أهل الأرض كلهم وانما خص أهل مكة بذلك، لأنها أعظم قدراً لأن فيها الكعبة يقصدونها بالحج والعمرة من جميع الآفاق، وإنذاره بالقرآن هو تخويفه أيأهم بألوان العذاب إن أقاموا على كفرهم بالله ولم يؤمنوا بالله وبرسوله والمراد بإنذار أم القرى إنذار أهلها أي لتنذر أهل أم القرى من حولها من الناس وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ المشهور عندهم أن مرجع الضمير في (به) هو الكتاب أعني به القرآن وعليه فالمعنى أن الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بالقرآن.



وَأَمَّا مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهَا فَلَا وَ قِيلَ أَنَّ الصَّمِيرَ وَأَنْ كَانَ ظَاهِرُهُ كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ كُنَايَةٌ عَنِ الرَّسُولِ وَأَنْ شِئْتَ قُلْتَ مَرْجِعُهُ الرَّسُولُ أَيُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُ بِالرَّسُولِ أَيْضًا لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَعْقِلُ الْإِيمَانَ بِالْقُرْآنِ وَالْإِنْكَارَ لِلرَّسُولِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَالْمُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ مُؤْمِنٌ بِالرَّسُولِ وَ بِالْعَكْسِ إِذْ لَا يَجُوزُ الْإِيمَانُ بِبَعْضِ مَا أَوْجِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ دُونَ بَعْضٍ هَكَذَا قِيلَ وَ الْحَقُّ مَا ذَكَرْنَاهُ لِأَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَكَيْفَ يَعْقِلُ الْإِيمَانُ بِهِ دُونَهُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ فَهُوَ مِنْ أَوْصَافِ الْمُؤْمِنِ وَ التَّقْدِيرُ عَلَى أَوْقَاتِ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ بِمَعْنَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَاعُونَ أَوْقَاتَهَا لِيُؤَدِّوَهَا فِيهَا بِاتِمَامِ رُكُوعِهَا وَ سُجُودِهَا وَ جَمِيعِ فَرَائِضِهَا، وَأَمَّا وَجْهُ تَسْمِيَةِ مَكَّةَ بِأَمِّ الْقُرَى فَقِيلَ لِأَنَّهَا أَوَّلُ مَوْضِعٍ سَكَنَ فِي الْأَرْضِ وَ قِيلَ أَنَّ الْأَرْضَ دَحِيتٌ مِنْ تَحْتِهَا فَكَانَتْ أُمًّا لَهَا أَيُّ أَصْلَاحُهَا فَإِنَّ الْأُمَّ فِي اللُّغَةِ الْأَصْلُ .

وَ قَالَ الزَّجَاجُ سَمِيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ الْقُرَى شَأْنًا وَ قَدْ مَرَّ الْكَلَامُ فِيهِ سَابِقًا .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

قِيلَ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مَسِيلَةِ الْكَذَّابِ حَيْثُ ادَّعَى النَّبُوءَةَ وَ قَالَ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ، وَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ بْنُ أَبِي سَرْحٍ فَأَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ الْوَحْيَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَ كَانَ إِذَا قَالَ لَهُ، أَكْتُبْ عَلِيمًا حَكِيمًا، كُتِبَ غَفُورًا رَحِيمًا وَ هَكَذَا ثُمَّ ارْتَدَّ وَ لَحِقَ بِمَكَّةَ وَ قَالَ أَنِّي أَنْزَلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ذَهَبَ إِلَيْهِ عِكْرَمَةُ وَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَ مُجَاهِدٌ وَ السَّدِّيُّ وَ الْجَبَائِيُّ وَ غَيْرُهُمْ .

وَ قَالَ قَوْمٌ نَزَلَتْ فِي مَسِيلَةِ خَاصَّةٍ، وَ قَالَ آخَرُونَ نَزَلَتْ فِي ابْنِ أَبِي سَرْحٍ خَاصَّةً وَ الْأَوَّلُ هُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام وَ عَنِ الْبَلْخِيِّ أَنَّهُ قَالَ قَوْلُهُ: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى إِلَى قَوْلِهِ: أُوحِيَ إِلَيَّ وَ الْمُرَادُ بِهِمُ الَّذِينَ ادَّعَوْا النَّبُوءَةَ بِغَيْرِ

برهان وكذبوا على الله وقوله: وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ هُم الَّذِينَ قَالُوا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ فادَّعُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا وَبَذَلُوا الْأَنْفُسَ وَالْأَمْوَالَ فِي إِطْفَاءِ نَوْرِ اللَّهِ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَتَمُّ نَوْرِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

وقال بعض المفسرين نزلت هذه الآية في مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة وفي الأسود العنسي صاحب صنعاء فأنهما كانا يدعيان النبوة والرسالة من عند الله على سبيل الكذب والإفتراء وكان مسيلمة يقول محمد رسول قريش وأنا رسول بني حنيفة هذا ما قالوه في نزول الآية والحق حمل الآية على العموم فيدخل فيه من يدعي الرسالة كذباً ومن نسب إلى الله ما هو بريء منه إما في الذات وإما في الصفات وإما في الأفعال كالمجسمة والمجبرة فأنهم قد ظلموا أنواع الظلم بأن إفتروا على الله الكذب، قال الرّازي بعد نقله ما نقلناه.

وأما قوله في المجبرة فليس بصحيح لأنه يقال له المجبرة ما زادوا على قولهم الممكن لا بد له من مرجح فأن كذبوا في هذه القضية فكيف يمكنهم أن يعرفوا وجود الإله وأن صدقوا في ذلك لزمهم الإقرار بتوقيف صدور الفعل على حصول الداعي بتخليق الله وذلك عين ما تسميه بالجبر فثبت أن الذي وصفه بكونه إفتراء على الله باطل بل المفترى على الله من يقول الممكن لا يتوقف رجحان أحد طرفيه على الآخر على حصول المرجح فأن من قال هذا الكلام لزمه نفي الصانع بالكلية بل يلزمه نفي الآثار والمؤثرات بالكلية انتهى كلام الرّازي.

ونحن نقول ما ذكره الرّازي لا يرجع إلى محصل بل هو بالمغالطة أشبه وذلك لأنه لم يقل أحد من العقلاء أن الممكن لا يحتاج إلى المرجح فأن ضرورة العقل قاضية بإستحالة خروج الممكن عن حد الإستواء بنفسه فهو محتاج إلى مرجح لا محالة والمرجح إما واجب أو ممتنع أو ممكن.

أما الإمتناع فلا سبيل اليه وهو معلوم لأن ممتنع الوجود كيف يكون مرجحاً وعلّة ضرورة أن المعدوم لا يكون علّة للموجود.

وأما الممكن أيضاً لا سبيل اليه لأنه يوجب التسلسل وهو باطل وحيث إنتفى الإمتناع والممكن فبقى الواجب فهو العلّة والمرجح لخروج الممكن عن حدّ الإستواء وهو المطلوب وهذه القاعدة ثابتة في أصل الإيجاد.

وأما أفعال العباد فليست كذلك لأنّ المرجح في إيجاد الفعل هو إرادة العبد إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل فإنّ العبد هو الذي يختار الفعل أو عدمه بإرادته.

وأما قوله أنّ صدور الفعل موقوف على حصول الداعي وهو مخلوق له تعالى.

فالجواب عنه أنّ الداعي ليس علّة تامة لصدور الفعل حتّى يلزم الجبر بل الفعل معلول لحركة العضلات وهي معلولة للإرادة وهي معلولة لإختيار العقل وهو معلولة للداعي فكلّ هذه الأمور أسباب لوجود الفعل وحيث أنّ الإختيار واسطة بين الإرادة والفعل فصّح أن يقال أنّ الفعل معلول الإختيار في الحقيقة وإذا ثبت هذا فأين الجبر.

وثانياً، نقول بناءً على القول بالجبر فلا محيص عن القول بقبول الظلم والإفتراء على الله وأي إفتراء أفحش وأقبح على الله من نسبة الظلم اليه، أليس القول بالجبر ظلماً على الله تعالى كيف لا والمفروض أنّ الله تعالى هو خالق القبائح من الأفعال من القتل والزنا والسرقه وأمثالها ثم هو يعاقب العبد يوم القيامة على صدور هذه الأفعال منه وإن شئت قلت هو يعاقب العبد على فعل صدر من الله في الحقيقة لا من العبد كما هو المفروض وأي ظلم أقبح منه تعالى الله عنه.

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

العبد السادس

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ  
أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ

غَمَرَاتُ بفتح الغين والميم جمع غَمْرَةٍ بفتح الغين و سكون الميم كناية عن شدة الموت وصعبته.

يقال غمر ذلك، أي كثر وغمرة كل شيء كثرته ومعظمه ومنه غمرة الماء و غمرة الحرب، قال بعض المفسرين المراد بالظالمين في المقام ما ذكره في صدر الآية وهو قوله: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى.

والحق أن المراد بالظالمين ما ذكر وما لم يذكر من أقسام الظلم فإن القاتل و السارق والغاصب وغيرها من أنواع الظلم داخل في الآية قطعاً، فما ذكره الرّازي من أن قوله هذا تفصيل للإجمال الذي في صدر الآية ليس بشيء. أمّا أولاً: فلاّكه لا تفصيل في المقام بالنسبة الى صدر الآية أصلاً إذ لم يفصل الله الظالم في قوله: وَلَوْ تَرَىٰٓٓٓٓ بِل بَيْنَ تَبَعَاتِ الظُّلُمِ عند الموت وهو ليس من التفصيل بشيء.

ثانياً: لقائل أن يقول الواو في قوله: وَلَوْ تَرَىٰٓٓٓٓ للإستئناف لا للعطف و المقصود أن الظالم حُكِمَ عند الموت كذلك وقوله: وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ قيل معناه باسطوا أيديهم بالعذاب وقيل بقبض أرواح الكفار وقال ابن عباس غمرات الموت سكرته وبسط الملائكة أيديها فهو مدّها، وقال أيضاً البسط الضرب أي يضربون وجوههم وأدبارهم وملك الموت يتوفاهم في قوله أخرجوا أنفسكم قولان:

أحدهما: أنه على معنى الوعيد والتّهديد كما تقول للذي تعذبه، لأزهقن نفسك.

الثاني: معناه خلّصوا أنفسكم أي لستم تقدرون على الخلاص وقوله: الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ فالمراد باليوم يوم القيامة و عذاب الهون معناه عذاب الشّديد، وعن أبي جعفر أن عذاب الهون يعني العطش بما كُنتُمْ تقولون على الله غير الحقّ وكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ الباء في قوله، بما، للتّنبية أي أن السّبب في ذلك هو التّقول بغير الحقّ والإعراض عنه و ما ربك بظلام للعبيد.

فقد رُوي عن أبي جعفر عليه السلام قال إذا أَرَادَ اللَّهُ قَبْضَ رُوحِ الْكَافِرِ قَالَ يَا مَلِكُ الْمَوْتِ إِنِّنْطَلِقُ أَنْتَ وَأَعْوَانُكَ إِلَيَّ عَدُوِّي فَأَنْتَ يَا قَدْ أَبْلَيْتُهُ فَأَحْسَنْتُ الْبَلَاءَ وَدَعَوْتُهُ إِلَيَّ دَارَ السَّلَامِ فَأَبِئْ إِلَّا أَنْ يَشْتَمَنِي وَكَفَّرَ بِي وَبَنِعَمْتِي وَشَتَمَنِي عَلَى عَرْشِي فَأَقْبِضْ رُوحَهُ حَتَّى نُكَبَّهُ فِي النَّارِ قَالَ عليه السلام فَيَجِيئُهُ مَلِكُ الْمَوْتِ بِوَجْهِهِ كَالْحِجَابِ عَيْنَاهُ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ وَصَوْتُهُ كَالرَّعْدِ الْعَاصِفِ لَوْنُهُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمَظْلَمِ نَفْسُهُ كَلَهَبِ النَّارِ رَأْسُهُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَرِجَالُهُ فِي الْمَشْرِقِ وَرِجَالُهُ فِي الْمَغْرِبِ وَقَدَمَاهُ فِي الْهَوَاءِ مَعَهُ سُفُودٌ كَثِيرٌ الشُّعْبُ مَعَهُ خَمْسُ مِائَةِ مَلِكٍ أَعْوَانًا مَعَهُمْ سَيَاطُ مِنْ لَهَبٍ جَهَنَّمَ لَيْنَاهَا لَيْنُ السَّيَاطِ وَهِيَ مِنْ لَهَبٍ جَهَنَّمَ وَمَعَهُمْ مَسْحُحٌ أَسْوَدٌ وَجَمْرَةٌ مِنْ جَمَرِ جَهَنَّمَ ثُمَّ يَدْخُلُ عَلَيْهِ مَلِكٌ مِنْ خَزَانِ جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ سَحْفَطَائِيلُ فَيُسِيقُهُ شَرْبَةً مِنْ نَارٍ لَا يَزَالُ مِنْهَا عَطْشَانًا حَتَّى يَدْخُلَ النَّارَ فَإِذَا نَظَرَ إِلَى مَلِكِ الْمَوْتِ شَخْصٌ بَصَرُهُ وَطَارَ عَقْلُهُ فَقَالَ يَا مَلِكُ الْمَوْتِ أَرْجِعُونِ فَيَقُولُ مَلِكُ الْمَوْتِ كَلَّا أَنْتَ كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا.

قال عليه السلام فيقول يا مَلِكُ الْمَوْتِ فَأَلَيْ مَنْ أَدْعُ مَالِي وَأَهْلِي وَوَلَدِي وَعَشِيرَتِي وَمَا كُنْتُ فِيهِ مِنَ الدُّنْيَا فَيَقُولُ دَعُهُمْ لِغَيْرِكَ وَأَخْرِجْ إِلَى النَّارِ قَالَ عليه السلام فَيَضْرِبُهُ بِالسُّفُودِ ضَرْبَةً فَلَا يَبْقَى مِنْهُ شُعْبَةٌ إِلَّا أَثْبَتَهَا فِي كُلِّ عَرَقٍ وَمَفْصَلٍ ثُمَّ يَجْذِبُهُ جَذْبَةً فَيَسِيلُ رُوحَهُ مِنْ قَدَمَيْهِ نَشْطَانًا فَإِذَا بَلَغَتِ الرِّكَبَتَيْنِ أَمَرَ أَعْوَانَهُ فَأَكْبَرُوا عَلَيْهِ بِالسَّيَاطِ ضَرْبًا ثُمَّ يَرْفَعُهُ عَنْهُ فَيُذِيقُهُ سَكَرَاتِهِ وَغَمَرَاتِهِ قَبْلَ خُرُوجِهَا كَأَنَّمَا ضُرِبَ بِأَلْفِ سَيْفٍ فَلَوْ كَانَ لَهُ قُوَّةُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ لَأَشْتَكَى كُلُّ عَرَقٍ مِنْهُ عَلَى حَيَالِهِ بِمَنْزِلَةِ سُفُودِ كَثِيرِ الشُّعْبِ أَلْقَى عَلَى صُوفٍ مُبْتَلٍ ثُمَّ يَطْوِقُهُ فَلَمْ يَأْتِ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا انْتَزَعَهُ كَذَلِكَ خُرُوجَ نَفْسِ الْكَافِرِ مِنْ عَرَقٍ وَمَفْصَلٍ وَشَفْرَةٍ فَإِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ وَجْهَهُ وَذُبْرَهُ وَ

قِيلَ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ  
تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ وَذَلِكَ  
قَوْلُهُ: يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا  
مَحْجُورًا<sup>(١)</sup> فيقولون حرام عليكم الجنة مُحَرَّمًا وَقَالَ تَخْرُجُ رُوحُهُ  
فَيَضَعُهَا مَلَكُ الْمَوْتِ بَيْنَ مَطْرَقَةٍ وَسِنْدَانٍ فَيَفْضَحُ أَطْرَافَ أُنَامِلِهِ  
وَأَخْرَجَ مَا يَقْدَحُ مِنَ الْعَيْنَانِ فَيَسْطَعُ لَهُ رِيحٌ مُنْتَنٍ يَتَأَذَّى مِنْهُ أَهْلُ  
السَّمَاءِ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ فيقولون لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهَا مِنْ رُوحٍ كَافِرَةٍ مُنْتَنِةٍ  
خَرَجَتْ مِنَ الدُّنْيَا فَيَلْعَنُهَا اللَّهُ وَيَلْعَنُهَا اللَّاعِنُونَ فَإِذَا بِرُوحِهِ إِلَى  
السَّمَاءِ الدُّنْيَا أُغْلِقَتْ عَنْهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: لَا تُفْتَحُ لَهُمْ  
أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ  
نُخْرِجُ الْمُجْرِمِينَ<sup>(٢)</sup> يَقُولُ اللَّهُ: (رُدُّوْهَا عَلَيْهِ فَمِنْهَا خَلَقْتَهُمْ وَفِيهَا  
أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أَخْرَجَهُمْ تَارَةً أُخْرَى)<sup>(٣)</sup>.

إِنَّمَا نَقَلْنَا الْحَدِيثَ بِطَوْلِهِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ مَا لَا يَخْفَى.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ  
ظُهُورِكُمْ

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ كَيْفِيَّةَ مَوْتِ الْكَافِرِ أَشَارَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى  
نَكَاتٍ أُخْرَىٰ كُلُّهَا حَقٌّ لَا مَرِيَّةَ فِيهَا وَهِيَ أُمُورٌ:

أَحَدُهَا: قَوْلُهُ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ  
قَوْلَهُ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ، أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ، فَبَيَّنَّ  
اللَّهُ تَعَالَىٰ أَنَّهُمْ كَمَا يَقُولُونَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّوْبِيخِ كَذَلِكَ يَقُولُونَ حِكَايَةً عَنِ  
اللَّهِ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ فَيَكُونُ الْكَلَامُ أَجْمَعٌ.

**الثاني:** أن القائل بهذا القول هو الله تعالى أي أن الله تعالى يقول لهؤلاء الكفار بعد موتهم، وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى الْخ.

**الثالث:** أن قوله: فُرَادَى لفظ جمع وفي واحده قولان:

**أحدهما:** أنه جمع فردان مثل سكاران و سكران و كسالى و كسلان.

**ثانيهما:** أنه جمع فريد مثل ردافى و رديف و قال الفراء واحده فرد وفردة فريدة و فردان و قال الزاغب في المفردات فريد، واحد و جمعه فرادى نحو أسير و أسارى.

**الرابع:** أنه تعالى قرعهم و وبخهم بهذا الكلام حيث قال لهم: وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى الْخ و ذلك لأنهم لما وردوا محفل القيامة لم يبق معهم شيء مما حصلوه و أكتسبوه في دار الدنيا من المال و الجاه و الأولاد و غيرها، و أيضاً لم ينفعهم ما اعتقدوه في الدنيا من كون الأصنام التي عبدوها شفعاء لهم عند الله فلا محالة بعد موتهم بقوا فرادى عن كل ما حصلوه و عولوه عليه من الأموال و الأولاد و الإعتقادات و غيرها وهذا هو الخسران المبين نعوذ بالله منه.

**الخامس:** أن البين أستعمل على ضربين:

**أحدهما:** أن يكون إسماً منصرفاً كالإفتراق.

**الثاني:** أن يكون ظرفاً فمن رفع النون فيه رفع ما كان ظرفاً إذا أستعمل إسماً و يدل على جواز كونه إسماً قوله تعالى: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ <sup>(١)</sup> وقوله: مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ جَبَابٌ <sup>(٢)</sup> قالوا لما أستعمل إسماً في هذه المواضع جاز أن يسند اليه الفعل الذي هو، تَقَطُّع، في قراءة الرفع، و يدل على أن هذا المرفوع هو الذي أستعمل ظرفاً أنه لا يخلو من أن يكون الذي هو ظرف إتسع فيه أو يكون الذي هو مصدر من قولهم بأن الحَي بينونةً و بيناً إذا ضعفوا، ولا يجوز أن يكون الذي هو مصدر لأن التقدير يصير، لقد تَقَطُّع إفتراقكم، وهذا خلاف المعنى المراد لأن لقد تَقَطُّع وصلكم و ما كنتم تتألفون عليه فثبت أنه ظرف إتسع فيه و هو المطلوب.

فَأَنْ قُلْتُ كَيْفَ جَازَ أَنْ يَكُونَ الْبَيْنَ بِمَعْنَى الْوَصْلِ وَأَصْلُهُ الْإِفْتِرَاقُ وَالتَّبَايُنُ وَفِي الْحَدِيثِ مَا بَانَ مِنَ الْحَيِّ فَهُوَ مَيِّتَةٌ.  
قِيلَ أَنَّهُ لَمَّا أُسْتَعْمِلَ مَعَ الشَّيْئَيْنِ الْمُتَلَابِسَيْنِ نَحْوَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَرَكَةٌ، وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ صَدَاقَةٌ وَرَحِمٌ صَارَ لَذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْوَصْلَةِ وَعَلَى خِلَافِ الْفَرْقَةِ فَلِذَلِكَ صَارَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ بِمَعْنَى، لَقَدْ تَقَطَّعَ وَصْلَكُمْ، وَمِثْلُهُ فِي أَنَّهُ يَجْرِي فِي الْكَلَامِ ظَرْفًا ثُمَّ يَسْتَعْمِلُ إِسْمًا بِمَعْنَى (وَسَط) سَاكِنِ الْعَيْنِ أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ جَلَسْتُ وَسَطَ الْقَوْمِ، فَيَجْعَلُونَهُ ظَرْفًا لَا يَكُونُ إِلَّا كَذَلِكَ وَقَدْ أُسْتَعْمِلُوهُ إِسْمًا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

مَنْ وَسَطَ جَمْعَ بَنِي قُرَيْضَةَ بَعْدَ مَا هَتَفَتْ رَبِيعَةٌ يَا بَنِي خَوَاتٍ  
وَحَكَى سَبِيوَهُ: هُوَ أَحْمَرُ بَيْنِ الْعَيْنَيْنِ هَذَا كُلَّهُ عَلَى قِرَاءَةِ الرَّفْعِ.  
وَأَمَّا مَنْ نَصَبَ بَيْنَكُمْ، فَفِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَضْمَرَ الْفَاعِلَ فِي الْفِعْلِ وَذَلَّ عَلَيْهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: وَمَا نَزَى مَعَكُمْ شُفْعَاءَ كُمْ الَّذِينَ رَعِمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاؤُا لِأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى التَّقَاتُغِ وَالتَّهَاجَرِ وَذَلِكَ الْمَضْمَرُ هُوَ الْأَصْلُ كَأَنَّهُ قَالَ، لَقَدْ تَقَطَّعَ وَصْلَكُمْ بَيْنَكُمْ.  
الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي الْحَسَنِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ لَفْظُهُ مَنْصُوبًا وَمَعْنَاهُ مَرْفُوعًا فَلَمَّا جَرَى فِي كَلَامِهِمْ مَنْصُوبًا ظَرْفًا تَرْكُوهُ عَلَى مَا يَكُونُ عَلَيْهِ فِي أَكْثَرِ الْكَلَامِ وَكَذَلِكَ تَقُولُ فِي قَوْلِهِ: يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ<sup>(١)</sup> وَقَوْلِهِ: وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ<sup>(٢)</sup> فَدُونَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ عِنْدَهُ وَأَنْ كَانَ مَنْصُوبٌ اللَّفْظُ كَمَا تَقُولُ مِنَ الصَّالِحِ وَمِنَّا الطَّالِحُ فَتَرْفَعُ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ الرَّفْعُ أَجُودُ وَتَقْدِيرُهُ، لَقَدْ تَقَطَّعَ وَصْلَكُمْ، وَالنَّصْبُ جَائِزٌ عَلَى تَقْدِيرٍ، لَقَدْ تَقَطَّعَ مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الشَّرَكَةِ بَيْنَكُمْ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ مَعْنَى تَقَطَّعَ تَوَاصَلَكُمْ وَبِهِ قَالَ قَتَادَةُ وَإِسْنِ عَبَّاسٍ إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَلنَرْجِعْ إِلَى تَفْسِيرِ آيَةِ فَتَقُولُ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا قُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.



قال بعضهم لقد جئتمونا وحداناً لا مال لكم ولا أثاث ولا شيء مما كان الله خولكم في الدنيا، كما خلقناكم أول مرة.

ونقل عن الزجاج أن المعنى كما بدأكم أول مرة، أي كان بعثكم كخلقكم من غير كلفة ولا مشقة.

وقال الجبائي معناه جئتم واحداً واحداً وقوله: كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أي بلا ناصر ولا معين كما خلقناكم في بطون أمهاتكم، ولا أحد معكم، وقيل معناه لقد جئتمونا منفردين كما خلقتم.

وقيل معناه لقد جئتمونا عراة كما خرجتم من بطون أمهاتكم وقد ورد في الحديث يحشرون حفاة عراة عزلاً بهماً والعزل جمع الأعزل وهو الأغلف الذي لم يختن، والبهيم جمع بهيم وهو في الأصل الذي لا يخالط لونه لون سواه يعني ليس فيهم شيء من العاهات والأعراض التي تكون في الدنيا كالعمى والعور والعرج وغير ذلك.

وأعلم أن العلماء اختلفوا في معنى الحديث ومنشأه هو إختلافهم في ضبط كلمة، العزل، فمنهم من ضبطها بالعين المضمومة وسكون الراء جمع الأعزل بسكون العين وفتح الراء وهو الأغلف الذي لم يختن وعليه فالمعنى أنهم يحشرون حفاة عراة غير مختونين قالوا يحشر العبد غداً وله من الأعضاء ما كان له يوم ولد فمن قطع منه عضو يرد في القيامة عليه وهذا معنى قوله، عزلاً، أي غير مختونين أي يرد عليهم ما قطع منهم يوم الختان، ومنهم من ضبطها بالعين المهملة المضمومة وتشديد الراء المعجمة المفتوحة جمع الأعزل بسكون العين وفتح الراء بمعنى المنفرد المنقطع، أو من لا سلاح معه وعليه فالمعنى الحديث يحشرون حفاة عراة عزلاً، أي يحشرون منفردين منقطعين عن الدنيا يحشرون ولا سلاح معهم وهذا أليق بمعنى الحديث من معنى الأول لأن ما ذكره في الوجه الأول وهو أن الناس يحشرون غير مختونين لا دليل عليه وهكذا قولهم، فمن قطع منه عضو يرد في القيامة عليه،

كلام لا نفهم معناه فالحق هو المعنى الثاني أي أنهم يحشرون يوم القيامة ليس معهم شيء فتعالى ومنه الحديث إذا كان يوم القيامة بعث الله الناس عزلاً أي جرداً لا شعر لهم فإن الأعزل الأرمـد الذي لا شعر له وَ تَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ الخول ما أعطاه الله للإنسان من العبيد والنعم والظهور جمع الظهر وهو الخلف والمعنى تركتم ما أعطيناكم وملكناكم في دار الدنيا وراء خلفكم: وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ عَبْدْتُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا وَجَعَلْتُمُوهُمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَقُولُونَ الْأَصْنَامُ شُرَكَاءُ اللَّهِ وَشُفَعَانَا عِنْدَهُ كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ:

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ <sup>(١)</sup>.

وقال الله تعالى: وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ <sup>(٢)</sup> فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ <sup>(٣)</sup>.

الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ وفي قوله: زَعَمْتُمْ إشارة إلى أنهم ليسوا بشركاء في الواقع لأن الله تعالى واحد أحد فرد صمد لا شريك له ولكن أنتم لجهلكم زعمتهم شركاء لله تعالى ولذلك لا نراهم معكم لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أي لقد تقطع وصلكم والتقطع الإفتراق والفصل، وضل معناه ذهب، أي ذهب عنكم ما كنتم تزعمون من ألهمتكم أنه شريك لله تعالى وأنه يشفع لكم عند ربكم فلا شفيع لكم اليوم، و الحمد لله رب العالمين.

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَ النَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ  
 الْمَمِيتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ  
 فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ  
 سَكَنًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَفْقِيرُ  
 الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ  
 لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَ الْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا  
 الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ  
 مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا  
 الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ  
 السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ  
 فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَ  
 مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَ جَنَّاتٍ مِنْ  
 أَعْنَابٍ وَ الزَّيْتُونِ وَ الرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَ غَيْرَ  
 مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ يَنْعَبِ إِنَّ فِي  
 ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) وَ جَعَلُوا لِلَّهِ  
 شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَنَاتٍ  
 بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠)  
 بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ  
 لَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ  
 شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
 خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
 وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ

الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُمْ  
بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ  
فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ  
نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ  
يَعْلَمُونَ (١٠٥)

### ◀ اللغة

فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى، الفلق شق الشيء وإبانه بعضه عن بعض يقال فلقتهم  
فإنفلق، والحبّ بفتح الحاء جمع حَبَّة.

قال الرّاعب الحبّ و الحَبَّة يقال في الحنطة والشّعير ونحوهما من  
المعطومات والحبّ و الحَبَّة بكسر الحاء في بذور الرّياحين، وَالنَّوَى: بفتح  
التّون جمع نَوَاة وهى عجمة التّمر ونحوه أى حَبّه أو بذره ويجري في كلّ ما  
له عجم كالشمش والخور.

تَوْفَكُونَ، الإفك كلّ مصروف عن وجهه الذي يحقّ أن يكون عليه.

فَالِقُ الْأَصْبَاحِ، الإصباح بكسر الالف مصدر أَصْبَحَ والمعنى شاقّ  
الضياء عن الظلام وكاشفه.

حُسْبَانًا، الحُسبان بضمّ الحاء جمع حساب مثل شهاب وشهبان وقيل في  
هذا الموضع أنّه مصدر حَسَبْتُ أَحْسَبَهُ حِسَاباً وَحِسْبَاناً وَحُسْبَاناً وقيل  
الحسبان الحساب، السّهام الصّغار.

أَنْشَأَكُمْ الْإِنْسَاءَ الْإِبَادَ.

فَمُسْتَقَرًّا، المُسْتَقَرُّ القارّ الثابت والمستودع خلافه.

خَضِرًا، الخَضِرُ بفتح الخاء وكسر الضاد رطب البقول يقال نخلة خضرة اذا  
كانت ترمي بيسرها أخضراً قبل أن ينضج.

مُتْرَاكِبًا أَي يَرْكَبُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ كَالسُّنْبُلَةِ.

مِنْ طَلَعُهَا قِنْوَانٌ دَائِيَّةٌ، الطَّلَعُ بَفَتْحِ التَّاءِ وَسُكُونِ اللَّامِ وَالْعَيْنِ مَا يَبْدُو مِنْ ثَمَرِهِ النَّخْلُ فِي أَوَّلِ ظَهْوَرِهَا، وَالْقِنْوَانُ بِكَسْرِ الْقَافِ جَمْعُ قِنْوٍ بِكَسْرِهَا أَيْضاً كَصِنْوَانٍ وَصِنْوٍ وَهُوَ الْعَذْقُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَهِيَ الْكَبَاسَةُ وَهِيَ عِنَقُودُ النَّخْلَةِ وَ أَمَّا الْعَذْقُ بَفَتْحِ الْعَيْنِ فَالنَّخْلَةُ نَفْسُهَا دَائِيَّةٌ مَعْنَاهَا قَرِيبَةٌ مُتَهَدِلَةٌ وَقِيلَ أَي مُتَدَانِيَةٌ فِي خُلُقِ النَّخْلِ.

جَنَّاتٍ بَفَتْحِ الْجِيمِ جَمْعُ جَنَّةٍ وَهِيَ الْبُسْتَانُ.

أَعْنَابٍ جَمْعُ عِنَبٍ (وَيَنْعَهُ) قَالَ بَعْضُهُمْ إِذَا فَتَحْتَ يَاءَهُ فَهُوَ جَمْعُ يَانَعٍ مِثْلُ صَاحِبٍ وَصَحْبٍ وَتَاجِرٍ وَتَجَرٍ وَقَالَ آخَرُونَ هُوَ مُصَدَّرُ قَوْلِهِمْ يَنْعُ الثَّمَرِ، وَكَيْفَ كَانَ فَمَعْنِي، يَنْعُهُ، نَضْجُهُ وَبَلُوغُهُ حَتَّى يَبْلُغَ وَفِيهِ لَغَتَانِ فَتَحِ الْيَاءِ وَضَمِّهَا فَالْفَتْحُ لُغَةٌ أَهْلُ الْحِجَازِ وَالضَّمُّ لُغَةٌ نَجْدٍ.

خَرَقُوا، خَرَقَ وَإِخْتَرَقَ بِمَعْنِي، إِذَا إِفْتَعَلَ وَإِفْتَرَى وَكَذَبَ.

بَيْنَ جَمْعِ إِبْنٍ وَبَنَاتٍ جَمْعُ بِنْتٍ.

دَرَسْتُ يَقَالُ دَرَسْتَ الْعِلْمَ أَيِ تَنَاوَلْتَ أَثَرَهُ بِالْحِفْظِ وَقِيلَ، دَرَسُوا مَا فِيهِ، تَرَكَوا الْعَمَلَ بِهِ مِنْ قَوْلِهِمْ دَرَسُوا الْقَوْمَ الْمَكَانَ أَيِ أَبْلَوْا أَثَرَهُ.

## الإعراب

فَمُسْتَقَرٌّ بَفَتْحِ الْقَافِ عَلَى أَنَّهُ مُصَدَّرٌ فَيَكُونُ رَفْعُهُ بِالْإِبْتِدَاءِ أَيِ فَلَكَمُ إِسْتِقْرَارٌ، وَقِيلَ أَنَّهُ إِسْمٌ مَفْعُولٌ وَيُرَادُ بِهِ الْمَكَانَ أَيِ فَلَكَمُ مَكَانٌ تَسْتَقَرُّونَ فِيهِ مُسْتَوْدَعٌ بَفَتْحِ الذَّالِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُصَدَّراً بِمَعْنَى الْإِسْتِيدَاعِ وَأَنْ يَكُونَ إِسْمَ مَفْعُولٍ مِنْ، إِسْتَوْدَعُ نُخْرِجُ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ صِفَةً لَخَضِرًا وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا وَ قِنْوَانٌ مُبْتَدَأٌ وَفِي خَبَرِهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: هُوَ، وَمِنْ النَّخْلِ، وَمِنْ طَلْعِهَا بَدَلُ بِيَاعَادَةِ الْخَافِضِ.

الثَّانِي: أَنَّ الْخَبَرَ وَمِنْ طَلْعِهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَرْتَفَعَ، قِنْوَانٌ، عَلَى أَنَّهُ فَاعِلٌ مِنْ طَلْعِهَا.

جَنَاتٍ بِالنَّصَبِ عِظْماً عَلَى قَوْلِهِ، نَبَاتُ كُلِّ شَيْءٍ وَمِثْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالزُّمَانُ مُشْتَبِهًا حَالٍ مِنَ الزَّمَانِ أَوْ مِنَ الْجَمِيعِ وَجَعَلُوا بِمَعْنَى صَبَرُوا وَمَفْعُولُهَا الْأَوَّلُ الْجَنَّةُ وَالثَّانِي، شُرَكَاءُ، وَلِلَّهِ، يَتَعَلَّقُ بِشُرَكَاءٍ وَخَلَقَهُمْ وَأَيُّ وَقَدْ خَلَقَهُمْ فَتَكُونُ الْجُمْلَةُ حَالًا وَقِيلَ هُوَ مُسْتَأْنَفٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ الْفَاعِلِ فِي، خَرَقُوا بِدِيْعِ السَّمَوَاتِ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ أَيُّ هُوَ بِدِيْعِ السَّمَوَاتِ أَوْ هُوَ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ، وَأَتَى بِمَعْنَى كَيْفَ أَوْ مِنْ أَيْنَ وَمَوْضِعُهُ حَالٌ وَصَاحِبُ الْحَالِ وَلَدٌّ وَالْعَامِلُ يَكُونُ وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ تَامَةً وَأَنْ تَكُونَ نَاقِصَةً ذَلِكُمْ: مُبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ، اللَّهُ، وَرَبِّكُمْ، خَبَرُ ثَانٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ثَالِثٌ وَخَالِقُ كُلِّ رَابِعٍ وَقِيلَ أَنَّ الْخَبَرَ، اللَّهُ، وَمَا بَعْدَهُ أَبْدَالٌ مِنْهُ فَمَنْ أَبْصَرَ مَنْ مُبْتَدَأٌ فَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ شَرْطًا فَيَكُونُ الْخَبَرُ، أَبْصَرَ وَالْجَوَابُ مِنْ كِلَاهُمَا وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى، الَّذِي، وَمَا بَعْدَ الْفَاءِ الْخَبَرُ وَالْمُبْتَدَأُ فِيهِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ، فَبِإِبْصَارِهِ لِنَفْسِهِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَكَذَلِكَ، الْكَافُ فِي مَوْضِعِ نَصَبِ صِفَةٍ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ أَيُّ نَصَّرَفَ الْآيَاتُ تَصْرِيفًا.

### ◀ التفسير

إِعلم أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ مَسَائِلَ التَّوْحِيدِ وَالنَّبْوَةِ وَمَا يَتَفَرَّعُ عَلَيْهِمَا عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الدَّلَائِلَ الدَّالَّةَ عَلَى وَجُودِ الصَّانِعِ وَكَمَالِ عَدْلِهِ وَحُكْمَتِهِ بِوَجْهِ أَبْسَطٍ وَأَظْهَرَ لِيَكُونَ تَنْبِيْهُاً لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ إِتَّخَذُوا مَعَ اللَّهِ آلِهَةً عَبْدُوهَا إِتِمَامًا لِلْحُجَّةِ وَإِشْعَارًا بِأَنَّ الْمَعْبُودَ الَّذِي يَكُونُ مُسْتَحَقًّا لِلْعِبَادَةِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْأُولَى: إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْأُولَى وَفِيهَا مَسَائِلُ:

قال ابن عباس والضحاك ومقاتل، الفالق، في المقام بمعنى الخالق أي أن الله خالق الحب والنوى، وقد فسر هذا الكلام بعض المفسرين بأن الشيء قبل

الوجود كان معدوماً محضاً و العقل يتصور من العدم ظلمة متعلقة لا انفراج فيها ولا انفلاق ولا إنشقاق فاذا أخرجه المبدع الموجد من العدم الى الوجود فكأنه بحسب التخيل شق ذلك العدم و فلقه قال فبهذا التأويل لا يبعد حمل الفالق على الموجد و المحدث و المبدع انتهى كلامه ملخصاً.

وَأَنَا أَقُولُ أَمَّا كَلَامُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمِقَاتِلٍ وَالضَّحَّاكِ فَهُوَ خِلَافُ الظَّاهِرِ لِأَنَّ ظَاهِرَ اللَّفْظِ يَأْبَاهُ وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرُوهُ لَقَالَ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ خِلَافُ الْمَقْصُودِ أَيْضاً لِأَنَّ الْفَلَقَ غَيْرُ الْخَلْقِ مَعْنَى فَالْفَلَقِ الشَّقُّ وَالْخَلْقُ الْإِبْجَادُ وَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ وَاضِحٌ وَمَا ذَكَرُوهُ فِي تَوْجِيهِ كَلَامِهِمْ بِأَنَّ الشَّيْءَ قَبْلَ الْوُجُودِ كَانَ مَعْدُوماً مُحْضاً إِلَى آخِرِ مَا قَالَ لَا يَرْجِعُ إِلَى مُحْصَلٍّ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَالْحَبُّ وَالنَّوَى مَوْجُودَانِ فِي الْخَارِجِ ثُمَّ يَشْقَانِ بِقُدْرَتِهِ تَعَالَى فَأَيُّ شَيْءٍ أَخْرَجَ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ حَتَّى يَقَالَ شَقَّ ذَلِكَ الْعَدَمُ بَلِ الْحَقُّ أَنْ يَقَالَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَقَّ ذَلِكَ الْمَوْجُودَ وَأَخْرَجَ مِنْهُ مَوْجُوداً آخَرَ وَهُوَ الشَّجَرُ وَالثَّمَرُ مِثْلًا.

وَأَنْ شِئْتَ خَلَقْتَ مَا بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفَعْلِيَّةِ وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْمَقَامِ إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَقَوْلُ الْمَشْهُورِ هُوَ الْمَتَّبِعُ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ شَقَّ بِقُدْرَتِهِ حَبَّةَ الْحَنْظَلَةِ وَالشَّعِيرِ وَأَمْثَالَهَا وَأَخْرَجَ مِنَ الْحَبَّةِ أَنْوَاعَ الثَّمَارِ وَالْأَشْجَارِ عَلَى تَفَاوُتِ أَنْوَاعِهَا وَأَقْسَامِهَا وَأَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا وَإِخْتِلَافِ أَثْمَارِهَا لَوْنًا وَطَعْمًا وَهَكَذَا فَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الْأَشْجَارِ وَأَثْمَارِهَا وَخَوَاصِّهَا دَهَشَ عَقْلُهُ وَلَنَعَمَ مَا قِيلَ:

تَفَكَّرْ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَأَنْظُرْ إِلَى أَثْمَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِكِ  
فَفِي رَأْسِ الزَّيْجَرِ جَدَّ شَاهِدَاتٍ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكَ  
وَقَالَ السَّعْدِيُّ بِالْفَارَسِيَّةِ:

بِرْگِ دِرْخْتَانِ سَبَزِ دَرِ نَظَرِ هُوْشِيَارِ

هَرِ وَرَقَشِ دَفْتَرِي اسْتِ مَعْرِفَتِ كَرْدِگَارِ

و من العجيب في الباب هو أنّ الحَبَّةَ أو النَّوَّةَ اذا دفنت تحت التُّراب في الأرض الرُّطبة ومضى عليها مدّة من الزَّمان لتستعدّ للشَّقّ أظهر الله تعالى في تلك الحَبَّةَ أو النَّوَّةَ شَقّاً من أعلاها وشَقّاً من أسفلها فمن الشَّقّ الَّذي وقع في أعلاها تخرج الشَّجرة أو النَّبات صاعدةً الى الهواء ومن الشَّقّ الَّذي وقع في أسفلها تخرج عروق الشَّجرة في أعماق الأرض فتصير الحَبَّةَ أو النَّوَّةَ سبباً للصُّعود والهبوط وهما متضادان ذلك تقدير العزيز العليم لأنّ طبيعة واحدة من حيث هي لا تقتضي حركتين متخالفتين فلا بدّ لنا من الاعتقاد بأنّ ذلك بمقتضى الإيجاد والإبداع والموجد المبدع هو الله تعالى وهو المطلوب.

ثانياً: قد توجد الطَّبائع الأربع في فاكهة واحدة، فالأترنج قشره حارّ يابس، ولحمه بارد رطب وحماضه بارد يابس وبذره حارّ يابس وكذلك العنب قشره بارد يابس وماءه ولحمه حارّ رطب فتولد هذه الطَّبائع المضادة والخواص المتنافرة عن الحَبَّة الواحدة لا بدّ وأن يكون بإيجاد الفاعل المختار المطلوب. والخواص والآثار المترتبة على الحَبَّة والنَّوَّة كثيرة تستدعي تأليفاً مستقلاً ولولا خوف الإطالة وخروج الكتاب عن موضوعه لفصلنا الكلام بنقل الأقوال في الباب بما لا مزيد عليه ولكن فيما أشرنا اليه كفاية لأولي الألباب.

**المسألة الثانية:** قوله **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ** قال الحسن وقتادة وابن زيد وغيرهم أنّ المراد بالمَيِّت النُّطفة وبالحَيِّ الإنسان والمعنى أنّ الله يخرج الإنسان من النُّطفة ويخرج النُّطفة من الإنسان وبعبارة أخرى يخرج الإنسان الحَيَّ من النُّطفة الميِّتة ويخرج النُّطفة التي هي موات من الإنسان وهو حيّ.

وقال قوم أراد بإخراج الحَيِّ من المَيِّت إخراج السُّنبل وهى حيّ من الحَيِّ مَيِّت ومخرج الحبّ المَيِّت من السُّنبل الحَيِّ، والشَّجر الحَيِّ من النَّوى المَيِّت والنَّوى المَيِّت من الشَّجر الحَيِّ قالوا أنّ العرب تسمي الشَّجر مادام



غَضًّا قَائِمًا بِأَنَّهُ حَيٌّ فَإِذَا يَبَسَ أَوْ قَطَعَ أَوْ قُلِعَ مِنْ أَصْلِهِ سَمَّوهُ مَيِّتًا ذَهَبَ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ السُّدِّي وَالْجُبَائِي وَالطَّبْرِي وَغَيْرَهُمْ مِمَّنْ تَبِعَهُمْ.

**أقول** لا شَكَّ أَنَّ الْحَيَّ إِسْمٌ لِمَا يَكُونُ مَوْصُوفًا بِالْحَيَاةِ وَالْمَيِّتَ إِسْمٌ لِمَا كَانَ خَالِيًا عَنْهَا وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ فَالنَّبَاتُ لَا يَكُونُ حَيًّا عَلَى الْحَقِيقَةِ وَأَمَّا هُوَ حَيٌّ مَجَازًا وَحَيْثُ أَنَّ الْقَوْلَ الثَّانِي وَهُوَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الطَّبْرِي وَأَمْثَالُهُ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَجَازِ وَقَدْ ثَبَتَ فِي عِلْمِ الْأَصُولِ أَنَّ الْحَقِيقَةَ خَيْرٌ مِنَ الْمَجَازِ فَحَمَلَ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَوْلَى مِنْ حَمَلِهِ عَلَى الْمَجَازِ.

**فَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ:** وَهُوَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ أَوْلَى بِالِاتِّبَاعِ وَحَيْثُ أَنَّ حَمَلَ الْكَلَامِ عَلَى الْحَقِيقَةِ خَيْرٌ مِنْ حَمَلِهِ عَلَى الْمَجَازِ، ثَبَتَ أَيْضًا ضَعْفُ قَوْلِ مَنْ قَالَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَيِّتِ الْكَافِرَ وَبِالْحَيِّ الْمُؤْمِنَ وَمَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ وَبِالْعَكْسِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ إِطْلَاقَ الْمَيِّتِ عَلَى الْكَافِرِ مَجَازٌ وَقَدْ أَعْرَضْنَا عَنْهُ فِي الْمَقَامِ لَا مَكَانَ حَمَلِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ.

أَنْ قُلْتُ لَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْجُمْلَةِ الْأَوَّلَى يُخْرِجُ الْحَيَّ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الثَّانِيَةِ قَالَ وَمَخْرَجُ الْمَيِّتِ بِصِيغَةِ الْفَاعِلِ.

قُلْتُ قَدْ ذَكَرُوا أَنَّ الْفِعْلَ يَدُلُّ عَلَى الْحَدُوثِ حَالًا فَحَالًا وَسَاعَةً فَسَاعَةً وَأَمَّا الْإِسْمُ فَهُوَ يَفِيدُ الثَّبَاتَ وَالْبَقَاءَ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ وَحَيْثُ أَنَّ الْحَيَّ مُحْتَاجٌ إِلَى الْإِفَاضَةِ مِنْ مَبْدَأِ الْفِيَاضِ أَنَا فَأَنَا وَحَالًا فَحَالًا لِأَنَّ الْمُمْكِنَ الْبَاقِيَ مُحْتَاجٌ إِلَى الْمُؤَثِّرِ فِي بَقَاءِهِ كَمَا أَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ فِي حَدُوثِهِ فَخُرُوجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ لَا يَكْفِي فِي بَقَاءِهِ لَوْلَا الْإِفَاضَةُ مِنْ جَانِبِ الْخَالِقِ فِي جَمِيعِ شُؤْنِهِ وَأَحْوَالِهِ وَلِأَجْلِ هَذِهِ الدَّقِيقَةِ أَتَى بِصِيغَةِ الْفِعْلِ وَقَالَ وَيُخْرِجُ الْحَيَّ.

وَأَمَّا فِي جَانِبِ الْمَيِّتِ فَلَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا الْمُنْوَالِ لِأَنَّهُ ثَابِتٌ عَلَى حَالِهِ يُحْتَاجُ إِلَى إِفَاضَةِ الْوُجُودِ وَالرِّزْقِ أَنَا فَأَنَا وَلِذَلِكَ أَتَى بِصِيغَةِ الْإِسْمِ الدَّالِّ عَلَى الثَّبَاتِ وَالْقَرَارِ فَقَالَ وَمَخْرَجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ فَإِنَّهُمْ وَإِعْتَنَمَ ذَلِكَ.

**المسألة الثالثة:** قوله **ذَلِكُمْ اللَّهُ فَاتَى تُؤَفِّكُونَ** فقلوه: **ذَلِكُمْ** إشارة الى ما ذكره في الآية من عجائب صنعه وقدرته من شق الحب والنوى وإخراجه الحي من الميت وبالعكس وقوله: **اللَّهُ** خبره والمعنى أن الذي يقدر على ما أشرنا اليه يستحق أن يعبد لا غيره فهو الله وأنما بلفظ الجلالة ولم يقل ذلكم الرحمن والخالق والرازق وأمثال ذلك لأن، الله علم على الأصح للذات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصفات الكمالية وغيره من الأسماء لا يفيد هذا المعنى وبعبارة أخرى، الله، جامع لجميع الأسماء.

فكأنه قال ذلكم الرزاق والخالق والمحدث الى آخر الأسماء ولذلك قال بعد ذلك، فأتى تؤفكون، أي فأتى تذهبون أيها الجاهلون المعاندون وأتى تصرفون أيها الغافلون كفرتم بالله القادر على كل شيء وإتخذتم الأصنام وغيرها من الجمادات ألهة لأنفسكم أف لك ولما تعبدون.

**المسألة الرابعة:** قوله **فَالِقُ الْأَصْبَاحِ** بكسر الألف مصدر قولك أصبحنا أصبحاً والمراد أصبح كل يوم وقرأ الحسن بفتح الألف وعليه فهو جمع صبح وما قرأ به غيره أي شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل وذلك دال على القدرة العجيبة التي لا يقدر عليها غيره تعالى ويمكن أن يستفاد من الكلام أن الليل كان قبل النهار ومقدم عليه كما أن الحب مقدم على النبات والنجوى على الشجر ودليله واضح وهو أحد القولين في المسألة وأقواهما لأن عدم مقدم على الوجود في كل الممكنات.

**المسألة الخامسة:** **وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا** على قراءة أهل الكوفة وأما الباقر فقالوا جاعل الليل، على الفاعل لأن قبله اسم فاعل وهو فالق الحب والنوى وعليه فقلوه وجاعل الليل معطوف على قوله: **فَالِقُ الْأَصْبَاحِ** وهو على فالق الحب والنوى فيكون المعطوف والمعطوف عليه متشاكلاً، ومن قرأ، وجعل، فلأن اسم الفاعل الذي قبله بمعنى الماضي فالمعطوف موافق للمعطوف عليه في المعنى هذا أولاً.

ثانياً: أَنَّ الشَّمْسَ والقمر منصوبان لكونهما معطوفين على اللَّيْلِ الَّذِي هو مفعول الفعل وهذا أتما يَتَمَّ على قراءة الفعل وأما على قراءة الفاعل فلا و كيف كان في الكلام إشعار بأنَّ اللَّيْل قد جعله الله وسيلة وسبباً لتسكنوا فيه و تستريحوا قال الله تعالى: **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا**<sup>(١)</sup>.

المسألة السادسة: قوله: **وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا** أي أنهما يجريان في أفلاكهما بحساب قالوا تقطع الشمس الفلك في سنة و يقطعه القمر في شهر قدَّره الله تعالى به وهو قوله تعالى: **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ**<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى: **وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**<sup>(٣)</sup> قال قتادة معناه أنه جعل الشمس والقمر ضياءً، وأنت ترى أنه كلام لا معنى له إذ لو كان كذلك لقال ضياءً و حيث قال حُسْبَانًا هو غير الضياء معنى علمنا أنه من حمل الكلام على ما لا يرضى به صاحبه و هذا ظاهر.

المسألة السابعة: قوله **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** معنى الآية متقارب لتي قبلها وذلك لأنَّ الله تعالى عدَّد نعمه على خلقه و من جملتها أنه جعل لهم النجوم بمعنى أنه خلقها ليهدوا بها في أسفارهم في ظلمات البر والبحر الى هذا المعنى أشار بقوله: **وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**<sup>(٤)</sup>.

وقوله: **قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ** أي بيَّناها مفصلة لتكون أبلغ في الاعتبار وخصَّ الاعتبار بالعلماء فقال: **لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** لأنهم المنتفعون بها حقَّ الإنتفاع. و أما الجاهلون الغافلون فلا يعتبرون بها حقَّ الاعتبار و هو معلوم ونظير ذلك في الآيات كثيرة فقال في بعضها، لقوم يفقهون و في بعضها لقوم يوقنون وهكذا.

والسّر في الكلّ هو أنّ الفلاسفة اتّفقوا على أنّ شرط تأثير العلة في المعلول هو صلاحية المعلول وقابليته وحيث أنّ قلب الجاهل والكافر فاقد للصلاحية والقبول لعدم إستضاءته بنور العلم والمعرفة فلا جرم لا تؤثر الآيات فيه وسيأتي البحث فيه في محله إن شاء الله.

المسألة الثامنة: قوله وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ الإنشاء إيجاد الشئ وتربيته وأكثر ما يقال ذلك في الحيوان وقد يقال في غيره:

قال الله تعالى: **ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ** <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: **وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ** <sup>(٤)</sup>.

وغيرها منها وذلك لأنّ الله تعالى هو الذي أنشأ جميع الموجودات ووجدتها من العدم إلى الوجود.

وأما قوله: **مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ** فقد أجمع المفسرون على أنّ المراد به آدم أبو البشر.

قال الرّازي في المقام لا شبهة في أنّ النفس الواحدة هي آدم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** وهي نفس واحدة وحواء مخلوقة من ضلع من أضلاعه فصار كلّ النّاس من نفس واحدة وهي آدم، فأن قيل فما القول في عيسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** قلنا هو أيضاً مخلوق من مريم التي هي مخلوقة من أبيها فأن قالوا أليس أنّ القرآن قد دلّ على أنّه مخلوق من الكلمة أو من الرّوح المنفوخ فيها فكيف يصح ذلك.

قلنا كلمة، من، لإبتداء الغاية ولا نزاع أنّ إبتداء تكون عيسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** كان من مريم **عَلَيْهَا السَّلَامُ** وهذا القدر كاف في صحّة هذا اللفظ انتهى كلامه.

ونحن نقول لا نحتاج في إثبات المدعى الى القول بأن حواء مخلوقة من ضلع من أضلاع آدم وذلك لأن حواء خلقت كما خلق آدم بناء على ما وصل إلينا من طريق أهل البيت الذين هم كانوا أدرى بما في البيت.

وقد مرّ الكلام فيه في أول النساء عند قوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ<sup>(١)</sup> وذكرنا هناك الآثار الصحيحة الدالة على المطلوب و أنما قلنا لا نحتاج الى هذا القول لأن الملاك في خلق الأولاد هو وجود النطفة المستعدة لا غيرها وهي موجودة في الأب و أما الأم فهي بمنزلة الأرض فالولد مخلوق من النطفة ولذلك ينسب الى الأب دون الأم فيقال ولد فلان و لا يقال ولد فلاة و بذلك ثبت و تحقّق أنّ أولاد آدم خلقوا جميعاً من نفس واحدة أعني بها آدم وهو المطلوب.

و أما قول الرّازي في عيسى فنقول قال الله تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ<sup>(٢)</sup>.

و قد مرّ الكلام فيه هناك و قد ثبت في محله أنّ خروج فرد أو أفراد من تحت الحكم لا ينافي كلية الحكم و عمومه و كيف كان فلا شك في عموم الحكم و أنّ الله تعالى خلقنا من نفس واحدة و أنما الكلام في أنّ النفس الواحدة ما هي و المشهور عندهم أنّ المراد بها هو آدم أبو البشر و هذا هو الظاهر من اللفظ في المقام و يؤيده أنّ النفس قد يراد بها الإنسان أعني به الشخص و الى هذا المعنى أشار الله تعالى بقوله: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ<sup>(٣)</sup> و المعنى من قتل إنساناً بغير إنسان

و هكذا قوله: وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ<sup>(٤)</sup> يعني أنّ الإنسان بالإنسان أو الشخص بالشخص يقال جاني عشرون نفساً أي عشرون شخصاً. و أما قوله: فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ المشهور بين القراء هو فتح القاف و قرأ ابن

كثير وأبو عمر وبكسر القاف وعليه فكان المستقر بمعنى القارّ وإذا كان كذلك وجب أن يكون خبره المضمّر منكم، أي منكم مستقر.

وأما من فتح القاف كما هو المشهور فليس على أنّه مفعول به لأنّ إستقر، لا يتعدى فلا يكون له مفعول به فيكون إسم مكانٍ فالمستقر بمنزلة المقرّ وإذا كان كذلك فليس خبره المضمّر، منكم، بل يكون خبره، لكم، فيكون التقدير لكم مقرّ.

وأما المستودع فهو فعل يتعدى إلى مفعولين، فهو إسم المفعول من إستودع فهو بفتح الدال بلا كلام وعلى هذا فصّح أن يكون المستودع إسمًا للإنسان الذي إستودع ذلك المكان ويجوز أن يكون المراد المكان نفسه، فمن قرأ مستقرًا بفتح القاف جعل المستودع مكانًا ليكون مثل المعطوف عليه والتقدير فلکم مكان إستقرار و مكان إستيداع و من قرأ بالكسر فالمعنى منكم مستقر ومنكم مستودع والتقدير منكم من إستقر ومنكم من إستودع هكذا قالوا والله أعلم بكلامه.

ثمّ نقول أنّ الثّبات والقرار مأخوذٌ في معنى المستودع فالمستقر أقرب إلى الثّبات من المستودع والوجه فيه هو أنّ المستودع في معرض أن يسترد في كلّ حين بخلاف المستقر إذا عرفت هذا فنقول:

اختلفوا في تفسير هذين اللَّفظين على أقوال:

منها، ما عن ابن عباس من أن المراد بالمستقر هو الأرحام وبالمستودع الأصلاب وعلّله بعض المفسّرين بأنّ النّطفة لا تبقى في صلب الأب زمانًا طويلًا وتبقى في الرّحم أكثر ممّا في صلب الأب فكان حمل الإستقرار على المكث في الرّحم أولى.

**القول الثّاني:** أنّ المستقر صلب الأب والمستودع رحم الأمّ بعكس الأوّل، وعلّله بأنّ النّطفة حصلت في صلب الأب لا من قبل الغير وهى حصلت في رحم الأمّ بفعل الغير ولذلك فهي في الرّحم تشبه الوديعة التي أودعها الرّجل فيه.

ثانياً: أن قوله تعالى: **فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ** بتقديم الإستقرار على الإستيداع يقتضي كون المستقر متقدماً على المستودع ومن المعلوم أن حصول النطفة في صلب الأب مقدّم على حصولها في رحم الأم فوجب أن يكون المراد بالمستقر ما في أصلاب الأباء وبالمستودع ما في أرحام الأمهات.

**القول الثالث:** المستقر حاله بعد الموت سعيداً كان أو شقيماً اذ لا تبدل في أحوال الإنسان بعد الموت و أما قبله فالأحوال متبدلة فهذه الأحوال لكونها قبل الموت على شرف الزوال والفناء لأن الكافر قد ينقلب مؤمناً وبالعكس مثلاً لا يبعد أن تشبيها بالوديعة التي تكون مشرفة على الزوال والذهاب و أما بعد الموت فليست كذلك بل تستقر وتثبت.

**القول الرابع:** قول الأصمّ وهو أن المراد بالمستقر من خلق من النفس الأولى و دخل الدنيا و إستقر فيها و المراد بالمستودع الذي لم يخلق بعد و سيخلق.

**القول الخامس:** وهو له أيضاً، المستقر من إستقر في قرار الدنيا و المستودع من في القبور حتّى يبعث.

**القول السادس:** ما نقل عن قتادة وهو على العكس منه فقال مستقر في القبور و مستودع في الدنيا.

**القول السابع:** لأبي مسلم الأصبهاني وهو أن التقدير هو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمنكم مستقر ذكروا منكم مستودع أنثى و علّله بأن النطفة أنما تستقر في صلب الرجل و أما الأنثى فرحمها شبيهة بالمستودع لتلك النطفة فهذه هي الأقوال المذكورة في الباب على ما نقله الرّازي في تفسيره و نقل الشيخ في التّبيان عن ابن مسعود أنّه قال المستقر ما في الرّحم و المستودع حيث يموت و به قال إبراهيم و مجاهد.

و عن سعيد بن جبير، المستودع ما كان في أصلاب الرّجال فإذا قروا في أرحام النّساء و على ظهر الأرض و في بطونها فقد إستقروا بها.

وقال بعضهم، المستقر، الأرض والمستودع عند ربك.  
وقيل، المستقر في الآخرة والمستودع في الصُّلب وعليه فصارت الأقوال تسعة ومن المحتمل أن يكون في المقام أقوالاً غير ما ذكرناه لم نظفر عليها وكيف كان فالظاهر أن المراد بقوله: **وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ** وهو إنتهاء النسل إلى آدم الذي يعده القرآن مبدأ للنسل الإنساني والمراد بالمستقر كل من تلبس بالولادة من أولاد آدم فاستقر في الأرض التي هي المستقر له كما قال تعالى: **وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** <sup>(١)</sup>.

والمراد بالمستودع من إستودع في الأصلاب والأرحام ولم يولد وسيولد بعد حين ويؤيده أيضاً قوله تعالى: **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا** <sup>(٢)</sup> أي يعلم ما إستقر منها في الأرض بفعلية الوجود وما لم يستقر منها في الأرض بالفعل وهو في طريق التكون فالمستقر هو الموجود بالفعل والمستودع هو الذي في طريق الوجود ولم يوجد بعد. وأما قوله: **قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ** أي قد بينا الحجج والبراهين الدالة على وجود الخالق المدبر الحكيم لمن كان متفهماً بصيراً.

**المسألة التاسعة:** قوله **وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** أصل ماء موه بدلالة قولهم في جمعه، أمواه ومياه، وفي تصغيره مويه فحذف الهاء وقلب الواو والمعنى أن الله تعالى: **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** أي من السحاب فإن سماء كل شيء أعلاه والسحاب بالنسبة إلى الأرض وما فيها أعلاها قال بعضهم كل سماء بالاضافة إلى ما دونها فسماء وبالاضافة إلى ما فوقها فأرض او عليه في الآية دلالة على أن الماء الموجود في الأرض كله من السماء بسبب الأبخرة المتصاعدة إليها وهو لا ينافي كون المنزل في الحقيقة هو الله تعالى: إذ أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها.



فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ قَالُوا معناه أَنَّهُ تعالى أَخْرَجَ بالماء الَّذِي أَنزَلَ من السَّمَاءِ من غذاء الأنعام والبهائم والطَّيْرِ والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم ما يَتَغَذُّونَ به ويأكلونه فينبتون عليه وينمون وبعبارةٍ أُخْرَى أَخْرَجْنَا به ما ينبت كُلُّ شَيْءٍ وينمو عليه ويصلح وقال بعضهم يحتمل أن يكون المراد أَخْرَجْنَا به جميع أنواع النَّبَاتِ فيكون كُلُّ شَيْءٍ هو أصناف النَّبَاتِ.

وقال بعضهم أَنَّ المعنى بنبات كُلِّ شَيْءٍ مَا يَسْمَى نَبَاتًا في اللُّغَةِ وهو ما ينمو من الحبوب والفواكه والبقول والحشائش والشجر ومعنى كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا ينبت وأشار إلى أَنَّ السَّبَبَ واحد والمسببات كثيرة.

وقال الطَّبْرِي نبات كُلِّ شَيْءٍ جميع ما ينمو من الحيوان والنَّبَاتِ والمعادن وغير ذلك لِأَنَّ كُلَّهُ يَتَغَذَّى وينمو بنزول الماء من السَّمَاءِ.

وقال الفَرَّاء معناه رزق كُلِّ شَيْءٍ أَي ما يصلح غذاءً لِكُلِّ شَيْءٍ فيكون كُلُّ شَيْءٍ مخصوصاً بالمتغذي وتكون إضافة النَّبَاتِ إليه إضافةً بَيَّانِيَّةً.

**أقول** ما ذكروه لا بأس به إِلَّا أَنَّ معنى الكلام واضح لا يحتاج إلى هذه التَّكَلُّفات والتأويلات وذلك لِأَنَّهُ تعالى لما ذكر في صدر الآية أَنَّهُ هو الَّذِي أَنزَلَ من السَّمَاءِ ماءً فَرَعَ عليه قوله: فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَي أَخْرَجْنَا بالماء المنزل من السَّمَاءِ نبات كُلِّ شَيْءٍ أَي ما ينبت وينمو من الأشياء والمراد بالإخراج هو إيصال الشَّيْءِ من القُوَّةِ إلى الفعل وذلك لِأَنَّ الحَبَّ مثلاً فيه القُوَّةُ والإستعداد لِأَن يَصِيرَ نباتاً مثمراً في الخارج وهكذا النَّوَّةُ فيها القُوَّةُ والإستعداد لِأَن تكون شجراً في الخارج وهذه القُوَّةُ فيها تسمى بالحياة الإستعدادي والوصول إليها بالفعل لا يكون إِلَّا بسبب الماء وإلى هذه الدَّقِيقَةِ أشار الله تعالى بقوله: وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ<sup>(١)</sup> أَي جعلنا حياة كُلِّ شَيْءٍ من الماء ألا ترى أَنَّ ما لا حياة له لا يحتاج إلى الماء كالجُمادات ومَحْصُلُ الكلام هو أَنَّ الله تعالى يخرج النَّبَاتِ من القُوَّةِ إلى الفعل بسبب الماء ولذلك قال: فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ

خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَ هَذَا الْكَلَامُ وَ مَا بَعْدَهُ تَفْصِيلٌ لِمَا قَبْلَهُ أَيْ فَأَخْرَجْنَا مِنَ الْمَاءِ خَضِرًا يَعْنِي أَخْضَرَ رَطْبًا مِنَ الزَّرْعِ وَ الْخَضِرُ وَ الْأَخْضَرُ وَاحِدٌ وَ الْخَضِرَةُ رَطْبُ الْبَقُولِ.

ثُمَّ نَخْرِجُ مِنْهُ، أَيْ مِنَ الْخَضِرِ، حَبًّا، يَعْنِي مَا فِي السُّنْبُلِ مِنَ الْحِنْطَةِ وَ الشَّعِيرِ وَ الْأُرْزِ وَ غَيْرِهَا مِنَ السَّنَابِلِ، ثُمَّ قَالَ مُتَرَاكِبًا، لِأَنَّ حَبَّهَا يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَ مِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ أَيْ وَ نَخْرِجُ مِنَ النَّخْلِ أَيْضًا، مِنْ طَلْعِهَا، خَصَّ الطَّلْعَ بِالذِّكْرِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي لَيْسَتْ فِي شَيْءٍ مِنْ تَمَامِ الثَّمَرِ وَ الطَّلْعُ أَوَّلُ مَا يَرَى مِنْ عَذْقِ النَّخْلَةِ وَاحِدَةٌ طَلْعَةٌ وَ أَمَّا قَوْلُهُ: قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ أَيْ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمُتَنَاوِلِ لِقَصْرِهَا وَ لَصُوقِ عِرْوَقِهَا بِالْأَرْضِ، وَ قِيلَ دَانِيَةٌ أَيْ مَائِلَةٌ

وَ قَالَ الْحَسَنُ قَرِيبٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَ حَذَفَ السَّحُوقَ لِلدَّلَالَةِ الدَّانِيَةِ عَلَيْهَا كَقَوْلِهِ سِرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ أَيْ وَ الْبَرْدَ، وَ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ وَ قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ كَائِنَةٌ مِنْ طَلْعِ النَّخْلِ وَ جَنَاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَ الزَّيْتُونِ وَ الرُّمَّانِ مُشْتَبِهًا هَذَا الْكَلَامَ مَعْطُوفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ، أَيْ وَ نَخْرِجُ أَيْضًا جَنَاتٍ أَيْ بَسَاتِينَ مِنْ أَعْنَابٍ وَ الزَّيْتُونِ وَ الرُّمَّانِ، مُتَشَابِهٌ وَرَقُهُ وَخِلْفُهُ ثَمَرُهُ وَ قِيلَ مُشْتَبِهًا فِي الْخَلْقِ مُخْتَلَفًا فِي الطَّعْمِ. وَ قَالَ الْجَبَائِي مُشْتَبِهًا إِذَا كَانَ مِنْ جَنْسٍ وَاحِدٍ غَيْرِ مُتَشَابِهٍ إِذَا اِخْتَلَفَ جَنْسُهُ الزَّمْخَشَرِيُّ بَعْضُهُ مُتَشَابِهٌ وَ بَعْضُهُ غَيْرُ مُتَشَابِهٍ فِي الْقَدْرِ وَ اللَّوْنِ وَ الطَّعْمِ وَ الْمَقْصُودُ مِنَ الرُّمَّانِ وَ الزَّيْتُونِ شَجَرُ الرُّمَّانِ وَ شَجَرُ الزَّيْتُونِ فَكَتَفَى بِذِكْرِ الثَّمَرِ عَنْ ذِكْرِ الشَّجَرِ كَمَا قَالَ وَ أَسْأَلُ الْقَرْيَةَ، أَيْ أَهْلَهَا لِلدَّلَالَةِ الْحَالِ عَلَيْهِ أَنْظَرُوا إِلَيَّ ثَمَرَةً إِذَا أَثْمَرَ وَ يَنْعَبَةٌ.

الثَّمَرُ جَمْعُ ثَمَرَةٍ وَ هُوَ مَا اِنْعَقَدَ عَلَى الشَّجَرِ، وَ قَوْلُهُ: وَ يَنْعَبَةٌ قَالَ بَعْضُهُمْ إِذَا فَتَحَتْ يَأْوُهُ فَهُوَ جَمْعُ يَنْعٍ مِثْلُ صَاحِبٍ وَ صَحْبٍ وَ قَالَ آخَرُونَ هُوَ مُصَدَّرٌ قَوْلُهُمْ يَنْعُ الثَّمَرُ وَ يَحْكِي فِي مُصَدَّرِهِ ثَلَاثَ لُغَاتٍ ضَمَّ الْبَاءَ وَ فَتَحَهَا وَ كَسَرَهَا وَ مَعْنَاهُ النَّضْجُ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِالْآيَاتِ دُونَ غَيْرِهِمْ كَمَا مَرَّ تَحْقِيقُهُ فِي قَوْلِهِ: هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

لَمَّا أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى فِيْمَا مَضَى إِلَى بَعْضِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى الْخَلْقِ وَدَعَاهُمْ إِلَى التَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ ضَمَنًا فِي آيَاتِ اللَّهِ رَجَعَ إِلَى الْإِشَارَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَنَفَى الشِّرْكَ ثَانِيًا.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ

أَي وَجَعَلَ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارَ لَهُ تَعَالَى أُنْدَادًا وَشُرَكَاءَ الْجِنَّ كَمَا قَالَ: وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا<sup>(١)</sup> قِيلَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ إِدْعَوْا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللَّهِ وَالنَّصَارَى الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ وَالْيَهُودَ عَزِيزَ ابْنَ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ تَعَالَى: وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ<sup>(٣)</sup> قَالُوا وَصَفَهُم بِالْجِنَّ لَخَفَائِهِمْ عَنِ الْأَبْصَارِ وَقَوْلُهُ: وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ أَرَادَ بِهِ الْكَفَّارَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللَّهِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ جَعَلُوا الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ وَالْيَهُودَ الَّذِينَ جَعَلُوا عَزِيزًا ابْنَ اللَّهِ وَلِذَلِكَ قَالَ: وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ فَفَصَلَ أَقْوَالَهُمْ وَقِيلَ أَنَّ مَعْنَى شُرَكَاءَ الْجِنَّ، فِي إِسْتِعَاذَتِهِمْ بِهِمْ، وَقِيلَ أَنَّ الْمَعْنَى أَنَّ الْمَجْجُوسَ تَنْسَبُ الشَّرَّ إِلَى إِبْلِيسَ وَتَجْعَلُهُ بِذَلِكَ شَرِيكًا ذَكَرَ هَذِهِ الْأَقْوَالُ فِي التَّبْيَانِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا اخْتَصَّ بِهِ مِنْ بَاهِرِ قُدْرَتِهِ مُتَقَنَ صَنْعُهُ وَإِمْتَنَانُهُ عَلَى الْإِنْسَانِ بِمَا أَوْجَدَ لَهُ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي قَوَامِ حَيَاتِهِ وَبَيَّنَ ذَلِكَ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَلِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَلِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ذَكَرَ مَا عَمِلُوا بِهِ مِنْ شَتَائِهِمْ مِنَ الْعَدَمِ وَوَجَدَ أَرْزَاقَهُمْ مِنْ إِشْرَاقِ غَيْرِهِ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ وَنَسَبَتِهِ مَا هُوَ مُسْتَحِيلٌ عَلَيْهِ مِنْ وَصْفِهِ بِسِمَاتِ الْحُدُوثِ مِنَ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ.

وَقَالَ الْكَلْبِيُّ نَزَلَتْ فِي الزَّنَادِقَةِ قَالُوا أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَإِبْلِيسَ

خالق الحيات والعقارب والسباع ويقرب من ذلك قول المجوس حيث قالوا للعالم صانعان، إله قديم.

**الثاني:** شيطان حادث من فكرة الإله القديم، وقيل بنو مدلج زعموا أنّ الله تعالى صاهر الجن فولدت له الملائكة وقال الحسن هذه الطوائف كلها أطاعوا الشيطان في عبادة الأوثان وإعتقدوا الإلهية فيمن ليست له فجعلوهم شركاء لله في العبادة، هذا.

والحق أنّ الآية مشيرة الى الذين جعلوا الجن شركاء لله في عبادتهم أيّاهم وأنهم يعلمون الغيب وكانت طوائف من العرب تفعل ذلك وتستجير بجن الأودية في أسفارها وهذا معنى قوله وجعلوا لله شركاء الجن. وأما قوله: **وخلّقتهم** يحتمل أن تكون الهاء والميم عائدة الى الكفار الذين جعلوا لله الجن شركاء، ويحتمل أن تكون عائدة على الجن والمعنى: **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ** والله تعالى خلق الجن فكيف يكونون شركاء له، وفي نصب الجن وجهان.

**أحدهما:** أن يكون تفسيراً للشركاء وبدلاً منه.

والآخر أن يكون مفعولاً به ومعناه: **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ** وهو خالقهم. وعن يحيى بن يعمر أنّه قرأ، **وخلّقتهم** بسكون اللام بمعنى أنّ الجن شركاء لله في خلقه أيّانا وهذه القراءة ضعيفة، وجعل الزمخشري الجن مفعولاً أولاً لقوله جعلوا وهو بمعنى صيروا وشركاء مفعول ثانٍ، والله متعلق بشركاء والتقدير وصيروا هؤلاء الكفار الجن شركاء لله، أو صيروا لله الجن شركاء.

وقال أيضاً الخلق في قوله: **وخلّقتهم** بمعنى الإختلاق أيّ إختلاقهم الأفك يعني وجعلوا لله خلقهم حيث نسبوا قبائحهم الى الله في قولهم والله أمرنا بها فالخلق هنا مصدر بمعنى الإختلاق **وَحَرَقُوا لَهُ بُنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ** أيّ إختلفوا وإفتروا حيث جعلوا له بنات وبنين فأشار بقوله بنين الى أهل الكتابين في المسيح وعزير وبقوله، بنات الى قريش في الملائكة كلّ ذلك نشأ

من جهلهم بالله تعالى فَأَنَّ الْعَالَمَ الْعَارِفَ لَا يَقُولُ بِهِ لَعَلَّمَهُ بِأَنَّهُ تَعَالَى مِنْزَهُ عَنْ الْقَبَائِحِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ** نَزَهُ ذَاتَهُ عَنْ تَجْوِيزِ الْمُسْتَحِيلَاتِ عَلَيْهِ فَهُوَ مُتَقَدِّسٌ فِي ذَاتِهِ عَنْ هَذِهِ الْأَوْصَافِ لِأَنَّهَا مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ وَأَمَّا الْخَالِقُ فَلَا لِتَجَرُّدِهِ فِي ذَاتِهِ وَكَمَالِهِ فِي صِفَاتِهِ فَهُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

**بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.**

البديع بفتح الباء هو المبدع وهي صفة معدولة عن (مفعل) الى (فعليل) ولذلك تعدى (فعليل) لأنه يعمل عمل ما عدل عنه فإذا لم يكن معدولاً للمبالغة لم يتعد نحو طويل وقصير، وإرتفع، بديع لأنه خبر إبتداء محذوف والتقدير هو بديع السموات والأرض ويجوز رفعه بالإبتداء وخبره، أنى يكون له ولد، والإبداع انشاء صنعة بلا إحتذاء وإقتداء وإذا إستعمل في الله فهو بمعنى إيجاد الشيء بغير آلة ولا مادة ولا زمان ولا مكان وليس ذلك إلا لله تعالى والفرق بين الإبتداع والإختراع هو أنَّ الإبتداع فعل ما لم يسبق إلى مثله والإختراع فعل ما لم يوجد سبب له ولذلك يقال البدعة والسنة فالبدعة إحداث ما لم يسبق إليه ممّا خالف السنة ولا يوصف بالإختراع غير الله وأما الإبتداع فقد يقع من غير الله لأنه قد يفعل فعلاً لم يسبق إليه وأما بديع السموات والأرض فلا يوصف به غير الله لأنه خالقهما على غير مثال سبق إذا عرفت هذا فنقول.

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فساد قول المشركين شرع في إقامة الدليل على فساد قول من يثبت له الولد فَأَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا عَزِيزُ إِبْنِ اللَّهِ وَالنَّصَارَى قَالُوا الْمَسِيحُ إِبْنُ اللَّهِ، وَمَحْصَلُ الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ الْوَلَدَ بِحَسَبِ اللَّغَةِ وَالْعَرَفِ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَوْلُودِ وَتَوَلَّدَ الشَّيْءُ مِنَ الشَّيْءِ حَصُولُهُ عَنْهُ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ فَمَنْ لَمْ يَتَوَلَّدْ لَا يُسَمَّى

ولداً المعلوم أنه لا يولد من غير الأنثى فكيف يعقل أن يكون لله ولد والى هذا المعنى أشار الله بقوله، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة هكذا قيل.

ونحن نقول أما أنه تعالى: **بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** فالوجه فيه معلوم لأنه أوجد وأبدع السموات والأرض بلا إحتذاء وإقتداء وعلى غير مثال سبق وأنما لم يقل وما فيهما، لأن ما فيهما من الموجودات على أقسام: فمنها، ما هو موجود على سبيل الإبداع كالعقول والنفوس والملائكة على قول.

ومنها، ما لا يكون كذلك كالإنسان والحيوان والجنّ والنبات وغيرهما ممّا يوجد في الخارج بسبب من الأسباب، وهذا بخلاف السموات والأرض فأَنَّ الله خلقهما على سبيل الإبداع وحيث أَنَّ الجنّ الذي جعلوه شريكاً له تعالى داخل في السموات والأرض فلا محالة هو مخلوق لغيره والمخلوق لا يكون شريكاً له تعالى وهكذا غيره من أصناف الموجودات فَأَنَّ حكم الأمثال واحد فثبت وتحقّق أَنَّ الله لا شريك له من الجنّ وغيره كائناً ما كان.

وأما قوله: **أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ** فهو ردٌّ على اليهود والنصارى وكلّ من قال أو يقول بأنّ له ولد، وتوضيحه أنّ الولد المفروض إمّا أن يكون موجوداً على سبيل الإبداع وإمّا أن يكون على سبيل المعتاد أعني من سبب، لا سبيل الى الأول لأنه يلزم منه أن يكون كلّ ما وجد على سبيل الإبداع ولداً له تعالى لعدم وجود مرّجح في البين وأنّ حكم الأمثال واحد فيكون السموات والأرض والعقول والنفوس والملائكة وهكذا سائر المبدعات أولاده فلا يكون الحكم مختصاً بالمسيح وعزير وغيرهما ولا يقول به عاقل هذا كلّه مضافاً الى أنّ الموجود على سبيل الإبداع أيضاً مخلوق للمبدع وإذا كان مخلوقاً فهو كغيره من المخلوقات داخل في سلسلة الممكنات والممكن كيف يكون ولداً للواجب أين التراب وربّ الأرباب.

ولا سبيل الى الثاني لأن المولود على سبيل المعتاد لا يوجد الا من أنثى  
واذا كان كذلك فلا بد للأب من إختيار صاحبة أعني بها الزوجة وبعبارة أخرى  
الولد يحتاج الى أب وأم فثبت أن تلك الولادة لا تصح إلا ممن كانت له  
صاحبة وشهوة وينفصل عنه جزء ويحتبس ذلك في رحم تلك الصاحبة و  
هذه الأحوال والأوصاف كلها من شئون الجسم الذي يصح عليه الاجتماع و  
الافتراق والحركة والسكون والشهوة واللذة.

ومن المعلوم أن كل ذلك على خالق العالم محال لأنه واجب الوجود  
المنزّه عن كل نقص وعيب فلا يكون له ولد على سبيل المعتاد أيضاً والى  
هذه الإستحالة أشار الله تعالى بقوله: أَنَّنِي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ  
صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ أما أنه خلق كل شيء فهو  
مما لاشك فيه حتى عند القائلين بأن له ولد لأنهم لا ينكرون أن الولد مخلوق  
له.

فنقول اذا ثبت أنه خالق كل شيء فاذا أراد إحداث شيء قال له كُنْ فَيَكُونُ و  
من كان كذلك إمتنع منه إحداث شخص بطريق الولادة لأن هذا الإحداث  
يصح في حق من لا يكون قادراً على الخلق والإيجاد والتكوين دفعة واحدة  
هكذا قرره الرازي في تفسيره ثم قال وهذا هو المراد من قوله تعالى: وَخَلَقَ  
كُلَّ شَيْءٍ.

وأنا أقول قوله: وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ إشارة الى نكته أخرى لم يتفطن اليها  
الرازي وغيره من المفسرين وهى أن الولد يكون مخلوقاً من الأب بسبب  
النطفة التي خرجت منه الى الرحم فهو في الحقيقة جزء من الأب وهذا لا  
يعقل إلا من الجسم الذي له أجزاء.

وأما الموجود المجرد عن المادة الذي نعبر عنه بالواجب فلا يكون له جزء  
ولبساطته فلا يخلق منه شيء اذا عرفت هذا فنقول:

قوله: **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ يَدَّلُ عَلَىٰ أَنْ مَا سِوَاهُ كَانَتْ مَا كَانَ فَهُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ أَيْ**  
**أَنَّهُ أَوْجَدَهُ وَخَلَقَهُ، وَالمَخْلُوقُ لَا يَكُونُ جِزْءً لِلْخَالِقِ وَلِذَلِكَ قَالَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ**  
**وَلَمْ يَقُلْ وَخَلَقَ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ وَلِأَجْلِ هَذِهِ الدَّقِيقَةِ لَا يَقَالُ أَنَّ الْوَلَدَ مَخْلُوقٌ**  
**لِلْأَبِ بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ تَعَالَى بِسَبَبِ الْأَبِ فَالْشَيْءُ الْمَخْلُوقُ لَا يَكُونُ جِزْءً مِنْ**  
**خَالِقِهِ فَلَا يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.**

وَأَمَّا قَوْلُهُ: **وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** فَإِنَّ الْخَالِقَ لَا يَكُونُ جَاهِلًا بِخَلْقِهِ وَ  
 حَيْثُ أَنَّهُ تَعَالَى خَالِقُ الْكُلِّ فَهُوَ عَالِمٌ بِالْكُلِّ، أَوْ يَقَالُ أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِذَاتِهِ وَ  
 ذَاتِهِ عِلْمٌ لَا يَجَادُ الْمَمَكِّنَاتُ فَهُوَ عَالِمٌ بِالْمَمَكِّنَاتِ. وَكَيْفَ كَانَ فَهُوَ حَكَمٌ عَامٌّ لَا  
 خَفَاءَ فِيهِ.

**ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ**  
**شَيْءٍ وَكِيلٌ**

أَيُّ ذَلِكُمْ الْمَوْصُوفُ بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ السَّابِقَةِ مِنْ كَوْنِهِ بَدِيعًا لَمْ يَتَّخِذْ  
 صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا خَالِقُ الْمَوْجُودَاتِ عَالِمًا بِكُلِّ شَيْءٍ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
 خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فِاعْبُدُوهُ، وَأَنَّمَا أَدْخَلَ فِيهِ الْمِيمَ فَقَالَ: **ذَلِكُمْ** وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ، قَالُوا  
 لِأَنَّهُ خَطَابٌ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ وَفِي قَوْلِهِ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ لَا مَعْبُودَ  
 سِوَاهُ وَلَا يَسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ غَيْرُهُ تَعَالَى وَذَلِكَ لِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَمَا سِوَاهُ كَانَتْ  
 مَا كَانَ يَكُونُ مَخْلُوقًا لَهُ وَحَيْثُ قَدْ ثَبِتَ عَقْلًا وَنَفْلًا أَنَّ شُكْرَ الْمَنِّعِ وَاجِبٌ  
 عَلَى الْمَنِّعِ عَلَيْهِ وَلَا نِعْمَةً أَفْضَلَ وَأَعْلَىٰ مِنْ نِعْمَةِ الْوُجُودِ وَالشُّكْرُ مَوْقُوفٌ  
 عَلَى الْمَعْرِفَةِ فَلَا جَرَمَ يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ مَعْرِفَةَ خَالِقِهِ وَمَوْجِدِهِ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.  
 وَلِأَجْلِ هَذِهِ الدَّقِيقَةِ أَتَى بِالْفَاءِ الَّتِي لِلتَّفْرِيعِ فَقَالَ فِاعْبُدُوهُ وَلَمْ يَقُلْ وَ  
 اعْبُدُوهُ وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْعِبَادَةَ فَرْعٌ عَلَى الْمَعْرِفَةِ أَيْ إِذَا عَرَفْتُمْ أَنَّهُ تَعَالَى  
 خَلَقَكُمْ وَأَوْجَدَكُمْ فِاعْبُدُوهُ قِضَاءٌ لِحَقِّهِ الْوَاجِبِ عَلَيْكُمْ مِنْ وَجُوبِ الشُّكْرِ  
 عَلَى النِّعْمَةِ.



وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ فالوكيل عَلَى الشَّيْءِ هو الحافظ الَّذِي يحوطه ويدفع الضرر عنه قِيلَ إِنَّمَا وَصَفَ بَأَنَّهُ مَالِكُ الْأَشْيَاءِ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ مَنَافِعُهُ لغيره لِأَسْتِحَالَةِ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارُّ عَلَيْهِ فَقَدْ صَحَّتِ الصِّفَةُ لَهُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ بِأَنَّهُ وَكِيلٌ.

أَقُولُ مَا ذَكَرُوهُ لَا بَأْسَ بِهِ إِلَّا أَنَّ الْأَظْهَرَ فِي مَعْنَى الْكَلَامِ هُوَ أَنَّ أُمُورَ الْخَلْقِ مَفْرُوضَةٌ إِلَيْهِ قَهْرًا لِأَنَّهُ الْخَالِقُ الْمَوْجِدُ الْعَالِمُ بِمَصَالِحِ الْأَشْيَاءِ وَمَفَاسِدِهَا مَعْلُومٌ. وَأَعْلَمُ أَنَّ فِي الْمَقَامِ بَحْثَيْنِ قَدْ تَعَرَّضُوا لِهَمَا وَنَحْنُ أَيْضًا نَتَكَلَّمُ فِيهِمَا لِأَنَّهُمَا مِنَ الْمَسَائِلِ الْإِعْتِقَادِيَّةِ.

الْأَوَّلُ: فِي قَوْلِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

الثَّانِي: فِي قَوْلِهِ: خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

أَمَّا الْأَوَّلُ: قَالُوا أَنَّ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الدَّلَائِلِ قَدْ ثَبَتَ بِهِ وَجُودَ الْخَالِقِ وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ مِنَ الْجَنِّ وَغَيْرِهِ وَهَذَا لَا يُوجِبُ الْجَزْمَ بِالتَّوْحِيدِ الْمُحْضِ وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى ثَبَتَ بِمَا تَقَدَّمَ وَجُودَ الْخَالِقِ وَنَفْيَ الشَّرِيكِ لَهُ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ وَهَذَا الْقَدْرُ لَا يُوجِبُ الْجَزْمَ بِالتَّوْحِيدِ الْمُحْضِ إِذْ لِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ مِنَ الْمَحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكًا مِنْ سِنَخِ الْوَاجِبِ كَشِبْهَةِ ابْنِ كَمُونَةَ، وَقَوْلُهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُفِيدُ التَّوْحِيدَ الْخَالِصَ وَلَمْ يَثْبِتْ هَذَا، ثُمَّ أَشَارُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْأَدْلَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمَدْعَى وَأَطَالُوا الْكَلَامَ فِيهَا.

وَنَحْنُ نَقُولُ لَا نَحْتَاجُ إِلَى ذِكْرِ الْأَدْلَةِ فِي الْمَقَامِ وَذَلِكَ لِأَنَّ إِثْبَاتَ الْخَالْقِيَّةِ لِكُلِّ شَيْءٍ يَكْفِي فِي إِفَادَةِ التَّوْحِيدِ الْمُحْضِ لِأَنَّ الشَّرِيكَ كَائِنًا مَا كَانَ دَاخِلٌ فِي مَفْهُومِ الشَّيْءِ لِكُونِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ وَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فغيره تَعَالَى بِمَا أَنَّهُ شَيْءٌ يَكُونُ مَخْلُوقًا لَهُ وَإِذَا كَانَ مَخْلُوقًا يَكُونُ مُمْكِنًا وَالْمُمْكِنُ لَا يَكُونُ شَرِيكًا لِلوَاجِبِ فَثَبَتَ أَنَّهُ تَعَالَى مُتَفَرِّدٌ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَلَا نَعْنِي بِالتَّوْحِيدِ الْمُحْضِ إِلَّا هَذَا وَتَفْصِيلُ الْكَلَامِ فِيهِ مُوَكَّوٌّ إِلَى مَحَلِّهِ.

**البحث الثاني:** قالوا أُنْ قوله: **خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** يدل على أنه تعالى خالق الأعمال أيضاً لأنَّ الصّادر من العبد خيراً كان أو شراً داخل في الشّيء وإذا كان الله خالق كلِّ الأشياء فهو خالق كلِّ الأعمال أيضاً ولا نعني بالجبر إلا هذا. وقد أجابوا عنه تارة بأنَّ اللَّفظ وأن كان عاماً إلا أنه في الحقيقة مخصوص بغير أفعال العباد لأنّه لو دخلت أعمال العباد تحت قوله: **خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** لصار تقدير الآية أنا خلقت أعمالكم فأفعلوها بأعيانها أنتم مرةً أخرى ولا يخفى فساده.

وتارةً أخرى بأنّه تعالى إنّما ذكر قوله: **خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** في معرض المدح والثناء على نفسه فلو دخل تحته أعمال العباد لخرج عن كونه مدحاً لأنّه لا يليق بشأنه تعالى أن يتمدح بخلق الزّنا واللواط والسّرقه والكفر.

**ثالثها:** أنّه تعالى قال بعد هذه الآية **قَدْ جَاءَكُمْ بِضَائِرُكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا** وهذا تصريح كون العبد مستقلاً بالفعل والترك وذلك يدل على أنّ فعل العبد غير مخلوق لله تعالى وهو المطلوب

ونحن نقول لا نحتاج في الجواب عن هذه الشبهة بهذه التكاليفات وذلك لأن قولهم أنّ أعمال العباد داخلة تحت قوله خالق كل شيء، بغير واسطة فهو كلام باطل وأن كان المراد من دخولها تحته دخولها بواسطة العبد فهو يكفي في الجواب وذلك لأنّ الجبر يلزم لو قلنا بأنّ الخالق أوجد القتل والزّنا والسّرقه وأمثالهما بمعنى أنّها فعل الله من غير واسطة بين الخالق والفعل وأمّا إذا قلنا أنّه تعالى خلق العبد وجعله مختاراً في فعله كما هو المشاهد المحسوس فلا يلزم الجبر قطعاً وما نحن فيه من هذا القبيل ومجرد إيجاد الدّاعي إلى الفعل في العبد لا يكفي في إثبات المدعى وهو واضح.

**لَا تُذَرِّكُمُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُذَرِّكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** البصر يقال للجراحة النّاظرة وجمع البصر أبصار والإدراك بلوغ أقصى الشّيء يقال أدرك الصّبر إذا بلغ غاية الصّباة وذلك حين البلوغ وفي المقام أبحاث:

**الأول:** لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ قَالُوا فِي هَذِهِ آيَةٌ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَرَى بِالْأَبْصَارِ لِأَنَّهُ تَمْدَحُ بِنَفْيِ الْإِدْرَاكِ عَنْ نَفْسِهِ وَكَلَّمَا كَانَ نَفْيُهُ مَدْحًا فإِثْبَاتُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا نَقْصًا وَالتَّقْصُّ لَا يَلِيْقُ بِهِ تَعَالَى فَإِذَا ثَبِتَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِدْرَاكُهُ وَلَا رُؤْيَاهُ قَالَهُ فِي التَّبْيَانِ ثُمَّ قَالَ وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ تَحْتَاجُ إِلَى بَيَانِ أَشْيَاءٍ:

**أحدها:** أَنَّهُ تَمْدَحُ بِالْآيَةِ.

**الثاني:** أَنَّ الْإِدْرَاكَ هُوَ الرُّؤْيَا.

**الثالث:** أَنَّ كَلَّمَا كَانَ نَفْيُهُ مَدْحًا لَا يَكُونُ إِثْبَاتُهُ إِلَّا نَقْصًا، وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى تَمْدَحِهِ شَيْئَانِ:

أحدهما: إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ فَأَنَّهُ لَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي أَنَّهُ تَعَالَى تَمْدَحُ بِهِذِهِ الْآيَةِ فَقَوْلُنَا تَمْدَحُ بِنَفْيِ الْإِدْرَاكِ عَنْ نَفْسِهِ لَا إِسْتِحْلَاحَ عَلَيْهِ.

وَقَالَ الْمُخَالَفُ تَمْدَحُ لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَنَعِ الْأَبْصَارِ مِنْ رُؤْيَاهُ فَالْإِجْمَاعُ حَاصِلٌ عَلَى أَنَّ فِيهِ مَدْحَةً.

**الثاني:** أَنَّ جَمِيعَ الْأَوْصَافِ الَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَعْدَهَا مَدْحَةٌ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَخَلَّلَ ذَلِكَ مَا لَيْسَ بِمَدْحَةٍ إِلَى آخِرِ مَا قَالَ.

وَنَحْنُ نَقُولُ إِنْ عَلِمْنَا أَنَّ هَذَا الْمَوْضُوعَ أَغْنَى بِهِ تَحَقُّقُ الْإِدْرَاكِ بِالْبَصَرِ وَعَدَمُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ تَعَالَى مِنَ الْأَبْحَاثِ الْمَشْكَلَةِ الَّتِي هِيَ مَعْرَكَةُ الْأَرْأَاءِ بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ فَالْعَامَّةُ تَقُولُ بِجَوَازِ الرُّؤْيَا وَالشَّيْبَعَةُ تَقُولُ بِعَدَمِ الْجَوَازِ تَبَعًا لِأَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مُضَافًا إِلَى أَنَّ الْعَقْلَ أَيْضًا لَا يُسَاعِدُهَا وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ فِي الْمَقَامِ إِجْمَالًا.

**فنقول** لَا شَكَّ أَنَّ الْإِدْرَاكَ يُفِيدُ الرُّؤْيَا لِأَنَّ أَهْلَ اللُّغَةِ لَا يَفْرَقُونَ بَيْنَ قَوْلِ الْقَائِلِ أَدْرَكَتْ بِبَصَرِي شَخْصًا وَأَحْسَسْتُ بِبَصَرِي وَأَنَّهُ يُرَادُ بِذَلِكَ أَجْمَعَ الرُّؤْيَا فَلَوْ جَازَ الْخِلَافُ فِي الْإِدْرَاكِ لَجَازَ الْخِلَافُ فِيمَا عَدَاهُ مِنَ الْأَقْسَامِ.

ثُمَّ أَنَّ الْإِدْرَاكَ فِي اللُّغَةِ قَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى اللَّحُوقِ كَقَوْلِهِمْ أَدْرَكَتْ زَيْدًا عَمَرُوا، يَكُونُ بِمَعْنَى التَّضَيُّعِ كَقَوْلِهِمْ أَدْرَكَتِ الثَّمَرَةَ وَأَدْرَكَتِ الْقَدْرَ، وَأَدْرَكَ

الغلام اذا بلغ حال الرّجال و أيضاً اذا أضيف الإدراك الى واحدٍ من الحواس أفاد بأنّ تلك الحاسة آلة فيه ألا ترى أنّهم يقولون أدركت بأذني أي سمعته و أدركته بأنفي أي شمّمته و أدركته بعمي أي ذقته و أدركت ببصري أي رأيته اذا عرفت هذا فقد ثبت أنّ الإدراك يفيد الرّؤية فقوله تعالى: **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** معناه أنّه تعالى لا يرى بالبصر.

**فنقول الشّقوق المحتملة عقلاً في الرّؤية و عدمها أربعة:**

**أحدها:** جواز الرّؤية في الدّنيا فقط.

**ثانيها:** جوازها في الآخرة فقط.

**ثالثها:** جوازها في الدّنيا والآخرة معاً.

**رابعها:** عدم الجواز فيهما.

**أما الأوّل والثّالث:** فلا قائل بهما فيما نعلم إذ لم يدع أحد الرّؤية في الدّنيا فيهما معاً، وإذا إنتفى القسمان بقى في المقام قسمان آخران و هما جواز الرّؤية و إمكانها في الآخرة و عدم الجواز فيهما.

فالبحث في المقام يدور مدار هذين القسمين أعني بهما الجواز في الآخرة و عدم الجواز مطلقاً و هذا أعني عدم الجواز مطلقاً هو الحقّ الحقيقي بالإتّباع عقلاً و نقلاً و عليه إجماع الإمامية بحيث لم يخالف فيه أحد كما أنّ القول بجواز الرّؤية في الآخرة هو مذهب العامة قاطبة.

إذا عرفت هذا فأعلم أنّ الحقّ ما ذهب اليه الإمامية من القول بعدم الجواز و إستدلوا عليه بالأدلة الأربعة أعني بها الكتاب و السّنة و الإجماع و العقل. **أما الكتاب** فقوله تعالى: **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** و هو نصّ في المدعى لأنّ الإدراك يفيد الرّؤية كما مرّ و عليه فقوله لا تدركه الأبصار معناه لا تراه العيون أو لا يراه شيء من الأبصار في شيء من الأحوال و الدّليل على صحّة هذا العموم وجهان.

أحدهما: صحّة إستثناء جميع الأشخاص وجميع الأحوال عنه فيقال لا تدركه الأبصار إلاّ بصر فلان أو في الحالة الفلانية مثلاً وقد ثبت أنّ الإستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لوجب دخوله فثبت أنّ عموم هذه الآية يفيد عموم النفي عن كلّ الأشخاص في جميع الأحوال وذلك يدلّ على إستحالة الرؤية في جميع الأحوال وهو المطلوب.

ثانياً: أنّ ما قبل هذه الآية مشتمل على المدح والثناء وقوله بعد ذلك وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ أَيْضاً مدح وثناء فوجب أن يكون قوله: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ أَيْضاً مدحاً وثناء وإلّا لم يتخلّل ما ليس بمدح في خلال ما هو مدح وثناء ومن المعلوم أنّ ما كان عدمه مدحاً ولم يكن ذلك من باب الفعل كان ثبوته نقصاً في حقّه تعالى فثبوت الرؤية في حقّه نقص ومحال وهو المطلوب.

وأما قيّدناه بقولنا ولم يكن ذلك من باب الفعل، لأنّه تعالى تمدح بنفي الظلم عن نفسه:

قال الله تعالى: وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْغَيْبِ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ<sup>(٢)</sup>.

مع أنّه قادر على الظلم فذكر هذا القيد في الحقيقة دفع لهذا النقص هكذا قيل، وقد قرّر بعض المحققين إفادة العموم من الآية بما حاصله أنّ إدراك البصر عبارة شائعة في الإدراك بالبصر إسناداً للفعل إلى الألة والإدراك بالبصر هو الرؤية بمعنى إتحاد المفهومين أو تلازمهما والجمع المعروف بالأمّ عند عدم قرينة العهد والبعضية للعموم والإستغراق بإجماع أهل العربية والأصول وأئمة التفسير وبشهادة إستعمال الفصحاء وصحّة الإستثناء وإذا ثبت العموم في الآية ثبت عدم جواز الرؤية بالنسبة إلى الكلّ وفي جميع الأحوال المطلوب.

وإعترض عليه بأنّ اللّام في الجمع لو كان للعموم والإستغراق كما إدعيتُم كان قوله: لَا تُذَرِكُهُ الْأَبْصَارُ موجبة كليّة وقد دخل عليها النّفي فرفعها رفع الإيجاب الكلّي ورفع الإيجاب الكلّي سلبٌ جزئي ولو لم يكن للعموم كان قوله: لَا تُذَرِكُهُ الْأَبْصَارُ سالبة مهملة في قوّة الجزئية فكان المعنى لا تدركه بعض الأبصار.

ونحن نقول بموجه حيث لا يراه الكافرون ولو سلّم فلا نسلم عمومه في الأحوال والأوقات فيحمل على نفي الرّؤية في الدّنيا جمعاً بين الأدّلة. وأجيب عنه بأنّه قد تقرّر في موضعه أنّ الجمع المحلي باللّام عامّ نفيّاً وإثباتاً في المنّفي والمثبت:

قال الله تعالى: وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ<sup>(٢)</sup>.

حتّى أنّه لم يرد في سياق النّفي شيء من الكتاب الكريم إلا بمعنى عموم النّفي ولم يرد لنفي العموم أصلاً.

نعم قد اختلف في النّفي الدّاخل على لفظة، كلّ، لكنّه أيضاً في القرآن بالمعنى الذي ذكرناه كقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ<sup>(٣)</sup> وأما منع عموم الأحوال والأوقات فلا يخفى فساده فإنّ النّفي المطلق الغير المقيد لا وجه لتخصيصه ببعض الأوقات اذ لا ترجيح لبعضها على بعض وهو أحد الأدّلة على العموم عند علماء الأصول وأيضاً صحّة الإستثناء دليل عليه وهل يمنع أحد صحّة قولنا ما كلّمت زيداً إلا يوم الجمعة ولا أكلمه يوم العيد وقال تعالى ولا تعضلوهنّ الى قوله إلا أن يأتين وقال ولا تخرجوهنّ الى قوله إلا أن يأتين وأيضاً كلّ نفي ورد في القرآن بالنسبة الى ذاته تعالى فهو للتأبيد وعموم الأوقات ولا سيّما فيما قبل هذه الآية.

و أيضاً عدم إدراك الأبصار جميعاً لشيء لا يختص بشيء من الموجودات خصوصاً مع إعتبار شمول الأحوال والأوقات فلا يختص به تعالى فتعين أن يكون التمدح بعدم إدراك شيء من الأبصار له في شيء من الأوقات هذا تمام الكلام في لفظ الآية وأن الجمع المخلّى باللام يفيد عموم النفي عن كل الأشخاص وفي كل الأحوال وفي كل الأوقات بحسب نص الكتاب.

وأما السنة فالأخبار بعد الجواز كثيرة من طريق أهل البيت بل كاد أن يكون عدم الجواز من ضروريات المذهب.

ما رواه في البحار بأسناده عن إسماعيل بن الفضل قال سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن الله تبارك وتعالى هل يرى في المعاد فقال عليه السلام سبحانه الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً يابن الفضل إن الأبصار لا تدرك إلا ما له لون وكتفية والله خالق الألوان والكتفية.

ما رواه أيضاً بأسناده عن إبراهيم الكرخي قال قلت للصادق جعفر بن محمد عليه السلام أن رجلاً رأى ربه عز وجل في منامه فما يكون ذلك فقال عليه السلام ذلك رجل لا دين له أن الله تبارك وتعالى لا يرى في اليقظة ولا في المنام ولا في الدنيا ولا في الآخرة.

ما رواه أهل السير أن رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال يا أمير المؤمنين أخبرني عن الله أرايته حين عبّده فقال عليه السلام له، لم أكن أعبد رباً لم أره فقال الرجل كيف رأيته يا أمير المؤمنين فقل له ويحك لم تره العيون بمشاهدة الأعيان ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان معروف بالدلالات منوعة بالعلامات لا يقاس بالناس ولا يدرك بالحواس فانصرف الرجل يقول الله أعلم حيث يجعل رسالته.

ما رواه بأسناده عن رجل دخل على أبي عبد الله عليه السلام قال أَرَأَيْتَ اللَّهَ حِينَ عَبَدْتَهُ قَالَ عليه السلام لَهُ مَا كُنْتُ أَعْبُدُ رَبًّا لَمْ أَرَهُ قَالَ وَكَيْفَ رَأَيْتَهُ قَالَ لَمْ تَرَهُ الْأَبْصَارُ بِمُشَاهَدَةِ الْعَيَانِ وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ لَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ مَعْرُوفٌ بِغَيْرِ تَشْبِيهِ.

ما رواه عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام فِي قَوْلِهِ: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ قَالَ عليه السلام إِحَاطَةُ الْوَهْمِ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ لَيْسَ بِبَصَرِ الْعَيُونِ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ لَيْسَ يَعْنِي مِنَ الْبَصَرِ بَعِينَهُ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا لَيْسَ يَعْنِي عَمِيَ الْعَيُونُ أَنَا مَا عَنِي إِحَاطَةُ الْوَهْمِ كَمَا يَقَالُ فُلَانٌ بِصِيرٍ بِالشَّعْرِ وَفُلَانٌ بِصِيرٍ بِالْفَقْهِ وَفُلَانٌ بِصِيرٍ بِالْدَّرَاهِمِ وَفُلَانٌ بِصِيرٍ بِالثِّيَابِ اللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُرَى بِالْعَيْنِ.

ما رواه عن أحمد بن إسحاق قال كَتَبْتُ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ أَسْأَلُهُ عَنِ الرَّؤْيَةِ وَمَا فِيهِ الْخَلْقُ فَكَتَبَ عليه السلام لَا تَجُوزُ الرَّؤْيَةُ مَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الرَّائِي وَالْمَرْتِي هَوَاءٌ يَنْفِذُهُ الْبَصَرُ فَمَتَى يَنْقَطِعِ الْهَوَاءُ وَغُدْمُ الضِّيَاءِ لَمْ تَصَحِّ الرَّؤْيَةُ وَفِي وَجوبِ إِتِّصَالِ الضِّيَاءِ بَيْنَ الرَّائِي وَالْمَرْتِي وَجوبِ الْإِشْتِبَاهِ وَتَعَالَى اللَّهُ مِنَ الْإِشْتِبَاهِ فَتَبَّتْ أَنَّهُ لَا تَجُوزُ عَلَيْهِ الرَّؤْيَةُ بِالْأَبْصَارِ لِأَنَّ الْأَسْبَابَ لَا بَدَلَ لَهَا مِنْ إِتِّصَالِهَا بِالْمَسَبِّبَاتِ، وَالْأَخْبَارُ كَثِيرَةٌ <sup>(١)</sup>.

أَمَّا الْإِجْمَاعُ فَهُوَ مِمَّا لَا كَلَامَ لَنَا فِيهِ لِكَوْنِهِ مِنَ الْمَسَلَمَاتِ عِنْدَ الْإِمَامِيَّةِ وَلَا نَعْرِفُ فِي الشَّيْعَةِ مُخَالَفًا لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

أَمَّا الْعَقْلُ فَلَأَنَّ الْأَبْصَارَ عَلَى قَوْلِ الطَّبِيعِيِّينَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِانْطِبَاعِ شَيْخِ الْمَرْتِي فِي جِزءٍ مِنَ الرِّطُوبَةِ الْجَلِيدَةِ الَّتِي يَشْبَهُ الْبَرْدَ وَالْجَمْدَ فَأَتَتْهَا مِثْلُ مَرَأَةٍ فَإِذَا قَابَلَهَا مِثْلُونَ مَضَى انْطَبَعَ مِثْلُ صُورَتِهِ فِيهَا كَمَا يَنْطَبِعُ صُورَةُ الْإِنْسَانِ فِي الْمَرَأَةِ وَ



من المعلوم أنَّ الأبصار بهذا المعنى في المقام محال ولا يذهب اليه عاقلٌ و ذلك لأنَّه ليس لله تعالى جسم فلا يكون هناك شبح كما أنَّه لا صورة له تعالى حتَّى ينطبع تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وأما عند الرياضيين فهو يتحقق بخروج شعاع من العين على هيئة مخروطٍ رأسه عند العين وقاعدته عند المرئي، وهذا أيضاً محال في حقِّه تعالى لأنَّزله عن الوضع والجهة.

أما عند الأشراقيين فهو يتحقق بمقابلة المستنير للعضو الباصر الَّذي فيه رطوبة فيقع عند ذلك للنفس علم أشراقي حضوري على المبصر فيدركه النفس مشاهدة ظاهرة جليّة، أيضاً لا يمكن القول به في المقام.

**أما أولاً:** فلأنَّ مقابلة المستنير للعضو الباصر لا يعقل إلّا في الأجسام ذوي الأوضاع والجهات.

**ثانياً:** إشراق العلم على المبصر يوجب إحاطة العلم به فيكون المبصر محاطاً وكلّ محاطٍ محدودٌ وكلّ محدودٌ ممكنٌ والله تعالى منزّه عن هذه النقائص فهذه الأقوال في الأبصار كلّها غير معقول فثبت أنَّه لا تدركه الأبصار ولا فرق في ذلك بين الدُّنيا والآخرة والمؤمن والكافر وبالجملة حكم العقل لا إستثناء فيه ولتفصيل البحث في أمثال هذه المسائل مقام آخر وحيث إنَّجر الكلام إلى هنا وأشرنا إلى قول التّأفين للرؤية وما احتجّوا به في إثبات مدّ عاهم من الكتاب والسنة والإجماع والعقل لا بدّ لنا من ذكر أدلّة المثبتين للرؤية ولو في الآخرة وهم جمهور أهل السنة سوى المعتزلة.

وأما الأشاعرة فأنَّهم يقولون بالرؤية كغيرهم من أهل السنة، والعجب أن الإمام الرّازي وهو من رؤوس الأشاعرة إستدل على جواز الرؤية بهذه الآية و هي قوله: **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** قال في تفسيره لها ما هذا لفظه.

احتج أصحابنا بهذه الآية على أنَّه تعالى تجوز رؤيته والمؤمنين يرونه يوم القيامة من وجوه:

**الأول:** في تقرير هذا المطلوب أن نقول هذه الآية تدل على أنه تعالى تجوز رؤيته وإذا ثبت هذا وجب القطع بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة.  
**أما المقام الأول:** فتقريره أنه تعالى بقوله: **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** وذلك مما يساعد الخصم عليه بنوا استدلالهم في إثبات مذهبهم في نفى الرؤية وإذا ثبت هذا فنقول:

لو لم يكن تعالى جائر الرؤية لما حصل التمدح بقوله: **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** ألا ترى أن المعدوم رؤيته لا تصح رؤيته والعلم والقدرة والإرادة والزواجر والطعوم لا يصح رؤية شيء منها ولا مدح شيء منها في كونها لا تصح رؤيتها فثبت أن قوله: **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** يفيد المدح و ثبت أن ذلك يفيد المدح لو كان صحيح الرؤية وهذا يدل على أن قوله: **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** يفيد كونه تعالى جائر الرؤية و تمام التحقيق فيه أن الشيء إذا كان في نفسه بحيث يمتنع رؤيته فحنديذ لا يلزم من عدم رؤيته مدح و تعظيم للشيء أما إذا كان في نفسه جائر الرؤية ثم أنه قدر على حجب الأبصار عن رؤيته وعن إدراكه كانت هذه القدرة الكاملة دالة على المدح والعظمة فثبت أن هذه الآية دالة على أنه تعالى جائر الرؤية بحسب ذاته.

و إذا ثبت هذا وجب القطع بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة انتهى موضع الحاجة من كلامه.

**أقول** ما ذكره الرّازي ليس بشئ بل نقول هذه الكلمات منه ومن أمثاله ممن يدعي الفضل بعيدة جداً وذلك لأن مدار استدلاله على أن ذلك يفيد المدح لو كان صحيح الرؤية فاذا لم يكن صحيح الرؤية لا مدح في قوله: **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**.

ولقائل أن يقول أي دليل دلّ على ذلك ومجرد الإدعاء لا يكفي في إثبات المطلوب ألا ترى أن الله تعالى ليس بجسم ولا شك أن هذا أي عدم الجسميّة كمال و مدح له تعالى مع أن كونه تعالى جسماً لا يجوز لأن كل جسم مركّب

من أجزاء و محتاج اليها وكل محتاج ممكن فيلزم أن يكون الواجب ممكنًا غيره من الصفات السلبية من التركيب والرؤية والمحل وأمثالها فأن هذه السلوب سلبها عن الذات مدح وكمال مع أن إثباتها له تعالى ممتنع و محال.

فالقول بأنه لو لم يكن تعالى جائر الرؤية لما حصل التمدح لانفهم معناه و الذي أوقع الرّازي في الخطب هو أنه لم يفرق بين الخالق و المخلوق في السلوب و أنها في الخالق تفيد المدح لأن ثبوتها له تعالى ممتنع و محال. وأما في الخلق فالأمر ليس كذلك فاذا قلنا ليس زيداً بخیلاً أو كاذباً أو خائناً فلا شك أن نفي هذه الصفات المذمومة عنه مدح له لكن ليس معناه أن إتصافه بها محال بل معناه أن زيداً قد يكون بخیلاً أو كاذباً وهكذا ومحصل الكلام هو أن البخل مثلاً مذموم فعدمه مدح وهكذا الخيانة والكذب والسرقة وغيرها من قبائح الصفات وجودها في الشخص مذموم و عديمها مدح و كمال فهذا في حق المخلوق ممّا لا كلام فيه ولهذا أمرنا بتركها.

و أما الخالق فليس كذلك لإمتناع إتصافه بها عقلاً لأنها من النقائص و هو تعالى منزّه عنها بحسب ذاته فكل صفة سلبت عنه تعالى معناه أنه تعالى لا يجوز أن يتصف بها.

وأما في حقنا فمعناه جواز الإتصاف بها عقلاً، والعجب أنه أي الرّازي قال في آخر استدلاله، وهذا استدلال لطيف من هذه الآية فتأمل في المقام فأنه من مزال الأقدام و حيث إنجر البحث الى هنا فلا بد لنا من نقل سائر أدلته و الجواب عنها لأن الموضوع من أهم الاعتقادات قال الرّازي.

الوجه الثاني: أن نقول المراد بالأبصار في قوله: لا تدركه الأبصار ليس هو نفس الأبصار فأن البصر لا يدرك شيئاً البتة في موضع من المواضع بل المدرك هو المبصر فوجب القطع بأن المراد من قوله: لا تدركه الأبصار هو أنه لا يدركه المبصرون وإذا كان كذلك كان قوله: وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ.

المراد منه هو يدرك المبصرين الى أن قال فقوله: **هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ** يقتضي كونه تعالى مبصراً لنفسه وإذا كان كذلك كان تعالى جائر الرؤية في ذاته وكان تعالى يرى نفسه وكل من قال أنه جائر الرؤية في نفسه قال أن المؤمنين يرونه يوم القيامة فصارت هذه الآية دالة على أنه جائر الرؤية انتهى كلامه.

**والجواب** عنه هو أن الأبصار في حقّه تعالى غير الأبصار في غيره وذلك لأن الأبصار في غيره لا يكون إلا بحاسة العين وأما فيه تعالى فهو بمعنى أنه عالم بالمبصرات و عليه فمعنى كونه تعالى مبصراً لنفسه أنه عالم بذاته لا أنه يرى نفسه بالألة نعوذ بالله منه وإذا كان كذلك فقول الرّازي **هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ** يقتضي كونه مبصراً لنفسه وإذا كان كذلك كان تعالى جائر الرؤية في ذاته (كلام لا طائل تحته لأن معنى أنه يدرك الأبصار أنه عالم بها ومعنى كونه مبصراً لنفسه أنه عالم بها ولا يستفاد من ذلك أنه جائر الرؤية في ذاته لعدم وجود الملازمة بين العلم بالمبصرات وبين جواز الرؤية في ذاته وهو ظاهر لا خفاء فيه قال.

**الوجه الثالث:** في الإستدلال بالآية أن لفظ **الأبصار** صيغة جمع دخل عليها الألف واللام فهي تفيد الإستغراق فقوله لا تدركه الأبصار يفيد أنه لا يراه جميع الأبصار فهذا يفيد سلب العموم ولا يفيد عموم السلب إذا عرفت هذا فنقول تخصيص هذا السلب بالمجموع يدل على ثبوت الحكم في بعض أفراد المجموع ألا ترى أن الرجل إذا قال أن زيداً ما ضربه كل الناس فإنه يفيد أنه ضربه بعضهم فإذا قيل أن محمداً ﷺ ما أمن به كل الناس أفاد أنه أمن به بعض الناس وكذا قوله: **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** معناه أنه لا تدركه جميع الأبصار فوجب أن يفيد أنه تدركه بعض الأبصار انتهى.

**والجواب** أن ما ذكره الرّازي هو خلاف مفاد الإستغراق لأن الإستغراق عبارة عن الشمول فإذا قلنا لا تدركه الأبصار معناه لا تدركه كل الأبصار أي كل واحد منها وهذا المعنى ينافي رؤية بعضها والأمثلة التي ذكرها من قوله ما ضربه كل الناس.

وقوله ما آمن به كلّ النَّاس، خارجة عن موضع البحث اذ لم يقل الله تعالى لا تدركه كلّ الأبصار بل قال: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ والفرق بينهما واضح على المحقق البصير لأنّ قولنا ما آمن به كلّ النَّاس مثلاً يدلّ على سلب الإيمان عن الكلّ من حيث هو كلّ وهو لا ينافي ثبوته للبعض وهذا بخلاف قولنا ما آمن به النَّاس لأنّ الحكم ثبت لكلّ واحدٍ من أحاد النَّاس أو أنّه ثبت للجنس النَّاس الشّامل للكلّ والبعض وما نحن فيه من هذا القبيل.

نعم لو قال لا تدركه كلّ الأبصار كان لقول الرّازي وجهٌ ولم يقل به فما ذكره الرّازي بالمغالطة أشبه وليس من الإستدلال بشيء هذا كلّهُ لو قلنا بأنّ الألف واللام للإستغراق كما هو أحد الأقوال في المسألة.

وأما أن قلنا بأنّ اللّام للجنس كما هو الحقّ أيضاً فالأمر أوضح لأنّ المعنى أنّ جنس البصر لا يدركه.

قال الرّازي الوجه الرابع: في التمسك بهذه الآية ما نقل أنّ ضرار بن عمرو الكوفي كان يقول أنّ الله تعالى لا يرى بالعين و أنّما يرى بحاسةٍ سادسةٍ يخلقها الله تعالى يوم القيامة و احتجّ عليه بهذه الآية فقال دلّت الآية على تخصيص نفي إدراك الله بالبصر وتخصيص الحكم بالشّيء يدلّ على أنّ الحال في غيره بخلافه فوجب أن يكون ادراك الله بغير البصر جائز في الحمله ولما ثبت أنّ سائر الحواس الموجودة الآن لا تصلح لذلك ثبت أن يقال أنّه تعالى يخلق يوم القيامة حاسةً سادسةً بها تحصل رؤية الله.

ثمّ قال الرّازي فهذه وجوه أربعة مستنبطة من هذه الآية يمكن التّعويل عليها في إثبات أنّ المؤمنين يرون الله في القيامة انتهى.

أقول ما ذكره الرّازي في هذا الوجه لا يليق بشانه لأنّه بكلام المجانين أشبه.

أما أولاً: فلأنّ البحث في جواز الرؤية و عدمه وإذا ثبت عدم الجواز عقلاً و شرعاً فلا فرق بين الحواس.

ثانياً: أَنَّ هذا القائل من أين علم أَنَّ الله يخلق يوم القيامة كذا وكذا وهل يجوز للمسلم أن يفسر القرآن هكذا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. وأما قوله تعالى وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ فالمعنى أَنَّهُ تعالى عالمٌ بالمبصرات لأن الإدراك في حَقِّه تعالى لا يكون بسبب الآلة أو المعنى أَنَّهُ تعالى عالمٌ بالأبصار لأنَّه خالقها وأما قوله: وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ قيل معناه أَنَّهُ اللطيف لعباده بسبوغ الأنعام غير أَنَّهُ عدل من وزن، فاعل، الـ في فعل، للمبالغة. وقيل معناه أَنَّهُ لطيف التدبير وحذف لدلالة الكلام عليه.

أقول قد يعبر باللطافة واللطف عن الحركة الحفيفة وعن تعاطي الأمور الدقيقة يعبر باللطائف عما لا تدركه الحواس إذا عرفت هذا فنقول: يصح أن يكون وصف الله تعالى به على الوجه الأخير بقرينة قوله قبل ذلك، لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وذلك لأنَّ ما لا تدركه الأبصار، فهو لطيف قهراً فقوله اللطيف الخبير في الحقيقة بمنزلة العلة لعدم الإدراك بحاسة البصر فكأنَّه قيل ولم لا تدركه الأبصار وهو موجود، قيل لأنَّه لطيف واللطيف لا يدرك بحاسة البصر ولأجل هذه الدقيقة أتى به بعد قوله: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ووجه آخر: وهو أَنَّ الله لطيف خبير لمعرفته بدقائق الأمور.

ووجه ثالث: وهو أن يكون لرفقه بالعباد في هدايتهم: قال الله تعالى: إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ<sup>(١)</sup>. قال الله تعالى: اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا<sup>(٣)</sup>.

والخبير، بفتح الخاء أيضاً للمبالغة وهو مأخوذ من الخبرة بضم الخاء المعرفة بيوطن الأمر:

قال الله تعالى: **وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ** <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: **وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ** <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: **وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌۢ** <sup>(٣)</sup>.

والآيات كثيرة والمعنى في الكل هو أنه تعالى عالم بأعمالكم أو أنه عالم ببواطن أموركم.

وقيل خبير بمعنى، مخبر ومنه:

قال الله تعالى: **فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** <sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: **قَدْ نَبَّأْنَا ٱللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ** <sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: **قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِى ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ** <sup>(٦)</sup>.

هذا تمام الكلام حول هذه الآية مع مراعاة الاختصار والإفلاحيث فيها مجال واسع والله أعلم.

**قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍۭ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ�ْ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍۭ**

البصائر جمع بصيرة وهى الدلالة التى توجب العلم الذى يبصر به نفس الشئ على ما هو به، قالوا المراد بها هاهنا القرآن الذى فيه الحجج والبراهين، وفى الآية مسائل:

**الأولى:** أن البصيرة إسم للإدراك التام الكامل الحاصل في القلب قال تعالى:

**بَلِ ٱلْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ�ْ بَصِيرَةٌ** <sup>(٧)</sup> أى له من نفسه معرفة تامة، كما أن البصر يقال للإدراك بحاسة العين التى في الرأس.

فبإلقاء القرآن في تفسير

القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

١- الأنعام = ١٨

٢- يونس = ٢٣

٣- التحريم = ٣

١- آل عمران = ١٥٣

٢- المجادلة = ١١

٣- التوبة = ٩٤

٤- القيامة = ١٤

**الثانية:** قالوا أراد بقوله: **قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ** الآيات المتقدمة و قيل المراد بها كل القرآن وعلى التقديرين يكون المراد أن هذه الآيات توجب البصيرة بمعنى أنها أسباب للوصول إليها بعد إمعان النظر فيها والحق أن المراد بالبصائر في الآية هو كلما يوجب البصيرة ولا فرق فيه بين الآيات القرآنية والآيات التكوينية التي يعتبر بها المعبر بسبب العقل وذلك لأن جميع الآيات من مواهب الله تعالى وفي رأسها العقل.

**الثالثة:** أنه تعالى قال هذا الكلام بعد قوله: **لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** وفيه نكتته خفية وهي أنه تعالى لو لم يدركه بحاسة البصر بمعنى أنه لا يرى بها لكنه يرى برؤية القلب بالأثار الدالة عليه وهذه الرؤية القلبية أفضل وأشرف من رؤية البصر لأن البصر قد يخطئ والبصيرة لا تخطئ على أن الرؤية بالبصر تلزم منها محالات كما مر بخلاف الرؤية بالقلب من قبل الأثار الدالة عليه فأنها مطلوبة لكل عارف وكمال له.

والى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين في جواب القائل كيف رأيته، لم تره العيون بمشاهدة الأعيان ولكن رأيته القلوب بحقائق الإيمان معروف بالدلالات منعوت بالعلامات لا يقاس بالناس ولا يدرك بالحواس فإنصرف الرجل وهو يقول الله أعلم حيث يجعل رسالته.

**الزابعة:** أن يكون الغرض منها البصيرة في أمر الدين أي **قَدْ جَاءَكُمْ** ما يوجب بصيرتكم في دينكم وديناكم من ربكم فإختار لأنفسكم ما ينفعكم في الدارين وإحتنبوا مما يضرركم فيهما فلا تكونوا همج الرعاء أتباع كل ناعق تميلون مع كل ريع لا تستضيئون بنور الهدى والمعرفة وإعلموا أن من أبصر فلنفسه أي نفعه يعود اليه في الدارين ومن عمي فعليها أي ضره يعود على نفسه ولا تزر وازرة وزر أخرى، وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها وأما أنا منذر ولكل قوم هاد والله هو الحفيظ عليكم ففي الآية دلالة صريحة على أن العبد مختار في فعله وإتفق المفسرون على أن



المراد بكلمة أنا، هو الرسول ﷺ أَيْ قَالَ الرَّسُولُ لَهُؤَلَاءِ الْمَكْلَفِينَ، مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ.

و عليه فالله تعالى هو الذي أمر الرسول بأن يقول لهم ذلك و ظاهر الآية لا يدل على هذا التقدير اللهم إلا أن يقال أن الآية كلها حكاية عن قول الرسول أي أن الرسول قال لهم قد جاءكم بصائر من ربكم الخ والله تعالى أعلم بمراده.

وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

قرأ ابن كثير وأبو عمرو دارست بألف وفتح التاء وقرأ ابن عامر درست بسكون التاء وفتح السين بمعنى المحت وهو المشهور و عليه المصاحف، درست بفتح التاء على وزن فعلت، وقرأ في الشّواذ، درست، على ما لم يسم فاعله والمعاني متقاربة وفي قراءة عبد الله درس بدون التاء أي ليقولوا درس محمد، وأصل الدرس استمرار التلاوة وقال الراغب في المفردات درس الدار معناه بقي أثرها وبقاء الأثر يقتضي إنمحاءه في نفسه فلذلك فسر الدروس بالإنمحاء وكذا درس الكتاب و درست العلم تناولت أثره بالحفظ ولما كان تناول ذلك بمداومة القراءة عبّر عن إدامة القراءة بالدّرس إذا عرفت هذا فنقول:

اختلفوا في معنى الآية فقال بعضهم معنى قوله: دَرَسْتَ أي درست الآيات يا محمد في الكتب القديمة ما تحيثنا به واللام في قوله: وَلِيَقُولُوا وَلِنُبَيِّنَهُ هي لام، كي وقيل لام الصّيرة والمعنى، وليقول من كفر، ولنبيّن لمن علم وأمن وتتعلّق الأمان بمحذوف تقديره ليكون كذا ويكون كذا، صرّفنا الآيات. وقال الآخرون يحمل الإنبات في المقام على التّفي والتّقدير وكذلك نصرّف الآيات لثلاثاً يقولوا دَرَسْتَ، ونظيره قوله تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا<sup>(١)</sup> ومعناه، لثلاثاً تضلّوا، وبعضهم حمل هذا اللام على لام العقابة و

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

المعنى أن عاقبة أمرهم عند تصريفنا هذه الآيات أن يقولوا هذا القول كما قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا** <sup>(١)</sup> و من المعلوم أنهم لم يلتقطوه لذلك لكن كان عاقبة الأمر كذلك ففي المقام أيضاً لم يفصل الآيات ليقولوا، **دَارَسْتَ وَدَرَسْتَ**، لكن لما قالوا ذلك أطلق ذلك عليهم إتساعاً، وموضع الكاف في، وكذلك، نصب، لأن المعنى نصّرف الآيات في غيره هذه السورة مثل التصريف في هذه السورة فهو في موضع صفة لمصدر كأنه قال تصريفاً مثل هذا التصريف.

والتصريف هو إجراء المعنى الدائر في المعاني المتعاقبة ليجتمع فيه وجوه الفائدة ومحصل الكلام في الآية أنهم قالوا الرسول الله صلّى الله عليه وآله أن ما جئتنا به و قلت أنه كلام الله ليس كذلك بل هو كلام إستفدته من مدارس العلماء فقال تعالى في جوابهم ما قال.



اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ  
 أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا  
 أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ  
 عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ  
 مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ  
 زَيَّتُمْ لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ  
 فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ  
 جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنَبْلِغَنَّ لَهُمْ آيَةً يُؤْمِنُونَ بِهَا قُلُوبُ  
 إِنَّمَا آيَاتُ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا  
 جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ  
 أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ  
 فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)

### ◀ اللغة

أَوْحَى أصل الوحي الإشارة السريعة ولتضمن السرعة قيل أمرٌ وحيٌّ و  
 ذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض وقد يكون بصوتٍ مجردٍ عن  
 التركيب وبإشارةٍ ببعض الجوارح وبالكتابة.  
 وَلَا تَسُبُّوا، السَّبُّ بفتح السين الشُّتم الوجيع و سَبَّهم لله معناه ذكره تعالى  
 بما لا يليق به.

عَدُوًّا بفتح العين مخفَّفًا ومُشَدَّدًا لغتان يقال عدا فلان على فلان أي ظلمه  
 والإعتداء إفتعال من، عدا.  
 جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ، الجَهْد بفتح الجيم وسكون الهاء والدَّال الإجتهد، و  
 الأيمان بفتح الألف جمع اليمين بمعنى القسم.

في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

أَفَنِدَّهْتُمْ واحداً فؤاداً بمعنى القلب.  
وَنَذَرُهُمْ أي نتركهم.

### ◀ الإعراب

مِنْ رَبِّكَ متعلق بأوحي أو حال من الضمير المرفوع في أوحي أو حال من،  
مَا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ حال من رَبِّكَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ المفعول محذوف أي ولو شاء  
الله أيماهم مِنْ دُونِ اللَّهِ حال من، ما، أو من العائد عليها فَيَسُبُّوا منصوب  
على جواب التثني وقيل هو مجزوم على العطف عَدَوْا مصدر وفي إنتصابه  
ثلاثة أوجه:

أحدها: هو مفعول له.

الثاني: هو مصدر من غير لفظ الفعل.

الثالث: هو مصدر في موضع الحال وهو واحد في معنى الجمع أي أعداء  
(بغير علم) حال أيضاً مؤكدة.

كَذَلِكَ في موضع نصب صفة لمصدر محذوف وَمَا يَشْعُرُكُمْ ما، إستفهام  
في موضع رفع بالابتداء ويشعركم، الخبر وهو يتعدى الى مفعولين والمفعول  
الثاني محذوف تقديره وما يشعركم أيماهم كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا ما، مصدرية و  
الكاف نعت لمصدر محذوف أي تقليباً ككفرهم أَوَّلَ مَرَّةٍ ظرف زمان.

### ◀ التفسير

أَتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

أمر الله تعالى باتباعه الوحي والإتياع هو أن يتعرف الثاني بتصريف  
الأول والنبي كان يتصرف في الدين بتصريف الوحي فذلك كان متبعاً وفي  
هذا الكلام إشعار بأن النبي لا يقول من عند نفسه بل يقول من عند الله بسبب  
الوحي اليه ويدل على ذلك:

قال الله تعالى: وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَ مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ <sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَ أَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ <sup>(٣)</sup>.

قال الله تعالى: كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ  
الْحَكِيمُ <sup>(٤)</sup>.

و الآيات الواردة في الباب كثيرة جداً.

وقوله: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قيل معناه أدهم اليه فعلى هذا ليس بتكرار.

و قال بعضهم معناه إتبع ما أوحى اليك من أنه لا إله هو.

أقول ومن المحتمل أن يكون قوله: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ تفسير للرب فكأنه قيل و من ربك الذي أوحى اليك فقال ربي الذي لا إله إلا هو و ذلك لأن لفظ الرب يطلق على غيره تعالى أيضاً فلو لم يفسر لكان مجملاً وَ أَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ أي و أعرض عنهم فيما يعتقده من الإشراك بربهم و قال ابن عباس نسخ ذلك بقوله: فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ <sup>(٥)</sup>.

و أصل الإعراض هو الإنصراف بالوجه الى جهة العرض والعرض خلاف الطول والمقصود من هذا الكلام هو تقوية قلبه ﷺ وإزالة الحزن الذي حصل بسبب سماع تلك الشبهة ولذلك أردف كلامه بقوله: وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا أي ولو شاء الله أن يكونوا على غير الشرك قسراً وجبراً، ما أشركوا فمتعلق المشيئة محذوف.

و أتما لا يشاء الله هذه الحال لأنها تنافي التكليف و أتما لم يمنع العاصي من المعصية لأنه أتما أتى بها من عند نفسه و حيث أن الله تعالى فعل به جميع ما فعل بالمطيع من إزاحة العلة فإذا لم يطع و عصى كانت الحجة عليه.

بإاء الفرقان في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

٢- الأحقاف = ٩

٤- الشورى = ٣

١- النجم = ٣/٤

٣- الأحزاب = ٢

٥- التوبة = ٦

قال الرّازي في المقام وأعلم أنّ أصحابنا تمسّكوا بقوله تعالى: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا والمعنى ولو شاء الله أن لا يشركوا ما أشركوا وحيث لم يحصل الجزاء علمنا أنّه لم يحصل الشرط فعلمنا أنّ مشيئة الله تعالى بعدم إشراكهم غير حاصلة انتهى كلامه.

وقالت المعتزلة ثبت بالدليل أنّه تعالى أراد من الكلّ الإيمان وما شاء من أحد الكفر والشرك وهذه الآية تقتضي أنّه تعالى ما شاء من الكلّ الإيمان فوجب الجمع بين الدليلين فيحمل مشيئة الله تعالى لإيمانهم على مشيئة الإيمان أي الاختياري الموجب للثواب والثناء ويحمل عدم مشيئته لإيمانهم على الإيمان الحاصل بالقهر والجبر والإلجاء يعني أنّه تعالى ما شاء منهم أن يحملهم على الإيمان على سبيل القهر والإلجاء لأنّ ذلك يبطل التكاليف و يخرج الإنسان عن إستحقاق الثواب انتهى.

قال الرّازي بعد نقله ما نقلناه عنهم وهو في غاية الضعف ويدل عليه وجوه.

**الأول:** لا شك أنّه تعالى هو الذي أقدر الكافر على الكفر فقدرة الكفر أن لم تصلح للإيمان فخالق تلك القدرة لا شك أنّه كان مريداً للكفر وأن كانت صالحة للإيمان لم يترجح جانب الكفر على جانب الإيمان إلا عند حصول داع يدعو إلى الإيمان وإلا لزم رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح وهو محال ومجموع القدرة مع الداعي إلى الكفر يوجب الكفر كان خالق القدرة والداعي هو الله وثبت أنّ مجموعها يوجب الكفر فثبت أنّه تعالى قد أراد الكفر من الكافر.

**الثاني:** أنّه تعالى كان عالماً بعدم الإيمان من الكافر وجود الإيمان مع العلم بعدم الإيمان متضادان ومع وجود أحد الضدين كان حصول الضد الثاني محالاً والمحال مع العلم بكونه محالاً غير مراد فإمتنع أن يقال أنّه تعالى يريد الإيمان من الكافر.

**الثالث:** هب أن الإيمان الإختياري أفضل وأنفع من الإيمان الحاصل بالجبر والقهر إلا أنه تعالى لما علم أن ذلك الأنفع لا يحصل ألبتة فقد كان يجب في حكمته ورحمته أن يخلق فيه الإيمان على سبيل الإلجاء لأن هذا الإيمان وأن كان لا يوجب الثواب العظيم فأقل ما فيه أنه يخلصه من العقاب العظيم فترك إيجاد هذا الإيمان فيه على سبيل الإلجاء يوجب وقوعه في أشد العذاب وذلك لا يليق بالرحمة والإحسان انتهى.

**أقول** والجواب عن الأول هو أنه تعالى كما أقدره على الكفر أقدره على الإيمان فالقدرة تتعلق بهما على حد سواء وإذا كان كذلك فخالق القدرة في الكفر والإيمان هو الله تعالى فقول الرّازي لا شك أنه مريد للكفر لا دليل عليه إذ المفروض أنه تعالى خلق القدرة فيه وهي تتعلق بهما معاً فلم قال أنه تعالى مريد للكفر ولم يقل أنه مريد للإيمان فإن زعم أنه مريد للكفر من حيث أنه تعالى أقدر العبد عليه فلو لم يكن مريداً له لم يقدره عليه.

نقول له أنه تعالى لم يقدره على الكفر فقط بل أقدره على الكفر كما أقدره على الإيمان فلم يرد الإيمان منه.

وأما قوله وأن كانت صالحة للإيمان ولم تُرجح جانب الكفر على جانب الإيمان إلا عند حصول داع يدعو إلى الإيمان وإلّا لزم رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح وهو محال.

فالجواب أن القدرة صالحة للإيمان كما أنها صالحة للكفر وعليه فترجيح الكفر على الإيمان أو بالعكس بإختيار العبد وأما الداعي الذي يدعو إلى الكفر أو الإيمان وأن كان مخلوقاً له تعالى كما أن القدرة مخلوقة له إلا أنه تعالى خلق فيه العقل أيضاً لتشخيص المصلحة في جميع الأفعال، الصادرة من العبد وهذا هو الفارق بين الإنسان والحيوان فأما الداعي إلى الفعل والقدرة عليه موجودان في الحيوان أيضاً إلا أن الحيوان لا عقل له ليختار الأصلح والإنسان عاقل فينبغي أن يختار ما هو أنفع وأصلح بحاله ومحصل

الكلام هو أنَّ الإختيار واسطة بين الدَّاعي والقدرة في العبد ولا يكون كذلك في الحيوان والعجب من الرَّاَزي في إستدلّاله على مدَّعاه بأنَّ الله تعالى خلق الدَّاعي في العبد فلو لم يرد الكفر منه لم يخلقه فيه.

ألم يعلم أنَّ الله تعالى خلق الإنسان الذي يختار الكفر على الإيمان فلو لم يرد الكفر لم يخلقه أصلاً، وأي فرق بين إيجاد الكافر وبين إيجاد الدَّاعي إلى الكفر فيه فعلى قوله يكون خلق الكافر للكفر.

**والجواب عن الثَّاني،** أنَّه تعالى كان عالماً بعدم الإيمان من الكافر، وقول الرَّاَزي وجود الإيمان مع العلم بعدم الإيمان متضادان، كلام لا يليق بمقام الرَّاَزي وذلك لأنَّه ثبت في العلوم العقليَّة أنَّ العلم الأزلي لا يكون علَّة لوجود الفعل بل العلَّة فيه هو قدرة العبد في إيجاد فمعنى العلم في المقام هو أنَّه تعالى كان عالماً بعدم الإيمان من الكافر بسوء سريره وخبث طينته وإختياره لا أنَّ علمه بعدم الإيمان صار علَّة له فعدم إختيار الإيمان بإختياره هو معلوم الله تعالى.

وأما قوله والمحال مع العلم بكونه محالاً غير مراد، فطريف جداً وذلك لأنَّ وجود الإيمان لو كان محالاً بالنسبة إلى الكافر فمعناه أنَّه لا يقدر على الإيمان وهو خلاف الفرض اذ المفروض أنَّه قادر على الإيمان كما أنَّه قادر على الكفر فكيف يقال أنَّ وجود الإيمان في حق الكافر محال ومع ذلك صار مأموراً به في لسان التَّشريع وما الدليل على هذه الإستحالة.

فقوله: (فإمتنع أن يقال أنَّه تعالى يريد الإيمان من الكافر) عاطل باطل عقلاً ونقلاً.

**أما العقل** فلا أنَّ الإرادة منه تعالى في المقام تشريعية لا تكوينيَّة، وتخلَّف الإرادة عن المراد في التَّشريعات لا بأس به نعم هذا في التَّكوينيات محال فكأنَّه لم يفرق بين المقامين.



أَمَّا نَفَلًا فَلَا تَهْتِكُ أَسْمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى بِعَثِّ الْأَنْبِيَاءِ وَجَعَلَ الْأَدِيَانَ وَالتَّكَالِيفَ لِلْإِنْسَانِ فَلَوْ كَانَ مَا ذَكَرَهُ حَقًّا يُلْزَمُ مِنْهُ تَخْصِيفُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَدِيَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ فَقَطْ وَعَدَمُ كَوْنِ الْكَفَّارِ مُخَاطَبِينَ بِالْخُطَابَاتِ الشَّرْعِيَّةِ وَمَأْمُورِينَ بِمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَرِيدُ الْإِيمَانَ مِنْهُمْ بِقَوْلِ الرَّازِي وَهَذَا بِكَلَامِ الْمَجَانِينِ أَشْبَهَ.

وَالْجَوَابُ عَنِ الثَّلَاثِ هُوَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَهْرِ وَالْجَبْرِ لَا نَفْعَ فِيهِ أَصْلًا لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ فَلَا مَعْنَى لِقَوْلِهِ أَنَّ الْإِيمَانَ الْإِخْتِيَارِي أَفْضَلُ مِنْهُ وَأَيُّ نَفْعٍ وَفَضِيلَةٍ فِي الْإِيمَانِ الْقَهْرِيِّ حَتَّى يُقَالَ أَنَّ الْإِخْتِيَارِي أَفْضَلُ مِنْهُ أَلَا تَرَى أَنَّ طُلُقَ الْمَكْرِهِ وَبَيْعِهِ وَشِرَاءِهِ وَجَمِيعِ أَعْمَالِهِ مُحْكُومٌ مُرَدُّودٌ فِي الشَّرْعِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ وَلَمْ يَتَرْتَبِ الشَّارِعُ عَلَى فِعْلِ الْمَجْبُورِ أَثَرٌ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكَيْفَ يُقَالَ أَنَّ الْإِيمَانَ الْقَهْرِيَّ وَالْجَبْرِيَّ مُرَادٌ لِلشَّارِعِ أَلَيْسَ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ لَمْ سَلَبِ اللَّهُ تَعَالَى الْإِيمَانَ الْإِخْتِيَارِي عَنِ الْعَبْدِ وَأَعْطَاهُ الْإِيمَانَ الْقَهْرِيَّ وَالْإِضْطِرَّارِيَّ وَ الْمَفْرُوضُ أَنَّ الْإِخْتِيَارِي أَفْضَلُ أَلَيْسَ هَذَا ظُلْمًا فِي حَقِّ الْعَبْدِ فَإِنْ كَانَ الْكَفَرُ بِيَدِ اللَّهِ وَإِرَادَتُهُ فِي الْعَبْدِ فَلْيَكُنِ الْإِيمَانُ أَيْضًا كَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَيْهِمَا فَمَا وَجْهُ إِرَادَةِ الْكَفَرِ دُونَ الْإِيمَانِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ أَنَّ أَقَلَّ مَا فِيهِ أَنَّهُ يَخْلُصُهُ مِنَ الْعِقَابِ الْعَظِيمِ، فَفِيهِ أَنَّ الْخُلَاصَ مِنَ الْعِقَابِ لَا يَعْقِلُ فِي الْإِيمَانِ الْإِضْطِرَّارِيَّ وَالْجَبْرِيَّ أَصْلًا كَمَا أَنَّ الْوَصُولَ إِلَى الثَّوَابِ أَيْضًا كَذَلِكَ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ تَمَثِيلُهُ الْمَقَامَ بِمَنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ عَزِيزٌ وَكَانَ الْأَبُ فِي غَايَةِ الشَّفَقَةِ وَكَانَ الْوَلَدُ وَاقِفًا عَلَى طَرَفِ الْبَحْرِ فَيَقُولُ الْوَالِدُ لَوْلَدِهِ غَضٌّ فِي قَعْرِ هَذَا الْبَحْرِ لَتَسْتَخْرِجَ الثَّلَاثِي الْعَظِيمَةَ الرَّفِيعَةَ الْعَالِيَةَ مِنْهُ وَعَلِمَ الْوَالِدُ أَنَّهُ إِذَا غَاصَ فِي الْبَحْرِ هَلَكَ وَغَرِقَ فَهَذَا الْأَبُ أَنْ كَانَ مُشَفِّقًا عَلَيْهِ وَجِبَ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنَ الْغُوصِ فِي قَعْرِ الْبَحْرِ إِلَى آخِرِ مَا قَالَ.

وَجْهُ التَّعَجُّبِ أَنَّ الْقِيَاسَ أَيْ قِيَاسَ الْمَقَامِ بِمَا ذَكَرَهُ قِيَاسَ مَعَ الْفَارَقِ وَذَلِكَ لِأَنَّ تَعَالَى خَلَقْنَا ثُمَّ جَعَلْنَا فِي بَحْرِ الْإِخْتِيَارِ بِإِفَاضَةِ الْعَقْلِ وَقَدَرْنَا عَلَى إِيجَادِ الْفِعْلِ وَتَرْكِهِ.

ثم أمرنا ونهانا بواسطة الأنبياء المبعوثين، وهذا بخلاف الأب والولد في المثال الذي ذكره لأن الأب إذا كان عالماً بأن الولد إذا غاص في البحر هلك و غرق ذلك أمره بالغوص فيه فهو أي الأب قد أهلك الولد في الحقيقة فلو كان الولد أيضاً عالماً بالهلاك و الغرق يحرم عليه إطاعة أبيه و هو عاص و أن كان غير عالم به فالذنب على أبيه، و أما فيما نحن فيه فأمر الله تعالى أقدر العبد على إختيار الكفر و الإيمان ثم نهاه عن أحدهما و أمره بالآخر و هو يدل على كمال شفقه فأين هذا من ذاك و لنختم الكلام في هذا الباب لأن للبحث فيه مقام آخر و الحمد لله الذي نور قلوبنا بمعرفته بحق محمد وآله.

وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ففیه بحثان.

الأول: قوله وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا معناه ما جعلناك على هؤلاء رقيباً على أعمالهم حتى تجازيهم بها بل أنا الرقيب المجازي بها.

الثاني: وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ أي لست عليهم بحفيظ تحفظهم من أن يزلوا بمنعك أيهم بل الله تعالى هو الحفيظ الوكيل عليهم في جميع شئونهم لأن شأن الخالق حفظ خلقه و إنما النبي مبلغ منذر:

قال الله تعالى: إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ أَلْوَاكُلُ الْفَقَّارُ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا<sup>(٣)</sup> والامر واضح.

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

السَّبِّ بفتح السين الشَّتْم الوجيع.

قال ابن عباس، لما نزل: **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ** <sup>(١)</sup> قال المشركون لأن لم تنته عن سب آلهتنا و شتمنا لنهجون إلهك فنزلت الآية.

**أقول** لو كان سبب نزول الآية ما نقل عنه فلم نهى المسلمين عن السبِّ و المفروض أن الله تعالى هو الذي أنزل **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** فإن كان هذا الكلام سباً لهم ولآلهتهم و هو قول الله فلم منع المسلمين عنه.

وقال الحسن كان سبب نزولها أن المسلمين كانوا يسبون آلهة المشركين من الأوثان فإذا سبوا يسب المشركون الله تعالى فأنزل الله الآية و قال أبو جهل و الله يا محمد لتتركوا سب آلهتنا أو لنسب إلهك الذي بعثك فنزلت الآية.

قال بعض المفسرين فيه دلالة على أن المحق يلزمه الكف عن سب السفهاء الذين يسرعون إلى سبه مقابلة له لأنه بمنزلة البعث على المعصية و المفسدة فيها.

**أقول** ما ذكره الحسن في نزول الآية أيضاً لا يصح لأن الله تعالى نهاهم عن سب المشركين لا عن سب آلهتهم ولو كان الأمر كما ذكره لقال ولا تسبوا آلهة الذين يدعون من دون الله و حيث لم يقل ذلك و قال: **وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** يظهر منه أنهم كانوا يسبون المشركين في عبادتهم الأوثان مثل قولهم لهم أنت كافر أو أنت مشرك و أمثال ذلك و أين هذا من سب الآلهة مضافاً إلى أن سب الآلهة لا معنى له و أي ذنب للآلهة، بل الذنب ثابت لمن إتخذها إلهاً و معبوداً، فالحق أن يقال أنهم كانوا يسبون المشركين و الكفار فنهاهم الله عنه.

وقال في التبيان المعنى في الآية، لا تخرجوا في مجادلتهم و دعاءهم إلى الإيمان و حاجتهم إلى أن تسبوا ما يعبدونه من دون الله فإن ذلك ليس من

في القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

الحجاج في شيء وهو أيضاً يدعوهم الى أن يعارضوكم ويسبوا الله بجهلهم وحميتهم.

فأنتم اليوم غير قادرين على معاقبتهم بما يستحقون وهم أيضاً لا يتقونكم لأن الدارهم ولم يؤذن لكم في القتال انتهى.

ونحن نقول ما ذكره الشيخ رحمته الله لا بأس بى وذلك لأن الله تعالى أمر نبيه أن يدعوهم الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يجادلهم بالتي هي أحسن فقال عز من قائل: **أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** <sup>(١)</sup> ومن المعلوم أن المجادلة بالتي هي أحسن غير السب والشتم وهو واضح لا خفاء فيه كيف والسب من القبائح العقلية قبل أن يكون من القبائح الشرعية مضافاً الى أن المقصود لا يحصل به ثم أن الظاهر من الآية أن الله تعالى نهى المسلمين عن سب المشركين لأجل شركهم لأنهم كانوا يسبونهم أحياناً.

وأما أنهم كانوا يسبون آلهتهم كما ذكره بعض المفسرين فالآية لا تدل عليه والدليل على ما ذكرناه هو أن قوله (الذين) مفعول الفعل ولا شك أن المقصود به المشركين وكيف كان فالله تعالى نهاهم عنه لقبحه أولاً وأنه يصير سبباً لسب المشركين ثانياً.

وقال الرّازي في المقام أن الكفار كانوا مقرّين بالله تعالى وكانوا يقولون أنما حسنت عبادة الأصنام لتصير شفعاء لهم عند الله وإذا كان كذلك فكيف يعقل إقدامهم على شتم الله تعالى وسبه انتهى.

أقول لا يظهر من الآية أنهم كانوا يشتمون الله ويسبونه بل الآية دالة على النهي عنهما فلا تحتاج الآية الى ما ذكره الرّازي من أن الصحابة متى شتموا الأصنام فهم أي المشركون كانوا يشتمون الرسول وشتمه شتم الله وغير ذلك من التأويلات الباردة التي ذكرها في المقام وبما ذكرناه يظهر فساد ما ذكره

أيضاً بقوله أَنَّ شتم الأصنام من أصول الطاعات فكيف يحسن من الله النهي عنه، وذلك لأنَّ شتم الأصنام كيف يكون من أصول الطاعات ولا دليل عليه عقلاً ونقلاً هذا أولاً.

ثانياً: أَنَّ النهي فيها قد تعلق بمن يعبد غير الله ولم يتعلّق بالأصنام كما هو الظاهر من الآية وأما قوله: عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ فأصل العدو من العدوان وعدوًّا وعدوًّا، مخفّفاً ومشدّداً لغتان ولذلك قرأ بهما والمعنى واحد.

كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قيل في معناه أربعة أقوال:

أحدها: ما ذهب إليه الحسن والجبائي والطبري والزمانى، إنا كما أمرناكم بحسن الدّعاء إلى الله وتزيين الحق في قلوب المدّعين كذلك زينا للأمم المتقدّمين أعمالهم التي أمرناهم بها ودعوناهم إليها بأن رغبتناهم في الثواب وحذّرناهم من العقاب.

الثاني: زينا الحجّة الدّاعية إليها والشبهة التي من كمال العقل أن يكون المكلف عليها لأنّه متى لم يفعل معنى الشبهة لم يكن عاقلاً.

الثالث: أنّ المراد بالتزيين هو ميل الطّبع إلى الشّيء فهو إلى الحسن ليفعل وإلى القبيح ليجتنب.

الرابع: ما ذكره البلخي أيضاً وهو أنّ المعنى أنّ الله زين لكل أمة عملهم من تعظيم من خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم والمحاماة عنه وعداوة من عاداه طاعة له فلما كان المشركون يظنون شركاءهم هم الذين يفعلون ذلك أو أنّهم يقربونهم إلى الله زلفى حاموا عنهم وتعصّبوا لهم وعارضوا من شتمهم بشتهم من تعز عليهم فهم لم يعدوا فيما صنعوا ما زينّه الله لهم لكن غلظوا فقصدوا بذلك من لم يجب أن يقصدوه فكفروا وضلّوا، ذكر هذه الوجوه في التّبيان. أقول وفي المقام احتمالات غير ما نقلناه عنه ذكرها بعض المفسّرين.

**الأول:** أن المراد زَيْنًا لكلِّ أُمَّةٍ من أمم الكفَّار سوء عملهم أي خليئانهم و شأنهم و أمهلناهم حتَّى حسن عندهم سوء عملهم.

**الثاني:** أن الشَّيْطَان زَيْنَ لهم أعمالهم

**الثالث:** زَيْنَاه في زعمهم و قولهم أن الله أمرنا بهذا وزَيْنَه لنا.

قال الرَّازي بعد نقله ما نقلناه، و الكلَّ ضعيف لأنَّ الدَّلِيل العقلي القاطع دَل على صَحَّة ما أشعر به ظاهر هذا النص.

ثمَّ فَصَّل الكلام و حمل الآية على مسلك الأشاعرة القائلين بالجبر و زعم أن صدور الفعل يتوقف على حصول الدَّاعي و الدَّاعي لا يكون إلَّا بخلق الله تعالى الى آخر ما قال في المقام و في غير المقام و قد مرَّ منا الكلام في جوابه غير مرَّة و قلنا أنَّ العقل حاكم على الدَّاعي فالأختيار ثابت للإنسان العاقل.

نعم ما ذكره صحيح في المجانين و الحيوانات، إذا عرفت هذا فنقول.

الزَّيْنَة على قسمين:

حقيقيَّة و غير حقيقيَّة.

فالزَّيْنَة الحقيقيَّة ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله لا في الدُّنيا و لا في الآخرة.

و غير الحقيقيَّة ما يزينه في حالةٍ دون حالةٍ.

قال الرَّاغِب في المفردات الزَّيْنَة بالقول المجمل ثلاث.

١ - نفسية كالعلم و الاعتقادات الحسنة.

٢ - و بدنية كالقوَّة و طول القامة.

٣ - و خارجية كالجمال و الجاه انتهى كلامه.

فقوله تعالى: **زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ** إشارة الى أن الأعمال الصادرة عن الإنسان قد تكون في نظره و اعتقاده جميلة حسنة و ذلك فإنَّ كلَّ حزب بما لديهم فرحون.

ثم أن المزمين لها تارة هو الله تعالى من حيث أنه أبدعها وأوجدها مزمينة و  
الى هذا المعنى أشار بقوله:

قال الله تعالى: حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ<sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ<sup>(٢)</sup>.

قال الله تعالى: وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ<sup>(٣)</sup>.

وأما أضاف الله الزينة في أمثال هذه الأمور الى نفسه لأنه أوجدها كذلك  
وأخرى يكون المزمين هو الشيطان و ذلك فيما كان الفعل في نفسه قبيحاً  
منكراً و اليه الإشارة بقوله:

قال الله تعالى: وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ<sup>(٤)</sup>.

قال الله تعالى: وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ  
أَلْيَوْمَ<sup>(٥)</sup>.

قال الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ<sup>(٦)</sup>.

أي خيلناهم وأنفسهم، و محصل الكلام في المقام هو أن التزيين تارة  
يكون بإيجاد الله أو إلهامه وأخرى يكون بسبب وسوسة الشيطان وفي قوله:  
ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ.

إشارة الى المعاد الثابت بالكتاب والسنة والإجماع والعقل وستتكملم فيه  
إن شاء الله في موضعه ولذلك أردفه بقوله: فَيَسْئَلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ في  
دار الدنيا فيجزون بأعمالهم إن خيراً فخييراً و أن شراً فشرأ كما هو مقتضى  
العدل والحكمة.

ضياء القرآن في تفسير القرآن

جزء ٧

المجلد السادس

١- الحجرات = ٦

٢- الأنعام = ٤٣

٣- النمل = ٤

٤- الحجرات = ٧

٥- الحجر = ١٦

٦- الأنفال = ٤٨

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا  
الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ

قيل في سبب نزول الآية أنه لما نزل قوله تعالى: **إِنْ فُتِنَا فَنُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ  
السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**<sup>(١)</sup> أقسم المشركون بالله لأن جاءتهم  
آية لِيُؤْمِنُوا بها، فنزلت هذه الآية.

وقال بعضهم أَنَّ المشركين قالوا للنبي ﷺ تخبرنا أَنَّ موسى ضرب الحجر  
بالعصا فَأَنْفَجَرَ الماء وَأَنَّ عيسى أَحْيَى المِيت وَأَنَّ صالحاً أَخْرَجَ النَّاقَةَ مِنْ  
الْجَبَلِ فَأَتَانَا أَيْضاً بِآيَةٍ لِنُصَدِّقَكَ فَقَالَ ﷺ مَا الَّذِي تَحْبُونَ فَقَالُوا أَنْ تَجْعَلَ لَنَا  
الصِّفَا ذَهَباً وَحَلْفُوا لَنْ نَفْعَلَ لِيَتَّبِعُونَهُ فَقَالَ ﷺ يَدْعُوا فَجَاءَهُ جَبْرِئِيلُ ﷺ فَقَالَ  
أَنْ شِئْتَ كَانَ ذَلِكَ وَلَنْ كَانَ فَلَمْ يَصْدُقُوا عَنْده لِيَعَذِّبَهُمْ وَأَنْ تَرَكُوا تَابَ عَلَى  
بَعْضِهِمْ فَقَالَ ﷺ بَلْ يَتُوبُ عَلَى بَعْضِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ وَقَوْلُهُ: **جَهْدَ  
أَيْمَانِهِمْ** فَقِيلَ فِي مَعْنَاهُ إِذَا حَلَفَ الرَّجُلُ بِاللَّهِ فَهُوَ جَهْدُ يَمِينِهِ  
وَقَالَ الرَّجَاجُ بِالْغَوَا فِي الْإِيمَانِ وَالْإِيمَانُ بِفَتْحِ الْأَلْفِ جَمْعُ يَمِينٍ وَهِيَ  
الْقِسْمُ.

والمعنى أَنَّ المشركين أقسموا بِاللَّهِ وبالْغَوَا فِيهِ لِأَنَّ جَاءَتْهُمْ الْآيَةُ الْمَطْلُوبَةُ  
لِيُؤْمِنُوا بِهَا فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ قُلْ لَهُمْ أَنَّ الْآيَاتِ عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ قَادِرٌ  
عَلَيْهَا وَمَا يُشْعِرُكُمْ.

قال أبو علي، ما، إستفهام وفاعل يُشْعِرُكُمْ ضمير ما والمعنى وما  
يُدرِيكم إيمانه فحذف المفعول والتقدير وما يدرِيكم إيمانهم أي بتقدير أن  
تجيبهم هذه الآيات فهو لا يُؤْمِنُونَ، ولا يجوز أن يكون، ما، نافية لِأَنَّ الفعل فيه  
يبقى بلا فاعل وقوله: **إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ** فمن كسر الألف في، إنها، قال  
بالإستثناف وعليه فقد تم الكلام عند قوله: **وَمَا يُشْعِرُكُمْ** أي وما يشعركم ما  
يكون منهم ثم ابتدأ فقال: **أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ**.



وَأَمَّا عَلَىٰ قِرَاءَةِ الْفَتْحِ كَمَا عَلَيْهَا الْمُصَاحِفُ فَقِيلَ، أَنَهَا، بِمَعْنَى لَعَلَّهَا، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ، أَنتَ السُّوقُ أَنْتَ تَشْتَرِي لَنَا شَيْئاً أَيْ لَعَلَّكَ وَقَالَ الْفَرَّاءُ (لَا) هَاهُنَا، صِلَةٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ<sup>(١)</sup>.

وَعَلَيْهِ فَالتَّقْدِيرُ وَمَا يَشْعُرُكُمْ أَنَهَا إِذَا جَاءَتْ يُؤْمِنُونَ، وَالْمَعْنَى عَلَىٰ هَذَا لَوْ جَاءَتْ لَمْ يُؤْمِنُوا وَالْقِرَاءَةُ الْأُولَىٰ هِيَ الْقِرَاءَةُ الْجَيِّدَةُ الْمَتَّبَعَةُ وَلَكِنَّ الثَّانِيَةَ أَشْهَرُ.

وَأَمَّا قَوْلُ الْفَرَّاءِ فَهُوَ نَادِرٌ لَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مَعَ أَنَّ الْأَصْلَ عَدَمُ الزِّيَادَةِ وَكَيْفَ كَانَ فِيهِ الْآيَةُ إِشْعَارُ بَأَنَّ الْمَعَانِدَ يَبْقَىٰ عَلَىٰ عَنَادِهِ وَلَوْ بَلَغَ مَا بَلَغَ، أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ.

وَتُقَلِّبُ أَفْنِدتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ يَظْهَرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يَقْلِبُ أَفْنِدتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ عَقُوبَةً لَهُمْ وَفِي كَيْفِيَّتِهِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ تَعَالَىٰ يَقْلِبُهَا فِي جَهَنَّمَ عَلَىٰ لَهَبِ النَّارِ وَحَرِّ الْجَمْرِ.  
الثَّانِي: أَنَّهُ يَقْلِبُهَا بِالْحَسْرَةِ الَّتِي تَضُمُّ وَتَرْجِعُ النَّفْسَ وَفِي قَوْلِهِ: كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَيْضاً قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَوَّلَ مَرَّةٍ أُنْزِلَتِ الْآيَاتُ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ثَانِي مَرَّةٍ بِمَا طَلَبُوا مِنَ الْآيَاتِ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ بِمَا أُنْزِلَ مِنْهَا.

الثَّانِي: يَعْنِي أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ لَوْ أُعِيدُوا ثَانِيَةً كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ<sup>(٢)</sup> وَقَالَ صَاحِبُ الْكَشَافِ قَوْلَهُ: وَتُقَلِّبُ أَفْنِدتَهُمْ الْخ.

عَطَفَ عَلَىٰ لَا يُؤْمِنُونَ دَاخِلَ فِي حَكْمِ مَا يُشْعِرُكُمْ وَالْمَعْنَى وَمَا يَشْعُرُكُمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَمَا يَشْعُرُكُمْ إِنَّا نَقْلِبُ أَفْنِدتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ، أَيْ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَأَبْصَارَهُمْ فَلَا يَفْقَهُونَ وَلَا يَبْصُرُونَ الْحَقَّ كَمَا كَانُوا عِنْدَ نَزُولِ

آيَاتِنَا أَوْلَىٰ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا لَكُمْ نَعْتَدُ عَذَابًا لِّمَنْ كَفَرَ بِهِمْ وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّا نَنْذَرُكُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ أَيُّ نَخْلِيهِمْ وَشَأْنُهُمْ لَا نَكَفَّهُمْ عَنِ الطُّغْيَانِ حَتَّىٰ يَعْمَهُوا فِيهِ انْتَهَىٰ كَلَامُهُ.

أقول قالت الأشاعرة أَنَّ الآية صريحة في الجبر و أَنَّ العبد لا إختيار له في الإيمان أو الكفر وغيرهما من الأعمال قال إمامهم الرّازي في تفسيره لها ما هذا لفظه.

قد بيّنا أَنَّ القدرة الأصليّة صالحة للّصّدين وللطّرفين على التّسوية فإذا لم ينضمّ الى تلك القدرة داعية مرّجحة إمتنع حصول الرّجحان و تلك الدّاعية ليست إلّا من الله تعالى قطعاً للتّسلسل انتهى كلامه.

والجواب عنه أَنَّ الدّاعية ليست من الله بل هي من العبد حصلت له بسبب إختياره الفعل أو التّرك و بعبارة أخرى الدّاعية توجد بعد الإختيار لا قبله، سلّمنا أنّها قبل الإختيار لكنّ القول بأنّها علّة تامّة لحصول الفعل في الخارج هو أَوَّل الكلام و مجرد كونها مخلوقة له تعالى لا يوجب سلب الإختيار عن العبد و قد مرّ الكلام فيه غير مرّة.

أَن قُلْتَ فَمَا مَعْنَى الْأَيَّةِ، نقول معنى الآية أَنَّ الله تعالى يسلب عنهم التّوفيق و يخلّيهم و شأنهم فتقلب الأفئدة و الأبصار كناية عن إعراض الحقّ عنهم بسبب كفرهم و معصيتهم و خبث طبيعتهم و عنادهم و حيث أَنَّ إعراض الحقّ عن العبد و تركه بحاله يكون سبباً لتقلب الأفئدة و الأبصار لا محالة أضاف الله التّقلب الى نفسه و يدلّ على ما ذكرناه قوله في آخر الآية، وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ لِأَنَّ الطُّغْيَانَ هُوَ التَّجَاوُزُ عَنِ الْحَدِّ الْمُسَبَّبِ عَنِ الْعِنَادِ وَ اللَّجَاجِ وَ عَدَمُ قَبُولِ الْحَقِّ كَانَ كَذَلِكَ لَا يَشْمَلُهُ التّوْفِيقُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَ يَسْلُطُ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مَا يَشَاءُ وَ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِتَقْلِيبِ الْقَلْبِ أَعَادَاثُ اللَّهِ مِنْهُ. وَ أَمَّا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الرّازي وَ أمثاله فلا يساعده العقل و لا يوافق المذهب و قد قال الصّادق عليه السّلام لا جبر و لا تفويض بل أمرّ بين الأمرين.

نعم ورد في الآثار، يا مقلب القلوب ويا محوّل الحول والأحوال،  
و عن النبي ﷺ أنّه قال قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرّحمن يقلّبه  
كيف يشاء وأمثال ذلك من الإشارة، إلّا أنّها على فرض صحتّها تحمل على ما  
ذكرناه من إعطاء التّوفيق وعدمه لا على ظاهرها ضرورة أنّ الله تعالى منزّه عن  
الظلم والإتصاف بلوازم الجسم ولتفصيل الكلام في هذه المباحث مقام آخر،  
والله تعالى ليس بظلامٍ للعبيد.

هذا آخر الكلام في هذا الجزء من القرآن وهو الجز السابع و يتلوه الجزء  
الثامن انشاء الله تعالى.



## الفهرست

سورة النساء	٩
الآيات ١٤٨ الى ١٥٢	٩
اللغة	٩
الإعراب	٩
التفسير	١٠
الآيات ١٥٣ الى ١٥٨	١٦
اللغة	١٦
الإعراب	١٧
التفسير	١٨
الآيات ١٥٩ الى ١٦٢	٣٢
اللغة	٣٢
الإعراب	٣٣
التفسير	٣٤
الآيات ١٦٣ الى ١٦٦	٤٣
اللغة	٤٣
الإعراب	٤٣
التفسير	٤٤
الآيات ١٦٧ الى ١٧٢	٥٧
اللغة	٥٧

٥٨	الإعراب
٥٨	التفسير
٧٢	الآيات ١٧٣ الى ١٧٦
٧٢	اللغة
٧٣	الإعراب
٧٣	التفسير



## سورة المائدة ..... ٨٥

٨٥	الآيات ١ الى ٣
٨٦	اللغة
٨٧	الإعراب
٨٨	التفسير
١١٩	الآيات ٤ و ٥
١١٩	اللغة
١٢٠	الإعراب
١٢٠	التفسير
١٣٦	الآية ٦
١٣٦	اللغة
١٣٦	الإعراب
١٣٧	التفسير
١٦٢	الآيات ٧ الى ١١
١٦٢	اللغة
١٦٣	الإعراب
١٦٣	التفسير

١٦٨	الآيات ١٢ و ١٣
١٦٨	اللغة
١٦٩	الإعراب
١٦٩	التفسير
١٧٦	الآيات ١٤ الى ١٩
١٧٧	اللغة
١٧٧	الإعراب
١٧٨	التفسير
١٨٧	الآيات ٢٠ الى ٢٦
١٨٧	اللغة
١٨٨	الإعراب
١٨٨	التفسير
١٩٧	الآيات ٢٧ الى ٣٢
١٩٧	اللغة
١٩٨	الإعراب
١٩٨	التفسير
٢١٢	الآيات ٣٣ الى ٤٠
٢١٣	اللغة
٢١٣	الإعراب
٢١٤	التفسير
٢٣٥	الآيات ٤١ الى ٤٥
٢٣٦	اللغة
٢٣٦	الإعراب
٢٣٧	التفسير
٢٤٨	الآيات ٤٦ الى ٥٠
٢٤٨	اللغة

٢٤٩	الإعراب
٢٥٠	التفسير
٢٦١	الآيات ٥١ الى ٥٤
٢٦١	اللغة
٢٦٢	الإعراب
٢٦٢	التفسير
٢٧٤	الآيات ٥٥ الى ٦٦
٢٧٥	اللغة
٢٧٦	الإعراب
٢٧٧	التفسير
٣١٠	الآيات ٦٧ الى ٧١
٣١٠	اللغة
٣١١	الإعراب
٣١١	التفسير
٣٤٦	الآيات ٧٢ الى ٨٢
٣٤٧	اللغة
٣٤٨	الإعراب
٣٤٩	التفسير
٣٧١	الآيات ٨٣ الى ٨٨
٣٧١	اللغة
٣٧٢	الإعراب
٣٧٣	التفسير
٣٨١	الآيات ٨٩ الى ٩٢
٣٨١	اللغة
٣٨٢	الإعراب
٣٨٢	التفسير

٣٩٩	الآيات ٩٣ الى ١٠٠
٤٠٠	اللغة
٤٠٠	الإعراب
٤٠١	التفسير
٤١٧	الآيات ١٠١ الى ١٠٥
٤١٧	اللغة
٤١٨	الاعراب
٤١٨	التفسير
٤٢٥	الآيات ١٠٦ الى ١٠٩
٤٢٥	اللغة
٤٢٦	الإعراب
٤٢٧	التفسير
٤٣٨	الآيات ١١٠ الى ١٢٠
٤٣٩	اللغة
٤٤٠	الأعراب
٤٤١	التفسير



## سورة الأنعام..... ٣٦١

٤٦١	الآيات ١ الى ٥
٤٦١	اللغة
٤٦٢	الإعراب
٤٦١	التفسير
٤٧٥	الآيات ٦ الى ١١
٤٧٥	اللغة



الإعراب	٤٧٦
التفسير	٤٧٦
الآيات ١٢ الى ٢٠	٤٨٠
اللغة	٤٨١
الإعراب	٤٨١
التفسير	٤٨٢
الآيات ٢١ الى ٣١	٥٠٦
اللغة	٥٠٧
الإعراب	٥٠٧
التفسير	٥٠٨
الآيات ٣٢ الى ٣٧	٥٢٥
اللغة	٥٢٥
الإعراب	٥٢٦
التفسير	٥٢٦
الآيات ٣٨ الى ٤١	٥٥٠
اللغة	٥٥٠
الإعراب	٥٥٠
التفسير	٥٥١
الآيات ٤٢ الى ٤٧	٥٧٢
اللغة	٥٧٢
الإعراب	٥٧٣
التفسير	٥٧٣
الآيات ٤٨ الى ٥٣	٥٨٤
اللغة	٥٨٤
الإعراب	٥٨٥
التفسير	٥٨٥

٥٩ الى ٥٤ الآيات	٦٠٣
اللغة	٦٠٣
الإعراب	٦٠٤
التفسير	٦٠٤
٦٥ الى ٦٠ الآيات	٦١٤
اللغة	٦١٤
الإعراب	٦١٥
التفسير	٦١٥
٧٠ الى ٦٦ الآيات	٦٣٠
اللغة	٦٣٠
الإعراب	٦٣١
التفسير	٦٣١
٧١ الى ٧٣ الآيات	٦٤٠
اللغة	٦٤٠
الإعراب	٦٤٠
التفسير	٦٤١
٧٤ الى ٧٩ الآيات	٦٥٢
اللغة	٦٥٢
الإعراب	٦٥٣
التفسير	٦٥٣
٨٠ الى ٨٣ الآيات	٦٧٥
اللغة	٦٧٥
الإعراب	٦٧٥
التفسير	٦٧٧
٨٤ الى ٩٠ الآيات	٦٨٣
اللغة	٦٨٣

الإعراب .....	٦٨٤
التفسير .....	٦٨٤
الآيات ٩١ الى ٩٤ .....	٦٩٠
اللغة .....	٦٩١
الإعراب .....	٦٩١
التفسير .....	٦٩٣
الآيات ٩٥ الى ١٠٥ .....	٧٠٨
اللغة .....	٧٠٩
الإعراب .....	٧١٠
التفسير .....	٧١١
الآيات ١٠٦ الى ١١٠ .....	٧٤٨
اللغة .....	٧٤٨
الإعراب .....	٧٤٩
التفسير .....	٧٤٩

